لطائف المنن والأخلاق

في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

المعروف بـ:

«المنن الوسطى»

تأليف

الإمام العارف الرباني

أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

(٨٩٨-٩٧٣هـ)

يطبع محققاً على سبع نسخ خطية

حققه

معاذ عبد الرحمن الهواش

دار التقوى

دمشق الشام

لطائف المنن والأخلاق

في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

المعروف بـ:

«المنن الوسطى»

تأليف

الإمام العارف الرباني

أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

(٨٩٨-٩٧٣هـ)

يطبع محققاً على سبع نسخ خطية

حققه

معاذ عبد الرحمن الهواش

دار التقوى

دمشق الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : المنن الوسطى

المؤلف : عبد الوهاب الشعراني

الطبعة الأولى : ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

الرقم الدولي : 978-9933-610-33-3

9789933610333

دار التقوى

دمشق الشام

هاتف : ٢٢١٥٤٦٤ ١١ ٩٦٣+ / ص . ب : ٣٠٧٢١

جوال : ٩٣٣٢٠٦٠٠٧ ٩٦٣+ / ٩٤١٩٤٤٣٨٧ ٩٦٣+

daraltaqwa.pu@gmail.com

بين يدي الكتاب

اللهم ، يا ذا المَنِّ فلا يُمنُّ عليك ، يا ذا الجلالِ والإكرام ، يا ذا الطَّوْلِ والإنعام ، لك الحمدُ على ما مَنَنْتَ به علينا ببعثةِ حبيبِك ومصطفاك ، الذي لولاه ما خلقت الأفلاك ، صَلِّ يا منَّانُ عليه وعلى آلِهِ وصحبه وسَلِّمْ تسليماً ، واجعلْ صلاتَك وسلامَك عليه لنا نجاةً يومَ لا ينفعُ حميمٌ حميماً

وبعد :

فالمؤمنُ هو المستظلُّ برُواقِ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل :٥٣] ، والمستبشرُ بفضلِ الله ، الشاكرُ لأنْعُمِهِ فاجتباهُ وهداه ، فما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزىٰ ، إلا ابتغاء وجهِ ربه الأعلىٰ ، فعملُهُ لسيِّده ومولاه ، وأجرُهُ بعد ذلك على الله

وممَّن ارتوىٰ قلبُهُ من معاني مِنَنِ الله التي لا تعدُّ ولا تُحصى الإمامُ عبد الوهَّاب الشعرانيُّ ، الذي كان له من اسمه أكبرُ نصيب ؛ إذ لم تزل هباتُ المولىٰ عليه تترىٰ ، فلا يرفعُ رأسه من نعمة إلا وجدَ نفسه في أخرىٰ ، فهو يتقلَّبُ فيها ليلَهُ ونهارَهُ راغباً راهباً ، وبقيَ علىٰ هـٰذه الحال إلىٰ أن توفَّاه الله مشتاقاً آيباً ، تاركاً وراءَهُ حديثَ فضْلِ الله عليه ، ليهديَ به من شاء الله اجتباءَهُ إليه ، فكانَ من خيرِ من عملَ بقول سيده ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] ؛ إذ خلَّفَ لنا بعد نضيرِ حياته المباركة صحائفَ بيضاءَ فيها

الحديثُ عن مَنٍّ مَنْ لا يُكافأُ امتنانُهُ ، ولا يُجازىٰ إحسانُهُ ، مُولي النِّعم ومُبيدِ النِّقم ، جلَّ جلالُهُ وعزَّ سلطانه

وممَّا مَنَّ الله به علينا أنْ جعلَ فينا علماءَ أبراراً ، لقلوبِهم شفقةُ الأمَّهات علىٰ أبنائها ، ورثوا رحمةَ النبيِّ بأمَّته ، بل كانوا هم من جملةِ رحمته

وإذا رحمْـتَ فـأنـتَ أمٌّ أو أبٌ هـٰذانِ في الدنيا هما الرحماءُ

فطابَ لأقلامهم خطُّ سطورٍ من حديثِ الفضل والمنَّة ؛ عملاً بأنوار الكتاب والسنَّة ؛ فحدَّثوا بما أمرَ الله ، مستعينين بالله ، راجينَ منه تعالى القَبول ، واسترضاءَ قلبِ الرسول صلى الله عليه وسلم

ولحديثِ مِنَّةِ الله علىٰ عباده عند المؤمنِ لذَّةٌ لا تشاكلُها لذَّة ؛ إذ أجمع أهلُ العلم كلُّهم : علىٰ أن المَنَّ من الله محمودٌ ؛ لأنه تفضُّلٌ ، وأن المَنَّ من العباد مذمومٌ ؛ لأنهم يعدِّدُون نعمَهم ، فيرى المؤمنُ في مِنَّةِ الله عليه تحبُّباً ، ورعايةً ورأفة ، ويرىٰ أن مولاهُ يذكِّرُهُ بنعَمِهِ ليذكرَهُ بها ، لا لمحضِ الذكرىٰ ، ويرىٰ أنه المُكرَمُ المقرَّبُ بعطاءاتِ الملك المقتدر ، ويرىٰ أنه وعاءٌ قدسيٌّ لتنزُّلاته التي لا تنقطع ، فيتيهُ بذكر نِعَمه ، ويستعيدُ حديثَ فضله ومنَّةِ وجوده وكرمه ، لا يجدُ لذلك سآمة أو ملالاً ؛ لأنه علمَ أن الذكرىٰ تنفع المؤمنين ، وتستطيبُها قلوبُ المحبِّين .

قرأ الإمامُ الشعراني قولَ الجليل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحزاب ٩] ، فقام وقال : لبيك ربي وسعديك ، والخيرُ كلُّهُ بين يديك ، أنت مَننْتَ عليَّ بكلِّ صلاح وهداية ورشاد ، وبكلِّ ما أبقىٰ عليَّ

إيماني وبدني عاملاً بإحسان ، أنت الحنَّان المنَّان ، ذو الرأفة والجود والإحسان ، فلك الحمدُ أن نوَّرت بذلك جَناني ، وأطلقتَ بذلك لساني ، فالعبدُ في قبضة حكمِكَ بين غيِّهِ ورشاده ، فلئنِ اهتديتُ فليسَ لي بذلك فضلٌ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم : ١١] .

وإنما أراد بـ « المنن » التي كتبَها ؛ « كُبراها » و« وسطاها » : تعريفَ العبد بأن صالحَ عمله هبةٌ من جناب الوهَّاب ، ومِنَّةٌ منه عليه يرىٰ ثوابَها إن أحسنَ يومَ الحساب ، وحاشاه أن يريدَ بذلك المَنَّ على الله ؛ ولله درُّ القشيريِّ إذ قال : (من لاحظَ شيئاً من أعماله وأحواله ؛ فإن رآها من نفسه كان شِركاً ، وإن رآها لنفسه كان مكراً ، فكيف يمنُّ العبدُ بما هو شركٌ أو بما هو مكر ؟! والذي يجبُ عليه قَبول المنَّة كيف يرىٰ لنفسه علىٰ غيره منَّة ؟! هٰذا لعَمري فضيحة ! بل المنَّة لله ؛ فهو وليُّ النعمة

ولا تكون المنَّةُ منَّةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله ، فأمَّا إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي مِحْنةٌ لصاحبها لا منَّة ، والمنَّةُ تكدِّرُ الصنيع إذا كانت من المخلوقين ، ولٰكن بالمنَّة تطيبُ النعمة إذا كانت من قبل الله)(١)

وإنما كانت « الكمأةُ مِنَ المَنِّ » لأنها ممَّا مَنَّ الله بهِ علىٰ عباده من غير تَعبِ الزرع والحصاد ، وكذلك العملُ منه تعالىٰ ليس للعبدِ فيه مدخلٌ في الإيجاد .

وكان للشيخ الشعرانيِّ ملحظٌ نبيلٌ في الحديث عمَّا خلعَ المولىٰ عليه من

---

(١) انظر « لطائف الإشارات » (٣/ ٤٤٥)

جليل نعمه ، في عصرٍ غلبَتْ عليه نوازعُ الكسل والخمول ، وفشَتْ فيه معالمُ الشرِّ والمكر ، وتعالمَ فيه الجَهَلةُ ، وتعالىٰ فيه أهلُ الضَّعة والخسَّة ، وتزهَّدَ فيه أهلُ البطون بخشنِ الثياب ؛ يُلبِّسون بذلك علىٰ من حَسُنَ ظنُّهُ بالظواهر ، وعلى الله حسابُ السرائر ، وتقاصرَتْ فيه خُطا العلماء بحُجَّة غياب أهل الكمال ، فادَّعوا أن الفضائلَ ماتَتْ فليس لها قيامةٌ إلىٰ يوم القيامة ، وأن لله في ذاك شأنٌ يختمُ به ذلك الزمان .

فاستخارَ المولىٰ بعدَ إذنِ الشريعة ؛ بأن يبرزَ ما طواه مولاه فيه من الأخلاق الرفيعة ؛ ليكونَ الحديثُ عنها منارةَ هداية ، وحثّاً للكُسالىٰ ليجدُّوا في غَذِّ السير في طريق الولاية ، فأخرجَ من عباداتِهِ ما كان مختبئاً في خزائن السرِّ إلى العلن لا ليباهي ، و﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

وبعدَ نشرةِ « المنن الكبرىٰ » رأَتْ (دار التقوىٰ) أن تلحقَ بها « الوسطىٰ » ، وعن قريبٍ ستصدر « الصغرىٰ » أيضاً ؛ إتماماً للفائدة ، وجمعاً للمتشاكلات من تآليف هـٰذا الحَبر ، واستكمالاً لصورة ذاك العصر ، الذي الحالُ فيه كالحالِ اليوم ، أصلحَ الله لنا الأحوال ، وعمَّنا جميعاً برضيِّ الأقوال وخالص الأعمال .

الناشر

ترجمة الإمام الرباني
عبد الوهاب الشعراني

كانت للإمام الشعراني نفسٌ كريمة ، لم تضنَّ بخيرٍ ينفع الناسَ من بعده ؛ حتى إنه ترجمَ لنفسه ، وحكى سيرةَ ظاهرِهِ وباطنه ، و« المنن الوسطى » المتألق بين يديك الساعةَ هو قطعة زكيّةٌ من سيرته العطرة ، المذيعةِ بأخلاق الكُمَّلِ من الربانيين ، والمشوِّقة للتلبُّس بها حيّةً على الظواهر

قال عنه تلميذه الحافظ المناوي في « طبقاته » (شيخنا الإمام العامل ، والهمام الكامل ، إنسانُ عينِ ذوي الفضائل ، وعينُ إنسان الواصلين من ذوي الوسائل ، العابد الزاهد الفقيه المحدث ، الصوفيُّ المربي المُسلِّك)[1]

وقال أيضاً (كان مواظباً على السنة ، مجانباً للبدعة ، مبالغاً في الورع ، مؤثِراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه ، متحمِّلاً للأذى ، سالكاً طريقَ العفو ، موزِّعاً أوقاتَه على العبادة ما بين تصنيف وتسليك وإفادة ، وكان يجتمع عنده بزاويته من العميان وغيرهم نحو مئة ، فيقوم بهم نفقةً وكسوةً ، وكان عظيمَ الهيبة ، وافر الجاه والحرمة ، يأتي إلى بابه أكابر الأمراء ، فتارةً يجتمعون به ، وتارةً لا ، وكان يُسمع لزاويته دويٌّ كدويِّ

---

(١) الكواكب الدرية (٣/ ٣٩٢) .

النحل ليلاً ونهاراً ؛ ما بين ذاكر وقارئ ومتهجد ومطالعِ كتبٍ ، وغير ذلك ، وكان يُحيي ليلةَ الجمعة بالصلاة على المصطفىٰ ﷺ)[1]

وقال نجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » (وكان رحمه الله تعالىٰ من آيات الله تعالىٰ في العلم والتصوف والتأليف)[2]

وقال شمس الدين ابن الغزي في « ديوان الإسلام » : (الإمام الحبر البحر ، العارف ، شيخ الإسلام ، الصوفي ، الشافعي ، صاحب المؤلفات الكثيرة المتقَنة الحافلة)[3]

اسمه ونسبه

هو الإمام الفقيه العامل ، العابد الزاهد ، الصوفي ، المجدد ؛ شيخ الإسلام ، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني ، الشافعي الشاذلي ، المصري المولد والنشأة والوفاة .

نزل جدُّهُ السابعُ السلطان أحمدُ بالمغرب بمدينة تلمسان ، واجتمع جدُّه الشيخ موسى ابن السلطان أحمد بالشيخ الولي العارف الكبير أبي مدين المغربي ، فربَّاه ، فلمَّا كمل في الطريق أمره بالسفر إلىٰ صعيد مصرَ ، فكان دخول أجداده إلىٰ مصر في نهايات القرن السادس تقريباً

والشعراوي والشعراني نسبتانِ صحيحتانِ إلىٰ ساقية أبي شعرة ؛ بلدِ المؤلف ، قرية من قرى المَنُوفية في صعيد مصر

---

(١) الكواكب الدرية (٣/ ٣٩٦) .

(٢) الكواكب السائرة (٣/ ١٥٨)

(٣) ديوان الإسلام (٣/ ١٦٧)

والشعراني قرشي هاشمي ، نسبُهُ يعود إلىٰ محمد بن الحنفية ، ابن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وهو شاذليُّ المَشْرب ، شافعي المذهب ، كما ذكر في « المنن الكبرى » وكتابهِ هـٰذا ، فقال (صرت أُقرِّر مذاهب الأئمة الأربعة وغيرَها كأهلها ، حتى لا يكادُ يعرف أحدٌ أني متقيِّدٌ بمذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ لإحاطتي بأدلتهم ومعرفتي بمنازع أقوالهم)[1]

مولده ونشأته

ولد الشيخ الشعراني في بلدة قلقشندة بمصر ، قرية جدِّه لأمِّه ، سنة (٨٩٨هـ) ، ثم نقل إلىٰ قرية أبيه ؛ ساقية أبي شعرة بعد أربعين يوماً من مولده ، وهـٰذه السنةُ هي الأرجح في مولده ؛ فقد انتقل إلىٰ مصر وعمرُهُ اثنتا عشرة سنةً افتتاحَ سنةِ إحدىٰ عشرة وتسع مئة كما ذكر في « المنن الكبرى »[2] ، رحمه الله تعالىٰ

توفي والده سنة (٩٠٧هـ) ، وكذا توفيت والدته قبل قدومه إلى القاهرة ، فنشأ يتيماً قد تولَّاه الله بعين عنايته ، ويَعُدُّ المؤلف هـٰذه النشأة من فضل الله عليه .

وقبل أن يناهز الحُلم منَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز ، وأضاف إليه حفظ العديد من أمهات المتون ؛ كـ « متن أبي شجاع » و« الآجرُّومية » ، وكان

(١) المنن الكبرى (٢/ ٤٧١) ، وانظر (ص١٣٩).
(٢) المنن الكبرى (١/ ١٣٩) .

قد قرأ ما حفظ تحليلاً على يد أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة أبيه

وفي سنة (٩١١هـ) دخل الشعراني القاهرة العامرةَ بالعلم والعلماء يومئذٍ ، وكان دخوله هـٰذا مرحلةً مفصلية في حياته ، فالشعراني نشأ في الريف ، ويَعُدُّ نقلته هـٰذه إلى المدينة من أعظم المنن .

فيقول في « المنن الكبرى » : (إن من نِعم الله تبارك وتعالىٰ عليَّ ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهاجرتي من بلاد الريف إلىٰ مصر ، ونقلُهُ تعالىٰ لي من أرض الجفاء والجهل إلىٰ بلد اللطف والعلم)[١]

ويستشهد عليها بقوله سبحانه وتعالىٰ ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف : ١٠٠]

ولمَّا جاء مصر أقام في جامع سيدي أبي العباس الغَمْري ، فحفظ كتاب « المنهاج » للنووي ، ثم « ألفية ابن مالك » ، ثم « التوضيح » لابن هشام ، ثم « جمع الجوامع » ، ثم « ألفية العراقي » ، ثم « تلخيص المفتاح » ثم « الشاطبية » ، ثم « قواعد ابن هشام » ، وغير ذلك من المختصرات .

ثم ارتفعت همَّتُهُ إلىٰ حفظ كتاب « الروض » ؛ فحفظ منه إلى أثناء باب (القضاء على الغائب) ، وطالع هـٰذا الكتاب ودرَّسه أكثر من مئة مرة .

ثم شرح محفوظاته على المشايخ، وهم نحو خمسين شيخاً

ولقد اتخذ الشعراني هـٰذا المسجد خلوةً يتعبد الله عز وجل ويبتهل فيها حتىٰ غدا شاباً ناشئاً في طاعة الله عز وجل .

---

(١) المنن الكبرى (١/١٣٩) ، وانظر (ص١٢٢).

مكانته العلمية

إن الكتب التي طالعها المؤلف ونعتها بالمختصرات وحفظها وقرأها في مطلع حياته ، لو أحاط بها رجل من أهل زماننا لنعت بنعوت العلماء والفضلاء ، بل إن من قرأ دونها بكثير يتبوَّأ ويتصدر المجالس ، ويُشار إليه بالبنان

ونقل المؤلف عن شيخه علي الخواص رحمه الله تعالىٰ قوله :

(قد أجمع أشياخ الطريق على أنه لا يجوز لأحدٍ التصدرَ لتربية المريدين إلا بعد تبحره في الشريعة وآلاتها ، كما عليه السادة الشاذلية ؛ بحيث يقطع العلماءَ في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة ، فإن لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد أبداً ، وهـٰذا الأمر قد صار أهلُهُ في هـٰذا الزمان أعزَّ من الكبريت الأحمر)[1]

وكثير ممن لا يؤبه له ينظر إلى الإمام الشعراني نظرة تقليل من مكانته العلمية ، فإذا نظرنا إلى ما اطلع عليه المؤلف وقرأه ، وإلى تراثه المدون . . نرى سقوط تلك النظرة .

ولقد قال الإمام الشعراني عن نفسه (لقد طالعت كتباً لم يطلع علماء عصري على اسمها)

وقال أيضاً (ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ : تأليفي كتباً كثيرة في الشريعة ، وغالبها ابتكرته ولم أُسبق إليه)[2]

(١) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١١٥) ، وانظر (ص١٠٤)
(٢) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٦٥) .

فمن العلوم التي قرأها المؤلف رحمه الله تعالى

١ـ القرآن وعلومه

طالع رحمه الله تعالىٰ من كتب التفسير « البغوي » ، و« الخازن » ، و« ابن عادل » ، و« تفسير الكواشي » ، و« ابن زهرة » ، و« القرطبي » ، و« ابن كثير » ، و« البيضاوي » ، و« ابن النقيب المقدسي » ، وهو كما يقول: (مئة مجلدة ضخمة) ، ولم يطالع أوسعَ منه ، وتفسيرَيِ الإمام الواحدي « البسيط » و« الوجيز » ، وتفسيرَيِ الشيخ عبد العزيز الديريني « الكبير » و« الصغير » ، و« الجلالين » ، و« الدر المنثور »، و« تفسير الإمام سنيد بن عبد الله الأزدي »، وقال عنه : (إنه تفسير نفيس)، وقد جرَّد المؤلف أحاديثه وآثارَهُ في مجلد ، وقرأ « الزمخشري » بحواشيه ، وأعظمها « حاشية الطيبي » ، و« الانتصاف » لابن المُنَيِّر ، و« الإنصاف » للعراقي ، و« مختصر الزمخشري » لابن هشام ، و« البحر المحيط » ، و« إعراب تلميذه السمين الحلبي » ، و« إعراب السفاقسي » ، و« حاشية الشيرازي » ، وقطعة من « حاشية الشيخ فخر الدين الجاربردي » ، وقطعة من « حاشية البابوني » ، وحاشيتي « السعد التفتازاني » و« الشريف الجرجاني » ، و« حاشية أبي زرعة العراقي » ، و« تفسير البيضاوي » مع « حاشية الشيخ زكريا الأنصاري »[١]

---

(١) وكل كتاب قرأه عدداً من المرات ، وعلىٰ سبيل المثال : قرأ « الجلالين » ثلاثين مرة، و« تفسير الكواشي » عشر مرات ، و« البيضاوي » خمس مرات .

وكان قد سخَّر الله له الشيخ شمس الدين المظفري يأتيه بكل كتاب طلبه من خزائن مصر[١]

٢ـ الحديث وعلومه :

بعد نزوله في مسجد الغَمري قرأ على إمامه « الكتب الستة » ، و« الغيلانيات » ، و« مسند عبد بن حميد » ، وأجازه بجميع مروياته ، وقد كان له سندٌ عالٍ أخذه عن الحافظ ابن حجر وغيره

وقرأ « صحيح ابن خزيمة » ، و« صحيح ابن حبان » ، و« مسند الإمام أحمد » ، و« موطأ الإمام مالك » ، و« معاجم الطبراني الثلاثة » ، و« جامع الأصول » لابن الأثير ، و« الجامع الكبير » للسيوطي ، و« الصغير » وزياداته ، و« سنن البيهقي » ، وقام باختصارها بحذف السند والمكرر دون الأحكام[٢] ، و« المنتقىٰ » لمجد الدين ابن تيمية ، وهو أصل كتابه « كشف الغمة » ، و« الهدي النبوي » لابن القيم ، و« دلائل النبوة » للبيهقي ، و« المعجزات » و« الخصائص » للسيوطي ، وغيرها من الأجزاء والمسانيد التي لا تحصىٰ

وقرأ في شروحه « فتح الباري » ، و« الكرماني » ، و« البرماوي » ، و« العيني » و« القسطلاني » من شروح « صحيح البخاري » ، و« شرح القاضي عياض لصحيح مسلم »، و« شرحه » للشيخ زكريا الأنصاري ، و« شرح الترمذي » لابن المقري المكي .

---

(١) كما ذكر ذلك في « المنن الكبرى » (١/ ١٦٠) ، وكتابنا هذا (ص١٣٥).
(٢) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٦٠) ، وانظر (ص١٣٦) .

٣ـ كتب الفقه وتوابعه

قرأ « شرح الروض » للشيخ زكريا الأنصاري ، و« شرح ابن سولة » ، وكتاب « الأم » للشافعي، و«مختصر المزني »، و« مسند الإمام الشافعي » و« شرحه » للجاولي، و« المحلىٰ » لابن حزم ، و« مختصره » للشيخ محيي الدين ابن العربي ، و« الحاوي » للماوردي ، و« الأحكام السلطانية » ، و« فروع ابن الحداد » ، و« الشامل » لابن الصباغ ، و« المحيط » لأبي محمد الجويني ، و« الفروق » له ، و« الوسيط » و« البسيط » و« الوجيز » للغزالي ، و« الرافعي الكبير » ، و« الروضة » ، و« شرح المهذب » للنووي ، و« تكملة السبكي » عليه ، و« المطلب » لابن رفعة مع مراجعات الشيخ كمال الدين الطويل لمشكلاته، و«المهمات» للإسنوي، و« التعقبات » لابن العماد، و« القوت » للأذرعي، و« الخادم » للزركشي، و« العمدة » و« العجالة » لابن الملقن ، و« شرح المنهاج » لابن قاضي شهبة ، و« شرح الإرشاد » لابن أبي الشريف ، و« شرحه » للجوجري ، و« شروح التنبيه » لابن يونس والزنكلوني وابن الملقن والجلال السيوطي، و« شرح المنهاج » للمحلي، مع تصحيح ابن قاضي عجلون ، و« شرح البهجة » للعراقي ، و« شرحها » للشيخ زكريا ، و« قواعد الشيخ العز بن عبد السلام » الكبرىٰ والصغرىٰ ، و« قواعد العلائي » ، و« قواعد الزركشي » واختصرها ، و« الأشباه والنظائر » لابن السبكي ، و« الألغاز » للإسنوي ، وغيرها الكثير

٤ـ كتب الأصول والفتوىٰ :

منها : « شرح العضد » ، و« شرح منهاج البيضاوي » ، و« المستصفىٰ » للغزالي ، و« الأمالي » لإمام الحرمين ، و« شرح المقاصد » ، و« شرح الطوالع والمطالع » ، وكتاب « سراج العقول » للقزويني ، و« شرح العقائد » للتفتازاني ، و« حاشيته » لابن أبي الشريف .

ومن كتب الفتوىٰ : « فتاوى ابن أبي زيد » المروزي ، و« فتاوى القفال » ، و« فتاوى القاضي حسين » ، و« فتاوى الماوردي » ، و« فتاوى الغزالي » ، و« فتاوى ابن الصباغ » ، و« فتاوى ابن الصلاح » ، و« فتاوى ابن عبد السلام » ، و« فتاوى النووي » ، و« فتاوى السبكي » ، و« فتاوى البلقيني » ، و« فتاوى شيخه زكريا الأنصاري » ، و« فتاوى الشيخ شهاب الدين الرملي » ، وغيرها

٥ـ كتب اللغة

طالع : « صحاح الجوهري » ، و« القاموس » و« النهاية » لابن الأثير ، و« تهذيب الأسماء واللغات » ، وقد طالع هـٰذا الكتاب خمس عشرة مرة .

٦ـ كتب السير

طالع : « سيرة ابن هشام » ، و« ابن إسحاق » ، و« الكلبي » ، و« أبي الحسن البكري » ، و« سيرة الطبري » ، و« الكلاعي » ، و« ابن سيد الناس » ، و« سيرة الشيخ محمد الشامي » التي جمعها من ألف كتاب ، وهي أجمع كتاب في السير كما يرى المؤلف .

٧ـ كتب التصوف :

كثيرة جداً ؛ منها « القوت » لأبي طالب المكي ، و« الرعاية » للمحاسبي ، و« الحلية » لأبي نعيم ، و« رسالة القشيري » ، و« عوارف المعارف » للسهروردي ، و« الإحياء » للغزالي ، وكتب اليافعي كلها ، و« الفتوحات » للشيخ الأكبر ، وقد اختصرها وحذف المدسوس على الشيخ فيها ، و« رسالة النور » للشيخ أحمد الزاهد ، و« منح المنة » لتلميذه محمد الغمري شيخ المؤلف ، و« منازل السائرين » للهروي ، و« الفصوص » للقاشاني ، و« شعب الإيمان » للقصري .

ويكفي أن نعلم : أن شيخ الإسلام شهاب الدين الحنبلي الفتوحي حين قُدِّم له كتاب « العهود » للمؤلف كي يكتب بمنعه بعد الدسِّ على المؤلف . . قال كيف أكتب على سؤال يتعلق بشخصٍ طالع من الكتب ما لا أعرف له اسماً ، فضلاً عن الخوض فيها ! مع أنه لو ادعىٰ تأليفها لم يجد له في مصر منازعاً ؟!

هـٰذا طرف مما طالعه وقرأه المؤلف رحمه الله تعالىٰ ، وهناك الكثير من الكتب التي لم أذكرها خشية الإطالة ، فانظرها في هـٰذا الكتاب[1]

مكانته الاجتماعية

لقد تميَّز إمامنا الشعراني بمنزلة اجتماعية مرموقة ، وسيتبين ذلك جلياً عند الحديث عن أشياخه ، والكلام عن المحن التي مرَّ بها وعاناها ، وعلىٰ

---

(١) انظر (ص١٣١) ، و« المنن الكبرى » (١/ ١٥٧) .

رأسها مسألة الحسد وما تفرَّع عنها من مشكلات ما زالت تآليف الشعراني تئِنُّ من وطأتها

ويكفينا أن نعلم أن السلطان سليماً ؛ خليفة المسلمين يومئذٍ ، والعالم الإسلامي في أوسع رقعة . . زار مصر يوماً ، فكانت زيارته عيداً ، وتبارى الأمراء والكبراء والعلماء والفقهاء بالسعي إلىٰ بابه ، وبقي الشعراني منزوياً يتوارىٰ عن الساحة ، ويفضل جانب الظلِّ ، وبلغ السلطانَ سليماً ذلك ، والشعراني يومها اسمٌ علا نجمُهُ ، وامتدَّ صيتُهُ ، فما كان من هٰذا السلطان العظيم إلا أن يسعىٰ بأبهته وفخامته إلىٰ ذاك العالم العامل العابد المتبتل ، وزاره في زاويته وسط العجب الذي أبداه كلُّ من سمع بهٰذه الكرامة

وكان للشعراني جاهٌ لا يُرَدُّ ، وهيبة وجلالة تحمل القاصي والداني علىٰ تلبية أمره مهما علا شأنه ، وقصصُهُ في بذل الجاه للأمراء قبل الفقراء كثيرة جداً

وأرسل بعض الأعداء ورقة إلى الباشا علي يذكر فيها إن عبد الوهاب نصاب شيطان ؛ فإياكم أن تقرِّبوه منكم ، قال الباشا (أنا لم أرجع في هٰذا الرجل إلىٰ قول أحد ؛ إنما رجعت إلىٰ قلبي ؛ فإني أعلم أن للمشايخ أعداء ، وللعلماء أعداء ، وللأمراء أعداء ، وللباشا مثلي أعداء) ، ولم يقبل من الأعداء ما رَموه به ، وقبل شفاعاتِهِ بعد ذلك

وزاره يوماً قبيل سفره إلىٰ تركيا ليقول له نحن مقرَّبون للخليفة ، فهل لك من حاجة ترفعها إليه ؟ فما كان جواب الشعراني إلا أن قال معلماً ومؤدباً : ألك حاجة عند الله ؟ إننا مقرَّبون إلىٰ حضرته

تتلمذ رحمه الله علىٰ خيرة أهل عصره من العلماء والصالحين ، فالتقىٰ بالإمام السيوطي وهو صغير السنِّ ، ولازم الشيخ زكريا الأنصاري مدة طويلة وقرأ عليه كتباً كثيرة ، وكان الشيخ زكريا يجلُّه ويقربه إليه ، وأخذ عن ناصر الدين اللقاني ، وشمس الدين الدواخلي ، والجوجري ، ونور الدين السنهوري ، وملا علي العجمي ، والمحدث المقرىء شهاب الدين القسطلاني ، ونور الدين الأشموني ، وشمس الدين الديروطي ، والشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري المحدث المقرىء ، وكان صاحب أعلىٰ سند بالكتب الستة وغيرها ، والشيخ محمد المغربي ، وغيرهم الكثير ممن ذكرهم في نهاية كتابه « الطبقات »[(١)]

وأما مشايخه في الطريق

قال الشعراني في « المنن الكبرى » (مما منَّ الله به عليَّ : إلهامي لطلب الاجتماع بأهل الطريق وانقيادي لهم ، فاجتمعتْ بحمد الله تبارك وتعالىٰ عليَّ خلائقُ لا تحصىٰ من أهل الطريق ، فلم يكن لي وديعة عند أحد سوىٰ هٰؤلاء الثلاثة وهم : سيدي علي المرصفي ، وسيدي محمد الشناوي ، وسيدي علي الخواص)[(٢)]

---

(١) وانظر « المنن الكبرى » (١/ ١٤١) ، و(ص١٢٥) من هذا الكتاب ، ففيها ذكر عدد من أشياخه وما قرأ عليهم من كتب العلم .

(٢) المنن الكبرى (١/ ١٨٤)

ثم قال (سلكت على الأولَين يسيراً ، وكان فطامي بحمد الله تعالىٰ علىٰ سيدي علي الخواص ؛ أعني : الفطامَ اليسيرَ المعهود بين القوم ، وإلا فالحقُّ أنه لا فطام حتىٰ يموت العبد)[1]

ومن قرأ ترجمة الخواص[2] عجب لها أشدَّ العجب ؛ فقد كان منارةَ هدىً في عصره

وكان ـ أي : الخواص ـ غواصاً في بحار النفس ، خبيراً بأحوالها ، بصيراً بعللها وأمراضها ، مربياً وشيخاً مسلكاً ، ليس له نظير ، وقد أدرك الشعراني هـٰذا كلَّهُ ، فانطوىٰ تحت جناح الخواص ، ونسي حظَّ نفسه ، وأفنىٰ مراده في مراد شيخه ، وعندما يتجرد الإنسان من الإرادة ، ويختار العبودة المطلقة . . تتفجر ينابيع الكرم ، وعندما يلهج اللسان بإعلان الفقر الملازم لوصف الإنسان يجيش بحر العطاء

زهرة حياة الشعراني كانت في السنوات العشر التي قضاها مع شيخه الخواص ، فبعد أن حاز الشعراني من علوم الشريعة وعلوم الآلة ، وقرأ المتون والحواشي ، وجمع من نوادر التأليف ما جمع أمرَهُ شيخه الخواص ببيع كتبه كلها والتصدق بثمنها ! وكانت ـ كما يذكر الشعراني في « المنن الكبرى » ـ كتباً نفيسة[3]

---

(١) المنن الكبرى (١/ ١٨٤)

(٢) انظر « الطبقات الكبرىٰ » (١٥٠) ، و شذرات الذهب » (٨/ ٢٣٣) ، وانظر (١/ ١١٨) .

(٣) المنن الكبرى (١/ ١٨٧)

يقول المؤلف في « المنن الكبرى » : (فصار عندي التفات إليها ؛ لكثرة تعبي فيها ، فقال لي سيدي علي الخواص : اعمل علىٰ قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإنهم قالوا : **ملتفت لا يصل**)[1]

وفعل الشعراني ذلك ، وترادفت عليه العلوم الوهبية بإذن الله تعالىٰ ، وآل إلىٰ ما آل إليه من مراتب أهل الكمال والإحسان .

وقد وَفَّقَ الله سبحانه وتعالى المؤلف للاستفادة من جميع أشياخه ، ومن أصحابه في الطريق ؛ كأفضل الدين الأحمدي ، بل ومن مشايخ البركة علىٰ حدِّ قوله ، فقد كان يفوز منهم بصالح دعائهم ، ويشغل قلوبهم بالتوجه إليه ، ويردُّ سبب هـٰذا النفع أنه كان يرى أن الناس كلَّهم خير من عبد الوهاب ، وما كانت الندِّيَّة في الصحبة لتحجزه عن طلب النفع ، فالحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها

ذكر أمور تدفع الاعتراض علىٰ من يذكر مناقبه في كتاب:

ذكر الإمام الشعراني في « المنن الكبرى » أدلةً تدفع المعترض علىٰ من يذكر مناقبه في كتاب فقال :

(**من جملة ذلك** قولُ الملائكة عليهم السلام : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٥ـ ١٦٦] ، وقولُ السيد يوسف عليه الصلاة والسلام للعزيز

---

(١) المنن الكبرى (١/ ١٨٧)

﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] ، وقولُ سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] ، وقولُ سيدنا محمد ﷺ : « **أنا أولُ شافع وأولُ مشفع ، وأنا أولُ من تنشق عنه الأرضُ ، وأنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر** »

وبالجملة : فقد أمر الله تعالىٰ بالتأسي برسول الله ﷺ في كل أمر لم يكن خاصّاً به ، ومن التأسي به أن نتحدث بكل نعمة أنعمها علينا ، ولا نكتمَها ، ولا نتحدث في سرائرنا بها ، بل نعلن بها علىٰ رؤوس الأشهاد .

وقد روى الطبراني والبيهقي وغيرُهما مرفوعاً « التحدث بالنعمة شكر » زاد في رواية البيهقي « وتركه كفر » ، وأخرج ابن جرير في « تفسيره » وغيره عن أبي نضرة الغفاري قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعمة إظهارَها والتحدثَ بها ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧])

قال (وكان الإمام الليث يقول أنا أعرِفُ شخصاً من منذ وعىٰ علىٰ نفسه ما عصىٰ ربَّه قط ، فكان أصحابُهُ يتحدثون فيما بينهم أنه يعني بذلك نفسَهُ ؛ لأن أحداً لا يعرف ذلك من غيره إلا بوحي من الله تعالىٰ)

ثم قال (قال الشيخ علي الخواص : التحدث بنعمة الله من غير فتنة ولا أغراض نفسانية خاصٌّ بالأكابر من الأولياء في كل عصر ، بخلاف غير العارفين ، فربما دخل الرياء على أحدهم في تحدُّثه بما أنعم الله به عليه) .

ويتابع المؤلف ويقول : (فعلم مما قررناه أن من يخاف محظوراً من إظهار أعماله فكتمانه لها أولىٰ ، ومن كان قصده بإظهارها اقتداء الإخوان به ، أو إظهار فضل الله تعالىٰ وكرمه عليه ، أو غير ذلك من النيات الصالحة . . فلا حرج عليه في إظهارها)(١)

بعض من خصَّهم المؤلف بذكر أخلاقهم في كتابه هـٰذا، وسبب ذلك :

لقد خصَّ المؤلف وشيَّد كتابه هـٰذا بجملة من أخلاق المشايخ ؛ فقال : (وقد شيدتُها بأخلاق هؤلاء المشايخ الثلاثة ؛ وهم سيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي علي الخواص ، وأخي الشيخ أفضل الدين الأحمدي ، رضي الله تعالى عنهم ؛ لكوني لم أرَ أحداً من المتأخرين تخلَّق بأخلاقهم كما يَعرِفُ ذلك من طالع هذا الكتاب)(٢)

زاوية الإمام الشعراني

لقد كان للزوايا والرُّبُطِ في التاريخ الإسلامي دور مهمٌّ جداً في بعث الأمة من سباتها ، وهـٰذه سنة أحياها الإمام الغزالي رحمه الله ، وبعض الزوايا كانت أشبه ما تكون بجامعة متنوعة الاختصاصات ، تخرَّج فيها العظماء والعلماء والدعاة إلى الله .

والسبب الرئيس في تميز الزوايا عن غيرها أنها كانت توفِّر لقاصديها كل احتياجاتهم ، وتضيف إلىٰ تعليمها الإشراف التربوي والأخلاقي ،

(١) المنن الكبرى (١/ ١٢٢) ، وانظر (ص١١٥)
(٢) انظر (ص٦٧)

وتستضيف كل النازلين ، فهي مسجد للصلاة وإقامة الشعائر الدينية ، ومدرسةٌ لتخريج طلبة العلم ، ومنقاة لهم من آفات وعيوب نفوسهم ، وتكية للفقراء والمحتاجين ، ويمكن القول هي مسجد عظيم أُلحقت به دُورٌ متعددة الاختصاصات ، تلبي حاجة الجميع

وقد أقام الشعراني بعد خروجه من مسجد الغمري في مدرسة (أم خوند) وقضىٰ بها أياماً طابت له ثمارها بطاعة الله عز وجل ومرضاته ، وفيها فتح ذراعيه لكل الوافدين عليه من طلاب العلم والحقائق

ثم انتقل الشعراني إلىٰ مسجد عظيم أُوقف من قِبل القاضي محيي الدين عبد القادر الأرزيكي ، وأَوقف معه أرضاً عظيمةً بنىٰ عليها الشعراني زاويته العظيمة

وأقبل علىٰ هـٰذه الزاوية آلاف المريدين وطلبة العلم ، وقد كفل الشعراني بكل متطلبات معيشتهم ، وكان هـٰذا من الأوقاف التي فرضها السادة والأمراء لهـٰذه الزاوية

ومن العجيب : أن الشعراني لم يكتف بتدبير شؤون طلابه فحسب ، بل كان يزوِّج بعض مريديه ويزودهم بكل احتياجات وتكاليف هـٰذا الزواج ، وكان يرسل أفواجاً من تلامذته إلى الحج ، وكان يقوم بإعانة العلماء والفقهاء بالغذاء والكساء ، وكان مضيافاً يكرم الوافدين عليه

ولنا أن نقول : كان الشعراني عُمَريَّ الخُلُق ، يرىٰ لكل صغير وكبير من المسلمين حقاً في عنقه .

يقول المناوي في « الكواكب الدرية » عنه (كان يُسمع لزاويته دويٌّ كدوي النحل ليلاً ونهاراً)[1]

وسبب ذلك : أن تلاوة القرآن وقراءة الحديث ودراسة العلوم الشرعية والعربية كانت لا تنقطع في هـٰذه الزاوية المباركة ، حتىٰ غدت هـٰذه الزاوية ـ كما يقول الأستاذ طه عبد الباقي ـ منافساً للأزهر الشريف ، وينقل عن المؤرخ الشبلي قوله : لم يُرَ في مشارق الأرض ومغاربها خيراً من زاوية الشعراني ، علماً وفضلاً وتصوفاً وأدباً .

لقد كان لهـٰذه الزاوية أثر باهر في مصر كلها ، ولا نبالغ إن قلنا إن صيتها وصل إلى إستنبول عاصمة الخلافة الإسلامية يومئذٍ ، وهـٰذه الشهرة المترامية الأطراف ولَّدت أمراً مزعجاً للغاية ، فقلما ترىٰ صاحب نعمة إلا وهو محسود ، وهـٰذا ما حصل مع الشعراني .

الاتهامات التي رمي بها الإمام الشعراني

في الحقيقة البحث في هـٰذه الفقرة بالذات طويل جداً ، فالشعراني شخصية تعرضت لكثير من الاتهامات ، بدأت في عصره ، وما زالت إلىٰ يومنا هـٰذا ؛ لذلك سيكون الكلام في الخطوط العريضة لهـٰذا البحث ، وتكاد تتلخص بنقاط هي

١ ـ الفكر الصوفي الذي تميَّز به الإمام الشعراني .

---

(١) الكواكب الدرية (٣/ ٣٩٦) .

٢ـ مشكلة الدس التي تعرض لها في مؤلفاته وكلامه

٣ـ خروجه عن المذاهب الأربعة وادعاؤه الاجتهاد المطلق .

أولاً : الفكر الصوفي الذي تميَّز به الإمام الشعراني

ـ هل الشعراني كان صوفياً فحسب ؟

كثيراً ما طرقت أسماعَنا هـٰذه الكلمةُ : الشعراني صوفي ، دوره منحصر في صفوفهم ، لا علاقة له بالعلماء

وهـٰذه الكلمة قد تسمعها من الكثيرين ، وتعجب لها ، فإن سألت قائلها : هل اطلعت علىٰ مخلَّف الشعراني العلمي ؟ قال نعم ، وسرد لك بعض كتب الرقائق التي ألفها الشعراني ، ودون اطلاع عليها أيضاً ، فإن ذكرت له طرفاً من مخلَّفه العلمي ، وذكرت له شيئاً من علومه وثناء أهل العلم عليه . . أبدى أشد العجب ، والعجب ممن يلقي كليمة في تقويم رجل من رجال التاريخ الذين كان لهم دورٌ من أبرز أدوار الصحوة في عصورهم دون تحقيق أو تمحيص !

وسنرىٰ في هـٰذه الأسطر القليلة الآتية رأي أهل العلم في هـٰذا الإمام ، هل كان صوفياً فحسب ، أم هو العالم المشارك الذي امتاز عن أهل عصره بعلمه وعمله ؟

شهادة علماء عصره

لقد أجاز العلماء من أهل المذاهب لمؤلفاته ، ومدحوها وأثنوا عليها

فقد كتب الشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي على كتابه « كشف الغمة » فقال :

(وقفت على هٰذا المؤلف الغريب ، والمجموع العجيب ، فرأيته كتاباً لا ينكر فضله ، ولا يختلف اثنان في أنه ما صُنِّف مثله)[١]

وقال فيه شيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي الحنفي (وبعد : فقد وقف العبد الضعيف ، على هٰذا المجموع اللطيف ، المفرد المنيف ، وتأملته فإذا هو محتوٍ على نخب حقائق العارفين ، وزبد كنوز الواصلين ، ولقد توج مؤلفه بتاج لطائف التحقيق معارف رؤوس أهل الطريق ، وأوضح لهم منها الطريق ، ولقد أبدع مؤلفه وأغرب ، وأتى بما هو من العجاب أعجب)[٢]

ومن جملة ما كتبه الشيخ عبد القادر المالكي الشاذلي (وبعد فقد اطلعت على هٰذا الكتاب المسمى « كشف الغمة عن جميع الأمة » ، فوجدته كتاباً كريماً ، وصراطاً مستقيماً ، ونوراً ساطعاً عظيماً ، ورأيت فيه من غرائب الحديث وعجائبه ما لا تسعه مجلدات كثيرة . . .)[٣]

وكذا أثنى عليه الشيخ شهاب الدين ابن الشبلي الحنفي ، وناصر الدين

---

(١) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٦٧) ، وانظر (ص١٥٠)

(٢) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٦٧) ، وانظر (ص١٥٠) .

(٣) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٦٨) ، وانظر (ص١٥٣)

الطبلاوي الشافعي ، وناصر الدين اللقاني ، وشيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي ، وشهاب الدين عميرة الشافعي ، وهم وجه علماء مصر يومئذٍ .

وألف كتاباً في السُنَّة سماه « **المنهج المبين** » ، أثنىٰ عليه أهل العلم ثناء باهراً ، قال فيه ـ علىٰ سبيل المثال ـ الشيخُ ناصرُ الدين اللقاني

(ومؤلِّفُه المحقق الفهامة ، شيخ الحقيقة ، وأستاذ الطريقة ، الجامع بين المنقول والمعقول ، والمرجع والتعويل عليه فيما يفتي به ويقول ؛ سيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى ، الشيخ أبو محمد ، عبد الوهاب الشعراني الشافعي ، المرشد المسلك المربي ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته)[1]

يقول الشعراني عندما اجتمع بالشيخ اللقاني (ولما اجتمعت به قال لي إنما صرحت باسمك ومدحتك تكذيباً لمن أشاع عني أنني لا أعتقدك) .

وكذا أثنوا علىٰ كتابه « **العهود** » وكتابه « **الجوهر المصون** »

قال فيه الشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي : (وهو تأليف سيدنا ومولانا خاتمة أهل الشريعة والحقيقة في عصره ، الشيخ عبد الوهاب ، أدام الله عزه وعلاه ، وبعين عنايته حرسه وتولاه ، ومتَّع بطول حياته الأنام ، وكبت أعداءه الحسدة اللئام)[2]

ويقول عنه تلميذه العلامة الحافظ المؤرخ عبد الرؤوف المناوي : (شيخنا الإمام العامل ، والهمام الكامل ، إنسانُ عينِ ذوي الفضائل ، وعينُ

---

(١) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٧٠) ، وانظر (ص١٥٥)

(٢) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٧٤) ، وانظر (ص١٦٠)

إنسانِ الواصلين من ذوي الوسائل ، العابد الزاهد ، الفقيه المحدث ، الصوفيُّ المربي المسلك)[1]

ولا ننسى إذْنَ شيخه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري له بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف كذلك

مؤلفات الشعراني شاهد حيٌّ :

ثم إن ما خلَّفه هـٰذا الحبر الهمام من مؤلفات في علوم شتىٰ لَأكبرُ شاهد يردُّ تلك القالةَ التي لا يُبتغىٰ بها وجه الله ، وإنما يراد منها الانتقاص والذم لهوىً يُتبع ، فقلَّما ترىٰ عِلْماً من علوم الشريعة إلا وللمؤلِّف كتاب أو كتب فيه .

جهل صاحب هـٰذه القالة :

إن الشعراني رحمه الله كتب عن الفقهاء الذين ينكرون على الصوفية ، وكتب عن الصوفية الذين ينكرون على الفقهاء فقال :

(واعلم يا أخي : أن غالب الإنكار الذي يقع بين الفقهاء والصوفية إنما هو بين القاصر من كل منهما وبين مثله ، وإلا فالكامل من الفقهاء يسلِّم للعارفين ، والعارفون يسلمون للعلماء .

وإنما قال القوم : **كل حقيقة تخالف ظاهر الشريعة فهي باطلة ؛ نصرةً لظاهر الشرع ، وإلا فالحقيقة من أصلها لا تكون إلا موافقة للشريعة**)[2]

---

(١) الكواكب الدرية (٣/ ٣٩٢)

(٢) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٤٩) .

وهو القائل رحمه الله : (ينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه ، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة الطريق، فمنعوا مطالعته وقالوا : إنه حجاب؛ جهلاً منهم)[1].

وهو القائل : (دوروا مع الشرع كيف كان ، لا مع الكشف ؛ فإنه يخطئ)[2]

إذاً ؛ كل العجب ممن يتهم الشعراني بانفكاكه عن ساحة أهل العلم كفقيه أو محدث أو نظَّار ، ويقول: إنما هو صوفي مربٍّ ، بل إن للشعراني آراء في مؤلفاته الفقهية تدل علىٰ سعة اطلاعه، وأنه صاحب نظر ورأي .

وكان الشيخ زكريا الأنصاري يقول : (إذا لم يكن للفقيه علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم فهو فقيه جاف)[3]

ثانياً : هل دُسَّ على الشعراني في كتبه ؟

قبل الكلام عن هـٰذه المسألة التي ما زالت آثارها السلبية إلىٰ يومنا هـٰذا ، يجدر بنا أن نعلم أنَّ الشعراني وقع ضحية لحسد العلماء والكبراء قبل العامة ، وهـٰذا أمر لا يخلو منه صاحب نعمة ، فقد وقع التحريف والتبديل قديماً في كتب الله سبحانه وتعالىٰ ، فكان أهل الأهواء والضلال يبدلون الكلم عن مواضعه ويحرفونه ، وقد وقع الدسُّ علىٰ سيد الوجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فكذبوا عليه جملة من الأحاديث والأخبار التي

(١) انظر « شذرات الذهب » (٨/ ٣٧٤) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) انظر « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٥) .

وقد نسب أهل الكفر لله عز وجل ما لا يليق ؛ من زوجة وولد ، وفقر وجبر وغير ذلك ، ونعتوا الأنبياء بالنقائص ، ورمَوهم بالسحر والكذب والكهانة والجنون

وقد جاء في الحديث الصحيح « **أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل** » ، ويروي لنا الشعراني المحن التي تعرض لها أهل التصوف عبر التاريخ في مقدمته النفيسة لكتابه « الطبقات » ، ويذكر لنا أسماء اتُّهمت بالعظائم ، ونالها الحسد حتىٰ طالب الحاسدون بقتلها ؛ منها ودون حصر شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ، والعارف بالله أحمد بن الرفاعي ، والإمام أبو الحسن الشاذلي ، والإمام الغزالي ، بل وكلٌّ من الأئمة الأربعة ؛ أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وكذا الحكيم الترمذي ، وعبد الله بن أبي جمرة ، ومحمد بن الفضيل ؛ لأنه كان علىٰ مذهب أهل الحديث ، وغيرهم الكثير[١]

والشعراني تبوَّأ مكانة اجتماعية بين الناس ليس لها نظير ، ومضى الحديث عن طرف منها ، بل إن الأمر وصل إلى التفكير في قتل هٰذا الإمام؛ كي يخلو الجو لأصحاب الأهواء وطلاب المراتب الدنيوية ، بعدما فشلوا في تكفيره وإخراجه من الملة

فلا عجب بعد ذلك أن نرى الدسَّ قد وقع في مؤلفات الشعراني ؛ في

---

(١) انظر مقدمة « الطبقات الكبرىٰ » للمؤلف

حياته قبل مماته ، كما نصَّ هو علىٰ ذلك في العديد من كتبه وفي مواطن شتىٰ .

وقد أشاع بعض الحسدة في مصر والحجاز وغيرهما أموراً مستشنَعة في العقائد وغيرها نسبوها لهـٰذا الإمام .

وكانوا قد استعاروا بعض كتبه ليكتبوها ، فدسُّوا فيها عقائد زائغة، ومسائل خارقة للإجماع، ونسبوها له ، ودارت تلك المسائل في مصر نحو سنةٍ وهو لا يشعر ، فحصل بذلك فتنة في البلد .

وقال في كتابه هـٰذا : (وقد كتب بعض الحسدة سؤالاً يتعلق ببعض كلمات في كتاب « العهود » وقدمه إلىٰ شيخ الإسلام شهاب الدين الحنبلي الفتوحي رضي الله تعالىٰ عنه، فامتنع من الكتابة عليه ، وقال: كيف أكتب علىٰ سؤال يتعلق بشخص طالع من الكتب ما لا أعرف له اسماً ، فضلاً عن الخوض فيها ؟!)(١)

يقول المؤلف في خاتمة كتاب « المنن الكبرى » :

(أرجو من مدد رسول الله ﷺ أن يحمي هـٰذا الكتابَ من كل عدو وحاسد يدسُّ في فواصله أو غضونه ما يخالف ظاهر الشريعة ؛ لينفر الناس عن المطالعة فيه ، كما فعلوا في كتابي المسمى بـ « البحر المورود » وفي مقدمة كتابي المسمى بـ « كشف الغمة » ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأشيعوه بقصد صيانة الناس عن الوقوع في عرضي بغير حق)(٢)

---

(١) انظر « المنن الكبرى » (١/ ١٦٢) ، وانظر (ص١٣٨) .
(٢) « المنن الكبرى » (٢/ ٦٥٣) ، وانظر (ص٢٩) .

وقال فيه أيضاً : (فكل قليل يحرفون عني مسائلَ لم أقل بها قط ، ثم يكتبون بها سؤالاً ويستفتون عنها العلماء ، فيقولون بحسب السؤال ، ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي بذلك أجور لا تحصىٰ)[١]

وكان أشياخ زمانه يلحظون الفرق بين خطِّهِ وخطِّ المغرضين ، وكان يدافع عن نفسه بالنسخ الأصلية الموجودة عنده .

ويقول رحمه الله : (فكذب ـ والله ـ وافترىٰ من أشاع عني من الحسدة أنني أشطح في أفعالي وأقوالي وعقائدي عن ظاهر الكتاب والسنة ، مع أن أحداً من هـٰؤلاء الحسدة لم يجتمع بي قط) .

إن الشعراني نفسَهُ كان يحارب الدسَّ الذي وقع لغيره من العلماء ، وكان يُثبِت وقوع الدس في كتب السالفين من أهل العلم ، ففي معرض حديثه عن الشيخ محيي الدين يقول :

(وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه ، كما أخبرني بذلك سيدي الشيخ أبو الطاهر المغربي نزيلُ مكة المشرفة ، ثم أخرج لي نسخة « الفتوحات » التي قابلها علىٰ نسخة الشيخ بخطه في مدينة قونية ، فلم أرَ فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت « الفتوحات »)[٢]

ولـٰكننا أمام إشكال لا بدَّ من بيانه :

عندما يعرض لنا نصٌّ مشكل من أئمة التصوف . . لا يجوز لنا أن نعجل

---

(١) « المنن الكبرى » (١/ ٣٧٠) .
(٢) اليواقيت والجواهر (١/ ٧) .

ونرمي صاحبه بالكفر والزندقة ، أو الجهل والتخريف ، بل لا بد من وقفة ، فقد يكون سبب هـٰذا اللبس عدمَ فهم مصطلحهم رضي الله عنهم ، يقول المؤلف في « المنن الكبرى » :

(وقد يكون سبب الإنكار : جهلَ المنكر بمصطلح القوم رضي الله تعالىٰ عنهم ، وعدمَ ذوقه لمقاماتهم ؛ فالعاقل من ترك الإنكار ، وجعل ما لم يفهمه من جملة مجهولاته .

وربما تكلم العارف في نظمه أو غيره علىٰ لسان الحق تبارك وتعالىٰ ، وربما تكلم علىٰ لسان رسوله ﷺ)[1]

أما بشأن العبارات غير اللائقة الموجودة في بعض كتبه : فبداية لا نقول شيئاً قبل التحقق من نسبتها إلى المؤلف ، غير أننا أمام بعض العبارات التي طبعت للمؤلف في كتابه « الطبقات » ، وتحديداً في الجزء الثاني منه ، ما تقشعر منه الأبدان ، وتميل النفس إلىٰ كونه من الدس الذي تحدث عنه المؤلف رحمه الله تعالى ، أو أنها حكاية للتأريخ فقط ، أكرم الله الأمة بإخراج هـٰذه الكتب محققة ومنقحة حتىٰ تقرَّ بها الأعين .

ثالثاً : هل ادَّعى الشعراني الاجتهاد المطلق ؟

هـٰذه هي التهمة التي ألصقت به رحمه الله مِن قِبَل بعض ضعفة القلوب من فقهاء عصره .

يقول الشعراني في « المنن الكبرى » : (وقد وقع في سنة سبع وخمسين

---

(١) « المنن الكبرى » (١/ ٣٨٧) .

وتسع مئة : أن شخصاً ممن لا يخشى الله تبارك وتعالىٰ زوَّر عليَّ أنني ادعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة ، فلا تسأل يا أخي عن كثرة ما لاثَ الناس بعرضي ، ولعل شبهتهم في ذلك كثرةُ أجوبتي عن الأئمة ، وهـٰذا ـ الاجتهاد المطلق ـ لم يدَّعِه أحد بعد الأئمة الأربعة إلا ابن جرير الطبري ، ولم يُسلَّم له ذلك)[1]

وكل من قرأ « الميزان الكبرىٰ » و« كشف الغمة » يدرك معنىٰ قوله رحمه الله تعالىٰ

ولقد نصَّ الشعراني في غير موطن من كتبه أنه شافعي المذهب ، وعندما ترجم للإمام الشافعي ، قدمه على أبي حنيفة ومالك بخلاف ما يقتضيه السياق التاريخي؛ أدباً معه ، وقال : (ومنهم إمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي)[2]

وهـٰذا لا يعني بحال من الأحوال أنه كان مقلداً عامياً ليس له أي مشاركة فقهية ، بل إنه رحمه الله كان صاحب رأي واجتهاد في مذهبه ، يدرك ذلك من نظر في كتابيه السالفَيِ الذكر .

تلامذته

ـ ألمع الأسماء التي تخرَّجت بصحبة الشعراني : العلامة الحافظ عبد الرؤوف المناوي والمتوفىٰ سنة (١٠٣١هـ) ، قد نصَّ هو علىٰ ذلك .

(١) « المنن الكبرى » (١/ ٣٧٢) .
(٢) انظر « الطبقات » (١/ ٥٠)

ـ ومنهم العلامة المحدث أحمد بن محمد البقاعي العرعاني والمتوفىٰ سنة (١٠٤٩هـ)

ـ ومنهم العلامة المحدث المقرئ محمد حجازي الملقب بـ « الواعظ القلقشندي » والمتوفىٰ سنة (١٠٣٥هـ)، ذكرهما المحبي

ـ ومنهم الأمير حسن بك صنجق الذي هجر الإمارة وترك السلطان في سبيل التتلمذ علىٰ يده رحمه الله

ـ وممن ربَّاهم أيضاً محمد بن الموفق ، وكان كاتب ديوان الجيش ، ومحمد ابن الأمير ، شيخ سوق أمير الجيوش ، وأبو الفضل الجزيري القباني ، وعلي ابن أمير كبير أزبك ، والحاج علي البسطي ، وغيرهم

والإمام الشعراني يذكر في كتابه هـٰذا أنه لا يميل إلىٰ ذكر أسماء تلاميذه ، وأنه لم يؤذن له بذلك

ومنهم ولده عبد الرحمن ، وكان قد خَلَفَ أباه بعد وفاته ، يقول المناوي : (وقام بالزاوية بعده ولده الشيخ عبد الرحمن ، لـٰكنه أقبل علىٰ جمع المال ، ثم توفي سنة « ١٠١١هـ »)[(١)]

مؤلفاته

ورَّث الشعراني كمّاً كبيراً من تراثه العلمي ، إذ كما ذُكر آنفاً قلما ترىٰ عِلماً من علوم الشريعة إلا وللشعراني مشاركة فيه ؛ تأليفاً أو شرحاً أو اختصاراً

---

(١) الكواكب الدرية (٣/ ٣٩٧) .

قال المؤلف (وغالبُها ابتكرته ، ولم أسبق إليه ؛ ككتاب « البحر المورود » ، و« كشف الغمة »)

وقد تكلم المؤلف في « المنن الكبرى » وكتابه هـٰذا عن بعض مؤلفاته[1] ، ولنذكر أبرز مؤلفاته هنا أيضاً ؛ فمنها

- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية .
- أدب القضاة .
- إرشاد الطالبين إلىٰ مراتب العلماء العاملين .
- الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية
- البحر المورود في المواثيق والعهود .
- البدر المنير في غريب حديث البشير النذير ﷺ .
- بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق .
- تنبيه المغترين في آداب الدين
- تنبيه المغترين في القرن العاشر علىٰ ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر .
- الجواهر والدرر الكبرىٰ
- الجواهر والدرر الوسطىٰ
- حقوق أخوة الإسلام .

---

(١) المنن الكبرى (١/ ١٦٥) ، وانظر (ص١٤١) .

ـ الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة (وهو كتاب جمع فيه الكثير من العلوم)

ـ درر الغواص من فتاوىٰ الشيخ علي الخواص

ـ ذيل لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار

ـ القواعد الكشفية في الصفات الإلـٰهية .

ـ الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر .

ـ كشف الغمة عن جميع الأمة

ـ لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والذي اشتهر بـ «المنن الكبرىٰ» بين أهل العلم؛ تمييزاً له عن «المنن الصغرىٰ» و«الوسطىٰ» ، واعتناءً به بتفخيم شأنه .

ـ لواقح الأنوار (أو: مشارق الأنوار) في طبقات الأخيار ويعرف بـ «الطبقات الكبرىٰ» .

ـ لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية .

ـ مختصر تذكرة السويدي (في الطب) .

ـ أسرار أركان الإسلام

ـ مختصر تذكرة القرطبي .

ـ إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلىٰ شروط صحبة الأمراء

ـ مدارج السالكين إلىٰ رسوم طريق العارفين .

ـ مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية

- المنح السنية

- منح المنة في التلبس بالسنة

- الميزان الشعرانية .

- اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر .

- حاشية على الروض مختصر الروضة

- حاشية علىٰ شرح البهجة

- تجريد تفسير الإمام سنيد بن عبد الله الأزدي

- مختصر سنن البيهقي الكبرىٰ

- مختصر كتاب المعجزات والخصائص للسيوطي

- مختصر قواعد الزركشي

- لواقح الأنوار القدسية في مختصر الفتوحات المكية .

- مختصر المدونة للإمام مالك

- المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين

- منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول

- الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون

- لوائح الخذلان علىٰ كل من لم يعمل بالقرآن

- حد الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام

- التتبع والفحص علىٰ حكم الإلهام إذا خالف النص

ـ البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف .

ـ كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان

ـ رسالة في علم النحو ، واسمها : لباب الإعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب .

ـ رسالة في إعراب غريب القرآن .

ـ رسالة الأنوار .

ـ تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس

ـ الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع

ـ فرائد القلائد في علم العقائد

ـ الاقتباس في علم القياس .

هـٰذه بعض مؤلفاته ، وقد كتب المؤلف رحمه الله مئة كراسة في العلوم ثم غسلها .

ومن نظر في هـٰذه المؤلفات رأىٰ فيها اشتمالها علىٰ علوم شتىٰ ؛ كالفقه وأدلته ، والحديث وأصوله ، وأصول الفقه ، وأصول التصوف ، والتربية ، والنحو ، والطب ، والآداب العامة ، والعقائد والملل ، والتاريخ والرجال ، وغيرها ، مما يدل علىٰ مكانة ورسوخ علميٍّ قَلَّ نظيره في عصره ، حتى أبهر مَنْ بعده من مسلمين وغيرهم ، فرجال الاستشراق عكفوا علىٰ كتبه ورأوا فيها ما أبهرهم ولفت أنظارهم مثل (فولرز) و(ماكدونالد) و(نيكلسون) و(كرويمر) و(شاخت) وغيرهم

طرف من شعره وأقواله

لقد كان الشعراني صاحب حسٍّ مرهف ، وذوق رفيع ، وله سطور أدبية ماتعة ؛ من شعر ونثر ، وما نراه أحياناً في كتبه من لين العبارة ، وقربها من لغة العامة في عصره . . فذلك راجع لاجتهاده في هٰذه المسألة ، فالشعراني يقدم حاجة الفهم علىٰ فخامة العبارة والتأنق في سطرها ، بل ويحض الدعاة إلى التكلم بلغة العامة إن كان يعلم الداعية أن ذلك أجدىٰ نفعاً

وفي كتابه النفيس « كشف الحجاب والران » أنشد من أشعار القوم الشيء الكثير ، فما من مسألة وإلا ويستشهد عليها بطرف من شعرهم .

ومن شعره رحمه الله في الرضا بما قسم الله تعالىٰ[1] : [من الكامل]

يا ربِّ لا أُحصي عليك ثناءَ ... في كلِّ أمرٍ سرَّني أو ساءَ
أنتَ الحكيمُ وعينُ فعلكَ حكم ... قد عمَّتِ السرَّاءَ والضرَّاءَ
بكليهما مُتعرِّفٌ متعطِّفٌ ... فالداءُ في الدُّنيا نَراهُ دواءَ

وله في محبة الله تعالىٰ خالصةً من العلل والحظوظ[2] : [من البسيط]

أحبُّكمْ لا لشيءٍ في الوجودِ ولا ... أرجو سواكمْ ولا أبغي بكمْ بدلا
يا سادةً غمرُونا من فضائلِهم ... وألبسوا ذاتَنا التيجانَ والحللا

---

(١) انظر « المنن الكبرى » (١/ ٣٤٢) .

(٢) انظر « المنن الكبرى » (٢/ ٦٤٠) ، وكان قد كتبها بعد رؤيا رأىٰ فيها إكرام الله سبحانه وتعالىٰ له في الآخرة ، وكان قد تحمل أذىٰ شانئيه الذين آذوه وسَعَوا في قتله .

وأخدمُونا ملوكاً تحتَ طاعتِنا   لما خدمْنا وقمنا في الدُّجىٰ ذُللا[1]
وخلَّقونا بأخلاقِ الأكابرِ من   عفوٍ وصفحٍ وحلمٍ في الوجودِ مَلا
وشفَّعونا بيومِ الحشرِ في ملأٍ   منَ الأعادي وأغنوهمْ عنِ الخللا[2]
وأقطعُونا من الجناتِ ما عجزتْ   عنه الملوكُ وأرخَوا دونَنا الكللا
والكلُّ من فضلِهم قِدماً لعبدهم   فعمَّ جودُهُمُ الكونينِ واتَّصلا

ويصف الدخلاء في طريق القوم فيقول :

(رأيت جماعة يلبسون الصوف ، ويأخذون في أيديهم السبحة ، وألستهم كالعقارب ، وأفواههم كأفواه التماسيح ، وبطونهم كالسفن ، ثم بعد ذلك يدَّعون الطريق ، فإيَّاك وإيَّاهم) .

وقد وصف في « المنن الكبرى » مقامَ المحبة وحذَّر ممن يدعيه قبل التحقق به[3]

ويختم الشعراني في كتابه « المنن الكبرى » بالاعتراف بكثرة حلم الله عز وجل، وعدم المعاجلة بالعقوبة على الذنوب، ويقف علىٰ حدِّ العجز والاعتماد علىٰ عفو الله تعالى التي هي محطُّ رحال الأولين والآخرين ، فما من وليٍّ لله عز وجل إلا وهو يسأل الله تبارك وتعالى العفوَ والصفح عنه ،

(١) يورِّي بما أنعم الله عليه من طاعة الولاة والملوك له ، وقبول شفاعاته في الناس ، كالسلطان الغوري ، والسلطان طومان باي ، وغيرهما ، وهو علىٰ حد قول بعضهم :
إن الملوك ليحكمون على الورى   وعلى الملوك لتحكم العلماء
(٢) يشير إلى أنه رحمه الله ألزم نفسه الشفاعة لأعدائه وحاسديه يوم القيامة .
(٣) المنن الكبرى (٢/ ٢٠٤) .

وفي الحديث : « لا يدخلُ أحدٌ الجنةَ بعملِهِ »، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنَا ، إلا أن يتغمدَني اللهُ تعالىٰ برحمةٍ منهُ » ، ونحن نسأل الله عز وجل أن يعفو عنا ويصفح عن زلاتنا ، وأن يتغمدنا برحمته، آمين

وفي الختام فاللهَ تعالى أسأل ، وبمفتاح حضرته أتوسل ، أن يعود علينا بعوائد برِّه وإحسانه ويتقبَّل منا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يلهمنا شَفْع العلم بالعمل ، حتىٰ نكون قرَّة عين لسيد ولد آدم ، ومولانا محمد بن عبد الله ﷺ، وأن يرزقنا العمل بما في هٰذه المنن والنعم من الأخلاق ؛ حتىٰ يسلكنا بسلك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، إنه سبحانه خير مسؤول وخير مأمول ، والحمد لله رب العالمين

وفاته رحمه الله تعالى

فاضت روح الإمام عبد الوهاب الشعراني في الثاني عشر من جمادى الأولىٰ سنة (٩٧٣هـ ـ ١٥٦٥م) ، ودفن بجانب زاويته بين السورين ، وكانت آخر كلماته رحمه الله : أنا ذاهب إلىٰ ربي الرحيم الكريم ، رضي الله عنه ، ونفعنا بما ورَّثه لنا وجميع المسلمين ، آمين .

❁ ❁ ❁

منهج العمل في الكتاب

تمَّ اعتماد سبع نسخ رئيسة في إخراج كتابنا « المنن الوسطىٰ » هي من أنفس ما أمكن الوقوف عليه ، وقد قوبلت النسختان (أ ، ب ، و) مقابلة تامَّة ، كما عُورضت أكثر الفروق بباقي النسخ ، وتمَّ إثبات الفروق المهمة التي لها شأنٌ في المعنىٰ

ومن جملة العنايات التي حَظِيَ بها الكتاب

ـ تخريجُ الأحاديث والآثار التي صرَّحَ بها الإمام المصنف أو أشار إليها ؛ وذلك بالعزو إلىٰ أمَّات كتب الآثار والتواريخ

ـ تخريجُ غالب أقوال ونقولات العلماء والأئمَّة وقَصصهم وأخبارهم ؛ وذلك بالرجوع إلى المصادر التي ينقل عنها المؤلِّف أو تُعنىٰ بذلك .

ـ عزوُ الأبيات الشعرية لقائليها ؛ بالإحالة علىٰ دواوينهم أو عموم كتب الأدب ، مع شَكلها شَكلاً إعرابياً ، وذكرِ البحر العروضيِّ لها

ـ تمَّ تصحيحُ الأخطاء الإملائية وما شابهها ، ممَّا يقع الجزمُ أنه سَبقُ قلم أو وَهْم ناسخ ، ولم يُنبَّه علىٰ ذلك لوضوحه وجلائه .

ـ كما تمَّ تصحيح العبارات التي لا يستقيم معناها ، وجعلُ المصحَّح بين معقوفين ؛ ليتنبَّه القارئ لذلك ، مع ذكر ما وقعَ في أصل النسخ

ـ عنونةُ جميع النعم والمنن الواردة في الكتاب ، وجعلُ هـٰذه العناوين ضمن معقوفين ، وإضافةُ بعض العناوين لبعض الفِقَر المهمَّة

ـ شكلُ الكلمات المشكلة والموهمة وغيرها ؛ لزيادةِ التوضيح ، وبيانِ الإعراب ، وكَحْلِ السطور .

ـ شرحُ الكلمات الغامضة ، وغالبِ الكلمات العامِّية التي أوردها المؤلِّفُ ؛ وذلك بالرجوع إلى الكتب التي تُعنىٰ بعامِّية مصرَ وغيرها ذلك الإبَّان

ـ إحالةُ جميع ما صرَّح المؤلِّف بتقدُّمه أو تأخُّره ؛ وذلك من خلال عزوه إلىٰ مكانه المحدَّد .

ـ إعدادُ ترجمةُ للإمام الشعرانيِّ ، تبرزُ مكانتَهُ العلميةَ والاجتماعيةَ .

وفي الختام : فاللهَ أسأل أن يُخلِّقَنا بهـٰذه الأخلاق المحمدية المبثوثة في هـٰذا الكتاب ، وأن يعلِّمنا ما ينفعُنا ، وأن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يُحسن ختامَنا ووالدينا وأشياخنا وذرِّياتنا والمسلمين ، ويحشرنا تحت لواء سيِّد المرسلين ، صلوات الله عليه وعلىٰ آله وصحبه والتابعين

وكتبه
معاذ عبد الرحمن الحوَاشش

حرر في دمشق الشام
(١) ربيع الأنور (١٤٤٣هـ)
الموافق (٨) تشرين الأول / أكتوبر (٢٠٢١م)

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولى

نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة ، ذات الرقم (٥٣٣٦٢) تصوف ، والخاص (١٥٩٢) ، وهي نسخة تامة كتبت بخط نسخي ، وقعت في (١٦٣) ورقة ، مُيِّزت عناوين الأبواب والمنن باللون الأحمر ، وهي نسخةٌ قريبة العهد بالمؤلِّف ؛ إذ كتبت سنة (١٠٢١هـ) ، وجاء عنوان الكتاب في الورقة الأولىٰ منها : (لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ؛ وهي المنن الوسطىٰ)

ورمز لها بـ (أ)

النسخة الثانية

نسخة المكتبة الأزهرية ، ذات الرقم العام (٤٥٨٧٣) تصوف ، والخاص (١٦٥٤) ، وهي نسخة تامة وقعت في (٢٤٧) ورقة ، وكتبت بخط نسخي ، وبلونين متغايرين ، مُيِّزت عناوين الأبواب والمنن باللون الأحمر ، وهي نسخة قريبة العهد بالمؤلف أيضاً ؛ إذ كتبت سنة (١٠٢٢هـ) ، وجاء عنوان الكتاب في الورقة الأولىٰ (كتاب المنن

والأخلاق في التحدث بنعمة الله على الإطلاق) ، ثم كتب (وهي المنن الوسطىٰ)

وكاتبها : عبد الجواد درويش بن يحيى الأنصاري

ورمز لها بـ (ب)

النسخة الثالثة

نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، ذات الرقم (٤٠٤٦) ، وهي نسخة غير تامة ، فيها بتر من أولها ، كتبت بخط نسخي ، وقعت في (٢٥٦) ورقة ، وهي أقدم نسخة ؛ إذ وقع الفراغ من نسخها سنة (١٠١٧)

وكاتبها : درويش محمد بن أحمد الوفائي ثم العرياني

ورمز لها بـ (ج)

النسخة الرابعة

نسخة مكتبة حكيم أوغلو ، ذات الرقم (٥١١) ، وهي نسخة تامة ، وقعت في (٢٢٣) ورقة ، وكتبت بخط نسخي ، وبلونين متغايرين ، مُيِّزت عناوين الأبواب والمنن باللون الأحمر ، وهي نسخة قريبة العهد أيضاً من المؤلف ؛ إذ وقع نسخها سنة (١٠٣٧هـ) ، وقد كتب على ظهرها عنوان الكتاب خطأ ، وصحح بقلم مغاير إلىٰ : (المنن الوسطىٰ) في أول النسخة .

ورمز لها بـ (د)

النسخة الخامسة

نسخة مكتبة حاجي بشير آغا ، ذات الرقم (٣٧٥) ، وهي نسخة تامة ، وقعت في (٢٥٧) ورقة ، وكتبت بخط نسخي ، وبلونين متغايرين ، مُيِّزت عناوين الأبواب والمنن باللون الأحمر ، وكتب علىٰ ورقة العنوان تاريخ تملك سنة (١١٤٣هـ) .

وجاء عنوان الكتاب في الورقة الأولىٰ : (كتاب لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق) ، ثم كتب (وهي المنن الوسطىٰ)

ورمز لها بـ (هـ)

النسخة السادسة

نسخة المكتبة الأزهرية ، ذات الرقم العام (٩١٧٧٢) تصوف ، والخاص (٢٤٧٨) ، وهي نسخة تامة ، وقعت في (١٩٧) ورقة ، وكتبت بخط نسخي ، وبلونين متغايرين ، ميزت الأبواب والمنن باللون الأحمر ، وليس لها تاريخ نسخ

وجاء عنوان الكتاب في الورقة الأولىٰ : (كتاب لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق) ، ثم كتب (وهي المنن الوسطىٰ) .

ورمز لها بـ (و)

النسخة السابعة

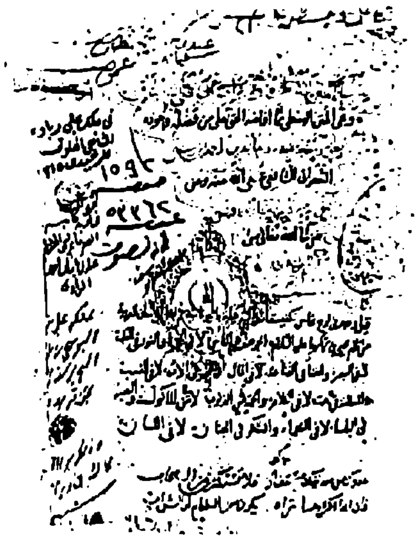
نسخة المكتبة الأزهرية ، ذات الرقم العام (٩٧٧٤٠) تصوف ، والخاص (٣١٣٨) ، وهي نسخة تامة ، وقعت في (٣٠٤) ورقة ، وكتبت بخط نسخي ، وبلونين متغايرين ، مُيِّزت عناوين الأبواب والمنن باللون الأحمر ، وليس لها تاريخ نسخ .

وجاء عنوان الكتاب في الورقة الأولىٰ : (كتاب لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، وهي المنن الوسطىٰ) .

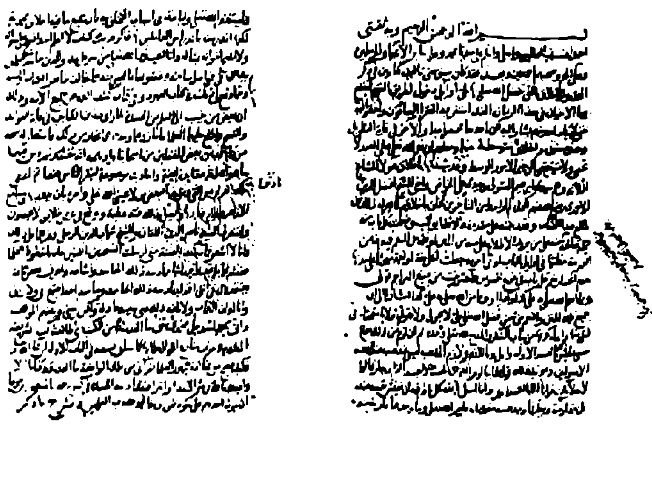
ورمز لها بـ (ز)

❁ ❁ ❁

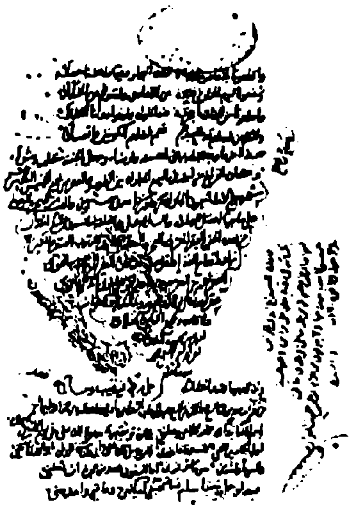
صور من المخطوطات المستعان بها



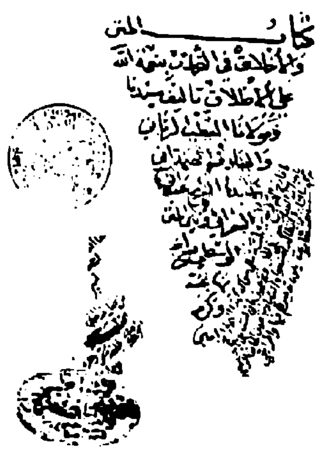
راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)



راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)



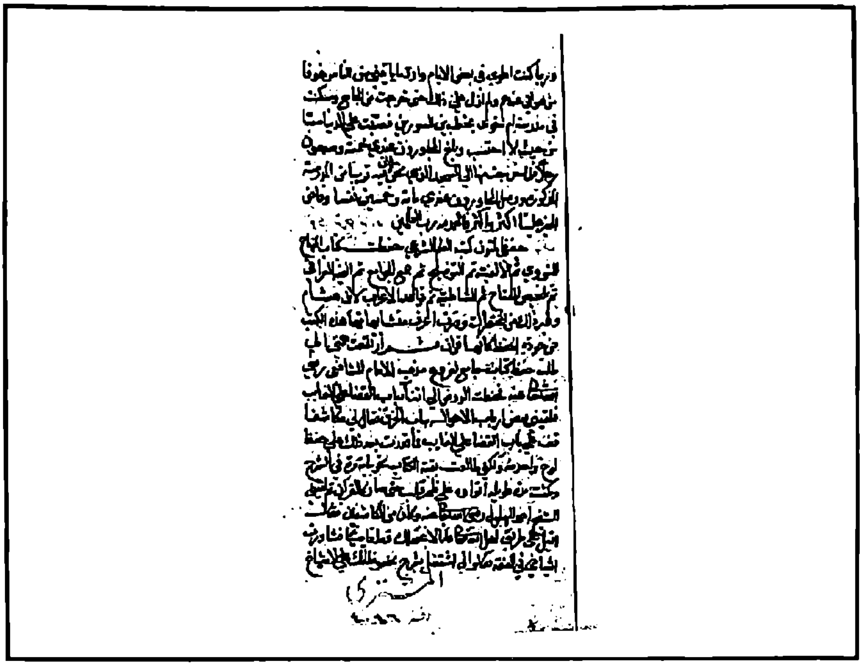
راموز ورقة العنوان من النسخة (ب)



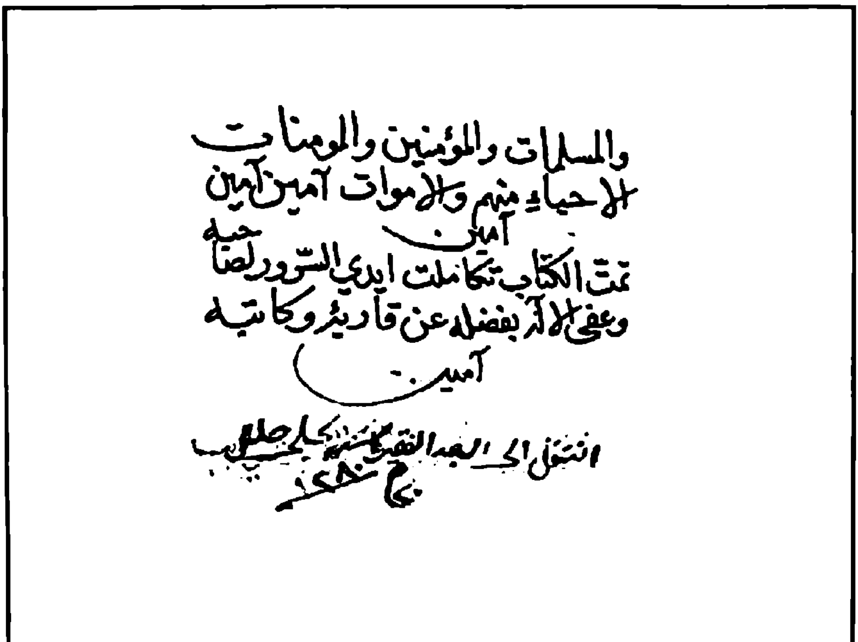
راموز الورقة الأولى من النسخة (ب)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

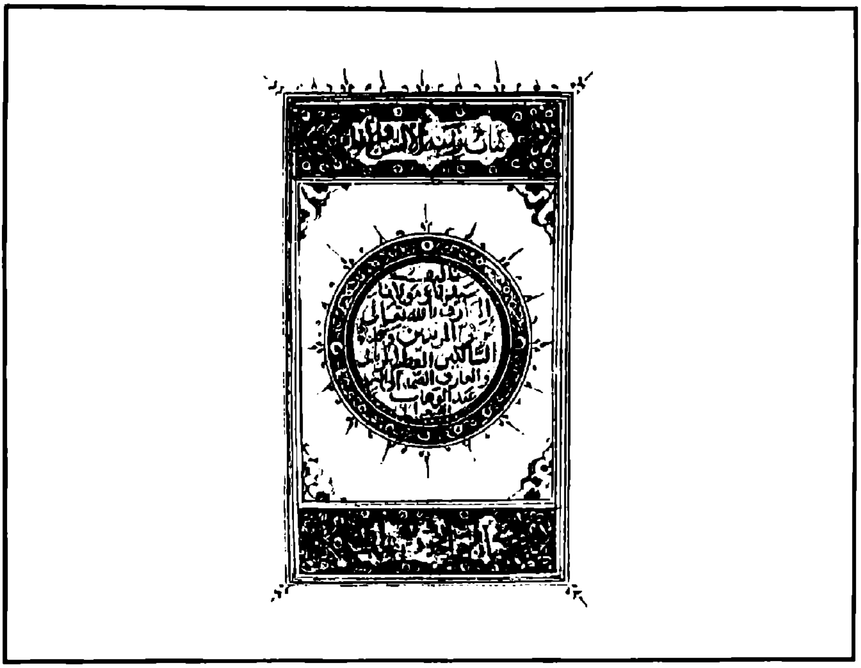


راموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

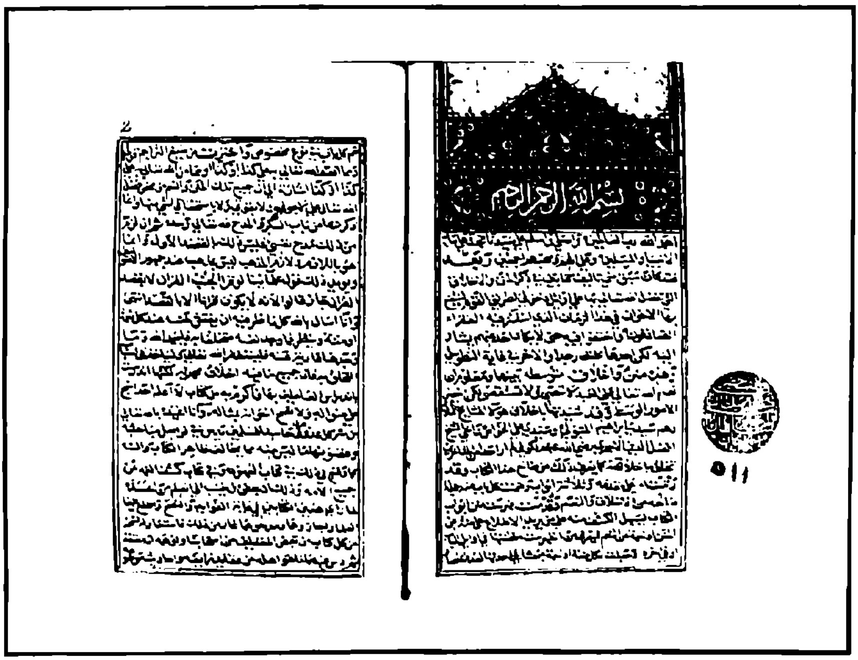


والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات
الأحياء منهم والأموات آمين آمين
آمين
تمت الكتاب تكاملت ايدي السرور لصاحبه
وعفى الإله بفضله عن قاريه وكاتبه
آمين

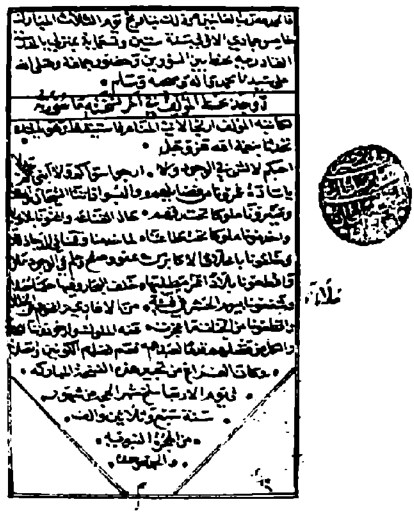
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)



راموز ورقة العنوان من النسخة (د)



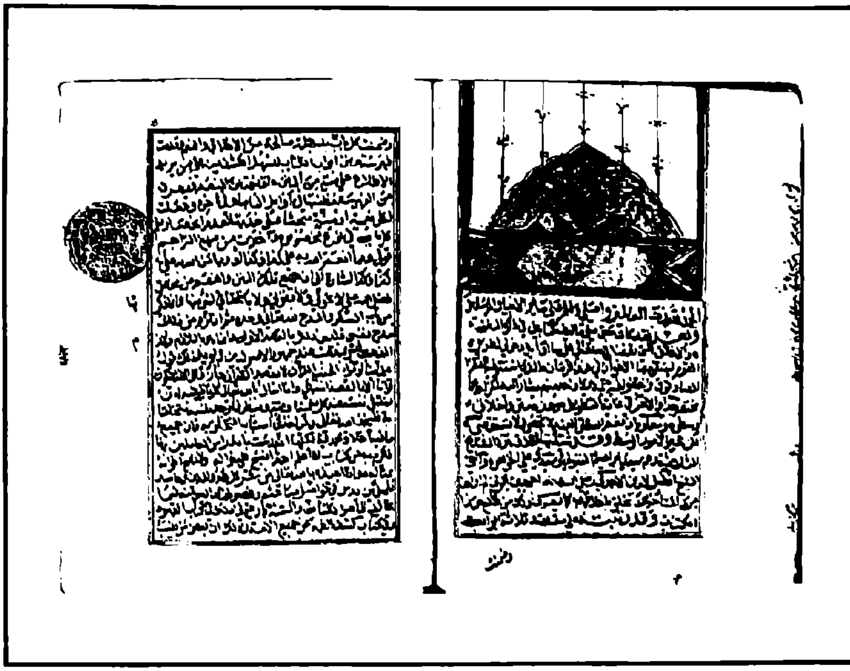
راموز الورقة الأولى من النسخة (د)



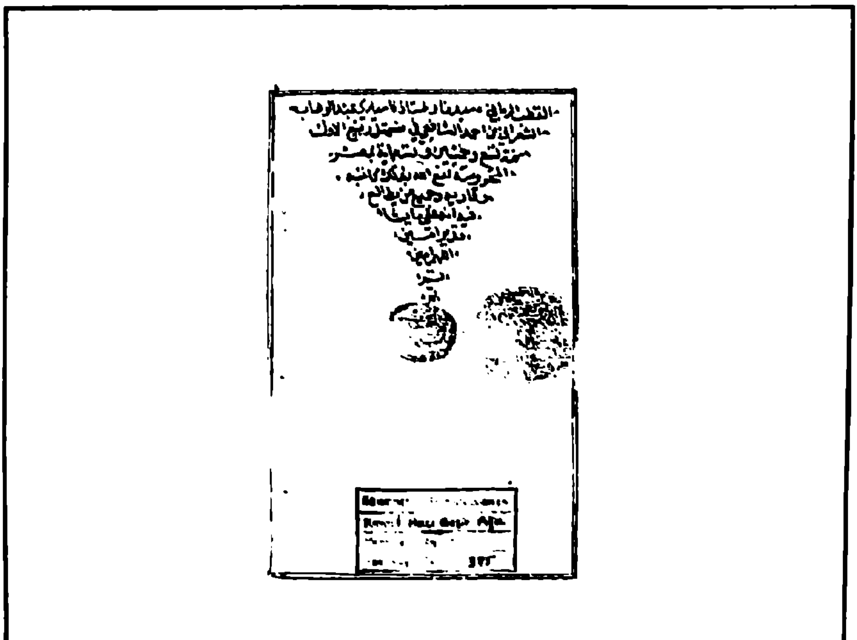
راموز الورقة الأخيرة من النسخة (د)



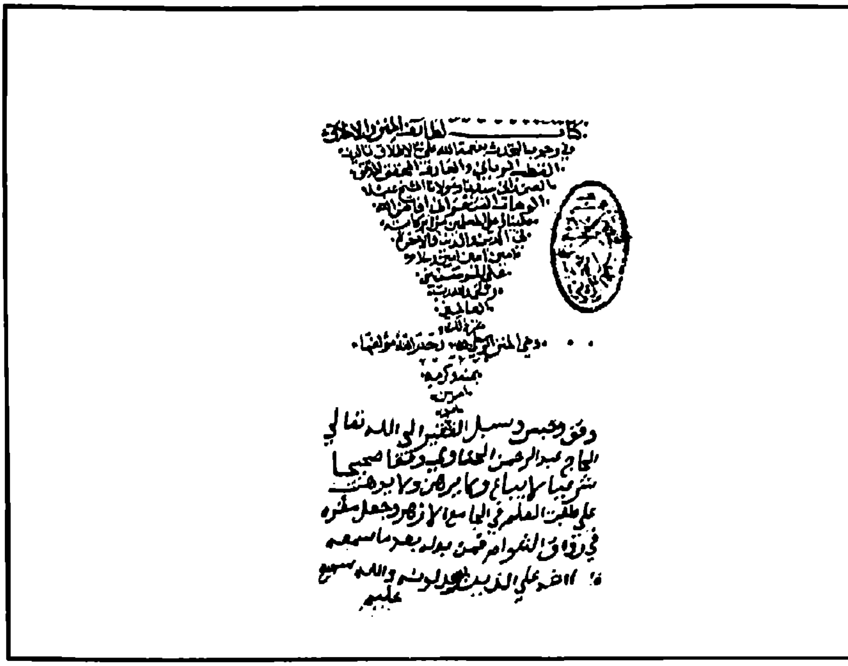
راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)



راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)

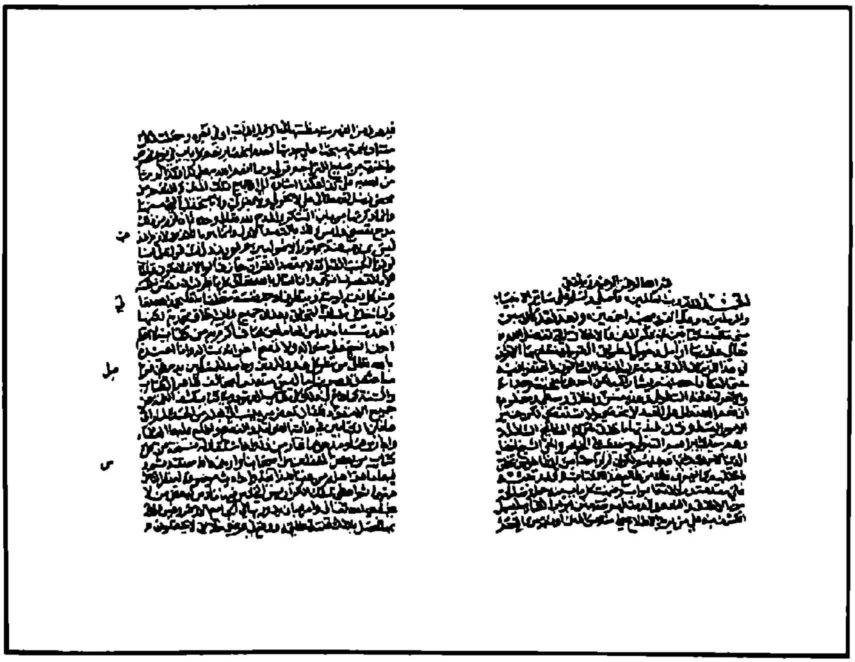


راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)

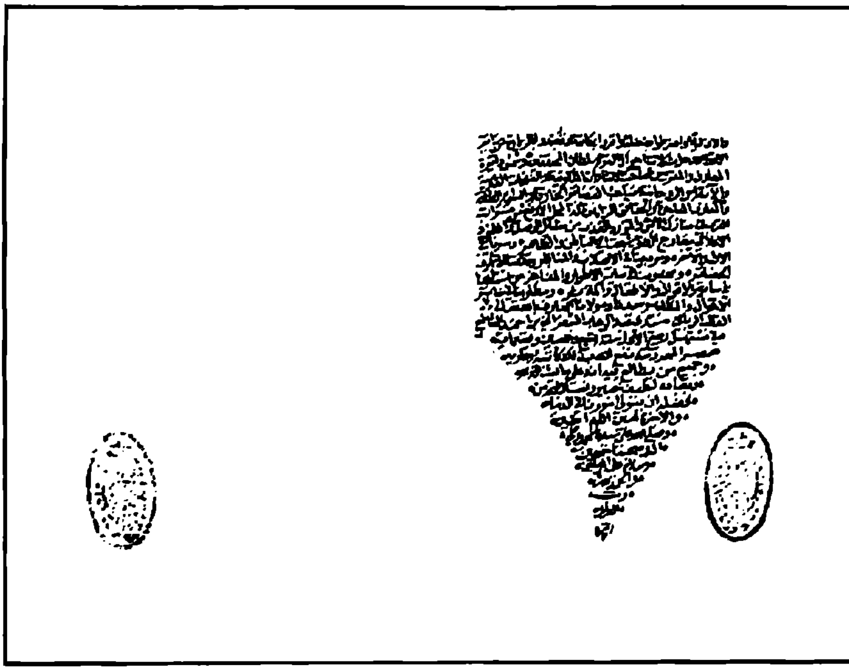


وقف وحبس وسبل الفقير إلى الله تعالى
الحاج عبد الرحمن الحناوي وقفا صحيحا
شرعيا لا يباع ولا يرهن ولا يوهب
على طلبة العلم في الجامع الأزهر وجعل مقره
في رواق الشوام فمن بدله بعد ما سمعه
فإنما إثمه على الذين يبدلونه والله سميع
عليم

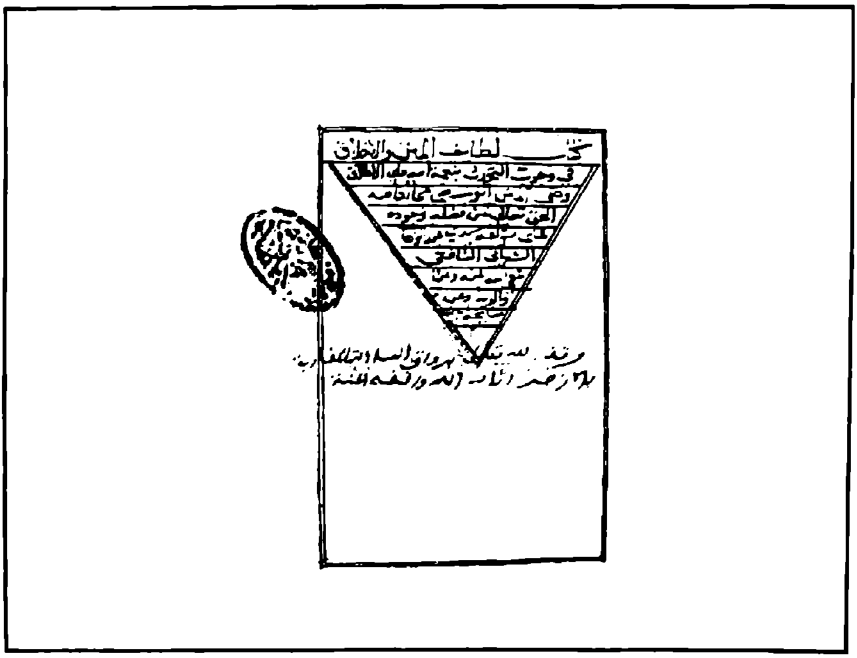
راموز ورقة العنوان من النسخة (و)



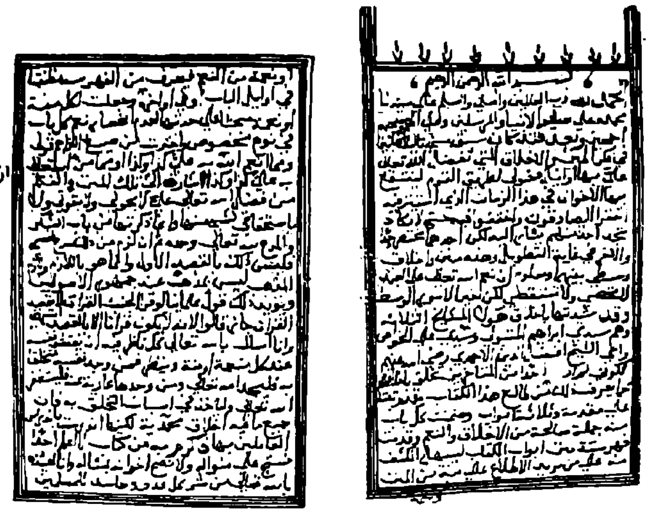
راموز الورقة الأولى من النسخة (و)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (و)



راموز ورقة العنوان من النسخة (ز)



راموز الورقة الأولى من النسخة (ز)



راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ز)

لطائف المنن والأخلاق

في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

المعروف بـ:

«المنن الوسطى»

تأليف

الإمام العارف الرباني

أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

(٨٩٨-٩٧٣هـ)

يطبع محققاً على سبع نسخ خطية

حققه

معاذ عبد الرحمن الهوّاش

دار التقوى

دمشق الشام

خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

أحمد الله رب العالمين وأصلي وأسلم على سيدنا محمد
وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين

وبعد :

فقد كان سبق مني تأليف كتابين في ذِكر المنن والأخلاق التي تفضَّلَ الله تعالىٰ بها عليَّ أوائلَ دخولي لطريق القوم ؛ لينتفع بها الإخوان في هٰذا الزمان الذي استتر فيه الفقراء الصادقون واختفوا فيه ، حتىٰ لا يكادُ أحدٌ منهم يُشارُ إليه ، لٰكنَّ أحدَهما مختصرٌ جدّاً ، والآخرَ في غاية التطويل ، وهٰذه منن وأخلاق متوسطة بينهما(١)

ومعلومٌ : أنَّ نِعَمَ الله تعالىٰ على العبد لا تحصىٰ ولا تُستقصىٰ ، لٰكن خير الأمور الوسط .

وقد شيدتُها بأخلاق هٰؤلاء المشايخ الثلاثة ؛ وهم : سيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي عليٌّ الخواص ، وأخي الشيخ أفضل الدين الأحمديُّ

---

(١) وقد تمَّ بحمده سبحانه إصدار طبعة متقنة لـ « المنن الكبرى » في (دار التقوى) ، وعن قريبٍ ستصدر « المنن الصغرى » بعون الله تعالى .

رضي الله تعالىٰ عنهم ؛ لكوني لم أرَ أحداً من المتأخرين تخلَّقَ بأخلاقهم كما يَعرِفُ ذلك مَن طالع هـٰذا الكتاب

وقد رتَّبتُه علىٰ مقدمة وثلاثة أبواب ، وضمَّنتُ كلَّ بابٍ منه جملةً صالحةً من الأخلاق والنعم ، وقدمت فِهْرِسْتَ مننِ أبواب الكتاب ؛ ليسهل الكشف منه علىٰ مَن يريد الاطِّلاع علىٰ مِنَّة من المنن أو نعمةٍ من النِّعَم ، فيعرف من الفهرست مَظِنَّتها في أوائل الباب أو في آخره ، وجعلتُ لكلِّ مِنَّةٍ أو نعمة مبحثاً علىٰ حِدَتِها ؛ لعدم انحصار نِعَم كلِّ باب في نوع مخصوص ، واخترتُ من صيغ التراجم قولي (وممَّا أنعم اللهُ تعالىٰ به عليَّ كذا وكذا) ، أو (وممَّا منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ كذا وكذا) ؛ إشارةً إلىٰ أن جميع تلك المنن والنعم من محض فضل الله تعالىٰ عليَّ ، لا بحولي ولا بقوتي ولا باستحقاقي لشيءٍ منها ، وإنما ذكرتها من باب الشكر والمدح لله تعالىٰ وحده .

ثم إنْ لزم من ذلك مدحُ نفسي فليس ذلك بالقصد الأول ، وإنما هو باللازم ، ولازمُ المذهب ليس بمذهب عند جمهور الأصوليين

ويؤيد ذلك قولُ علمائنا : لو قرأ الجنبُ القرآنَ لا بقصد القرآن جاز[1] ، قالوا : لأنه لا يكون قرآناً إلا بالقصد . انتهىٰ

وأنا أسأل بالله كلَّ ناظرٍ فيه أن يُفتِّشَ نفسَهُ عند كل نعمة أو مِنَّة وينظر ؛

(١) كقوله في الأكل : (باسم الله) ، وعند فراغه : (الحمد لله) ، وعند ركوبه : (سبحان الذي سخر لنا هـٰذا) ، وعند المصيبة : (إنا لله وإنا إليه راجعون) انظر « تحفة المحتاج » (١/ ٢٧١) .

فما وجد نفسه مُتخلِّقاً به فليحمدِ الله تعالىٰ ، وما وجدها عارية عنه فلْيستغفِرِ الله تعالىٰ ، وليأخذ في أسباب التخلُّقِ به ؛ فإن جميع ما فيه . . أخلاق محمدية ، لـٰكنها اندرست باندراس العاملين بها

فأكرِمْ به من كتاب لا أعلمُ أحداً نسَجَ علىٰ منواله ، ولا نصح إخوانه بمثاله ! وأنا أُعيذُه بالله تعالىٰ من شرِّ كلِّ عدوٍّ للدِّين ، وحاسدٍ للمسلمين ؛ يَدسُّ في فواصل مباحثه وغضونها ما ليس منه مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة ؛ كما وقع لي ذلك في كتاب « العهود » ، وفي كتاب « كشف الغمة عن جميع الأمة » ، وذلك أنَّ بعضَ من يُنسَب إلى العلم من الحسدة لمَّا رأىٰ هـٰذين الكتابين في غاية الفوائد والنُّصح ، واطَّلعَ عليهما العلماءُ ، وأجازوهما ومدحوهما . . غار من ذلك ، فاستعار له نسخةً من كل كتاب من بعض المغفَّلِين من أصحابنا ، وأوهمه أنه معتقد ، ثم دسَّ فيهما ما هو أهله ؛ من عقائدَ زائغة ، وأحاديثَ موضوعة ؛ لينفر الناس عنهما .

ثم أعطىٰ تلك الكراريس التي دسَّ فيها ما دسَّ لبعض مَن لا يخشى الله تعالىٰ ، وأمره بأن يدور بها في جامع الأزهر وغيره ، فدار بها ، فحصل بذلك فتنة عظيمة .

ووقع في عِرضي خلائقُ لا يُحصَون ، وانتصر لي الشيخ ناصر الدين اللقَانيُّ ، والشيخ شهاب الدين الرمليُّ ، وغيرهما ؛ كل ذلك وأنا لا أشعر ، فما سكنت الفتنةُ حتىٰ أرسلتُ النسختين اللتين عليهما خطوط العلماء ، ففتَّشُوهما ، فلم يجدوا فيهما شيئاً مما دسَّهُ ذلك الحاسد وأشاعه

وأعرف بعضَ جماعة يعتقدون فيَّ أنني أقول بما دسَّهُ ذلكَ الحاسد ، وما منهم أحدٌ اجتمعَ بي ولا رآني وأنا أُؤلِّفُ الكتابَ ، ولا بلغَهُ ذلك عني ببيِّنة عادلة ، ولـٰكن بيني وبينهم الموقف ؛ فإني بحمد الله رجلٌ محمَّديٌّ سُنيٌّ ، ما أَلَّفتُ شيئاً من الكتب حتىٰ طالعت كتب الشريعة المطهَّرة ، وعرفت منازعَ أقوال علمائها ، كما سيأتي بسطه في الباب الأول إن شاء الله تعالىٰ[1] ، فكيف يصحُّ مني مخالفةُ جمهور العلماء ؟!

ثم إني من تلك الواقعة ما أَلَّفتُ قطُّ كتاباً إلا وأُعيذُه بالله من شرِّ الأعداء ، وأتبرأُ فيه مما دسَّهُ الحسدة في كتبي رحمةً بالمتهورين ؛ خوفاً أن يموت أحدهم علىٰ سوء ظنٍّ بي ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

❁ ❁ ❁

ولنشرع في ذكر فِهْرِسْتِ الكتاب ، فأقول وبالله التوفيق

---

(١) انظر (ص١٣٩) .

فهرست الكتاب

المقدمة

الباب الأول

ثم التخلقِ بأخلاق المريدين .

ثم كثرةِ تحمل البلايا والمِحَن

ثم قلةِ ضجر المؤلف ممن يؤذيه

ثم كراهتي لمن يجيب عني الحسدةَ .

ثم الشكرِ على البلاء

ثم انتصارِ الحقِّ تعالىٰ للمؤلف

ثم كثرةِ محبتي لمن يُنفِّرُ عنِّي أبناءَ الدنيا

ثم كثرةِ محبتي لمن بالغ في إيذائي .

ثم كثرةِ الرحمة لمن يؤذيني

ثم عدمِ عمل حيلة في مقابلة مَن آذاني

ثم كثرةِ محبتي للفقهاء الذين أنكروا عليَّ .

ثم إقامةِ العذر لكل مَن آذاني .

ثم مبادرتي لشكر الله تعالىٰ إذا نقصني أحدٌ .

ثم عدمِ تكديري ممن فاضل بيني وبين أحد من علماء الزمان .

ثم عفوي وصفحي عن كلِّ مَن جنىٰ عليَّ من هـٰذه الأمة كلها

ثم فِدائي للعلماء بنفسي إذا وقع أحدهم في مصيبة مثلاً

ثم مسامحتي لجميع مَنِ اغتابني مِنْ ورائي ولم يبلغني ذلك ، أو اغتابني بعد موتي .

ثم كراهتي لعمل الكيمياء وفتح المطالب

ثم تساوي الذهب والتراب عندي في عدم الميل إلى الذهب

ثم كثرةِ شفقتي على المسلمين وولاة أمورهم ، وتحويط جسورهم وزروعهم وبيوتهم ، وغير ذلك

ثم إحساسي بمشاركة أهل البلاء

ثم مساعدتي لأصحاب النوبة في حفظ أدراكهم في سائر أقطار الأرض

ثم احتمائي عن أكل الشهوات أيامَ تحمل البلاء

ثم دخولي لقضاءِ حوائج الناس من أبوابها

ثم زيادةِ الإحسان إلىٰ كلِّ مَنْ كفر بواسطتي له في خير

ثم عدمِ طلبي الثوابَ علىٰ شيء من طاعاتي إلا من باب المنة .

ثم عدمِ قَبولي مُرتَّباً من بيت المال .

ثم حمايتي من الأكل من هدايا الظَّلَمة وأعوانهم .

ثم إنصافي لكلِّ مَنْ عاملني في بيع وغيره ، وتَرْكِ أخذ أجرة مركبي أو معصرتي أيام البطالة .

ثم شهودي أنَّ جميع ما أتحمله من الأهوال في الدنيا. . إدمانٌ ليوم القيامة

ثم عدمِ الأكل من هدية مَن شفع المؤلف فيه .

ثم نعمةُ عدم الأكل من هديةِ أعلمني بها صاحبها قبل أن يأتي بها

ثم نعمةُ عدم البخل بشيء دخل يدَ المؤلف .

ثم نعمةُ مراعاة المؤلف الحياءَ من الله في بعض الأوقات .

ثم نعمةُ حمايته من الأكل من ضيافة الأوقاف .

ثم نعمةُ جعل الحظ والمصلحة لجهة الوقف إذا زرع الناظر في أرضه .

ثم نعمةُ عدم الأكل من هدية أو صدقة أرسلها إنسانٌ وفي البلد مَن هو أحوج إليها من المؤلف .

ثم نعمةُ عدم إقامة شيء من محبوبات الدنيا في قلب المؤلف .

ثم نعمةُ إضافة كلِّ مذموم في الوجود إلىٰ إبليسَ ببادئ الرأي .

ثم نعمةُ عدم إساءة الظنِّ بأحد من المسلمين

ثم نعمةُ حمل كلام الأكابر علىٰ أحسن الوجوه

ثم نعمةُ عدم المطالبة بالوفاء بالعهد لمن خالف عهدَ الله وعهدَ رسوله .

ثم نعمةُ حماية المؤلف من الاختصاص بما وُقِفَ عليه وعلىٰ ذُرِّيَّته

ثم نعمةُ تَعفُّفِ المؤلف عن الأكل من طعام مَن عُرِفَ بقِرى الضيف في هـٰذا الزمان .

ثم نعمةُ حماية المؤلف من أخذ معلوم علىٰ شيء من القربات الشرعية .

ثم نعمةُ عدم قَبول المؤلف مِنْ وَقْفِ المرتَّب شيئاً زائداً علىٰ إخوانه .

ثم نعمةُ عدم مطالبة المؤلف لأحدٍ بحق في الدارين ، بل ينتظر المديون يأتي به .

ثم نعمةُ عدم رؤية المؤلف نفسه أنه أحق بما عنده من المسلمين ؛ من نقود ، وثياب ، وغير ذلك .

ثم نعمةُ عدم التفات المؤلف إلى التفتيش علىٰ شيء ضاع منه ولو ألفَ دينار

ثم نعمةُ عدم مزاحمة المؤلف علىٰ فعل شيء فيه رئاسة

ثم نعمةُ كثرة حذر المؤلف من إبليسَ كلما ترقّىٰ في المقامات

ثم نعمةُ كثرة تكبير المؤلف بإخوانه عند الأمراء والكبراء

ثم نعمةُ كثرة الأجوبة عن أئمة الدِّين .

ثم نعمةُ انشراح الصدر لتقديم زيارة مَنْ يكره المؤلفَ وينكر عليه علىٰ حِدة[1]

ثم نعمةُ عدم تقديم المؤلف نفسَهُ علىٰ إخوانه إلا برضاهم

ثم نعمةُ عدم رؤية المؤلف له مِلكاً مع الله تعالىٰ في الدارين

ثم نعمةُ خفض الجناح لفسقة المسلمين وأصحاب الكتب

ثم نعمةُ كثرة نصح المؤلف لجميع إخوانه

ثم نعمةُ عدم تردده إلىٰ بيوت الحكام إلا لضرورة شرعية

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر (ص٢٧٧) لبيان هذه النعمة

الباب الثاني

وفيه من النعم

نعمةُ عدم رؤية المؤلف نفسَهُ أنها لا تقع في أكبر الكبائر

ثم نعمةُ تعظيم المؤلف لولاة الزمان من قاضٍ وغيره .

ثم نعمةُ عدم محبة المؤلف لتردُّدِ أحد من الأكابرِ إليه .

ثم نعمةُ عدم خوف المؤلف من تهديد أحد من الولاة له .

ثم نعمةُ أمر المؤلف بالمعروف كلَّ كبيرٍ دخلَ إليه

ثم نعمةُ حسن سياسة من يَكره أخاه المسلم بغير حق

ثم نعمةُ رمي أموال الولاة إذا جاؤوا بها في صحن الزاوية .

ثم نعمةُ عدم خوف المؤلف من حيّةٍ أو ثعبانٍ . . إلا من حيث كونُ النفس رعيةً لا من حيث أمرٌ آخر

ثم نعمةُ تنبيهي في المنام على ما يقع مني من النقائص

ثم نعمةُ محبتي لإظهار أعمالي الصالحة بشرطها

ثم نعمةُ محبتي للتقلل من مجالسة الأكابر .

ثم نعمةُ كثرة التعظيم للأشراف .

ثم نعمةُ معرفة المؤلف بأصوات الشرفاء من أصوات غيرهم

ثم نعمةُ عدم أكل المؤلف من الصدقات الخاصة إلا لضرورة .

ثم نعمةُ مشاورة المؤلف للحقِّ جلَّ وعلا إذا كان يقرأ في كلامه وأراد إنسان أن يُكلِّمَه ، وكذلك استئذان النبي والولي في حال قراءة كلامهما

ثم نعمةُ عدم مَدِّ رجل المؤلف في ساعة من ليلٍ أو نهار. . إلا بعد استئذانٍ من الله تعالىٰ

ثم نعمةُ كراهة المؤلف للنوم علىٰ حدثٍ أكبرَ أو أصغرَ ، ظاهرٍ أو باطن

ثم نعمةُ عدم نومي في الثلث الأخير من الليل أو الليالي الفاضلة. . إلا لضرورة

ثم نعمةُ عدم حزني علىٰ شيء فاتني من أمور الدنيا ، وعدم التكدر ممن صدَّها عني

ثم نعمةُ انشراح الصدر إذا لم يجد المؤلف عنده شيئاً من الدنيا

ثم نعمةُ الرضا عن الله تعالىٰ إذا قَدَّرَ علىٰ عبده معصية ، لٰكن مع الندم .

ثم نعمةُ عدم الاعتداد بشيء من الطاعات علىٰ وجه الاعتماد عليها دون الله تعالىٰ

ثم نعمةُ حسن سياسة المؤلف للمقاريض في أعراض الناس

ثم نعمةُ نفرة المؤلف ممن يمدحه بنثر أو نظم

ثم نعمةُ عدم مؤاخذة المؤلف لعدوه

ثم نعمةُ موافقتي في المدح لعدوي إذا سمعت مَنْ يمدحه

ثم نعمةُ عدم محبة المؤلف لأن يبيت علىٰ دينار أو درهم .

ثم نعمةُ عدم إنكار المؤلف علىٰ من يأخذ أموال الظَّلَمة . . إلا بطريق شرعي .

ثم نعمةُ عدم المبادرة بالإنكار علىٰ من يسعىٰ علىٰ وظائف الناس .

ثم نعمةُ عدم بُغض المؤلف لأحد ممن يحضر المواكب الإلـٰهية .

ثم نعمةُ الأدب مع قُضاة زماننا ، وعدمِ القول ببطلان أحكامهم إلا بطريق شرعي

ثم نعمةُ كراهة المؤلف للأكل من طعام المتهورين في مكاسبهم ؛ من تُجَّار ، ومباشرين ، وغيرهم

ثم نعمةُ عدم خيانتي لإمامي بالغيب

ثم نعمةُ محبة المؤلف للأكل مع الجماعة ، وقبضِ الخاطر إذا لم يجد أحداً يأكل معه

ثم نعمةُ كراهة المؤلف للأكل من طعام النُّذور والأعراس ونحوهما ، ثم طعامِ العزاء والجُمَع وتمام الشهر

ثم نعمةُ عدم الأكل من طعامِ الصنائعيِّ الضعيف الحالِ ، أو من طعامٍ علمتُ أنَّ له قدراً عند صاحبه ، أو طعامِ مَن علمتُ أنَّ عليه دَيناً لأحد

ثم نعمةُ عدم ردِّي السَّائلَ بشرطه .

ثم نعمةُ المبادرة إلىٰ إقامة العذر لمن ظلم المؤلفَ

ثم نعمةُ كثرة التسليم لمن ادَّعىٰ مُمكِناً في العادة

ثم نعمةُ اعتقاد الخلق في المؤلف ؛ من الجن والإنس والكفار .

ثم نعمةُ سماع المؤلف تسبيح الحصا والحيوانات

ثم نعمةُ عدم القول بالجهة في جانب الحقِّ تعالىٰ

ثم نعمةُ عدم إقامتي الحُجَّةَ علىٰ مقدورات الحقِّ جلَّ وعلا

ثم نعمةُ عدم تسليم المؤلف لنفسه العجزَ عن شيء من الطاعات

ثم نعمةُ الحماية من أكل طعامٍ ممن شفع فيه المؤلف

ثم نعمةُ عدم قبول المؤلف لنفسه شيئاً من هدايا الولاة

ثم نعمةُ عدم المزاحمة علىٰ صحبة أحد من أبناء الدنيا

ثم نعمةُ عدم صحبة الولاة ، إلا إن كان نفع صحبتهم أرجحَ من مُقاطعتهم

ثم نعمةُ كثرة اعتقاد الولاة في المؤلف

ثم نعمةُ حسن سياسة المؤلف لمن يشفع عنده من الولاة وغيرهم

ثم نعمةُ عدم الأكل من صدقات الناس وزكواتهم

ثم نعمةُ كثرة الحلم والصفح عن الإخوان .

ثم نعمةُ هوان الدنيا على المؤلف ؛ فالألفُ دينار عنده كالقَشَّة .

ثم نعمةُ عدم تشوُّف نفس المؤلف إلىٰ مكافأة إذا أهدىٰ لأحد شيئاً

ثم نعمةُ انشراحِ الصدر للإسرار بالصدقة ، وكراهةِ اطِّلاع الناس عليها

ثم نعمةُ شكر المؤلف لله تعالىٰ إذا زوىٰ عنه الدنيا

ثم نعمةُ عدم مساعدة الظَّلَمة لي في حجَّاتي الثلاث .

ثم نعمةُ حماية المؤلف من الأكل من ضحايا الولاة التي يرسلونها [إلى] الزاوية .

ثم نعمةُ عدم تكدر المؤلف ممن ذهب إلىٰ زيارته فلم يفتح له الباب وردَّهُ .

ثم نعمةُ عدم قطع المؤلف الإحسانَ لمن كفر بواسطته وتربيته

ثم نعمةُ عدمِ شَحَّة النفس على القطة ، وعدمِ إرعابها إذا خطفت الدجاجة .

ثم نعمةُ حضور قلب المؤلف مع الله حالَ أكله وشربه .

ثم نعمةُ محبة المؤلف لمن حالَ بين وصول مال أحدٍ من الولاة إليه .

ثم نعمةُ شهود المؤلف أنَّ جميع ما يُنزله اللهُ عليه من البلاء إنما هو محبةٌ له .

ثم نعمةُ تنبيه المؤلف في المنام علىٰ ما أكله من الحرام والشبهات

ثم نعمةُ عدم إطعام المؤلف الضيفَ شيئاً فيه شبهة

ثم نعمةُ عدم تكلف المؤلف للضيف

ثم نعمةُ عدم إعلام المؤلف أصحابَهُ إذا عمل وليمة ؛ خوفاً من تكليفهم .

ثم نعمةُ حماية المؤلف من التداوي بإشارة كافر .

ثم نعمةُ تحمُّل المؤلف المرضَ عن المريض إذا عادَهُ

ثم نعمةُ الرضا عن الله تعالى إذا قسم لي اليسيرَ من الطاعات

ثم نعمةُ أخذ المؤلف كلَّ كلام سمعه من واعظ في حقِّ نفسه دون حقِّ غيره .

ثم نعمةُ فرح المؤلف بكلِّ واعظٍ أو شيخ برز في حارته ، وانقلبت جماعته إليه .

ثم **نعمةُ** محبة المؤلف لزيارة إخوانه دون زيارتهم له ؛ خوفاً من تكليفهم

ثم **نعمةُ** كراهة المؤلف الحضورَ في المحافل التي لم تُشرَع

ثم **نعمةُ** شهود المؤلف أنَّ جميع ما يقع على يديه من الكرامات . . لله تعالىٰ ، ليس له فيه تعمُّدٌ[1]

ثم **نعمةُ** حفظ المؤلف الأدبَ مع أصحاب الوقت .

ثم **نعمةُ** استئذانه أصحابَ النوبة كلما خرج من بيته أو بلده وكلما دخل .

ثم **نعمةُ** حمايتي من الحسد لأحد من إخواني إذا أظهر الله اسمه وأطفأ اسمي

ثم **نعمةُ** كراهة المؤلف للجلوس في المسجد علىٰ حدَثٍ .

ثم **نعمةُ** كراهة المؤلف لإخراج الريح في المسجد

ثم **نعمةُ** ذكر المؤلف جميعَ أقرانه بالخير في غَيبتهم ، وتحسينِ اعتقاد الناس فيهم .

ثم **نعمةُ** عدم النوم قبل صلاة الوتر

ثم **نعمةُ** عدم إجابة الله تعالىٰ دعاءَ المؤلف علىٰ أحد بسؤاله ذلك من الله تعالىٰ

ثم **نعمةُ** قلَّة جدال المؤلف لمن جادله بغير حق .

ثم **نعمةُ** تحمُّل المؤلف البلاءَ عن إخوانه علىٰ طريقة القوم

ثم **نعمةُ** كثرة مشاورته لإخوانه في الأمور .

---

(١) في (ب) وحدها : (تَعَمُّل) بدل (تعمُّد) .

ثم نعمةُ عدم هجره أحداً من المسلمين لغير غرض شرعي .

ثم نعمةُ حضور المؤلف مع الله حالَ اجتماعه بزوجته

ثم نعمةُ كثرة شفقة المؤلف علىٰ ذريته قبل وجودهم .

ثم نعمةُ عدم شحَّة نفس المؤلف علىٰ عياله بفلوس الحمام وإن لم يلزمه ذلك

ثم نعمةُ تواضع المؤلف لكلِّ عالمٍ أو فقير زاره المؤلف بحضرة تلامذته .

ثم نعمةُ مساعدة كلِّ عالمٍ لا يعمل بعلمه ؛ وذلك بأن يعمل المؤلف بعلمه

ثم نعمةُ كثرة ستر عورات المسلمين

ثم نعمةُ عدم تكدُّر المؤلف ممن ناداه باسمه المجرد من غير لفظ سيادة ونحوها

ثم نعمةُ عدم بغض المؤلف لأحد من الأشراف أو الأنصار .

ثم نعمةُ حفظ المؤلف حرمةَ مشايخه الأحياءِ والأمواتِ .

ثم نعمةُ صبر إخوان المؤلف علىٰ توبيخهم بحضرة الناس .

ثم نعمةُ عدم مزاحمة المؤلف لمشايخ عصره في المشيخة

ثم نعمةُ عدم فتح المؤلف المجلسَ وهناك مَن هو أكبرُ منه سنّاً أو هناك شريف

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

وفيه من النعم

نعمةُ عدم مبادرة المؤلف لأخذ العهد على مريد . . إلا بعد تفتيشه

ثم نعمةُ عدم وقوعي في شيء يُغيِّر قلبَ أحد من أشياخي

ثم نعمةُ عدم تغير خاطري إذا زار مريدي أحداً غيري بشرطه

ثم نعمةُ عدم تكدر المؤلف من شيخ عُقِدَ له مجلسُ ذِكْر بزاويته ؛ أعني : المؤلفَ .

ثم نعمةُ ذهاب فهم المؤلف إذا سمع آيةً أو حديثاً إلى الاتعاظ والاعتبار دون الأحكام

ثم نعمةُ توجيه المؤلف لأقوال المجتهدين وأتباعهم

ثم نعمةُ عدم محبة المؤلف للتميُّز على أقرانه .

ثم نعمةُ كراهة المؤلف للأكل من طعامِ مَنْ لم يتمكن من محبَّته .

ثم نعمةُ عدم احتجاب المؤلف عن حاجة مكروب .

ثم نعمةُ عدم نفرة المؤلف من مخالطة أصحاب الكُتب والرذائل(١)

ثم نعمةُ تأدبي مع أصحاب الحضرة الإلـٰهية ، فلا أقف للتهجد إلا تبعاً لهم

ثم نعمةُ محبَّتي لكل شيء يُقرِّبني إلى الله تعالىٰ ؛ محبةً في مجالسة الله

---

(١) أصحاب الكتب : هم العصاة ؛ من الزناة والخمارين والحشاشين والمقامرين ، وغيرهم

ثم نعمةُ أخذ ثأر أصحابي مِنْ بعضهم

ثم نعمةُ محبتي لأولاد أشياخي وأصحاب مشايخي .

ثم نعمةُ عدم امتحاني لأحد من العلماء والصالحين إذا زرتهم

ثم نعمةُ تصديقي للصالحين في كلِّ ما أخبروني به ممَّا تُحِيلُه العقول .

ثم نعمةُ حفظي لحرمة الصالحين ، وإذا نزل علىٰ أحد منهم بلاءٌ قلت للناس : هـٰذا البلاء كان نازلاً على الناس ، فحمله عنهم .

ثم نعمةُ عدم محبة المؤلف لمن يُقبِّلُ يدَهُ في المحافل

ثم نعمةُ كثرة ضجيجي إذا نزل بي بلاء ؛ إظهاراً للضعف .

ثم نعمةُ تحمُّلي لبلاء جاري وفاءً بحقه .

ثم نعمةُ كثرة محبتي لطلبة العلم من حيث كونُهم حملةَ الشريعة ، لا لعلَّة أخرىٰ

ثم نعمةُ كراهتي للتقدم لصلاة الجنازة

ثم نعمةُ مبادرة المؤلف لشكر الله إذا نزل به بلاء .

ثم نعمةُ رؤية المؤلف المنَّة للإخوان إذا زاروه

ثم نعمةُ عدم التهاون بمكافأة مَن أهدىٰ إلى المؤلف هديَّة

ثم نعمةُ كثرة اجتماعي بالأموات الذين ماتوا ، ورؤيةِ أحوالهم .

ثم نعمةُ إصلاح زوجات المؤلف

ثم نعمةُ تأهيل المؤلف لخدمة الفقراء .

ثم نعمةُ عمل الفرن في الدار ، وكذلك الصهريجُ

ثم نعمةُ تيسير الرزق الداخل للزاوية طولَ السنة من حيث لا يحتسب المؤلف .

ثم نعمةُ ما يدخل الزاوية من العسل ؛ النحلِ والقصبِ

ثم نعمةُ ما يخزن من البطيخ كل سنة .

ثم نعمةُ عدم اعتماد المؤلف علىٰ شيء من المعلوم

ثم نعمةُ حماية المؤلف من أخذ أجرة رزقةٍ كانت وقفاً ، ثم استبدلت بغير حق

ثم نعمةُ موافقة أصحاب المؤلف له في ردِّ أموال الولاة التي تأتيهم .

ثم نعمةُ حماية المؤلف وأصحابه من الأكل من خبز ابن عمر وابن بغداد الذي رتباه في زوايا مصر

ثم نعمةُ مطاوعة إخواني المقيمين عندي لي في عدم قراءتهم القرآنَ بالفلوس في البيوت وعلى القبور .

ثم نعمةُ عدم تردُّدي لفقير يحبُّ الدنيا

ثم نعمةُ مطاوعة إخواني في عدم تخصيص أحدهم بشيء يتميَّز به عن إخوانه ، بل يحبُّ ما أُحبُّهُ له .

ثم نعمةُ مجالسة المؤلف ربَّهُ عز وجل ، ونبيَّهُ صلى الله عليه وسلم في مجالس الذكر ؛ كشفاً وإيماناً

ثم نعمةُ كثرة سماع المؤلف للقرآن والذكر الواقع في الزاوية ليلاً ونهاراً وأنا جالس في بيتي مما لم يتيسَّر للملوك

ثم نعمةُ كثرة خوف المؤلف علىٰ نقصِ دينِ أحد من إخوانه

ثم نعمةُ إعطاء الله المؤلفَ من العلوم الشرعية ما يكفي المجاورين القاطنين عنده ، ولا يحتاجون للخروج حتىٰ يقرؤوا علىٰ غيره .

ثم نعمةُ حماية الله عز وجل لجميع جهات وقف الزاوية ، من غير أن يكون للفقراء بذلك مرسومٌ سلطانيٌّ

ثم نعمةُ عدم ركون المؤلف إلىٰ شيء من المعلوم والموقوف

ثم نعمةُ محبة الخلق للمؤلف على اختلاف طبقاتهم ، إلا من شاء الله ؛ أسوةَ غيره من العلماء والصالحين .

ثم نعمةُ رؤية الولاة وغيرهم في المنام ما يزيدهم اعتقاداً في المؤلف

ثم نعمةُ وجود من يكره المؤلف بغير حقٍّ ؛ لحصول الأجر بالصبر عليه

ثم نعمةُ كسوة المؤلف لخلائقَ لا يحصون الثيابَ وغيرَها

ثم نعمةُ كراهة سماعي للآلات المُطرِبة من صغري إلى الآنَ .

ثم نعمةُ عدم تقدمي للإمامة إلا لقوم لو عُرِضت زلَّاتي عليهم طول عمري لصلَّوا خلفي بلا كراهة لي .

ثم نعمةُ صبري علىٰ مخالطةِ مَنْ يدَّعي محبتي كاذباً

ثم نعمةُ محبتي للأعمال الصالحة ؛ لكون الحقِّ تعالىٰ يحبُّها ، لا لعلَّة أخرىٰ .

ثم نعمةُ محبتي لمن طلب الغِيبة في الناس أن يغتابني ولا يغتابَ أحداً من الناس ؛ لأني أسامحهم ، بخلاف غيري .

ثم نعمةُ استجابة الحقِّ دعائي مع عدم استحقاقي لذلك

ثم نعمةُ عدم عتبي على إخواني في انقطاعهم عني ؛ خوفاً أن أكلِّفهم لزيارتي

ثم نعمةُ شهودي أني لم أوفِ بعهود الله إلا بالاسم فقط

ثم نعمةُ حفظي للصحبة لمن أكلت معه خبزاً أو ملحاً

ثم نعمةُ كراهيتي لمن ينقل إليَّ النقائصَ في حقي أو حقِّ أحد غيري

ثم نعمةُ إجلالي لكلام الله ورسوله ؛ فلا أكتب ما دونهما بالقلم الذي أكتبهما به .

ثم نعمةُ كثرة توجيهي لأقوال الصوفية إذا صحَّت عنهم

ثم نعمةُ وجود جماعة يكرهوني دائماً بغير حقٍّ مع صبري عليهم

ثم نعمةُ هروبي من تحمُّل مِننِ الإخوان الذين تركوا مطالعة درسهم مثلاً وزاروني ، وجعلي ثوابَ عملي ذلك الوقت في صحائفهم .

ثم نعمةُ عدم تزويجي لامرأةِ عالمٍ أو صالح أو أمير أدباً معهم

ثم نعمةُ عدم تسميتي الصالحين المتخاصمين مع أحدٍ من الفَسَقة ، إنما الفاسق هو المخاصم لهم

ثم نعمةُ عدم وعدي لأحد بهدية ؛ خوفاً أن أخلفَ الوعدَ ـ حتىٰ إني أستحي أن أتعوَّق عن الوِرد المتعلِّق بالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم أو غيره ـ خوفاً من انتظاره لذلك في الوقت المعتاد .

ثم نعمةُ صحبتي لجماعة من غير اجتماع بهم

ثم نعمةُ حفظي الأدبَ مع معلِّمي ، ولا أسعىٰ قطُّ علىٰ وظيفة ، ولا أرىٰ نفسي قطُّ ساويتُهُ في المقام[1]

ثم نعمةُ عدم تكديري من صاحبي إذا صَاحَبَ من يكرهني ، بل أحمله علىٰ أنه إنما صاحبَهُ ليُصلِح بيني وبينه ولو بعد سنة وأكثر .

ثم نعمةُ صلاتي للاستخارة صباحاً ومساءً علىٰ مصطلح القوم

ثم نعمةُ كوني لا أُسكتُ الذاكرين إلا بعد استئذانِ الحقِّ تعالىٰ بقلبي علىٰ ذلك ، وكذلك استئذانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في إسكات قارئ حديثه ، وكذلك قارئُ كلام العلماء

ثم نعمةُ إذن شيخي لي بأني أُلقِّن الذكر للمريدين

ثم نعمةُ محبتي للجلوس في طرف الحلقة

ثم نعمةُ عدم القيام لمن علمتُ بالقرائن محبتَهُ للقيام .

ثم نعمةُ قِلَّةِ عيادتي للظَّلَمة إذا مرضوا إلا بعذر شرعي .

ثم نعمةُ نصحي لإخواني ألا يسلكوا مسالكَ التُّهم

ثم نعمةُ صبري علىٰ عِوَجِ زوجتي وخادمي .

ثم نعمةُ شكري لله إذا كثر حسَّادي وأعدائي

ثم نعمةُ عدم قبولي هديةً لأدعو لمريض بالشفاء

ثم نعمةُ عدم تصريف أرباب الأحوال فيَّ

ثم نعمةُ تحمُّلي لهمِّ عدوي مثلَ تحمُّلِ همِّ صديقي علىٰ حدٍّ سواءٍ

(١) في هامش (ب) : (بلغ مقابلة) .

ثم نعمةُ عدم إدخالي علىٰ عدوي ما يكره ، حتىٰ لا أُمكِّنُ أحداً يذكرني عنده بخير

ثم نعمةُ صبري علىٰ زوجتي وخدمتِها إذا مرضَتْ ، ولا أتزوج عليها إذا طال مرضها

ثم نعمةُ كراهتي للخلوة بالأجنبية

ثم نعمةُ شهودي بعين قلبي أعمالي وهي تتطور صُوَراً وتصعد

ثم نعمةُ عدم توجهي إلى الله تعالىٰ في حصول شيء يؤذي شريفاً

ثم نعمةُ طيب نفسي بمقاسمة المحبين والأعداء في حسناتي إذا تقبَّلها اللهُ تعالىٰ

ثم نعمةُ تفتيشي لجميع جوارحي فيما ارتكبته من المعاصي ، وفيما صُرِفَ عنها من الأمراض صباحاً ومساءً

ثم نعمةُ كونه تعالىٰ جمع فيَّ سائرَ الأخلاق المذكورة في هـٰذا الكتاب

ثم نعمةُ عدم اعتمادي علىٰ شيء من أعمالي دون الله تعالىٰ ، حتىٰ لو أتلفَ شخصٌ كتابي بعد تعبي في تأليفه وتحريره . . لا أتكدَّر من ذلك

ثم نعمتُهُ عليَّ في عدم معاجلتي بالعقوبة ، وكثرةِ حِلْمِه عليَّ ، وقد استحقَّيت الخسفَ بي من عدة سنين .

❋ ❋ ❋

انتهت الفهرسة ، والحمد لله ربِّ العالمين ، ولنشرع في مقدمة الكتاب ، فأقول وبالله التوفيق

مقدمة

في ذكر أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف عليها

إذ هي كالدهليز الذي يدخل منه إلى صدر الدار

مقدمة

في ذكر أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف عليها إذ هي كالدهليز الذي يدخل منه إلى صدر الدار

اعلم يا أخي : أنَّ تزكية الإنسان لنفسه من غير غرض صحيح . . سُمٌّ قاتل ، وأما بغرض صحيح فهو مطلوب ، كما سيأتي بسطه في هٰذه المقدمة إن شاء الله تعالىٰ[1]

ومن جملة الأغراض الصحيحة : ذكرُ العالِم مناقبَهُ في العِلم والعمل ليعرفه الناس ، فيأخذون عنه العلم ، ويقتدون به[2] ، ويذكرون مناقبه في طبقات العلماء الذين هو منهم

وقد قال العلماء : إنَّ حكاية الإنسان عن نفسه مناقبَهُ أعلىٰ مقاماً ممن يأخذها عن أصحابه ؛ لأن غاية ما يحكيه الأجانبُ من المناقب إنما هو مبنيٌّ علىٰ حُسنِ الظنِّ بذلك الشخص ، وقد يكون الظنُّ أكذبَ الحديث ، وفي الحديث : « إذا مدحَ أحدُكم أخاهُ فليقُلْ : أحسِبُهُ كذا ، أو أظنُّهُ كذا » ، أو كما قال[3] . انتهىٰ .

---

(١) انظر (ص٢٨٣) .

(٢) في (ب) وحدها : (ويعتقدون به) بدل (ويقتدون به) .

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٢) بلفظ : « مَنْ كان منكم مادحاً أخاه لامَحالة فليقل أحسب فلاناً ، والله حسيبُهُ ، ولا أُزكي على الله أحداً ؛ أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك=

فعلم : أنه ليس فوق تزكية الإنسان لنفسه مقامٌ إلا مقامُ تزكية الحق تعالىٰ له ؛ كما في قوله تعالىٰ في حق يحيىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم ١٥] مع قول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٣] .

قال بعض المحققين : (إنَّ سلامَ الله تعالىٰ علىٰ يحيىٰ أعلىٰ من سلام عيسىٰ علىٰ نفسه ، وسلامَ عيسىٰ علىٰ نفسه أعلىٰ مقاماً من سلام الحواريين عليه) انتهىٰ(١)

[مطلبٌ

في أنَّ جميع ما مرَّ من الأخلاق . . هو من أخلاق المريدين أوائلَ دخولهم في الطريق]

واعلم يا أخي أنَّ جميع ما ذكرته لك في هـٰذا الكتاب ليس هو من أخلاق كُمَّل العارفين كما يظنه مَنْ لم يسلك طريق القوم ، وإنما هو من أخلاق المريدين أوائلَ دخولهم في الطريق ، كما مرَّت الإشارة إليه أوائلَ الخطبة(٢)

وقد اطَّلعَ بعضُ علماء مصرَ علىٰ بعض أوراقٍ من مُسَوَّدةِ هـٰذا الكتاب ، ومكثَتْ عنده أياماً ، ثم جاءني بها وقال أقول لك الحقَّ : هـٰذه أخلاق

= منه » ، وأخرجه مسلم (٣٠٠٠) بلفظ مقارب ، كلاهما عن نفيع بن الحارث رضي الله عنه .

(١) انظر « فصوص الحكم » (ص ١٧٦) .

(٢) انظر (ص٦٧)

لا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو لخواصِّ الأولياء ، فعذرته في هٰذا القول ؛ لكونه لم يسلك طريق القوم ، ولو أنه كان سلكها لم يقل ذلك ؛ فذوقه صحيح ، وحكمه غير صحيح

ولعل النكتةَ المُوقِعةَ له في ذلك أنه لمَّا ادعى العلم والعمل والصلاح ، ولم يرَ عند نفسه تخلُّقاً بشيء من ذلك . . نفىٰ وقوعَ التخلُّق بها لغير الأنبياء وكُمَّل الأولياء ، ولسانُ حاله يقول شيءٌ لم أصل أنا إليه ، فكيف يصل إليه أحدٌ من أهل هٰذا الزمان ؟!

والحقُّ أنَّ جميع ما في هٰذا الكتاب من الأخلاق إنما هو خاصٌّ بضعفاء المريدين ، ولم يزل هٰذا الظنُّ يقع من الناس في كلِّ مقامٍ لم يصلوا إليه ، ولا يعرفُ أحدٌ منهم نقصَ ذلك المقام إلا أنْ يرقىٰ إلىٰ ما هو فوقه ، وهٰذا دأبُ كلِّ سالك ما دام يترقىٰ في الدنيا ، فلا ينتهي له سلوك أبداً

ومن ها هنا قالوا : إنَّ السالكين أبداً في بدايةٍ ما عاشوا ، ولا يصح لأحد منهم الخروجُ عن مقام البداية إلا إن وصل إلىٰ حالٍ لا مقامَ بعده ، وهٰذا غيرِ واقع لأحد غيرِ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك قال الله تعالىٰ له : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه ١١٤]

فلا تتوهَّمْ يا أخي مِنْ بعض العارفين أنه يدَّعي مقامَ النهاية إذا سمعتَهُ يقول : وقع لي في بدايتي كذا وكذا ؛ فإنَّ ذلك وهْمٌ فاسد ؛ فإنَّ بداية العارفين منقولةٌ غير معقولة[1] ، وإنما مراده ببدايته بُعدُ الزمن بالنسبة لما هو فيه الآن .

---

(١) العبارة في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٠٥) (فإن النهاية منقولة غير معقولة) بدل (بداية العارفين)، ثم شرحها بقوله : (وتنتهي همم العارفين وهم مع الحق تعالىٰ علىٰ=

وسمعتُ بعضَ الفقراء يقول مرة قد وصلتُ إلىٰ مقامٍ صرتُ فيه أعبد ربي ؛ لا خوفاً من ناره ، ولا رجاءً لثوابه ، فقال بعضهم : هٰذا مقام ليس هو لمثلي ولا لمثلك ، إنما ذلك للخواصّ ، فعرفت بذلك عدمَ ذوقه لمقامات الطريق ؛ فإنَّ هٰذا أمرٌ يذوقه المريدُ أولَ قدمٍ يضعه في الطريق ؛ لأنه من آثار التوحيد ، والتوحيد أولُ مقامات الطريق ، فمَنْ صحَّ توحيده شهد الفعلَ لله تعالىٰ وحده ما عدا نسبةَ التكليف إلى العبد ، كما سيأتي بسطه قريباً إن شاء الله تعالىٰ[1]

حتىٰ إنَّ مثل ذلك وقع من شيخ الطريقة أبي القاسم الجنيد في أوائل أمره ، فحكى الأستاذ أبو القاسم القشيريُّ عنه في « رسالته » أنه مكث زماناً وعنده وَقْفةٌ في قول بعض القوم : (إنَّ الذاكر يَصِلُ في ذكره إلىٰ حدٍّ لو ضُرِبَ وجهُهُ بالسيف لم يُحِسَّ)

قال الجنيد : (فلم أزل أتوقف في ذلك حتىٰ وجدت الأمر كما قالوا)[2]

وحكى القشيريُّ أيضاً عن أبي بكر الشبليِّ أنه كان يقول : كنتُ في بداية أمري لا أجتمع بشيخي أبي عبد الله [الحُصْري] إلا من يوم الجمعة إلىٰ يوم الجمعة[3] ، فقال لي يوماً يا أبا بكر إن خطَرَ في بالكَ من الجمعة إلى

= أول قدم ، فلم تفِ لهم أعمارهم بما تعلقت به هممهم من معرفة الله تعالىٰ) .

(١) انظر (ص٩٧) ، وانظر (ص٢٨٢) .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٢٤٣) .

(٣) في (أ ، و ، ز) : (الحضرمي) بدل (الحصري) ، وفي (ب) : (الخضري) ، وكذا في الموضع الآتي ، والمثبت من « الرسالة القشيرية » (ص ٧٧٣) .

الجمعة غيرُ الله تعالىٰ . . فلا تَعُدْ تتردَّدُ إليَّ ؛ لأنه لا يجيء من مثلك شيءٌ في الطريق . انتهىٰ[1]

فانظرْ يا أخي في توقُّف مثلِ الجنيد فيما تقدَّم حتىٰ ذاقه ، وتأمَّلْ قولَ [الحُصْري] للشبلي (فلا تعد تأتنا ؛ فإنه لا يجيء منك شيءٌ) ، فكلَّفَهُ بعدم خطور غير الله تعالىٰ علىٰ باله في حال إرادته ، ولم يجعله خاصّاً بمقام العارفين

وكان سيدي محمدٌ المغربيُّ الشاذليُّ رحمه الله تعالىٰ يقول (أولُ قدمٍ يضعه المريد في طريق الله عز وجل . . لا يكون إلا بعد زهده في الكونين ، ومتىٰ كان له علاقةٌ في شيء منهما . . فهو لم يضع له قدماً واحداً في الطريق) انتهىٰ

فإن أردت يا أخي التخلُّقَ بشيء من أخلاق هـٰذا الكتاب . . فاطلب لك شيخاً صادقاً لا تشكُّ في صدقه ؛ ليسلكَ بك في مقامات الطريق لتعرفها بالذوق لا بالسماع ، حتىٰ تصيرَ توحِّدُ الله تعالىٰ في سائر المراتب كشفاً ويقيناً ، لا ظنّاً وتخميناً ، كما أنك بمجرَّدِ ذوقك أنَّ الفعل لله تعالىٰ . . يذهبُ عنك الرياءُ والعُجْبُ بأعمالك ، وتعبدُ الله تعالىٰ خالصاً ؛ لا خوفاً من ناره ، ولا رجاءً لثوابه ، فحُكْمُ مَن شهد الفعل لله تعالىٰ وحده كشفاً . . حُكْمُ مَن بات نائماً وجاره قائمٌ يُصلِّي إلى الصباح والناس ينظرون ؛ فإنه لا يصبح يَدَّعي قيامَ الليل الذي قامه جارُهُ أبداً

وقد كنتُ أنا علىٰ هـٰذا الحال زماناً طويلاً إلىٰ أن اجتمعتُ بسيدي عليٍّ

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٧٧٣)

الخوَّاص رضي الله عنه[1] ، فكشف لي عن بعض معالم الطريق ، فعلمتُ : أنَّ جميعَ ما كنت أظنُّ أنه من مقامات الخواصِّ . إنما هو من مقامات المريدين ، وأنَّ مقاماتِ العارفين تَجِلُّ عن أن يذوقها أمثالُنا ، كما أنَّ أخلاق الأنبياء تَجِلُّ عن أن يذوقها أكابرُ الأولياء ؛ فإنَّ بداية درجة النبوة تأخذ من بعدِ انتهاء درجات الولاية ، فليس للأَدْوَنِ من تخلُّقِه بمثل صفات الأعلىٰ سوى الاسم فقط ، فافهم .

[مطلبٌ
في أنَّ جميع الأخلاق في هـٰذا الكتاب غريبة
صعبة على المريدين ، وبيان عمن أخذ المؤلف طريقه]

واعلم يا أخي أنَّ جميع هـٰذه الأخلاق التي ذكرتها لك في هـٰذا الكتاب . . غريبةٌ صعبة علىٰ غالب مريدي هـٰذا الزمان ؛ لغرابة طريق صاحبها ، وقربِهِ من حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أني أخذتُ الطريقَ عن سيدي علي الخوَّاص ، عن سيدي إبراهيمَ المتبولي ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث الاجتماع الروحيُّ ، فبيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رجلان فقط ، وهـٰذا أمر قد انفردتُ به في مصرَ بحمد الله تعالى الآن ؛ فإنَّ جميع مَنْ فيها من الفقراء إنما يأخذون الأخلاق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق سلسلة أبي القاسم الجنيد ، فبينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خَلْقٌ كثير ، فهم وإن

(١) في (و ، ز) (اجتمعت بعارف الزمان وعين المكان ، الشيخ الكامل المُكمَّل في سائر العلوم ؛ سيدي علي الخواص) .

كانوا يرجعون كلُّهم إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لٰكنَّ طريق القرب لها مزية علىٰ غيرها ؛ ولذلك فُضِّل الصحابةُ على التابعين

[نبذةٌ من أحوالِ سيدي عليٍّ الخوَّاص ، وذكرِ بعض كراماته]

ولنذكر لك يا أخي شيئاً من أحوال سيدي عليٍّ الخوَّاص لتعرف بعض مقاماته ؛ فإنه كان رجلاً مجهولَ الحال عند غالب العلماء ، لا يكاد يعرفه إلا العلماء العاملون والأولياء الكاملون المُكمَّلون ؛ إذ الكامل إذا بلغ مقامَ الكمال في العرفان يصير غريباً في الأكوان ، لا يعرفه إلا من أشرف علىٰ مقامه ، وقليل ما هم

فأقول وبالله التوفيق

هو الشيخ الكامل الراسخ ، الأميُّ المحمديُّ ؛ سيدي عليٌّ الخوَّاصُ ، صاحب الكرامات والخوارق ، والكشوفات الظاهرة ، والأحوال الطاهرة ، رضي الله عنه .

من كراماته : أنه كان إذا رأىٰ مِيضأةَ الجامع التي يتوضأ الناس منها . . يعرف عينَ جميع تلك الذنوب التي خرَّت فيها من غُسالتها ؛ من صغائرَ وكبائرَ ومكروهاتٍ ، ويُفرِّق بينها من رؤية غُسالتها ، وأَراها لي مرة عروقاً عروقاً مشتبكةً في بعضها بعضاً ؛ فرأيت عروق الكبائر أكبرَ العروق ، ودونها عروقُ الصغائر ، ودونها عروقُ المكروهات ، وأما عروق خلاف الأولىٰ فرأيتها خفية جدّاً ، لا تكاد تُشهد من رقتها ، ولم أرَ في غُسالة الكبائر أغلظَ ولا أقبحَ منظراً من غُسالة الزنا واللواط وقتل النفس .

ودخل الشيخ مرةً مَغطِسَ المدرسة المُزهرية ، ثم خرج بلا استنجاء وقال قد اغتسل فيه لوطيٌّ ، وكان هناك شخص من المنكرين قد رأىٰ شخصاً من أصحابه اغتسل في المَغطِس قبل دخول الشيخ بلحظة ، فذهب إلى الشخص ، وأقسم عليه بالله تعالىٰ أن يخبره ما سبب غسله ، فاعترف له أنه فعَلَ الفاحشة في عبده ، فجاءني واعترف بفضل الشيخ ، وصار من أصحابه إلىٰ أن مات رحمه الله

ومنها : أنه كان إذا رأىٰ في دواة الحبر . . يعرف عينَ جميع الحروف التي تكتب منها إلىٰ أن يفنى الحبر

قال أخي أفضلُ الدين وامتحنتُ الشيخ مرة في قوله (إنَّ أول ما يكتب من هـٰذه الدواة حروفُ كذا وكذا) ، فلم يُخْطِ شيئاً

ومنها : أنه كان إذا رأىٰ أنف إنسان . . يعرف جميعَ ما فعله من الذنوب .

وقال له مرة شخصٌ قد طعن في السنِّ : لا ينبغي لك يا شيخُ أن تملأَ قعاويَ الكلاب[1] ، وكان الشيخ يملؤها : فقال له الشيخ : وكذلك لا ينبغي لك أنت الآخرَ أن تزنيَ بامرأة جارك فلانٍ في الوقت الفلاني ، فاصفرَّ لون ذلك الشخص ، وقال لي صدق الشيخ ، ولهـٰذه الواقعة نحوُ سبعٍ وخمسين سنة

ومنها : أنه كان يرىٰ معاريجَ أعمال أصحابه وهي صاعدة في الليل على التعيين ، ودعوتُ مرة لسيدي محيي الدين بن أبي إصبعَ ؛ بأن الله يفرج عنه

---

(١) القعاوي : الظاهر أنها الأواني .

بإطلاقه من الترسيم عليه ، وكان ذلك في نصف الليل ، فأرسل من الفجر يقول لي : رأيتُ دعاءَك الليلة في حقِّ محيي الدين يرتفع ثم ينزل إلى الأرض ، وقد بقي من مدته سبعةٌ وخمسون يوماً[1] ، ثم يُفرَّج عنه ، فكان الأمر كما قال .

وكذلك كان يعرف مدةَ ولاية الإنسان ، ووقتَ عزله على التحديد ؛ وذلك لأنه كان مطمحُ بصره اللوحَ المحفوظ ؛ يعني : من المحو ، وأما من يخبر عن شيء ويتغير فمطمحُ بصره ألواحُ المحو والإثبات الثلاثُ مئة وستون لوحاً ، ومرتبتها تحت مرتبة اللوح المحفوظ كما قاله الشيخ محيي الدين في « الفتوحات المكية »[2]

ومنها : أنه كان يعرف نزولَ البلاء إلى الأرض من حينِ ينزل من السماء ، فلا يزالُ يلاحظه حتىٰ يصلَ إلى الأرض ، ونهايته ثلاثُ سنين .

وقد كان أولياء عصره يستدلون علىٰ وصول البلاء إلى الناس بنفس جلوسه رضي الله عنه في حانوته ؛ فإنه كان إذا نزل بالناس البلاءُ وهم لا يشعرون به . . جلس في حانوته وظهرُهُ إلى الشارع ، وإذا ارتفع البلاءُ . . يجلس ووجهُهُ إلى الناس ، وربما أوقد ناراً بجانب حانوته إشارةً لهيجان الفتنة في بلده ، وربما صبَّ عليها الماءَ فتنطفئ نارُ الفتنة وتَخمُدُ ، وكذلك كان الشيخ محيسنٌ المجذوبُ يفعل .

ومنها : أنه كان يعرف أنسابَ الحيوانات كلِّها ، وينسبها إلىٰ أوَّلِ أبٍ أو

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٢٠) : (خمسة شهور وسبعة أيام) .
(٢) الفتوحات المكية (٣/ ٦١) .

أمٍّ ؛ من آدميٍّ أو غيره ، وربما وقف عليه إنسان ، فقال رحم الله والدَكَ فلاناً أو والدتك فلانةَ ، مع أنه لم يجتمع به قطُّ ، وربما كان ذلك الإنسان من بلاد الغرب أو الهند ، وربما سمَّىٰ له جيرانَهُ في بلاده ، حتىٰ يتعجَّبُ الإنسانُ من صحة كشفه ، وربما وقف عليه إنسان فيريد يحكي له حاجتَهُ ، فيخاطبه بما في ضميره ، ولا يحوجه إلىٰ كلام

ومنها ما أخبرني به أخي الشيخ أفضلُ الدين رحمه الله أنه سمع سيدي عليّاً الخوَّاص رحمه الله يقول (أعطاني الله تعالى القدرةَ على استنباط جميع أحكام القرآن واستخراجها من سورة « الفاتحة » ، بل أعطاني القدرةَ على استخراج جميع أقوال المجتهدين مِنْ أيِّ حرفٍ شئتُ من حروف الهجاء) انتهىٰ ، وهـٰذا أمرٌ ما سمعتُهُ قطُّ عن أحد من الأولياء

ومنها : معرفته لأصحاب النوبة في سائر أقطار الأرض ، وكثيراً ما يقول : تولَّى اليوم فلانٌ ، عُزِل اليوم فلانٌ ، في أرض الهند أو السند أو المغرب ، أُعطِيَ فلانٌ اليوم دركَ بحر الهند ، أو دركَ بحر الروم ، موضِعَ فلانٍ الذي مات ؛ فلا يكاد يخفىٰ عليه شيءٌ من أحوال الأولياء الباطنة فضلاً عن أحوال الولاة الظاهرة في الأرض

ومناقبه كثيرة ، أفردناها بالتأليف

فهـٰذا كان سببَ تشييدي لهـٰذا الكتاب بجملة من أخلاقه رضي الله عنه ، وأخلاقِ شيخه سيدي إبراهيمَ المتبولي ، وأخلاقِ تلميذه الشيخ أفضلِ الدين ، رحمهم الله أجمعين

فأقبِلْ يا أخي على التخلُّق بها ، ولا يغرَّك ما تراه من مخالفةِ غالب فقراء

العصر لها ، وعجزِهم عن التخلق بها ؛ فإنَّ طريقها صعبة علىٰ غالب المدَّعِين ، وبيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رجلان فقط ؛ وذلك أنني أخذتها عن سيدي عليٍّ الخوَّاص ، عن سيدي إبراهيمَ المتبوليِّ ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يقظةً ومشافهةً بشرطه المعروف بين القوم كما مرَّ[1] ، وهٰذه طريق انفرد بها أصحاب سيدي عليٍّ الخوَّاص في مصرَ

[اقتداءُ المؤلف في ذكر مناقبه بجماعةٍ من العلماء]

واعلم يا أخي : أنني لم أنفرد بما ذكرته في هٰذا الكتاب من المناقب المتعلقة بي ، وإنما ذكرتُ ذلك اقتداءً بجماعة من العلماء سبقوني إلىٰ مثل ذلك ؛ كالشيخ الحافظ المحدث عبد الغافر الفارسيِّ ، والشيخ الإمام العماد الكاتب الأصبهانيِّ[2] ، والشيخ ياقوت الحَمَويِّ ، والشيخ لسان الدين ابن الخطيب[3] ، والشيخ الإمام المجتهد الزاهد أبي شامةَ ، والحافظ تقيِّ الدين الفاسيِّ[4]، والشيخ الإمام أبي حيانَ[5] ، وشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر[6]، وخاتمةِ الحفَّاظ الشيخ جلال الدين السيوطيِّ[7] ، رحمهم الله أجمعين

(١) انظر (ص٩٨)
(٢) في كتابه المسمى : « البرق الشامي »
(٣) في كتابه المسمىٰ : « تاريخ غرناطة » .
(٤) في كتابه المسمىٰ : « تاريخ مكة »
(٥) في كتابه المسمى : « النضار »
(٦) في كتابه المسمىٰ : « تاريخ قضاة مصر »
(٧) في كتابه المسمى : « التحدث بنعمة الله تعالىٰ »

فإيَّاك أن تبادر إلى الإنكار عليَّ في ذكري لمناقبي كما يقع فيه المعاصرون في كلِّ عصرٍ ؛ فإنَّ ذلك إنكارٌ على هٰؤلاء العلماء الذين ذكرناهم ، وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطيُّ مناقبَهُ في كتاب طبقات العلماء والمحدثين والنحاة وغيرهم ، وقال (إنما ذكرت ذلك تعريفاً بحالي ؛ ليأخذ الناس عني العلمَ ، وتحدُّثاً بنعمة الله عزَّ وجلَّ)

وقال (ولم أقصد بذلك الافتخارَ على الأقران ، ولا طلباً لشيء من مناصب الدنيا وجاهها ، وأيُّ قدْرٍ للدنيا حتىٰ يُطلبَ تحصيلُها بما فيه ذهابُ الدين ؟! وقد ذهب أطيبُ عمري ، وظهر شيبي ، وقرب رحيلي) انتهىٰ[1]

[مقصود المؤلف بذكر مناقبه]

وكذلك يقول عبد الوهاب الشعراني مؤلفُ هٰذا الكتاب : فلم أقصد بما ذكرته فيه الافتخارَ علىٰ أحد من أقراني ، وإنما قصدتُ بذلك أموراً :

منها التحدثُ بنعمة الله في حياتي وبعد مماتي ؛ فإنَّ كتاب الإنسان كالنائب عنه في الشكر .

ومنها : علمُ الإخوان بعلمي ليأخذوه عني

ومنها اقتداءُ مَنْ يطلب طريقَ القوم بي في حفظِ متون كتب العلم ، والتبحُّرِ في معانيها قبل الدخول في الطريق ؛ فإنَّ من لم يصحَّ له التبحُّرُ في علوم الشريعة حتىٰ يصيرَ يقطع العلماءَ بالحُجَج في مجالس المناظرة . .

---

(١) انظر « التحدث بنعمة الله تعالىٰ » (ص ٤)

لا ينتجُ في طريق القوم كلَّ ذلك النِّتاجِ ؛ فإنها طريق محرَّرة على الكتاب والسنة ؛ كتحرير الذهب والجوهر[1] ، فيجب أن يكون لكلِّ مَنْ يدخل الطريق ميزانٌ شرعيٌّ يزِنُ به في كل حركة وسكون وخاطر ، وذلك يستدعي أن يتبحَّر في سائر مذاهب المجتهدين حتىٰ يصيرَ يُدرِّس الناس فيها ؛ لأنَّ من كمال أهل الطريق أن يُسلِّكوا كلَّ أحد من طريق مذهب إمامه ، ولا يأمروه بالخروج عنه ؛ إذ المذاهب كلُّها علىٰ هدىً من الله تعالىٰ .

وقد بلغتُ بحمد الله تعالىٰ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، واطلعتُ علىٰ جميع أدلة المذاهب المستعملة الآن والمندرسة ، وعرفتُ منازعَ أقوالهم ، وهـٰذه طريق انفردتُ بها الآن عن غالب أقراني بمصرَ المحروسة

فعليك يا أخي بالاقتداء بي في ذلك تَصِرْ من صدور أهل السنة والجماعة ، ومَنْ لم يُلقِّبْك بذلك فقد ظلمك .

فهـٰذه الفوائد التي ذكرتها لك هي الباعثةُ لي الآن علىٰ ذكر مناقبي في هـٰذا الكتاب ، وأرجو من فضل الله تعالىٰ دوامَ ذلك القصد إلى الممات ، وما ذلك على الله بعزيز .

[داعيةُ المؤلف لذكر مناقبه : حسنُ الظنِّ بالله ، والعلمُ بعدم سلب المعارف]

واعلم : أنَّ مما أجرأني علىٰ ذكر هـٰذه المناقب في كتابٍ مع علمي بالمحو والإثبات . . حسنَ ظنِّي بالله عز وجل ، وعلمي بأنه إذا أعطىٰ عبدَهُ

(١) في (أ) وحدها : (الفضة) بدل (الجوهر) .

شيئاً من المعارف لا يسلبُهُ منه بعد ذلك ؛ فإنَّ المعرفة من حيث هي لا تُسترجَع ، وإنما تُسلب الأحوال ؛ لسرعة استحالتها من حال إلىٰ حال ، وما ذكرناه في هـٰذا الكتاب إنما هو من قسم المعارف والأخلاق ، لا الأحوال ، فلولا أنَّ أولياء الله تعالىٰ يعلمون من الله تعالىٰ أنه لا يسلبه منهم ما أعطاهم من العلوم والمعارف والأخلاق. . ما ذكروها في الطروس ، ولو علموا منه تعالىٰ أنه يسلبها منهم. . ما ذكروها ؛ لأن أفعالهم حينئذ تُكذِّب دعواهم .

ومنهم من يقنع بتخلقه بها ولو لحظةً ؛ لأنه صار من أهلها علىٰ كل حال ، ولـٰكن أهل هـٰذا النوع قليل في الأولياء ، فلولا وثوقُهم بدوام الأخلاق عليهم ما ذكروها في كتاب ، مع أنَّ من شرط الكُمَّل عدمَ الأمان من السلب طرفةَ عين ؛ كما قد بلغنا عن سيدي عبد القادر الجِيليِّ رضي الله عنه أنه كان يقول أعطاني الله تعالىٰ أربعين عهداً وميثاقاً ألا يمكر بي ، فقيل له : فما حالك بعد ذلك ؟ قال غيرُ آمن . انتهىٰ .

وقد وقع لي أنني سألتُ الله عز وجل ليلةَ النصف من شعبانَ سنة تسع وخمسين وتسع مئة. . أن يغفر لي جميع ذنوبي ، ثم نمت ، فأتاني شخصان من أولياء الله تعالىٰ ، فعرفت أحدهما ، فقالا لي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك إن الله تعالىٰ قد غفر لك الليلة ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ، فقلت لهما : إنَّ هـٰذه من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا لي : هـٰكذا قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم : سلِّمَا لي عليه وبشِّراه . انتهىٰ

ومع ذلك فوالله ؛ إني غير آمن من الخسف بي ، فالحمد لله علىٰ كل حال .

[بيانُ أدلة ذكر العلماء والصالحين مناقبَهم في الكتب]

ولنذكر لك بعضَ أدلةٍ علىٰ جواز ذكر العلماء والصالحين مناقبَهم ومحاسنَهم علىٰ وجه التحدُّث بنعمة الله عز وجل ، وغيرِ ذلك من الأغراض الصحيحة ، فأقول وبالله التوفيقُ :

من الأدلَّة علىٰ ذلك :

قولُ الملائكة عليهم السلام : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وقولُهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ . . . ﴾ الآيةَ [الصافات : ١٦٥]

وقولُ يوسفَ عليه الصلاة والسلام للعزيز : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

وقولُ داودَ وسليمانَ عليهما السلام : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] .

وقولُ سليمانَ عليه السلام : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦]

وقولُ عيسىٰ عليه السلام : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ . . . ﴾ إلىٰ آخر النسق [مريم : ٣٠ ـ ٣١] .

وقولُ سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم « أنا أولُ شافعٍ ، وأولُ مُشفَّعٍ »[١]

وقولُهُ : « أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يوم القيامةِ ولا فخرَ »[٢] ؛ أي لم أذكر ذلك فخراً علىٰ إخواني من الأنبياء ، وإنما ذلك من باب التحدُّث بنعمة الله تعالىٰ ، والله أعلم

وسمعتُ سيدي علياً الخوَّاصَ رحمه الله يقول ما زكَّتِ الأكابرُ أنفسَها قطُّ إلا لأغراض صحيحة ، وقولُهم (مَن زكَّىٰ نفسه فقد جرح) محمولٌ علىٰ مَنْ زكَّىٰ نفسَهُ فخراً ورياءً مع غفلته عن شهود كون ذلك من نعمة الله تعالىٰ عليه

وسمعتُهُ يقول أيضاً (إنما أخبرتِ الملائكةُ عن كمال مقامها بقولها : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة ٣٠] ؛ تنويهاً بعلوِّ مقام آدمَ عليه الصلاة والسلام ؛ فإنَّ إعلامَها بمقامها ، ثم سجودَها لآدمَ عليه السلام بعد ذلك . . أظهرُ في بيان فضل آدمَ عليهم ، بخلاف سجودهم له وهم مجهولوا المقام) .

فقلت له : فما فائدةُ قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لنا : « إنَّهُ سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ » ؟

فقال : (فائدته : إعلامُنا بأنه أول شافع وأول مشفع ؛ حتىٰ يريحَنا صلى الله عليه وسلم من التعب من الذهاب إلىٰ نبيٍّ بعد نبيٍّ نسأله الشفاعة ،

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بدون لفظة : (ولا فخر) ، ورواه معها الترمذي (٣١٤٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

فأرشد أمته أن يصيروا في مكان واحد حتىٰ تأتيَ النوبة لنبيهم ويقولَ : « أنا لها ، أنا لها »[1] ، فيذهبون إليه ، فيشفع لهم ، فما ذهب إلىٰ غيره إلا مَنْ لم يبلغه هٰذا الحديثُ ، أو بلغه ثم نسيه) انتهىٰ ، وهو كلام نفيس

ومن الأدلَّة علىٰ ذلك أيضاً :

قولُهُ تعالىٰ لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] ، وقد أُمِرنا بالتأسِّي والتخلُّق بأخلاقه على الإطلاق

وروى الطبرانيُّ والبيهقيُّ وغيرهما مرفوعاً « التحدُّثُ بالنعمةِ شُكْرٌ »[2] ، زاد في روايةٍ للبيهقي : « وتركُهُ ـ يعني : الشكرَ ـ كُفْرٌ »[3]

وأخرج ابن جرير في « تفسيره » ، والبيهقي عن أبي [نضرةَ] الصحابيِّ رضي الله عنه قال[4] : (كان المسلمون يرون أنَّ مِن شُكرِ النعمةِ إظهارَها والتحدُّثَ بها) ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[5] [إبراهيم : ٧] ، فتوعَّدَهم علىٰ تركِ الشكر بالعذاب الشديد

وروى الطبرانيُّ مرفوعاً : « مَنْ أُعطيَ الشكرَ لم يُحرمْ مِنَ الزيادةِ »[6]

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٢٨٣٤) ضمن حديث طويل عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وأصله في « الصحيحين » من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) المعجم الكبير (٢١/ ٨٥) ، شعب الإيمان (٨٦٩٨) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

(٣) شعب الإيمان (٨٦٩٨)

(٤) ما بين المعقوفين في النسخ : (بصرة) ، والتصحيح من المصادر .

(٥) جامع البيان (٢٤/ ٤٨٩) ، شعب الإيمان (٤٢١٥) بلفظ : (مِنْ شكرِ النعمِ أن يُحدَّثَ بها) ، وعند البيهقي : (النعمة) بدل (النعم)

(٦) المعجم الأوسط (٧٠٢٣) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ : « ومن أعطي =

وكان الحسن البصريُّ رحمه الله يقول في قوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات ٦] ؛ أي (يعدُّ المصائبَ ، وينسى التحدث بنعمة الله عليه)[١]

وروى الحافظ أبو نعيم أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صَعِدَ يوماً المنبر فقال : الحمد لله الذي صيَّرني ليس فوقي أحدٌ ، ثم نزل ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنما فعلتُ ذلك إظهارا للشكر[٢]

وكان سفيانُ الثوريُّ رضي الله عنه يقول (مَنْ لم يتحدَّثْ بالنعمة فقد عرَّضها للزوال)

وكان عبدُ الله بن غالب التابعيُّ الجليل رضي الله عنه يعلن بأعماله الصالحة ، ويذكرها لمن لم يعلم بها ، فيقول : صلَّيتُ الليلة كذا وكذا ركعةً ، سبَّحتُ الليلة كذا وكذا ألفَ تسبيحةٍ ، تصدقتُ الليلة بكذا وكذا درهماً ، فقال له شخص يوماً لو كتمتَ ذلك عن الناس لكان خيراً لك عند الله ، فقال عبد الله لذلك الشخص ما لكَ لا تفقه ؟! أمَا تقرأ قولَهُ تعالىٰ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] ، أمَا إنك لو أمرتَني بإظهار ذلك لكان أفضلَ لك ولي ؛ فإنَّ نعمة الدين أفضل النعم ، فلا فرق بين من يقول : صليتُ الليلة كذا وكذا ، وبين من يقول : إنَّ الله تعالىٰ أعطاني الليلة ألفَ دينارٍ علىٰ حدٍّ سواءٍ . انتهىٰ[٣]

= الشكر أعطي الزيادة » .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢٤/ ٥٦٦) .

(٢) أورده المناوي في « فيض القدير » (٦/ ١٦) وعزاه لأبي نعيم في « الحلية »

(٣) أورده ابن الأثير في « المختار من مناقب الأخيار » (٣/ ٤٧٠)

وكان السريُّ السقطيُّ رضي الله عنه يقول (لا فرق بين من يقول : إنَّ الله تعالىٰ خلقني ، وصوَّرني ، ورزقني ، وعلَّمني العلم ، وجعلني مباركاً ، وبين من يقول : أنا وليُّ الله ، أنا عالم ، أنا صالح ، ونحوَ ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، فمن نفى العلم والصلاح جملةً عن نفسه فقد قلَّ شكرُهُ) .

وكان أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه يقول : (لا يبلغ أحد مقامَ الشكر إلا إذا رأىٰ نفسه أنها ليست بأهلٍ أن تنالها رحمةُ الله عز وجل ، وإنما رحمتُهُ تعالىٰ لها فضلاً منه وكرماً)

وكان الإمام الليث رضي الله عنه يقول : (أنا أعرِفُ شخصاً من أهل هـٰذا الزمان من منذ وعىٰ علىٰ نفسه ما أتىٰ معصيةً لله قطُّ) ، فكان أصحابه يتحدثون أنه يعني بذلك نفسَهُ

وروى الثقاتُ عن السيد عبد القادر الجِيليِّ رضي الله عنه أنه قال (قدمي هـٰذه علىٰ رقبة كلِّ وليٍّ لله عز وجل)[١]

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ رضي الله عنه يقول : لا يكمل شكرُ العبد لربه عز وجل حتىٰ يرىٰ نعمة الملوك دون نعمته ، فقال له قائل وكيف ذلك ؟! فقال يرىٰ جميع ملوك الدنيا من جملة نِعَم الله عليه ؛ لأنَّ بوجودهم يحفظ الله تعالى الوجود ، ويأمن الناسُ علىٰ أنفسهم وأموالهم ، ويقومون بشعائر دينهم[٢]

---

(١) انظر « نشر المحاسن الغالية » (ص ٢٨٣)

(٢) أورده المناوي في « فيض القدير » (٦/١٦)

وكان تلميذه الشيخ الكامل أبو العباس المرسيُّ رضي الله عنه يقول : (والله ؛ ما سارت الأبدال من « ق » إلىٰ « ق » إلا ليصادفوا رجلاً مثلي يربيهم ، ويُرقِّيهم إلىٰ مقامات الرجال)[١]

وكان يقول (والله ؛ لو احتجب عني رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ساعةً . . ما عددتُ نفسي من جملة المسلمين)[٢]

وكان كثيراً ما يقول : (والله ؛ لو عَلِمَ أهلُ العراق والمغرب والشام ومصرَ ما عندي من المعارف والعلوم والأسرار . . لأتوني ولو سعياً على الوجوه)[٣]

وكان يقول (والله ؛ ما بقي عند غيرنا من أهل عصرنا علمٌ نستفيده ، وإنما ننظر في كلام الناس لننظر ما مَنَّ الله به علينا مما هو فوق مقام الغير ، فنشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك)

وكان الشيخ الكامل أبو المواهب الشاذليُّ رضي الله عنه يقول (كنتُ وأنا مريد أتكدَّر من مدح الشاذلية نفوسَهم كثيراً ، وأقول : كيف ينبغي لفقير أن يمدح نفسه ويزكيَها علىٰ رؤوس الأشهاد ؟! حتىٰ وصلتُ إلىٰ مقامهم الذي مدحوا منه نفوسهم ، فرأيتُ أنَّ ذلك من أوجبِ الواجبات على العبيد ، وأنه لا يكفي في الشكر أن يشكر العبدُ ربَّهُ في نفسه ، وإنما عليه أن يُشِيع ذلك بين العباد ؛ حتىٰ يعلمَ به الخاصُّ والعامُّ ، وعلمتُ أيضاً : أنَّ الله

(١) أورده ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص٩١) .

(٢) أورده ابن عطاء الله في« لطائف المنن » (ص٩٢) ، وجاء قبله في (هـ ، و ، ز) (لي أربعون سنة ما بيني وبين الله حجاب ، ولو فارقت المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما أعددت نفسي من جملة المسلمين)

(٣) أورده ابن عطاء الله في « لطائف المنن » (ص ٩٧)

تعالىٰ يحبُّ من عبيده أن يشكروه بين عباده ، ويصفوه بالجود والكرم والحلم والصفح) انتهىٰ

ونُقِلَ عن الشيخ جلال الدين السيوطيِّ أنه قال (أنا أعلمُ خلقِ الله الآن قلماً وفماً) ، ثم قال (فإن اعترض علينا معترضٌ قلنا له هـٰذا موكول إلىٰ تخصيص العقل ذلك بعالِمِ زماننا أو بلدنا أو إقليمنا لا غيرُ ، وعلىٰ ذلك حملوا قولَهُ تعالىٰ في بني إسرائيل ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة ٤٧] ، قال المفسرون : لا يدخل في ذلك الأنبياءُ ولا الملائكة)

قال (ولولا اعتبارُ هـٰذه القاعدة التي ليس عنها براحٌ . . لكان التلقيب بقاضي القضاة وأقضى القضاة مُحرَّماً غيرَ مباح ؛ لأنَّ ذلك شامل لكلِّ نبيٍّ) انتهىٰ(١)

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ رضي الله عنه يقول لأصحابه : (أعلِنوا بما مَنَّ الله تعالىٰ به عليكم من العلوم والمعارف بنيّة صالحة ؛ ليأخذها الناسُ عنكم ، وأعلنوا بالطاعات كما يتظاهر غيرُكم بالمعاصي)

فهـٰذه بعض نقول عن السلف الصالح تُعلِمُك أنَّ العلماء والصالحين ما مدحوا نفوسهم فخراً ورياءً ، حاشاهم من ذلك ، وإنَّما بنَوْا أمرهم في ذلك علىٰ قواعدَ صحيحةٍ

إذا علمتَ ذلك فلا يجوز لأحد حملُهم على المحامل الفاسدة والأغراض النفسانية ، وإنَّما يجب علىٰ كلِّ مسلم حملُهم علىٰ أحسن المحامل ، وقد مدح الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بقوله تعالىٰ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ

---

(١) انظر « الصواعق على النواعق » (ق ٢) و(ق ٨ ـ ٩) .

ﭐلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر : ١٨]

وفي كلام بعض السلف (إنَّ الله تعالىٰ يستحيي من عبده إذا تحدَّث بنعمته عليه بين الناس.. أن يسلب منه تلك النعمةَ ؛ حتىٰ لا يُكذِّبَ عبدَهُ)

وقد نُقِلَ ذلك عن أخلاق بعض العبيد ؛ كيوسفَ ناظرِ الخواصِّ بمصرَ ، وأمثاله

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاصُ رحمه الله تعالىٰ يقول : (التحدُّثُ بنعمة الله عز وجل من غير فتنة ولا افتخار.. خاصٌّ بالأكابر في كلِّ عصر ، بخلاف غيرهم من الأصاغر ، فربما دخل الرياء في تحدثهم بما أنعم الله به عليهم) انتهىٰ .

[مطلب
في أنَّ للعبد في إظهار أعماله وإخفائها ثلاثَ حالات]

قلت : وإيضاحُ كلام شيخنا رضي الله عنه أن نقول للعبد في إظهار أعماله وإخفائها ثلاثُ حالات

أحدها : أن يظهر أعمالَهُ للناس رياءً وسمعةً ؛ كما هو شأن بعض العوامِّ الذين لم يَصِلوا إلىٰ ذوق مقام توحيد الأفعال لله تعالىٰ ؛ فإنَّ مَنْ وصل إلىٰ ذلك المقام ذهب عنه الرياءُ جملةً واحدةً كما مرَّ في الخطبة[1] ؛ لأنه حينئذٍ يرى الفعل لله وحده ، ومعلوم أنَّ أحداً لا يُرائي قطُّ بفعل غيره أبداً ، وهـٰذا هو مذهب الجبرية بعينه ؛ فإنَّ الجبرية قوم وصلوا إلىٰ مقام توحيد

(١) انظر (ص٩٧) .

الأفعال على الكشف والشهود ، ولم يصلوا إلىٰ مقام الكُمَّل في إضافتهم الأفعالَ إلى الخلق ؛ عملاً بإضافة الحقِّ تعالىٰ ذلك إليهم في نحو قوله تعالىٰ : ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٤] ، ﴿ تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل ٩١] ، فمقامهم ـ يعني : الجبرية ـ أحسنُ من مقام المعتزلة علىٰ كلِّ حال ، والكاملُ من نظر بالعينين ؛ فأضاف الأفعال إلى الله خلقاً وإيجاداً ، وللعبد إضافةً وإسناداً ، كما سيأتي في الحالة الثالثة

ثانيها ـ يعني : الأحوال ـ : أن يُحِسَّ من نفسه الإخلاصَ حين بدت له حقائقُ التوحيد ، ولـٰكنَّهُ لم يتمكَّن فيها ، فهو يخاف علىٰ نفسه من إظهار أعماله للناس ؛ لاعتماده عليها دون الله تعالىٰ ؛ كما هو شأن العبَّاد الذين لم يسلكوا الطريق ، فيخاف أحدهم من ذكرها أنَّها تُحبِط عمله ، وهـٰذه الحالة هي الغالبة علىٰ أكثر الناس سلفاً وخلفاً

ثالثها ـ يعني : الأحوال ـ : أن يُحِسَّ من نفسه الخلاصَ من الرياء بالكلية ، حتىٰ تمكَّن من حقائق التوحيد ، فمثلُ هـٰذا لا يخاف من إظهار أعماله ؛ لشهوده أنها للحقِّ تعالىٰ وحده لا شريك له فيها ؛ ولعدم اعتماده عليها أيضاً دون فضل الله تعالىٰ ، بل يجب علىٰ صاحب هـٰذا المقام إظهارُ العمل ؛ تحدُّثاً بنعمة الله عز وجل ، وهو أفضل من الإسرار بها ؛ لعدم خوفه علىٰ نفسه شيئاً من الآفات .

فعُلِمَ : أنَّ مَنْ لم يَصِل إلىٰ هـٰذه الحالة الثالثة . . فكتمانُ الأعمال الصالحة في حقه واجبٌ أو أولىٰ ؛ لخوفه من الفتنة ، وشهودُهُ أنَّهُ ليس له من العمل إلا نسبةُ التكليف . . لا يقدح في مقامه .

فعُلِمَ : أنَّ مَنْ قال إخفاءُ الأعمال أولىٰ مطلقاً . . أخطأ ، أو إظهارُها أولىٰ مطلقاً . . أخطأ ، ومَنْ فعل كما ذكرنا فقد أصاب ، والله أعلم

وسمعت سيدي علياً الخوَّاصَ رحمه الله يقول (**للعبد في أعماله وأحواله ثلاثُ مراتبَ**

أحدها أن تكون علانيته أفضلَ من سريرته ، فهـٰذا يطرقه الرياء ؛ خوفاً علىٰ ظهور سريرته للناس ، فهو يريد بإظهار أعماله الصالحة عدمَ تصديق الناس في قبح سريرته لو وقع ذلك

ثانيها أن تكون سريرته أفضلَ من علانيته ، فهـٰذا ربما يكون الغالب عليه الإخلاصَ

ثالثها أن تتساوىٰ سريرته وعلانيته في الخير ، فلا تكونَ له سريرةٌ يَفتضِحُ بظهورها في الدارين ، فهـٰذا هو الصادق في إخلاصه ؛ لاستواء الأمرين عنده) انتهىٰ .

قلت : وفوق ذلك **حالةٌ** رابعة يعرفها الكُمَّل ، والله أعلم

وسمعت الشيخ أبا السعود الجارحيَّ رحمه الله يقول (لا ينبغي لأحد من أمثالنا إظهارُ شيء من أعماله الصالحة ، إلا في محلٍّ يغلب علىٰ ظنه أنَّ الناس يقتدون به في ذلك ، أو محبةً في إظهار مجد الله وكرمه علىٰ عباده ، وإلا فكتمانُ أعماله أولىٰ له) انتهىٰ .

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص رحمه الله يقول : (إذا بلغ العبد مقامَ العبودية ، ورأىٰ كشفاً وشهوداً أنه لا يستحقُّ أن يضاف إليه شيءٌ من الكمالات . . فهناك يتعين أو ينبغي له الإعلانُ والتحدثُ بنعمة الله عز وجل

عليه ؛ لأنه يشهد نفسه غارقاً في نعمة الله سَداه ولُحْمتُهُ منها ، لا يرىٰ له فخراً ولا فضلاً علىٰ أحد من خلق الله ، بل يرىٰ أنه قد استحقَّ الخسفَ به لولا عفو الله تعالى) انتهىٰ

وهـٰذا هو مشهدي الآن بحمد الله تعالىٰ كما سيأتي إيضاحه أواخرَ الكتاب[1] ؛ فإنِّي والله ، ثم والله ، ثم والله ؛ أرىٰ أنِّي قد استحقَّيت الخسف والمسخ من سنين عديدةٍ ، وأنِّي لا أستحقُّ ذَرَّةً واحدة مما تفضل الله تعالىٰ به عليَّ من نعمه ، وأودُّ أن يكون لي ذواتٌ وألسُنٌ بعدد ذرات الوجود ، وكلُّ ذات ولسان يعبدُ الله ويمدحُهُ ويشكرُهُ بجميع ما يعبده به ويشكرُهُ جميعُ إخوانه في العالم العلويِّ والسفليِّ أبدَ الآبدين ودهرَ الداهرين ، ومع ذلك فلا أؤدِّي شكر نعمته عليَّ في إذنه لي أن أقف خلف كلِّ عاصٍ علىٰ وجه الأرض بين يديه ولو غافلاً

ووالله ، ثم والله ، ثم والله ؛ ما قصدت يا أخي بتأليف هـٰذا الكتاب التفاخرَ على الأقران ، وحُبَّ المحمدة دونهم ، مَعَاذَ الله أن أُهدِيَ إلىٰ حضرة الله تعالىٰ كتاباً قُصِد به الفخرُ علىٰ عباده ؛ فإنَّهُ ذنبُ إبليسَ الذي أُخرِجَ به من حضرة الله عز وجل وطُرِدَ ولُعِن ، نسأل الله السلامة آمين

هـٰذا آخر المقدمة ، والحمد لله رب العالمين

❋ ❋ ❋

ولنشرع بعون الله تعالىٰ في مقصود الكتاب ، فأقول وبالله التوفيقُ[2]

---

(١) انظر (ص٦٥١) .

(٢) في هامش (ب) : (بلغ مقابلة) .

الباب الأول

في جملة من الأخلاق

الباب الأول
في جملة من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق :

[حفظُهُ للقرآن ، ومواظبتُهُ على الصلوات الخمس لوقتها وهو ابن سبع سنين]

مما منَّ اللهُ به عليَّ ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال صغري وأنا ببلاد الريف ـ والريفُ اسمٌ لكلِّ مكانٍ فيه زرع وماشية ـ : قد مَنَّ الله سبحانه وتعالىٰ عليَّ بحفظ القرآن العظيم وأنا ابن سبع سنين[1] ، وواظبتُ على الصلوات الخمس في مواقيتها من ذلك السنِّ ، فما أتذكر أنه فاتتني صلاةٌ عن وقتها إلىٰ وقتي هـٰذا ولو نسياناً ، إلا مرةً واحدةً نسيتُ صلاةٌ الظهر حتىٰ دخل وقتُ العصر

ولمَّا حفظتُ القرآن كلَّهُ كنت مواظباً علىٰ قيام الليل به ، وربما كنت أصلي به كلِّهِ في ركعة واحدة ، وكنت كثيراً ما أصلي به في جامع الأزهر بجانب المنبر وأنا دون البلوغ ، وكنت أقصد المواضع التي لا يعرفني فيها أحد .

ومما وقع لي وأنا ابن عشر سنين في البلاد أنني عُمْتُ بحرَ النيل أيامَ

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٣٨) : (وأنا ابن ثمان سنين) .

الوفاء إلىٰ ساحل البحر الآخر[١] ، فتعبتُ وبَطَلَتْ حركة أعضائي ، فتشهدت ونزلت قعر البحر لأموت ، وإذا أنا بشيء يابس تحت رجلي كالحجر ، فوقفت عليه ، فحَكَمَ علىٰ فمي وتخلص أنفي للتنفس ، فوقفت عليه حتى استرحت ، فلما عُمْتُ إذا بذلك الشيء اليابس رأسُ تمساح أرسلَهُ اللهُ تعالىٰ لي حملني حتى استرحت ، فبَوَّعَ التمساحُ وعامَ وأنا أنظره[٢] ، وهـٰذا من جملة اعتناء الله تعالىٰ بي وأنا صغير لا أعرف طريق معاملته ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[هجرتُهُ من بلاد الريف إلىٰ مصرَ بلدِ العلم]

ومما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم : مجيئُهُ بي من بلاد الريف إلىٰ مصرَ ، ونقلُهُ لي من أرض الجفاء والجهل إلىٰ بلد اللطف والعلم

وقد أشار إلىٰ ذلك السيد يوسفُ عليه السلام بقوله : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، فذكر أنَّ مجيء إخوته من البدو من جملة إحسان الحقِّ تعالىٰ إليه وإليهم بحكم التبعية ، فكأنه عليه السلام مدح الحقِّ تعالىٰ بما فعل مع إخوته ومعه ، وفي الحديث مرفوعاً « مَنْ سكنَ الباديةَ جفا ، وَمَنْ تبِعَ الصيدَ غفَلَ ، وَمَنْ أتىٰ أبوابَ السلطانِ افتُتِنَ »[٣]

---

(١) **أيام الوفاء** : هي أيام فيضان نهر النيل

(٢) بَوَّع : أي : جرىٰ جرياً معهوداً للتمساح

(٣) رواه أبو داود (٢٨٥٩) ، والترمذي (٢٢٥٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، =

وكان مجيئي من الريف إلىٰ مصرَ افتتاحَ سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة وعمري إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، وأنا يتيم من الأبوين ، فأقمت في جامع الغمري ، وحنَّنَ اللهُ تعالىٰ عليَّ القلوب ؛ فبعضُ الناس يأتيني بطعام ، وبعضهم يأتيني بثياب ، وبعضهم بفضة ، وبعضهم بذهب ، وكان إذا فاض عن حاجتي شيءٌ أرميه في صحن الجامع لمن له فيه رزق ، وربما كنت أطوي في بعض الأيام وأردُّ ما يأتيني من الناس ؛ خوفاً من هواني عندهم .

ولم أزل علىٰ ذلك حتىٰ خرجت من الجامع ، وسكنت في مدرسة أم خوند بخطٍّ بين السورين ، فصُبَّت عليَّ الدنيا صبّاً من حيث لا أحتسب ، وبلغ المجاورون عندي خمسةً وسبعين رجلاً ، فلما خرجت منها إلى المسجد الذي نحن الآن فيه قريباً من المدرسة المذكورة.. وصل المجاورون عندي مئةً وخمسين نَفْساً ، وفاض الخيرُ علينا أكثر وأكثر ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[حفظُهُ لمتون كتب العلم]

ومما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ : حفظي لمتون كتب العلم الشرعي ؛ حفظتُ كتاب « المنهاج » للنووي ، ثم « الألفية » ، ثم « التوضيح » ، ثم « جمع الجوامع »، ثم « ألفية العراقي »، ثم « تلخيص المفتاح »، ثم « الشاطبية »،

= ومعنىٰ (جفا) : غلظ طبعه ؛ لقلة مخالطة العلماء ، و(غفل) : شَغل الصيد قلبه واستولىٰ عليه حتىٰ صار فيه غفلة ، و(افتُتن) بالبناء للمفعول : ذهب دينه .

وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٩٧٠) من قول الفضيل بن عياض : (كنا نتعلم اجتناب السلطان كما نتعلم سورةً من القرآن) .

ثم « قواعد الإعراب » لابن هشام ، وغيرَ ذلك من المختصرات ، وصرت أعرف متشابهاتِ هـٰذه الكتب من جودة الحفظ كأنها قرآن .

ثم ارتفعت همَّتي إلىٰ طلب حفظ كتابٍ جامعٍ لفروع مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ فحفظت « الروض » إلىٰ أثناء (باب القضاء على الغائب)[1] ، فلقيَني بعض أرباب الأحوال بباب الخَرْق[2] ، فقال لي مكاشفاً : قِفْ علىٰ (باب القضاء على الغائب) ، فما قَدَرْتُ بعد ذلك علىٰ حفظ لوح واحد منه ، ولـٰكنِّي طالعت بقية الكتاب نحوَ مئة مرة في الشرح ، ومكثت مدة طويلة أقرؤه علىٰ ظهر قلب حتىٰ صار كالقرآن

ثم لقيني الشيخ أحمدُ البهلولُ رضي الله عنه وكان من المكاشفين ، فقال أقبلْ علىٰ طريق أهل الله تعالىٰ ؛ فإنا لا نجعلك قطُّ قاضياً ، فشاورت أشياخي في الفقه ، فقالوا لي اشتغل بشرح محفوظاتك على الأشياخ ، فإذا فهمتها وتبحَّرت فيها فعليك بطريق القوم ، وكان أشياخي بحمد الله كلُّهم جامعين بين العلم والعمل ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[شرحُهُ لما حفظ من المتون على الأشياخ]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : أنِّي شرحتُ محفوظاتي السابقةَ على الأشياخ الذين عرضتها عليهم بمصرَ ، وهم نحو خمسين عالماً ، ذكرنا مناقبهم في

---

(١) كتاب « الروض » : لابن المقرئ ، اختصر فيه « روضة الطالبين » للإمام النووي ، وقد شرح « الروض » الشيخُ زكريا الأنصاري في كتاب سماه : « أسنى المطالب » ، وعلى الشرح « حاشية » للشيخ أحمد الرملي .

(٢) في هامش (ب) : (وهو الشيخ أحمد البهلول)

كتاب « الطبقات » ، فقرأت على الشيخ الإمام العلامة الفقيه المحدث المقرئ الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري . . « شرح المنهاج » للجلال المَحَلِّيِّ ، وكان أعرفَ أشياخي بنكت « الشرح » ؛ لكونه قرأ بعضه على مؤلفه ، وبقيتَهُ على أصحاب المؤلف ؛ كالشيخ فخر الدين [المقسيِّ][1] ، والشيخ شمس الدين الجَوْجَريِّ ، والشيخ شمس الدين بن قاسم .

وكنت أطالع عليه « القوت » للأَذْرَعيِّ ، و« شرح المنهاج » للإسنويِّ ، وللسبكيِّ ، ولابن المُلقِّن ، وشروحَهُ لابن قاضي شهبةَ ، و« شرح الروض » لشيخ الإسلام زكريا قبل أن يشتهر الكتاب ، وكنت ألخص زوائد هذه الكتب على حواشي « شرح الجلال المحلي » ، وأُلصِقُ فيه أوراقاً ، حتى ربما تصير الحواشي أكثرَ من الكتاب ، وأقرؤها كلَّها عليه ، وكان ذلك لضيق يدي عن شيء أشتري به الكتب .

وكذلك قرأت على الشيخ أمين الدين أيضاً « شرح جمع الجوامع » للجلال المَحَلِّيِّ و« حاشيته » لابن أبي شريف .

وكذلك قرأت عليه « شرح ألفية العراقيِّ » للسخاويِّ ، و« شرح ابن عقيل على الألفية » ، وكنت أطالع عليه « شرح الأعمى والبصير » ، و« شرح التوضيح » ، و« شرح ابن أم قاسم » ، و« شرح المَكُوديِّ » ، و« شرح الشواهد » للعينيِّ[2] ، وأكتب زوائدها على « شرح ابن عقيل » ، وأقرؤها كلَّها عليه .

---

(١) في النسخ : (المقسمي)، والتصحيح من كتب التراجم ، و« المنن الكبرى » (١/ ١٤١) .

(٢) في « المنن الكبرى » (١/ ١٤١) زيادة كتاب سادس ؛ وهو : « شرح ابن المصنف » .

وكذلك قرأت عليه الكتب الستة في الحديث ، و« الغيلانيات » ، و« مسند عبد بن حميد » ، وأجازني بجميع مروياته ، وكان له السندُ العالي ، أخذه عن الحافظ ابن حجر وغيره ، رضي الله عنه .

وقرأت على الشيخ الإمام العلامة الشيخ شمس الدين الدَّواخليِّ هٰذه الشروح المذكورة بحواشيها بعد الشيخ أمين الدين ، وكان فقيهاً مُحقِّقاً للأبحاث

وكذلك قرأت عليه « شرح الإرشاد » لابن أبي شريف ، وكنت أطالع عليه « شرح البهجة الكبير » للشيخ زكريا ، و« شرح الإرشاد » للجوجريِّ ، و« القوت » للأَذْرَعيِّ ، و« التوسط والفتح » له .

وكذلك قرأت عليه « شرح الروض » إلىٰ أثناء (باب الجزية) ، فحصل لي رميُ دمٍ ، فمرضت ، فلم أتمُّهُ عليه

وكنت أطالع علىٰ هٰذا « الشرح » « الخادم »[1] و« القوت » ، وجميع الموادِّ التي استمدَّ منها شارحُهُ ، وكنت أتتبع نقوله بسوابق الكلام ولواحقه ، وألحقها بـ « شرح الروض » حتىٰ صارت حواشي « الشرح » أكثرَ من « الشرح » ، وكان يتعجب من سرعة مطالعتي لهٰذه الموادِّ ، ويقول : (لولا أنَّك تُلَخِّص زوائدها لقلت : إنك لم تنظر فيها فضلاً عن أن تطالعها كلَّها)

وكذلك قرأت عليه « شرح الألفية » لابن المصنف ، وللأعمىٰ

(١) والمسمىٰ : « خادم الرافعي والروضة » ، شرح فيه مشكلات « الروضة » ، وفتح مقفلات « فتح العزيز »

والبصير ، ولابن أم قاسم ، و« شرح التوضيح » للشيخ خالد ، وغيرَ ذلك

وكذلك قرأت عليه « المطول » بحواشيه كاملاً ، وكذلك قرأت عليه « شرح ألفية العراقيِّ » للسخاويِّ[1] ، و« شرح جمع الجوامع » للمحلِّيِّ بـ« حاشيته » ، وكذلك قرأت عليه « شرح الشاطبية » ، وغيرَ ذلك

وقرأت على الشيخ الإمام العالم العلامة الشيخ شمس الدين **السمانودي** الخطيب بجامع الأزهر . . نحوَ النصف من « شرح المنهاج » للمحلِّيِّ ، وقطعةً من « شرح الطوالع » ، ثم سافر من مصرَ إلى المَحَلَّة الكبرىٰ ، فأقام بها إلىٰ أن توفي ، فأكملته على الشيخ شهاب الدين المَسِيريِّ رحمه الله

وقرأت على الشيخ الإمام المحقق الشيخ نور الدين **المحلِّيِّ** « شرح جمع الجوامع » بـ« حاشيته » ، وكنت أقرأ عليه « الشرح » و« الحاشية » في الغالب علىٰ ظهر قلب ، وهو ماسكٌ عليَّ الكتابَ ، فيتعجَّب من جودة حفظي ، وتوقيعي « الحاشيةَ » على « الشرح »

وكذلك قرأت عليه « شرح العقائد » للتفتازانيِّ ، و« حاشية ابن أبي شريف » عليه ، وكذلك قرأت عليه « شرح المقاصد » ، وكتاب « سراج العقول » للشيخ أبي طاهر القزوينيِّ ؛ وهو كتاب مشتمل علىٰ أربعين باباً في علم الكلام ؛ كلُّ باب يجمع فيه سائرَ مشكلاته ، ويتكلم عليها ، وما رأيت في علماء الكلام أطولَ باعاً منه

وقرأت على الشيخ الإمام نور الدين **الجارحيِّ** المدرس بجامع

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٤٢) (للمصنف وللسخاوي)

الغمري . . « شرحَ ألفية العراقي » للمؤلف ، و« شرح الشاطبية » ، وغيرَ ذلك .

وقرأت على الشيخ الإمام الزاهد العلامة نور الدين **السَّنْهُوريِّ** الضرير الإمام بجامع الأقمر . . عدةَ كتب ؛ **منها** « شرح نظمه » للآجرومية ، **ومنها** « شرح شذور الذهب » ، **ومنها** « شرح الألفية » للمَكُوديِّ ، وغيرُ ذلك

وقرأت على الشيخ الإمام العلامة المحقق الجامع بين الطريقين ، الشيخ **ملا علي العجميِّ** بباب القَرَافة . . قطعةً من « المطول » و« العضد » ، وقطعةً من « تفسير البيضاوي » ، ثم مات

وقرأت على الشيخ **جمال الدين الصَّانيِّ** ، والشيخ **عيسى الإخنائيِّ** ، والشيخ **شمس الدين الدِّمْياطيِّ** الواعظ بجامع الأزهر ؛ كلٍّ منهم . . قطعةً من « شرح المنهاج » ، ومات

وقرأت على الشيخ **شهاب الدين القسطلَّاني** غالبَ « شرحه على البخاري » ، وكتاب « المواهب اللدنية » كاملاً ، ثم مات .

وقرأت على الشيخ **مُجَلِّي** رضي الله عنه قطعةً من « شرح المنهاج » للمحلِّيِّ[(١)] أنا والشيخ أبو الحسن البكريُّ ، ثم مات

وقرأت على الشيخ **نور الدين بن ناصر** من أول « شرح المنهاج » للمحلي إلى أثناء (باب الحج) ، ثم مات ، وكان أحفظَ أشياخي للنقول .

ولما حفظت « الروض » كان يسرد مسائله ، ويزيد عليها ما في شروح

---

(١) في (و ، ز) زيادة : (إلى أثناء باب القضاء) .

« المنهاج » و« التنبيه » وغيرهما

وقرأت على الشيخ **نور الدين الأُشمونيِّ** قطعةً من شرحه على « المنهاج » الذي نظمه ، وقرأت عليه « شرح نظمه لجمع الجوامع » ، وغيرَ ذلك

وقرأت على الشيخ **سعد الدين الذهبيِّ** « شرح ألفية العراقي » ، وقطعةً من « شرح المنهاج » للمحليِّ ، وأمرني بمطالعة « الخادم » و« القوت » ، فطالعتهما كاملاً ، وكنت أراجعه في مشكلاتهما

وقرأت على شيخ الإسلام **الشِّشينيِّ** الحنبليِّ قطعةً من « تفسير البغوي » ، ثم مات

وقرأت على شيخ الإسلام **برهان الدين القَلْقَشنديِّ** دروساً من « شرح المنهاج » ، ثم مات ، وأجازني بجميع مروياته ، وكان عاليَ السند

وقرأت على شيخ مشايخ الإسلام الشيخ **زكريا** رحمه الله عدةَ كتب من مؤلفاته ؛ أولها « شرح رسالة القشيري » في التصوف ، كتبته من خطه ، وقرأته عليه كاملاً ، وأجازني بإقرائه ، وقرأت عليه « شرح مختصره لجمع الجوامع »[١] ، و« مختصر أدب القضاء » له ، و« شرح التحرير » ، و« شرح الروض » إلىٰ (باب الجهاد) ، ثم مات

وقرأت عليه أيضاً « تفسير الإمام البيضاوي » ، ونشأ من قراءتي « الحاشيةُ » التي وضعها عليه[٢] ، وكذلك قرأت عليه القطعة التي وضعها علىٰ « مختصر المزني »

---

(١) المسمىٰ : « لب الأصول » ، وشَرَحَه في « غاية الأصول »

(٢) المسماة : « فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل »

ولما شرح « البخاريَّ » كنت أطالع له « شرح البخاري » لابن حجر ، و« شرحه » للعينيِّ ، و« شرحه » للكرمانيِّ ، و« شرحه » للبَرْماويِّ ، و« شرحه » للقسطلّانيِّ ، ويُلخِّصُ منها ما يختاره ، حتىٰ صارت هٰذه الشروح نصبَ عيني من جودة الحفظ ونباهة الخاطر .

وكذلك قرأت عليه « الكشاف » مع حواشيه

ولما قرأت عليه « شرحه للروض » كنت أطالع عليه جميع الموادِّ التي استمدَّ منها ، ونبهته علىٰ نحو أربعةَ عشرَ موضعاً ذكر أنَّها من أبحاث الزركشيِّ والحال أنَّها من كلام الأصحاب ، فأصلَحَها ، وكذلك نبهته علىٰ عدة مواضع ذكر أنها من زوائد « الروض » على « الروضة » والحال أنها مذكورة في « الروضة » في غير أبوابها ، فأصلحها رحمه الله تعالىٰ

ومن جملة ما كنت أطالعه علىٰ « شرح الروض » من الموادِّ : كتابُ « المهمات » ، وكتاب « القوت » ، وكتاب « الخادم » ، وكتاب « شرح المهذب » ، و« الروضة » ، و« الرافعي الكبير » ، وكتاب « المطلب » لابن الرفعة ، و« الكفاية » له ، و« القطعة » ، و« التكملة » ، و« شرح ابن قاضي شهبة » ، وشروح « التنبيه » ؛ كابن يونسَ ، وابن الملقِّن

وكذلك طالعت عليه « القواعد الكبرىٰ » للشيخ عزِّ الدين ، و« قواعد الزركشي » ، و« قواعد العلائي » ، وغيرَ ذلك مما كان متيسراً في خزانة المدرسة المحمودية وغيرِها

وقرأت على الشيخ الإمام العلامة محقِّق الزمان الشيخ شهاب الدين الرمليِّ . . كتابَ « الروضة » من أولها إلىٰ أثناء (باب الخِيار والإعفاف في

النكاح)[1] ، فحصل لي رميُ دمٍ ، فلم أتمَّهُ عليه

وكنت أطالع علىٰ كلِّ درسٍ قرأته عليه كتابَ « المهمات » ، و« الخادم » ، و« شرح الروض » ، و« المطلب » ، و« الكفاية » ، و« شرح المهذب » ، وشروح « المنهاج » ، و« شرح الإرشاد » ، و« شرح البهجة » ، وغيرَ ذلك ، وأكتب زوائدَ جميع هـٰذه الكتب على الحواشي

وكنت أقرؤها كلَّها عليه ، ويُنبهني على الراجح وغيرِهِ ، وكان يتعجَّبُ من مطالعتي لهـٰذه الكتب ، ويقول لي : (بدايتُك بنهاية غيرك ؛ لأني ما رأيت أحداً يتيسر له مطالعةُ هـٰذه الكتب كلِّها في هـٰذا الزمان أبداً !)

وكنت أطالع الجزء الكبير في ليلة ، وأكتب زوائده على الكتاب الذي أقرؤه ، فهـٰذا ما استحضرتُهُ الآن من قراءتي على الأشياخ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[مطالعتُهُ لغالب كتب الشريعة]

ومما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ : مطالعةُ غالب كتب الشريعة بعد ذلك لنفسي ، مع مراجعة مشايخ العلم لما أشكل عليَّ منها .

فطالعت بحمد الله تعالىٰ « شرح الروض » للشيخ زكريا نحوَ ثلاثين مرة.

وطالعت كتاب « الأم » للشافعي ثلاثَ مرات ، حتىٰ كنت أستحضر غالبَ نصوصه علىٰ ظهر قلب

وطالعت « مختصر المزني » مرة واحدة .

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٤٥) : (من أولها إلىٰ أثناء كتاب الجراح) .

وطالعت « شرح مسند الإمام الشافعي » للجاوليِّ مرتين .

وطالعت كتاب « المحلَّىٰ » لابن حزم في الخلاف العالي ، و« مختصره » للشيخ محيي الدين بن العربي مرة واحدة ، وهو ثلاثون مجلدةً ضخمة .

وطالعت كتاب « الحاوي » للماورديِّ مرةً واحدة ، وهو ثلاثون مجلدةً ضخمة ، وكذلك طالعت « الأحكام السلطانية » له مرة واحدة .

وطالعت « فروع ابن الحداد » مرتين[1]

وطالعت كتاب « المحيط » لأبي محمد الجوينيِّ وكتاب « الفروق » له مرةً واحدة ، ولم يتقيد في كتابه « المحيط » علىٰ مذهب

وطالعت كتاب « المطلب » لابن الرفعة مرةً واحدة ، وكنت أراجع الشيخ كمال الدين الطويل في تحرير أبحاثه

وطالعت « الرافعيَّ الكبير » و« الصغير » ثلاثَ مرات ، و« الروضة » سبعَ مرات .

وطالعت « شرح المهذب » نحو خمسين مرة ، و« تكملة السبكي » عليه مرتين .

وطالعت كتاب « البسيط » و« الوسيط » و« الوجيز » للغزالي مرةً واحدة .

وطالعت « شرح مسلم » للنووي خمس عشرة مرة .

---

(١) المسمىٰ : « جامع الفروع » ، والذي اشتهر بـ « فروع ابن الحداد » .

وطالعت « المهمات » ثلاث مرات ، و« الخادم » مرتين ونصفاً ، و« القوت » مرتين .

وطالعت « العمدة » لابن الملقن و« العجالة » مرةً واحدة .

وطالعت « شرح التنبيه » للزَّنْكلونيِّ ولابن الملقِّن مرةً واحدة .

وطالعت « شرح المنهاج » للجلال المحليِّ أكثرَ من ثلاثين مرةً مع « تصحيح ابن قاضي عجلونَ » و« شرح ابن قاضي شهبةَ » ، وكتابة زوائد « شرح البهجة » و« الروض » عليه

وطالعت « شرح البهجة » للشيخ وليِّ الدين خمسَ مرات ، وللشيخ زكريا مرتين .

وطالعت « شرح الإرشاد » لابن أبي شريف ثلاثَ مرات ، وللجوجريِّ مرةً واحدة

وطالعت « فتح الباري على البخاري » ثلاث مرات ، و« شرحه » للكرمانيِّ مرتين ، وللبرْماويِّ مرة ، وللقيروانيِّ ثلاث مرات ، وللعينيِّ مرتين ، وللقسطلّانيِّ ثلاث مرات ، وللفاسيِّ مرة ، وللقاضي عياض مرة .

وطالعت « تفسير البغوي » مرة ، و« الخازن » ثلاث مرات ، و« تفسير ابن عادل » سبع مرات ، و« تفسير الكوّاشيِّ »[١] عشر مرات ، و« تفسير ابن زهرةَ » مرة ، و« ابن أبي كثير » مرة .

وطالعت « الكشاف » بحواشيه مرة ونصفاً ، وأعظمها « حاشية

---

(١) المسمىٰ : « تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر » .

الطيبي » ، وكلُّ الحواشي عَيْلةٌ عليها ، وكذلك طالعت عليه كتاب « الانتصاف » لابن المنيِّر ، وهو مُبيِّنٌ لمواضع الاعتزال منه ، وكذلك طالعت كتاب « الإنصاف » للعراقي الذي جعله حكماً بين « الكشاف » و« الانتصاف » ، و« مختصرَ ذلك » لابن هشام .

وكذلك طالعت « البحر » لأبي حيانَ ، وعرفت المواضع التي ناقش فيها الزمخشريَّ من حيث الإعراب ، وكذلك طالعت عليه « إعراب تلميذه أحمدَ بن يوسفَ الحلبيِّ الشهير بالسمين »[1] ، وكذلك طالعت عليه « إعراب السفاقسيِّ »

وكذلك طالعت عليه « حاشية الشيخ قطب الدين الشيرازيِّ » في مجلدين ، وقطعةً من « حاشية الشيخ فخر الدين الجارَبَرْديِّ » ، وقطعةً من « حاشية الشيخ أكمل الدين البابَرْتيِّ » في مجلدتين إلىٰ أثناء سورة (البقرة) ، ولا أدري هل أكملها أم لا

وكذلك الشيخ سعد الدين لم يتم « حاشيته » ، وكذلك السيد الجرجانيُّ ؛ فإني ما طالعت من « حاشيته » سوىٰ مجلد

وكذلك طالعت عليه « حاشية أبي زرعةَ العراقي » ، وهي مجلدتان ، لخَّص فيها كلامَ ابن المنيِّر والعَلَم العراقيِّ وأبي حيانَ ، وأجوبةَ السمين والسفاقسي مع زيادة تخريج أحاديثه .

فهٰذا ما طالعته على « الكشاف » ، وقليلٌ مَن يتيسر له مطالعة غالب هٰذه الكتب ، بل بعضهم لم يعرف أسماءها فضلاً عن الخوض فيها ، وكان

---

(١) المسمى : « الدر المصون في علوم الكتاب المكنون »

الحقُّ تعالىٰ قد سخَّرَ لي الشيخ شمس الدين المظفريَّ ، فكنت كلُّ كتابٍ احتجتُ إليه يأتيني به .

وطالعت « تفسير البيضاوي » خمس مرات مع « حاشية الشيخ زكريا » ، و« تفسير القرطبي » مرة واحدة .

وطالعت « تفسير ابن النقيب المقدسي » [مرةً] وهو في مئة مجلدة ضخمة[1] ، ما رأيت على القرآن تفسيراً أوسعَ منه[2]

وطالعت تفسيري الإمام الواحديِّ « الوسيط » و« الوجيز » ثلاث مرات ، وتفسيري الشيخ عزِّ الدين الدِّيرينيِّ[3] « الكبير » و« الصغير » نحو سبع مرات .

وطالعت « تفسير الجلالين » نحو عشر مرات ، وطالعت « الدر المنثور » في تفسير القرآن للشيخ جلال الدين السيوطي مرتين ، وهو غريب في فنِّه .

وطالعت من كتب الحديث والتصوف ما لا أحصي له عدداً ؛ فمِن جملة ما طالعته : الكتب الستة

وطالعت « صحيح ابن خزيمة » ، و« صحيح ابن حبان » ، و« مسند الإمام أحمد » ، و« موطأ الإمام مالك » ، و« معاجم الطبرانيِّ » الثلاثةَ .

وطالعت « جامع الأصول » لابن الأثير

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٥٩) .

(٢) المسمى : « التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير » .

(٣) في هامش (ب) : (أي : الشيخ عبد العزيز)

وطالعت « جوامع الجلال السيوطيِّ » الثلاثةَ ، وهي أجمع كتابٍ صُنِّفَ في الحديث ، لا يكاد يخرج عنها من أحاديث الشريعة . . إلا ما كان مُفرَّقاً في تفسير أو تاريخ

وطالعت « السنن الكبرىٰ » للبيهقيِّ ، ثم اختصرتها

وطالعت كتاب « المنتقىٰ من الأحكام » لابن تيميةَ الشيخ مجد الدين ، وليس هو صاحبَ الفتنة

وطالعت كتاب « الهدي النبوي » لابن القيِّم ، ثم اختصرته .

وطالعت من كتب اللغة « صحاح الجوهري » ، و« القاموس » ، و« النهاية » لابن الأثير

وطالعت كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » للنوويِّ نحو خمسَ عشرةَ مرة

وطالعت من كتب الأصول والكلام كثيراً من كتب المتقدمين والمتأخرين ؛ فمن جملة ما طالعته « العضد » مع « حاشيته » كذا كذا مرةً ، وطالعت « شرح المقاصد » ، و« شرح المطالع » ، و« شرح الطوالع »

وطالعت من فتاوى العلماء في وقائع الأحوال من المتقدمين والمتأخرين ما لا أحصي له عدداً ؛ كـ« فتاوى القفَّال » ، و« فتاوى القاضي الحسين » ، و« فتاوى الماورديِّ » ، و« فتاوى الغزاليِّ » ، و« فتاوى ابن الصلاح » ، و« فتاوى ابن عبد السلام » ، و« فتاوى ابن الصباغ » ، و« فتاوى النوويِّ »

و« فتاوى البُلْقينيِّ » ، و« فتاوى السبكيِّ » ، و« فتاوى الشيخ زكريا » ، وغيرِ ذلك

وطالعت من كتب القواعد : « قواعد الشيخ عز الدين الكبرىٰ » و« الصغرىٰ » ، و« قواعد العلائيِّ » ، و« قواعد ابن السبكيِّ » ، و« قواعد الزركشيِّ » ، ثم اختصرتها ، وهي أجمع القواعد وأفصحها عبارةً ، ثم إني جمعت بين القواعد كلِّها في كتاب ، وحذفت المتداخل ، وكذلك فعلت في الفتاوى المذكورة

وطالعت من كتب السِّيَر : « سيرة ابن هشام » ، و« سيرة أبي الحسن البكريِّ » ، و« سيرة الطبريِّ » ، و« سيرة ابن سيد الناس » ، و« سيرة الكَلَاعيِّ » ، و« سيرة الشيخ محمد الشاميِّ » ، وهي أجمع كتب السِّيَر كلِّها فيما يُظنُّ .

وطالعت كتاب « المعجزات والخصائص » للجلال السيوطي رحمه الله تعالىٰ كذا كذا مرةً .

وطالعت من كتب التصوُّف ما لا أحصي له عدداً ؛ فطالعت « القوت » لأبي طالب المكيِّ ، وكتاب « الرعاية » للمحاسبيِّ ، و« الإحياء » للغزاليِّ فوق الثلاثين مرة .

وطالعت « الفتوحات المكية » للشيخ محيي الدين بن العربي ، ثم اختصرتها ، وحذفت منها المواضعَ المدسوسة على الشيخ فيها

وطالعت كتاب « رسالة النور » للشيخ أحمد الزاهد ، وكتاب « منح المنة في التلبس بالسنة » لسيدي محمد الغمري ، وهو ست مجلدات .

فهٰذا ما استحضرته في هٰذا الوقت مما طالعته .

وقد كتب بعض الحسدة سؤالاً وقدَّمه إلىٰ شيخ الإسلام الفتوحيِّ الحنبليِّ في كلام يتعلَّقُ ببعض مؤلفاتي ، فردَّ السؤال وقال : كيف أكتب علىٰ سؤال يتعلق بشخص طالَعَ من الكتب كتباً لا نعرف أسماءها فضلاً عن الخوض فيها ؟! بل لو ادَّعىٰ بعضَها لم يجد له منازعاً انتهىٰ ، فرضي الله عن أهل الإنصاف ، وغفر لجميع الحسدة ، آمين

[مطالعتُهُ لكتب الأئمة الثلاثة ؛ للعمل بما أُجمِع عليه أو اتَّفقَ عليه ثلاثة منهم]

ومما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ مطالعةُ كتب أئمة المذاهب الثلاثة زيادةً علىٰ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وعنهم أجمعين ؛ وذلك لأعرف مسائل الإجماع أو ما اتفق عليه ثلاثة ، فأعملَ به بمزيد تأكيد .

فطالعت من كتب الحنفية : « شرح الكنز » ، و« شرح مجمع البحرين » ، و« الحداديَّ » ، و« فتاوىٰ قاضيخانَ » ، و« الخلاصة » ، و« شرح الهداية » ، وطالعت « تخريج أحاديث الهداية » للحافظ الزيلعيِّ ، وكنت أراجع في مشكلها علماء الحنفية ؛ كالشيخ نور الدين الطَّرَابُلُسيِّ ، والشيخ شهاب الدين بن الشلبيِّ ، وأضرابهما

وطالعت من كتب المالكية : « المدونة الكبرىٰ » للإمام مالك رضي الله عنه ، وكتاب « الموطأ » له ، و« شرح رسالة ابن أبي زيد » للشيخ جلال الدين بن قاسم ، و« شرح المختصر » لبَهْرَام ، وغيرَ ذلك ، وكانت مطالعتي « للمدونة » و« الموطأ » بإشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وطالعت من كتب الحنابلة : عدَّة كتب ، قالوا ولم يُدوِّنِ الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه شيئاً ، وإنما مذهبه مُلفَّقٌ من صدور أصحابه ، وكان مذهبه الحديث ، ويقول : (أوَلِأَحدٍ منا كلامٌ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، ويقال : إنه وضع ثلاثين مسألةً في الصلاة فقط ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[تقريرُهُ لمذاهب الأئمة الأربعة وكأنَّهُ واحد منهم]

ومما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ حين تبحَّرت في علوم الشريعة : أنني صرت أُقرِّر مذاهبَ الأئمة الأربعة وغيرَها كأهلها ، حتىٰ لا يكادُ يعرف أحدٌ أني متقيدٌ بمذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ لإحاطتي بأدلتهم ، ومعرفتي بمنازع أقوالهم ، وصار مَنْ لا يعرف حالي يقول : (فلانٌ لا يتقيد بمذهب) علىٰ وجه الذمِّ لي ، والحال أنَّ عدم تقيُّدي إنَّما هو لِمَا عندي من سعة الاطلاع علىٰ منازع أقوالهم ؛ فإنَّ منهم مَنْ أخذ بصريح الحديث ، ومنهم مَنْ أخذ بما استنبط منه ، ومنهم مَنْ أخذ بالمفهوم ، ومنهم مَنْ أخذ بما استنبط من المفهوم ، فلا تجد لهم قولاً إلا وهو مستنِدٌ إلىٰ آية أو حديث أو أثَر ، أو قياس صحيح علىٰ أصل صحيح ، فكأنَّ مذاهبهم نُسِجَتْ من الشريعة المطهرة سَداها ولُحمتُها

[مطلب
في تأليفِهِ كتاباً في الجمعِ بين المذاهب ، وتصديرِهِ بميزان]

ثم إني ألَّفت في الجمع بين المذاهب كتاباً حافلاً ، مَنْ طالعه عرَفَ صدقَ ما أقول ، وصدَّرتُهُ بميزانٍ ـ نحو ثلاث أوراق ـ تردُّ جميع أحاديث

الشريعة وما انبنىٰ عليها من أقوال المجتهدين ومقلّديهم إلىٰ يوم الدين إلىٰ مرتبتين : تخفيفٍ ، وتشديدٍ ، وإن شئتَ قل : عزيمةٍ ، ورخصةٍ ، لم أرَ لها ذائقاً من أقراني ، ولا يكاد يتعقَّلها إلا مَنْ طالعها وهو خالٍ من الحسد الذي يطرق الأقران ، بل بعضهم لم يتعقَّلها أبداً ، وقال (لـٰكن صولة الكلام صولة مُحِقٍّ)[١]

ولما حججتُ عام سبعة وأربعين وتسع مئة . . سألتُ الله في الحِجْر أن يزيدني علماً ، فسمعت قائلاً يقول لي من ناحية الميزاب : أما يكفيك أنَّ الله تعالىٰ أعطاك ميزاناً للشريعة لم تجد لها ذائقاً من أهل عصرك ؟! فقلت : الحمد لله علىٰ ذلك

ومُلخَّصُ هـٰذه الميزان أنَّ الشريعة كلَّها كما ذكرنا لا تخرج عن مرتبتين : عزيمة ، ورخصة ، ولكلٍّ من المرتبتين رجالٌ في حال مباشرتهم للأعمال ، فمَنْ قَوِيَ منهم خُوطِبَ بفعل العزيمة وكان علىٰ هدىً من ربِّهِ فيها ، ومَنْ ضعف منهم خوطب بالرخصة وكان علىٰ هدىً من ربِّهِ فيها كذلك بشرطها المقرر في كتب الفقه

فإن شئتَ فامتحن بهـٰذه الميزان جميعَ المذاهب تجدْها كذلك ، أو مذهبَك فقط تجدْهُ كذلك ؛ بالنظر للصحيح ومقابله ، فلا بدَّ أن يكون واحدٌ منهما مائلاً إلى التشديد والآخرُ مائلاً إلى التخفيف ، فلا تجد قولين قطُّ في تشديد ، ولا قولين قطُّ في تخفيف .

وربما يكون في المسألة قولٌ ثالث أو رابع أو أكثر ، فالحاذق يردُّ المائل

---

(١) وهـٰذا البعض : هو الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي ، كما سيأتي قريباً (ص١٤١) .

إلى الاحتياط أو التوسعة إلىٰ جنسه ، فرجعت الأقوال كلُّها إلى المرتبتين .

وقد أخذ منِّي هـٰذا الكتابَ الشيخُ شهاب الدين بن الشلبيِّ الحنفيُّ ، فمكث عنده أياماً ، ثم قال لي : أقول لك الحقَّ يا أخي : هـٰذا أمرٌ خاصٌّ بك ، ما لمثلي فيه يد ، فقلت له : أباطلٌ هو ؟ فقال : لا ، صولةُ الكلام ليست بصولة مُبطِلٍ ، ولـٰكنَّ عقلي ما قدر علىٰ جمع المذاهب كلِّها ؛ لأني في حجاب التقليد لإمامي فقط . انتهىٰ ، وكان من المحبين الناصحين .

فلما رأيت الكتاب بهـٰذه المرتبة ، ورأيت كلَّ مُقلِّدٍ لا يكاد يخرج عن قول إمامه . . استخرتُ الله تعالىٰ ، ورميت الكتاب في بحر النيل[١] ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[تأليفُهُ للكتب الكثيرة حتىٰ بلغت نحو الثلاث مئة كتاب]

ومما مَنَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ أنني أَلَّفتُ نحو الثلاث مئةٍ كتاباً في علوم الشريعة ؛ منها ما سارت به الركبان إلىٰ بلاد المغرب والتَّكْرُور ، ومنها ما هو عندي الآن في مصرَ ، وكتب عليه علماؤها وأجازوه ؛ ككتاب « البحر المورود في المواثيق والعهود » ، وكتاب « كشف الغمة عن جميع الأمة » ، وكتاب « المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين » ، وكتاب « مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية » ، وكتاب « لواقح الأنوار في مختصر الفتوحات »

وكتاب « البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير »

(١) وقع في هامش (ب) : (بل هو باقٍ إلىٰ يومنا هـٰذا ، وهو أجلُّ مؤلفاته رضي الله عنه) .

وكتاب « قواعد الصوفية » ، وكتاب « قواعد الفقه » ، وكتاب « منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول » ، وكتاب « الجواهر في بيان عقائد الأكابر »

وكتاب « الجوهر المصون في بيان علوم كتاب الله المكنون » ذكرتُ فيه ثلاثة آلاف علم .

وكتاب « طبقات الصوفية » ؛ من أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلىٰ ختام سنة تسع وخمسين وتسع مئة .

وكتاب « لوائح الخذلان علىٰ مَنْ لم يعمل بالقرآن » ، وكتاب « حدِّ الحسام علىٰ من أوجب العمل بالإلهام » ، وكتاب « التتبع والفحص علىٰ حكم الإلهام إذا خالف النص » ، وكتاب « البروق الخواطف في بيان عدم العمل بالهواتف »

وكتاب « مفحم الأكباد في بيان موادِّ الاجتهاد » .

وكتاب « رسالة الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية » ، وكتاب « كشف الحجاب والرَّان عن وجه أسئلة الجان »

وكتاب « فرائد القلائد في علم العقائد » ، وكتاب « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » ، ذكرت فيه خمساً وسبعين ألف علم ، وغير ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[موتُ جميع أشياخه وهم عنه راضون]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : موتُ جميع أشياخي في الفقه والحديث والتصوف وغيرها وهم عني راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ ؛ فإنَّ رضا الأشياخ على المريد عنوانٌ علىٰ رضا الله تعالىٰ عنه ، وقَلَّ من الطلبة

والمريدين مَنْ يموت أشياخُه وهم عنه راضون

وقد أخبرني بعضُ العلماء أنَّ سبب عدم انتفاع شخص من علماء المالكية بعلمه.. دعوةٌ من الشيخ نور الدين السَّنْهُوريِّ الكبير شيخِ الشيخ شمس الدين اللقَانيِّ وأخيه ؛ وذلك أنه راجعه في مسألة ، وقال للشيخ : ليس الأمر كذلك ، فقال يا ولدي ؛ أمَا تخشىٰ ألا ينفعك اللهُ بعلمك ، فسَرَتْ تلك الكلمة فيه ، فلم ينتفع أحدٌ بعلمه ، مع إذعان كلِّ علماء المالكية والشافعية له بالعلم ، لا سيما علمِ التفسير والحديث والمعقولات ، ولولا أخشىٰ أن تكون غِيبةً لعيَّنته ، فإياك يا أخي أن تغير قلب أحد من أشياخك عليك

وممَّنْ كان يبالغ في محبتي من أشياخي حتىٰ كأنِّي ولدُه : شيخُ الإسلام الشيخ زكريا ، والشيخ نور الدين الطرابُلُسيُّ الحنفيُّ ، والشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري ، والشيخ نور الدين الشَّوْنيُّ ، والشيخ محمد الشِّنَّاويُّ ، والشيخ شهاب الدين بن داودَ ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ عبد القادر الدِّشْطَوْطيُّ ، والشيخ شهاب الدين الرمليُّ ، والشيخ أبو الفضل شيخ بيت السادات من بني الوفا ، رضي الله عنهم أجمعين[١]

[اتصالُ نسب المؤلف بمحمد بن الحنفية رضي الله عنهما]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : شرفُ النسب ، وإن كان ذلك لا ينفع إلا مع التقوىٰ ؛ وذلك أنَّ نسبي ينتهي إلى السيد محمد بن الحنفيةِ ابن الإمام

---

(١) في هامش (ب) : (بلغ تصحيحاً إلىٰ هنا بحسب الطاقة) .

علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ فإنِّي عبدُ الوهابِ بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ زَرْفا بنِ موسى بنِ السلطانِ أحمدَ ـ بمدينة تِلِمْسانَ في عصر الشيخ أبي مدينَ ـ ابنِ السلطانِ سعيدِ بنِ السلطانِ فاشينَ بنِ السلطان محيا بنِ السلطانِ زَرْفا بنِ السلطانِ ريانَ بنِ السلطانِ محمدِ بنِ السلطانِ موسىٰ ، ورأيت في نسبتنا القديمة بعد موسىٰ ثلاثة أسماء مطموسة بينه وبين السيد محمد بن الحنفية ، لا أدري مَنْ هم ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[مجاهدتُهُ لنفسه بغير شيخ]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : إلهامي لمجاهدة نفسي بغير شيخ ، وبشيخ ؛ فإنَّ العالِمَ إذا تبحَّرَ في العلوم الشرعية . . فقد فعل ما كُلِّف به ، وما بقي عليه بعد ذلك إلا العملُ بما علم ، ولـٰكن يحتاج إلىٰ من يُعرِّفه طريقَ الوصول إلى العمل بما عَلِم بإزالة الموانع ؛ من محبة الدنيا وشهواتها

ويجب علىٰ مَنْ وجد شيخاً ولو بالسفر أن يهاجر إليه ، ومَنْ لم يجد شيخاً وجب عليه مجاهدة نفسه ؛ لتصير أعماله فيها رائحةٌ من الإخلاص ؛ قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

[صورةُ مجاهدته لنفسه من غير شيخ]

وكانت صورة مجاهدتي لنفسي بغير شيخ أنَّني كنت أطالعُ كتب القوم ؛ كـ « رسالة القشيريِّ » ، و« عوارف المعارف » ، وكتاب « الإحياء » ، وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم ، ثم إنَّهُ يبدو لي خلافُ ذلك ، فأَضرب على الأول وأعمل بالثاني ، وهـٰكذا ، فكنت كالذي يدخل

درباً لا يدري هل ينفذ أم لا ، فهو يسلك إلىٰ آخره ؛ فإن رآه مفتوحاً خرج منه ، وإلا رجع ، ولو أنه كان صادَفَ مَنْ يَعرِف أمرَ الدرب لأراحه من التعب ، فكان يُعلِمه أنه مسدود ، فهـٰذا مثال مَنْ لا شيخ له

فالشيخ فائدته إنما هي اختصار الطريق للمريد لا غيرُ ، ومَنْ لم يعرف الطريقَ لا بدَّ أن يتيه ، فيقطع عمرَهُ ولم يصل إلىٰ مقصوده ، فالشيخ كدليل الحاجِّ إلىٰ مكةَ .

ومن جملة ما جاهدتُ به نفسي أنَّني كنت جعلت لي حبلاً في سقف الخلوة محرَّراً علىٰ عنقي إذا جلست ، لا يصل إلى الأرض لو اضطجعت ، فكنت أجعله في عنقي من العِشاء إلى الفجر ، ومكثت علىٰ ذلك سنين عديدة ، ولم يكن لي بحمد الله من حينَ كنتُ صغيراً شيءٌ يَعُوقُني من أمور الدنيا سوى الحجاب وكثرة دخول العِلل في أعمالي ، وإن كانت العلل لا تنقطع عن العبد ، إلا أنها تتنوَّعُ بحسب المقامات ، فكلُّ مقامٍ له علل تناسبه ، فافهم .

وكانت القناعة من الدنيا باليسير سَداي ولُحمتي ، فأغنتني بحمد الله تعالىٰ عن الوقوع في الذُّلِّ لأحد من أبناء الدنيا ، ولم أباشر قطُّ حرفةً ولا وظيفةً بفلوس ، وإنما الحقُّ تعالىٰ يرزقني من حيث لا أحتسب إلىٰ وقتي هـٰذا

وعرضوا عليَّ الألفَ دينارٍ وأكثر ، فرددتها ولم أقبلها ، وكان المباشرون والتجار يأتوني بالذهب والفضة فأرميها في صحن جامع الغمريِّ ، فيلتقطها الناس ، وتركت أكل لذيذ الطعام والشراب ، وقنعت بالخشن من المأكل والملبس .

ثم تركت لبس الثياب والطعام جملةً ، وكنت ألبس الشراميط من

الكيمان[1] ، وآكل التراب مدةً ؛ لعدم الحلال الصافي على حسب مقامي إذ ذاك ، وكنت لا آكل طعامَ أميرٍ ، ولا مُباشِر[2] ، ولا تاجر ، ولا فقيه لا يسدُّ في وظائفه ، ولا غيرِهم من جميع المتهوِّرين في مكاسبهم

وضاقت عليَّ الأرضُ كلُّها ، فأقمت في المساجد المهجورة والخرائب مدةَ سنة ، وكنت أطوي الثلاثةَ أيامٍ وأكثر ، فإذا أفطرت تناولت نحو أوقية من غير زيادة[3] ، حتى كنت أصعد بالهمة إلى الصاري المنصوب على سقف جامع الغَمْري من غير سُلَّم والناس نائمون[4] ، ثم إذا نزلت من السُّلَّم أنزل بجهد وتعب ؛ لغلبةِ روحانيتي على جثمانيتي ، وطلبِها محلَّ استقرارها من السماوات ، وهذا هو سبب تحريكِ الإنسان رأسَهُ إذا قرأ القرآن ، فكأنَّ الروح تشتاق إلى لقاء ربِّها إذا سمعت كلامَهُ ، فتكادُ تلحق بعالمها السماويِّ ، فافهم

وكان لي صاحبٌ من عباد الله تعالى الصالحين يقلي السِّمْسِم في معصرة الشِّيرج ، فكان يأتيني بالقطعة الكُسْب ، فأحمِّصها وآكل منها كلَّ ثلاثة أيام نحوَ أوقية[5]

---

(١) الشراميط : خرق الثياب ، والكيمان : جمع كوم ؛ وهي التلال المشرفة

(٢) المباشر : السفير والرسول ، ومباشر العسكر : أمين حسابات العسكر الذي يأمر بصرف مرتباتهم . « تكملة المعاجم العربية » (١/ ٣٥١)، وفي « مجلة المنار » (١٥/ ١٣٨): (المباشرون: محافظون للمحاكم السيارة التي تتجول في القرى لفصل الدعاوى الشرعية).

(٣) في « المنن الكبرى » (١/ ١٨١) : (أوقية من الخبز) ، وفي (هـ ، و ، ز) : (أوقية من ماء)

(٤) الصاري : السارية

(٥) الكُسْب : ثُفل السمسم الذي سحب منه الزيت

وتنكَّرتْ قلوبُ أصحابي مني حتىٰ كأنهم قطُّ لم يعرفوني من ضيق وقتي عن مباسطتهم بالكلام

وكنت كثيراً ما أخرج إلى الموارد التي يغسل الناس فيها الجزر والخسَّ والبقل ، فآكل مما أجده من الأوراق ، وأشرب عليه من النهر ، وأكتفي به ذلك اليوم ، وكنت لا آكل قطُّ لفقير لا كسب له من المتعبدين ، وأقول هـٰذا رجل يأكل بدِينه

وكذلك كنت لا آكل طعام تاجر يبيع على القضاة والمكّاسين ؛ خوفاً من دخول الرشوة والغشِّ على القاضي والتاجر ، ثم تركت طعامَ كلِّ مَنْ يُمسك الميزان

وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العِشاء لا أختمه حتىٰ يقالَ لي : الفجر طلع ، ثم أذكر من بعد الصبح إلىٰ ضحوة النهار ، ومن الظهر إلى العصر ، ومن العصر إلى المغرب ، وهـٰكذا ، فمكثت علىٰ ذلك سنين عديدة .

وكنتُ أصلي بين المغرب والعشاء بربع القرآن ، ثم أصلي بباقيه ، فأختمه قبل الفجر ، وربما ختمته كلَّهُ في ركعة ، وكنت كثيراً ما أضرب أفخاذي بالسوط إذا غلب عليَّ النومُ ، وربما كنت أنزل بثيابي في الماء البارد في الشتاء حتىٰ لا يأخذَني النوم ، وهـٰذا من قاعدة : ما إذا تعارض عندنا مفسدتان ارتكبنا الأخفَّ منهما

ولا شكَّ أنَّ وقوف المحبِّ لله تعالىٰ بين يدي محبوبه في الظلام مع تألُّم جسمه بالضرب . . أحسنُ عنده من نومه عنه حال التجلي مع صحة الجسم ، ولكلٍّ مقام رجال ، ومَنْ طلب النفيس خاطر بالنفيس

فعُلِمَ : أنَّ المحبَّ لله تعالىٰ في وادٍ والمنكرَ عليه في وادٍ ، ومن طالع أحوال القوم في مجاهداتهم سهل عليه العسير ، وقد قال سيدي عبد القادر الجِيليُّ (مكثت في بدايتي سنة كاملة لا آكل ، ولا أشرب ، ولا أنام)[١]

قال : (ودعوتُ نفسي مرةً إلى العبادة فأبتْ ؛ فمنعتُها شرب الماء سنة) انتهىٰ

قلت : وكانت عمامتي أيام مجاهدتي مجتمعةً من حبال وجلود وشراميطَ ؛ لقلة الحلال ، وبالغت في التدقيق في الورع بحماية الله ، لا بحولي ولا بقوتي ، حتىٰ كنت لا أمشي في ظلِّ عمارة أحد من الظَّلَمة وأعوانهم .

ولمَّا عمل السلطان قانْصُوه الغُوريُّ الساباطَ الذي بين مدرسته وقبته الزرقاء[٢] . . تركت المرور من تحته إذا قصدت زيارة القرافة أو غيرها ، فكنت أدخل من سوق الوراقين وأخرج من سوق الشرب .

وأنا بحمد الله تعالىٰ علىٰ مقام الورع ؛ لأنَّ نور المعرفة لا يطفئ نور الورع ، كلُّ ذلك حمايةٌ من الله عز وجل بعدم قسمته لي ، لا أنَّهُ قسَمَهُ لي فمنعت نفسي منه ؛ فإنَّ ذلك لا يصحُّ ، فجميع ما ردَّهُ المتورِّعُ من الأمور ليس هو له بالأصالة ، وإنما هو وهم[٣] ، وقد أُمر العبد من طريق تكليفه أن

---

(١) انظر « مرآة الزمان » (٢١/ ٩٧) .

(٢) الساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق نافذ « تاج العروس » (س ب ط) .

(٣) والعبارة في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٨٤) : (فظنُّهُ أنه ردَّ نفسه عنه مع القسمة . . وهمٌ منه)

يدافع الأقدار جهدَهُ ، ويثابُ علىٰ ذلك ، فافهم

وإذا اعتنى الله تعالىٰ بعبده المحبوب استخلص له الحلال من بين فرْثِ الحرام ودمِ الشبهات كما يُستخرج اللبنُ ، والله علىٰ كلِّ شيء قدير

ذكرُ ما منَّ اللهُ به عليَّ بعد ذلك
من اجتماعي بأهل الطريق وانقيادي لهم

فأولُ ما جمعني الله تعالىٰ علىٰ سيدي عليٍّ المَرْصَفيِّ شيخِ الطريق بالديار المصرية ، فلقَّنني الذكر وأخلاني

ثم جمعني الله تعالىٰ على الشيخ محمد الشِّنَّاويِّ ، فلقَّنني الذكر ، وأشغلني بالله ، ولم تكن طريقه الخلوة

ثم جمعني الله تعالىٰ علىٰ عارف الزمان الشيخ الكامل الراسخ الأُمِّيِّ المُحمَّديِّ ؛ سيدي عليٍّ الخوَّاصِ ، فأطلعني علىٰ حقائقَ ودقائقَ وأسرارٍ ، ولم أفارقه عشر سنين حتىٰ مات ، فكان منه الذي كان ، وعلمت وتحقَّقتُ أنَّ الإنسان ولو بلغ في العلم الغايةَ فلا بد له من شيخ في طريق العمل به ، كما وقع للإمام الغزاليِّ ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، واليافعيِّ ، وغيرهم .

[مطلبٌ
في فوائد الشيخ]

فإنَّ فوائد الشيخ أن يختصر الطريق للمريد ؛ وذلك أنه يوصل المريد إلىٰ أن يصير يجعل أعماله كلَّها مقاصدَ ؛ امتثالاً لأمر الله ، بخلاف المريد

وحدَهُ يتخذ أعماله كلَّها وسائلَ ، ثم يطلب الثمرة فلا يجد ، فينحلُّ عزمه إلىٰ آخر أمره ، فالحمد لله ربِّ العالمين

ذكر ما أنعم الله تعالىٰ به عليَّ ؛ من إجازةِ العلماء لمؤلَّفاتي ومدحِها خلاف ما أشاعه بعضُ الحسدة في مصرَ والحجاز وغيرهما من عدم كتابتهم علىٰ كتبي ، أو رجوعِهم عن كتابتهم عليها وبيانِ براءتي مما دسُّوه في « العهود » ، وفي مقدمة كتاب « كشف الغمة »

ولنذكر لك جملةً من عباراتهم علىٰ كتاب « كشف الغمة » ، وعلىٰ كتاب « البحر المورود » ، وعلىٰ كتاب « الجواهر والدرر » ، وعلىٰ كتاب « الجوهر المصون » ؛ فإنَّ جميع ما كتبوه علىٰ كتبي لا يناسب هـٰذا المختصر ؛ لطول عباراتهم ، فأقول وبالله التوفيق :

[بعضُ ما كتبه العلماء في الثناء علىٰ كتاب « كشف الغمة »]

من جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين الرمليُّ الشافعيُّ بعد الخُطبة :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف الغريب ، والمجموع العجيب ؛ فرأيته كتاباً لا يُنكَر فضلُهُ ، ولا يختلف اثنان في أنه ما صُنِّفَ مثلُهُ .

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطَّرابُلُسيُّ الحنفيُّ رحمه الله

وبعد : فقد وقف العبدُ الضعيف علىٰ هـٰذا المجموع اللطيف ، المفرد المنيف ، وتأمَّلَه فإذا هو محتوٍ علىٰ نُخَبِ حقائق العارفين ، وزبدة كنوز الواصلين ، فلقد تَوَّجَ بتاج لطائف التحقيق ، مفارقَ رؤوس أهل الطريق ،

وأوضح لهم منهاج الطريق ، ولقد أبدع مؤلِّفُه وأغرب ، وأتىٰ بما هو من العُجاب أعجب . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين بن الشلبيِّ الحنفيُّ رحمه الله :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف السعيد ، والدُّرِّ النَّضيد ، والعِقد الفريد ، فللّٰه دَرُّهُ من مؤلَّف جلَّ مقدارُهُ ، وطفحت بالسنة أسرارُهُ ، وهمعت من سحب الفضل أمطارُهُ ، ولاحت في سماء الشريعة شموسُهُ وأقمارُهُ ! فجزى الله مؤلِّفَهُ خير الجزاء في الدارين ، وجعلني وإياه من خير ألفريقين . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتبه سيدنا الشيخ ناصر الدين الطَّبَلاويُّ الشافعيُّ :

وبعد : فقد استجليتُ هـٰذا المنهج المبين ، المحكم الرصين ، فوجدته قد حوى المقاصد الدينية ، والأصول العلمية ؛ فمن العقائد اليقينية صحيحَها ، ومن آداب القوم مليحَها ، ومن علومهم شريفَها ، ومن بقية العلوم حَسَنَها ودقيقَها ، ومن السنة طريقَها ، ومن الفروع الفقهية والإشارات الربانية لطيفَها ، فتنزَّهْتُ في أفنان فنونه ، وترَوَّيْتُ من عذب جداوله وعيونه ، واستعذبتُ من منابع حقائقه[1] ، واغتذيتُ بجلائل دقائقه ، وكيف لا ومؤلِّفُهُ قد خصَّهُ اللهُ تعالىٰ بعوارفِ فضائلَ ما فوقها مزيد ؟! فلقد أحيا مشاهدَ العلم ، ورفع معالم قواعده ، وأوضح منها الطريق لأهل التحقيق ، فجزاه الله تعالىٰ أفضل الجزاء ، ونَشَرَ علومَهُ علىٰ أهل الدراية والصفاء

ولا غروَ أن يصدر عن بحره هـٰذه الجواهرُ ، وعن مدده هـٰذه النجومُ

(١) في غير (أ) : (منافع) بدل (منابع) .

الزواهرُ ؛ فإنَّهُ علَّامة الزمان ، صاحب المناقب والمفاخر. . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللَّقَانيُّ المالكيُّ رحمه الله :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المصنف الشريف ، البديعِ التأليفِ ، المشتملِ علىٰ أسلوب عجيب ، ونظام غريب ، لم يُنسَج علىٰ مِنواله ، ولم تسمح قريحةٌ بمثاله ، قد اشتمل علىٰ فِقَرٍ بديعة سبكتها يدُ الأنظار ، ودُرَرٍ يتيمة استخرجها غوَّاصُ الأفكار ، وعلىٰ لطائفِ أسرار ربانية ، وبدائعِ حِكَم إلـٰهية ، أوصلها الكريم الجواد من عنده ، وأفاضها الوهَّاب علىٰ عبده ، جعله الله تعالىٰ عَلَماً للمهتدين ، وقدوةً للسالكين ، وبحراً يغترف من علومه ظِماءُ المسترشدين ، وبدراً يستضيء بأنواره طلابُ اليقين. . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الفتوحيُّ الحنبليُّ رحمه الله :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف الفريد ، الجامع بين الطارف والتليد[1] ، الجامع لفنون من العلوم متفرقةٍ ، المشتمل علىٰ مسائلَ لم توجد في غيره محقَّقةٍ ، فانشرح صدري به غايةَ الانشراح ؛ لما أودع فيه من المعاني الرشيقة والأقوال الصحاح ، وأعدت نظري فيه المرة بعد المرة ؛ فإذا تحت كلِّ ذَرَّةٍ منه دُرَّةٌ ، فيا له من مؤلَّف عزيز المثال ، لم ينسج له قبل ـ أظنُّ ـ ولا بعد علىٰ منوال ، نحا فيه مؤلِّفُهُ نحوَ الصواب ، وأتىٰ فيه بالمقصود وأصاب ! . . . إلىٰ آخر ما قال .

---

(١) **الطارف** : الحادث ، **والتليد** : القديم .

ومن جملة ما كتبه الشيخ عبد القادر الشاذليُّ المالكيُّ

وبعد فقد اطَّلعتُ علىٰ هـٰذا الكتاب المسمَّىٰ « **كشفَ الغمة** » ، فوجدته كتاباً كريماً ، وصراطاً مستقيماً ، ونوراً ساطعاً عظيماً ، ورأيت فيه من غرائب الحديث وعجائبه ، ما كان مُدَّخراً في كنوزه ومطالبه ، مما لا تسعه مجلدات كثيرة ، مع اختصاره في حجم لطيف وأوراق يسيرة ، فللّٰه دَرُّهُ من كتابٍ حوىٰ جميع السُّنَّة ، وعَظُمت به المِنَّة ، وكشف اللهُ به الغُمَّة ، وهدىٰ به الأُمَّة !. . . إلىٰ أن قال **وبالجملة** فهو فوق ما وصفه الواصفون ، وأعلىٰ مما قاله الراسخون

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين عَمِيرةُ الشافعيُّ

وبعد : فقد وقفت علىٰ هـٰذا المؤلَّف العظيم الشان ، البديع في المعاني والبيان ، فوجدته مشتملاً علىٰ حقائقَ هي خلاصةُ أنظار المتقدمين ، ودقائقَ هي نتيجةُ أفكار الناظرين ، وأطال في ذلك

[بعض ما كتبه العلماء في الثناء علىٰ كتاب « المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين »]

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين الرمليُّ الشافعيُّ علىٰ كتاب « المنهج المبين في بيان أدلة مذاهب المجتهدين » :

وبعد فقد اطلع كاتبه علىٰ هـٰذا المؤلَّف الشريف ، والمجموع اللطيف ، الجامع لأدلة المجتهدين ، والقامع للطغاة والمبتدعين ، فجزى الله تعالىٰ مؤلِّفَهُ خيراً. . . إلىٰ آخر ما قال ، وذلك في مرض موته ، رضي الله عنه

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين الطَّبَلاويُّ الشافعيُّ

وبعد فقد تشرَّفتُ باطِّلاعي على هـٰذا الكتاب العجيب ، والأسلوبِ الغريب ، المسمَّىٰ بـ « المنهج المبين » ؛ فإذا هو كتاب طابَقَ اسمُهُ مُسمَّاه ، قد حوىٰ من السنَّة ثمراتِ مقاصدِ العارفين ، وانطوىٰ منها علىٰ قواعدَ وفوائدَ ترشد الحائرين ، وتُوصِلُ المنقطعين ، وتُسيِّرُ الواقفين ، قد أتقن فنون السنة واستقصاها ، ولم يغادر منها صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، فالله تعالىٰ يديم حديثَ مؤلِّفه في العالمين ، وينشر فضائله في الخافقين. . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين البُهوتيُّ الحنبليُّ

وبعد فقد اطلعت علىٰ هـٰذا الكتاب العظيم ، والمؤلَّف الجسيم ، المنتقىٰ من أصول كتب الحديث المعتمد عليها ، والمعوَّلِ في أحكام الدين عليها ، ولقد كان بالأمة أجمعَ ، شدةُ الحاجة إلىٰ ما وعاه هـٰذا المهذَّب وجمع ، وأنت خبير بأنَّ الله تعالى امتنَّ علىٰ عبده مؤلِّفِهِ بأنْ جمعَ له بين الحال والقال ، وأطال في ذلك

ومن جملة ما كتبه الشيخ شمس الدين البرهمتوشيُّ الحنفيُّ

وبعد فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف المنيف ، والكتاب الشريف ، الجامع من السنة النبوية ، والعقيدة السنية المرضية ، ما تقرُّ به عيونُ المؤمنين ، ويذهب به ظنونُ الأغبياء الملحدين ، فجزى الله مؤلِّفَهُ خيراً. . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللَّقَانيُّ المالكيُّ

وبعد فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف العظيم الشأن فإذا هو فلك مشحون بدررِ فرائد الفوائد ، أو فلك مُرصَّع بكلِّ كوكب دريٍّ تَوَقَّد بالنكت العوائد ، وكيف لا يكون ذلك ومؤلِّفُهُ المُحقِّق الفهَّامة شيخُ الحقيقة ، أستاذ الطريقة ، الجامع بين المنقول والمعقول ، المرجع والتعويل إليه وعليه فيما يفتي به ويقول ؛ سيدنا وقدوتنا الشيخُ أبو محمد عبد الوهاب الشعرانيُّ الشافعي[1] ، المرشد المسلِّك المربي ؟! أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وحشرنا في زمرته ، آمين . . . إلىٰ آخر ما قال

[بعض ما كتبه العلماء في الثناء علىٰ كتاب « العهود المحمدية »]

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الفتوحيُّ الحنبليُّ رحمه الله علىٰ كتاب « العهود » :

وبعد : فقد اطلعتُ علىٰ هـٰذا البحر العجَّاج ، المتلاطم بالأمواج ، فسبحت فيه وابتهجت بنفائس درره غايةَ الابتهاج ، وغصته فظفرت بجواهر فوائده التي أنا لها محتاج ، ووردته ورودَ ظمآنَ أتىٰ إليه من بُعدِ فِجَاج ، وتأملته المرة بعد المرة ؛ فإذا تحت كلِّ ذَرَّةٍ منه دُرَّةٌ ، قد اشتمل من الفوائد علىٰ أدناها وأقصاها ، فلا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ؛ إذ هو مؤلَّفٌ

(١) في هامش (ج) : (قال المؤلف رضي الله عنه في حاشية أصله ما صورته : إنما صرح باسمي ؛ تكذيباً لمن نقل عنه خلاف ذلك في الحسدة) ، وانظر « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٧٠)

فريد في فنِّه وصنفه[1] ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يقدح في معانيه إلا جاهلٌ معاند ، أو مائل عن طريق الحقِّ لأجل غرضه الفاسد ، وأطال في ذلك .

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللَّقَانيُّ المالكيُّ رحمه الله :

وبعد : فقد اطلعت علىٰ هـٰذا المؤلَّف المشتمل علىٰ حقائقَ ورقائقَ ، ونكت لطيفة ودقائقَ ، حقيقةٌ أن تكتب بماء الذهب بل بسواد العيون ، وأن يُشتَرىٰ بنفائس الأرواح لا بنقد العيون ؛ لما فيه من الحِكَمِ وآداب السلوك ، وخلاصةِ الإخلاص المُذهِبة للأوهام والشكوك ، وكفىٰ هـٰذا المُصنَّفَ شرفاً : أنَّ لسان حاله وبيانه ، ناطقٌ بفضله وعُلوِّ شانه ، بحيث إنَّ الناظر في تلك العهود ، يمزق مألوفَ نفسه المعهودَ ، وما هي إلا منح ربانية ، ومواهبُ قدسية ، خَصَّ بها الكريمُ الوهَّاب ، عبدَهُ الأوَّاب ، حشرنا اللهُ في زمرته ، ونفعني في الدارين ببركته ، وأفاض علينا من مدده ، وعَمَرَ قلوبَنا بودِّه . . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه لمَّا أشاع الحسدةُ أنَّ الشيخ ناصر الدين رجع عن كتابته علىٰ هـٰذا الكتاب ؛ ليُنفِّرُوا الناسَ عن كتابة الكتاب :

وبعد : فما نُسِبَ إلى العبد من الرجوع عما كتبه علىٰ كتب الشيخ عبد الوهاب الكريمة . . باطلٌ باطل باطل ، فوالله ؛ ما رجعنا عن ذلك ولا عزمتُ عليه ولا اعتقدت في كلامه شيئاً من الباطل ، وأنا معتقدٌ صحةَ مقاله ، باقٍ علىٰ ذلك وأدين الله تعالىٰ بالاعتقاد في صحة كلامه وولايته ،

---

(١) في (ب) وحدها : (وصنعه) .

والقصدُ من فضله ألا يُصَدِّق في أمري شيئاً مما قد يُنسَب إليَّ علىٰ ألسنة الذين لا يخشون الله تعالى . انتهىٰ بالمعنىٰ في بعضه

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين بن الشلبيِّ الحنفيُّ رحمه الله

وبعد : فقد وقفت علىٰ هـٰذا المؤلَّف الذي هو تحفة المريد ، وروضة الأحباب ؛ فإذا البحر يَعُبُّ عُبابَهُ ، والمشرع الذي يحلو لأهل الطريق شرابه ، فوردت ماء فضله الصافي ، وتردَّيتُ برداء محاسنه الصافي ، فالله تعالىٰ يُبقي مؤلِّفَهُ إماماً يصطفُّ خلفَهُ المريدون فيَؤمُّهُم بنوافل فضائله وبرِّهِ ، ولا بَرَحَ جِيدُ الزمان خالياً بوجوده ، والناسُ ناطقون بحمده وشكره . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين الرمليُّ الشافعيُّ

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف العجيب ، والمفرد الغريب ، المشتمل علىٰ ألفاظ رائقة ، ومعانٍ متناسقة ، فلقد بذلَ مؤلِّفُه في نصح سالك طريق القوم الغايةَ ، في إرشاده إلىٰ إماتةِ نفسه وترقِّيهِ النهايةَ ، فالله تعالىٰ يكثر النفع بوجود مؤلفه . . . إلىٰ آخر ما قال .

ولما أشاع الحسدةُ أنه رجع عن كتابته علىٰ هـٰذا الكتاب . . كتب عقبها :

وبعد : فما نُسِبَ إليَّ من رجوعي عن كتابتي علىٰ هـٰذا المؤلَّف وغيرِهِ من مؤلفات فلان . . غيرُ صحيح .

[بعض ما كتبه العلماء في الثناء علىٰ كتاب « الجوهر المصون »]

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللقَانيُّ علىٰ كتاب « الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون » :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المصنَّف العجيب ، والأسلوب الغريب ، الذي لم يُنسَج علىٰ مِنواله ، ولم تسمح قريحةٌ بمثاله ، ومتَّعتُ فيه بصري وبصيرتي بالتأمل في ألفاظه ومعانيه ، وتدرَّجت في مدارج كماله ومراقيه ، فوجدته كنزاً مملوءاً بالمعارف الربانية ، والعوارف اللدنية ، وبحراً يضيق نطاق النطق عن وصفه ، ويَكِلُّ لسان الفكر عن إدراك كنهه وكشفه ، ولا غروَ في ذلك فإنَّ المستفيض عبدٌ مُنيبٌ أوَّاب ، والمُفِيضَ جوادٌ كريمٌ وهَّاب ، أمدَّنا الله بمدد مؤلِّفه ، وجعلنا من حِزبه وجنده ، آمين .

ومن جملة ما كتبه عليه شيخ الإسلام الفتوحيُّ الحنبليُّ رحمه الله :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف العظيم الشان ، المشتمل علىٰ فوائدَ حِسان ، وروضةٍ ذات أفنان ، من علوم القرآن ، ومعانٍ مقصورات في الخيام لم يطمثهنَّ من قبلُ إنسٌ ولا جان ، فسبحان مَنْ سهَّلَ علىٰ مؤلِّفه طرق العلم والعرفان ، حتىٰ أتىٰ منها بما لم يكن منها في جَنان ! . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين بن الشلبيِّ الحنفيُّ عليه

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا المؤلَّف السعيد ، والجوهر المصون الفريد ، المستنبَطِ من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ؛ فإذا هو مؤلَّفٌ لم يُوضَع شكلُهُ ، ولا جُمِع كتاب في العلوم مثلُهُ . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين الطَّبَلاويُّ الشافعيُّ :

وبعد : فقد اطلعتُ علىٰ هـٰذا الكتاب العجيب ، والأسلوب الغريب ،

والنشر الفائق ، والرونق الرائق ، والنَّيل المكسوب ، والنِّيل المسكوب ، فوجدته مقياس زيادة العلوم ، بأصابع الفهوم ، قد أتقن مؤلِّفُه فنونَ العلومَ واستقصاها ، ولم يغادر منها صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، وأطال في ذلك .

ومن جملة ما كتبه الشيخ نجم الدين الغَيْطيُّ الشافعيُّ :

وبعد فقد تشرَّفتُ بالنظر في هـٰذه العلوم والمعارف ، وترنَّحت بالوقوف علىٰ ساحل بحر هـٰذه الأسرار واللطائف ، وتحقَّقت أنَّ ذلك لا يُنال بالجدِّ والاكتساب ، وإنما هو فيض من الملك الوهَّاب ، علىٰ عبده الأواب المخصوص لمَّا تفرغ مما سواه وأناخ بتلك الرحاب ، ومسح لوحَ وجوده مما نُقِش فيه ، وتفرَّغ لما يلقىٰ عليه من حضرة مصطفيه ، فمُلِئ من العلوم والأنوار ، وصار بحراً للمعارف والأسرار ، يظهر منه الجوهر المصون ، في علوم كتاب الله المكنون ، الغالي القِيَم[1] ، الذي مَنْ ظفر بخاصِّيته فاز بأوفر القِسَم ، فلا زال مبرزاً عند العلوم واللطائف[2] ينبوعاً للمَدَد ، في سائر اللحظات والمُدَد ، مفيضاً لأسراره ، علىٰ محبيه وأنصاره ، مَعُوذاً بالواحد ، من شرِّ كلِّ معاند وحاسد . . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ عبد القادر الشاذليُّ المالكيُّ

وبعد فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا الكتاب العظيم الشان ، الساطع البرهان ، المشتمل علىٰ علوم كتاب الله المكنون ، فوجدته بحراً عجَّاجاً لا ساحل له

---

(١) في (ب ، هـ ، و ، ز) : (العالي) بدل (الغالي)
(٢) في (ب ، ج) : (تبرز عنه) بدل (مبرزاً عند)

ولا قرار ، وتَكِلُّ عن إدراك مداه البصائر والأبصار ، وكنزاً مُطَلسَماً مشحوناً بالعلوم اللدنية ، والمعارف الربانية ، واللطائف والأسرار ، والجواهر والدرر ، والمعادن والغرر ، والعرائس الأبكار ، فاندهش عقلي فيه وحار[1] ، ورأيته كلاماً غريباً ، وأسلوباً عجيباً ، غير معروف ولا مألوف ليتصوَّر من الأبشار[2] ، فقلت : والله ؛ لا يعرف ما فيه ، إلا الذي خرج من فِيه ؛ وذلك لأنه يكاد أن يكون معجزاً لأنه لا يوجد منه كلمة في تفسيرٍ قديم ولا حديث لأحد من العلماء الأحبار[3] ، فعلمتُ أنه لا يُوصَل إليه بفكر ولا نظر في كتب وإنما هو من حضرة الله الملك الغفَّار ، أجراه علىٰ لسان عبده الأوَّاب ، العارف بالله عبد الوهَّاب ، المخصوص بهٰذه المنح العظيمة ، والهبات الجسيمة[4] ، من بين الأولياء والأبرار ، فسبحان مَنْ منحه وأعطاه ، وأطلق لسانه بما لا تُدركه العقول والأفكار ! . . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ شمس الدين البرهمتوشيُّ الحنفيُّ

وبعد فقد وقفتُ علىٰ مواضع من هٰذا الكتاب الشريف ؛ فإذا هو خلاصة الألباب ، ومنتهىٰ مدارك أهل الخطاب ، كيف لا وهو تأليف سيدنا ومولانا العلامة خاتمة أهل الشريعة والحقيقة في عصره الشيخ

---

(١) في (ج) و« المنن الكبرىٰ » (١/ ١٧٤) : (فانذهل) بدل (فاندهش) .

(٢) قوله (ليتصور من الأبشار) زيادة من (ج) وحدها ، وفي « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٧٤) : (غير مألوف لأحد من الأبشار) ، **والأبشار** : جمع بَشَر .

(٣) في (ب) وحدها : (الأخيار) بدل (الأحبار) .

(٤) في غير (ج) : (الهيئات) بدل (الهبات)

عبد الوهَّاب ؟! أدام الله عِزَّهُ وعُلاه ، وبعين عنايته حرَسَه وتولَّاه ، ومتَّعَ بطول حياته الأنام ، وكبت أعداءه الحسدةَ اللئام ، مَنْ جعله الله وارثاً للأقدام المحمدية ، وهادياً بسلوكه إلى السنة النبوية . . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين الوفائيُّ :

وبعد فإنَّ ممن قام علىٰ ساق الجِدِّ والاجتهاد ، وسلك بحقٍّ سبيلَ الرشاد ، وانتظم في سلك العارفين ، وارتطم في بحار علوم المعارف مع العلماء الراسخين . . الأخَ في الله والمحبَّ فيه ، أبا المواهب السنية ، والأخلاق الرضيَّة ، والأحوال المرضية ؛ الشيخ زين الدين عبد الوهاب الشعرانيَّ ، الذي سطعت لوامعُ عوارفه[1] ، من سنا برق مطالع معارفه[2] ، حتىٰ أضاءت على الأكوان بمشارقها ، واختطفت قلوبَ المحبين ببوارقها ، ومن أجلِّ مؤلَّفاته كتاب « **الجوهر المصون ، في علوم كتاب الله المكنون** » ، وقد وقفتُ عليه بفِكْرٍ كليل ، وذهنٍ قليل ، فوجدتُ مُستنبِطَه قد كشفَ قناع المعارف مُجِيداً وسترها ؛ غيرةً عليها من غير أهلها ، بلُغُوز وإشارات لا يعرفها إلا من سلك ووصل إلىٰ مرتبته ، وأطال في ذلك .

[بعض ما كتبه العلماء في الثناء علىٰ كتاب « الجواهر والدرر »]

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الفتوحيُّ الحنبليُّ علىٰ كتابي المسمَّىٰ بـ « الجواهر والدرر » :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا الكتاب المسمَّىٰ بـ « **الجواهر والدرر** » ،

---

(١) في (ب) وحدها : (معارفه) بدل (عوارفه) .
(٢) في (ب) : (لوامع) بدل (مطالع) ، وفي (ج ، و ، ز) : (طوالع) .

المتضمِّن أحوالاً عظيمة لمن كان الناس عنه غافلين بالخُبْر والخَبَر ، وتأمَّلت ألفاظَهُ تأملاً يشفي السقيم ، ويهدي مَنْ ضَلَّ إلى الصراط المستقيم ، ولمَّا أمعنت فيه التأمُّلَ والنظر . . وجدتُ تلك الجواهرَ نفائسَ لم يحوها إنسٌ ولا بشر ، وتلك الدرر من شدة عِظَمِها وصفائها كأنها ترمي بشرر ، ولاح لي أنَّ كواكب هـٰذه البشائر والسرور ، تُوقدُ ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ . . . يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ . . .﴾ إلىٰ قوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور : ٣٥] ، فهو مؤلَّفٌ عديمُ النظير ، لم يَسبِق لوضع مثله صغيرٌ ولا كبير ؛ لأنه قد اشتمل علىٰ أعلىٰ رتب المعالي ؛ لما حشي فيه من الجواهر واللآلي . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتب عليه الشيخ شهاب الدين بن الشلبيِّ الحنفيُّ رحمه الله

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا الكتاب الذي بهرت أنواره وأشرقت ، ونمت عروس ألفاظه الزاكية لأنها في منابت العِرفان أعرقت[1] ، وتصفحته ففاح مسكه ، وقرأته فلقطته فكأنما انقطع سلكه ، وغصتُ على الجواهر في بحره الذي سُطورُه فُلْكُه ؛ فتارةً آخذ منه دُرَّة ، وتارةً أقتطف زهرة ، فللّٰه دَرُّهُ من مؤلِّفٍ ، كلما طالعت فيه استفدت ، وكلما غازلت عيون معانيه استزدت ! ولله من أنفاس تسرُّ النفوس ! ويا عجباً ! كم بهـٰذه الطروس من عروس ؟! وكيف لا ومؤلفه تاجٌ ومحلُّهُ الرؤوس ؟! . . . إلىٰ آخر ما قال

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللقَانيُّ رحمه الله

وبعد فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا الكتاب الشريف الذي فاق سائر الكتب في

---

(١) في غير (أ) : (أغرقت) بدل (أعرقت) .

لطافة نظمها ودقة معناها ، وكيف لا وهو الجوهر الفرد الذي هو غايتها ومنتهاها ؟! ولا عجب في ذلك فإنها مواهبُ وهَّاب لا تُحصىٰ عوارفه ، ولا تُستقصىٰ معارفه ، جعلنا الله تعالىٰ ممن ذاق مذاقها ، وتحلَّىٰ بحلاها ، وورد مواردَها الشافية واهتدىٰ بهداها ، وحشرنا مع مؤلِّفها ، وسلك بنا طريقته التي ما ضلَّ من اقتفاها . . . إلىٰ آخر ما قال .

ومن جملة ما كتبه الشيخ عبد القادر الشاذليُّ :

وبعد : فقد وقفتُ علىٰ هـٰذا الكتاب المسمَّىٰ بـ « **الجواهر والدرر** » ، فوجدته بحراً قد زخر ، فحار في إدراكه البصر ، وتَكِلُّ عن معرفته العقولُ والفِكَر ؛ إذْ هو مشحونٌ بالنفائس التي لا توجد عند أحد من البشر . . . إلىٰ آخر ما قال .

فهـٰذه نبذة مما كتبه العلماءُ علىٰ مؤلَّفاتي تُكذِّبُ ما أشاعه الحسَدَةُ من ضدِّ ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

ذكر ما أنعم الله به عليَّ
من انشراحِ صدري لاتِّباع السنة المحمدية ؛ قولاً وفعلاً واعتقاداً
وانقباضِ خاطري من البدعة التي لم يستحسنها العلماء

فلا أُقدِمُ بحمد الله تعالىٰ علىٰ فعل شيءٍ إلا إن ظهر لي موافقةُ ذلك للكتاب والسنة ، أو القياس ، أو العُرفِ الذي أُمِرَ صلى الله عليه وسلم أن يأمر به أمته

[مطلبٌ

في استدلال الإمام السيوطي علىٰ كِبَر عِمامة العلماء بالعرف]

وقد استدلَّ الشيخ جلال الدين السيوطيُّ رحمه الله علىٰ أنَّ كبر عمامة العالم زيادةً علىٰ ما نُقِل من طول عمامة النبي صلى الله عليه وسلم.. من عُرف العلماء ، فلا يخرجهم عن السنة ؛ لأن العُرف قد صار من جملة الشريعة بأمر الأمة باتباعه(١)

فإن لم أجد ذلك الشيء الذي أريد فعلَهُ موافقاً للشريعة ولا للعرف.. توقفتُ عن العمل به ، وربما أشاور النبيَّ صلى الله عليه وسلم فيه ؛ فتارةً يأذنُ لي في فِعْلِه بلفظٍ أسمعه منه أو مِنْ مَلَكٍ علىٰ صورته ، وتارةً يلقي اللهُ تعالىٰ في قلبي العِلمَ برضاه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وهو أكثر أحوالي ، وهو مقام عزيز وقوعُهُ في هـٰذا الزمان ، وهو من أكبر نِعَمِ الله عز وجل عليَّ .

فكذب واللهِ وافترىٰ عليَّ مَنْ أشاعَ من الحسدة أنني أشطح في أفعالي وأقوالي وعقائدي عن ظاهر الكتاب والسنة ؛ فإنَّ مَنْ تقيَّدَ في أفعاله وأقواله كما ذكرنا بالسنة المحمدية.. فهو من صدور أهل السنة والجماعة في عصره ، فكيف يُسمَّىٰ مبتدعاً ؟! والله ؛ ما ذلك إلا مِنْ عمىً في البصيرة لشدَّةِ الحسد ، فالحمد لله الذي عافانا من ذلك .

---

(١) استدلال الإمام السيوطي رحمه الله بقوله تعالىٰ : ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف : ١٩٩] كما في « المنن الكبرىٰ » (١/ ١٧٨) .

ذكرُ ما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ من الأخلاق

عقبَ مجاهدتي لنفسي علىٰ يد أشياخي من عدَّةٍ من الأخلاق المحمدية

ولا تظنَّ هٰذا المختصر حصرَها ، ولٰكن نذكر منها طرفاً ؛ فإنَّ التصوُّف حقيقةً إنما هو خُلُق ، فمن زاد في التخلُّقِ زاد في التصوُّف ، وغالب الناس يعتقدون أنَّ التصوُّف كلام ، فربما طالع « رسالة القشيري » ، أو كتاب « الإحياء » ، ويجلس يُدرِّسُ ذلك كالعلم الشرعيِّ ، ويظنُّ أنه قد صار صوفيّاً ، وذلك خطأٌ وذهولٌ عن الطريق .

إذا علمتَ ذلك فأقول وبالله التوفيق :

[رؤيةُ نفسِهِ دون كلِّ جليس من المسلمين شهوداً وذوقاً]

مما منَّ اللهُ به عليَّ لمن أراد أن يعرف التصوُّف فلينظر ما في هٰذا الباب من الأخلاق وهو عمدةُ الكتاب : قد منَّ الله تعالىٰ عليَّ برؤية نفسي دون كلِّ جليس من المسلمين شهوداً وذوقاً ، لا تواضعاً ؛ فإنَّ المتواضع لا بد أن يُثبِتَ لنفسه مقاماً عالياً، ثم يتواضعَ ويتنازلَ منه إلىٰ غيره ، بخلاف تواضع أهل الله عز وجل ؛ فإنَّهم يشهدون مَقامهم تحت كلِّ مقامٍ كشفاً وشهوداً من حيث مقامُ العبودية .

وقد كان الجنيد رضي الله عنه يقول : (مَنْ لم يرَ أنه ليس بأهلٍ أن تناله رحمة الله إلا بفضل الله تعالىٰ . . فقد قلَّ شكره وتواضعه) .

وكان حمدونُ القصار يقول : (مَن ظنَّ بنفسه أنه خير من فرعونَ فقد أظهر الكِبْر)(١)

---

(١) أورده السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١٢٥) .

وكان عمر بن عبد العزيز والحسن البصريُّ يقولان (لا يبلغ أحدٌ مقامَ التواضع حتىٰ يخرجَ من بيته ، فلا يصادفَ أحداً يرىٰ أنه دونه ، حتىٰ يرجعَ إلىٰ بيته)

وسمعت سيدي عليّاً الخوَّاص يقول : (لا بد للفقير من عينين عين ينظر بها إلىٰ ما مِنَ الله إليه ، وعين ينظر بها إلىٰ ما مِنْهُ إلى الله) ؛ ليشكر ويستغفر ، كما مرَّ بسطه في مقدمة هٰذا الكتاب[1]

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين يقول : (المَدَد كالماء لا يجري إلا في السفليات ؛ فمَنْ رأىٰ نفسه فوقَ جليسه أو مساوياً له حُرِمَ مددَهُ ، ومَنْ رأىٰ نفسه دون جليسه انحدر إليه المدد من كلِّ جليس) ، فيا حرمانَ من رأىٰ نفسه فوق أخيه أو مثله ! ويا سعادةَ من رأىٰ نفسه دونه ! فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تحمُّلُه للبلايا والمحن ، وكثرةُ تحمُّله للإنكار عليه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : كثرةُ تحمُّل البلايا والمِحَن الواقعة لي بواسطة وبغير واسطة ، وكثرةُ تحمُّلي للإنكار عليَّ بغير حقٍّ ممن عرفني وممن لم يعرفني ؛ اكتفاءً بعلم الله عز وجل فيَّ

ثم إنَّ المنكِرَ عليَّ لا يخلو : إمَّا أن يكون صادقاً في إنكاره عليَّ ، أو كاذباً ؛ فإن كان صادقاً وإنكاره بحقٍّ فالغيظ منه حمق ورياء ؛ لأنه قد كُتب في ديوان السماء قبل أن يظهر لأهل الأرض ، وإن كان كاذباً وإنكاره بغير

---

(١) انظر (ص١١٥) وما بعدها

حقٍّ فالغيظ أيضاً منه حُمق[1] ؛ لأنه لم يُكتب في ديوان السماء ، وكيف أتكدَّر أنا من ذلك والله تعالى الذي هو المؤاخذ ؛ لعلمه أنني بريء ؟![2]

وقد حصل لي بحمد الله تعالى إدمانٌ كثير في هـٰذا الأمر ، فلم يزل الناس كلَّ قليل يؤذونني بطريق البهتان والزور ، وأنا بحمد الله تعالىٰ أسامحهم في كلِّ ما يفترونه عليَّ ، فكأنني قطب تَدورُ عليَّ رحى الأذىٰ كما تدور الرحىٰ علىٰ قطبها ، لا أنفكُّ من دورة بلاء إلا وتستقبلني دورةٌ أخرىٰ ؛ تارةً مِن نفسي ، وتارةً من خارجي ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[مراعاتُهُ لرضا الحقِّ تعالىٰ ، وقلةُ ضجره ممن يؤذيه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ قلةُ تقلُّقي وضجري ممن يؤذيني ؛ وذلك لغلبة مراعاة رضا الحقِّ تعالىٰ عليَّ دون الخلق ؛ فإنه لا يقدر علىٰ تحمُّل الأذىٰ من الخلق إلا مَنْ لم يطلب له مقاماً عند الخلق ، وإلا فمن لازمه التكدُّر منهم ومعاداتُهم بسبب تنقيصهم له مثلاً ؛ لأنه كلما يريد أن يبني له مقاماً عندهم في الكمال . . يهدمُهُ هـٰؤلاء بالتنقيص له

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص رحمه الله يقول : (إيَّاك أن ترىٰ لك مقاماً بكثرة تحمُّلك لما ينقصُك به الخلق ؛ فإنَّ ذلك من مقام إبليسَ لعنه الله)

---

(١) وقع في هامش (أ) : (بخط مؤلفه هنا ما صورته : صاحب هـٰذا المقام إذا قال لعالم أو فقير أنت لا تصلح تلميذاً لي . . فليس ذلك علىٰ بابه ، إنما مراده أنك شيخ فوق درجتي فلا تصلح تلميذاً لي ، أو مراده : رفعُ همته فوق ما هو فيه ، لا احتقارُهُ ونحو ذلك) ، وجاءت في هامش (ج) من قوله : (وصاحب هـٰذا المقام)

(٢) في هامش (ب) : (بلغ تصحيحاً إلىٰ هنا بحسب الطاقة)

[اجتماعُ سهل التُّسْتَرِيِّ بإبليسَ وما وقع بينهما من مجادلة]

وقد اجتمع به سهل التُّسْتَرِيُّ رضي الله عنه ، ووقع بينه وبينه مجادلة ، فكان من جملة ما قال له إبليسُ إنَّ مقامي في العبودية فوق مقامكم ؛ وذلك أنَّ الخَلقَ كلَّهم يلعنوني وأنا أحتملهم ، مع شدَّة كراهتي لهم ليلاً ونهاراً ، ولا أقابلهم بنظير لعنهم ، والواحد منكم لو أنكر عليه أهلُ بلده ونقصوه ورموه بالبهتان والزور والزَّغَل والفواحش . . لضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ولم يكتفِ بعلم الله تعالىٰ فيه ، قال سهل فأسكتني والله انتهىٰ ، **فالحمد لله علىٰ كل حال**

[كراهتُهُ لمن يجيب الحسدة عنه]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ تمكيني أحداً من أصحابي يجيبُ عني ، بل أسألهم بالله تعالىٰ ألا يجيبَ أحدٌ عني ، إلا من جهة أنَّ الشارع أمره بأن يردَّ عن عِرْض أخيه المسلم ، لا من جهة نصرتِهِ لي وشفقتِهِ عليَّ ؛ وذلك أني أزعم أنني من جملة المحبين لأهل الله عز وجل ، ولا بد لمن يكون من أهل الله من وجود عدوٍّ وحاسد ؛ لعزةِ سلوك طريقهم علىٰ غيرهم ، وصعوبةِ مراقيها ، وكثرة اعتقاد الخلق فيهم من الملوك والأمراء ، فلا يَقدِرُ الحاسد علىٰ سلوك طريقهم لينال العزَّ كما نالوا ، فيأخذ في تنقيصهم ورميهم بالبهتان والزُّور ضرورةً ؛ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح : ٢٣] .

ثم إنَّ غالب ما يرميهم به الحسدةُ إنما يكون في الأمور السِّرِّية ؛ كعمل

الكيمياء ، والرياء ، والنفاق ، وأما الأمور الظاهرة فأهل الله تعالىٰ متظاهرون بضدِّها ؛ فأفعالهم تُكذِّب الحاسد ؛ فلذلك رموهم بالأمور الباطنة .

وسمعت سيدي عليّاً الخوَّاص رحمه الله يقول : (لا بُدَّ لأهل الله تعالىٰ من عدوٍّ يؤذيهم ؛ فإن صبروا كانت لهم الإمامة ، وإلا خرجوا نُحاساً ، قال ودليلنا قوله تعالىٰ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : ٢٤] ، فما بلغوا مقام الإمامة إلا بعد مبالغتهم في الصبرِ وتحمُّلِ الأذىٰ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٣٤])

والنكتةُ في ذلك : أنَّ الحقَّ تعالىٰ لا يصطفي عبداً من عبيده إلىٰ حضرته وهو يطلب المقام عند أحد من الخلق ، فهو تعالىٰ يُسلِّطُ علىٰ من يريد اصطفاءَهُ الخَلقَ بالأذىٰ حتى لا يُركَنَ إليهم من حيث كونهُم خلقاً ؛ إذ الركونُ إليهم يمنع حصول الاصطفاء .

وإيضاحُ ذلك : أنهم إذا أحسنوا إليه واعتقدوه.. مال إليهم بالمحبة ضرورةً ، ففاته مقام الاصطفائية ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[شكرُهُ لله تعالى الذي صبَّره عند إيذاء الناس له]

ومما منَّ الله به عليَّ بعد الإدمان علىٰ تحمُّل البلايا والأذىٰ : مبادرتي لشكر الله تعالىٰ كلما يؤذيني إنسانٌ ، فأشكر الله تعالى الذي صبَّرني علىٰ تحمُّل أذاه ، ولا أشتغل قطُّ بمقابلته ، بل أعذِرُه في ذلك ؛ فإنه ما آذاني

غالباً إلا وهو في غفلة عن كوني عبدَ الله ، وعن كوني في حضرة الله ، وعن كون الحقِّ نهاه عن مثل ذلك مع ضيق حوصلته ، ولو أنَّ الله مَنَّ عليه بأخلاق الصالحين ، وكان بالضدِّ مما ذكرناه . . لم يُؤذِ الذَّرَّ ، فضلاً عن الآدمي ، ولكان يستحيي من الله أن يؤذي عبدَهُ في حضرته .

فعُلِمَ : أنه ينبغي للعبد إذا قام عليه قائم يؤذيه أن يتطلَّب وجهَ الحكمة في ذلك ؛ فإنه لا يخلو شيءٌ يقع في الوجود عن حكمة إلـٰهية ، فإذا أطلَعَهُ اللهُ تعالىٰ فذاك ، وإلا سلَّمَ لأمر الله تعالىٰ ، **والحمد لله ربِّ العالمين** .

[انتصارُ الله عز وجل للشيخ ، ومؤاخذتُهُ لمن آذاه]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ انتصارُهُ عز وجل لي ، ومؤاخذته لمن آذاني ، من غير تعمُّدٍ مني ولا دعاء عليه[1] ؛ **فبعضُهم** جاءَهُ مرسوم من السلطان بشنقه ، فأخبروه بذلك فانزعج فمرض ، ومات بعد عشرة أيام ، **وبعضُهم** كَبَسَ عياله بالفجور والسكر[2] ، وذهبوا بهنَّ إلىٰ بيت الوالي صباح تلك الليلة التي جرَّ قافيتي فيها ، **وبعضُهم** رأىٰ في منامه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يُعرِضُ عنه ، فقال : يا رسول الله ؛ ما ذنبي ؟! فقال : كيف تؤذي فلاناً وهو من أصحابي وعلىٰ سنتي ؟! فجاء لي مستغفراً وقال : قد سبق لساني في حقك فقلت عبد الوهاب مبتدعٌ في هـٰذه المجالس التي يفعلها ـ يعني الصلاةَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فرأيتُ النبيَّ

---

(١) في (ب ، ج) : (تعمُّلٍ) بدل (تعمد) .
(٢) كبس علىٰ فلانٍ : باغته وأخذه علىٰ غرة ، وكبس منزلاً : إذا حلَّ به غفلة من أهله .

صلى الله عليه وسلم وهو يُعرِضُ عني ، وذكر القصة .

وأعرفُ واحداً لاث بعرضي ، فرأىٰ والدَه في النوم وهو يقول له : إنَّ فلاناً مجاب الدعاء ، فذكر ذلك لأصحابه وقال : لعل هـٰذا شيطان ، وأصرَّ علىٰ تنقيصي في مجالس المستهزئين ، فابتلاه اللهُ بمَنْ هتَكَ سريرته ، وأظهر له عيوباً لم يكن أحدٌ يعرف أنها فيه ، ثم ابتلاه الله تعالىٰ بترك الصلاة ، وشرب الخمر ، والوقيعة في أعراض الناس ؛ من فقهاءَ وفقراءَ وتجار وقضاة ومباشرين ، وربما يطوف علىٰ عدة من بيوت الأكابر ، ويطَّلع علىٰ عوراتها ، ثم يخرج يحكيها للناس ، فمقتته القلوبُ ، وبعضهم منعه من دخول بيته

وهـٰذا من أعظم بلاء يُبتلىٰ به العبدُ ؛ فإنه ليس بعد الشرك ذنبٌ أقبحَ من الإيذاء للناس بغير حقٍّ ؛ فإنَّ صاحبَ هـٰذا لا يكاد يَسلَمُ له في الآخرة حسنةٌ واحدة ؛ لكثرة الحقوق التي عليه للناس ، ثم إذا فنيت حسناته وُضِع عليه من أوزارهم ، ثم يقذف في النار ، كما ورد في الحديث(١) ، وربما شحَّ بعضُهم فلم يرضَ في غِيبة واحدة بجميع أعماله الصالحة عنده .

وأيضاً : فإنَّ صاحب هـٰذا الذنب ربما لا يبلغ إلىٰ مقام الإخلاص ، فأعمالُهُ كلُّها يَدخلُها الرياء ، وقد صرَّحَتِ الأحاديثُ بعدم قَبولها(٢) ، وقد

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) منها : ما رواه مسلم (٢٩٨٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تبارك وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

أنشدوا[1] : [من البسيط]

كنْ كيفَ شئتَ فإنَّ اللهَ ذو كرمٍ   وما عليكَ إذا أذنبتَ مِنْ باسِ
إلا اثنتيـنِ فـلا تقـربْهمـا أبـداً   الشـركَ بـاللهِ والإضـرارَ للنـاسِ

[مطلبٌ
في أنَّ الحقَّ تعالىٰ لا ينتصر لعبد وهو مستند إلىٰ أحد من خلقه]

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أنَّ الحقَّ تعالىٰ لا ينتصر قطُّ لعبد من عبيده وهو مستنِدٌ إلىٰ أحد من خلقه ، إلا إن جعلَهُ واسطةً ولم يقف معه ، فإذا نظر الحقُّ تعالىٰ إلىٰ عبده ، ورآه مستنداً إليه وحده . . فهناك لا تتخلَّفُ عنه نصرةُ الحقِّ تعالىٰ ، وفي الحديث القدسيِّ : « وعزتي وجلالي ؛ لا ينتصرُ بي عبدٌ من عبيدي ، أعلَمُ ذلكَ مِنْ قلبِهِ يقيناً ، فتكيدُهُ أهلُ السماواتِ وأهلُ الأرضِ . . إلا نصرتُهُ عليهم » انتهىٰ .

وإنما قال الحق تعالىٰ : (أعلم ذلك من قلبه يقيناً) ، وقيَّد نصرته تعالىٰ له بذلك ؛ لأنه مقامٌ عزيز وقوعُهُ من غالب الناس .

وفي الحديث أيضاً : « أنا وليُّ منْ سكتَ »[2]

وكان سيدي أبو العباس المُرْسيُّ يقول : (إذا كان المريد في حِجر تربية شيخه فهو كولد اللبؤة في حَجْرِها ، لا يمكن أن تسلمه لمن يريد اغتياله ، فكيف بأولياء الحقِّ جل وعلا الذين هم في حَجْرِ تربيته وكلاءته وحفظه ،

---

(١) أورد البيتين قطب الدين اليونيني في « ذيل مرآة الزمان » (١/ ١٠٠) .
(٢) انظر « المقاصد الحسنة » (٧٤٨ ، ٨٨٠) .

فهو يُسلمهم لمن يغتالهم ؟! لا والله) انتهىٰ[1]

فعُلِمَ : أنَّ كلَّ عبدٍ استندَ في نصرته إلى الخلق بنفسه أو بوكيله أو بقلبه . . تخلَّفت عنه نصرةُ الحقِّ تعالىٰ ، إلا أنَّ يكون مشهده أنَّ نصرة الخلق من جملة نصرة الحقِّ تعالىٰ له ؛ من حيث إنه هو المُلهِم لهم أن ينصروه ؛ فإنَّ لله تعالى النصرةَ لعبده بواسطة الخلق وبلا واسطتهم ولكلٍّ منهم ، فلا يقدح ذلك في مقام الاستناد إلى الله تعالىٰ ، بل ذلك أكمل ؛ لأنَّ فيه استعمال الآلة ، وعدمَ تعطيلها

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص رحمه الله يقول : إياكم والإنكارَ على الوليِّ إذا انتصر بالخلق ، وتقولون : لو كان وليّاً ما استند إليهم ؛ فإنَّ ذلك قد جاء في مقام الأنبياء ؛ فقد قال عيسىٰ عليه السلام للحواريين : ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف : ١٤] ؛ أي : لله تعالىٰ ، فطلب النصرة منهم لله تعالىٰ

وعُلِمَ أيضاً : أنه لا يضرُّ الوليَّ إلا استنادُهُ إلى الخلق ، مع غفلته عن كون نصرتهم له بإلهام من الحقِّ تعالىٰ .

وسمعت سيدي عليّاً الخوَّاص رحمه الله تعالىٰ يقول : (من الأولياء من لا يتحمَّل شيئاً من الأذىٰ له ولا لأولاده وأصحابِهِ ، لا حيّاً لا وميتاً ، بل يُعطِب كلَّ من تعرَّض له بأذىً ؛ غيرةً للحقِّ تعالىٰ ؛ من حيث تعدَّىٰ مَنْ يؤذيه حدودَ الله تعالىٰ ، ومنهم مَنْ لا يسامح أحداً منهم ولو بكلمة ، بل يسأل اللهَ تعالىٰ تأديبه بالأمراض ، أو بالعزل من ولايته ، أو الخروجِ من بيته ، ونحوِ ذلك ؛ ليُطهِّرَه من الذنوب أولاً فأولاً ؛ لئلا تتراكم عليه الذنوب فتهلكه) .

---

(١) لطائف المنن (ص٤٠) .

[مطلبٌ

في بيان أن للمعصية وجهين]

وإيضاحُ ذلك : أنَّ كل معصية لها وجهان

وجهٌ للعبد : من حيث إنَّ العاصيَ يتسبب في نزول البلاء على الخلق بواسطة معصيته ، ويؤذيهم .

ووجهٌ إلى الله : من حيث تعدِّيه حدودَهُ ، كما مرَّ

فالعبدُ يسامح من جهة وجهه ، ويشاحح من جهة وجه الله تعالىٰ ؛ غيرةً له

ومن الأولياء أيضاً مَنْ يكون كثير العَطَب لكلِّ مَنْ آذاه أو آذىٰ أحداً من المسلمين ، فيجرد نيته لتأديبه من غير تشفٍّ للنفس ، ويقصد بذلك كفَّ ذلك المؤذي عن أذاه ، أو تخفيفَ إيذائه للناس ، ولكلٍّ رجال مشهدٌ

وسيأتي أنَّ انتصار النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالأنصار وبحسَّانَ بن ثابت حين هجا المشركين كان بقصد النصرة للدين ، وطلباً لردِّ المشركين إلى الهدىٰ ؛ شفقةً عليهم ورحمةً بهم[1] ، كما أنه إنما ضربهم بالسيف ؛ لوفور شفقته عليهم في الأصل ، وتصديقُ ذلك في كتاب الله قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) انظر (ص٢٠٥) .

[محبتُهُ لمن نفَّر عنه أبناءَ الدنيا وجَرَحَهُ عندهم]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ كثرةُ محبتي لمن نفَّرَ أبناء الدنيا عني وجرَحَني عندهم ؛ من تجار ، ومباشرين ، وأمراءَ ، وكشاف ، ومشايخِ عربٍ ، وغيرهم ؛ وذلك لأني بحمد الله تعالىٰ لا أصحَبُ أحداً منهم لدنياه ، بل ولا يخطر علىٰ بالي أنه يعطيني شيئاً ، ولو أنه أعطاه لي ما قبلته ، فأنا غنيٌّ عن دنياه ، وليس معه علم ولا أدب أستفيده ، ولا هم يقصدون بصحبتي تعليمَ علم ولا أدبٍ مني ، إنما مَجالِسُهم مجالسُ غفلة وسهو وخوضٍ في أمور الدنيا لا غيرُ ، فصحبتُهم إلى الضرر أقربُ

ووالله ، ثم والله ، ثم والله ؛ إني لأجد في قلبي المحبَّةَ والودَّ لمن يُنفِّرُ مثلَ هـٰؤلاء عني أكثرَ ممن يُرغِّبهم في صحبتي ؛ فإني في النصف الثاني من القرن العاشر الذي هو محل مظهر العجائب والغرائب والفتن(١) ، وقد فتَّشنا غالبَ الأصحاب اليوم فوجدنا الحاملَ لهم علىٰ صحبتنا إنما هي علل دنيوية

[مطلبٌ
في حقوق الصحبة]

ومعلومٌ عند كل عاقل : أنَّ صحبةَ مثل هـٰؤلاء من نقص العقل ، فلا يتكدَّرُ من تنفير هـٰؤلاء إلا مَنْ كان غافلاً عن الله والدار الآخرة ؛ فإنَّ مَنْ نفر مثلُ هـٰؤلاء عنه فقد أعتقه من دخوله في حقوق الصحبة التي لا يطيق أحدٌ

(١) قوله (الذي هو محل مظهر) أثبت من (هـ ، و ، ز) ، وفي بقية النسخ (أتىٰ) ، ولعله صحِّف عن (أبي) كما هي في « الأخلاق المتبولية » (ص٢٧٢) .

القيامَ بها في هٰذا الزمان ؛ فإنَّ مِنْ أقلِّ حقوق الصحبة : أن أشاركه في مالي وثيابي وجميعِ حظوظ نفسي ، وهٰذا عَسِر علىٰ أمثالنا ، فجزى الله هٰذا الذي نفَّرَ الناسَ عني خيراً ، علىٰ أنه لا يَنْفِر عني بكلام العدوِّ إلا مَنْ كان غيرَ صادقٍ في محبته ؛ فإنَّ المحبَّ لا يصرفه صارف[1] ، ومَنْ فُقدت منه هٰذه المحبةُ فضررُهُ أكثر من نفعه

وأيضاً : فإنه لا يتكدَّر ممن ينفر الناس عنه إلا مَنْ يصحبهم لأغراض دنيوية ، كما هو شأن أهل الرعونات ، وأما من يصحب الناس للآخرة . . فلا يتكدَّر من مثل ذلك .

ووالله ، ثم والله ، ثم والله ؛ إني لأحبُّ الصاحبَ الذي لا يُهدِي إليَّ هديةً ولا يمدحني في المجالس . . أكثرَ ممن يُهدِي ويمدح ، بل يضيق صدري من كلِّ صاحبٍ أهدىٰ إليَّ شيئاً ؛ لإدخاله لي في تأكيد تحمُّل همومه ؛ لما عندي من كثرة الشفقة والرحمة علىٰ جميع هٰذه الأمة المحمدية .

وربما أصاب أحداً ممن أهدىٰ إليَّ كربٌ في وقت من الأوقات ، فأكاد أذوب من الكرب والضيق بسببه ، وفي بعض الأوقات أحسُّ بأنَّ جسمي على النار ، وتلحقني الحمَّىٰ من فَرْقي لقدمي ؛ فلا أستطيع أن أجلس على الأرض ، بل أضطجع حتىٰ يزول عنه ذلك الكربُ ، وقالوا في المثل : (من أكل الغفارة يرد الغارة) .

وقد رأيت في واقعة لمَّا نزل بأهل مصرَ تفتيشُ رزقهم وإقطاعهم ووظائفهم ، وحصل لهم الهمُّ والكدر بسبب ذلك ، في سنة ثمان وخمسين

---

(١) في (د) زيادة : (ولا تصده السيوف والمتالف) .

وتسع مئة . . أنني راكب علىٰ حصان أدهمَ قدرِ الفيلِ العظيم ، وبين يديَّ علىٰ ظهر ذلك الحصان ثلاثةٌ من الجِمال الكبار ؛ كلُّ جمل كأكبر ما يكون من الجمال ، فبينا أنا كذلك إذ رأيت الجبل المقطَّم قد انفلق ثلاثَ فِلقاتٍ ، فطارت فِلْقةٌ منها حتىٰ نزلت علىٰ كتفي الأيمن ، ثم إنَّ مصر انقسمت ثلاثَ فِرَقٍ ، فطار منها فِرْقة حتىٰ نزلت علىٰ ظهري ، هٰذا والأدهم يسرع في العَدْوِ مع حمله هٰذه الأثقال العظيمة من شدة قوته

فقصصتُ ذلك علىٰ بعض أولياء العصر ، فقال لي : هٰذه صورة حالك الآن ، ثم قال : لا أعلم أحداً الآن من بِرْكة الحَبَش إلى الرَّيْدانية أكثرَ تحمُّلاً لهموم الناس منك[١] ، فالله تعالىٰ يعينك ويدبرك . انتهىٰ

فعُلِمَ : أنَّ مقام تحمُّل الهموم والمصائب كما ذكرنا ليس هو لكلِّ أحد من الفقراء ، وإنما هوخاصٌّ بمن كَمُل إيمانه من العارفين ، كما أشار إليه حديث « مثلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم وتراحمِهم كمَثَلِ الجسدِ الواحدِ ، إذا مَرِضَ منهُ عضوٌ تَداعَىٰ لهُ جميعُ الجسدِ بالحُمَّىٰ والسَّهرِ »[٢]

وقد كانت هٰذه وظيفةَ سيدي عليٍّ الخوَّاص ، فورثتها منه بعد موته كما ورثها الآخر عن سيدي إبراهيمَ المتبوليِّ بعد موته ، وقد أخبرني حال حياته وقال : إن طال عمرك يا أخي سوف تكون قطباً لهموم الناس ، وربما تكثر عليك الهموم فتصير تصيح وأنت خلف سبعة أبواب ، وكان ذلك قبل أن

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٦٦) : (إني لا أعلم أحداً الآن في مصر أكثر تحمُّلاً لهموم الناس منك)

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

نعمر الدار ؛ فعددتُ الأبوابَ التي أنا خلفها ، فوجدتها سبعة كما قال .

وقد كان رضي الله عنه إذا نزل بالناس همٌّ لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يضحك ، ولا ينام ، ولا يلبس ثوباً نظيفاً ، ولا مُبخَّراً ، ولا يدخل حماماً ، ولا يبني حائطاً .

وهٰذا أمرٌ قليلٌ وقوعُهُ من غالب الفقراء كما ترىٰ ، بل غايةُ أمرِ أحدهم أنه يتوجَّعُ لك باللسان فقط ، أو بالقلب لحظة ، ثم ينساك ويأكل ويشرب ويفعل كلَّ ما ذكرناه ، وربما يزعم أنه من أهل التسليم لله تعالىٰ ، وأنه أكملُ ممن يتحمَّل الهموم ، وذلك سوء أدب بأولياء الله تعالىٰ .

فعُلِمَ من جميع ما قرَّرناه : أنَّ أحبَّ الناس إلى الفقير الصادق مَنْ يُنفِّر الناسَ عنه في هٰذا الزمان ، كما أنَّ أحبَّ الناس إلى الفقير الكاذب مَنْ يُرغِّب أبناءَ الدنيا في صحبته ، وأبغضَهم إليه من يُنفِّرهم عنه ، فاشكر يا أخي فضلَ كلِّ مَنْ نفَّرَ الناسَ عنك ، وإياك أن تتكدَّر منه ؛ فإنه علامة علىٰ عدم صدقك في الطريق ، والله يتولىٰ هداك

[محبَّتُهُ لكلِّ من آذاه ، وترجُّحُها علىٰ محبة المُعتقِد له]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : كثرةُ المحبة لكلِّ مَنْ بالغ في إيذائي ، وترجيحُها علىٰ محبة مَنْ يُحسِن إليَّ ويعتقدني ؛ وذلك لأنَّ محبة المؤمن لأخيه تعظُم بحسب كثرة نفعه له ، وتصغُر بسبب قلة نفعه له .

ولا شك ولا ريب : أنَّ مَنْ آذاني فقد تكرَّمَ عليَّ بدِينه وبصالح أعماله التي هي أعزُّ من حطام الدنيا جميعِها ؛ فإنه قد مكَّنني من أخذ حسناته يومَ

القيامة ، أو وضعِ شيء من سيئاتي علىٰ ظهره إن فنيت حسناته ، فتراني بحمد الله أجد في نفسي كثرةَ الودِّ والمحبة لمن آذاني وافترىٰ عليَّ الباطل أكثرَ ممن يُحسِن إليَّ ويشكرني في المجالس ، وكلما بالغ في إيذائي ازددت فيه محبة ؛ لأنه بذلك قد بالغ في إثبات حقي عليه ، فكيف أكرهه ؟!

وصاحب هـٰذا المشهد لا يرىٰ جميع الخلق إلا محسنين إليه ؛ فمَنْ لم يحسن إليه بدنياه أحسن إليه بدينه ، ومن لم يحسن إليه بدنياه ولا دينه فقد أحسن إليه بترك إحسانه إليه بواحد منهما ؛ لأنه أعتقه من تحمُّل مِنَّتِه ، فكان عدمُ إحسانه إحساناً

ثم لا يخفىٰ : أنَّ الأذىٰ إذا وقع من أحد من الصالحين فهو أنفع لك في الآخرة ؛ لأنهم هم الذين أخلصوا في علمهم وعملهم ، فتصل أعمالهم إلى الآخرة ، وأما غيرهم ممن لم يخلص في علمه وعمله . . فعمله حبط من أصله ، لا يصل منه شيء إلى الآخرة حتىٰ تأخذَ منه بقدر حقك .

فافرح يا مؤمنُ بالصالح إذا آذاك أكثرَ من الطالح ؛ فإنَّ الطالح ليس معه في الآخرة عملٌ ، وفي الحديث : « إنَّ العبدَ ليجدُ في صحيفتِهِ يومَ القيامةِ أعمالاً لم يعملْها ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ إنِّي لم أعملْ شيئاً مِنْ هـٰذهِ الأعمالِ ، فيُقالُ لهُ : هـٰذهِ أعمالُ فلانٍ الذي استغابَكَ ، نقلناها مِنْ صحيفتِهِ إلىٰ صحيفتِكَ » أو كما ورد .

ثم هـٰذا الخُلُق الذي ذكرناه ؛ من زيادة المحبة لمن بالغ في إيذائنا أكثرَ ممن لم يؤذنا . . خُلُقٌ غريب في هـٰذا الزمان ، لم أجد له ذائقاً من أقراني ، وقد جهدت كلَّ الجهد أن أكره أحداً ممن يؤذيني فلم أقدر ؛ لانقلاب طبعي

عن طبع أصحاب الرعونات ، وسيأتي بعد عشر مِنَنٍ ذكرُ جماعة يقاسموني في حسناتي من المحبين والأعداء[1] ، فراجِعْه ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[شفقتُهُ ورحمتُهُ لكلِّ من آذاه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : كثرةُ الشفقة والرحمة علىٰ مَنْ يؤذيني ، فربما كنت أَشفقَ عليه من نفسه ؛ وذلك أني أخاف علىٰ نقص دينه إذا آذاني ، وأتأثر لذلك أكثرَ مما يخاف هو ويتأثر ، حتىٰ إني في بعض الأوقات أقابله ببعض كلمات تؤذيه ، وأظهر له تأثري ، مع أنه ليس عندي تأثُّرٌ منه ولا تشفٍّ ، وإنما ذلك خوفاً عليه أنَّ الله تعالىٰ يُهلكه بشدَّة بغيه عليَّ ، فتراني أطلبُ بتلك المقابلة تخفيفَ الإثم عنه ، لا الهروبَ من تنقيصه لي بين الناس ؛ لحجابي بخوفي علىٰ دينه أن ينقص عن شهود تنقيصي بين الناس ، بل ربما لم يخطر ذلك لي علىٰ بال .

وربما كان في علم الله تعالىٰ أنَّ الله تعالىٰ يُسلِّط عليه بسببي مَنْ يُؤذيه ويخرجه من بيته ووظائفه أو زاويته ، فلا يهون عليَّ ذلك ، فأتعب في الشفاعة فيه عند الله أو عند خلقه ؛ لكونه لا يستحقُّ التخفيف عنه لكثرة بغيه .

وهٰذا خلق غريب لا يصحُّ إلا لمن أحكم مقام الزهد في الدنيا ، وتركَ حبَّ الجاه في قلوب المخلوقين ، ومَنْ لم يحكم ذلك فمن لازمه عدمُ خوفه علىٰ نقص دين عدوه ، وحبُّ التشفِّي ، ومقابلةُ من يؤذيه ولو بتوجهه إلى الله تعالىٰ فيه

---

(١) انظر (ص٢٠٩) .

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : (أعقل الناس في الدنيا الزهَّاد ، ولو أنَّ رجلاً أوصىٰ بمالهِ لأعقلِ الناس . . صرفتُه إلى الزهَّاد) انتهىٰ[1]

ومُحالٌ أن يتكدَّر عاقلٌ من شيء يرفع به درجاتِهِ في الآخرة ، مَعاذَ الله أن يقع ذلك منه ، لا سيما أهلِ الكشف الذين يشهدون أحوال يوم القيامة ، ويرون ما يرفع به درجاتِهم في الجنة ؛ فإنهم لا يتكدرون بذلك ، بل يفرحون ، ومن هنا أقدَرَهم اللهُ تعالىٰ علىٰ كثرة تحمُّل الأذىٰ من الخلق .

وتأمَّل يا أخي إلى الإنسان كيف يشرب الدواء الكريه بقصد التداوي ؛ لما يعلم من حسن عاقبته عليه ، ولو أنَّ إنساناً قال له : لا تشرب هٰذا الكريهَ . . فإنه لا يطيعه .

فعُلِمَ : أنه لا يتخلَّق بالرحمة علىٰ من يؤذيه إلا كُمَّلُ المريدين ؛ لتخلُّقهم بأخلاق الله تعالىٰ ؛ فإنه ما ذَكَرَ أنه استوىٰ علىٰ عرشه إلا باسم (الرحمٰن) ، فرحم كلَّ من حواه العرش ، كلَّ أحدٍ بما يناسبه ؛ من رحمة ترك العقاب ، أو رحمة الإيجاد ، ونحو ذلك ، فاعلم ذلك ، واعمل عليه ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ إتعاب سرِّه في تدبير حيلة تردُّ علىٰ من آذاه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ إتعاب سِرِّي في تدبير حيلة تؤذي من آذاني ؛ من قول أو فعل كما يقع ذلك لغالب الناس

وربما يسهر بعضُهم الليلةَ كاملة يُدبِّر في الحِيَل التي تؤذي عدوَّهُ ،

---

(١) أورد الخبر ابن جماعة في « تذكرة السامع والمتكلم » (ص٥٠) .

ويصير يهدُّ ويبني إلى الصباح ، وفي القرآن العظيم ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ . . ﴾ الآية [النحل ٤٥]

ومن كلام سيدي خضرِ الكرديِّ المدفون على الخليج تجاه جامع الملك الظاهر بمصرَ : (كلُّ كلام معبَّىً مفسود ، ومَنْ توكل على الله أغناه عن عمل الحيل ، وكفاه كيدَ عدوه ، ودفع عنه ضرره بحوله وقُوَّته)(١)

واعلم يا أخي : أنَّ مِنْ أقبح ما يكون ممن تزيَّا بزِيِّ الفقراء ، أو تحلَّىٰ بحلية العلماء . . أن يُقابِل أحداً بالأذىٰ ، أو يكشف سَوءتَهُ للناس ولو بحقٍّ فضلاً عن الزور والبهتان ، بل من الواجب علىٰ كلِّ مؤمن أن يستر كلَّ عيب رآه أو سمعه ؛ تخلُّقاً بالأخلاق الإلـٰهية ؛ فإنَّ الله تعالىٰ ينظر العيب ويستره

وقد منَّ الله تعالىٰ عليَّ بذلك ؛ فإذا افترىٰ أحدٌ عليَّ شيئاً باطلاً ، وأشاعه عني . . لا أفضحه أنا بما أعلمه منه ، ولو قُطِّعتُ إرْباً إرْباً إن شاء الله تعالىٰ ، بل أذكر محاسنَهُ وأنشرها بين الناس ، ولو قُدِّر أنني ترافعت أنا وهو إلىٰ حاكمٍ رجعتُ مغلوباً له ، ولا أهتك له ستراً ، ومَنْ سلك هـٰذا المسلك يخاف علىٰ عدوِّهِ الهلاكَ بسببه ، كما أنَّ مِنْ لازمه النصرةَ علىٰ عدوه

وقد بلغنا : أنَّ أهل مصرَ لما وشَوْا بذي النون المصريِّ إلى الخليفة ببغدادَ ووقف بين يديه وادعوا عليه . . قال له ما تقول ؟ فقال إن قلتُ لهم كذبتم . . نصرتُ نفسي ، وقد جاؤوا من مصرَ يريدون أن ينتصروا عليَّ ، وأنا أستحيي أن أُكذِّبَ مسلماً فيما ينسبه إليَّ ، وإن صدَّقتُهم كذبتُ

---

(١) أورده ابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص٤٧٥) من قول الشيخ مفرج الدماميني رحمه الله تعالىٰ ، وفيه : (طعام) بدل (كلام)

علىٰ نفسي وظلمتها ، وهي رعيتي ، قد أمَّنني اللهُ تعالىٰ عليها

فقال الخليفة إن كان هـٰذا زنديقاً فما علىٰ وجه الأرض مُسلِمٌ ، ثم صنع له مِحفَّةً ، وفرش له فيها نحو خمسة آلاف دينار ، وردَّهُ إلىٰ مصرَ مُكرَّماً[1]

[مطلبٌ

في وجوب أخذ العبدِ إيذاءَ الناس
وتنقيصَهم له من باب تنبيهات الحقِّ تعالىٰ]

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص رحمه الله يقول : من الواجب علىٰ مَنْ نقَّصَهُ مُنَقِّص ، أو آذاه أحدٌ أن يأخذ ذلك من باب تنبيهات الحقِّ تعالىٰ له ؛ ليأخذ في التوبة والندم علىٰ ما فعله من الزلَّات ، أو علىٰ ما فرَّط فيه من الطاعات ، أو علىٰ ما كان عزم علىٰ فعله من المخالفات والمقابلات لمن آذاه ، ونحوِ ذلك ، وأما من يصير يتفكر في نقائص الناس إذا نقَّصوه ، ويستنبط من نقائصهم نقائصَ . . فهو جاهل بطريق معاملة الله تعالىٰ ومعاملة خلقه

وما دام العبد في حضرة الحقِّ تعالىٰ يعتقد أنه تعالىٰ يراه . . فليس لأحد من الإنس والجن عليه سبيلٌ ، فإذا خرج من تلك الحضرة احتوشته الآفات من سائر الجهات

وسمعته أيضاً يقول : (من الواجب على العبد إذا سُلِّطَ عليه أحدٌ من

---

(١) أورد القصة ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤٠١) مختصرة ، والمِحفَّةُ بكسر الميم : هي في الأصل مركب من مراكب النساء كالهودج لا قبة له

الناس بالأذىٰ : أن يتوجَّهَ بقلبه إلى الله تعالىٰ ، ويسألَهُ أن يُطلِعه على السبب الذي سُلِّطَ عليه بسببه ؛ فإنْ أطلعَهُ الله تعالىٰ عليه فذاك ، وإلا أكثر من الاستغفار إيماناً وتسليماً)

وسمعته يقول أيضاً : (إياك أن تستبطئ نُصرتك علىٰ عدوك إذا دعوت الله تعالىٰ عليه ؛ فإنَّ الله تعالىٰ لا يُبطئ عنك الإجابة إلا ليعاملك بنظيرها إذا آذيت أحداً ودعا عليك ، فيؤخِّرَ إجابة دعائه في حقك جزاءً وِفاقاً ، فإن طلبت تعجيل إجابة دعائك علىٰ من ظلمك فلا تستغرب تعجيل إجابة دعاء خصمك في حقِّك) انتهىٰ

فعُلِمَ من ذلك : أنَّ كلَّ عاقل يفرح بعدم سرعة إجابة دعائه في حقِّ خصمه أكثرَ من سرعة إجابته ؛ رجاءً من الله أن يعامله بنظير ذلك إذا ظلم هو أحداً ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[محبتُهُ وتبجيلُهُ لمن أنكر عليه من الفقهاء]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : كثرةُ محبتي وتبجيلي وتعظيمي للفقهاء الذين أنكروا عليَّ ، وشنُّوا عليَّ الغارة في البلد عند الحُكَّام والعوامِّ لمَّا دسَّ الحسدَةُ في كتبي ما يخالف الشريعة ـ وإن كان عليهم اللومُ في عدم التفتيش علىٰ صحة ذلك عنِّي قبل أن ينكروا عليَّ ذلك ـ فإنهم جندٌ من جنود الله تعالىٰ ، أرسلهم إليَّ لينبهوني علىٰ عِوَجي في قولٍ أو فعل خرج عن طريق الاستقامة

وأيضاً فلأنَّ الفقيه مجتهد في الفهم ، فما أنكر عليَّ إلا ما أدَّىٰ إليه اجتهاده ورآه خارجاً عن طريق الاستقامة ، فيا سعادةَ مَنْ كان مقيماً في مثل

الجامع الأزهر ؛ فإنهم لا يكادون يغادرون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها عليه وناقشوه فيها ، ومن شأن البشر أنَّ كلَّ شيء نُقِّصوا لأجله يأخذون في البُعد عنه جهدَهم

وهٰذا خلقٌ عظيمٌ لا يقدر على العمل به إلا من خَلَص من رعونات النفوس ، وراعى الله تعالىٰ وحده دون خلقه ، ولم أجد له ذائقاً من أقراني ، بل غالب الناس يكاد أحدهم يمزق عِرْضَ من أنكر عليه ، أو استفتىٰ عليه ، وذلك من أكبر علامات الرياء والنفاق

ومن كلام الإمام الشافعيِّ رضي الله عنه (ما وقف أحد مع هٰؤلاء الخلق وراعاهم دون الله . . إلا سقط من عين رعاية الله عزَّ وجل) ، ومراد الإمام : مراعاة الخلق لغير غرض شرعي ، وكان ينشد[1] [من الطويل]

عِداتي لهم فضلٌ عليَّ ومِنَّة فلا قطعَ الرحمٰنُ عني الأعاديا
همُ بَحَثوا عن زلَّتي فاجتنبتُها وهُم نافسوني فارتقيتُ المعاليا

وسمعت سيدي علياً الخوَّاص رحمه الله يقول : إياك أن تتكدر ممن أنكر عليك شيئاً أو نصحك بشيء لم تقع فيه ؛ فإنه إنما نفعك بحسب علمه أنَّ ذلك الأمر غير موافق للشريعة ولو كنت أنت علىٰ هدىً من الله في نفس الأمر[2] ، فهو لم يشهد ذلك ، ولو شهده ما أنكره ، وأقلُّ ما فيه أنه قبَّحَ في

---

(١) أوردت المصادر هٰذه الأبيات منسوبة لأبي حيان الأندلسي . انظر « الوافي بالوفيات » (٥/ ١٨٠) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٢٨٥) ، وفيها : (أذهب) بدل (قطع) ، و(فاكتسبت) بدل (فارتقيت) .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٦٠) : (فإنه إنما نصحك جهدَه بحسب علمه) بدل (فإنه إنما نفعك بحسب علمه) .

عينك أمراً قبل وقوعه منك ؛ لتأتيه إذا قُدِّر عليك وأنت مستقبح له غيرُ مستهين به

[مطلبٌ
في أحوال المريد أثناء سلوكه للطريق]

واعلم أنَّ من شأن الفقير في بداية أمره أن يكره كلَّ مَنْ نقَّصه ؛ لضعف حاله في باب الإخلاص ، ثم إنه بعد ذلك يصير كلُّ شيء ينقصه الناسُ به يأخذ في التنصل منه ؛ خوفاً علىٰ مقامه أن ينقص عند الناس ، فإذا توسط الطريقَ أحبَّ كلَّ من نقصه حبّاً لهضم نفسه ، فإذا كَمُل حالُهُ أحبَّ كلَّ من أنكر عليه عِوَجَه ؛ خوفاً أن يتبعه علىٰ ذلك العوج أحدٌ فيُكتبَ من الأئمة المضلين ؛ فمحبة التنقيص موجودة في الوسط والنهاية ، والقصد فيهما مختلف ، والله أعلم .

وقد يكره الكامل التنقيصَ له أيضاً ؛ خوفاً من تنفير المريدين عنه فيُحرَموا فوائده ، لا خوفاً من نقصه من حيث حظُّ نفسه هو

وهـٰذا الذي قرَّرناه ؛ من محبة المنكرين علينا من العلماء ، ومحبةِ القُرب منهم . . أولىٰ من قول الفضيل بن عياض وسفيانَ الثوريِّ : (إياك أن تقرب من القراء ؛ فإنهم إن أحبُّوكَ مدحوك بما ليس فيك فغشُّوك ، وإن أبغضوك نقَّصوك بما ليس فيك وقُبِلَ منهم)[1] ، ولعلَّ ذلك منهما في حقِّ المبتدئين كما قررناه ، وإن كانت القاعدة : أنَّ درءَ المفاسد مُقدَّم علىٰ جلب المصالح ، فالحمد لله ربِّ العالمين[2]

---

(١) أورد الخبر السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ١١) .
(٢) في هامش (أ) : (بلغ) .

[إقامتُهُ العذر لمن آذاه ببادئ الرأي]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : مبادرتي إلىٰ إقامة العذر لمن آذاني ببادئ الرأي ؛ لعلمي بأنه ما آذاني بقول أو فعل إلا بإرادة الله تعالىٰ ، فكان مطمحُ بصري حضرةَ الإرادة الإلـٰهية ، لا حضرةَ فروعها من حضرات الخلق ، ومن كان هـٰذا مشهدَهُ فلا يُتصوَّر منه تكديرٌ ممن آذاه ، ولا سخطٌ علىٰ مقدور الحقِّ ما دام هـٰذا مشهدَهُ

فأما عدم تكديره من الخلق فلكونه يشهد حركاتِهم كلَّها وسكناتِهم تحت الإرادة الإلـٰهية ، فهم كالسوط الذي يضرب به الضارب ، والعاقل لا يترك الفاعل الحقيقي ويشتغل بسوطه

وأما عدم سخطه علىٰ مقدور الحقِّ تعالىٰ فلكونه يشهد ذلك فِعلَ عليم حكيم ، أرحمَ بالعبد من والدته على الكشف والشهود ، ومعلوم أنَّ الوالدة ربما تضرب ولدها أو تَشُكُّهُ بإبرتها ؛ شفقةً عليه من وقوعه فيما هو أكثر أذىً له من الإبرة ، فإذا كان هـٰذا فعلَ الأمِّ مع أنَّ رحمتها كالذرَّةِ الصغيرة من ذرَّات رحمة الله تعالىٰ . . فكيف بالحقِّ جلَّ وعلا ؟!

وسمعت سيدي علياً الخوَّاص رحمه الله يقول (لا يصحُّ التكدُّر من عبد إلا إن كان مشهدُهُ مقصوراً علىٰ أن ذلك الفعل الذي تكدَّرَ منه من فعل الخلق ، فإن شهد أنه مَنْ فعل الحقِّ تعالىٰ ذهب التكدُّر جملة واحدة ؛ ولذلك يَخِفُّ الندم علىٰ مَنْ وقع في معصية إذا رجع إلىٰ أنَّ ذلك كان بتقدير الله عز وجل عليه قبل أن يُخلَق) انتهىٰ

فوالله ؛ لقد فاز العارفون بنعيم الدارين ؛ بشهودهم : أن لا فاعل فيهما حقيقة إلا اللهُ ، فهم مع الحقِّ لا مع الخلق ، ومَنْ كان مشهدُهُ الحقَّ تعالىٰ وأفعالَهُ لا يجدُ من يرسل غضبه عليه ؛ كالحكم في حال الزبانية يوم القيامة إذا انكشفت الحقائق ، فاعلم ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين[1]

[مبادرتُهُ لشكر الله تعالىٰ إذا نقَّصه أحد عند الأكابر]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : مبادرتي للشكر لله تعالىٰ إذا نقَّصني مُنقِّص عند أحد من الأكابر ، كما أشكر الله إذا كبَّرني عنده علىٰ حدٍّ سواءٍ ؛ وذلك لأنَّ من شرط العاقل أن يدور مع رضا الحق تعالىٰ ولو في مخالفة حظِّ نفسه ، ومَنْ تأمَّل وجد المُنقِّص أكثر نفعاً من المُكبِّر ؛ لأنَّ المنقِّصَ سعىٰ في إراحة سرِّك ، ومن كبَّرَ بك أدخل عليك التعب كما مرَّ في المنن السابقة[2] ، وكلاهما مُحسِنٌ إليك بما فعل

ومَنْ تحقَّقَ بهـٰذا المقام قلَّ غضبُهُ وغيظه ، وممن تحقَّق به الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه ، وإنما قال : (من استُغضب فلم يغضب فهو حمار)[3] ؛ تنزلاً لعقول غالب الناس ؛ رحمة بهم كما قال تعالىٰ :

---

(١) وقع في هامش (أ) : (بخط مؤلفه هنا ما صورته : « ولما طلعت إلى الوزير علي باشاه بمصر وأكرمني وسمع بذلك الحسدة . . فأرسلوا إليه قصة جرحوني فيها ، فلما بلغني ذلك بادرت إلى الشكر ») ، وبنحوه في (ج) ، وجاءت هـٰذه القصة في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٦٣) .

(٢) انظر (ص١٧٥ ، ١٧٨) .

(٣) رواه أبو نعيم الأصبهاني في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٣) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٠٢) ، وتتمته : (ومن استُرضي فلم يرضَ فهو شيطان) .

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقد قدَّمنا في المنن السابقة أنَّ مما منَّ اللهُ تعالىٰ به عليَّ عدمَ انتصاري لنفسي بنفسي أو بوكيلي ، لٰكن ذلك مخصوص بما إذا لم يترتب عليه مصلحة شرعية ، فإن ترتَّبَ علىٰ ذلك مصلحة ؛ كما إذا خفنا من تزلزل أحد من المريدين في الاعتقاد فينا إذا سكتنا ؛ لظنِّه أن ذلك التنقيص فينا ، فيَعْدَم النفع بنا

[مطلبٌ
في صورة جوابه عن نفسه إذا انتصر لها]

وصورة جوابي عن نفسي إذا انتصرت لها بالشرط السابق أن أقولَ : أنا بحمد الله تعالىٰ معافىً من مثل ذلك الآن ، ولا أدري ما يقع لي في المستقبل ، ثم لا أتعرَّضَ لتنقيص من نقصني بوجه من الوجوه كما يفعل بعضهم تعريضاً وتصريحاً ، وما قال الله تعالىٰ ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ إلا خطاباً للضعفاء الذين لا يقدرون علىٰ تحمُّل مثل ذلك ، فيتنفَّسون إذا أساؤوا على المسيء بمثل إساءته ، بخلاف الأقوياء ؛ فإنه لم يخاطبهم إلا بقوله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لعلمه باختيارهم أن يكون أجرهم على الله تعالىٰ .

وإنما لم يأذن لهم في المقابلة لمن أساء عليهم ؛ غيرةً عليهم ، حتىٰ لا يكونوا من أهل السوء ، ولو بالاسم فقط .

وتأمَّلْ يا أخي قوله تعالىٰ ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ كيف أكَّدها بقوله : (مثلُها) ؛ ليتنبه العارفون لذلك ، ويعلموا أنَّ وقوع المثلية منهم

متعذِّرٌ جدّاً ؛ لأنه يشترط في المثلية ألا تزيد حرفاً واحداً على الكلام الذي نقصه به ، وأن يكون حروفُ سيئة البداءة حروفَ سيئة المجازاة بعينها ، وأن يقع التأثير بقدر التأثير ، وأن يتحد أهل المجلسين ؛ فيكونَ أهلُ سيئة البداءة هم الحاضرون حال سيئة المجازاة ، وأن يكونا متكافئين في الرتبة ؛ كقاضٍ وقاضٍ ، وصالحٍ وصالحٍ مثلاً ؛ فإنَّ أكابر أهل الدنيا يتأثرون بتنقيصهم في المجالس أكثر من الأصاغر

وخرج بقولنا : (أكابر أهل الدنيا) أكابر أهلُ الآخرة ؛ فإنهم لا يكادون يتأثرون ممن نقصهم اكتفاءً بعلم الله تعالىٰ ، فلما رأىٰ أهل الله تعالىٰ تعذُّر وقوع المثلية في سيئة المجازاة . . تركوا مقابلة أحد بسوء ، وخافوا أنهم إذا جازَوْا أحداً يُكتَبون من أهل السوء ؛ من حيث إنَّ الله تعالىٰ خلع علىٰ سيئة المجازاة اسمَ السيئة ، وإن كانت غيرَ سيئة عند غيرهم[1]

وكان أخي أفضلُ الدين رحمه الله يفرح بمن يُنقِّصه في المجالس ويقول (هو رسولٌ من عند الله إليَّ ؛ حتىٰ لا أستحسنَ شيئاً من أحوالي) ، وكان يغتمُّ ويتكدَّر ممن يشكره في المجالس ويقول : (هو رسولُ إبليسَ إليَّ ليهلكني باستحسان حالي ، ويُدخلَ عليَّ العجب) انتهىٰ . فالحمد لله ربِّ العالمين .

فعُلِمَ : أنَّ من كان مشهدُهُ الشكرَ لله تعالىٰ علىٰ تنقيصه عند الناس . . لا يصحُّ في حقه التكدُّرُ ممن أضاف إليه شيئاً من النقائص ؛ وذلك لعلمه بعدم عصمته أولاً ، ولرضاه بما يصنعه ربُّهُ ثانياً ، ولعدم مراعاته الخلق

---

(١) أي : من حيث إن الله تعالىٰ أباحها لهم .

ثالثاً ، فهو لا يستبعد أن يقع في كلِّ شيء يقع فيه الخلقُ من المعاصي والجرائم التي يدخل بها بيت الوالي . . إلا إن حفَّته العنايةُ الربانية

وسمعت سيدي علياً الخوَّاص رحمه الله يقول (من شأن الكامل أن يرىٰ جميع الصفات الحسنة والقبيحة تَشرُق وتَغرُب فيه ، ما عدا الكفرَ بالله تعالىٰ ، فإن مُدِح صاحب هـٰذا المشهد إلى الطرف الأقصىٰ فلا يزداد علماً بصفاته الحسنة ، وإن ذُمَّ إلى الطرف الأقصىٰ لا يزداد علماً بصفاته السيئة ، بل يرىٰ كلَّ ما ظهر للناس من صفات المدح والذمِّ دون ما يعلمه هو من نفسه) انتهىٰ

وقد ذكرنا في كتاب « عهود المشايخ » أنَّ حكمَ الخلق من بني آدمَ ما عدا الأنبياءَ . . حكمُ الطينة المعجونة من سائر الجواهر والأعراض والأجسام ؛ فإنها إذا عجنت حتىٰ صارت روحاً واحداً . . يقضي العقلُ بأنَّ في كل ذَرَّةٍ منها مجموعَ ما تفرَّق في غيرها ، ولـٰكن ما دامت العنايةُ الإلـٰهية تحفُّ العبدَ بالحفظ فالصفات المحمودةُ مستعملة والمذمومةُ متعطلة ، فإذا تخلَّفت العناية قامت الصفات المذمومة للاستعمال وتعطَّلت الحسنة[1]

ومن هنا كان غيرُ الأنبياء والملائكة لا يوصف بالعصمة ؛ لتداول الصفات عليه ؛ فتارةً تجد الوليَّ بخيلاً ، وتارة كريماً ، وتارةً شجاعاً ، وتارةً جباناً ، وتارةً زاهداً ، وتارةً راغباً ، وهـٰكذا ، وما خرج عن حكم هـٰذه الطينة سوى الأنبياء كما تقدمت الإشارة إليه ؛ وذلك لأنَّ الله تعالىٰ

(١) البحر المورود في المواثيق والعهود (ص ١٠٩) .

عصمهم ، وطهَّرَ طينتهم من الرذائل والمعاصي بسابق العناية ، لا بعمل عملوه ، ولا بخير قدَّموه[1]

فعُلِمَ : أنَّ الصفاتِ المذمومة تَدِقُّ مع الوليِّ بحسب المقامات التي يترقَّىٰ إليها ولا تنقطع ، ولـٰكن بعض العارفين ربما خفي عليه بعضُ الصفات المذمومة لقلة استعمالها ، فظنَّ أنها زالت بالكلية ، ولو أنه كان حقَّقَ النظر لوجدها فيه ، ولـٰكنها دقَّتْ وضعفت لغلبة عسكر الطاعات عليها

ومن هنا خرج العارفون علىٰ من قال في كتابه (باب علاج الكبر) ، (باب علاج الحسد) ، ونحوَ ذلك ؛ لظنِّهِ أنَّ تلك الصفة تزول بالعلاج ، وغاب عنه أنَّ ما كان جبليّاً في النشأة فمحالٌ أن يزول إلا بانعدام الذات ، فافهم .

ومن هنا وضع الكاملون عندهم بعضَ دراهمَ دائماً ؛ تسكيناً لذلك الجزء الذي فيهم يضطرب ولا يقنع بالقسمة الإلـٰهية .

ومن هنا أيضاً : سقَوْا نفوسهم الماء المُبرَّد ، وأطعموها اللذيذ ، وألبسوها اللباس اللين في بعض الأوقات ؛ وفاءً بحقِّ جسدهم كله .

ومن هنا أيضاً : أكثر الكاملون من الاستغفار ، سواء ظهرت منهمُ النقائص أم خفيت ؛ لعلمهم أنها كامنة فيهم ككمون النخلةِ في النواة ، والنارِ في الحجر ، وإن كان الحقُّ تعالىٰ تجاوز عنها ما لم يعمل بذلك أو

---

(١) وقع في هامش (ج) : (ومن هـٰذا التداول في الصفات : ظهر الفرق بين الكرامة والمعجزة ؛ لأن الصفاتِ المحمودةَ لا تفارق الأنبياء ، بخلاف الأولياء ؛ ولذلك لا تتخلف المعجزة وتتخلف الكرامة ، مع عدم النظر للتحدي ، والله سبحانه أعلم . كاتبه الأقل) .

يتكلمْ به[1] ، وهـٰذا المحلُّ يستدعي مجلداتٍ ، وفي هـٰذا القدر كفاية ؛ بشهودي أنَّ كلَّ ما يؤذيني به الناس في هـٰذه الدار من جملة المصالح ، والحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ تكدُّره ممن فاضل بينه وبين أحد من العلماء والصالحين]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ عدمُ تكديري ممن فاضل بيني وبين أحد من العلماء والصالحين ، ثم رفعَ واحداً مثلاً منهم عليَّ ، بل أقول : الحمد لله الذي رفع قدري حتىٰ صلحتُ لأن يقع بيني وبين العلماء والصالحين تفاضلٌ ؛ وذلك لأنه لولا جعلني قريباً منهم في المقام ما أوقع التفاضل المذكور ، وأنا أعلم من نفسي أنني بعيد المقام عنهم في العلم والصلاح ، وأنَّ بيني وبينهم كما بين السماء والأرض ؛ ولذلك تركت الاجتماع معهم في المحافل حياءً منهم

وقد حضرت معهم مرةً فرأيت نفسي كأنني مكشوف السَّوْءَة .

ولمَّا افترىٰ عليَّ بعضُ الحسدة أنني ادعيت الاجتهاد المطلق ؛ كأحد الأئمة الأربعة . . لم أتكدَّرْ من ذلك المفتري ؛ لأني أعلم أنه لولا أقرَّ لي بعلوِّ المقام في العلم لَمَا افترىٰ ذلك عليَّ ، كما لا يفتري علىٰ أحد من العوامِّ مثلَ ذلك ؛ لبعدهم في المقام عن مقام المجتهدين

وإيضاحُ ذلك : أنَّ المفتريَ لا يفتري إلا ما يظنُّ رَوَاجَهُ عند الناس في حقِّ مَنِ افترىٰ عليه ، وأما إذا علم أنَّ الناس لا يقبلون في حقه مثل ذلك فلا

---

(١) روى البخاري (٥٢٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسُها ما لم تعمل أو تتكلم) ، وأخرجه مسلم (١٢٧) بنحوه .

يفتريه عليه أبداً ؛ ولذلك كان الغالب علىٰ مَنْ يرمي الصالحين بالزور أنما يرميهم بالرياء والنفاق وغيرهما من الأمور الباطنة ؛ لأنه لو رماهم بمثل ترك الصلاة وشرب الخمر لكذَّبَهُ الناس

واعلم يا أخي أنه لم يزل يقع بين العلماء الفتنُ والشحناء بواسطة رفع تلامذتهم أشياخَهم علىٰ أقرانهم ، فينبغي لكلِّ عالمٍ أو شيخ في الطريق أن يزجر أصحابَهُ إذا رآهم يفضلونه علىٰ أحد أقرانه ويقولَ : أنا لا أصلح تلميذاً لفلان ، والطريق تعرِفُ أهلَها ، فكلُّ مَنْ صدق فيها انقاد إليه الناس ، واجتمعوا عليه ، وانتفعوا به

وقد بلغني : أنَّ سيدي محمد ابن أخت سيدي مدينَ شيخ سلسلة سيدي يوسفَ العجميِّ لمَّا حضرته الوفاةُ أَذِن لأربعة عشر شخصاً بأنهم يُسلِّكون الناس بعده ، وكان منهم سيدي عليٌّ المَرْصَفيُّ ، فخاف أن يحصل بينهم نزاع ، فيُقِلَّ الناسُ اعتقادَهم في أهل الطريق ، ويحملونهم علىٰ حبِّ الرياسة ، فقال : يا إخواني ؛ كلٌّ منكم يبرز للطريق في مصرَ ، وكلُّ مَنْ سبق له أن يكون شيخَ البلد فسوف يظهر ، فبرزوا كلُّهم ؛ فبعضهم انطفأ بالكلية ، وبعضهم ظهر بعضَ ظهور ، وما ثبتت المشيخة والطريق إلا لسيدي عليٍّ المَرْصَفيِّ ، فأجمعت الناس علىٰ جلالته وصدقه ، رضي الله عنه ، فالحمد لله ربِّ العالمين

فعُلِمَ أنَّ كلَّ مَنْ تكدَّر ممن فضَّلَ غيرَهُ عليه فهو صاحب رعونة ونفس ، كاذبٌ في الطريق وفي قوله في بعض الأوقات (نحن لا نجي نِعالَ الإخوان) ، والله أعلم

[عفوُهُ وصفحُهُ عن جميع من جنىٰ عليه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ العفوُ والصفح عن جميع من جنىٰ عليَّ في بدني أو عِرْضي من هٰذه الأمة المحمدية ، أو افترىٰ عليَّ كذباً سرّاً أو جهراً ، حتىٰ مَنِ استغابني ولم يبلغني ؛ من سائر حمَلَةِ القرآن ، والتجار ، والمباشرين ، والأمراء ، وسائر المُكلَّفين ؛ وذلك لأني وإن كنت لم أعلمه فالله يعلمه .

وإنما عمَّمتُ الحكم في سائر المكلفين ؛ لأنَّ اسمي صار مشهوراً بين هٰؤلاء كلِّهم ، فلا يفتري عليَّ حاسدٌ شيئاً من النقائص أو المخازي إلا ويعلم به غالبُ أهل مصرَ وقُراها ، ثم أكثرُ الناس وقوعاً في عِرْضي مَنْ قام به داء الحسد من الأقران

ولمَّا دسَّ بعضُ الحسدة في كتابي المسمىٰ بـ « العهود » ما يخالف الشريعة ، وظفر بتلك النسخة بعضُ المتهوِّرين ، ودار بها في جامع الأزهر وغيرِه . . فلا يعلم عددَ من استغابني إلا اللهُ عز وجل

وقد تكرَّر مني مراراً عديدةً : أنني أشهدتُ اللهَ تعالىٰ وملائكتَهُ وجميعَ من حضرني من المؤمنين والكافرين . . أنني سامحت جميع الخلق فيما جنَوْه عليَّ في حياتي وبعد مماتي ؛ لكوني رأيت بعض الناس يستغيب الميت وهو في جنازته ، وما بقي يُتصوَّر من ذلك الميت عفوٌ ولا صفح إلا يومَ القيامة ! ! فلذلك عفوت وصفحت عن جميع مَنْ جنىٰ عليَّ بعد موتي وأنا في قيد الحياة ؛ رحمةً بذلك الجاني ؛ فإنَّ الحقَّ يكون غيرَ راضٍ عنه إلىٰ يوم القيامة حين يصالح بين عباده تعالىٰ ، ويأخذ لهم بحقوقهم ، فهناك يظهر

رضا الحقِّ جلَّ وعلا عن ذلك الجاني .

فعُلِمَ : أنني لا أطالب أحداً من هٰذه الأمة بحقٍّ في الدارين ، ولو أنني جئت يوم القيامة مفلساً من سائر الأعمال الصالحة . . لا أرجع عن صفحي وحلمي علىٰ مَن جنىٰ عليَّ إن شاء الله تعالىٰ

وهٰذا أَوْلىٰ ممَّنْ توقَّف عن الصفح عن الجاني في دار الدنيا وقال : لا أصفح حتىٰ أعرفَ حالي يوم القيامة ؛ فإنْ سامحني الله بفضله سامحت ، وإن ناقشني ولم يعفُ عني شاححت مَن جنىٰ عليَّ ، وأخذت منه حسناتِهِ

ونُقِل مثلُ ذلك عن الشيخ جلال الدين السيوطيِّ ، وصنَّفَ في ذلك كتاباً سمَّاه « تأخير الظُّلامة إلىٰ يوم القيامة »[1] ، ولٰكن أخبرني الشيخ شعيبٌ ـ الخطيبَ بجامع الأزهر كان رحمه الله ـ : أنه سمع الشيخ جلال الدين وهو مُحتضَرٌ يقول : اشهدوا عليَّ أنني سامحت جميع من آذاني من وقت وقوعه في إيذائي ، وإنما أظهرت التوقُّف عن ذلك ؛ خوفاً أن يتجرَّأ الناسُ علىٰ أعراض العلماء . انتهىٰ[2]

[مطلبٌ
في مذهب ابن عباس وابن سيرينَ في مسامحة المغتاب]

واعلم : أنَّ مذهب عبد الله بن عباس ، ومحمد بن سيرينَ رضي الله عنهما . . عدمُ المسامحة لمن اغتابهم ، وكانا إذا قال لأحدهما شخصٌ :

---

(١) في هامش (هـ) عند قوله : (الظلامة) : (بكسر الظاء) .

(٢) نقل الشعراني قول السيوطي في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٧٣) عن الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري .

اجعلني في حِلٍّ ؛ فإني وقعت في عرضك . . يقول : مَعاذ الله أن أُحلَّ ما حرَّم الله ، إنَّ الله قد حرَّم أعراض المؤمنين فلا أُحلُّها ، ولـٰكن غفر الله لك يا أخي . انتهىٰ

[مطلبٌ
في أنَّ لكلِّ معصية تتعلَّق بالآدمي حقَّين]

وقد عدَّ العارفون مثلَ ذلك من جملة ورع ابن عباس ومَنْ تبعه ؛ لأنَّ في كلِّ معصية تتعلق بالآدمي حقين : حقٌّ لله تعالىٰ ؛ من حيث تعدِّي المكلف حدودَهُ ، وحقٌّ للعبد ؛ من حيث إيذاؤه ؛ فالمسامحة الواقعة من العبد إنما هي من حيث الحقُّ المتعلق به ، وأما حقُّ الله تعالىٰ فهو باقٍ حتىٰ يغفرَ الله له ، فافهم .

واعلم يا أخي : أنني ما سامحت جميع من جنىٰ عليَّ من الخلق لعلة دنيوية أو أخروية ؛ من طلب ثواب أو نحوه ، وإنما سامحتهم إكراماً لله عز وجل من حيث كونهم عبيدَهُ ، ثم إكراماً لمحمد صلى الله عليه وسلم من حيث كونهم أمتَهُ ، هـٰذا هو الباعث لي الآن ، والله علىٰ ما أقول شهيد ، وأرجو من فضل الله تعالىٰ دوامَ هـٰذه النية بقيةَ عمري .

وإيضاحُ ذلك : أنني أزعم أنني أحبُّ الله ورسوله ، ومعلومٌ : أنَّ مؤاخذة مَنْ هو عبدٌ لله ، أو مِنْ أُمَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم . . تقدح في ذلك ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ اللهَ ورسوله يقبح عليه أن يؤاخذ أحداً من المسلمين ؛ كما هو الشأنُ في حقِّ ملوك الدنيا ، فإذا قال الملك : من أكرمَ أحداً من

عبيدي قرَّبتُه لحضرتي ، فقام شخص وشتم ذلك العبد وآذاه ، فمثل هـٰذا قد أساء الأدب ، فافهم

[مطلبٌ

في بيان بعض أدلَّة ندب العفو والصفح]

ثم من أدلة ندب العفو والصفح قولُهُ صلى الله عليه وسلم « وما زادَ اللهُ رجلاً بعفوٍ إلا عِزّاً »[1] ، ومفهومه : أنَّ من لم يعفُ عمن ظلمه لا يزداد إلا ذلّاً ، وقد جرَّبتُ أنا في نفسي ذلك فما نفَّذت غضبي قطُّ في أحد إلا وأُحسُّ بطرد قلبي عن دخول حضرة الله عز وجل كالشياطين ، وكفىٰ بذلك ذلّاً ، وما صفحت عن أحد إلا وأُحسُّ تلك الأيام بزيادة العزِّ بين يدي الله تعالىٰ وبين خلقه ، وحصل لي بذلك إدمان كثير ، حتىٰ صار العفو أحبَّ إليَّ من المؤاخذة وألذَّ ، ولم أزل من منذ اكتسبت الفضائل يقوم لي في مصرَ حاسد بعد حاسد يؤذيني إلىٰ وقتي هـٰذا ؛ إما لرفع درجاتي ، وإما لتكفير سيئاتي ، وإما عقوبةً لذنب وقعت فيه ولم أحتفل بأمره ، ونحوِ ذلك .

وما أظنُّ أنه سلم من الوقيعة فيَّ من أقراني إلا القليلُ ، لا سيما أهلِ جامع الأزهر ، نفعنا الله ببركاتهم .

ومِمن حماه الله تعالىٰ من الوقوع في عرضي : الشيخ ناصر الدين اللَّقَانيُّ ، والشيخ شهاب الدين الرمليُّ ، والشيخ شهاب الدين بن الشلبيِّ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

والشيخ نور الدين الطَّنْدَتائيُّ ، والشيخ شمس الدين الخطيب الشِّرْبينيُّ ، والشيخ سراج الدين الحانوتيُّ ، والشيخ شمس الدين البرهمتوشيُّ ، وأضرابُهم ، زادهم الله من فضله ، وحماهم من النار يوم القيامة ، آمين آمين آمين

وقد وقع : أنَّ بعض الأقران في جامع الأزهر غلَبَهُ الحسدُ ، حتىٰ إنه أشاع عني في جامع الأزهر أنني مِتُّ ، وأرسل بذلك كتباً إلىٰ دِمْياطَ والمَحَلَّةِ وإسكندريةَ ، فبحثت عن سبب ذلك ، فقال لي بعض من يجتمع عليه إنه سأله عن ذلك ، فقال : إنما فعلت ذلك لأعرف ما يقول الناس فيه إذا مات ، فبحمد الله تعالىٰ لم يقل المحبون إلا خيراً ، وقد وقع مثل ذلك للشيخ برهان الدين البقاعيِّ رحمه الله تعالىٰ ، فأنشد ـ وهو لسان حالي أيضاً ـ[1] : [من الطويل]

ألا رُبَّ شخصٍ قد غدا ليَ حاسداً ... يُرجِّي مماتي وهْوَ مثلِيَ فاني
ويا ليتَ شِعري إنْ أَمُتْ ما ينالُهُ ... وماذا عليهِ لو أُطيلَ زماني
وما يبتغي الحسَّادُ منِّي وإنَّني ... لَفي شُغُلٍ عنهم بأعظمِ شاني
نَعَمْ إنَّني عمَّا قريبٍ لَميِّتٌ ... ومَنْ ذا الذي يبقىٰ على الحَدَثانِ
كأنَّكَ بي أُنْعىٰ لديكَ وعندَها ... ترىٰ مَصرَعاً صُمَّتْ له الأُذُنانِ
فلا حَسَدٌ يبقىٰ لديكَ ولا قِلىً ... فتنطقُ في مدحِي بأيِّ معانِ
وتنظرُ أوصافي فتعلمُ أنها ... علتْ عن مدان في أعزِّ مكانِ

انتهىٰ .

(١) انظر « مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور » (١/ ١٣٩) .

وإنما كان الحاسد يمدح المحسود بعد موته ؛ لأن فضائل المحسود لا تظهر كلُّها إلا بعد موته حين يذهب الغلُّ والحسد ، وما دام حيّاً فالبشرية والحسد غالب ، فهو كالحجاب علىٰ عين البصيرة ، يمنع الحاسدَ من شهود فضائل المحسود .

[مطلبٌ

في أنَّ مقام العفو والصفح عن جميع الناس ليس لكل الأمة]

واعلم يا أخي أنَّ مقام العفو والصفح عن جميع الأمة ليس هو لكل الناس ، إنما هو لأفراد ؛ كالإمام الشافعي وأضرابه من العارفين[1] .

وقد سمع أخي الشيخ أبو العباس الحُرَيْثيُّ شخصاً يقول لآخر لا أبرئ لك ذمةً في الدنيا ولا في الآخرة ، فقال له أما تستحيي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير يحُلُّ الناس بشفاعته وأنت تربطهم بالمشاححة ؟! فقال الشخص : أستغفر الله ، وتاب إلى الله تعالىٰ .

فعُلِمَ : أنه لا يعمل بهـٰذا الأمر إلا مَنْ حفَّته العنايةُ والرحمة لعباد الله تعالىٰ ، والتعظيم لجناب الله ، والإكرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، **فالحمد لله ربِّ العالمين .**

---

(١) وقع في هامش (أ) : وللشافعي : [من البسيط]

من نال مني أو علقت بذمته أبـرأتـه لله شـاكـرَ منّتـه
أأرىٰ معوّقَ مؤمناً يوم الجزا أو أن أسـوء محمـداً فـي أمتـه

[محبتُهُ فداءَ جميع العلماء والصالحين بنفسه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : أنني أحبُّ أن أفديَ بنفسي جميعَ العلماء والصالحين من أن يضاف إلىٰ أحد منهم نقصٌ فيَعدَمَ الناسُ النفعَ بهم ؛ لكونهم حماةَ الدِّين بأفعالهم وأقوالهم ، وما دام الناس يعتقدون فيهم الخير والصلاح فالدِّين قائم ؛ لامتثال الناس أمرَهم ، ولا هـٰكذا الأمر إذا ظهرت نقائصهم ، وأحبُّ أن يجعل الناسُ الغِيبة التي يغتابونهم بها فيَّ ؛ لأني أسامحهم وغيري يشاححهم .

وهـٰذا خلق غريب لا يوجد إلا في أفراد من أهل العصر ، فالحمد لله الذي جعلني منهم ؛ فإني بحمد الله أنشرح بإضافة جميع النقائص إليَّ لو خُيِّرت بين إضافتها إليهم وإضافتها إليَّ ؛ لأتميز أنا عنهم بالنقص ويتميزوا هم بالكمال .

وقد نُسِبَ بعضُ الفقراء مرةً إلىٰ ضَرْبِ الزَّغَل[1]، فشقَّ ذلك عليَّ ، ووددت أنَّ ذلك كان نُسِبَ إليَّ دونه، فقبَّلت رُكْبَتَهُ بحضرة مريديه وأصحابه حين رأيتُهم تزلزلوا عن صحبته ، فقلتُ له بحضرتهم : الحمد لله الذي جعل في الوجود مَنْ يتحمَّل البلايا والمحن عن أهل عصره مثلَكم ، وأخبرتُهم : أنَّ الشيخ ما اتُّهم بذلك إلا تحمُّلاً للبلاء الذي كان واقعاً علىٰ أهل مصرَ ، فرجعوا عن تزلزلهم ، وقوي اعتقادهم فيه ، ولم يفعل ذلك معه أحدٌ في مصرَ غيري ؛ إما خوفاً علىٰ نسبتهم إليه ، أو بقصد حصول الإدمان له علىٰ تحمُّل البلايا الآتية

فعُلِمَ : أنَّ غاية أمر غالب إخوان الفقير اليوم إذا وقع في محنة . . أن

(١) الزَّغَل : الغشُّ

يتوجَّعوا له فقط ، وأما حسَّاده فربما يُشيعون ذلك عنه على وجه الشماتة ، ومَنِ ادَّعى الصلاحَ منهم وخافَ من إظهار الشماتة ؛ أنَّ الناس يَقِلُّ اعتقادهم فيه ويلوثون به . . ربما يقول : قد تَشوَّشنا مما وقع لفلان ، والحالُ أنَّ قلبه فرحانُ بذلك ، والناقد بصير .

وقد درج السلف الصالح على محبة أن يفدوا أصحابهم بأرواحهم فضلاً عن تحمُّل سماع كلامٍ قيل فيهم ؛ كما وقع : أنَّ أبا الحسين النوريَّ لمَّا قُدِّم الصوفيةُ لضرب رقابهم وبُسِط النِّطع لذلك في محنة وقعت لهم أيامَ أبي القاسم الجنيد . . تقدَّم للسيَّاف وقال اضرب عنقي قبل أصحابي ، فقال له السيَّاف لمَ ذلك ؟! فقال : لأُوثر أصحابي بحياة ساعة بعدي ، فتوقَّف السيَّاف ، وأنهى ذلك إلى الخليفة ، فأمر بإطلاق الكلِّ وقال : إن كان هٰؤلاء زنادقةً فما بقي على وجه الأرض مسلم[1]

فاعمل يا أخي على تحصيل هٰذا المقام بالسلوك على يد شيخ كامل في الطريق ، والله يتولى هداك .

[مسامحتُهُ لكلِّ مَنِ اغتابه ، ولمَنْ سمع بالغِيبة من المستهزئين]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : مسامحةُ جميع مَنِ اغتابني ولم تبلغني غِيبته ، كما أسامح من بلغني غِيبته كما مرَّ بسطه[2] ، وكذلك سامحتُ جميع من سمعه

(١) أورد القصة أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٣/ ٢٥٠) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٣٠) ضمن ترجمة النوري ، والقشيري في « رسالته » (باب الجود والسخاء) (ص ٥٣٧) .

(٢) انظر (ص١٩٥)

من المستهزئين ؛ لأني إن كنت لم أعلمهم فالله يعلمهم ، وإنما سامحتهم ؛ لكونهم تعدَّوا حدودَ الله بسببي من ورائي ، فخفت علىٰ دينهم أن ينقص بذلك .

وهٰذا الخلق غريب في أقراني ؛ لأنه يحتاج إلىٰ مراقبة زائدة لله تعالىٰ ؛ من حيث الاكتفاءُ بعلمه تعالىٰ ؛ لأنَّ كل ما يقع في الوجود بمَرْأىً من الله ومسمعٍ .

ولو تأمَّل العبد لوجد نفسه وجميعَ من يؤذيه ويستهزئ به كلَّهم بين يدي الله عز وجل وهو يرىٰ صنيعَهم ، لٰكن قلَّ من ينكشف حجابه حتىٰ يشهدَ ذلك .

وقد شتم شخص مرة سيدي أفضلَ الدين ، فلم يتأثر ، بل صار يتبسَّم ، فقلت له في ذلك ، فقال : العبدُ إذا علم من سيده أنه يأخذ له حقَّهُ من عبيده.. كيف يتأثر ؟! بل بعضهم يستحيي من الله أن يجيب عن نفسه بحضرة الله عز وجل ، اللهم إلا أن يتعلق بذلك غرض شرعي .

[مطلبٌ
في بعض فوائد عدم جواب الإنسان عن نفسه]

ومن فوائد عدم جواب الإنسان عن نفسه : رضا الله تعالىٰ ، وتوفيرُ الأجر عند الله تعالىٰ ، وعدمُ تحمُّل منَّةِ مَنْ يجيب عنه ، وإن كان ذلك مشروعاً في حقه هو

وكذلك في عدم تمكين أحد من الإجابة عني.. سدُّ باب خصومات

الإخوان بسببي ؛ وذلك أنَّ بعض الإخوان ربما أجاب عني بجواب فيه قدحٌ في مروءة الخصم ، أو قذفُ عِرْض له ، فيجيبه الآخر بنظير ذلك ، فينسياني ويشتغلان بأنفسهما

وقد كان بين شخصٍ من وعَّاظ جامع الأزهر وبين شخصٍ يكرهني عداوةٌ ، فبلغ الواعظَ أنَّ ذلك الشخص يحطُّ عليَّ ، فانتصب ذلك الواعظ للحطِّ علىٰ ذلك الشخص بسببي ، وجعلني من أولياء الله عز وجل ، وقال : إنَّ غيبة مثلي من الكبائر ، وأنا أعرف أنَّ ذلك الواعظ كان قليلَ الاعتقاد في فقراء هٰذا الزمان ، وإنما جعل الانتصار لي وسيلةً إلى الحطِّ علىٰ ذلك الرجل لا غيرُ

فإياك يا أخي أن تمكِّن أحداً يجيب عنك في هٰذا الزمان ؛ فإنَّ غالب القلوب فيها البغضاء والشحناء ، فيتولَّدُ من الجواب عنك عدَّةُ مفاسدَ .

وسمعت سيدي علياً الخوَّاص رحمه الله يقول : (ما ثَمَّ أقطعُ لكلام العدوِّ والحاسد فيك منِ اشتغالك بالله تعالىٰ لما يشتغل هو بك ؛ فإنَّ الله بيده ملكوت كل شيء ، وهو أقرب في زوال العداوة من عمل المكايد والحيل ومن السياقات عليه ليُصالحك) انتهى .

وسمعته مرة أخرىٰ يقول : (ما ثَمَّ للعدو والحاسد أحسنُ من السكوتِ عنه ، وعدمِ مقابلته ، لا سيما إن كان الشخص يدَّعي الصلاحَ ؛ فإنَّ مِنْ شرط الصالح أن ينظر إلىٰ خالق ذلك الكلام الذي تكلَّم به السفيهُ ، لا إلى السفيه مع غفلته عن الله تعالىٰ ، وذلك مشهد يورث الحياء عن ردِّ الجواب) انتهىٰ

وقد جرَّبتُ أنا أنَّ الفائدة في عدم ردِّ الجواب أكثرُ من الفائدة في ردِّ

الجواب ؛ وذلك أنَّ العدو والحاسد إذا رأىٰ خصمَهُ لا يجيبه . . يستحيي منه ولو علىٰ طول ؛ ببركة صبره عليه

فإن قيل : فما حكمةُ أمره صلى الله عليه وسلم حسانَ بن ثابت أن يُجيب عنه الكفار ؟![1]

فالجوابُ : حكمة ذلك طلب نُصرة الدين ، لا تشفٍّ للنفس ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم منزَّهٌ عن التأثُّر بكلامٍ قيل فيه في مرضاة الله تعالىٰ ، وفي الحديث عن عائشةَ رضي الله عنها (لم يكنْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يغضبُ لنفسِهِ ، وإنَّما يغضبُ إذا انتُهِكَتْ حرماتُ اللهِ) انتهىٰ[2]

واعتقادُنا فيه صلى الله عليه وسلم : أنه لو قام عليه جميعُ الخلق بالأذىٰ لاحتملهم ؛ اكتفاءً بعلم الله عز وجل ؛ لأنَّ من مقامه مشاهدةَ كونه في حضرة الحقِّ تعالىٰ على الدوام ، ومَنْ هو كذلك فلا يشهد في الوجود فاعلاً إلا اللهَ تعالىٰ

---

(١) روىٰ مسلم (٢٤٩٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اهجو قريشاً ؛ فإنه أشدُّ عليها من رشق النبل »
وروىٰ أبو داود (٥٠١٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسانَ منبراً في المسجد ، فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ روح القدس مع حسانَ ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) روىٰ أحمد في « مسنده » (٦/ ٩١) منه : (كان خلقه القرآن) ، ورواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٢) بلفظ : (كان خلقه القرآن ؛ يغضب لغضبه ، ويرضىٰ لرضاه) ، ورواه البخاري بلفظ : (ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء يؤتىٰ إليه حتىٰ يُنتهكَ من حرمات الله فينتقمَ لله) .

ثم في أمره حساناً أن يناضل عنه الكفارَ أيضاً استئناسٌ لضعفاء أمته الذين لا يحتملون كلامَ عدوِّهم فيهم ، فيجيبون عن أنفسهم بنفسهم وبوكيلهم ؛ خوفاً من تولُّد شرٍّ آخرَ أكبرَ من الأول ، أو وقوفاً مع ظاهر أمره صلى الله عليه وسلم حسَّاناً بذلك ، بقطع النظر عمَّا أراد بذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[إجلالُهُ للعلماء العاملين والأمراء والصالحين]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : إجلالي للعلماء العاملين والأمراء والصالحين ، فلا أدعوهم إلى الحضور لوليمة ونحوها إلا بشرط الإخلاص مني في دعائهم ، وعدمِ رؤية نفسي بذلك علىٰ غيري ، كما يقع فيه بعض المتشبِّهين بالفقراء ، والمتشيِّخين بالآباء والأجداد ، فيُجرِّد أحدُهم الأمراءَ ومشايخ العرب وغيرهم في عمل المولد ، ويسوق الأصاغر على الأكابر وعكسه ، ومَنْ لم يحضر حصل له من الأذىٰ ما لا خير فيه من النقباء والزوالق ، ويقولون له : لو أنك تحبُّ الشيخ لكنت حضرت ، ولـٰكنَّا نعرف أنك تكرهه ، فيحضر خوفاً من النقباء وغيرهم من غير نية صالحة ، وهـٰذا الأمر قد حدث في فقراء هـٰذا الزمان ؛ لجهلهم بطريق القوم

وقد جاءني شخص منهم يطلب مني كتاباً لبعض مشايخ العرب والكشاف ؛ أن يعطوه شيئاً من العسل والقمح ليعمل له بذلك مولداً ، فقلت له ترك ذلك أولىٰ ، فلم يسمع ، وأخذ عِدَّةَ كتب من غيري لعيسىٰ وعامر ، فأعطوه ، وعمل له مولداً ، ثم دعا الناس .

ولعمري ؛ لا يصلح عمل الموالد إلا للأولياء الأكابر الذين اشتَهرت كراماتهم ومناقبهم في المشرق والمغرب ؛ كالإمام الليث ، والإمام الشافعيِّ ، وسيدي أحمدَ البدويِّ ، وسيدي إبراهيمَ الدَّسوقيِّ ، والسادات من بني الوفا ، والشيخ أبي الحسن البكريِّ[1] ، رضي الله عنهم ؛ فإنَّ مثل هـٰؤلاء يعملون طعامهم من أوقافهم وأموالهم ، ولا يحتاجون لأحد من الظَّلَمة ليساعدهم في ذلك ، ثم يجذب الحقُّ تعالىٰ لهم قلوبَ الناس من الأكابر وغيرهم ولو لم يدعهم أحد ؛ لما يجدونه عندهم من الأُنس والمدد ، ولو أنه قيل لأحدهم : لا تحضرْ . . لا يجيب مَنْ نهاه

فهـٰؤلاء هم الذين يصلح أن يُعمَل لهم مولدٌ ؛ لأنه ليس هناك أحدٌ يراعيه هـٰؤلاء الحاضرون إذا حضروا إلا اللهُ عز وجل ، وموالدُ هـٰؤلاء الأشياخ محفوظة من طعام الحرام والشبهات ، بل يهيئه الحقُّ جل وعلا للحاضرين من حيث لا يحتسبون

وسمعت سيدي عليَّ الخوَّاصِ يقول (مَنْ حماه الله تعالىٰ من أكل الحرام والشبهات في حياته . . حفظه كذلك بعد مماته ، ومَنْ خلَّط في حياته خلَّط أولاده وأصحابه في عمل مولده بعد مماته ، وإن كانت تلك القاعدة أكثريةً لا كليةً) انتهىٰ .

واعلم يا أخي : أنَّ في دعاء العلماء والصالحين إلىٰ ذلك المولد عدةَ مفاسدَ

---

(١) في (أ) وحدها (محمد) بدل (أبي الحسن) ، ومحمد : هو ابن أبي الحسن رحمهما الله تعالىٰ

منها خوفُ لوث مشايخ البلد الذين لا يعملون مولداً به ، ويقولون كلُّ ذلك لغير الله تعالىٰ ، لا سيما إن غلب علىٰ ظنِّ الناس طلبُ مفاخرة الداعي لأقرانه بذلك ولو في نفسه .

ومنها تعريضُ ذلك العالم لنقص رأس ماله بالحضور ؛ لأنه ربما كان في عملٍ أفضلَ وأَولىٰ من الحضور في ذلك المولد ؛ كأن يؤلِّفَ في الشريعة ، أو يحرِّر فتوىٰ تقطع خصوماتِ الناس ، ونحوِ ذلك .

ومنها تعريضُ ذلك المدعوِّ إلىٰ وقوعه في الإثم إن لم يحضر إذا كانت الإجابة واجبةً ، أو في نقص الأجر إن كانت الإجابة سنةً ، ولو أنه لم يدعه ، أو دعاه علىٰ حكم عدم إلزامه بالحضور . . لكان له فيه فسحةٌ .

ومنها وقوعُ الداعي في الكِبْر إذا كان هو لا يحضر إذا دعاه أحد ، فيُذِلُّ إخوانه بإلجائهم إلى الحضور ، ويُكبِّر مقام نفسه ، وقد قالوا[1] : [من مخلع البسيط]

مَـــنْ جـــا إليـــكَ فَـــرُحْ إليـــهِ ومـــنْ نـــآكَ فصُـــدَّ عنـــهُ

أي : عملاً بالعدل والمقابلة

ثم بتقدير أنه يجيب إخوانه إذا دعوه فلا ينبغي له أن يرىٰ ذلك قد صار دَيناً له عليهم ، حتىٰ إنه يعيب علىٰ من تخلَّفَ منهم ولو لعذر ، بل يدعوهم لله عز وجل ، وقولُ بعض المغفلين إنما دعونا العلماء لنتشرَّف بهم . . عذرٌ بارد ؛ لأنه إنما يتشرف بالعلماء مَنْ يحضر هو دروسَهم ، ويستفيد من فوائدهم ، ويعمل بآدابهم

(١) البيت للإمام الشافعي . انظر « ديوانه » (ص ١٤٦) .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخوَّاصِ رحمه الله يقول (إياك أن تدعو أحداً من العلماء العاملين والأولياء والصالحين الذي طعنوا في السنِّ ؛ فإنهم أشرفوا علىٰ معترك المنايا ، وما بقي لهم وقتٌ يسع حضورهم للموالد ونحوها ، لا سيما إن طُلِبوا للنوم في ذلك المولد ؛ فإنه يحصل لهم بذلك غايةُ المشقَّة ، وربما كان لأحدهم عملٌ ليليٌّ لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ ، فإن فعله تلك الليلة خرج عن كونه سرّاً ونقص أجره ، وإن تركه بالكلية فلا يخفىٰ حكمه) انتهىٰ

فحرِّر يا أخي النية الصالحة في عمل المولد ، ثم ادع الناس ، وما رأيتُ مولداً يُعمَل في مصرَ أفضلَ من مولد شيخنا الشيخ نور الدين الشَّوْنيِّ رضي الله عنه ، فيحضر أصحابُهُ عند قبره كلَّ ليلةِ أربعاءَ من آخر الشهر ، فيقرؤون عند قبره القرآن والصلاة علىٰ رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ، ويذكرون الله تعالى إلى الصباح ، ويتعشَّون في بيوتهم ، ولا يحتاجون إلىٰ منَّةِ أحد في عمل طعام لهم ، وما هناك أحدٌ يراعونه في الحضور إلا اللهُ ، فرضي الله عنهم وعن شيخهم ، والحمد لله رب العالمين .

[وجودُ جماعات كثيرة يحبون الشعرانيَّ ويحبهم]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : وجودُ جماعات كثيرة يحبوني وأحبهم ، ويدعون لي في السجود وأدعو لهم ، ويقاسموني في حسناتي وأقاسمهم في حسناتهم بطِيبِ نفسٍ مني ومنهم

وأمَّا المعتقدون فيَّ الخيرَ فلا يُحصي عددهم إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا أعلم الآن بحمد الله أحداً من العلماء والصالحين يكرهني أبداً ، وإنَّما يكرهني مَنْ

في دينه نقصٌ من الحُسَّاد والمتكبِّرين ، وذلك لا يقدح في مقام المحسود ؛ لأنه لا بدَّ للمؤمن الكامل من ذلك فضلاً عن الناقص

[مطلبٌ
في سبب كراهة الناس لبعضهم بعضاً]

وأيضاً : فإنَّ سبب كراهة الناس لبعضهم بعضاً إنما هو المزاحمة على الأغراض النفسية الدنيوية لا غيرُ ، ولم يقع لي أنني زاحمتُ أحداً علىٰ دنيا ، ولا علىٰ ما يؤول إلى الدنيا ؛ من تدريس علم ، أو مجلس وعظ ، أو تَظاهَرَ بمعصية ؛ من زنىً ، وشرب خمر ، وترك صلاة ، وغِيبة في الناس ، ونحو ذلك ، فعلامَ يكرهوني ؟! فما بقي إلا الحسدُ ، وذلك مقرون بالنعمة لا ينفك صاحبها عن حاسد فيه ، لا يرضيه إحسان ولا غيره ، إنما يرضيه زوال النعمة ، فكلُّ مَنْ رأيتَهُ يُبغِض مَنْ لم يزاحم الناسَ على الدنيا ، ولم يتظاهر بمعصية . . فاعلم أنه حسوديٌّ ، وهي بغضاءُ بغير حقٍّ شرعي .

ولمَّا اختفى الإمام مالك رحمه الله أيامَ المحنة قال لابن القاسم : ما يقول الناس فينا ؟ فقال المحبُّ لا يقول إلا خيراً ، والمُبغِض بالعكس ، فقال الإمام مالك : الحمد لله ، ما زال الناس كذلك لهم المُحِبُّ والمُبغِض ولو كانوا في فضل الصحابة ، ولـٰكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلِّها بالذمِّ . انتهىٰ[1]

---

(١) روىٰ هـٰذه القصة أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢١) من قول مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ

[ذكرُ جماعة من المحبين والمعتقدين من العلماء الأحياء منهم والمنتقلين إلىٰ رحمته تعالىٰ]

وقد حبَّب لي أن أذكر للإخوان جماعةً من المحبين والمعتقدين من سائر أصناف الخلق ، وأخفيَ مَن طابت النفسُ بمقاسمتهم في الحسنات ؛ خوفاً من توغير صدور بعضهم بعضاً ، فأقولُ وبالله التوفيقُ

[مطلبٌ
في ذكر جماعة من المحبين المنتقلين إلىٰ رحمته تعالىٰ]

من العلماء المحبِّين لي ممن درجَ إلىٰ رحمة الله عز وجل الشيخ نورُ الدين الطَّرابلسي الحنفي ، والشيخ شهابُ الدين الفتوحي الحنبلي ، والشيخ شهابُ الدين بن الشلبي الحنفي ، والشيخ شمسُ الدين اللَّقَاني ، والشيخ ناصرُ الدين اللَّقَاني ، والسيدُ الشريف بزاوية الحطاب ، والشيخ شهابُ الدين الرملي ، والشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغمري ، والشيخ زكريا شارحُ « البهجة » ، وغيرُهم ممن ذكرناهم في « الطبقات » ، رضي الله عنهم أجمعين

[مطلبٌ
في ذكرِ جماعة من المحبِّين والمعتقدين من العلماء الأحياء]

ومن علماء الزمانِ الأحياء فسحَ الله في أجلهم للمسلمين : الشيخ ناصرُ الدين الطَّبَلاوي ، والشيخ شهابُ الدين البُلْقيني ، وسيدي محمدٌ الرملي ، وسيدي محمد البكري ، والشيخ شمسُ الدين البرهمتوشي ، والشيخ

نجمُ الدين الغَيْطي ، والشيخ سراجُ الدين الحانوتي الحنفي ، والشيخ بدرُ الدين الشهاوي ، والشيخ نورُ الدين الطندتائي ، والشيخ شمسُ الدين الشِّرْبيني الخطيب ، والشيخ شهاب الدين البُهوتي الحنبلي ، والشيخ ناصرُ الدين الدَّمَنهوري ، والشيخ حمدانُ ، والشيخ نورُ الدين النجاري ، والشيخ عمرُ بن الأمير الجندي الحنفي ، والشيخ شمسُ الدين المَسِيري الحنفي ، والشيخ زينُ العابدين بن نجيم ، والشيخ زينُ الجيزي ، والشيخ عبدُ القادر المرشدي ، والشيخ شرفُ الدين البُلْقيني الحنفي ، والشيخ نورُ الدين العسيلي ، والشيخ أبو الفتح الدَّمِيري المالكي ، والشيخ محيي الدين العجماوي ، والشيخ يحيى القرافي ، والشيخ نورُ الدين الجناني ، والشيخ أبو بكر الجبرتي ، والشيخ أحمدُ القلتي ، والشيخ بركاتٌ الشاذلي بإسكندرية ، والشيخ عبدُ المجيد السَّامولي بالمحلة الكبرىٰ ، والشيخ شمسُ الدين المُغَيْربي بثغر رشيد ، والشيخ بركاتٌ البَرْماوي ، والشيخ أمينُ الدين الميموني بمكة ، والشيخ شهابُ الدين بن حجر بها ، والشيخ شمسُ الدين بنُ أبي كثير بها ، والشيخ شمسُ الدين بنُ أبي الطيب بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وغيرُهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

[مطلبٌ
في ذكرِ جماعةٍ من المحبينَ والمعتقدين
من الصوفية ممَّنْ رحلوا إلىٰ رحمته تعالىٰ]

ومن الصوفية الماضين : سيدي عليٌّ المَرْصَفي ، وسيدي محمدٌ الشِّنَّاوي ، والشيخ أبو السعود الجارحيُّ ، والشيخ محمدُ بن داود

وأولاده ، والشيخ عبدُ الحليم بن مصلح ، والشيخ محمدٌ المنير ، والشيخ أبو بكر الحديدي ، والشيخ نورُ الدين الشَّوْنيُّ ، والشيخ محمدٌ العدل

وسيدي عليٌّ الخواص ، والشيخ محمدُ بن عنان ، والشيخ يوسفُ الحُرَيثي ، وولدُهُ الشيخ أبو العباس ، والشيخ أبو الحسن الغمري

والشيخ أحمدُ السطيحة ، والشيخ عبدُ القادر الدِّشْطَوطي ، والشيخ حسنٌ العراقي ، والشيخ عليٌّ أبو خودة ، وغيرُهم ممن ذكرناهم في « الطبقات » رضي الله عنهم أجمعين .

[مطلبٌ

في ذكرِ جماعة من المحبين والمعتقدين من الصوفية الأحياء]

ومن الصوفية الأحياء : الشيخ سليمانُ الخضيري ، والشيخ شهابُ الدين الوفائي ، والشيخ إبراهيمُ الذاكر ، والشيخ جمالُ الدين خليفةُ الشيخ شاهين ، والشيخ كريمُ الدين خليفة الشيخ دمرداش ، والشيخ زينٌ سبط سيدي علي المرصفي ، وسيدي عليُّ بن المنير ، والشيخ صالحٌ خليفةُ سيدي إبراهيم الدسوقي ، وسيدي إبراهيمُ شيخُ بيت السادات بني الوفا ، والشيخ زينُ العابدين بن الشيخ عبيد البُلْقيني ، وسائرُ أولاد الفقراء بمصر والريف ما عدا شخصٍ حسودي معروف عند الناس لا يحتاج إلىٰ تعيينه .

ومن نواب مصرَ : الباشا سليمانُ ، والباشا حصرف(١) ، والباشا قاسم، والباشا داود ، والباشا عليٌّ ؛ وهو أشدُّهم لي محبةً ، واستأذن في النزول

(١) في (ج) : (خصرف)

لزيارتي فلم آذن له ؛ أدباً معه ، وقضىٰ علىٰ يدي عدةَ حوائجَ للناس ، فجزاه الله خيراً ، وطلعت له القلعة مرتين ، فأجلسني علىٰ كرسي مغشّىً بالجوخ الأحمرِ ، وجلس هو علىٰ كرسيٍّ بلا غشاء ، وأمر بتقديم نعلي ، ولم يقع ذلك لأحد من فقراء مصر غيري ، حتىٰ شاع أنه ليس عنده أمثلُ مني .

ومن قضاة العسكر أحمد بيري ، والشريف عبدُ القادر ، وصالح ، وحامد ، ومحمدُ بن عبد الكريم ، ومحمدُ بن إلياسَ ، رضي الله عنهم .

ومن مشايخ العرب : محمدُ بن عمر ، وعيسى الجويلي ، وعامرُ بن بغدادَ ، ومحمد بن الخبير ، والجدامي[1] ، ومحمدُ بن زعير[2] ، وكردي

ومن الكشاف إسكندرُ ، وحمزةُ ، وسليمان ، وخضرٌ ، وحسن روس ، واختيار ، وغيرُهم ، ومن هٰؤلاء من لا يقرأ كتابي إلا واقفاً

ومن دفاتر مصر[3] : القاضي شرفُ الدين ، والأمير محيي الدين ابنُ أبي إصبعَ ، وأولادُهُ ، والدفتردار محمدُ من الأروام ، وأحمد ، وحسن .

ومن التجار : شرفُ الدين بن الأمير ، وأخوه محمدٌ ، وأخوه عليٌّ ، وسيدي يحيى الوراق ، والشريف محيي الدين الوراق ، وسيدي محمد البَرْماوي ، والخطيب الهرامزي ، وغيرُهم .

---

(١) في (ب ، ج) : (الجذامي) بدل (الجدامي) .

(٢) في (ج) وحدها : (زعتر) بدل (زعير)

(٣) في (ب) : (دفاترة) ، وفي (ج ، و) : (ومن القضاة) بدل (ومن دفاتر مصر) ، والدفتردار : الموظف المالي المكلف بتنظيم الوارد والمنصرف من أموال الحكومة . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٨٨)

ومن المباشرين الأروام محمدٌ كاتب الغربية ، وسليمانُ جلبي كاتب الخزانة ، ومحمد كاتب الجيش ، وباكير ، وغيرهم

ومن المباشرين من أولاد العرب : سيدي أحمدُ الراشدي ، وسيدي شرفُ الدين بن بَهْرامَ ، وسيدي أصيل الفرنوي الذي لا يعجبه أحد ، وسيدي أبو البقاء السلمي ، وسيدي إبراهيمُ القلقشندي ، وسيدي محمدُ بن الموفق ، وسيدي أبو الفضل صهر الحنفي ، وسيدي شرفُ الدين الخطيب ، وسيدي أبو البقاء بنُ القاضي بركات ، وسيدي محمدٌ العبادي ، وسيدي عفيفُ الدين العبسي ، وغيرهم

ومن العمال : سيدي يحيى بنُ العامل ، وولدُهُ سيدي نجمُ الدين ، وسيدي بهاءُ الدين بن الأصفر ، وسيدي يحيى بن عبد الباسط ، وسيدي أبو العز بن طبيلة ، وصاحبُهُ البديوي شعبان ، وصلاح الدين الألماطي ، وغيرُهم

فكلُّ هٰؤلاء كانوا من المحبِّين على اختلاف طبقاتهم ، ويقبلون شفاعاتي ، مع أنه لا سرَّ لي ولا برهان ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[وجودُ جماعة يكرهون الشيخَ على الدوام ؛ وذلك ليحصل له الأجرُ]

ومما منَّ الله به عليَّ وجودُ جماعة يكرهوني ولا أكرههم ، ويسيئون إليَّ وأحسنُ إليهم ، ويؤذُوني ولا أؤذيهم ، وفي ذلك من المصالح ما لا يخفىٰ علىٰ من نصح نفسَهُ ؛ فإن الأعداءَ كلما نَقَصوا العبد فتحوا له باب شهود النقص في نفسه ، وزال عنه وَلَهُ الإعجاب ، وتطيبُ نفسي أن

تقاسمَهم في الحسنات كلما أكثروا من الإساءة عليَّ ومن الأذىٰ لي ، وهـٰذا الخُلقُ من أكرم أخلاق الرجال من المريدين ؛ فإن المحبين والمحسنين يستحقون المحبةَ لهم ومقاسمتَهم في الحسنات ؛ لمحبتهم وإحسانِهم ، بخلاف العدو المؤذي ، فقلَّ أن تسمح نفسٌ بمحبته فضلاً عن مقاسمته في الحسنات

وقد تمنَّى الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه يجد محبّاً له يقاسمه في حسناته ومالِهِ ، فلم يظفر به ، ولعله بحسب شرطه هو اللائقُ بمقامه ، وأنشد في ذلك[1] [من الطويل]

أُحبُّ مِنَ الإخوانِ كلَّ مُوَاتي ... وكلَّ غضيضِ الطَّرْفِ عن عثراتي
يـوافقُنـي فـي كـلِّ أمـرٍ أَرومُـهُ ... ويحفظُنـي حيّـاً وبعـدَ ممـاتـي
فمَنْ لي بهـٰذا ليتَ أنِّي أصبتُهُ ... فقـاسمتُـهُ مـالـي مـعَ الحسنـاتِ

انتهىٰ

وإيضاحُ الطريق إلىٰ وصولك يا أخي إلىٰ سماحة نفسِك بمقاسمة عدوك في الحسنات مع كثرة إساءتِهِ عليك وإيذائه لك العملُ علىٰ صحة الإيمان بأحوال يوم القيامة حتىٰ تشاهدَ ذلك كأنه رأيُ العين ، وحينئذ تشهد : أن اللهَ تعالىٰ يُحَكِّمك في حسنات من آذاك في دار الدنيا ، فتأخذ منها ما شئتَ ، وترمي عليه من أوزارك ما شئت ، وإذا شهدتَ ذلك لم تتوقفْ يا أخي في مقاسمتِهِ في حسناتك في دار الدنيا ، كما أنه أهدىٰ حسناتِهِ في الدنيا إليك وإن لم يقصد هو ذلك ، فهو يحسنُ إليك كَرْهاً عليه ، وأنت تحسنُ إليه

---

(١) ديوان الشافعي (ص٥٩)

طوعاً منك بطيبة نفس ، وإذا وجد الأثرَ من إحسانه إلينا في الدنيا بتحكيم الله لنا في حسناته يومَ القيامة . . فلا فرقَ بين كون ذلك كرهاً عليه ، أو طوعاً منه ؛ لأنه محسنٌ إلينا على كل حال .

فصاحبُ هذا المشهد موقنٌ بإحسان من أساء إليه أكثرَ ممن أحسنَ إليه وأحبَّهُ ؛ لأن هذا ولو أحبَّ فقد لا تسمح نفسُهُ لك بأن تصير شريكاً له في حسناته ، بخلاف مَنْ أساء ، فإن النصَّ ورد بتحكيم خصمه في حسناته[1]

فعُلِمَ : أن من أراد التخلُّق بما ذكرناه فلا بد له من مقدِّمتين أن تسمح نفسُهُ لأخيه بماله ، ثم بأعماله ، فمن لم يسمح بالمال لا يَشَمُّ من طيب نفسِهِ بمقاسمة أخيه في أعماله رائحةً ، وهذا الخلقُ لم أجد له ذائقاً ولا فاعلاً من أقراني ، بل ولا تسمح نفوسُهم لمن يحبُّهم بمقاسمته لهم في الأعمال فضلاً عمن يكرههم ، وهو خلقٌ خاصٌّ بمن تخلَّقَ بالرحمة على جميع العالم ، وصار يرى للذي عليه من الحقوق ، ولا يرى للذي له

وقد ذكرتُ مناقبَ جماعة من العلماء ومتصوفةِ الزمان في « الطبقات » ، ووصفتُهم بالولاية والصلاح ، ولا يقدر أحدٌ منهم يسمع لي ذكراً فضلاً عن

---

(١) وهو الحديث المشهور الذي رواه مسلم (٢٥٨١) في الذي يأتي يوم القيامة مفلساً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

كونه يحبُّني أو يقاسمني في حسناته ، ولو أنني كنتُ نقصتهم ما قدرتُ على النطق بمدح أحد منهم[1] ، كما لا يقدرون على النطق بمدحي ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

ثم إني مع طيب نفسي بمقاسمة من أساءَ إليَّ وآذاني . . لا أرىٰ لي فضلاً عليه ، بل ربما أرىٰ له الفضلَ عليَّ بكونه صار ممقوتاً بين الناس بسبب إيذائِهِ لي ؛ **فإني لا أعلم أحداً آذاني في مصرَ إلا وحصلتْ له المقابلةُ من الله تعالىٰ**

إما بهتك ستره بين الناس عاجلاً

وإما بكونه صار مقراضاً في أعراض الناسِ يتعاونُ فيهم عند الولاة حتىٰ لا يخلُصَ له في الآخرة حسنةٌ واحدة ؛ لكثرة أصحاب الحقوق عليه يومَ القيامة ، وهـٰذا من أعظم مقتٍ يقعُ

وإما بكونه وقع في الكفر ثم حقَنوا دمَهُ

وإما بكونه لم يقم من المجلس الذي آذاني فيه حتىٰ عزَّره الحاكمُ بوقوعه في قذف عِرْض غيري

وإما بكونه صار ممقوتاً في عين كلِّ مَنْ يراه

وقد جُمعت هـٰذه الخصال كلُّها في شخص معروفٍ في البلد ، فكيف أرىٰ نفسي علىٰ مثل هـٰذا بمقاسمته في حسناتي وقد حصل له من تحت رأسي هـٰذا البلاءُ العظيم ؟!

(١) في (ج) (بغضتهم) بدل (نقصتهم)

[مطلبٌ

في أنَّ من شرط الفقير : أن يكون معتمداً على الله تعالىٰ دون أعماله]

فلا تستعظمْ يا أخي هـٰذا الخلقَ على الفقراء ؛ لأن من شرط الفقيرِ : أن يكون معتمداً على الله تعالىٰ دون الأعمالِ ، فهو لا يبالي لو لقيَ اللهَ تعالىٰ وهو صِفْرُ اليدين من سائر الأعمال الصالحة ما عدا التوحيدَ لله تعالى والرضا بأقداره .

وإيضاحُ ذلك : أن كلَّ عارف يرىٰ أن اللهَ تعالىٰ هو المالكُ الحقيقي للأموال والأعمال ، ويرى الفضلَ لله تعالى الذي جعله مَحلاً لبروز الأعمالِ ، فكما أنه تعالى استخلفَ عبدَهُ في الأموال ينفقُ منها على العباد بالطريق الشرعيِّ من غير أن يرىٰ لنفسه بذلك منَّةً علىٰ غيره . . فكذلك القولُ في الأعمال ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[نَفْرَتُهُ وعدمُ إصغائه إلىٰ مَنْ يزعم أنه يعلم علم الكيمياء وفتح المطالب]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ إصغائي إلىٰ قول من يدعي أنه يعرف علمَ الكيمياء الصحيحةِ ، أو مَنْ يقول : إنه يقدِرُ علىٰ فتح المطالب ، وهـٰذا من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ ، فقد تلِفَ بذلك خَلْقٌ كثير ، وأتلفوا ما كان معهم من الدنيا في شراء العقاقير والبخورات ، وحفر الكِيمان ، وصاروا لا دنيا ولا آخرةَ ، وكلما يطبخون طبخةً تطلع زَغَلاً[1] ، فيقول

(١) الزغل : الغش .

لهم النصابُ : إن شاء الله تصحُّ الطبخة الثانية

وقد أخبرني القاضي أبو البقاء البارزي : أن شخصاً اسمه : الفتوحي نَصبَ عليه حتىٰ صرف من يده في ثمن حوائج الطبخ أربعينَ ألفَ دينار

وكذلك سيدي محمد ابن أبي شعرة الماوردي أعطى النصابين سبعة وعشرين ألفَ نصف ، وذلك أن النصابَ يعرف علمَ السيمياء[1] ، فقال له إن في قاعتك مطلباً ، ومقصودي أفتحُهُ لك ، وتصيرُ أنت تنقل منه علىٰ طولٍ كلما أردتَهُ ، فأطلق له دخاناً ، فرأىٰ كنزاً عظيماً فيه أتلالُ الذهب ، وفي وسطه سريرٌ قوائمُهُ من ذهب ، وعليه شبكة من اللؤلؤ ، والملكُ صاحب الكنز نائمٌ عليه مغطىً بالحرير ، ثم إن النصاب خرج وتركه ، فلم يجد بعده شيئاً

ثم إنه يقال للذي يزعم أنه يعرف الكيمياءَ : لا تخلُص ذمتُك إلا إن أخبرت الناس أن تلك الدنانير من شغلك بيدك ، وهناك يُعرِّض نفسَهُ للقتل أو النفي .

وقد زَيَّن إبليسُ لجماعة يدعون معرفةَ الطريق حتىٰ صاروا زُغلية ، وقال لهم إنَّ الناسَ لا يعتقدون فيكم إلا الخيرَ ، ولـٰكن أخفُوا العملَ عن الناس ، فجعلهم يخافون من الخَلْق أكثرَ من الله تعالىٰ ؛ فإنهم لا يعملون الكيمياءَ إلا في موضع لا يراهم فيه إلا اللهُ ، فجعلوا نظرَةُ إليهم أهونَ من نظر العباد إليهم ، فلا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم .

---

(١) السيمياء علم كالكيمياء ونحوه ، إلا أن الكيمياء : تعني المطبقة على المعادن ، والسيمياء : العلم المطبق على النبات

واعلم يا أخي : أن كيمياءَ السلف إنما كانت بواسطة أن اللهَ تعالىٰ أعطاهم حرفَ (كُنْ) ، فجعل لهم نصيباً في الدنيا ممَّا يعطيه لهم في الآخرة ، فلا تظنَّ أنهم كانوا يعملون ذلك بشراء حوائجَ من العطارين كمن يُنكِحُ سُهيلاً الثُّريا(١) ، وبعضُهم كان بدنه يتجوهرُ حتىٰ تتجوهر فضلاتُهُ ، فيبول على الرصاص فيصير ذهباً لوقته .

وقد وقع لسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أن مملوكاً للسلطان هرب عنده من القتل ، فبلغ ذلك السلطانَ ، فأرسل له إلىٰ مدينة إسكندرية يقول له : ما عهدنا بالمشايخ تُتلِف عسكرَ السلطان ، وإنما عهدنا بهم أن يُصلحوا ، وكان الشيخُ قد أدخل المملوكَ الخلوةَ ، فقال الشيخ لقاصد السلطان : ايتني من حاصل السلطان بما شئتَ من الرصاص ، فأتاه به ، فجعلَهُ في مِيضأة مسجد فارغةٍ من الماء ، وأخرجَ المملوكَ من الخلوة وأمرَهُ أن يبولَ على الرصاص ، فبال عليه فصار ذهباً خالصاً ، فقال للقاصد : هـٰذا إصلاحٌ وإلا إفسادٌ ، ثم أمر بحمل ذلك الرصاص الذي صار ذهباً إلى السلطان صحبةَ المملوك ، فنزل السلطانُ لزيارته وصار يتملَّقُ إليه

---

(١) يشير المؤلف إلىٰ بيتين قالهما عمر بن أبي ربيعة (من الخفيف) ؛ وهما :

أيُّها المنكح الثُّريا سُهيلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني

قال أبو عبيد وأخبرني هشام بن الكلبي أن سهيل بن عبد الرحمـٰن بن عوف تزوج الثريا ، فجعل النجوم مثلاً ؛ لاتفاق أسمائهما بالنجوم ، ثم قال : هي شامية ؛ أي : إذا ارتفعت اعترضت ناحية الشام ، وسهيل إذا استقل يماني ؛ لأنه يعلو من ناحية اليمن ، فسمىٰ تلك شامية وهـٰذا يمانياً ، وليس منهما شامي ولا يماني ، إنما هما نجوم السماء . انظر « غريب الحديث » (٢/ ١٦٣) .

ليطلعه علىٰ سرِّ الصنعة ؛ فأَعلمَهُ أنه ليس كلُّ من أطلعه الله تعالىٰ عليها يأذنُ له في فعلها ، ولا كلُّ من صار بولِهُ يَقلِبُ العينَ يصح له أن يفعلَ بذلك كلَّ ما يريد ، ولو أنني أذنتُ لمملوكك هـٰذا أن يعمل بها لا يُؤذنُ له في عملها ، فاعتقده وردَّهُ السلطانُ إلىٰ مصرَ . انتهى .

فاعمل يا أخي علىٰ تجوهر بدنك بالأعمال الصالحة والشيم المرضية ؛ حتىٰ تصعدَ صحيفتُكَ كلَّ يوم إلى السماء مُضمَّخةً بالمسك والعنبر ، ولا يصيرَ لك عملٌ يكتبه كاتبُ الشمال أبداً ، وأنا أضمنُ لك أن الله تعالىٰ يعطيك ما تُؤمِّله من خير الدنيا والآخرة ، فضلاً عن شيءٍ خسيسٍ أمرَكَ اللهُ تعالىٰ بالزهد فيه .

وقد بلغنا : أن شخصاً جاء إلىٰ سيدي الشيخ أبي العباس المرسي : فقال أريدُ أن أُعلِّمَك صنعةَ الكيمياء لتنفقَ منها على الفقراء ، فقال له : يا أخي ؛ إنَّا قد صحبنا أقواماً كان أحدُهم يهُزُّ شجرةَ الشوك فتمطرُ ذهباً حتىٰ يملأَ الأرض فيلتقطه الناس ، فلا نحتاجُ إلىٰ كيميائك[١]

وجاء شخصٌ إلىٰ سيدي أحمدَ الزاهد ، فقال أريد أُعلِّمك الكيمياءَ لتنفقَ منها علىٰ هـٰؤلاء الفقراء القاطنين عندك والواردينَ عليك ، فقال له سيدي أحمدُ : إذا كان الفقراءُ يزهدون في الذهب المضروب ولا يمسكونَهُ فكيف يتعبون في علم كيميائك ، ثم إنَّ الشيخَ دخل بالرجل ومعه الشيخُ عباسٌ السَّنْدَبَسْطيُّ النقيبُ إلى المطبخ ، فقال للنقيب : احملْ هـٰذا الحجرَ الذي يتوضأ عليه الناسُ في الميضأة فضَعْهُ في القِدْرِ الذي يطبخ الفقراء فيه ،

---

(١) أورده ابن عطاء « لطائف المنن » (ص٩٤)

فوضعَهُ فيه ، ثم أخذ سيدي أحمدُ شيئاً من تراب الأرض وقال : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، ووضعه على الحجر ، فصار ذهباً لوقته ، فاندهش الرجل ، قال الشيخ عباسٌ ثم أمرني الشيخُ برمي الحجر الذهبِ في بيت الخلاء ، فرميتُهُ فيه ، فأصبح الناسُ يُلقِّبونه بالزاهد ، ولم يكن هـٰذا اللقبُ له قبل ذلك

وحكىٰ لي الشيخ شمسُ الدين الصَّعيدي أحدُ جماعة سيدي محمدِ ابنِ أخت سيدي مَدينَ شيخِ سيدي عليٍّ المَرْصَفيِّ والجماعةِ قال دخل إلينا مغربيٌّ وسيدي محمدٌ ساكنٌ في مدرسة أم خوند بخط بين السُّورين ، فرأىٰ عنده جماعةً كثيرة من الفقراء ، فقال : مقصودي أُعلِّمك الكيمياءَ ، ولـٰكن أعطني عشرةَ أنصافٍ أشترِ لك بها حوائجَ من العطار ، فقال يا أخي ؛ أكمِلْ جميلَكَ واشترِ لنا من عندك وادخل هـٰذه الخلوة واعمل فيها ، ثم قال الشيخ للجماعة : مقصودي ألقي عليه شيئاً من الحال ، فيخرج صائحاً ، فمكث نحوَ عشرِ دَرَجٍ ؛ وإذا به صائحٌ في الخلوة : افتحوا لي البابَ ، ففتحوا له ؛ فإذا هو محروقُ اللحيةِ والحواجبِ ، مسلوخُ الوجه مِنْ تَعلُّقِ الكبريت فيه ، فقال له الشيخ شيءٌ فيه هـٰذا لا نريده ، اذهبْ لحال سبيلِك . انتهىٰ

واعلم يا أخي : أن أصحابَ هـٰذا الفنِّ لم يزالوا يبخلون به ، ولا يُعلمونه لأحدٍ ؛ إما لعزته عندهم ، وإما خوفاً علىٰ من يُعلِّمونه من الشنق والقتل ؛ فإنه إن صحَّ ذلك معه قتله السلطان ، وإن لم يصحَّ قتله كما مرَّ[1]

---

(١) انظر (ص٢٢٠) .

وقد خدمَ بعضُهم سيدي أفضلَ الدين عشرَ سنينَ ليُعلمَهُ ، فلم يسمح له بذلك ، وكان من أكابر الدولة ، وقد رأيته يُقدِّم لسيدي أفضلِ الدين نعلَهُ ، فقال لي سيدي أفضلُ الدين : هـٰذا مجنون ، يريد مني أنني أعلمُهُ الكيمياءَ وأفشي سرَّ اللهِ تعالىٰ في العالم . انتهىٰ .

ثم قال لي : (إن أصحابَ هـٰذا الفنِّ من عهد جابرٍ مأخوذٌ عليهمُ العهدُ ألا يذكروا قط في كتب الفنِّ تدبيراً كاملاً[١] ، وإنما يُسقطون منه أركاناً وشروطاً في العمل ، ويَكِلون علمَ ذلك إلى العلماء به ، وجميعُ ما يقولونه من الرموز وأسماءِ العقاقير مرادُهم به غيرُ ما يعرفه الناس)

وقد رأيتُ إنساناً سمع بقولهم (يُؤخذُ دُهنُ القمح الصَّعيدي وقافُ الراء الأحمر) ، فاستخرجَ القمح وخلَطَهُ بزُنْجُفْر[٢] ، فأعلمتُ بذلك سيدي أفضلَ الدين ، فضحك حتىٰ مالتْ رأسُهُ ، وبعضُهم سمع بالأطرون[٣] ، فأخذه ونقعه في خابية كبيرة ، وبعضُهم سمع بقشر البيض ، فجمع له منه نحوَ مِكْتل وأضافه إلى الرصاص[٤] ، وكلُّ ذلك خُباطٌ[٥]

وسمعتُ سيدي أفضلَ الدين يقول (لا يصحُّ علمُ الكيمياء إلا لمن زهدَ في الدنيا حتىٰ صار الذهبُ عنده كالرماد علىٰ حدٍّ سواء ؛ فإنه من علم

---

(١) المراد بجابر : هو جابر بن حيان .

(٢) الزُّنْجُفْرُ : معدن بصاص حاصل من ازدواج الزئبق بالكبريت « المعجم الوسيط » (ز ن ج ف ر) .

(٣) الأطرون : ملح معروف .

(٤) المِكْتل : الزنبيل ؛ يسع خمسة عشر صاعاً ، يحمل فيه التمر أو العنب .

(٥) الخُباط : داءٌ كالجنون .

الحكمةِ ، والحكمةُ لا تدخل قلباً يحبُّ الدنيا)[1]

وسمعته مرة أخرىٰ يقول : (كلُّ شيء في الوجود إذا أضفته إلىٰ آخرَ علىٰ مقدار ووزنٍ معلومٍ صار ذلك حجراً مُكرماً ؛ فالسرُّ في معرفة قَدْرِ ما يُضافُ مِنْ كل شيء إلى الآخَر ، وذلك يختلفُ باختلاف الأعيانِ)

قال : (وربما صحَّ ذلك مع بعضهم بحكم الاتفاق ، فتَشْرَهُ عينُهُ ، فيعيد العملَ بزيادة أو نقص ، وينسىٰ تحريرَ المقدار الذي كان وضعَهُ أوَّلاً ، فيصيرُ يعمل زَغَلاً إلىٰ أن يموت)

ومما وقع لي مع سيدي أفضل الدين : أنه جاءني يوماً وقال لي ليس عندي أحدٌ الآنَ في مقامك في المحبَّةِ ، وأريد أن أُعلِّمَكَ صنعةَ الكيمياء الصحيحة التي علَّمني اللهُ تعالىٰ إياها من طريق الكشفِ ، وأعملَها بحضرتك في خمس دَرَجٍ ، فقلتُ له : إن خاطري ينفِرُ من ذكر ذلك فضلاً عن العمل به ، فقال لي : إنك رجلٌ فقيرٌ وعندك من هـٰؤلاء الفقراءِ نحوُ مئة نفسٍ ، وليس لكم رزقةٌ ولا رزقٌ معلومٌ ، وأخاف عليكم أن تقعوا في الرياء لمن يُحسنُ إليكم ، فقلتُ له : الذنوبُ المتعلقة بالله أهونُ عليَّ مِنْ عمل شيء ربما يدخله غشٌّ للخلق ، فقال لي : إذا احتجتَ إلىٰ شيء للعيال ولم يفتحِ اللهُ لك بشيء ماذا تصنع ؟ فقلتُ له : أُوقدُ تحت كانون طباخٍ ولو برغيف وأفرِّقُهُ علىٰ عيالي لقمةً لقمةً ، ويُنزل الله فيه البركةَ ، فلما عجز عن طاعتي له ولَّىٰ مظهراً للغيظ مني ، فتغيرتُ لأجله ؛ لما كنتُ أجد عنده من

(١) هـٰذه المقولة وما بعدها في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٢٠٧) من قول سيدي عليٍّ الخواص رحمه الله تعالىٰ

الفوائدِ التي لا أجدُها عند أحدٍ في مصرَ غيره ، وبلغني بعد ذلك أنها كانت مكيدةً وأني لو أطعتُهُ ما كان يُعلِّمُني شيئاً

فلما جاءني بعد يومين قلت له : لا تأخذْ عليَّ في مخالفتي لك ذلك اليومَ ، فقال : والله ؛ ما كنتُ أريدُ أن أعلِّمَك شيئاً ، وإنما قصدتُ اختبارَكَ ؛ فإني عاهدتُ الله تعالىٰ ألا أصحبَ أحداً يحبُّ الدنيا ، وقد ملأتُ عينَيَّ منك من ذلك اليوم ، فقلتُ له الحمدُ لله ، ثم قلتُ له : من كان شيخكم في معرفة ذلك ؟ فقال : لم يكن لي شيخٌ ، وإنما أعطاني الله تعالىٰ علمَ ذلك وأنا صغير في المكتب ، وألَّفتُ فيه كتباً وأنا ابنُ ثمانِ سنين ، لو اطَّلع عليها جابرٌ صاحبُ العلم لتلمذ لي ؛ فإني دبَّرتُ ما لم يصحَّ له عملُهُ في أربعين يوماً . . في لحظة .

قال : ولما حججتُ اجتمعتُ بالشيخ محمدِ بن عراقٍ وكان مشهوراً بالزهد والورع ، فأوهمتُهُ أنني أعرف الصَّنعةَ فخدمني خدمةً عظيمةً حتىٰ كاد يسجد لله شكراً على اجتماعه عليَّ ، فقلتُ له : أما يستحي أحدُكم من الله كيف يظهر الزهدَ في الدنيا للناس وهو يحبُّها ، فندم واستغفر وتاب علىٰ يديَّ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

وأما الاشتغال بفتح المَطالب : فلا يقع فيه إلا مَنْ مقتَهُ اللهُ تعالىٰ

وقد أخبرني سيدي عليٌّ الخوَّاصُ أنَّ أصحابَ الكنوز أخذوا العهد علىٰ خُدَّامها الرَّصَدِ عليها ألا يطيعوا في فَتْحِها مَنْ عرف عزيمتها وبَخُورها إلا إن كفر وخرج من دين محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ إما بالوضوءِ بالبول والسجودِ للصنم ، وإما بكتابة أسماء الله تعالىٰ ثم يمحوها بالبول ، ونحوِ

ذلك ، فإن وقع أن بعضَ المغاربة صحَّ له فتحُ مَطْلبٍ فإنما هو بعد كفرِهِ وخروجِهِ عن دين الإسلامِ .

وقد أخبرني شخصٌ ممن يعاني هـٰذا الفنَّ أن الخُدَّام مأخوذٌ عليهمُ العهدُ ألا يفتحوا الكنوز إلا للمهدي عليه السلام ، وبعضَ الخُدَّام يستهزئ بمَنْ يريد فتحَ المَطْلب ، ويقولون له : هـٰذا ما يُفتحُ إلا إن أتى الإنسانُ بنملة حامل لها خمسُ شهور ، ونحوَ ذلك من الخرافات ، فيصيرُ ذلك الإنسانُ يَحبِسُ النملَ عنده ، ويصير يراقب النملَ ليلاً ونهاراً لينظرَ النملَ الذي يركب بعضُه بعضاً حتىٰ يحملَ ، فيُتْعِبُون مثلَ هـٰؤلاء في الفارغ المشغول ، ويسخرون بهم ، فإياك يا أخي من مثل ذلك ثم إياك .

وإنما بسطتُ لك يا أخي الكلامَ في هـٰذه المنَّة بعضَ البسطِ ؛ مبالغةً في تنفيرك عن مثلِ ذلك ، وشفقةً علىٰ دينك ودنياك ، فاللهُ يُلهمك العملَ بوصيتي ، وإن اجتمعتَ علىٰ أحد من مشايخ العصر الصادقين الكُمَّل ، وصرتَ تحت تربيته حتىٰ يفطمَكَ عن محبة الدنيا ويأذن لك . . حصلَ لك الخيرُ التامُّ ؛ فإن الشيخَ لا يأذنُ لأحد إلا بعد فطامه عن الدنيا الفطامَ الكامل ، فإياك أن تظنَّ بأحد ممن أذنَ له الأشياخُ في مصرَ أو غيرِها أنه يحبُّ الدنيا ؛ إنما ذلك خاصٌّ بمن لم يُؤذنْ له ، والله غفور رحيم

[تَساوي الذهبِ والترابِ عنده من صغره]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ من صغري : تساوي الذهب والتراب عندي علىٰ حدٍّ سواء ؛ من جهة عدمِ الفرحِ به إذا كان عندي ، ولو أن البغلةَ دخلتْ داري محمَّلةً ذهباً من مَطْلب لأخرجتها ، ولو أن السماءَ أمطرتْ ذهباً ما وجدتُ

عندي داعيةً لأنْ ألتقط منه شيئاً ، ولو أنني مررتُ علىٰ أتلال الذهبِ والفضةِ من غير مُزاحمٍ عليها في الدنيا ولا حساب عليها في العقبىٰ . . لم أُطأطئْ لأخذِ دينار منه إلا لحاجة ضرورية في ذلك اليوم فقط ، ولم أتناول منه شيئاً لحاجة بعد غدٍ

ولو أنه كان عندي إِرْدبٌّ من الذهب فسُرِق[1] . . لم تتغير مني شعرةٌ لأجله ؛ كلُّ ذلك احتياطاً لنفسي وهوانها في عيني ، وخوفاً مِنَ الوقوف للحساب ، لا لعلة أخرىٰ ، وأرجو من فضلِ الله تعالىٰ دوامَ ذلك معي إلى الممات

فعُلِمَ : أنَّ الفقيرَ الصادقَ إذا أمسك الدنيا عنده . . فليس ذلك لمحبته لها ، وإنما ذلك أدبٌ مع الله تعالى الذي جعلَ حوائجَ الدنيا تُقضىٰ بها ، فافهم ؛ ولذلك احتثىٰ أيوبُ عليه السلام من الذهب لما أمطرتْهُ السماءُ ؛ لعدم خوفه علىٰ نفسه من تَبِعَته[2] ، فاعلمْ ذلك ، وإياك أن تستبعدَ علىٰ فقير ما ذكرناه ؛ من تساوي الذهب والتراب عنده ؛ فإن ذلك من مقام المريدين فضلاً عن الأشياخ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[كثرةُ شفقته على المسلمين وولاةِ الأمور]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : كثرةُ الشفقة على المسلمين وولاةِ أمورهم ، حتىٰ إني أحوطُهم كلَّ يوم وليلة بما ورد من الآيات والأخبار ، حتىٰ إني أحوطُ جسورَهم أيامَ النيل ؛ خوفاً من أن تنقطعَ قبل أوانها ، أو يقطعَها العصاةُ

(١) الإِرْدبُّ : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ستَّ ويبات .

(٢) روىٰ ذلك البخاري (٢٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فيَعدَمَ الناسُ رِيَّ أراضيهم ، أو يُشرَّق بعضُها[1]

وكذلك أحوطُ زروعَهم من الدودة والفأر ، وكذلك أحوطُها من لحوق الآفاتِ بها ؛ كالهياف[2] ، وكذلك أحوطُ زهرَ الفواكه والخَضراواتِ ؛ خوفاً من الحرِّ الشديد أن يسقطَهُ ، فيخسرَ الذين يَزِنون علىٰ ذلك معجَّلاً ، وكذلك أحوط مَنْ يغفُل عن الله تعالىٰ من رَعاعِ الناس في مثل يوم خروج المَحْمِل ، أو كسرِ النيل ، أو خروجِ الحُجَّاج ، أو عملِ عرس ، أو دخولِ نائب جديد إلى البلد[3] ، ونحوِ ذلك ، فأحوطُ هـٰؤلاء ، وأحوطُ دورَهم وحوانيتَهم من اللصوص أن يسرقوا حوائجَهم في غيبتهم عن أماكنهم .

وقد رأيتُ في واقعة وأنا شابٌّ أنني شربتُ من عين تتفجَّرُ من العرش ماءً أحلىٰ من العسل ، وأبردَ من الثلج ، فقصصتُ ذلك على المُعبِّر[4] ، فقال تتخلَّقُ بالرحمة علىٰ جميع العالم ؛ لأن الحقَّ تعالىٰ ما ذكر أنه استوىٰ علىٰ عرشه إلا باسمِهِ تعالى (الرحمـٰنِ) انتهىٰ ، فلكلِّ مخلوق عندي رحمةٌ تناسبُ حالَهُ من مؤمن وكافر ، وهـٰذا الخلقُ من أعظمِ أخلاق الرجال ، ولم أَرَ له علامةً في غالب إخواني ، إنما يحملون همومَ أنفسِهم ومَنْ يلوذُ بهم فقط ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

وقد تقدَّم في المنن السابقة : أن كثرةَ الشفقة وتحمُّلِ هموم الناس ليس هو لكلِّ أحدٍ من الفقراء ، إنما ذلك خاصٌّ ببعض أفرادٍ منهم ، وأن بعضَ

---

(١) شرَّقتِ الأرضُ : أي : أجدبت .

(٢) الهياف : شدة العطش من إصابة الريح الحارة . « تاج العروس » (هـ ي ف) .

(٣) في (هـ ، و) : (مصر) بدل (البلد) .

(٤) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٢٢٢) أن المعبر : هو الشيخ شهاب الدين الهرامزي .

الرجال قال لي مراتٍ : لا أعلم أحداً من الفقراء في مصرَ من بِرْكة الحَبَش إلى الرَّيْدانية أتعبَ قلباً منك[1]

وتقدَّم أنَّ من علامة من يحمل همومَ الناس أنَّه لا يفطر أيامَ همومهم ، ولا يضحك ، ولا يدخل حماماً ، ولا يلبس ثوباً نظيفاً ، ولا يجامع ، ولا يفعل شيئاً من نحوِ ذلك ، بل حالُهُ كحال صاحب المصيبة إذا مات أعزُّ أولاده ، فاعلمْ ذلك[2]

[مشاركتُهُ لجميع المسلمين في البلايا والمحن]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : إحساسي بمشاركة المسلمين في كلِّ بلاء أو كرب نزل بهم ، حتىٰ ربما أحسُّ بأنِّي أُطلَقُ كما تُطلَقُ المرأةُ إذا علمتُ بتوجُّعها ، وأحسُّ بالمقارع والكسارات وعصرِ الرأس ووضعِ الخوذة المحمَّاة بالنار عليها ، وسائرِ أنواع العقوباتِ ، وأحسُّ بسيلان دُهْن رأسي وهو نازل نحوَ أذني حتىٰ أكادُ أهلِك ، وهـٰذا أمرٌ عزيزٌ وجودُهُ الآن في أحدٍ من أقراني ، لا يعرفه إلا من ذاقَهُ ، وكان ذلك من وظيفة سيدي إبراهيم المتبولي ، وورثَهُ في ذلك سيدي عليٌّ الخواصُ ، وورثْتُهُ أنا في ذلك ، وسبقنا إلىٰ ذلك سفيانُ الثوريُّ وميمونُ بن مِهْرانَ والفضيلُ بن عياض ، وأضرابُهم ، فلا تطلع الشمس أو تغرب علىٰ صاحب هـٰذا المقام إلا وبدنُهُ ذائبٌ كأنه شرب رطلاً من السمِّ

ووالله ؛ إنَّه ليقعُ لي في بعض الأوقات أنني أحسُّ ببدني كلِّه من رأسي

---

(١) انظر (ص١٧٧) .

(٢) انظر (ص١٧٨) .

إلىٰ قدمي كالدمَّل الذي قَرُب انفجارُهُ ، وحكيتُ ذلك مرة لأخي الشيخ أفضلِ الدين رحمه الله فقال : والله ؛ إنَّ لي منذ عشر سنينَ وأنا أحسُّ بأن جسمي في طبق من نحاسٍ علىٰ نار من غير ماء ، وجسمي ودهني يطشطش على النار وأنا صابر ، فقلتُ له : ممَّ ذلك ؟ فقال : من كثرة توجُّه الناس إليَّ في شدائدهم . انتهىٰ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

وبالجملة : فمَن كان من أهل هـٰذا المقامِ لم يزل بدنُهُ مريضاً حتىٰ يزولَ همُّ الناس وبلاؤهم ، ومن أعظم علامات كون الفقير يتحمَّلُ همومَ الناس وجودُ الصُّداع الكثير في رأسه ، حتىٰ يُحِسُّ بأن شخصاً ذا قوَّةٍ شديدة يضرب رأسَهُ بطبر أو دقماق ليلاً ونهاراً[1] ، وقد روى الطبرانيُّ وغيرُهُ مرفوعاً « مَنْ لم يهتمَّ بأمرِ المسلمينَ فليسَ منهم »[2]

وممن روينا عنه أنه كان يمرض إذا نزل بالمسلمين همٌّ . السيدُ عمرُ بن الخطاب وعمرُ بن عبد العزيز والشعبيُّ رضي الله عنهم ، فكانوا يمرضون ويُعادون كما يعاد المريضُ ، فإذا ارتفع ذلك البلاءُ عن المسلمين شُفُوا من وقتهم حتىٰ كأنْ لم يكن بهم مرضٌ . انتهىٰ

ويقع لي ذلك كثيراً ، وربَّما أتوني بالطبيب فيصفُ لي دواءً ، فيطول جلوسُهُ عندي ساعة ، فأُشفىٰ من المرض كأنْ لم أكن مريضاً ، فيتعجب الطبيبُ من ذلك .

---

(١) الطبر : فارسية ؛ الفأس ، والدقماق : كسارة البندق .

(٢) المعجم الأوسط (٧٤١) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٠٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يأمر الناسَ بكثرة الاستغفار أيامَ البلاء ويقول : (ما ثَمَّ أسرعُ لرفع البلاء من كثرة الاستغفار ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، قال : وأقلُّ الاستغفار من أمثالنا أن يقولَ ألفَ مرة صباحاً وألفَ مرة مساءً : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليه من كلِّ ذنب فعلتُهُ إلىٰ وقتي هـٰذا) .

وكان يقول : (مَن ضحك أو جامع زوجته أو لبس ثوباً مبخَّراً أيامَ نزول البلاء . . فهو والبهائمُ سواء) انتهىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[مساعدتُهُ لأصحاب النوبة في حفظ أدراكهم]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ مساعدةُ أصحاب النوبة في سائر أقطار الأرض في حفظ أدراكهم ؛ من براريَ وبحار ومدائنَ وقرىً وجبال ؛ فأطوفُ بقلبي علىٰ جميع أقطار الأرض في نحوِ ثلاث دَرَجٍ ، ولا تستبعد يا أخي ذلك ؛ فإن القلبَ حكمُهُ حكمُ المرآة الكُرَيَّةِ المعلَّقة بين السماء والأرض ، فيرتسمُ فيها جميعُ العلويات والسفليات ، ويصيرُ البصرُ القلبي يدركُها كلَّها على التفصيل ، فالمدارُ علىٰ وسع دائرة قوَّة البصر القلبي لا غير ، وامتحِنْ أنت ذلك بمرآة صغيرة تضعُها فوق منارة عالية ، فإنَّك إذا قابلتها بمدينة مصرَ كاملةً تجدُها كلَّها مرتسمةً في تلك المرآةِ الصغيرة ، فاعمل يا أخي علىٰ جلاء مرآة قلبك من الصدأ[1] إن أردتَ العملَ بمثل ذلك ، فإنك تطوفُ أقاليمَ الأرض كلَّها في مقدار ساعة .

ومما وقع لي أن شخصاً من الحبشة أسلمَ عندنا ، فسألتُه عن بلده وعن

---

(١) في (هـ ، و ، ز) زيادة : (المتولد فيه من محبة الدنيا وشهواتها بإشارة شيخ كامل في الطريق) .

الكنيسة الكبيرة التي في آخر الزُّقاق الغربي من بلده[1] ، وعن شجرة النَّبْق التي في دار جاره[2] ، فصدَّقني علىٰ ذلك وقال للحاضرين (واللهِ ؛ إنه صادق) ، مع أنَّني ما رحتُ قط بجسمي هناك ، وإنما رأيتُها بقلبي

وكذلك وقع لي مع خادم نبيِّ الله لوطٍ عليه الصلاة والسلام ، فقلتُ له لما قدم علينا مصرَ : ما فعل شجرُ الليمون الذي تجاه مقام السيد لوط ، فقال : مقيمٌ لم يُقطع منه شيء ، مع أنني لم أَرَهُ إلا بقلبي

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي (إذا تجلَّىٰ قلبُ الفقير أخبرَهُ بما مضىٰ وبما هو آتٍ ، وإذا صدئ قلبه حدَّثه بأباطيلَ يغيب معها رشدُ الرجل وعقلُهُ) انتهىٰ[3]

وصورةُ طوافي كلَّ ليلة أنني أُشير بإصبعي إلىٰ أزقة المدائن والقرىٰ ، وإلى البراري والبحار وأنا أذكر الاسمَ : الله الله ؛ فأبدأ بمصرَ العتيقِ ، ثم بالقاهرة ، ثم بقُراها حتىٰ أصلَ إلىٰ مدينة غزة ، ثم أذهبُ إلى القدس ، ثم إلى الشام ، ثم إلىٰ حلبَ ، ثم إلىٰ بلاد أهل السنَّة من العجم ، ثم إلىٰ بلاد التركية ، ثم إلىٰ بلاد الروم ، ثم أعدو من البحرِ المحيطِ إلىٰ بلاد المغرب ، ثم إلىٰ إسكندريةَ ، ثم أعطف منها إلىٰ دِمياطَ ، ثم منها إلىٰ أقصىٰ بلاد الصعيد ، ثم إلىٰ أقصىٰ بلاد العَبْد ، ثم منها إلىٰ بلاد التَّكرور والسكوت والرجراج[4] ، ثم منها إلىٰ بلاد النجاشيِّ من الحبشة ، ثم إلىٰ

---

(١) الزقاق : السكة .

(٢) النبق : ثمرة السِّدر .

(٣) انظر « قلادة الجواهر » (ص١٥٣)

(٤) في (أ) وحدها : (ثم السكوت) بدل (والسكوت) .

بلاد الهند ، ثم إلى السِّنْد ، ثم إلى الصين ، ثم أرجع إلىٰ بلاد اليمن ، ثم إلىٰ مكة ، ثم أتبع بقلبي الدرب الحجازي إلىٰ بدرٍ ، ثم إلى الصفراء ، ثم إلىٰ مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأستأذنُهُ وأدخلُ حتىٰ أقفَ بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فأسلمُ عليه وعلىٰ صاحبيه ، وأزورُ مَنْ في البقيع ، ثم أقول : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] ، وما أرجع إلىٰ بيتي بمصرَ إلا وأنا ألهثُ من التَّعب ؛ كالذي كان حاملاً جبلاً عظيماً ، ولا أعلمُ أحداً سبقني إلىٰ مثلِ ذلك ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين

[احتماؤه عن أكل الشهوات أيامَ تحمُّل البلاء]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : معونةُ الله لي على الحمية أيامَ تحمُّلي لبلاء إخواني المسلمين ، وكثرةُ التوجُّه إلىٰ حضرة الله تعالىٰ في قضاء حوائجهم بوصف الذل والانكسار ؛ فإن كلَّ من لم يحتمِ عن الوقوع في كل شيء يُوقِفُ إجابةَ الدعاء . . فلا يصلح أن يتصدَّر لتحمُّل بلايا الناس

[مطلبٌ

في شروط التحمل عن الإخوان]

وللاحتمال شروط

منها أن يتخلَّقَ بوصف الذلِّ والانكسارِ والفقر ، ولا يكونَ عنده من شغوف النفس علىٰ أحد من المسلمين رائحةٌ ، ولا يكونَ عنده رائحةُ غنىً بعزِّ الله علىٰ وجه الاعتماد علىٰ ذلك العزِّ

ومنها : كثرةُ الملازمة في المواكب الإلـٰهية ؛ من حينِ يُنصبُ الموكبُ من أول النصف الثاني من الليل وما بعده حتىٰ ينقضيَ الموكبُ ، وتأمَّل يا أخي وزراءَ السلطان لا يقضون حاجةَ أحد إلا إن لازمهم زماناً طويلاً ، ومَنْ لم يلازم كذلك يقولون : لو أنَّه كان محتاجاً لَأكثرَ مِنَ الملازمة

ومنها صدقُ التجاء المحمول عنه إلى الحامل وحدَهُ دون شِرْكة أحد من الخلق معه ، واستحقاقُهُ الشفاعةَ فيه أو الحملَ عنه ، **ومن علامة صدقه في الالتجاء** : ألا يحتاجَ في طريق وصوله إلىٰ قضاء حاجته إلىٰ غرامة فلوس لأحد من الوسائط الذين هم حول الولاة ، ومتى احتاج إلىٰ وزن فلوس فهو غيرُ صادق في الالتجاء

ومنها : أن يرىٰ أنْ ما ولَّاه الولاية التي وصل إليها إلا الفقير دون أحد من الولاة ، ومتىٰ أشرك معه أحداً ، أو ظنَّ أنه لولا فلوسُهُ ما وصل إليها . . فهو غيرُ صادق في الالتجاء ، فيا طولَ تعب الفقير فيه ، وربما رمىٰ حملته إذا خمد ريحُهُ وتمزَّقتْ همتُهُ

ومنها : كفُّ الجوارح عن فعل شيء من المحرَّمات ، أو المكروهات ، أو خلافِ الأولىٰ ، أو خطورِها علىٰ باله ، فمَنْ لم يكُفَّ جوارحَهُ عن ذلك لم يُجِبِ الحقُّ تعالىٰ دعاءَهُ ؛ جزاءً وفاقاً ، فكما نهاه فلم يجتنب كذلك دعاه فلم يُجِبْه .

ومنها : عدمُ تناول شيء من شهوات النفوس التي تُعمي البصيرةَ وتمنعُ من دخول حضرة الله تعالىٰ

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : (من شرط من يتحمَّلُ

حملاتِ الناس ألا يجلسَ قط علىٰ حَدَثٍ إلا لضرورة ، ولا يُجامعَ زوجتَهُ أو حليلتَهُ مدَّةَ التحمُّل ، ولا يَشَمَّ رائحةً طيبةً ، ولا يدخلَ حمَّاماً بغير ضرورة ، ولا يضعَ جنبَهُ إلى الأرض في ليل أو نهار ، ولا يضحكَ ، ولا يغفلَ عن الله تعالىٰ ، ولا يبيتَ علىٰ دينار ولا درهم)

وقد جاء شخصٌ إلىٰ سيدي أحمد بن الرفاعي يطلب منه الدعاء ، فقال (يا أخي ؛ إنَّ عندي قوتَ غد ، ومَنْ كان عنده قوتُ غد فدعاؤه خِداجٌ[١] ؛ لعدم صدقه في الالتجاء إلى الله تعالىٰ في ضمانه رزقَهُ[٢] ، ولـٰكن إذا بلغك أنه ليس عندي طعامٌ ولا شرابٌ . فتعال أدعُ لك ، فهناك يكون لي أسوةٌ برسول الله صلى الله عليه وسلم)[٣]

ومنها أن يعملَ الفقير على الوصول إلىٰ مقام التخلُّق بالرحمة على العالم حتىٰ يكونَ أشفقَ على الإنسان من نفسه ، فيشترطُ في الحامل حملةَ مَنْ مات ولدُهُ ليُخِفَّ عنه الهمَّ . أن يكونَ بلَغَ في الحزن علىٰ ذلك الولد مقاماً أكثرَ من حزن والديه عليه ، وهـٰذا أمرٌ لا يكاد يصل إليه الفقيرُ حتىٰ يذوبَ لحمُهُ وعظمه ، وهـٰذا أمرٌ لا يذوقه غالبُ الناس ، وإنما هو لأفرادٍ من الفقراء ؛ كسيدي إبراهيمَ المتبوليِّ ، وسيدي عليٍّ الخواصِ ، وأضرابِهما .

وغايةُ أمر غالب الفقراء اليوم إذا شكا له أحدٌ ضرورةً : أن يدعو له من غير استجماع شروط الدعاء فيه بكلام يشبه كلامَ الموسَّطين[٤] ، وربما كان

---

(١) الخِداج : النقص .

(٢) في النسخ عدا (هـ ، و) : (وفي ضمانه) بدل (في ضمانه) .

(٣) انظر « قلادة الجواهر » (ص١٥١) .

(٤) في (هـ) وحدها : (المتوسطين) .

مرتكباً هو والمشفوعُ له شيئاً من الكبائر فضلاً عن غيرهما ، فلا الشيخُ أهلاً لأن يدعو ، ولا المريدُ أهلاً لأن يستجابَ له فيه ، وربما راح الشيخُ الداعي ذلك اليوم [إلى] الحمام ، ولبس الثيابَ المبخَّرة ، وأكل الأطعمةَ اللذيذة ، وغفَل عن الله تعالىٰ ، ونام علىٰ طراحة ، وما عند أهل الجنة خبر من أهل النار ، فأسأل من فضل الإخوان ألا يأخذوا عليَّ إذا رأوا وجهي مُعَبِّساً وأنا ضيقُ الحال ، فربما كنتُ في ذلك الوقت مشاركاً لمن ضُرب في بيت الوالي مقارعَ وكساراتٍ ، أو لمن مات ولدُها من النساء ، أو لمن هي في الطَّلْق ، وصاحبُ هـٰذا الحال لا يصير له وجهةٌ لغير ما هو فيه ، والحمد لله ربِّ العالمين

[دخولُهُ في قضاء الحوائج من أبوابها]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ دخولي في قضاء حوائج المسلمين من أبوابها ؛ وهو أنِّي أسأل أصحابَ النوبة من الأولياء في كل بلد في قضاء تلك الحاجةِ ولا أنفرد بقضائها دونهم ، فربما عارضوني في قضائها ؛ عقوبةً لي لسوء أدبي معهم ، وفي مصرَ اليوم منهم سبعون رجلاً مفرَّقون في بيوت الحكام معروفون لكلِّ مَنْ في قلبه نورٌ من الفقراء ، ومن لم يعرفهم فهو مظلمُ القلب ليس له في قدم الصدق نصيبٌ ؛ وذلك أنَّ كلَّ طائفة تعرف بعضها ؛ لكثرة اجتماعهم في المواكب الإلـٰهية بين يدي المَلِك جل وعلا

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول : (كلُّ من لم يأتِ لقضاء الحوائج من بابها . . فهو جاهل بطريق الأدب) انتهىٰ

وقد رأيتُ سيدي علياً المرصفيَّ رحمه الله إذا سأله إنسان في حاجة . .

يذهب إلىٰ أحد من أصحاب النوبة ويسأله في قضائها ، ورأيتُهُ مرة أتىٰ إلىٰ دكان الشيخ بركات الخياط ـ وكان من أصحاب النوبة ـ فوضع له قالبَ طوبٍ محروقٍ في غيبته ، فأولُ ما رآه الشيخُ بركاتٌ عرف الحاجةَ ومَنْ جاء بها ، ثم قضاها

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول (كم من كامل لا تصريفَ له ، وكم من ناقص يتصرَّف ليلاً ونهاراً ، وتأمل مُقدَّمَ الوالي له التصريفُ في ضرب الناس وعقوبتهم وفي إطلاقهم[1] ، وشيخ الإسلام لا تصريفَ له في مثل ذلك ، بل إذا سأله إنسانٌ في إطلاق متَّهم بحرام أو قتل . . أرسل يسأل المُقدَّمَ في ذلك ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]) .

وسمعت سيدي أبا الفضل شيخَ بيت بني الوفا يقول (من تصدَّر لحملات الناس ولم يكن من أصحاب النوبة ، أو لم يجعلهم واسطة في ذلك . . فقد عرَّض نفسه للقتل بالحال) انتهىٰ

فعُلِمَ : أنني لا أتعدَّىٰ أصحابَ النوبة أبداً إلا إن وجدتُ وقتي صافياً بحمد الله تعالىٰ[2] ، بحيث لا يبقىٰ لي وجهةٌ إلىٰ غيره ، لا سيما إن كانت الحاجةُ عند أحد من الأمراء ، فأتوجَّهُ إلى الله تعالى أن يسخِّرَهُ لي ، كما أتوصل إليه بأحد من الخلق ؛ لتصبحَ الحاجة مقضيةً

فعُلِمَ : أن من لم يتوجَّه إلى الله تعالىٰ إلا بأصحاب النوبة فهو مُعرَّض لقضاء

---

(١) المقدم الشرطي .

(٢) في (ب) : وحدها : (قلبي) بدل (وقتي) .

الحوائج بدينه ؛ بالنَّصْبِ والحيل والرياء ، وقولِهِ للناس اذكروني بخير عند فلان ، ونحوِ ذلك

واعلم يا أخي أنَّه لولا أني أرىٰ لحيتي تحت نعال أصحاب النوبة . . ما قُضيَت علىٰ يدي حاجةٌ عند أحد من الحكام ؛ ولذلك رتَّبتُ الدعاءَ لهم في قراءة الأسباع ، وفي قراءة (الكرسي) ، وفي جميع الختوم التي تقرأ عندنا ، وليس ذلك في زاوية من زوايا مصرَ غيرِ زاويتنا ؛ إما لجهلهم بمقامهم ، وإما لغير ذلك .

ولمَّا وقع التفتيش في رزق المساجد ظَهرَ غالبُ وقف الزاوية للسلطان ؛ من حيث كونُ أصل رزقه أقاطيعَ للمماليك ، وأضافوا إليَّ ضعفَها من وقف ذرية واقفها ، وجعلوا ذلك تحت نظري ، فحملتُ حملةً ثقيلة نحوَ كيس كلَّ سنة ، فتوجهت إلىٰ أصحاب النوبة وأشغلتُ الفقراء بالقراءة لهم والدعاء ، فقرؤوا نحوَ ثلاث مئةٍ ختماً ، وأهدوها في صحائف أصحاب النوبة بمصرَ والرومِ ، فشرح الله صدر الباشا ببركتهم ، ومكَّن الفقراء من استخراجها تلك السنة ، ولم يقع مثلُ ذلك في مصرَ لأحد ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[زيادةُ إحسانه إلىٰ كل من جحد فضله عليه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ زيادةُ الإحسان إلىٰ كل من كفر النعمة التي أجراها الله تعالىٰ له علىٰ يدي ؛ من مطعمٍ ، وملبس ، ومال ، وتربية ، وتعليم عِلْمٍ ، ونحوِ ذلك ؛ لعلمي بأن كلَّ من لم يشكرني أعظمُ أجراً إليَّ ممن شكرني في المجالس ، والعلة في ذلك كوني لا أعامل أحداً من العبيد طلباً لمجازاته لي علىٰ ذلك ، وإنما أعامله بالخير ؛ لكونه

عبداً لله تعالىٰ ، وما ألذَّها من معاملة لمن عمل بها !

فعُلِمَ : أن من عامل الخَلْقَ لأجل الخلق لا يقدر علىٰ تحمُّل كفرانهم نعمتَهُ ؛ لفقد الغرض المطلوب منهم ، بل يتأثر غايةَ التأثر ، وفي ذلك من رعونة النفس ما لا يخفىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ طلبه شيئاً من الثواب علىٰ طاعته]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ عدمُ طلبي الثوابَ من الله تعالىٰ علىٰ شيء من الطاعات التي يمنُّ بها عليَّ ، بل أرىٰ له الفضلَ عليَّ الذي أهَّلَني لأنْ أقفَ بين يديه تعالىٰ خلْفَ أحد من عباده ولو غافلاً ، وأنَّىٰ لمثلي أن يقفَ بين يديه تعالىٰ في الصلاة وغيرها وأنا جاهلٌ بالآداب المتعلِّقة بحضرته تعالىٰ ، فله الفضلُ الذي منَّ [به] عليَّ بالوقوف بين يديه ولم يطردني بالكلية ـ كما طرد تاركَ الصلاة ـ لجهلي بالأدب معه

فعُلِمَ أن اللائقَ بكل مؤمن ألا يسألَ ربَّهُ ثواباً علىٰ عبادته ، وإنما اللائقُ أن يسأله العفوَ عمَّا جناه في صلاته من سوء الأدب فيها ، وعدمِ الخشوع ، اللهم إلا أن يسأل الثوابَ من باب المنَّة والفضل لا في مقابلة عمل ؛ إظهاراً للفاقة ، فهـٰذا لا يُمنَع منه ، لـٰكن لا يصحُّ هـٰذا المقامُ إلا لمن أَحكمَ مقامَ التوحيد ؛ فإن العبدَ إذا وجد الفعلَ لله تعالىٰ كشفاً . يزول عنه طلبُ الثواب علىٰ طاعاته جملةً واحدة ؛ لأنَّ أحداً لا يصحُّ له طلبُ الثواب علىٰ فعل الغير

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول إنما شَرعَ الشارعُ

للمصلي أن يقولَ عقبَ سلامه من الصلاة : أستغفر الله العظيمَ ، ثلاثَ مرات ؛ ليتنبهَ العبدُ على ما وقع منه في الصلاة ؛ من الغفلة ، وعدمِ الحضور ، وحديثِ النفس فيها ، ونحوِ ذلك ؛ كشهوده نسبةَ الطاعة إليه مع غفلته عن شهود الخالق لها سبحانه وتعالىٰ ؛ فإنَّ العارفَ بالله لا يقول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] إلا على سبيل التلاوة فقط ، لا علىٰ سبيل أنه فاعلٌ إلا بقدر نسبة التكليف إليه فقط ، تعالىٰ فعلُ الله عنده عن الشِّرْكة فيه من حيث خلقُهُ ، فافهم .

فعُلِمَ : أن حكمَ أمثالنا إذا وقف بين يدي الله . . حكمُ المجرم الذي استحقَّ العقوبةَ وعرضوه على السلطان ليعاقبَهُ علىٰ فساد جُرْمه مثلاً ، فهو لا يكاد يخطر علىٰ باله قط أنَّه يخلَع عليه ، وإنما هو يسأل الله تعالىٰ في العفو عنه ، وعدم عقوبته له ، ويا بَرْدَها علىٰ كبده إذا سمِعَ أنَّ السلطان عفا عنه ، فتأمَّل ذلك واعمل به ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ قبوله مرتَّباً أو مسموحاً من بيت المال]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ قبولي مرتَّباً من بيت المال ولو سئلت فيه من الولاة ، أو قبولِ مسموحٍ[1] ، ونحوِ ذلك ؛ لعلمي بأن مالَ السلطان ومالَ المسموح لا بد في طريقه من ذلِّ النفس عاجلاً وآجلاً

وأيضاً : فإن مالَ السلطان إنما هو مُعدٌّ لصرفه في مصالح عسكر الإسلام ؛ من علماءَ ، ومُقاتِلةٍ تسافر في التجاريد[2] ، وليس لي قدرةٌ على

(١) المسموح : الهبة والعطاء .
(٢) التجاريد : الكتائب ، قال دوزي في « تكملة المعاجم العربية » (٢/ ١٨٢) : (سار=

السفر ، ولا أنا من العلماء العاملين الذي يحمون الدينَ ؛ لضعف يقيني وشوكتي

وأيضاً فإن اللهَ تعالىٰ قد رزقني القناعةَ ، فلو وجدتُ كِسْرةً يابسة قنِعتُ بها ، ومن كان كذلك لا يحتاج إلىٰ مال السلطان ، وهـٰذا هو كان مذهبَ الجمهور من علماء السلف رضي الله عنهم ، فبهداهم اقتدِهْ ، ولا تغترَّ يا أخي بمن يترخَّصُ فيما ذكرناه من أهل زمانك ؛ فإنها طريقٌ تجرُّ إلى العطب ، هـٰذا لو أُعطِيَه وهو في بلده من غير سؤال ، فكيف بمَنْ يسافر لأجل ذلك من مصرَ مثلاً إلى الروم ويزاحم عسكرَ السلطان ؟!

وقد أدركنا جمعاً من مشايخ الطريق وعلماءِ الإسلام كانوا يردُّون عطاءَ الولاة احتياطاً لأنفسهم ، وكانوا يقنَعون بالخبز والملح اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعملاً بوصيته صلى الله عليه وسلم في قوله « لِيكُنْ بُلْغةُ أحدِكم مِنَ الدُّنيا كزَادِ الرَّاكبِ »[١]

فعُلِمَ أنَّ كلَّ فقير لم يقنَع بما ذكرناه فمِنْ لازمه طلبُ الدنيا لأجل ملابسه ومراكبه وسراريه وخدمِهِ إلا أن يتَّجِرَ ويزرع ، أو يعمل حرفة ، كما كان السلف الصالح يفعلون ، وقد كان الفضيل بن عياض يقول : (لَأنْ آكُلَ الدنيا بالطبل والمزمار أحبُّ إليَّ من أن آكلها بديني)[٢] ، وأعطاه الخليفةُ

= تجريدة سار في كتيبة من الجند .

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٥/ ٤٣٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٧) عن سيدنا سلمان رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (١٧٨٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها بلفظ « إذا أردتِ اللحوق بي فليَكفِكِ من الدنيا كزاد الراكب »

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٥٣٠)

لمَّا دخلَ عليه ألفَ دينار فردَّها عليه ، فقالت امرأةُ الفضيل خلِّ للصبيان منها قوتَ يومهم ، فلم يفعل ، وقطع بساطاً كان تحته نصفين ، فباعه وأطعمهم به ذلك اليوم

ثم لا يخفىٰ أن صاحب المسموح لا بدَّ أن يُنهي في قصَّته أنه من أهل العلم والفقر ، وأنه ليس له شيءٌ يقوم به ، وينسىٰ أن الله تعالىٰ يطعمُهُ ويسقيه إلىٰ أن شابت لحيتُهُ من حيث لا يحتسب ما نسيه يوماً واحداً ، فتراه يزكِّي نفسَهُ بالعلم والصلاح ، ويشكو ربَّهُ ، وربَّما كان حالُهُ بخلاف ما أنهىٰ

وأما الحيلة التي يعملها صاحبُ المسموح . . فلا تنهض به إلى الخلاص عند الله تعالىٰ ؛ وذلك : أن المعصرة التي يؤجِّرها للمعاصري ، أو الدكان التي يؤجرها للقصاب مثلاً كلَّ يوم بنحو أربعين نصفاً . . لولا توفرُ ما كان أصحاب حملة الوزر يأخذونه ما أعطىٰ تلك الأجرةَ ولو ضُرب وحبس ، وكان سيدي الشيخُ صاحبُ المسموح يقول للمعاصري أو القصاب أعطني ما كان أهلُ حملة الوزر يأخذونه منك ؛ لأني شيخٌ من الصالحين

وقد سألني الأميرُ جانم الحمزاويُّ لما سافر إلى الروم . . أن يأتيني بمسموح للمعصرة الموقوفة عليَّ ، فلم أُجبْهُ إلىٰ ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حمايتُهُ من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانِهم]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ حمايتي من الأكل من هدايا الظَّلمة وأعوانِهم ؛ من العمال ومشايخِ العرب والكشافِ وشيوخِ البلاد والمباشرين ، وهـٰذا أمرٌ

قلَّ مَنْ حماه اللهُ تعالىٰ منه ، ثم مِنْ أقلِّ ما يحصل لمن أكل من هداياهم أو لبس منها . الركونُ إليهم بالقلب ، وكراهةُ عزلهم من ولاياتهم ولو ظلموا وأهلكوا الحرثَ والنسلَ ، وقد قال تعالىٰ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود : ١١٣] ، فيريد مَنْ يأكل من طعامهم مثلاً أن يعملَ بوصية الله تعالىٰ ولا يركنَ إليهم . . فلا يقدر علىٰ قلبه يطاوعُهُ ، وفي الحديث : « جُبِلتِ القلوبُ علىٰ حُبِّ مَنْ أحسنَ إليها » انتهىٰ[1]

وهٰذا في حقِّ العوام ، أما العلماء بالله تعالىٰ فلا يرون محسناً إلا اللهَ تعالىٰ ، فجُبِلت قلوبُهم علىٰ حبِّهِ ، فهم ولو أخذوا شيئاً من الخَلْقِ . . لا يرونهم إلا كالوكلاء للحقِّ تعالىٰ في إنفاق رزقه علىٰ خلقه لا غيرُ ، هٰذا فيما ليس للشرع عليه اعتراضٌ ، أما الحرام والشبهات فلا يقبلونه من الخَلْقِ أبداً إلا عند الاضطرار

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول : (إياكم أن تأكلوا من طعام من يعتقد فيكمُ الصلاحَ من الأمراء ؛ فإنكم تأكلون بدينكم) ، وكان يردُّ ما يأتيه من الولاة ويقول (إنما صحبناكم لندعوَ لكم في الشدائد ، والدعاءُ لا يُجاب إلا ممن يأكل الحلالَ ، وإذا أكلنا طعامَكم رُدَّ علينا دعاؤنا في حقكم) انتهىٰ

وقد أفطرتُ أنا في رمضانَ عند شخص من المباشرين بعد أن أقسم عليَّ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل في ضعفاء الرجال » (٣/ ٩٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٥٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

بالله عز وجل أني أفطرُ عنده ، فأكلت من خبزه لقيماتٍ بورقة فُجْلةٍ ، ولم أتناول شيئاً من أطايب الطعام ، فرأيتُ في نومي تلك الليلةَ قائلاً يقول لي استعدَّ يا فلانُ لمن يجازيك على الصراط لأجل اللُّقَم التي أكلتَها بورق الفجل ليلةَ البارحة ، فأردتُ أن أتقايأَهُ فلم يتيسر ، فأسألُ اللهَ تعالىٰ ألا يؤاخذني وأن يحميَني وأصحابي من مثل ذلك بقيّةَ أعمارنا ، آمين ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[إنصافُهُ لكلِّ مَنْ عامله]

ومما أنعم الله به عليَّ إنصافي لكلِّ من عاملني ببيع أو شراء أو استئجار رزقة في ملكي المجازي ، ولو أنه أعطاني شيئاً زائداً على السعر الواقع . . لا أقبله منه ، وإن قال لي خاطري بذلك طيبٌ . . أقول له أنا خاطري بذلك ما هو طيبٌ ، وكان هـٰذا من خلق سيدي علي الخواص رحمه الله ؛ هروباً من تحمُّلِ المنن ومن الأكل بالدِّين ؛ وذلك أنه ما سامحَنا بزيادة على الناس إلا لاعتقاده فينا الخيرَ

وكذلك لا آخذُ خَراجاً ممن زرع رزقتي وأكلتِ الدودةُ ما زرعَهُ فيها[1] ، أو هاف ، أو أكله الفأر ، أو شَرَّقتْ تلك السنة[2] ؛ لأنه خسر ولم يستفدْ من ورائي شيئاً ، فبِمَ أستحِلُّ مالَهُ ؟!

وكذلك لا آخذُ من المَعْصراني أجرةَ أيام بطالة الدواليب ؛ لعدم الحَبِّ الذي يعصرُهُ .

---

(١) الرزقة : الأرض .

(٢) شرقت الأرض : إذا أجدبت

وكذلك لا آخذُ لمركبي أيامَ بطالة المراكب في الشتاء أجرةً

وكذلك لا أقبل ممنِ استأجرَ مني شيئاً أجرةً معجَّلةً ، إنما آخذها منه بعد الانتفاع ؛ لاحتمال أني أموتُ أو هو يموتُ قبل الانتفاع بذلك ، فتشتغل ذمَّتي وذمَّةُ ورثتي ، ويقع بينهم وبين ورثته النزاعُ ، وربما لم يقدروا على زرع تلك الرزقة أو استعمال تلك المَعْصرة مثلاً بعد موت مورِّثهم

ومما وقع لي مع بعض التجار الأزهرية : أنه كان يكرهني على السماع من بعض الحسدة ، فأرسلتُ إلى السوق جبَّةً ، فاشتراها بزيادة على ثمنها الأصلي بنحوِ عشرة أنصاف[1] ، فرددتُها عليه ، فقال : خاطري بها طيِّبٌ ، فقلت له : إنَّ خاطري بها ما هو طيِّبٌ ، فاعتقدني من ذلك اليوم وصار من أعزِّ أصحابي ، وجعلني من الصالحين بعد أن كنتُ عنده من الطالحين .

ومما وقع لي أيضاً من الإنصاف أني رَمِدتُ ، فأتَوني بلبن امرأة لأضعَهُ في عيني ، فلم أقبله إلا بثمنه من جديد أو رغيف[2] ؛ وذلك لِمَا في اللبن من رائحة حقِّ الولد ، ولا أعلم طيبَ نفسه ؛ لعدم إفصاحه ، وهٰذا ورع لم أرَ له فاعلاً من إخواني ، بل بعضُهم عدَّهُ من ورع التنطع ؛ لقلة فاعله ، وليس كذلك ، بل هو من ورع القوم الكامل ، فالحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) النصف : عملة مصرية صغيرة مسبوكة من خليط من الفضة والنحاس ، كانت تساوي قديماً نصف درهم من دراهم السلطان المؤيد « تكملة المعاجم العربية » (١٠/ ٢٣٦)

(٢) الجديد : اسم نقد من النحاس .

[شهودُهُ أنَّ ما يقاسيه في الدنيا . .
هو كالتأسيس لتحمُّل أهوال يوم القيامة]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : شهودي أنَّ جميعَ ما أقاسيه في هٰذه الدار من الشدائد والأهوال . . إنما هو رحمةٌ من الله تعالىٰ لي ؛ لأنه كالتأسيس والإدمان لتحمُّل ما توعَّد اللهُ تعالىٰ به من شدائد يوم القيامة وأهوالِها ؛ إذ الإنسانُ لا يهولُهُ إلا ما ورد عليه جديداً مما لم يكن له به عادةٌ ؛ فكلُّ من ذاق شدائدَ الدنيا وأهوالَها هانت عليه أهوالُ يوم القيامة ، ومن هنا قال بعضُهم : **إن العارفين لا يموتون كغيرهم ، وإنما يُنقلون من دارٍ إلىٰ دار** ؛ وذلك لأنهم أماتوا نفوسَهم بالمجاهدة ، فإن وقع أن بعضَ العارفين تغيَّر عليه الحال عند الموت . . فإنما ذلك من بقية بقيتْ عليه من مجاهدة نفسِهِ .

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغي لفقير أن يُكثرَ من تحمُّل الشدائد عن إخوانه في القرن العاشر فيُسيءَ في حقِّهم ؛ لأنَّ كلَّ بلاء وقع في ذلك الزمانِ . . كالإدمان لتحمُّل البلاء الذي يأتي بعده ، فمن الإحسان للمريد أن يتركَهُ الشيخُ يتقلَّبُ في بلائه حتىٰ يخرجَ منه ، ويحتاجُ صاحبُ هٰذا المقامِ إلىٰ ميزان دقيق وكشفٍ عن أعمال الخلائق الذين يحمل حملتَهم أو يتركُها ، فيكونُ حكيمُ الزمان لا يُحمِّل كلَّ أحد إلا ما يطيق ؛ فإذا رأىٰ عند المريد ضجراً وسخطاً حملَ عنه ، أو ثباتاً ورِضاً تركَهُ ، وإذ قد عرفتَ حكمةَ نزول تلك الشدائدِ عليك في دار الدنيا ، وأنها رحمةٌ من الله بك . . فاشكرِ اللهَ عليها وقل : الحمد لله رب العالمين ، والله يتولىٰ هداك .

[حمايتُهُ من الأكلِ من طعامِ مَنْ شفعَ فيه أو قبولِ هديته]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ حمايتي من الأكل من شيء أهداه لي من شفعتُ فيه عند أحدٍ مِنَ الولاة بعد أن ردَدْتُ ذلك عليه مراتٍ فلم يأخذْهُ ، فأطعمُ تلك الهديةَ للفقراء والواردين ، وكذلك حماني الله تعالىٰ من قَبول هدية أهداها لي مَن سألتُ اللهَ تعالىٰ في قضاء حاجته وقُضِيتْ

وهٰذا الخُلقُ قد صار غريباً في هٰذا الزمان ، وغالبُ الناس يأكل من تلك الهدية ويتوسَّع فيها ، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول : (مَنْ شفعَ لأخيه شفاعةً ، فأهدىٰ له علىٰ ذلك شيئاً فقَبِلَهُ . . فقد أتىٰ باباً من الكبائر) انتهىٰ[1]

وقد توجَّهت مرةً في قضاء حاجة عند الله لكبيرٍ ، فأعطاني خمسين ديناراً ، فرددتُها وقلت له لا يخلو ما سألتُ اللهَ تعالىٰ أن يفعلَهُ لك من أحوالٍ : إما أن يكون كتبَهُ عليك أو لك ، أو لم يكتبه عليك ؛ فإن كان كتبه لك أو عليك في الأزل . . فلم أعمل لك شيئاً أستحقُّ به أجرةً ، وإن كان لم يكتبْهُ عليك ولا لك . . فما هناك شيءٌ فعلتُهُ لك ، وما بقي إلا أن يكونَ الحقُّ تعالىٰ كتبه عليك أو لك وجعلني واسطةً في دفعه عنك بدعائي أو جلبِهِ لك ؛ من باب توقُّف السبب على المسبب ، فأَجرِي على الله تعالىٰ في ذلك ، ولا أرضىٰ أن يكون أجري أمراً يفنىٰ ويضمحلُّ في هٰذه الدار ، فأخذها وقال لا تؤاخذني فما كنتُ أعرف حالَكَ ، ثم ولَّىٰ وهو يقول : شيءٌ لله المددَ ، فلما صار يمدحُني في المجالس أرسلتُ أخذتها منه ، ثم

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٤١) ، وأحمد في « مسنده » (٥/ ٢٦١) لٰكن عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، وفيه : (الربا) بدل (الكبائر) .

دفعتُها للفقراء ، فسكتَ عن مدحي ، وكان ذلك أولىٰ في حقي ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ قبوله هديةً علم بها ؛ لِمَا فيه من استشراف النفس لها]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ قبولي هديةً أعلمني بها صاحبُها قبل أن يحضرَ بها ؛ وذلك لأنَّ من شأن النفس إذا علمتْ بالهدية تصيرُ تستشرف لها حتىٰ تحضرَ ، وقد نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ شيءٍ جاءنا بعد أنِ استشرفتِ النفسُ إليه(١)

وهٰذا خُلُقٌ لم أرَ له فاعلاً ، ثم إن صاحبَ الهدية إن غلبني وأدخلَها بيتي أطعمتُها للفقراء والمحاويج ؛ وقد بلغنا أن شخصاً قال لسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي : قد خرجتُ للفقراء عن سلة عنب ، فأرسِل أحداً من الفقراء يحملْها إليكم ، فقال الشيخ نحن لا نأكل شيئاً أُعلِمْنا به قبل أن يأتيَنا، ولم يقبله، فالحمد لله الذي جعل لنا بهٰذا الشيخ أسوةً ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ بخله بما في يديه على المستحقِّ]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ البخل بشيء دخل يدي علىٰ مستحقِّه ؛ سواء النقودُ ، والطعامُ ، والثيابُ ، وغيرُ ذلك ، وهٰذا الخلق قد أعطاه اللهُ تعالىٰ لي من حينَ كنتُ دون البلوغ قبل أن أعرفَ محبةَ الدنيا ، وقبل أن أعرفَ رميَ الدنيا نفاقاً ورياءً وسمعةً ، وهٰذا خلقٌ عزيزٌ لا يوجد الآن إلا في أفرادٍ من

---

(١) روى البخاري (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول : أعطه من هو أفقر إليه مني ، فقال : « خذْهُ ، إذا جاءك من هٰذا المال شيءٌ وأنت غير مُشْرفٍ ولا سائلٍ . فخذْهُ ، وما لا فلا تتبعه نفسك »

المجاذيب فضلاً عن الصُّحاة ، وإن نالَهُ أحدٌ من الصُّحاة فلا يكون إلا بعد مجاهدة طويلةٍ علىٰ يد الأشياخِ الصادقين ، بحيث يُحكِمُ مقامَ الزهد في الدنيا ، حتىٰ يصيرُ ينشرح لها إذا أدبرتْ وينقبضُ منها إذا أقبلتْ

وقد أوصىٰ لي الشيخ خضرٌ الذي رباني وأنا يتيم بخمس مئة دينار ذهباً ، فرددتُها علىٰ ورثته ، وكذلك زوجتُهُ أوصتْ لي بنحو أربعين ذهباً ، فأخذتُها وفرَّقتها على الفقراء في ساعة واحدة ، وعرض عليَّ بعضُ الأكابر ثلاثةَ آلاف دينار وأني أتزوج ابنتَهُ ، فأبيت ورددتُها عليه ، وأوصىٰ لي قاضي إسكندريةَ بثلث ماله وكان نحوَ مئة ألف نصفاً ، فرددتُها من حيث كونُه مالَ قاضٍ فقط ، لا لعلة أخرىٰ

وسألني مرةً فقيرٌ في شيء لله ، فأعطيتُهُ جميعَ ما كان عليَّ من الثياب والعمامة ، ورجعت الدار بمئزر في وسطي ، فتبعني الفقير من بُعد حتىٰ أتاني بالثياب ؛ خوفاً من تبعتها ، وظنَّ أن بي سكراً وجنوناً ، فأبيت أن أقبلَها منه ، واشترىٰ منها يحيى العامل صوفاً بستةَ عشرَ ديناراً[1]

ولم أزل بحمد الله تعالىٰ من حينَ كنتُ صغيراً يأتيني الناسُ بالذهب والفضة فأرميها في صحن جامع الغمري ، فيلتقطُها الناسُ والأطفال ، وهو خُلقي بحمد الله إلى الآن ، وربما كنتُ أحوجَ الناس إلىٰ شيء مما أرميه ، وإنَّما أفعل ذلك هواناً بالدنيا في عيون الإخوان حتىٰ يقتدوا بي في ذلك ،

(١) والعبارة في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٤١٠) : (فتبعني من بعيد حتىٰ وصلت الدار ، فطلع لي بالثياب ، فرآني غير سكران وقال رضيت منك بنصف فضة فقط ، فلم أجبه إلىٰ ذلك ، وخرج بالثياب فباعها ، فاشترىٰ منها يحيى العامل صوفاً بمئة وستين نصفاً)

فالحمد لله ربِّ العالمين ، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالىٰ ذكرُ أسماء مَنْ كسوتهم الثيابَ أواخرَ هـٰذا الكتابِ ، فراجعه[1]

[مراعاته الحياء من الله تعالىٰ]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ مراعاةُ الحياء من الله تعالىٰ في بعض الأوقات[2] ، حتىٰ إني ربما جعلت الطيلسان علىٰ رأسي لأجل الحياء من الله تعالىٰ ؛ كما كان أبو بكر وعمرُ وغيرُهما من الأكابر يفعلون ، وكان أنس بن مالك رضي الله عنه لا يترك لبس البرنس أبداً ويقول : (إنَّه يكفُّ البصرَ عن فضولِ النظرِ) .

ثم لا يخفىٰ أن من شرط الطيلسان أن يكونَ نازلاً قُبالةَ الوجه حتىٰ يصير الإنسانُ لا يرىٰ من الأرض إلا مواقعَ قدميه لا غيرُ

فعُلِمَ : أن صاحبَ هـٰذا المقامِ غائبٌ عن قصد التمشيخ ، أو دفعِ حَرٍّ أو برد ؛ فأما قصدُ التمشيخ بذلك فهو حرام ، وأما دفعُ الحرِّ والبرد فهو حاصلٌ في ضمن نية كفِّ البصر والحياءِ من الله تعالىٰ ، فلا يحتاج إلىٰ نية أخرىٰ ، وإنما صحَّ جعلُ الطيلسان بقصد الحياء من الله تعالىٰ وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يحجبه شيء ؛ لأنَّ الشرع قد تبع العرفَ في مثل ذلك حالَ الصلاة ، فأوجبَ على المصلي السترَ وإن كان خالياً عن الخَلْق ، أو في ظلام ، فقِسْنا الطيلسانَ علىٰ ذلك ؛ فإن العبدَ بين يدي الله تعالىٰ على الدوام ، سواء كان في الصلاة أو خارجَها ، شعَرَ بذلك أو لم يشعر ، فمن لم يَصِلْ إلىٰ مقام

---

(١) انظر (ص٥٥٥) .

(٢) في (ب ، ج ، د) : (من الناس) ، وفي الفهرست بداية الكتاب و« المنن الكبرىٰ » (١/ ٤١١) : (من الله) .

الشهود . . فليكن معه الإيمانُ بذلك

وقد كان عثمان بن عفانَ رضي الله عنه إذا أراد دخولَ الخلاء يتقنَّعُ بردائه ؛ حياءً من الملائكة الكرام الكاتبين ، والله ُأحقُّ أن يُستحيا منه[١]

وكان أخي الشيخُ أفضلُ الدين يقول لا ينبغي لفقير أن يغتسل ولو خالياً إلا في قميصٍ مُهَلْهَل كما يفعل بالميت[٢] ، وكذلك لا ينبغي له أن يكشفَ رجلَهُ أو ساعدَهُ بحضرة الناس ، كما عليه أكابرُ الدولة مع مَنْ هو أكبرُ منهم ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[كراهتُهُ للأكل من مال الأوقاف التي تحت نظره]

ومما منَّ الله ُبه عليَّ كراهتي من الأكل من ضيافة الوقفِ الذي تحت نظري وإن جعله الواقفُ لي ، إلا إن علمتُ طيبَ نفس الفلَّاح بذلك من حيث الاتحادُ بيني وبينه في المحبة ، ومتىٰ كان علةُ إتيان الفلَّاح بالضيافة كوني ناظراً على الوقف الذي هو يزرع فيه ، بحيث لو خرج الوقفُ عن نظري لم يعطِني شيئاً . . فلا آكلُ منه شيئاً ؛ كلُّ ذلك لعلمي بأنَّ الضيافةَ ما جعلها الفلَّاحون الماضون لأستاذهم إلا لِمَا كانوا يأخذونه منه من

---

(١) ورد نحوه عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ فقد روى ابن شيبة في « مصنفه » (١١٣٣) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٢٥) أن أبا بكر الصديق قال وهو يخطب الناس : (يا معشر المسلمين ؛ استحيوا من الله ، فوالذي نفسي بيده ؛ إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء مغطياً رأسي ؛ استحياءً من ربي) .

وروى أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٨٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٩٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء غطَّىٰ رأسه) .

(٢) المهلهل : الثوب الرقيق .

الكَسَاوي والهدايا لهم ولأولادهم وعيالهم ، وكانوا يطبخون لهمُ الحلوَ والأرزَّ حتىٰ يَعُدُّوا الإقامةَ عند أستاذهم كأنها كانت أيامَ عيد

وهـٰذا أمرٌ قد صار متعذِّراً علىٰ غالب النُّظَّار ، مع أن غالبَ النُّظَّار الآن قد صار ليس بيده دفعُ شيء من المغارم التي يَزِنُها الفلاحُ للكشاف ومشايخ العرب ، فمَنْ أراد أن يأكل من ضيافة فلاح من المتديِّنين . . فليفعلْ ما كان يفعل النُّظَّار المتقدمون ، ويأكلْ من ضيافتهم كأنها جِعالة لمن يدفع عنهم سوءاً علىٰ خلاف في ذلك بين علماء الشريعة[1] ؛ من حيث إن القادرَ علىٰ دفع الظُّلم عن إنسان يلزمه ذلك مجاناً ، وإن كان غيرَ قادر فما وجهُ أخذه منه ؟! وهـٰذا خلقٌ غريب قليلٌ مَنْ يفعل به في مصر .

بل رأيتُ بعضَهم ليس له كلمةٌ ولا حرمةٌ وعمل ناظراً ، فأتاه فلاحُهُ بشيء من الدجاج والإوزِّ ، فرأىٰ فيه واحدة عمياءَ وأخرىٰ عرجاءَ ، فردَّهما على الفلاح ، فرجع بهما إلىٰ بلده ليأتيَهُ بغيرهما غصباً عليه مع دعواه العلمَ والصلاحَ ، فالحمدُ لله الذي مَنَّ علينا بالشفقة على الفلاح وإقامةِ العذر له في هـٰذا الزمان الذي صار لا يحصل له من زرعه طولَ سنته القوتُ إلا بجهد ، فاعلم ذلك .

[جعلُهُ الحظَّ والمصلحةَ لجهة الوقف إذا زرع في أرضه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : جعلُ الحظِّ والمصلحة لجهة الوقف إذا زرعتُ في طينه لي زرعاً خاصّاً بي ؛ وذلك لأن حكمَ أرض الوقف تحت يد الناظر . . حكمُ مال اليتيم تحت يد الوصي مثلاً ؛ فلا ينظرُ إليه إلا بالحظِّ والمصلحة ،

---

(١) الجعالة : أن يُجعل لمن عمل عملاً عوض معلوم .

فليحذرِ الناظرُ من محاباة نفسه في وزن الخَراج بأنقصَ مما يأخذه الفلاحُ ، أو يُعوِّن الفلاح في الحرث والحصاد ونحوهما بغير طيبة نفس[1] ؛ بأن يُمسك الفلاحَ من الموضع الذي يؤذيه ؛ حتىٰ يساعدَهُ خوفاً من شرِّه ، ثم إن حصل له ربحٌ كثير والخراجُ قليلٌ . . فينبغي له أن يَقسِم الربحَ بينه وبين مستحقي الوقفَ ، ويُنزل اللهُ له البركةَ في القليل

وهـٰذا خلقٌ قَلَّ من يفعله مع الفلاح والمستحقين ، وقد أعطانيه الله تعالىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ أكله من هدية أو صدقة وفي البلد مَنْ هو أحوجُ إليها منه]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : حمايتُهُ لي من الأكل من صدقةٍ أو هدية علمتُ أنَّ في بلد المتصدِّق أو المُهدي أو في حارته . . مَنْ هو أحوجُ إلىٰ ذلك مني ؛ من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والمديونين كذلك ؛ وذلك أنه ينبغي لنا كما قَصَدَ نفعَنا بدنياه . . أن ننفعَهُ بزيادة دينه ولا ننقصَهُ بسببنا ؛ فإن في أكلنا من تلك الصدقةِ أو الهديةِ رائحةَ حقٍّ لذلك المحتاج ؛ من حيث إن الشارعَ قد أَمرَ الإنسانَ أن يبدأ في صرف صدقته وهديتِهِ للمحتاج ، أو الأقربِ داراً ، أو قرابته ، فلا نساعدُهُ علىٰ مخالفة السنة بتقديمه لنا علىٰ مَن هو أولىٰ منَّا ؛ من قريب وجار ومحتاج

ثم إننا إذا قبلنا من ذلك شيئاً بشرطه . . لا نقبلُهُ إلا بنية نفعه هو أوَّلاً بالأجر والثواب ، ولا نقبلُ ذلك بنية نفع نفوسِنا إلا بحكم التبعيَّة ،

---

(١) قوله (يعون الفلاح) يفهم من قوله في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٤١٥) (وليحذر من أن يسخِّر الفلاح في الحرث والحصاد مثلاً بغير طيب نفس)

لا بالقصدِ الأوَّلِ ؛ وذلك ليُكتبَ لنا أجرُ القائمين في مصالح العباد ونستجلبَ محبةَ الحقِّ تعالىٰ لنا بذلك ؛ **فإنَّ الخَلْقَ عيالُ اللهِ ، وأَحَبُّهم إليهِ أَنفَعُهم لعياله** كما ورد[1] ، وقد رددتُ بحمد الله تعالىٰ كثيراً من الذهب والفضة والسكر والطعام علىٰ صاحبه ؛ لتعدِّيه جيرانَهُ أو قرابتَهُ أو المحتاجين من أهل حارته مثلاً ، لا لعلة أخرىٰ .

ثم يؤيد ما قلناه قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « **صدقةً تُؤخَذُ مِنْ أغنيائِهِم فتُرَدُّ علىٰ فقرائِهِم** »[2] ، وكذلك يؤيده تحريمُ العلماء نقلَ الصَّدقة عن بلد المتصدِّق إلا لعذر شرعي ، والله أعلم ، وهـٰذا أمرٌ ما رأيتُ له فاعلاً إلىٰ وقتي هـٰذا غيرَ أخي الشيخِ أفضلِ الدين رحمه الله تعالىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ إقامة شيء من محابِّ الدنيا في قلبه]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ حمايتُهُ تعالىٰ لي من إقامة شيء من محابِّ الدنيا يقيم في قلبي إلا سهواً أو غفلة[3] ، سواءٌ كان ذلك المحبوبُ زوجةً ، أو ولداً ، أو مالاً ، ثم لا يخفىٰ أنَّ المذمومَ إنما هو محبَّةُ ذلك بحكمِ الطبع ، لا بحكمِ تحبيب الله تعالىٰ ذلك له بغرض صحيح ؛ فإنَّ ذلك غيرُ مذموم ، بل هو محبوبٌ شرعاً ، وعليه يُحمَل حالُ أيوبَ عليه السلام لمَّا

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٧) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/ ١٠٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(٢) رواه البخاري (١٣٩٥) ، ومسلم (١٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(٣) في النسخ : (حمايته تعالىٰ لي من عدم إقامة. . .) بزيادة كلمة (عدم) ، ولا يستقيم السياق بإثباتها .

أمطرتِ السماءُ ذهباً وصار يحثوه في ثوبه ، فأوحى الله تعالىٰ إليه ألم أكنْ أغنيتُك عن مثل هـٰذا ؟! فقال بلىٰ يا رب ، ولـٰكن لا غنىٰ لي عن بركتك انتهىٰ[1] ؛ فكان الحاثُّ له علىٰ أخذه . . إنما هو التبركُ بعطاء الله تعالىٰ ، وإظهارُ الفاقة إليه ؛ إذِ العبدُ سداه ولحمتُهُ فاقةٌ وحاجة ؛ وذلك لأنه فُطِرَ على الاستفادة لا على الإفادة ؛ إذ هو مكتسبٌ من الله الوجودَ من العدمِ ، فافهم .

وكان الشيخ إبراهيم الدسوقي يقول : لا بُدَّ للفقير في بداية أمره من رمي الدنيا والزهدِ فيها ليتخلَّصَ لربِّهِ ، فإذا تخلَّصَ قيل له خذْها واستعمِلْها فيما خلقتُها لأجله من القربات الشرعية ، فكما ألقاها أوَّلاً بإذنٍ كذلك أخذها ثانياً بإذن . انتهىٰ

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول : من شرط القوم ألا يكونَ لهم حركةٌ ولا سكونٌ إلا وهم فيها تحت أمر إلـٰهي ، وبذلك نفذتْ عهودُهم إلى المريدين في سائر الأقطار ، ومَن ذاقَ هـٰذا المشهدَ استراح من مزاحمة الناس على الدنيا ؛ لأنَّها في يده لا في قلبه ، وهـٰذا المقامُ عزيزٌ من تخلَّق به ؛ ولذلك تجد بين الناس غالباً الشحناءَ والحسدَ ؛ لتساهلهم بإقامة محبَّةِ الدنيا في قلوبهم ، ولو أنهم كانوا أحبوا اللهَ تعالىٰ . . لم يُمكِّنوا عدوَّهُ يسكن قلوبَهم دون الحقِّ ؛ فإنَّه تعالىٰ غيورٌ لا يحبُّ أن يَرىٰ في قلب عبده محبَّةً لسواه إلا بإذنه ، فالحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٨) .

[إضافتُهُ الأفعالَ المذمومة من الإخوان إلىٰ إبليسَ ببادئِ الرأي]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ إضافتي كلَّ فعل مذموم فعَلَهُ الإخوانُ معي إلىٰ إبليسَ ببادئِ الرأي ؛ ولذلك قلَّ غضبي عليهم ؛ فإنَّ إبليسَ هو الذي وسوسَ للخلق حتىٰ فعلوا الفواحشَ ؛ فهو أصلٌ والعبدُ فَرْعٌ له ، وإرسالُ سوء الظنِّ على الأصل أولىٰ من إرساله على الفرع

وهٰذا خلقٌ ما رأيتُ له ذائقاً ، وغالبُ الخَلْق يضيفون الفواحشَ إلى المؤمنين ببادئِ الرأي ، ولا يكادون يتذكَّرون إبليسَ إلا بعد تأمُّل وتفكُّر ، فيقعون في ازدراء بعضهم بعضاً بسبب ذلك ، وهو حرامٌ ، بخلافهم إذا ازدرَوا إبليسَ لا يقعون في حرام

فعُلِمَ : أنَّ الكاملَ لا يقع في إضافة المذمومِ إلى المؤمن . . إلا بعد إضافته إلىٰ إبليسَ ؛ ولذلك قلَّ ازدراؤُه للمسلمين ، وكان للقبيح عنده وجوهٌ من المعاذير

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول : (إضافةُ المذمومات إلىٰ إبليسَ أولىٰ من إضافتها إلى الحقِّ تعالىٰ بحكم التقدير ؛ لأنَّ ذلك تحصيلُ الحاصل ، وأحكامُ التكاليف إنما هي دائرةٌ علىٰ رقاب المكلَّفين ؛ فمنهم مَنْ آمن كالمؤمنين ومنهم من كفر كإبليسَ)

وسمعته مرة أخرىٰ يقول : (مَنْ وقف مع إضافة المذموماتِ إلى الله تعالىٰ بحكم أنَّه قدَّرَها علىٰ عباده قبل أن يُخلَقوا . . ترقَّىٰ من ذلك إلىٰ أعلىٰ طبقاتِ سوء الأدب مع الله تعالىٰ ، وإقامةِ الحُجَّة علىٰ ربِّهِ ، فهلَكَ من حيث

لا يشعر ؛ وذلك لأنه حينئذ لا يكاد يندم علىٰ ذنب يفعله أبداً ، فاعلم ذلك)

[عدمُ إساءته الظنَّ بالمسلمين]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ إساءَتي الظنَّ بأحد من المسلمين ؛ لأنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث ، وأما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه (احترِسُوا من الناسِ بسوءِ الظنِّ)[١] . . فالمراد به : عاملوا الناسَ كأنَّكم تسيئون بهمُ الظنَّ من شدَّة الحذر منهم ، لا أنَّكم مأمورون بإساءة الظنِّ بهم ، ولم يأتِ لنا بسوء الظنِّ شرعٌ ، وإن ورد فهو مؤولٌ

فإذا رأيتَ مثلاً شخصاً طائفاً بشيء يبيعُهُ والجمعةُ تُصلَّىٰ . . احملْهُ علىٰ أنَّ له عذراً شرعيّاً في ذلك ، أو رأيتَ شيخاً أو عالماً يأخذ مالاً من الظَّلَمة . . احملْهُ علىٰ أنَّه لا يأكل منه شيئاً ، وإنَّما يعطيه لأصحاب الضرورات ، وإذا رأيتَ عالماً توقَّفَ عن الكتابة علىٰ سؤال يتعلَّقُ بالأمراء والأكابر . . احملْهُ علىٰ خوفه منه أَمْراً يُبيح له ذلك ؛ كإخراجِ وظيفته التي يتقوَّتُ من معلومها عنه ، أو نفيِهِ من بلده ، ونحوِ ذلك ، وإذا رأيتَ شخصاً يُسارِرُ امرأةً في طريق[٢] . . احملْهُ علىٰ أنَّها حليلتُهُ أو مِن محارمه ، أو هي ممَّن لا يُخشىٰ منها الفتنةُ ، وقِسْ علىٰ ذلك يا أخي ما يشاكله ، فالحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) رواه أبو عمرو الداني في « السنن الواردة في الفتن » (٢٣٨) ، ورواه مرفوعاً الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٩٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) المُسارِرة : الكلام بصوت منخفض .

[حملُهُ كلامَ الأكابر علىٰ أحسن الوجوه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : حملي لكلام الأكابر علىٰ أحسنِ الوجوهِ ولو لم يكن ذلك مُراداً للمتكلِّم لنقص مقامِهِ عن ذَوْقِ مثلِ ذلك ؛ كلُّ ذلك سدّاً لباب تنقيص أحد منهم بين الأراذل ، وللتحقيق موضعٌ آخرُ ، فإذا سمعنا أحداً من الناس يقول اللهم ؛ احبِسْ عني ألسنةَ الناس الذين يقعون في عرضي . . حَمَلْناه علىٰ أنَّه ما قال ذلك إلا شفقةً علىٰ دين مَن نَقَّصَه ، لا خوفاً من تنقيصه هو ، أو حَمَلْناه علىٰ إظهار الضعف من نفسه ؛ هضماً لها بين الناس ، لا سيَّما إن سمعنا ذلك من أحد من العلماء العاملين ، وعلىٰ ما ذكرناه يُحمَل قولُ موسىٰ عليه السلام : (يا ربِّ ؛ احبِسْ عني ألسنةَ عبادِكَ)[1] ، فإنَّ من مقام مثلِ موسىٰ عليه السلام . . أنَّه لا يطلبُ مقاماً عند الخَلْق لحظِّ نَفْسٍ ، وإنَّما يطلبُ حفظَ مقامه عند قومه حتىٰ يقبلوا كلامَهُ في الخير الذي يدعوهم إليه ، ولا يتعبَ في هدايتهم .

ومن هنا قال العارفون : من شرط الداعي إلى الله أن يكونَ محفوظاً من الزَّيغ عن الشريعة ، وإلا قَلَّ النَّفعُ به ، وعلىٰ ذلك يُحمَلُ أيضاً قول هارون عليه السلام ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ، فإنَّه إنما قصد بالدعاء عدمَ وقوعهم في الشماتة ؛ خوفاً أن يذهبَ دينُهم ؛ فإنَّ مَنْ شَمِت في نبيٍّ كفَرَ .

---

(١) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٣/ ١٥٩٥) ، وفي (ب) : (عيسىٰ) بدل (موسىٰ) .

وهـٰذا الخلقُ الذي ذكرناه قليلٌ مَنْ يتخلَّقُ به ، بل غالبُهم يبادر إلى الإنكار

وقد جاءني شخصٌ من طلبة العلم ، فقال ما بقيتُ أعتقد في فلان ، فقلتُ له وما ذلك ؟ فقال سمعتُهُ يقول أنا أعلمُ مَنْ في مصر ، فقلتُ له : يحتمل أن يريدَ : أنا أعلمُهم بزَلَّاتي ، أو بما في بيتي ، أو ببدن زوجتي ، أو بما في صندوقي ، فقال لي : وسمعته أيضاً يقول أنا أفضلُ من العالم الفلاني ، فقلت له يحتملُ أن يريدَ : أنا أفضلُ عند نفسي الخبيثةِ ؛ أي مع أنَّ فلاناً أفضلُ مني ؛ كأنه يذمُّ نفسَهُ علىٰ دعواها ويقول : أنا مخطئٌ في ذلك .

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أنَّ الكلامَ إذا احتَمل تأويلاً حَرُم الإنكارُ ؛ إذ الإنكارُ لا يسوغ شرعاً إلا إذا لم يحتمل الكلامُ التأويلَ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين .**

[عدمُ مطالبته بوفاء العهد له لمن خالف عهدَ الله وعهدَ رسوله صلى الله عليه وسلم]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : عدمُ مطالبتي لمن يُخِلُّ بالوفاء بعهود الله وعهودِ رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فلا أُطالِبُه بالوفاء بعهدي أنا ؛ لأنَّه إذا لم يصحَّ له الوفاءُ بعهد ربِّهِ وعهدِ رسوله . . فكيف يصحُّ له الوفاءُ بعهدي مع شهود نقصي ومماثلتي له ؟! وذلك كأن أطلبَ من إخواني أنهم يراعوني في الرَّخاء كما يراعوني في الشِّدة ، أو لا يُغيِّروا عهدي الذي عاهدتُهم عليه من فعل الأوامر واجتنابِ النواهي ؛ فإنِّي ولو طلبتُ ذلك منهم لا يقدرون على الوفاء

به بحكم القبضتين(١) ، وقد قال تعالىٰ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس ١٢] ، وقال تعالىٰ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ . . . ﴾ الآية [الزمر : ٨] .

فإذا كان هـٰذا فعلَ العبد مع خالقه ورازقِهِ ومَنْ حوائجُهُ كلُّها لا تخرج إلا من عنده . . فكيف يصحُّ له فعلُهُ مع شخص مثلِهِ لا قدرةَ له علىٰ شيء من ذلك ؟! ومعلوم : أنَّ الكُمَّل من الأولياء على الأخلاق الإلـٰهيةِ تبعاً للأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ ، فشيءٌ لم يجعلْهُ الحقُّ تعالىٰ لنفسه مع غناه وقدرته . . فكيف يصحُّ فعلُهُ لعبد من عبيده ؟! وقد صحب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جماعةٌ ، وكتبوا عنده الوحي ، ثم غيَّرُوا وبدَّلُوا وكفروا بعد إيمانهم ؛ كعبد الله بن [خطل] وأضرابِهِ(٢)

---

(١) حديث القبضتين رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٦) عن أبي نَضْرَة : أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له : أبو عبد الله . . دخل عليه أصحابه يَعودونه وهو يبكي ، فقالوا له ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُذْ من شاربِك ثم أقِرَّهُ حتىٰ تلقاني » ؟! قال : بلىٰ ، ولـٰكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله قبض بيمينه قبضة وأُخرىٰ باليد الأخرىٰ وقال : هـٰذه لهـٰذه وهـٰذه لهـٰذه ، ولا أبالي » فلا أدري في أيِّ القَبضتين أنا .

ومعنىٰ (أقرَّه حتىٰ تلقاني) : أي : دُم عليه حتىٰ تلقاني على الحوض .

(٢) ترددت النسخ بين (خطلة) و(حنظلة) ، والتصحيح من المصادر . انظر « جمع الوسائل » (١/ ١٦١) .

فعُلِمَ : أنَّ الواجبَ على الداعي إلى الله البلاغُ فقط ، وأما امتثالُ الأمر مثلاً فذلك إلى الله تعالىٰ ، لا إلى الداعي ، ومتىٰ طلبَ الداعي عدمَ مخالفة المدعوِّ لشيء مما أَمرَه به أو نهاه عنه . . فلا يناله سوى العناءِ والتعبِ ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[حمايتُهُ من الاختصاص بما وقف عليه وعلىٰ ذريته]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ حمايتي من الاختصاص عن الفقراء بشيءٍ وُقِف عليَّ وعلىٰ ذريتي فقط ، وقد وقف عليَّ شخصٌ دواليبَ قمحٍ وسمسمٍ[1] ، فصرفت أجرةَ ذلك في مصالح الفقراء وطعامهم ، وأكلتُ من ذلك كواحد منهم ؛ وذلك لأنِّي أفهمُ من الواقف بالقرينة أنه لولا ظَنٌّ بي عدمَ الاختصاص عن الفقراء ما أوقف عليَّ شيئاً ، فحققتُ ظنَّه وقمت بواجب حقِّ إخواني ، مع أن مكاتيبَ هـٰذه الدواليبِ باسمي واسم ذرِّيتي فقط ، ليس لغيرهم معهم نصيبٌ ، وهـٰذا من أعظم أخلاق الرجال ، ولم أَرَ له فاعلاً من أهل عصري ، إنما يختصُّ أحدُهم بذلك ولا يشرك معه أحداً ، وإن نازعه أحدٌ من الفقراء يُخرِج له مكتوباً يشهد له بذلك ولو علم قيامَ القرائن من الواقف بخلاف ذلك

ثم إذا أردنا الاختصاصَ بشيء فلا يكونُ ذلك إلا عند الضرورة ، وأما وقتُ الرخاء فلا ؛ عملاً بحديث « لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ يحبَّ لأخيهِ المسلمِ ما يحبُّ لنفسِهِ »[2] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) قال دوزي في « تكملة المعاجم » (٤/ ٤٥٠) : (الدولاب المكان الذي فيه عدة دواليب ، ومن هـٰذا قيل للأرض التي تروىٰ بهـٰذه الآلة : دولاب)

(٢) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

[تعفُّفُهُ عن الأكل من طعام من عُرِف بقِرى الضيف]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ تَعفُّفِي عن الأكل من طعامِ مَنْ عُرِفَ في هـٰذا الزمانِ بقِرى الضيف من مشايخ البلاد والعربِ وفقهاءِ الأرياف وغيرِهم ؛ وذلك لأنَّ مَنْ عُرِفَ لا يقدرُ علىٰ تهيئة الطعام لكل من وردَ عليه إلا بتكلُّفٍ ، وبتقدير أن نفسَهُ تسمحُ بذلك فالعيالُ لا يصبرون على الخدمة ؛ مِنْ غربلة القمحِ والعجين والخبز والطبخ ، وكلُّ طعام دخلَهُ التكلُّفُ فالأكلُ منه مذمومٌ شرعاً ، فإنْ ضاقَ الوقتُ علينا عن البَياتِ عند غيره . . بِتْنا عنده وكافأناه علىٰ كُلْفتِهِ لنا ولدَوابِّنا ولو بزيادة علىٰ ثمن ذلك .

وسمعتُ سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول (لا تأكلوا من طعام المُتكلِّفين ؛ فإنه كطعام البخيل علىٰ حدٍّ سواء ، وطعامُ البخيلِ داءٌ كما ورد)(١)

وكان سيدي إبراهيم المتبولي يقول : (كل فقيرٍ لا يمدُّ صاحبَ الطعام بالبركة الخفيّةِ في رزقه طولَ سنته . . فليس له أن يَمُدَّ يدَهُ إلىٰ طعامه)

وسمعتُ سيدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول : (كلُّ فقير لا يحمل عن صاحب الطعامِ البلاءَ النَّازلَ عليه طولَ سنته . . فليس له أن يَمُدَّ يدَهُ إلىٰ طعامه) ، وقال : (هكذا دَرَجَ الفقراءُ الصادقون) انتهىٰ

وهـٰذا الخلقُ غريبٌ في فقراء هـٰذا الزمانِ ؛ فينامون عند مشايخِ العرب وغيرِهم ممن صار مورداً للناس ، ويأكلون من طعامهم ، ولا عليهم منَّةٌ إن

---

(١) رواه الخطيب في « البخلاء » (٢٢) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

كان ذلك بطيبة نفس أو كَرْهاً عليه ؛ من حيث خوفُهُ العتبَ

بل ربَّما رأىٰ بعضُهم الجميلةَ له الذي أكلَ طعامَهُ وبات عنده ، وربَّما يقول النقباءُ لصاحب الطعام حَصَلَ لك الخيرُ الذي بات سيدي الشيخُ عندك ، وربَّما كان صاحبُ الطعام مستنداً لفقير آخرَ لا يعتقدُ شيخاً غيرَهُ ، فينزلُ عليه هـٰذا الشيخُ الآخرُ ، فيحصل له الثقل من وجوهٍ لا تخفىٰ ، وربَّما كان أصحابُ الطعام أطفالاً من أولاد مشايخ الزوايا مات والدُهم ولم يَقسِم التركةَ بينهم ، وهم قاصرون لا يُتصوَّر منهم إذنٌ في قِرى الضيف مما يخصُّهم ، وهـٰذا واقع كثيراً ، فيَقِفُ النقباءُ في زاوية الشيخ الذي مات ويصيرون يعملون الطعامَ من مالِ الأطفالِ ، ويقولون لأُمِّهم مثلاً : نريدُ أن نفتحَ عينَ الزاوية ويطلع أولادُكِ مشايخَ موضعَ والدهم ، وهـٰذا لا يجوز شرعاً إلا إذا كان للزاوية شيءٌ موقوفٌ على الضيوف ، فليَتنبَّهِ المتدينُ لمثل ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين

[حمايتُهُ من أخذ معلوم علىٰ فعلٍ من القربات الشرعية]

ومما أنعمَ اللهُ به عليَّ : حمايتُهُ لي من أخذ معلومٍ دنيويٍّ علىٰ فعل شيءٍ من القُربات الشرعيةِ ولو أنَّ الواقِفَ صرَّح في كتابِ وقفِهِ باسمي ؛ فلا آخذُهُ إلا وقت ضرورة من الضرورات الشرعيَّةِ ، بشرط ألا أجدَ غيرَهُ ، ثم إنْ أخذتُهُ عند الضرورة فلا آخذه إلا ابتداءَ عطاءٍ من الله تعالىٰ ، لا في مقابلة فعلِ ما وقف ذلك عليه .

ومِحَكُّ الصدق لمن يدَّعي حصولَ هـٰذا المقامِ له ألا يقطعَ مباشرةَ الوظيفةِ إذا صار الوقفُ رقبة ، بل يباشرُها حسبةً لله تعالىٰ ، ومِحَكُّ

الصدق ألا يطالبَ أيضاً بمعلومه ناظراً ولا جابياً ، لا تصريحاً ولا تعريضاً ، وأمَّا مَنْ يشتكيه من بيوت الحُكَّام أو يَذمُّهُ بين الإخوان . . فهو لم يَشَمَّ من هٰذا المقامِ رائحةً .

فعُلِمَ : أنَّ من كمالِ دينِ الفقير ألا يأخذَ معلوماً علىٰ نظر مسجدٍ ، ولا علىٰ خطابة ، ولا إمامة ، ولا تدريس علم ، ولا فراشة في مسجد ، ولا وقادة فيه ، ولا بوابة ، ولا قراءةِ سُبُعٍ ، ولا قراءة جزءٍ ، ولا غيرِ ذلك من سائر القرباتِ الشرعيَّةِ

وعلىٰ ذلك دَرَجَ العلماءُ العاملون ، ونفَذتْ به وصايا المشايخ لمريديهم في سائر أقطار الأرض ، وكان ذلك من خُلُقِ الشيخ أبي إسحاق الشيرازي والإمام النووي رحمهما الله تعالىٰ ، وهو عزيز في هٰذا الزمان ، بل لم أرَ له فاعلاً ، ومن قال إنَّ اللهَ تعالىٰ لم يجعلْ رزقي إلا من هٰذا البابِ . . قلنا له : صحيحٌ ، نحنُ ما نازعناك في أنَّ رزقَكَ كذلك ؛ فإنَّ الرزقَ ما يُنتَفَعُ به ولو حراماً ، وإنَّما الشأنُ في سلوك الطريقِ المستقيمِ التي جعلَها اللهُ لأوليائه وأصفيائه ؛ من أنهم يأخذون ذلك المعلومَ ابتداءَ عطاءٍ من الله تعالىٰ ، لا بيعاً لتلك القُربة بذلك المعلومِ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ قبوله مرتَّباً زائداً علىٰ إخوانه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : إذا كان لي مُرتَّبٌ في وقف مثلاً ، لا في مقابلةِ عملٍ . . ألا أقبلَ منه شيئاً زائداً علىٰ إخواني المستحقِّين فيه ، ولو أعطاه الناظرُ لي سرّاً من باب الإكرامِ . . رددتُهُ عليه ؛ خوفاً من التميُّز عن إخواني المسلمين ودخولي في كراهة الله عزَّ وجل ، لا لعلَّة أخرىٰ من ثواب أو

غيره ؛ فإنَّ عبدَ الثواب معدودٌ من النساء عند أهل الطريق لا من الرجال ، وإن كان له لحيةٌ كبيرةٌ

وهٰذا الخُلُق لم أَرَ له فاعلاً من أقراني ، بل ربما يطلبون التميُّزَ عن إخوانهم سرّاً وجهراً .

وقد رأيت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يعطي عاملَ البُرُلُّس عادتَهُ التي يأخذُها من أهل البُرُلُّس الساكنينَ في مصرَ بسبب فلاحة السمكِ وغير ذلك ، مع أنَّ معه مربعةَ السلطان قايتباي بالإعفاء من جميع المغارم[1] ، ويقول : إن الله تعالىٰ يكره العبد المتميِّزَ عن أخيه حتىٰ في ترك وزن المغارم التي يجعلها الظَّلَمةُ على النَّاس ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ مطالبته لمن له عليه حقٌّ دنيوي إذا وجد ما يكفيه]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : عدمُ مطالبتي لمن لي عليه حقٌّ في الدنيا ما دمتُ غنيّاً عن مثله ولو بكِسْرةٍ من خبز الشعير وخَلَقَة من الخيش[2] ، ولٰكن إن أتىٰ به مِنْ غير مطالبةٍ قَبِلْتُه منه ابتداءَ عطاءٍ من الله تعالىٰ ، وإن لم يأتِ به لا أُطالبُهُ به في الدنيا ولا في الآخرة ، لا بنفسي ولا بوكيلي ؛ بانشراحِ صدرٍ لذلك ، إلا أن يكون الحق فيه لغيري

وهٰذا الخُلُق غريبٌ في الإخوان اليوم ، بل لم أرَ له فاعلاً ، وهو من أخلاقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنَّه لمَّا رعى الغنمَ لخديجةَ هو

---

(١) **المربعة** : براءة ومرسوم ، سميت مربعةً بسبب شكلها المربع ، ولأنا نجد فيه المراسيم المربعة . « تكملة المعاجم » (٥/ ٧٨) .

(٢) **الخَلَق** : البالي

ورجلٌ آخرُ . كان رفيقُهُ يقول له يا محمد ؛ طالِبْ خديجةَ ، فيقول صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَسْتَحْيِي »

فعلم أنَّ مَنْ أَخَذَ مالَهُ بالمطالبة به عند الحاجة . . فلا حرجَ عليه ؛ لكونه يَكُفُّه عن سؤالِ الناس ، ويُعتِقُه من تحمُّلِ مِنَّةِ الخَلقِ الذين يتفقدونه بما يأكل ، وبما يشرب ، ونحو ذلك

ثم إن وقعَ أنَّني طالبتُهُ بشيء عند الحاجة وتعلَّلَ بضيق اليد . . لا أُكذِّبه ، ولا أُحلِّفه بالله تعالىٰ أنَّه صادقٌ ، بل أُسامحُه ؛ إكراماً لله تعالىٰ ثم لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه معدوداً من أُمَّته ، ويحبه صلى اللهُ عليه وسلم ، لا لعلة أخرىٰ من ثواب وغيره ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ رؤيته في نفسه أنه أحقُّ بما عنده من المسلمين]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ رؤيتي في نفسي أنَّني أحقُّ بما عندي من النقود والثياب والطعام وغيرِ ذلك من غيري ، إلا إن كنتُ أحوجَ إلىٰ ذلك من إخواني المسلمين ، فأُقدِّم نفسي حينئذ ؛ عملاً بحديث : « ابدأْ بنفسِكَ ثمَّ بمَنْ تَعولُ »(١) ، وبحديث : « الأقربونَ أولىٰ بالمعروفِ »(٢) ، ولا أقربَ إليَّ من نفسي ؛ فهي أقربُ جارٍ لي ، بل هي حقيقتي ، وهـٰذا الخُلُق لا يصحُّ لأحد التخلُّقُ به إلا بعد إحكامه مقامَ الزُّهدِ الكاملِ في

---

(١) رواه بنحوه البخاري (١٤٢٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٩٩٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه

(٢) قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص١٣٤) (ما علمته بهـٰذا اللفظ ، ولـٰكن قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة « أرىٰ أن تجعلها في الأقربين » [البخاري ١٤٦١]) .

الدنيا ، وتخلُّقِهِ بالرحمة على جميع خَلْقِ الله تعالىٰ .

ومحكُّ الصِّدق في ذلك أنَّه لو كان عنده قِدْرٌ من الذهب فسرقها إنسانٌ من غير عِلْمه ، أو أخذها بحضرته . . يسكت ولا يتغيَّرُ منه عليه شعرةٌ واحدةٌ ، ولا يقول له اتركها ، ولا لأيِّ شيء تأخذُ ذلك ؟! ومتىٰ رجَّحَ من يَدَّعي هـٰذا المقامَ ـ ولو بقلبه ـ أنَّ تركَ اللصِّ لقِدْرِ الذهبِ أحسنُ من أخذها . . فهو لم يَشَمَّ من هـٰذا المقامِ رائحةً ، إنَّما هو مُتفعِّل ، ولم أرَ أحداً من إخواني تخلَّقَ بمثل ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ التفاته إلىٰ شيء وقع منه أو نسيه ؛ تحقيراً للدنيا]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ التفاتي إلىٰ شيءٍ وقعَ مني أو نَسِيتُه في مكان وذهبتُ ، ولو إردبّاً من الذهب ، ولا أبعثُ قطُّ منادياً يُنادي (مَن رأىٰ كذا ؟) هواناً بالدنيا ، وتنشيطاً لهمم المريدين ، اللهمَّ إلا أن يكونَ ذلك المالُ الذي ضاع مني حلالاً لا أجدُ غيرَهُ في ذلك الزمانِ أو كان مِلْكاً للغير ، فهـٰذا يجبُ عليَّ أن أبعثَ منادياً ينادي : (مَن رأىٰ كذا وكذا ؟) ، كما وقعَ في عِقْد عائشةَ رضي الله عنها لمَّا ضاع في قصَّة نزولِ آيةِ التيمُّمِ(١)

ثم إنَّا إذا لم نُفتِّش علىٰ ما ضاع منَّا . . فلا بدَّ من براءتنا لذمَّة مَن وجدَه في الدنيا والآخرة ؛ حتىٰ لا يقعَ في أكل الحرامِ إذا لم يُعرِّفْهُ بطريقه الشرعيِّ ، وحتىٰ لا يكونَ لنا مطالبةٌ عليه في الدار الآخرة ؛ فإنه لا بدَّ من اجتماع الأخصامِ في ذلك اليومِ الشديدِ ، وربما تاهَ الخَصْمُ عن خصمه ؛ لكثرة الخَلْقِ المجتمعين في ذلك الموقف ؛ فلا نجِدُ خصمَنا إلا بعد مقدار

---

(١) روى القصة البخاري (٣٣٤) ، ومسلم (٣٦٧) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

سنة أو أكثرَ ، ولا يمكنُهُ أن يدخلَ الجنةَ إلا بعد إعطاء ما عليه من الحقوقِ ، فإذا أبرَأْنا ذِمَّتَه في الدنيا . أَرَحْناه من طول انتظارِهِ لنا ، وهـٰذا خُلُقٌ لم أَرَ له فاعلاً من أقراني ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تركُهُ المزاحمةَ على الدنيا]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ من صغري عدمُ مزاحمتي علىٰ شيء فيه رئاسةٌ دنيويةٌ مطلقاً أو أُخرويةٌ ، وكان هناك مَنْ هو أولىٰ بها مني[1] ؛ لكثرةِ علمه ، أو كِبَرِ سنِّه ، أو كثرةِ احتماله الأذىٰ ممَّن يترأسُ عليهم ، أو كان مساوياً لي في مثلِ ذلك ؛ فأُوثِرُ مَن ذُكر بالرئاسة ولا أنازعه قط

فإذا كنتُ أَخطبُ بالناس ، أو أَؤمُّ بهم ، أو أُدرِّسُهم العِلمَ ، أو أعظهم ، أو أُسلِّكهم ، وجاءني شخصٌ يريد أن يكونَ مكاني ، وهو أهلٌ لذلك . . تركتُ ذلك له بانشراح صَدْرٍ ؛ لأنَّ مقصودَ الصادقين إنما هو إقامةُ شِعار الدين من حيث هو ، لا بشرط كونهم همُ الفاعلونَ لذلك ، ومتىٰ نازعْنا مَنْ يطلبُ منَّا ذلك ولم نتركْهُ له . . فنحن محبُّون للرئاسة من حيث هي رئاسةٌ ، وذلك معدودٌ من الدنيا التي زعمْنا أننا زَهِدْنا فيها ، وهـٰذا أمرٌ لم أَرَ له فاعلاً في مصرَ غيري

بل إذا جاءني بحمد الله شخصٌ يطلُبُ منِّي أنَّني أُسلكُهُ . . أُرسِلُه إلىٰ غيري ، وإن رأيتُهُ قليلَ الاعتقاد فيه حسَّنتُ ظنَّهُ فيه حسبَ الطَّاقة ، فالحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) العبارة في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٤٦٩) : (لا سيما إن كان هناك من هو أولىٰ بها مني) .

[حذرُهُ من إبليسَ كلما ارتقىٰ مقامه]

ومما أنعمَ اللهُ به عليَّ كثرةُ حذري من إبليسَ كُلَّما ترقَّيتُ في المقامات ؛ لعلمي بأنَّه بالمرصاد لي سواءٌ أكنتُ مستقيماً أم أعوجَ ، فهو يلازم المستقيمَ ليترقَّبَ له وقتاً يُغويه فيه ؛ مِنْ غَفْلةٍ أو سهوٍ ، أو تأويلٍ ، أو تزيين ، وأمَّا الأعوجُ فهو من جملة حزبه

فعُلِم أنَّه لا يُفارقُ أحداً من الخَلْق من مستقيمٍ أو أعوجَ ، ولٰكنَّ الله عز وجل يحفظُ الأكابرَ من العمل بما يوسوسُ لهم به ، فهو يوسوسُ لهم وهم لا يعلمون بذلك ؛ إما عصمةً ، وإما حفظاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج : ٥٢] .

وسمعتُ سيدي علياً الخوَّاصَ رحمه الله يقول (كلما قرُبَ العبدُ من حضرةِ الله تعالىٰ . . كلما كان إبليسُ له أشدَّ ملازمةً ؛ لعلمه بكثرة ضلالِ الناسِ إذا ضَلَّتْ أئمتُهم حين خرجوا من حضرة الله تعالىٰ ، وأنَّ الجالسينَ في حضرة الله تعالىٰ . . ليس له عليهم سبيلٌ ؛ فهو واقفٌ علىٰ باب الحضرة ينتظرُ مَنْ يَخرُجُ منهم وهو غافلٌ ، فيَركبُهُ كما يركبُ الإنسانُ حمارتَهُ ، ويتصرَّفُ فيه بما شاء حسبَ الإرادةِ الإلٰهيةِ ، فإنْ حصلَ للعبد حضورٌ مع الله تعالىٰ نزلَ إبليسُ لوقته أسرعَ من لمحِ البصرِ ؛ خوفاً أن يحترق) .

[مطلبٌ
في المراد بالحضرة إذا أُطلقت]

واعلمْ أنَّ حضرة الله تعالىٰ حيث أُطلِقَت في لسان القوم.. فالمرادُ بها شهودُ العبد أنَّه بين يدي الله تعالىٰ ، وأنَّه تعالىٰ ناظرٌ إليه ، فما دام مستصحِباً لهـٰذا الشهودِ.. فهو في الحضرة ، فإذا احتجبَ عنه هـٰذا المشهدُ.. خرجَ في أسرعَ من لمحِ البصرِ والناسُ في ذلك متفاوتون بحسب القسمة فمنهم مَنْ لا يدخلُ الحضرةَ كما ذكرنا إلا في صلاته ، ومنهم مَنْ يدخلُها في غير صلاته نحوَ درجةٍ ، ومنهم مَنْ يدخلُها في النهار درجتين ، وهـٰكذا ، وأكملُهم مَنْ يَمُنُّ اللهُ تعالىٰ عليه بهـٰذا الشهودِ ليلاً ونهاراً ، إلا في أوقاتٍ يُسامِحُ اللهُ تعالىٰ فيها العبدَ ، ومن هنا قال العارفون : (إنَّ مراقبة الله تعالىٰ مع الأنفاس ليست من مقدور البشر)

وكان معروفٌ الكرخيُّ يقول : (لي منذ ثلاثينَ سنةً في حضرة الله تعالىٰ ما خرجتُ منها) ، وكذلك كان سيدي إبراهيمُ المتبوليُّ ، ولـٰكنه قال (لي سبعَ عشرَةَ سنةً في حضرة الله تعالىٰ ما خرجت) ، ومرادُهما ما عدا الأوقاتِ التي يُسامَحُ الخَلْقُ بها ، وإلىٰ هـٰذا المقامِ الإشارةُ بقوله صلى الله عليه وسلم « لي وقتٌ لا يسعُني فيه غيرُ ربي »(١) ، فنكَّرَ الوقتَ ، وهو يَصدُقُ بالوقت الطويل والقصير ، وقد كان سهلُ بنُ عبد الله التستريُّ يقول (لي منذُ ثلاثين سنةً أُكلِّمُ اللهَ والناسُ يظنون أنَّني أُكلِّمُهم)(٢) ، فإذا كان

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٢٧٦)
(٢) أورده الكلاباذي في « التعرف لمذهب أهل التصوف » (ص٩٧) .

هٰذا حالَ بعضِ أفرادٍ من خواصِّ أُمَّتِه صلى الله عليه وسلم.. فكيف بصاحب المقامِ الأكبرِ وسيِّدِ أهلِ حضرةِ الله على الإطلاق ؟!

وقد نقل الجلالُ السيوطيُّ رحمه الله تعالىٰ في « الخصائص » أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بشهودِ الحقِّ تعالىٰ مع الخَلْقِ حالَ المخاطبة ، فلا يحجبُهُ الحقُّ عن الخَلْقِ ولا عكسه

فتأمَّل ما ذكرتُه لك ؛ فإنَّه من لُبابِ المعرفة ، ولم أَرَ أحداً من إخواني تخلَّقَ بالحذر من إبليسَ كلما ترقَّىٰ في المقامات إلا النادرَ ؛ فإنَّ أحدَهم بمجرَّد ما يصير اسمُهُ (سيدي الشيخ).. يظنُّ أنَّ إبليسَ فارقَهُ وما بقيَ له عليه سلطنةٌ !! بل سمعتُ بعضَهم يقولُ نحن لا نَعرفُ إبليسَ أصلاً ، وما ثَمَّ إلا اللهُ تعالىٰ ، فيقالُ لهٰذا بتقدير صِدقِه أنَّه لا يشهدُ إلا اللهَ : فهل زال إبليسُ من الوجود أم هو باقٍ وأنتَ حُجِبتَ عن أحواله لنقصِكَ ؟! فلا يَسعُه إلا أن يقولَ هو موجودٌ ، وإلا كَفَرَ بالقرآن ، فيقالُ له لو حقَّقتَ النظرَ لوجدته ـ لعنَهُ اللهُ ـ يَدِقُّ مع أصحابِ المقاماتِ ولا ينقطع ، فبعدَ أنْ كان يوسوسُ لهم بالمعاصي الظاهرة.. صار يوسوسُ لهم بالمعاصي الخفيَّة

وسمعتُ سيدي عليّاً الخوَّاصَ رحمه الله يقول : (كلما علا مقامُ العبدِ كلما تَسدَّجَ باطنُهُ وقبِلَ الحيلةَ من إبليسَ[1]) ، ومن هنا صدَّقَهُ آدمُ عليه السلام لمَّا حلفَ له بالله إنَّه لَمِنَ النَّاصحين ؛ فإنَّ آدمَ مِنْ كثرة إجلاله لله تعالىٰ ظنَّ

---

(١) في النسخ عدا (ج) : (شرح) بدل (تسدَّج) ، ومعنىٰ (تسدَّج) : تخلَّق وتكذب وتقول الأباطيل

أنَّ أحداً لا يحلِفُ به باطلاً) انتهىٰ ، فلله الحمد الذي نبَّهَنا علىٰ مثل ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين

[تعظيمُهُ للإخوة عند الأمراء والكُبراء]

ومما أنعمَ اللهُ به عليَّ كثرةُ تكبيري بإخواني عند الأمراءِ والكُبرَاء في غَيبتِهم ، وكَثرةُ تحسيني اعتقادَ ذلك الأمير الذي صَحِبني فيهم ، وأَفرحُ إذا تغيَّرَ اعتقادُ ذلك الأميرِ فيَّ ، وصَحِبَهُم وأنكرَ عليَّ واعتقدَهم ، وهـٰذا الخُلُق عزيزٌ في الإخوان

واعلمْ يا أخي أن المعين لي علىٰ عدم التغيُّرِ من الولاة إذا قلَّ اعتقادُهم فيَّ . . كوني لا أَصحبُهم لعلَّةٍ دنيويةٍ ، إنما أَصحبُهم لله تعالىٰ لمصالحِ العبادِ ، فإذا أعرضوا عني أقبلتُ بقلبي على الله تعالىٰ واشتغلت به وحدَهُ دونَ خَلْقِه ؛ كما أشار إليه قولُهُ تعالىٰ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۞ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ ؛ يعني صاروا يعرفون الحقَّ الذي قلتَ لهم عليه ولا يحتاجون إلىٰ تعليمك ، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر ١ـ٣] ، فأمَرَه بالاستغفار مِنَ الاشتغال بأمر الخَلْق ، مع أنَّه كان في ذلك تحتَ أمرٍ إلـٰهيٍّ ، ولـٰكنه ثَمَّ مقامٌ رفيع ومقامٌ أرفع ، فافهم .

ولعلَّ هـٰذا المعنىٰ لم يَطرُقْكَ عِلْمُه قطُّ ، وهو استنباطٌ حَسَنٌ ابنُ وقتِهِ ، من باب (حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين)(١)

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخه » (٥/ ١٣٧) من قول أبي سعيد الخرَّاز رحمه الله تعالىٰ بلفظ : (ذنوب المقربين حسنات الأبرار)

فعُلِمَ : أنَّ كلَّ مَن لم يَصحَبِ الولاةَ والأكابرَ لله . . فمِنْ لازمه غالباً قِلَّةُ التكبير لإخوانه عندهم ؛ خوفاً أن ينفروا عنه ويقطعوا هداياهم وبِرَّهم ، ونحو ذلك ، وفي الحديث « جُبِلَتِ القلوبُ علىٰ حُبِّ مَنْ أحسنَ إليها »[١] ، ومَنْ كان مشهوده : أنَّ المُحسِنَ له هو الخَلْقُ . . تكدَّرَ ضرورةً ؛ بسبب تحولهم عنه ، بخلاف مَن كان مشهودُهُ : أن المُحسِنَ هو الحقُّ جل وعلا ؛ فلا يتكدر منه ذرَّةٌ إذا تحول الخَلْقُ عنه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[أجوبتُهُ عن أئمة الدِّين وحملُ أقوالهم وأفعالهم على المحامل الحسنة]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ كثرةُ الأجوبة عن أئمة الدِّين من العلماء والصوفية ، ولا أَحمِلُهم إلا علىٰ أحسنِ المحاملِ في أفعالهم وأقوالِهم ، وإنْ عجزتُ عنِ الجواب عنهم . . سلَّمتُ لهم ، ووقفتُ عن الإنكار عليهم ؛ وذلك لعلمي بأنَّ منازعَهم دقيقةٌ علىٰ عقولِ أمثالِنا ، لا سيَّما الأئمةِ المجتهدين ، وكُبراءِ مُقلِّدِيهم ، وأنَّىٰ لأمثالنا أن يتصدَّىٰ لردِّ كلامهم

وقد تصدَّىٰ شخصٌ للردِّ على الإمام أبي حنيفةَ رضي الله عنه ، وأطلعني علىٰ مؤلَّفٍ وضعَهُ في ذلك ، فقلتُ له : أمَا تستحيي من الله تعالىٰ في الطَّعن في أئمةِ دِينِه الذين اختارَهم الله تعالىٰ من بين العلماء ؟! فلم يَسمَعْ لقولي ، ففارقني ، فوقعَ من سُلَّمٍ عالٍ في بيته ، فانكسر عظمُ ظهرِهِ ، فهو إلى الآن علىٰ مقور منذ أربع سنين[٢] ، وأرسل لي أن أَعُودَهُ ، فلم أفعلْ ؛ أدباً مع

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٥٧٣) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) المقور : هو الفراش المحدودب

الإمام أبي حنيفةَ رضي الله عنه أنْ أُوالِيَ مَنْ أساءَ الأدبَ معه .

هـٰذا في حقِّ الأئمة الماضينَ ، وأمَّا العلماءُ الأحياءُ فلا أقبلُ قطُّ عن أحدهم كلاماً فيه طعنٌ حتىٰ أجتمِعَ به وأفاوضه في ذلك الكلامِ ، فربَّما نقلَ الحسدَةُ عنه كلاماً باطلاً مُحرَّفاً عن مواضعه علىٰ خلافِ مُرادِ قائله ؛ ليَشُنُّوا الغارةَ عليه تَعصُّباً باطلاً ؛ ليطفئوا نورَهُ في البلد ، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ . . . ﴾ الآية [التوبة : ٣٢] ، وقد قالوا : (**الورعُ في المَنطقِ أعزُّ من الكبريتِ الأحمرِ**) ، وكان شيخُنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله إذا استفتاهُ أحدٌ عن أحد من علماءِ العصرِ . . يقول : (إن ثبتَ ذلكَ عنه بالطريقِ الشرعيِّ فالحكمُ فيه كذا وكذا) انتهىٰ

وقد دَريتُ أنا هـٰذا البابَ كثيراً مع حُسَّادي ، فكُلَّ قليلٍ يُحرِّفون عنِّي مسائلَ لم أَقُلْ بها يوماً من الدهر ، ثم يَستفتون عليها العلماءَ ، فيُفتَوْن علىٰ تقدير صحَّةِ السؤال عنِّي ، ويدورون بخطوط العلماءِ على النَّاس ، فيحصلُ بذلكَ غيبةٌ كثيرةٌ لي ، ولا أحدَ منهم اجتمعَ بي قط ، ولولا أني سامحتُ الخَلْقَ أجمعينَ في كلِّ ما يفعلونَهُ معي من الأذىٰ إلىٰ أن يموتوا . . لكان لي عليهم حقٌّ كثيرٌ ؛ فإنِّي لو شاححتُ أحداً من المتهورين في عِرضي من أهل جامعِ الأزهر وغيرِهِ . . لم يُرْضِني في الآخرة إلا أخذُ جميعِ أعمالِه الصالحة في نظير غيبةٍ واحدة ، هـٰذا فيمَن له أعمالٌ صالحةٌ ، أمَّا مَن لم يُخلِص في عِلمِهِ وعملِهِ . . فليس معه شيءٌ نأخذُهُ

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاصُ رحمه الله يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يؤاخذَ أحداً من الفَسَقة ولا من الكفار إذا أساؤوا عليه ؛ لأنَّ الفَسَقةَ أعمالُهم قليلةٌ

لا تَفِي بحقوق الناس ، والكفارَ ليس لهم في الآخرة عملٌ مقبولٌ) .

وسمعته أيضاً يقول : (إذا سامحتَ أحداً في حقٍّ هو لك ؛ من مال أو عِرْض . . فذلك في جانبك لا في جانب الحقِّ تعالىٰ ؛ من حيث انتهاكُهُ حرماتِ الله تعالىٰ ، وتعدِّي حدودِهِ بالكلام فيك بغير حقٍّ ، فإن ذلك ليس إليك ، وإنما هو إلى الله عزَّ وجلَّ يفعلُ فيه ما يشاءُ) انتهىٰ

فعُلِمَ مما قرَّرناه : أنه لا ينبغي للمفتي إذا علمَ بالقرينة أن المستفتيَ عدوٌّ لمن استفتي عليه . . أن يبادرَ إلى الكتابة ، وإنما يقول حتىٰ أجتمعَ بالرجل ، أو يقومَ عندي بذلك بيِّنةٌ عادلةٌ ، فربما كان ذلك غيرَ صحيحٍ عنه ، فيَحصلُ له بذلك الضَّررُ ؛ إذ الاستفتاءُ علىٰ شخصٍ كنايةٌ عن قِلَّةِ دينِهِ ، فهو كالتعزير له

[مطلبٌ
في افتراءِ الحسدة على المؤلف ادِّعَاءَهُ الاجتهادَ المطلقَ]

ووقع لي أنَّ شخصاً زوَّرَ عليَّ في جامع الأزهر أنني ادَّعيتُ الاجتهاد المطلقَ كأحد الأئمَّة الأربعة ، فلا تسألْ يا أخي عن كثرة الغيبةِ في عِرضِي حتىٰ كأنِّي وقعتُ في مُحرَّم ، وبادرَ المتهوِّرون وكتبوا بما لا ينبغي لمُتديِّنٍ ذِكرُهُ ، وتوقَّف عن ذلك المُتديِّنون ؛ كالشيخ ناصرِ الدين اللَّقَاني ، والشيخ شهابِ الدين الرمليِّ وولدِهِ ، والشيخ نجمِ الدين الغَيْطي ، والشيخ نورِ الدين الطَّنْدَتائيِّ ، والشيخ شمسِ الدين البرهمتوشيِّ ، رضي الله عنهم أجمعين ، والحالُ : أنَّ دعوى الاجتهاد المطلق لم تقع مني قطُّ ، وإنما

قصدَ الحسدةُ بذلك أن يلوثَ الناسُ بي[1] ، فيَقعون في عِرضي ، فيحصل لهمُ الإثمُ ، ويُثيرون بذلك الفِتنةَ ؛ كما وقعَ للجلال السيوطي رحمه الله تعالىٰ ، فأسألُ اللهَ تعالىٰ أن يغفرَ لهم ما جنَوه .

مع أن الاجتهادَ عند أهل الطريق يقع للمريدين فضلاً عن العارفين ، وعبارةُ الشيخ محيي الدين في « الفتوحات » (وإذا بلغ المريدُ مقامَ الاجتهاد : هل يُقيم تحت حكمِ أستاذِهِ أو يخالفُهُ ؟ الذي أراه أنه يقيم تحت حكمه حتىٰ يُرقِّيَه إلىٰ علمِ اليقين ، وعينِ اليقين ، وحقِّ اليقين) انتهىٰ ، وذلك فوق مقام الاجتهاد ؛ إذ غايةُ علم الاجتهاد الظنُّ ، فالله يحمي جميعَ إخواننا من الكلام في حقِّ أحد بغير حقٍّ .

ولا أعلم بحمد الله أحداً في مصرَ أكثرَ أجوبةً عن العلماء الأحياء والأموات مني ، فلو جلس عندي أحد سالِمٌ من التعصب وعرض عليَّ جميعَ مذاهب المجتهدين ومقلِّديهم . . لأجبتُ عنهم من غير تكلُّف .

وقد رأيتُ في واقعةٍ الإمامَ الأعظم أبا حنيفة وعن يساره الإمام مالك ، وأنا واقفٌ بين يدي الإمامين ، فقال الإمام مالكٌ للإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما : (لا نعلم أحداً أجاب عنا مثلَ هـٰذا الشابِّ من منذ متنا إلىٰ وقتنا هـٰذا) ، فسررتُ بذلك غايةَ السرور ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[انشراحُ صدره لتقديم زيارة من ينكر عليه علىٰ من يعتقده]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ انشراحُ صدري لتقديم زيارة من ينكر عليَّ ويكرهني علىٰ زيارة مَن يعتقدني ويحبُّني ؛ وذلك لأني من المحبِّ في قَرار

---

(١) لاث : حقَّر وأهان .

البحار ، وممن يكرهني في طباق النار ؛ خوفاً علىٰ دينه أن ينقُصَ بسببي ، فأطلب بزيارته إطفاءَ تلك النار عني وعنه ، أو تخفيفَ كراهته لي بسبب تردُّدي إليه ، وفي ذلك من رياضة النفس ما لا يخفىٰ علىٰ عاقل .

هـٰذا كلُّه فيمن يكرهني لعِلة غيرِ الحسد ، أما الحاسدُ فلا يرضيه إلا زوالُ نعمتي ، وذلك إلى الله تعالىٰ ، فليس لي قدرةٌ علىٰ دفع نِعمه تعالى التي قسمها لي عني ، وأنا أُعلِّمك ميزاناً تعرِف به مَن يكرهك حسداً ومَن يكرهك لغير ذلك ؛ وهو أن كلَّ مَن رأيته يكرهك ويحط فيك ، ولا يقدر علىٰ تصوير دعوىٰ عليك عند الحاكم أو عند الله في الدار الآخرة . . فاعلمْ أنه حسوديٌّ دق المطرقة ، فلا تُتعِب نفسَك في زيارته بقصد أنه يحبك ويزولُ ما عنده ؛ فإن ذلك لا يكون

وكان سيدي علي الخواص يقول (لا تطلبْ ممن يحسدك أنه يحبُّك إذا تواضعتَ له ، وقبَّلت رجله ؛ فإنك تُذلُّ نفسك في غير محلٍّ ، وتُكبِّر نفسه بغير حقٍّ) .

فعُلِمَ : أن العارفَ لا يقصد بزيارة عدوه إلا نفعَ عدوه في دينه ، دون خوفه هو من تنقيصه في المجالس ؛ فإن أولياءَ الله تعالىٰ يحملون أكثرَ من ذلك ، وقد تقدم في هـٰذه المنن : أن حكمَ من يريد تأثر الولي الصادق بكلام يقوله فيه . . حكمُ ناموسة تريد أن تُزيل جبلاً عن مكانه بنَفختها[1]

وأيضاً : فلو قدَّرنا تأثرَ العارف بكلام قيل فيه . . فهو يعلم أن له ربّاً يأخذ له حقَّهُ لا يغيب عنه مثقالُ ذرة مما يصنعه العدوُّ معه ، فهو راضٍ بذلك ،

---

(١) انظر (ص١٩٠)

وقد أرسل الله تعالىٰ للعدو ملَكين كاتبَين يكتبان عليه جميعَ ما يتلفَّظ به في حقِّ عدوه ؛ ليؤاخذَهُ الله تعالىٰ به يوم القيامة إن شاء ، ومن تحقَّق بعلم ذلك كشفاً وشهوداً . . ذهب تكدُّرُه ممن يكرهه جملةً واحدة

وسمعتُ سيدي عليّاً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول (لا شك أن كراهةَ المسلمين بغير حقٍّ نقصٌ في الدين ، ويَقِلُّ النقصُ ويكثر بحسب كثرة الكراهة وقلَّتها ؛ فمن كره ثلثَ أهل بلده مثلاً . . نقصَ ثلثُ دينه ، أو ربعَهم . . نقص ربع دينه ، وهٰكذا)

فمن فهم ما ذكرناه لم يكره أحداً بغير حقٍّ أبداً ؛ صيانةً لدينه أن ينقص ، ويحتاج من يريد التخلُّقَ بهٰذا المقامِ إلىٰ مجاهدة طويلة علىٰ يد شيخ صادق .

وقد اختبرت كثيراً من الفقراء الذين يدَّعون أنهم من أهل الطريق[1] ، فلم أجد أحداً منهم سالماً من الشحناء إلا قليلاً فضلاً عن العامة ، وكلُّ ذلك من قلَّة رياضة نُفوسهم علىٰ يد الأشياخ الكمل ، لا سيما إن كانوا مشايخَ في حارة واحدة ؛ فإنك تجدهم أشدَّ عداوةً من عداوة الأبرار للفجَّار ، ولو أن هٰؤلاء فُطِموا عن رعونات نفوسهم علىٰ يد الأشياخ . . لأحبوا جميعَ المسلمين من حيث أخوَّة الإسلام ، ثم كرهوهم من حيث عصيانهم برحمة وشفقة وإقامة عذر ؛ ككراهة الوالد ولدَهُ إذا عصىٰ ربَّهُ

وبالجملة : فإذا رأيت فقيراً يدَّعي الكمالَ يكره فقيراً كذلك يدَّعي

---

(١) في (ج) وحدها : (حضرت) بدل (اختبرت) .

الكمال . . فأحدهما دنياوي بيقين ، غارقٌ في حظ نفسه ، كاذبٌ في دعوى الطريق ، أو كلاهما[1]

وقد كنت أسمع الناسَ وأنا صغيرٌ يقولون لو لم يكن في اتباع طريق الفقراء إلا قولُ الفقير إذا سئل عن أخيه ونِعمَ من ذكرتَ . . لكان كفايةً ، بخلاف غيرهم ؛ فإنه ربما يقول : بئس مَن ذكرتَ ، فصار غالب الفقراء اليوم يقول عن أخيه : بئس من ذكرتَ ، ويظهر التكديرُ علىٰ وجهه إذا سمع أحداً يذكر أخاه بخير .

بل وقع أن شخصاً جاءني يطلب مني أن أُلقِّنه الذِّكْرَ وأربِّيَهُ ، فلم أرَ فيه صلاحيةً لذلك ، فجمع له جماعةً يذكر بهم ، وصار يقول لهم إياكم أن تزوروا فلاناً ؛ فإني ما رأيته يعرف شيئاً في الطريق ، فما أسرعَ ما حصلت المشيخةُ لهـٰذا ، حتىٰ صار لا يَرىٰ في مصرَ أحداً فوقه ، فالحمد لله الذي عافانا من ذلك ، والحمد لله علىٰ كل حال .

[عدمُ تقديمه نفسَهُ علىٰ إخوانه إلا برضاهم]

ومما أنعم اللهُ به عليَّ : عدمُ تقدُّمي علىٰ أحد من إخواني في شيء من الأمور التي فيها رئاسةٌ إلا برضاهم بذلك وسؤالِهم لي فيه ، أو لمصلحة أراها ترجح علىٰ ترك ذلك ؛ فلا أفتتح بهم قط مجلسَ ذِكْر إلا إن سألوني في ذلك ، بشرط ألا يكون هناك أحدٌ من الأشراف ، ولا أحدٌ أكبر مني سِنّاً ؛ فإن كان هناك شريفٌ أو أسنُّ مني . . قدَّمته عليَّ ؛ أدباً مع من هو أشرفُ مني وأكبرُ سِنّاً

(١) أي : كلاهما دنياوي ، غارق في حظ نفسه ، كاذب في دعوى الطريق .

ثم إنني إذا افتتحت بهم الذِّكْر بالشرط المذكور أقصد بذلك المبادرةَ إلىٰ تعجيل ذِكرِ الله عز وجل ؛ محبةً في الله ، لا لعلة أخرىٰ ، وهـٰذا خلقٌ ما رأيت له في عصري فاعلاً ، بل رأيتُ بعضَ المشايخ يستخدم الشريفَ ويمكنه أن يقف بين يديه ، وهـٰذا جهلٌ بالمراتب ، وسيأتي في نعمة محبتي للشرفاء مزيدٌ علىٰ ذلك[1] ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ رؤيته مُلكاً مع الله تعالىٰ]

ومما منَّ الله به عليَّ أني لا أرىٰ لي مُلكاً مع الله تعالىٰ في شيء أعطاه لي ، بل أخرج عنه إليه تعالىٰ ، ولا أبقيه علىٰ ذِمَّتي إلا بقدر ما أتحقَّقُ بالعطاء ؛ لأشكرَه عليه

وإيضاح ذلك أنه لا يصحُّ أن يتوارد علىٰ عين واحدة مِلْكان حقيقيان أبداً ، فهو تعالىٰ ولو أعطاني التصرفَ في أمر من الأمور . . لا أشهدُ لي مِلكاً فيه ، وإنما أنا كالوكيل في مال سيِّده بالمعروف ، وعبارةُ « المنهاج » في مذهب الشافعية : (ولا يَملِكُ العبدُ بتمليكِ سيِّدِه في الأظهر)[2]

فإنْ قيل : فإذا كان العبد لا ملك له فلِمَ حَرُمَ غصب ماله ؟

فالجواب أن تحريمَ الغصب ما جاءنا من جهة مِلك العبد ، وإنما هو من حيث تعدِّي الغاصب لحدود الله عز وجل ، وكأنَّ لسانَ الشارع يقول : كلُّ من غصب من أحد شيئاً قد حازه بالطريق الشرعي . . عذَّبه الله ، فالعذابُ من

---

(١) انظر (ص٣١٤) .
(٢) منهاج الطالبين (ص٢٣٥) .

حيث أخذه ذلك بغير طريق شرعي ، لا من حيث مِلك العبد مع الله تعالىٰ ، هـٰذا تعليلُ القوم ، وهو اختلافٌ في العلة لا في الحكم ؛ فإنهم قائلون بتحريم الغصب ، واستحقاقِ الغاصب العقوبةَ علىٰ ذلك ، ويؤيد ما قرَّرناه قولُ العلماء بتحريم غصب الاختصاصات ؛ كالزِّبل مع أنها لا تُملَك[1]

واعلم يا أخي : أن مقامَ شهود العبد أنه لا مِلْكَ له مع الله تعالىٰ . . مقامٌ يذوقه العبد أولَ دخوله في الطريق ، فليس هو بمقام عزيز ؛ لأنه بمجرد ما ينجلي باطنه بالذِّكرِ[2] . . يشهد الملكَ لله والفِعلِ لله ، فلو كان عنده إردبٌّ من الذهب وأخذه إنسانٌ . . لم يتأثَّر منه شعرة ، ولو أن شخصاً ضربه بسيف لم يتغير منه شعرةٌ ، ومثلُ هـٰذا هو الذي يقول : لا ملك إلا لله ، ولا فعل إلا لله ، ذوقاً وشهوداً ، ولا ينسب الفعلَ إلى العبد إلا بقدر نسبة التكليف لا غير

فعُلِمَ : أنه متىٰ تكدَّرَ ممن أخذ ماله أو ضربه . . فهو دليل علىٰ شهوده الملكَ مع الله تعالىٰ

وسمعتُ سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول : (جميعُ ما بأيدي العارفين مما أُضيف إليهم ملكه . . حكمُه في الإضافة حكمُ باب الدار وبرذعةِ الدابّة علىٰ حدٍّ سواءٍ)[3]

وعُلِمَ أيضاً : أنَّ شكر العارفين علىٰ ما أعطاهم الله تعالىٰ من فضله . .

---

(١) انظر حاشية « الشرواني » (٦/ ١٠) .

(٢) في (ج) وحدها : (يتحلىٰ) بدل (ينجلي)

(٣) البَرْذَعَةُ : حِلْسٌ يجعل تحت الرَّحل ، وهي للحمار ما يركب عليه بمنزلة السرج للفرس « المصباح المنير » (ب ر ذ ع)

ليس هو من حيث إنهم يشهدون ذلك ملكاً لهم ، وإنما هو من حيث تمكينُهم من الانتفاع به على الوجه الشرعي ، هـٰذا حكمهم في جميع ما يعطيهم اللهُ تعالىٰ في الدنيا والآخرة ، وقد تحقَّقنا بذلك ولله الحمدُ ، فلستُ أرىٰ لي ملكاً مع الله تعالىٰ في الدارين ، إنما أنا عبدٌ غارقٌ في صدقات سيدي في الدنيا والآخرة ، لا غير

ومما وقع لي في أوائلِ دخولي طريقَ القوم أنَّ شخصاً لقيني في سوق خان الخليلي لا أعرفه ، فقبض عليَّ طوقي ، وصار يصفعُني في عنقي ويقول : إنَّ هـٰذا أفسدَ امرأتي ، فلا زال يسحبني حتىٰ قرُبت من جامع الأزهر ، فنظرَ إلىٰ وجهي وقال : أنا غلطت فيك ، وأقول : استغفر اللهَ ، ولم يتغيَّر مني عليه شعرةٌ ، بل صِرتُ أنظر إلىٰ خالق تلك الحركةِ وذلك القولِ علىٰ جوارح ذلك الشخص ، وأتبسم

وكذلك وقع لي : أن جماعةَ السلطان ألزموني بإحضار محيي الدين بنِ أبي إصبعَ ؛ لكونه كان يتردَّدُ إليَّ قبل أن يستخفي ، ومدُّوني للقتل ، فصرت أتبسم ، ولم يتغير مني شعرةٌ ، فعلمت أني تحقَّقتُ بمقام التوحيد لله تعالىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[خفضُ جناحه لفسقة المؤمنين رجاءَ سماعهمُ النصحَ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : خفضُ جناحي لفسقة المؤمنين ؛ كالحشاشين ، والمقامرين ، وجميعِ أصحاب الكتب المذمومةِ ، ولا أحتقر أحداً منهم ، إلا من حيث فِعْله فقط ؛ بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ يتواضع لصاحب الكتبة ويقول : (ربما كان أحسنَ حالاً ، وأصغىٰ قلباً ، وأخشعَ روحاً مني) ، وفي ذلك تليينُ قلوب الفسقة لي ، حتىٰ يميلوا إليَّ بالمحبة ، فيسمعوا نصحي ، فإن التكبرَ عليهم واحتقارَهم يُنفِّر قلوبَهم ؛ فلا يصغون بعد ذلك لما أنصحهم به

وقد رأيت فقيهاً رأىٰ إنساناً مكشوفَ الفخذ في الحمام ، فحرَّكه برجله وقال استُر فخذَك ، فتحركتِ النفسُ ، فرمى الشخصُ الفوطة من وسطه وقال : هـٰذا جكارة فيك يا فقيه[1] ؛ لأجلِ ازدرائك لي ، ولو أنه كان قال له يا أخي ؛ أنت من أهل المروءات ، وغرتُ عليك من أن أرىٰ فخذك مكشوفاً وأنت غافلٌ عن ذلك لا تعلم أن أحداً ينظرك . . لربما قال له : جزاك الله خيراً وامتثل أمرَهُ

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي : أن من شرط الداعي إلى الله تعالىٰ معرفتَهُ بالسياسة قبل الدعاء إلى الله تعالىٰ ؛ ليدعوَ كلَّ إنسان من الطريق التي يسهل عليه انقيادُهُ له منها ؛ فيمهِّد الطريقَ للمدعوِّ أولاً ولو بإرسال هدية إليه ، أو كسوةٍ ، أو بإطعامه الكنافةَ المبخرة ، ونحوِ ذلك مما يُمِيل نفسَ ذلك المدعوِّ إلىٰ محبة الناصح ، ويذكر له أيضاً ما في تلك الكتبة ؛ من غضبِ الله ومقتِهِ ، وتعسير الرزق ، وعدمِ الحفظ من الآفات ، حتىٰ إن صاحب الكتبة يبادر إلىٰ سماع النصح ؛ لما يرىٰ لنفسه في ذلك من الحظِّ والمصلحة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

---

(١) جكارة فيك : أي نكاية فيك وإغاظة لك . « تكملة المعاجم » (٢/ ٢٣٦) .

فالحكمةُ : هو غَناء الداعي عن الحاجة إلى المدعوين ؛ فلا يحتاج إليهم في مطعم ولا ملبس ، ولا غيرِ ذلك ؛ لئلا يذلَّ لهم لعلة دنيوية ، فتذهبَ حرمتُهُ ، ولا يؤثرَ كلامُهُ في قلب أحدٍ ؛ إذ هو حينئذ معدودٌ من عائلة المدعو ، والعائلةُ تحت حكم مَن يَعولها شاءت أم أبت

وأما الموعظةُ الحسنةُ : فهي ما ذكرناه من تمهيد الطريق للمدعو ، وذكرِ ما في تركه تلك الكتبةَ من الخير كما ذكرنا ، فافهم .

وهـٰذا بابٌ قد أغفله غالبُ الداعين إلىٰ طريق الله عز وجل ؛ فتراهم يحتاجون إلىٰ بِرِّ المدعوين وإحسانِهم بنفقتهم علىٰ أولادهم وعيالهم ، فلا يصير لهم حُرمةٌ في قلوبهم ، ثم يجلس أحدُهم يتمشيخ على المحسنين إليه ، فلا يتكون ذلك النصحُ في بواطنهم ، وبعضُهم يحتقر صاحبَ الكتبة ويزدريه ، ويظهر له الجفاءَ ، فينفرُ منه

وقد بلغَنا : أن داود عليه السلام كان ينفِرُ من مجالسة عصاةِ بني إسرائيل ؛ غيرةً لله تعالىٰ ، فأوحى الله تعالىٰ إليه (يا داودُ ؛ المستقيمُ لا يحتاج إليك ، والأعوجُ قد أَنِفَتْ نفسُك عن مجالسته وتقويمِ عِوَجه ، فلماذا أُرسلت ؟!) ، فتنبه داودُ عليه السلام لأمر كان عنه غافلاً ، وصار يجالس عصاةَ بني إسرائيلَ ، ويحسن إليهم ، ويَتخوَّلهم بالموعظة الحسنة ، فانقادوا له أشدَّ الانقياد .

وعُلِمَ مما قررناه : أن محلَّ قولهم : (يحرم إيناسُ العصاة) . . ما إذا لم يكن ذلك لغرض صحيح .

واعلم يا أخي : أن كلَّ كامل من الدعاة إلى الله تعالىٰ يرىٰ نفسَهُ دون كل

عاصٍ علىٰ وجه الأرض من المسلمين ؛ من حيث جهلُهُ بالخاتمة ؛ فهو يأمر العاصيَ وينهاه ويرىٰ نفسَهُ أكثرَ معصيةً لله تعالىٰ منه من حيث عظمةُ الذنب ، أو من حيث كثرة عدده ؛ ولذلك كثُرت أتباعُ العارفين والمعتقدون فيهم ، بخلاف أصحاب الأنفسِ المشحونة بالكِبْر ، فكلُّ عارف يرىٰ نفسَهُ أذلَّ وأحقر من سائر العصاة

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول : (من شرط الفقير : أن يرىٰ نفسَهُ في المرتبة تحت الأرضين السفليات التي ما بعدها مرتبةٌ إلا مقرُّ نفوس العارفين) انتهىٰ .

وقد طلبتُ الدعاءَ مرةً من شخص رأيته رثَّ الهيئة ، فعرق جبينُهُ ، وكاد يذوب من شدة الحياء ، فسألت عنه ، فقيل لي : إنه صاحبُ كتبة ، لا يرىٰ نفسَهُ أهلاً لأن يدعوَ لأحد ، ثم إني وجدته بعد أيام وعليه ثيابٌ نظيفة ، فقال لي قد أثَّر فيَّ سؤالُك الدعاءَ مني ، فتبتُ إلى الله تعالىٰ ، وكرهت تلك الكتبة والمعاصي التي كنتُ أفعلها ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كثرةُ نصحه لجميع إخوانه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كثرةُ نصحي لجميعِ إخواني ؛ فلا أتذكَّرُ أنني غشيتُ أحداً منهم في أمر مذموم ارتكبه ، ولا سكتُّ عليه أبداً

والنُّكتةُ في ذلك : كوني أصحبهم لله ، وأُقدِّم رضا الله تعالىٰ علىٰ رضاهم ، مع عفَّتي عما بأيديهم من الدنيا ، ولو أنني صحبتُهم للدنيا لربما وقعتُ في غشهم ؛ مراعاةً لخاطرهم ؛ خوفاً أن ينفروا عني ، وكم نصحتُ

أصحابي فلم ينفعْهم نصحي ، ولو أنهم كانوا عملوا به لكانوا كلُّهم علماءَ عاملين زاهدين هادين مهديِّين ، ولـٰكن ذلك لم يصحَّ قط لداعٍ إلى الله تعالىٰ بحكم القبضتين[1] ، فلا بد من طائع وعاصٍ ؛ ليظهر فضلُ الله تعالىٰ وحلمُهُ علىٰ خَلْقه ، وإلىٰ ذلك الإشارةُ بقوله تعالىٰ لمحمد صلى الله عليه وسلم لمَّا غلبت عليه الرحمةُ والشفقة علىٰ أمته ، وطلب أن يؤمنوا كلُّهم بما جاء به : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] ، وغيرِ ذلك من الآياتِ .

ومن حكمة ذلك في حقِّ الداعي أنه يؤجرُ علىٰ صبره علىٰ كلِّ من خالفه ، ولو أنهم كلَّهم كانوا أطاعوه . . لفاته أجرُ الصبر المأمور به شرعاً ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ تردُّدِه إلى الحكَّام لغير ضرورة شرعية]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ ترددي إلىٰ بيوت جميع الحكَّام إلا لضرورة شرعيةٍ ترجح علىٰ عدم ترددي مما ينفعني أو ينفعُ أحداً من المسلمين ، **فعُلِمَ** : أنه يشترط النيةُ الصالحة في التردد وعدمِهِ .

وقد رأيتُ بعضَهم يترك الترددَ إلى الحكام علىٰ وجه التكبر عليهم ، وذلك مذمومٌ شرعاً ، فإن الحكامَ قد رفعهم اللهُ تعالىٰ علىٰ أمثالنا في هـٰذه الدار عند الخاصِّ والعام ، ولو أراد الواحد منَّا أن يُعظِّمَه الناسُ كما يعظمون

---

(١) انظر حديث القبضتين (ص٢٦١)

قاضيَ العسكر أو المحتسبَ . . لم يجيبوه إلىٰ ذلك ، فالعاقلُ من عرفَ مقدارَ نفسه

وقد رأيت من يُفضِّل نفسَه بنفسه علىٰ قاضي العسكر ، وعلىٰ علماءِ مصرَ قاطبةً ، فابتُلي في ثاني يومٍ ؛ بأن أمسكوه بجارية جارِه ، فمضوا به إلىٰ بيت الوالي ، ثم ادَّعىٰ عليه سيِّدُ الجارية بإفساده لها ، فافتُضِح غايةَ الفضيحة ، فالله يحمينا وجميعَ إخواننا من الدعاوى الكاذبة ، ويجعلُهم وإيانا ممن لا يرىٰ نفسَهُ علىٰ أحدٍ من خلق الله تعالىٰ ، إلا من حيث الشكرُ لله تعالى بمنه وكرمه ، آمين آمين آمين .

الباب الثاني
في جملة أخرى من الأخلاق

الباب الثاني
في جملة أخرىٰ من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق والهداية :

[تعظيمُهُ لولاة الزمان وغيرهم على الوجه الشرعي أو العرفي]

مما أنعمَ الله به عليَّ تعظيمي لولاة الزمان ؛ من قاضٍ ، ومحتسب ، وكاشفٍ ، وشيخ عرب ، وغيرِهم ، على الوجه الشرعيِّ أو العُرفي ؛ أدباً مع الله تعالى الذي ولَّاهم ، لا لعلة أخرىٰ ، واعرف هنا دقيقةً قَلَّ من يتنبه لها ؛ وهي أن ذلك الأميرَ أو القاضي مثلاً ما طلع لنا الزاويةَ ليزورنا حتىٰ خلع كبرياءَهُ وعظمتَهُ وضخامتَهُ تحت العتبة ، فلم يجتمع بنا إلا وهو يرىٰ نفسَهُ دوننا ، ولو أنه لم يخلع عظمته وكبرياءَهُ ما طلع لنا قط علىٰ وجه الإجلال ، وأما كونه ظلمَ نفسَهُ وغيرَهُ بالمعاصي فكلُّنا كذلك ، فلا مزيةَ لنا عليه ، فما منا إلا[1]

فإذاً ؛ الأمير له الفضلُ علينا في تواضعه لنا ، وخلعِ عظمته لأجلنا ، ومن فعل معنا مثلَ ذلك فاللائقُ بنا إكرامُهُ بطريقه الشرعي ، والمشيُ معه إلىٰ باب الزاوية ، وكان هـٰذا من خلق سيدي عليٍّ الخواص رضي الله عنه

---

(١) في هامش (أ) : (كذا بخط مؤلفه)

ورأيته مرةً يقبِّلُ رجلَ ابنِ موسى المُحتسِبِ في الخفِّ ويقول : (هـٰذا أدبُنا مع ولاة أمورنا في هـٰذه الدارِ ، وسيعلمنا الله تعالى الأدبَ مع أكابر أهلِ الجنة إذا انتقلنا إليها إن شاء اللهُ تعالىٰ)

وكان يقول (ما ذمَّ الشارعُ التواضعَ للظلمة والأغنياء إلا إن فعل العبدُ ذلك لأجل دنياهم ، أو خوفاً من طغيان نفوسِهم بذلك) انتهىٰ

وقد أغفل هـٰذه النكتةَ التي ذكرناها كثيرٌ من الفقراء ؛ فأكلوا طعامَ الأمراء ، وقبلوا منهم صدقاتِهم وهداياهم ، ثم بعد ذلك يرَون نفوسَهُم عليهم ، وإذا زاروهم لا يكرمونهم ، ولا يبَشُّون في وجوههم ؛ قياماً بناموس المشيخةِ ، ولعمري ؛ إن ذلك من الجهل العظيمِ بمراتب الأكابرِ ، وهو من قلب الموضوعِ ، كيف يكون معدوداً من عائلة الأمير بقبوله صدقتَهُ وهداياه ثم يرىٰ نفسَهُ عليه ؟! فإن أردتَ يا أخي التعزُّزَ على الأكابر . فتورَّعْ عن قبول إحسانهم ، ولا تجعلْ لك عندهم اسماً في ديوان صدقاتِهم وأوقافهم ، ثم لا حرجَ عليك حينئذ في عدم الإكرامِ لهم علىٰ وجه مُصطلحِكَ في مشيختك المعمولة .

وقد بلغنا أن بعضَ الأمراء أرسل إلىٰ سيدي محمد الحنفيِّ الشاذلي نحوَ عشرة آلاف دينار والشيخُ جالسٌ على الكرسي ، فصار يأخذ منها ويبذر على الحاضرين حتىٰ لم يبقَ منها نصفٌ[1] ، فردَّ القاصدُ على الأمير الخبرَ بذلك ، فركب الأميرُ وجاء إلى الشيخ ، فقال الشيخُ للأمير : املأْ لي دلواً

---

(١) النصف : عملة مصرية صغيرة مسبوكة من خليط الفضة والنحاس ، وكانت تساوي قديماً نصف درهم . « تكملة المعاجم العربية » (١٠/٢٣٦) .

من هٰذه البئر أتوضأُ به ، فملأ الدلوَ ، فلم يقدِر يطلعه من البئر إلا بعسر ، فنظرَ إليه فإذا هو ذهبٌ ، فأعلم الشيخَ بذلك ، فقال صبُّهُ في البئر ، ثم ملأ آخرَ فإذا هو ذهبٌ ، ثلاثَ مرات والشيخُ يقول له : صبُّهُ في البئر ، فقال للأمير الذي أقدره اللهُ علىٰ مثل هٰذا لا يحتاج إلىٰ مالِكَ ، ثم قال الشيخُ وعزةِ ربي ؛ لو شئت لملأت من البئر ذهباً ما بقيَتْ الدنيا انتهىٰ ، فمثل هـٰؤلاء همُ الذين يليق بهم التكبرُ على الولاة تعزُّزاً لا احتقاراً

وقد رأيتُ شيخاً له عمامةُ صوف يسألهم تارةً بنفسه وتارةً بفقرائه ، ثم يرىٰ نفسَهُ عليهم ، فقلت له يا أخي ؛ شاكل بعضك بعضاً ، وإلا اخلع العمامةَ الصوفَ

وقد بلغني عن جماعة الباشاه عليٍّ أنهم يقولون قد ضجر مولانا الباشاه من كثرة مَنْ يسأله العدسَ والبِسِلَّةَ من فقراء مصرَ[١]

فعُلِمَ : أن كلَّ من لم يسلك الطريقَ علىٰ يد شيخ ناصح . . فهو جاهلٌ بأمر الدنيا والآخرة ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كراهته لتردد أحد من الأكابر إليه ؛ تعظيماً لهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ محبتي لتردد أحد من الأكابر إليَّ ؛ من عالمٍ، أو صالح ، أو أمير ، أو كبير ، فأنا بحمد الله تعالى أتشوشُ من تردُّدهم إليَّ ؛ تعظيماً لهم ، لا سيما إن أتىٰ أحدٌ منهم ماشياً ؛ كما يفعله معي الشيخُ العالم الصالح الشيخ شهابُ الدين بن الشلبي الحنفي وأخوه الشيخ سراجُ الدين

(١) البِسِلَّةُ : صنف من الجُلُبَّان ؛ وهو نوع من الحبوب . « تكملة المعاجم العربية » (١/ ٣٤٤) .

الحانوتي فسح اللهُ تعالىٰ في أجلهما[1] ؛ فإني أكاد أذوبُ من الحياء منهما إذا فَعَلاَ ذلك ؛ لعجزي عن مكافأتهما بنظير ذلك ، ولعلمي بأنهم ما تردَّدوا إليَّ إلا لظنهم فيَّ الصلاحَ ، وأنا أعرفُ أن صفاتي أنجسُ من ماء خرَّارة المَذْبح

وكان هـٰذا الخلقُ من أخلاق سيدي إبراهيمَ المتبولي وتلميذِهِ سيدي عليٍّ الخواص رضي الله عنهما ، وكانا يقولان : (اسعَ إلىٰ إخوانِك قبل أن يأتوا إليكَ ، ولا تنقطعْ عنهم بحيث يستوحشون لك فيأتون إليك ، وإياكَ أن تحبَّ ترددَ أحد إليك من غير أن تترددَ أنت إليه ؛ كما عليه طائفةٌ ممن لم تُرَبِّهمُ الأشياخُ ؛ فإن جميعَ ما مع الفقير في هـٰذا الزمانِ من المدد لا يجيء حقَّ طريق عالمٍ أو صالح أتىٰ إليه)

ورأىٰ سيدي عليٌّ الخواص مرةً شيخاً يقول لفقير ما عدنا ننظركم ، فزجره وقال لأيِّ شيء لا تذهبُ أنت إلىٰ أخيك تنظره إذا اشتقتَ إليه ؟!

هـٰذا في حقِّ العلماء والصالحين

وأما الأمراءُ فكان سيدي إبراهيمُ المتبولي لا يذهب إليهم إذا علم أن أحدَهم عازمٌ علىٰ زيارته ، ويقول (إنهم لا يأتونا إلا للدنيا ؛ من أخذ خاطرِنا لولاية يتولَّونها) ، وكان كثيراً ما يقول : (الفقراءُ كبيت الخلاء ؛ لا يأتيهم إلا محزوق)[2]

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/٣١٢) : (الشيخ العالم الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني والشيخ سراج الدين الحانوتي)

(٢) **المحزوق** : مَنْ ضُيِّق عليه ؛ من قولهم : حزق الشيء : عصره وضغطه ، وإبريق محزوق العنق ؛ أي : ضيقها ، وفي الحديث : « لا يصلي وهو حاقن أو حاقب أو حازق » **الحازق** : من ضاق عليه خفه . « تاج العروس » (ح ز ق) .

وأما سيدي عليٌّ فكان يذهب إلى الأمير إذا بلغه أنه عازمٌ على زيارته ، ويقول (إنما ذمَّ السلفُ من يزور الأمراءَ إذا خاف من الميل إليهم ، أو زارهم ليطلبَ منهم شيئاً ، ونحنُ بحمد الله لا نركَنُ إليهم ، ولا نسألهم شيئاً ، ولو أعطوه لنا لا نأخذه ، ولكل رجال مشهدٌ)

[مطلبٌ
في علامة من يكره تردد الأكابر إليه]

واعلمْ يا أخي : أن لمن يكره تردُّدَ الأكابر إليه علامةً ؛ وهو أنه ينقبض خاطرُهُ إذا ترددوا إليه وينشرح إذا نسوه ؛ لأن الصادقَ يحبُّ غفلةَ الناس عنه ؛ خوفاً أن يشتغل بهم عن ربه عز وجل .

وقد رأيتُ شخصاً انقطع في زاويته وبيتِهِ يعتب على عدم تردُّدِ الناس إليه ، فقلت له عتابُك للناس يخالف ما أشعتَهُ عن نفسك من محبة الانقطاعِ إلى الله تعالى ، فما درى ما يقول ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدم خوفه من تهديد أحد من الولاة له]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ خوفي من تهديد أحد من الولاة بسبب كلام نقله إليهم بعضُ الحسدة عني في حقِّهم ، ونحوِ ذلك ، إلا إن كان ذلك الخوفُ من حيث تخويفُ الحقِّ تعالى لي ، أو لكونه تعالى أمرني ألا أُلقيَ بنفسي إلى التهلكة ؛ كلُّ ذلك لعلمي بأن الظلمةَ ليس لهم حكمٌ إلا على من يحبُّ الدنيا بقلبه ، وأنا أعلمُ بحمد الله تعالى أن قلبي لا يحبُّ الدنيا ، وهو محشوٌّ بمحبة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والعلماءِ والصالحين ، وساكنُ

البيت يحميه من كل ظالم ، واعتقادي في رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والعلماءِ والصالحين أنهم يحبوني .

فإن قيلَ إن موسىٰ عليه السلامُ خرج من المدينة خائفاً يترقَّبُ وقال : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء : ٢١] ، ومعلومٌ أنه عليه السلامُ معصومٌ من محبة الدنيا .

فالجوابُ أنه لم يَخَفْ منهم إلا من حيث عدمُ إلقائه بنفسه إلى التهلكة التي نهاه الحقُّ تعالىٰ عنها ، أو أنه إنما خاف من الله تعالىٰ أن يُسلِّطَ عليه من حضرة سعةِ إطلاقه تعالىٰ من كونه فعالاً لما يريد ، لا أنه خافَ من الخلقِ بقطع النظرِ عن تقدير اللهِ تعالىٰ ، فافهم .

فعُلِمَ : أن الظلمةَ لا يُسلَّطون علىٰ أمثالنا إلا لمحبة الدنيا وكونِها بيده ، وأما إذا لم يحبها ، ولا كان بيده شيءٌ منها . . فليس لهم قدرةٌ عليه ، ولا معه شيءٌ يأخذونه منه بتقدير قدرتهم عليه ، وتأمَّلِ المجاذيبَ لما تحقَّقَ الناسُ بتركهم للدنيا كيف يقبِّل الظلمةُ أقدامهم ، ويخافون منهم ومن تغيُّر خاطرِهم عليهم .

وقد أخبرني الأخُ العزيز الأمير خضرٌ الكاشفُ بالقليوبية والشرقية قال : (لقيني الشيخ عليٌّ البُرُلُّسي المجذوبُ وأنا في طريق قليوبَ ، فأمسكني من طوقي ، وأنزلني من ظهر الفرسِ ، وصار يصفَعني في عنقي حتىٰ هدمَ عمامتي بحضرة العسكرِ ، وصرتُ أرعُد من هيبته ، وأنا خائفٌ منه إلى الآن) ، هـٰذه حكايته لي عن نفسه . انتهىٰ

فكل من تخلَّقَ من الفقراء الصحاةِ بالزهد في الدنيا كما زهد فيها

المجاذيبُ . صارتِ الظلمةُ تخافه وتخشاه ، ولو كانت عمامتُهُ قَدْرَ عمامة قاضٍ وثيابُهُ ثيابَ أمير ، فافهم .

ومن ها هنا : تصدَّر العلماءُ العاملون ـ كالشيخِ محيي الدين النووي ، والشيخِ تقي الدين الحصني ، رضي الله عنهما ـ لإزالة منكراتِ الولاة في بلاد الشامِ ، ولم يخافوهم ، ولو أنهم كانوا يحبون الدنيا ومناصبَها ووظائفَها . . لَمَا قدر أحدٌ منهم علىٰ مخاصمة الولاةِ ، ولا ساعدتْهم القدرةُ الإلـٰهية علىٰ ذلك[1] ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[أمرُهُ بالمعروف كلَّ كبير دخل عليه]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : أمري بالمعروف كلَّ كبير دخل عليَّ ؛ من أمير ، وكاشف ، وشيخ عرب ، وغيرِهم ، ولو علمتُ أن ذلك الأمرَ الذي نهيتُه عنه من علامات الساعةِ ؛ لأني متعبِّدٌ بذلك ، ولو خالفني الناسُ ، وأما حديثُ : « إذا رأيتُم شحّاً مطاعاً ، وهوىً مُتَّبَعاً ، ودنيا مُؤثَرةً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكم بخُوَيْصَّةِ نفسِكم ، ودعُوا عنكم أمرَ العامَّةِ »[2] . . فإنما ذلك إذنٌ لنا في عدم التشديدِ في الأمر بالمعروف والنهيِ

---

(١) المراد بقوله : (ولا ساعدتهم القدرة الإلـٰهية) أنهم لم يكن لهم عونٌ من الله سبحانه .

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) عن سيدنا أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، ومعنىٰ (شحّاً مطاعاً) : بخلاً مطاعاً ؛ بأن أطاعته نفسُك وطاوعه غيرُك ، و(هوىً مُتَّبعاً) أي : وهوىً للنفس متبوعاً وطريقَ الهدىٰ مدفوعاً ، و(دنيا) بالقصر ، وفي نسخة بالتنوين : عبارة عن المال والجاه في الدار الدنية ، و(مؤثرة) : أي : مختارة علىٰ أمور الدين ودرجات الآخرة ، و(إعجاب كل ذي رأي برأيه) أي : من غير نظر إلى الكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس .

عن المنكر فقط ، لا إذنٌ بترك أصلِ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر ؛ لأن قواعدَ الشريعة تخالف ذلك ، أو يُحمَل على خوف ضررٍ شديد بسبب ذلك لا يحتملُهُ الواحدُ منا

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول لفقير (إذا رأيتَ من طريق الكشف الصحيح الحقِّ أنه لا بد أن يزني فلانٌ بفلانةَ . . فليس لك تركُ الأمر له بالمعروف ؛ لأن نورَ الكشف لا يطفئ نورَ الشرع) انتهىٰ

وهـٰذا الذي قلناه لا ينافي التسليمَ لله عز وجل ، فيُسلَّم له من حيث تقديرُهُ علىٰ عباده ، ونقوم بما كُلِّفنا به من الأمر بالمعروف ، وقد ترك جماعةٌ كثيرة من الفقراء والعلماءِ الأمرَ بالمعروف جملةً لظاهر الحديثِ السابق ، وقالوا قد وجدتُ العلاماتِ التي أخبر بها الشارعُ فيه كلَّها ، وما بقي علىٰ أحد أمرٌ بمعروف ، وهو تهوُّرٌ ، والحقُّ ما قررناه آنفاً

وأحسنُ ما يُحمَل حالُ العلماء والصالحين إذا رأيناهم سكتوا عن إزالةِ منكر علىٰ أن لهم عذراً شرعيّاً ؛ كخوفهم من الضرب ، أو الحبس ، أو النفي من بلادهم ، وعدمِ النصير لهم من الخَلْق ، وقد كان سيدي إبراهيمُ المتبولي يقول (من لم يكن له حالٌ يحميه من الظلمة . . فليس له أن يعارضَ الولاةَ ، إلا إن وطَّن نفسَهُ علىٰ قتله ، أو نفيه من بلاده) ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[حسن سياسته لمن يبغض أخاه بغير حقٍّ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ حسنُ سياسة من رأيته يبغض أخاه المسلمَ بغير حقٍّ ؛ وذلك بإقبالي عليه وبشاشتي له ، فإذا مال إليَّ سارقتُهُ بذكر الصفاتِ

التي تُمِيلُ خاطرَهُ إلىٰ عدوه شيئاً فشيئاً ، ولا أقول لأحدهما قط لا تَعُدْ تطلع لي إلا إن طاب خاطرُ فلان عليك ؛ لأن في ذلك إظهارَ العصبية مع أحد الخصمين ، فنصيرُ أخصاماً للآخر نحتاج إلىٰ ثالث يصلحُ بيننا ، لا سيما والفقيرُ إذا شاع اسمُهُ في الوجود يصير مورداً لغالب الناس ، والواجبُ عليه الإقبالُ علىٰ كل وارد عليه ؛ قياماً بواجب حقّه ، وقلبُهُ فارغ من العصبية لأحد الخصمين .

ولما قام أهلُ مصرَ والباشاه عليٌّ ـ نصره الله تعالىٰ ـ علىٰ محمد ناظرِ النظارِ حين طلب يأخذ أوقافَهم[1] ، ويعزلهم من سائر أنظارهم . . انقسم الناسُ قسمين ، وأظهر كلُّ عدو ما كان عنده كامناً ، فصرتُ أُكلِّم كلَّ إنسان عن الآخر بما يخفف العداوةَ حتى ائتلفَ جميعُ أصحابي بحمد الله تعالىٰ ؛ فإن من شأني بحمد الله أني إذا اجتمعتُ بكل خصم أعلمه الأدبَ مع الآخر ، ولا أُزين له في فعل ما يضرُّ عدوَّهُ أبداً ، وآمره بالأدب حسبَ الطاقة .

وقد قال بعضُ الحسدة ممن يدعي العلمَ للباشاه عليٍّ إني رأيت ناظرَ النظار عند الشيخ عبد الوهاب البارحةَ ؛ طلباً لتغيير خاطر الباشاه عليٍّ ، فأعلمني الباشاه بذلك ، فقلتُ له : يا مولانا ؛ أنا الذي طلبتُ مجيءَ ناظر النظارِ إليَّ حتىٰ أعلمَهُ الأدبَ معكم ، وأخبرَهُ بوجوب طاعتكم عليه ، وتحريمِ خيانته لكم من ورائكم ، فرضيَ مني بذلك ، وأعجبه ، وأخزى اللهُ

---

(١) ناظر النظار : هو الذي يقوم مقام الوزير بالديار المصرية . « صبح الأعشىٰ » (٥/ ٤٣٧) ، وقال دوزي في « تكملة المعاجم » (١٠/ ٢٤٨) : (الناظر المدير أو المشرف على الأموال في صندوق أو مؤسسة تعليمية أو غيرها ، أو المكلف بإدارة منطقة ورقابة الشؤون الزراعية) .

تلك الحسدةَ ، ومنعَهم بعد ذلك اليوم أن يجتمعوا به .

فإياكَ يا أخي : أن تظنَّ بفقير أنه يغرض مع أحد كأبناء الدنيا ؛ فإن الفقراءَ لا يمشون بين الناس إلا بالصلح[1] ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تفرقةُ كل ما يأتيه من أموال الولاة للحاضرين]

ومما منَّ الله به عليَّ : رميُ ما يأتيني من أموال الولاةِ من ذهب وفضة بين الحاضرين ، ولا أُحدِّث نفسي بأخذ نصفٍ واحد من ذلك ، وكثيراً ما يرسل إليَّ الولاة المالَ سرّاً لا يدري به أحدٌ من الخلق ، فأخرج به للفقراء ، وأُفرِّقه عليهم ، وهـٰذا من أكبر نعم الله عليَّ في هـٰذا الزمانِ ، ولم أَرَ لذلك فاعلاً من أقراني إلا قليلاً

وقد رأيت شخصاً عمامتُهُ من صوف وعنده فقراءُ ، أرسل إليه الباشاه ألفَ نصف ، فقال : هـٰذا من مال الولاةِ ، ولا أحبُّ أن أحداً منكم يأخذ منه شيئاً ؛ خوفاً علىٰ دينكم ، فاشترى الشيخُ له به جارية وتسرَّىٰ بها ، فأنكر عليه جماعتُهُ ونفروا عنه

ورأيت بعضَهم قسم المالَ الذي أتاه نصفين ، فقال : النصفُ للشيخ ، والنصف الآخرُ للفقراء ، فقالوا له : في أيِّ كتاب ذلك ؟! ثم ذهبوا إلىٰ من أَرسلَ له المالَ ، فأخذه منه ثانياً ، وأعطى الشيخَ كواحد منهم .

ورأيتُ مرةً شيخاً جاءه مالٌ من الباشاه ، فجعل يعُدُّ بحضرة القاصد أسماءَ كثيرة ، حتىٰ أوهم القاصدَ أن ذلك المالَ لا يدور علىٰ أسمائهم[2] ،

---

(١) في (أ ، ج ، د ، هـ ، و ، ز) : (بالمصالح) بدل (الصلح) .

(٢) القاصد : رسول الباشاه .

فلحِقَ القاصد بالشربة ، فقال لغلامه تخلَّف بعدي حتىٰ تنظرَ ما يفعل الشيخُ بالفلوس ، فضمَّها الشيخُ وجعلها في خزانته ، فأخبر أستاذَهُ بذلك ، فمن ذلك اليوم انقطع أستاذُهُ عن زيارة ذلك الشيخِ ، وقطع عنه بِرَّهُ ، فمثل هـٰذا لا هو شيخٌ حقيقةً ، ولا هو يعرف طريقَ النَّصب ، ولو أنه كان يعرفها لأعطىٰ شيئاً وأخذ شيئاً ، وتأمل يا أخي صيادَ السمك كيف يضع في الصِّنارة الطُّعْمَ حتىٰ يصطادَ به ؟!

وقد رأيت فقيراً أظهر الانقطاعَ إلى الله تعالىٰ في تربة ، فاجتمع عليه بعضُ الأروام الغُلْفِ القلوب[1] ، فأعلموا به الباشاه ، فأرسل إليه ألفَ نصفٍ ، فقال للنقيب خذ هـٰذه الفلوسَ ففرِّقها على الفقراء ، ولا تأخذ لأولادنا منها نصفاً واحداً ولو بكوا ، ففارقه القاصدُ ، فأعطىٰ كلَّ فقير عثمانياً[2] ، وأخذ الباقيَ لنفسه .

ولما بلغ بعضُ الحسدة عني أنني أَردُّ مالَ الولاة . . قال : ليس هـٰذا بمقام عندنا ، فسمع بذلك الدفتردار محمدٌ[3] ، فأرسل إليه ذهباً في صُرَّةٍ وقال لقاصده : أعطِهِ للشيخ بحضرة طلبته ، ففعل ، فردَّهُ الشيخُ ، فقال القاصدُ في نفسه : هـٰذا متفعِّل ، ثم إنه صبر إلىٰ بعد المغرب ، وصَرَّ له صُرَّةً من تراب

---

(١) الأروام : جمع رومي .

(٢) العثماني : قطعة نقد تركية تساوي ثلث البارة وخمس الشاهية وواحداً من مئة وعشرين من القرش « تكملة المعاجم العربية » (٧/ ١٤٣) ، والبارة : نقد تركي عثماني قيمته واحد من أربعين من القرش الصحيح الذي هو جزء من مئة جزء من الليرة الذهب المجيدية . « معجم متن اللغة » (ب ور)

(٣) الدفتردار : هو الموظف المالي المكلف بتنظيم الوارد والمنصرف من أموال الحكومة . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٨٨) .

وحصاً ، وأتىٰ بها إليه وقال له : قد كسرتَ خاطرَ الأمير بردها في النهار ، فمدَّ يدَهُ وأخذها وقال : والله ؛ إن قلبَ الأمير نَيِّرٌ ؛ فإنا كنا محتاجين لها ، فقال له القاصدُ : يا بطال ؛ تردُّ الذهبَ بالنهار رياءً وسمعة ، وتأخذُ الترابَ والحصا بالليل نفاقاً، ثم تنكرُ علىٰ غيرك إذا ردَّ وتقول : هـٰذا ليس بمقام عندنا ؟! فافتَضَحَ .

وقد وقع أن الدفتردار أحمدَ زارني ووضع بين يديَّ ألفَ نصف ، فرددتُها عليه ، فذهب ، ثم أرسل بها غلامَهُ وقال أعطها له سرّاً ، فجاءني بها ، وأقسم عليَّ بالله علىٰ لسان أستاذه ، فرددتُها وقلتُ له : كيف أردُّها علىٰ أستاذك ثم أقبلُها منك ؟! فخرج وهو يقول : هـٰذا شيءٌ عجيب ! انتهىٰ ، وهـٰذا الأمرُ قد أعطاه الله تعالىٰ لي من حينَ كنتُ دون البلوغ[1] ، فكان الناسُ يأتوني بالفضة ، فأرميها في صحنِ جامع الغمري وأنا مجاورٌ به .

وإنما ذكرتُ لك يا أخي هـٰذه الوقائعَ لتقتديَ بي فيها خالصاً مخلصاً ، وتأخذَ حذرَك من ولاة هـٰذا الزمان ؛ فإنه قد كثُر امتحانُهم لفقراء العصر ، وأخرجوا زَغَلَهم ، فنبهتك علىٰ مثل ذلك شفقةً عليك ؛ فإني أخاف أن تتبعَني رياءً فتفتَضِح ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ خوفه من حية أو ثعبانٍ أو غيرهما]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : توكُّلي علىٰ ربي في جميع أموري من منذ كنتُ صغيراً إلىٰ وقتي هـٰذا ، وإن كان لا بد من جزء فيَّ يضطرب بحسب النشأةِ ، لـٰكنه جزءٌ ضعيف لا يكاد يظهر له حكمٌ ؛ فلا أخاف من حيَّةٍ ، ولا سبع ، ولا تمساح ، ولا من لصوص إذا سافرتُ في الليل المظلمِ ، ولا أخاف من

---

(١) في (هـ ، و) : (الخلق) بدل (الأمر) .

الجنِّ إلا عملاً بوصية الشرعِ علىٰ عدم تعاطي ما يؤذي الجسدَ ، من حيث إن الله تعالىٰ أَمِنَني عليه

ومما وقع لي وأنا صغيرٌ أنني نمتُ في قبة شيخٍ في تربة بلد يقال لها[(١)] : الفرعونيةُ من المنوفية ، وكان هـٰذا الشيخُ مهجوراً لكثرة ما فيه من الثعابين ، لا يتجرأ أحدٌ يدخله في ليل ولا نهار ، فدخلتُهُ ونمت فيه في ليلة مظلمةٍ شاتيةٍ ، فصارتِ الثعابينُ يمرُّون علىٰ رجلي وعلىٰ بطني وعلىٰ عنقي من العشاء إلى الصباح ، وأنا أتعجَّبُ في قدرة الله تعالىٰ ومنعِهم من أن يؤذوني ، فلما طلع النهارُ وجدت موضعَ سحبهم في الأرض كعضد الإنسانِ[(٢)]

ومما وقع لي أنني سافرتُ ناحيةَ الصعيد ، فبينا نحن تجاه مدينة أَنْصِنا وإذا بسبعة تماسيحَ عائمين في مؤخر المركب[(٣)] ، فأخذتُ في وسطي فوطةً ، ونزلت بين التماسيح ، ففروا كلُّهم مني ، وكان فيهم تمساحٌ أبرصُ يكسر ، فتعجَّب مَنْ في المركب مني

ومما وقع لي مع الجنِّ أنني قبضتُ علىٰ رِجلِ واحد منهم كان يخوف أمَّ الأولاد كلَّ ليلة ، فيدخل ويطفئ السراجَ أولاً ، ثم يجري في البيت ، فلما قبضتُ علىٰ رجله صار يزهق ويرق في يدي حتىٰ صارت رجلُهُ كشعرة[(٤)] ، ثم خرج فلم يَعُدْ بعد ذلك .

---

(١) في (هـ ، و) زيادة (مهجورة) بعد قوله : (شيخ) .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٣١٩) : (وجدت مكان سحبهم في السباخ يشبه ذراع الآدمي في الغلظ) .

(٣) أَنْصِنا : مدينة من نواحي الصعيد علىٰ شرقي النيل « معجم البلدان » (١/ ٢٦٥) .

(٤) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢٠) (فصار يصيح وترق رجله في يدي وتبرد إلىٰ أن=

ومما وقع لي أنني كنتُ في مَغطِس جامع الغمري في ليلة مظلمةٍ ، وإذا بشيء نزل المَغطِس كالفحل الجاموسِ ، فصعد الماءُ نحوَ ذراع حتىٰ فاض ، ونزل من السلم ، فوضعتُ في وسطي فوطةً ، ونزلت عليه في المَغطِس ، فزهق من تحتي[1] ، فلم أجده .

واعلمْ يا أخي : أنني إنما كنت لم أخفْ من المؤذياتِ ؛ لأني كنت في مقام التدرُّج في مقامات اليقينِ ، وكذلك إنما لم أكن أخافُ من اللصِّ أو غيرِهِ في السفر ؛ لأن جميعَ ما معي من الثياب لو طلبه اللصُّ مني لأعطيتُهُ له بطيبة نفسٍ وأبرأتُ ذمتَهُ في الدنيا والآخرة ، وليس معي مالٌ لغيري حتىٰ أخافَ علىٰ ضياعه ، ومعلومٌ أن اللصَّ لا يؤذي الإنسانَ إلا إذا لم يسمح له بثيابه مثلاً ، وأنا طيِّبُ النفس ، سائلاً من ربي ألا يضربَني ؛ خوفاً عليه من الإثم بسببي ، لا خوفاً علىٰ نفسي إلا بحكم التبعيةِ ، ثم أبرئ ذمتَهُ من ضربه لي ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تنبيهه في المنام علىٰ ما يقع منه من النقائص]

ومما أنعمَ الله به عليَّ تنبيهي في المنام علىٰ ما يقعُ مني في المستقبل من الأمور المُعلَّقة ؛ لآخذ حذري منها بالالتجاء إلى الله تعالىٰ في محوِها من ألواح المحوِ والإثباتِ ، وكذلك الأمورُ المقدرة في علم الله تعالىٰ حتماً ينبهني اللهُ تعالىٰ عليها بعد وقوعها إذا وقعتْ مني في حال غفلةٍ أو سهو أو غلبة حال .

= صارت كرقة الشعرة الباردة) ، وفي النسخ عدا (هـ ، و) : (يزيق) بدل (يزهق) ، ومعنىٰ (يزهق) : يشتدُّ هزاله

(١) زهق : أي : زلق .

واعلم يا أخي أن كلَّ ما يراه المؤمنُ في منامه هو من وحي الله تعالىٰ إليه في المنام علىٰ لسان مَلَكِ الإلهام ؛ ولذلك كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاة الصبح . . يقول « مَنْ رأىٰ منكم رؤيا فليخبرْني بها أَعْبُرْها لهُ »[1] ، فكان يحبُّ أن يرىٰ أثرَ الوحي الإلـٰهيِّ في أمته وإن اختلف المقامُ ، وهـٰذا الأمرُ قد جعلَهُ الله تعالىٰ لي من حينَ بلغت الحُلمَ

ولي أماراتٌ أعرف بها عظمةَ الذنب الذي أُدافعه حتىٰ لا يقعَ ، والذنبَ الذي وقعتُ فيه

فإذا رأيتُ أنني أمشي بين أشجار التين . . علمتُ أني حائمٌ حول الوقوعِ في ذنب

وإن أكلتُ التينَ من الشجرة . . أعرف أنه لا بد من وقوعي في معصية عظيمةٍ

وإن رأيتُ أن أحداً جنى التين وأطعمني . . يحصل لي بواسطته مساعدةٌ في معصية ؛ كما وقع لآدمَ مع حواءَ عليهما السلامُ

وإن رأيتُ أنني مجالسٌ للأموات . . أعرف أن قلبي ميتٌ عن فعل الطاعات

وإن رأيتُ أني مصاحبٌ أعمىٰ . . أعرف أني عميت عن طريق الحقِّ ، وهـٰكذا لي علامةٌ في كل شيءٍ يقع مني في المستقبل

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٧) عن سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه ، ومسلم (٢٢٦٩) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

وإن نمتُ عن وِرْدي . . أرىٰ في الليلة الآتيةِ أن راحلتي ضاعتْ مني ، وأنا في سفر كثير الوَعْر والشوك في الطريق

وإن نمتُ عن قيام الليلِ مع الأوائل . . أرىٰ نفسي انقطعتُ عن الحجاج بمرحلة أو أكثرَ أو أقلَّ بحسب تخلُّفي عنهم .

وإن نمتُ في وقت التجلِّي الإلـٰهيِّ . . أرىٰ نفسي مضطجعاً مع الأموات .

وإن فعلتُ شيئاً من أخلاق البهائم . . أرىٰ نفسي مخالطاً للبهائم ، وربما رأيتُ نفسي معانقاً لذلك الحيوان الذي تخلَّقتُ بأخلاقه

وإن نمتُ علىٰ غير وِتْرٍ . . أرىٰ نفسي واقفاً علىٰ باب الجنة المتعلِّقِ بالوتر وأنا أريد الدخول فلا يُمكِّنُني البوابُ .

وإن نظرتُ إلىٰ كثرة عملي . . أرىٰ نفسي تلك الليلةَ ألعبُ مع المحبظين[1]

وإن أتيتُ خصلةً من خصال النفاق . . أجد نفسي حاملاً شيئاً من الخشب ؛ غليظاً أو رقيقاً[2] ، بحسب كِبَرِ تلك الصفةِ في النفاق وصغرِها

وإن وقعَ مني غيبةٌ في المسجد . . أرىٰ كأني أشربُ فيه الخمرَ ، وربما أرىٰ ذلك الشخصَ الذي ذكرتُهُ بما لا أُواجههُ به في حضوره وهو مشويٌّ وأنا آكلُ من لحمه ، وأجد له حلاوةً كالعسل أو دونه ؛ بحسب استحلائي ذلك الكلامَ فيه .

---

(١) المحبظون فرقة جوالة من ممثلي المسرحيات الشعبية المصرية ، وكانت نصوصهم كلها نابعة من البيئة المحلية .

(٢) في (ب ، د) (رفيعاً) بدل (رقيقاً) ، وكلاهما صحيح

وإن رأيتُ أني منحدرٌ في مركب . . أعرف أنني تركت فعلَ عبادة كانت ترقيني .

وإن رأيتُ نفسي مُقلعاً . . أعرف أنني فعلت عبادةً ترقيني .

وإن رأيتُ نفسي مُنحدِراً بحري بلدي في الريف . . أعرف أنني نزلتُ عن الترقي إلىٰ دون الحالةِ التي أتيت فيها من البلاد إلىٰ مصرِ[1]

وإن سترتُ عيبَ أحد . . أرىٰ أن لحيتي مُضمَّخةٌ مسكاً وعنبراً وغالية[2]

وإن رأيتُ ابن المخلطة الشاهد في المنام[3] . . عرفت أنني مخلطٌ في أعمالي .

وإن رأيتُ أنني تائهٌ في حارة الباطلية . . عرفت أنني وقعتُ في باطل

وإن رأيت سيدي الشيخَ أبا الحسن الغمريَّ وهو يتبسم لي . . عرفت أنني أتيت فعلاً حسناً ، وإن رأيته معبساً . . أعرف أنني فعلت شيئاً غيرَ حسنٍ

وإن نمت عن وِرْدي حتىٰ قرُب طلوعُ الفجر . . أرىٰ نفسي تركتُ صلاةَ العصر حتىٰ كادت الشمسُ أن تغربَ ، أو تركتُ صلاةَ الصبح حتىٰ كادت الشمسُ أن تطلعَ

وإن قمتُ من الليل وختمت وِرْدي قبل انفضاض الموكبِ الإلـٰهيِّ ، ثم

---

(١) العبارة في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢٢) : (وإن انحدرت عن بلدي ساقية أبي شعرة . . أعرف أنني نزلت في المقام عن الحالة التي كنت عليها في الريف قبل مجيء مصر) .

(٢) الغالية : أخلاط من الطيب .

(٣) في (أ) وحدها : (المخلط) بدل (المخلطة) .

نمت. . أرىٰ كأنني صليت الجمعةَ وحدي ، وانصرفتُ قبل أن تقام الجمعةُ الأصليةُ ، فأعرفُ أني ختمت الوِردَ قبل وقته

وإن نمتُ عن أول قيام الليلِ في الليالي الفاضلةِ. . أرىٰ نفسي في مكةَ المشرفةِ وقد تخلَّفتُ عن صلاة الجمعة حتىٰ كاد الخطيبُ أن يفرُغَ

وإن وقعتُ في أمر فيه عمىً للبصيرة. . أرىٰ نفسي عائماً في بحر مع أعمىٰ

وإن استغاب أحدٌ عندي أحداً بغير حقٍّ ، وأورثَ كلامُهُ بعضَ ريبة. . أرىٰ ذلك الرجل المُستغابَ تلك الليلةَ وعليه ثياب نقيَّةُ البياض ، فأتحقق كذبَ ذلك الرجل المستغيب .

وإن نقصني شخصٌ عند أحد من الأكابر ؛ من أمير ، أو عالم. . أرىٰ نفسي تلك الليلةَ وأنا لابس ثوبَ صوف أخضرَ ، وذلك الرجل الذي نقصني يلطخ ثيابي بهَباب أو فحم[1] ، فأعرف أن كلامَ ذلك الرجلِ قُبِل فيَّ عند ذلك الكبير ؛ فإن لباسَ الأخضر لباسُ الصالحين ، ولـٰكنه لم يَسلَم ممن يجرح صاحبه .

وإن وقع أنني لم أَرُدَّ عن أخي غيبةً. . أرىٰ نفسي معاشراً شَرَبَةَ الخمر وقد صُبَّ علىٰ ثوبي خمرٌ

وإن تركتُ قيامَ الليل كسلاً بالكلية. . أرىٰ نفسي منحدراً في مركب وهي سائرةٌ كالطوبة المرماةِ في السرعة

---

(١) الهباب : سواد الدخان .

وإن تركتُ قيامَ ليلتين . . أرىٰ نفسي منحدرةً حتىٰ تقفَ بي المركبُ علىٰ سَمَنُّودَ

وإن تركتُ ذلك ثلاثَ ليال . . وقفتْ بي المركبُ علىٰ دِمياطَ آخرَ بلاد المسلمين .

وإن وقعتُ فيما يغضب الحقَّ جل وعلا ، ثم حصل الرضا . . أرىٰ نفسي في الصالحية

وأما مدةُ القطيعة . . فأرىٰ نفسي في بُرشوبَ الصغرىٰ ، وإن قويت القطيعة . . أرىٰ نفسي في بُرشوبَ الكبرىٰ وأنا تائهٌ في أَزِقَّتها لا أهتدي للخروج منها ، وربما أجدُ نفسي وأنا أغرسُ فيها شجرَ التين الذي هو كنايةٌ عن شجرة الندم ، ثم إذا وقع الصلح . . أجد ما غرستُهُ من التين قد تحوَّل إلىٰ خَسٍّ أو قُلْقاس[١]

وإن جلستُ في مجلس الصلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم وأمورُ الدنيا غالبةٌ علىٰ قلبي . . أجد بستانَيِ الفواكه من التفاح والكُمَّثرىٰ قد تحوَّلَ إلىٰ شوك وأَثْلٍ وسدر[٢]

وإن غفلتُ عن الحضور في الوِرْد . . أرىٰ شجرَ بستاني كلَّهُ عطشانَ ، وورقَهُ أصفرَ

وإن سهرتُ ليلةً وقلبي شاردٌ عن حضرة مخاطبة الله عز وجل . . أرىٰ

---

(١) القُلقاس : هو أصل نبات يؤكل مطبوخاً ، ويتداوىٰ به . « تاج العروس » (ق ل ق س)

(٢) الكمثرىٰ : هو الذي تسميه العامة الإجاص ، والأثل : شجر عظيم لا ثمر له .

تلك الليلةَ القابلةَ نفسي وأنا قد أوسقتُ مركباً كبيرة تراباً وأنا مقلعٌ بها إلىٰ مصرَ[1] ، فأعرفُ جنايتي وأنني عملتُ عملاً لا يصلح زاداً ولا هديةً للملوك .

وإن نمتُ عن قيام تلك الليلةِ بالكلية إلىٰ قبيل الفجر . . أرىٰ كأني معانقٌ شخصاً أعمىٰ مزمناً أكتعَ[2] ، يخط برجله في الأرض[3] ، وبصاقُهُ سائحٌ علىٰ لحيته ، فأعرفُ أني قصرتُ في قيام الليلِ بغير عذر

وإن خطر في بالي أنني أحسنُ من أحد من الخلق . . أرىٰ تلك الليلةَ ذلك الأحدَ وهو يجاذبني من الوقوع من علىٰ مكان عالٍ[4] ، ولولا هو لوقعتُ ، فأعرف أنه أعلىٰ مقاماً مني ، فأستغفرُ اللهَ تعالىٰ من ذلك الخاطرِ وإن كان لم يستقرَّ

وإن تلاهيتُ عن المجلس بأحد من الولاة الذي ورد عليَّ . . أرىٰ تلك الليلةَ بستاني وهو صفٌّ شجر بجانب الزَّرب فقط من أَثْلٍ وتين وأشجار مجهولة ، فأعرفُ أن عملي في ذلك المجلس لم يتحصَّل منه سوى الصورةِ فقط ؛ كبساتين أهل سبأ ، فكلُّ مَنْ رأى الصفَّ البراني من بعيد . . يعتقد أنه غَيْطٌ عظيم[5] ، وكلُّ من دخل لا يجد شيئاً ، مع أن شجرَ التين شجرُ الندم ، فأزيد في الاستغفار والندمِ بعد ذلك .

---

(١) أوسقت : حمَّلتُ .

(٢) الأكتع : من رجعت أصابعه إلىٰ كفِّه وظهرت رواجبُهُ . « تاج العروس » (ك ت ع) .

(٣) خَطَّ برجله الأرض : إذا مشىٰ .

(٤) في النسخ عدا (ج) : (يحاذيني) بدل (يجاذبني) .

(٥) الغيط : البستان .

وإن مالتْ نفسي إلىٰ جاريتي مع وجود زوجتي . . أرىٰ تلك الليلةَ أني صاحبتُ كلباً أجربَ ضعيفاً يأكل الذبابَ ، فإذا عطسَ أصابني ذبابٌ من أنفه ، فأحتاج إلىٰ غسل ما أصابني ، فأعرف أن نفسي إذ ذاك كنفس الكلبِ المذكورِ الذي تطيب نفسُهُ علىٰ أكل الذبابِ .

وإن أكثرتُ الكلامَ في مقام لم أبلغه . . أرىٰ نفسي تلك الليلةَ أنني معاشرٌ جماعةً لا يعملون بعلمهم ، وكثيراً ما أنظر تلك الليلةَ أني مصاحبٌ للمجادلين .

وإن وقع مني غفلةٌ عن الله بأحد من الخَلْق . . أرىٰ نفسي تلك الليلةَ أتفرجُ علىٰ من يعمل السخرية في المقابر[١] ، فأعرف أني نسيت الموتَ

وإن وقعتُ في فعل شيء فيه نقصٌ ولم أهتد إليه . . أرىٰ نفسي وأنا منحدرٌ إلىٰ سَمَنُّودَ[٢] ، وربما أرىٰ نفسي ساكناً في المحلة

وإن التبس عليَّ حكمُ الحِلِّ في طعام ، ثم أكلته غيرَ عالم بحرمته . . أرىٰ تلك الليلةَ مَنْ حمله إليَّ وهو يطعمني لحمَ كلب مطبوخ ، وإن اشتدت الحرمةُ فيه . . رأيت تلك الليلةَ كأنه يطعمني لحمَ خنزير مع لحم كلبٍ مطبوخين بما كانا مطبوخين به في اليقظة ، وأرىٰ معي جماعةً من الكلاب يأكلون ؛ كما وقع لي ذلك في طعام أتاني به محمدُ ابنُ أخت خضر من عند زوجة سيده تلك الليلة مع خبث كسبِهِ

---

(١) في (ج) وحدها : (السحر) بدل (السخرية) .

(٢) سمنود : بلد في نواحي مصر ، جهة دمياط ؛ مدينة علىٰ ضفة النيل ، بينها وبين المحلة ميلان . « معجم البلدان » (٣/ ٢٥٣) .

وإن تركتُ شيئاً من الطاعات. . أرى اللصَّ قد نَقَب حائطَ داري وهو يريد أن يدخل قَعْرَ بيتي[1]

ومما وقع لي أنني نظرتُ مرةً إلىٰ وجه جاريتي بغير شهوة لما زوجتُها بحضرة زوجها ، فرأيت تلك الليلةَ كأنني في جامع الحاكم ، وبين يديَّ قطعةُ دم أسودَ معجونةٌ بالخمر قَدْرَ القِنْطار وأنا أريد أن ألحس منها ، مع أن مذهبَنا أن الأمَةَ المزوَّجةَ مع سيدها في النظر كالمَحْرم ، فعلمتُ اعتناءَ الحق تعالىٰ بي في عدم الترخيص ، وهـٰذا من أعظم نعم الله تعالىٰ عليَّ ؛ حتىٰ لا أحومَ حولَ محارمِهِ ولو بلا شهوةٍ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[محبته لإظهار أعماله الصالحة بشرطها]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : محبتي لإظهار أعمالي الصالحةِ بالنظر لمقامي ؛ فإن أيامَ الكتمان قد ذهبت ، فأنا أحبُّ الآن إذا فعلت طاعةً أن يعلم بها أهلُ المشرق والمغرب ، وكلُّ صامت وناطق ؛ ليصيرَ كلُّ أحد يعمل بتلك الطاعة ؛ إقامةً لشعار العبوديةِ ، ويُكتبَ مثلُ ذلك في صحيفتي

وأيضاً : فإن كلَّ من علم بتلك الطاعةِ يصير يشهدُ لي بها عند الله تعالىٰ يوم القيامة ؛ فإنني الآنَ في معترك المنايا[2] ، ويا طولَ ما كتمتُ أعمالي وأغلقت أبوابَ الزاوية وشبابيكَها حتىٰ لا يسمعَ أحدٌ صوتنا بالذِّكْر ، وأنا

---

(١) نقب الحائط : خرقه .

(٢) معترك المنايا : ما بين الستين إلى السبعين ؛ روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٧٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : « معترك المنايا بين الستين إلى السبعين » وزاد البيهقي : « وأقل أمتي أبناء السبعين سنة »

الآن أحبُّ إذا قلت : (لا إلـه إلا الله) مثلاً أن يسمعها جميعُ خَلْق الله تعالىٰ ، وأحثُّ خادم الزاوية أن يفتح أبوابَ الشبابيك حتىٰ يسمعَ المارُّونَ في الشارع ذكرَ الله فيذكروه ؛ كلُّ ذلك محبةً في الله ، لا لعلة أخرىٰ ، كما مرَّ إيضاحُهُ في مقدمة هـٰذا الكتاب[1]

وإنما كنتُ أكتم أعمالي قبل الشهرةِ ، وأما الآن فلو أخفَينا الأعمالَ جهدنا . . ما بقينا نخفىٰ ، ووالله ؛ إني لأشتاقُ إلىٰ زيارة أخي في الله تعالىٰ ، فلا أقدر أذهب إليه في شوارع مصرَ ؛ من كثرة إشارة الناس إليَّ بالأصابع ، وربما تركتُ الطيلسان حتىٰ لا يعرفَني أحدٌ ، فيعرفُني الناسُ ، فآخذ ذلك من باب النعمة ، لا من باب المكر والاستدراج ؛ فإن ذلك سوءُ ظنٍّ بالله تعالىٰ

وبما قررناهُ يُعلمُ : أن ما ورد من ذمِّ التسميع ، وأن من سمَّعَ سمَّعَ اللهُ به[2] . . علىٰ من سمَّعَ بأعماله لغير غرضٍ صحيح ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[محبته للتقلل من مجالسة الأكابر]

ومما منَّ الله به عليَّ : محبتي للتقلُّلِ من مجالسة الأكابرِ ؛ من العلماء ، والصالحين ، وقضاة العساكر ، والأمراء ، والكبراء ؛ خوفاً من وقوعي في الإخلال بواجب حقِّهم ، لا لعلة أخرىٰ ؛ فإن حقوقَ الأكابر ممن ذكرنا

---

(١) انظر (ص١١٦) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩) ، عن سيدنا جندب رضي الله عنه ، وزاد فيه : « ومن يرائي يرائي الله به » ، ومسلم (٢٩٨٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

يَعجِز أمثالُنا عن القيام بها ، والقاعدة : أن كلَّ شيء كثُرت مشاهدتُهُ . هانَ على الناس ؛ كما قالوا أقلُّ الناس بالشيخ نفعاً النقيبُ وزوجتُهُ وولدُهُ ؛ لكثرة مشاهدتهم له ووقوفِهم مع ظاهر بشريته

وكذلك تأمَّلْ يا أخي أهلَ مكةَ : لا يُعظِّمُ أحدُهم البيت كما يعظمه الآفاقيُّ منا إذا حج ، ولا يبكي عند رؤيته ؛ لكثرة مشاهدته له ، ولذلك ورد الأمرُ بالحج إليها بعد كلِّ خمس سنين[1] ؛ وذلك ليحصل للحاجِّ الاشتياقُ الكامل ، ويعظمَها إذا رآها .

ومن هنا أيضاً أمر العلماءُ الخطيبَ أن يجلس في خلوة الخطابة ، ولا يخرجَ إلا بعد الأذان ؛ ليكونَ مهاباً عند الحاضرين ، فيؤثِّرَ فيهم وعظُهُ ، ولا هٰكذا الحالُ لو جلس يتحدَّثُ معهم باللغو واللعب والمزاح حتىٰ دعاه المُرقي فيصعد المنبرَ فيعظهم ؛ فإنه لا يؤثِّرُ وعظُهُ فيهم

فعُلِمَ : أن مجالسةَ الأكابر لا تطلب شرعاً إلا لمصلحة ترجح علىٰ ترك مجالستهم ، والله تعالىٰ أعلم

[تعظيمُهُ للشرفاء ولو طُعِن في نسبهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كثرةُ تعظيمي للأشراف ـ وإن طعن الناسُ في نسبهم ـ أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أُعظِّم أولادَ

(١) روى الفاكهي في « أخبار مكة » (٩٥٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : إن عبداً أصححت جسمه ، وأوسعت عليه في الرزق في الدنيا ، فلا يَفِدُ إليَّ في خمسة أعوام أو أربعة أعوام . . لمحروم » ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٧٠٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

العلماء والصالحين ، وأكرمهم ، وأُجِلُّهم ولو كانوا علىٰ غير قدم الاستقامة مثلَ آبائهم ، ثم أقلُّ مقام أحدهم عندي أن أعاملَهُ بالإجلال والتعظيم كما أعامل نائب مصرَ أو قاضيَ العسكر ، وهٰذا خلق غريب قَلَّ من يعمل به من الناس .

[مطلبٌ
في جملة من الآداب مع الشرفاء]

واعلم : أن من جملة تعظيمنا لمن ذُكِر : ألا نتزوجَ لهم ابنةً ، ولا زوجةً طلقوها أو ماتوا عنها ، إلا إن علمنا من أنفسنا القدرةَ على القيام بحقِّها ، ولا نتزوجَ ولا نتسرَّىٰ عليها ، ولا نمنعَها شهوةً مباحة ، بل نُقدِّم لها نعلَها ؛ لأنها بَضْعةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو من الأولياء رضي الله عنهم

وكذلك لا نمنعُهم شيئاً طلبوه منا ولو عمامتَنا ، ولا ننظرُ إلى امرأة من الشرفاء وهي في إزارها إلا لحاجة شرعية ، وقد أوضحنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب « البحر المورود » فراجعه ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[معرفته بصوت الشرفاء من وراء حجاب]

ومما منَّ الله به عليَّ : معرفتي بأصوات الشُّرفاء من ذكر وأنثىٰ . . من وراء حجاب ، وأُميِّز صوتَ الشريف من صوت غيره ، كما أعرف كلامَ النبوة من المُدْرج فيه ، وكما أعرف الكلامَ الزُّورَ في المكاتيب من غيره بمجرد رؤية الخط ، وكما أعرف جميعَ ما جَنَاه العبدُ من رؤية وجهه ، وغيرَ ذلك مما ذكرتُهُ في كتاب « الفراسة »

[مطلبٌ
في فوائدَ من معرفة كلام النبوة وصوت الشريف]

ومن فوائد معرفة صوت الشريف : وجوبُ المبادرة إلى القيام بحقِّه ، ولا أتوقَّف علىٰ رؤية علامةِ الشَّرفِ في عمامته ، أو ثبوتِ نسبه ببينة

ومن فوائد معرفتي لكلام النبوة : أنني أبادر إلى العمل به ، وأُقدِّمه علىٰ ما شككت فيه ، وهـٰذا الأمرُ قد أعطاه الله تعالىٰ لي من حينَ كنت صغيراً ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كراهته للأكل من الصدقات الخاصة إلا لضرورة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ أكلي من الصدقات الخاصَّةِ إلا لضرورة شرعية ، أما العامةُ ؛ كالموقوف على الفقراء والمساكين . . فليَ الأكلُ منه بشرط الحاجة ، وأما دراهمُ الزكاة المفروضةِ فحماني الله تعالىٰ من الأكل مما اشتُري بها

وأيضاً فإني أعدُّ نفسي من موالي أهل البيتِ ، ومولى القوم منهم ، وعلىٰ ما تقدم من كوني من أولاد السيد محمد بن الحنفية ابنِ الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه[1] . . فنحن من أهل البيت حقّاً ، ولـٰكنْ ما أنا علىٰ يقين من ذلك ؛ لكون سند نسبي فيه انقطاعٌ كما مرَّ[2] ، ثم بتقدير عدم شرفي فلي تركُ أكل الزكوات ولو نافلةً ؛ تنزُّهاً عن أوساخ الناس ، وجميعُ ما آخذه إنما هو على اسم الفقراء المترددين إليَّ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) انظر (ص١٤٣)
(٢) انظر (ص١٤٤)

[استئذانُهُ بقلبه لربه أو رسوله أو للعلماء]

ومما منَّ الله به عليَّ : وإذا كنتُ في قراءة قرآن ، أو حديث ، أو علم ، وكلَّمني إنسانٌ في شيء . . لا أردُّ عليه إلا بعد قولي بقلبي : دُستور يا ألله ؛ أكلمُ عبدَكَ في حاجته ، أو : دُستور يا رسول الله ؛ أكلم فلاناً ، أو : دُستور يا محمد يا بن إدريس مثلاً ؛ أن أكلمَ فلاناً ؛ كلُّ ذلك أدباً مع الله تعالىٰ ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم وأئمةِ دينه رضي الله عنهم أجمعين ، ولهـٰذا الأدب حلاوةٌ عظيمة يجدها العبدُ في نفسه إذا فعلَهُ لا يعادلها حلاوةٌ ، ثم إن وقع أني كلمتُ إنساناً من غير استئذان . . استغفرتُ الله تعالىٰ حتىٰ يلقيَ في قلبي أنه قَبِلَ استغفاري سبحانه وتعالىٰ .

وكان أخي أفضلُ الدين إذا كلَّم أحداً غافلاً وهو يقرأ في القرآن . . يستغفر الله تعالىٰ ألفَ مرة ، وإن كلَّم أحداً وهو يقرأ الحديثَ النبوي . . يستغفر الله تعالىٰ سبعين مرة ، وإن كلمه وهو يقرأ كلام أحد من العلماء . . يستغفر الله تعالىٰ ثلاثَ مرات ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[كراهتُهُ مدَّ رجله من ليل أو نهار إلا بعد استئذانه ربَّه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ مدِّ رجلي في ساعة من ليل أو نهار إلا بعد قولي : دستور يا ألله ؛ أمدُّ رجلي ؛ وذلك لعلمي بأنني بين يدي الله تعالىٰ على الدوام ، شعرت بذلك أم لم أشعر ، فإن لم يكن ذلك كشفاً وشهوداً فإيماناً ؛ ولهـٰذا الأدب حلاوةٌ عظيمة لا يقدر قدرُها

ثم إني إذا حصل لي وجعٌ من كثرة ضمها ، بحيث إنني أعرفُ بالقرائن أن الله تعالىٰ يعذرُني في مثل ذلك . . فإن شئتُ استأذنت ، وإن شئتُ لم

أستأذن ؛ فإن رحمةَ الأم بولدها جزءٌ ضعيف من أجزاء رحمة الله تعالىٰ بعباده ، وقد رأيناها وهي تمدُّ رِجلَي ولدها إذا خافت عليه القرفصةَ ، فإذا كانت الأمُّ تفعل هـٰكذا مع ضعف رحمتها . . فالله تعالىٰ أرحمُ بالعبد منها ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كراهتُهُ للنوم علىٰ حدث أصغرَ أو أكبرَ ، ظاهر أو باطن]

ومما مَنَّ الله به عليَّ : كراهتي للنوم علىٰ حدث أصغرَ أو أكبرَ ، ظاهر أو باطن ؛ من حقد أو مكر ، أو غلٍّ أو حسد ، أو بغضِ أحد من عباد الله إلا بطريق شرعي ، فأكره أفعالَهُ لا ذاته ؛ كلُّ ذلك أدباً مع الحضرة التي ننتقل إليها بعد النوم ؛ فإن الأرواح لا يُؤذنُ لها في السجود بين يدي الله تعالىٰ إذا فارقت تدبيرَ هيكلها . . إلا إذا كانت علىٰ طهارة ظاهرةٍ وباطنة ؛ فإن لم تكن علىٰ طهارة كما ذكرنا . . صارت واقفةً خارجَ حضرة الله تعالىٰ ، لا تقدر علىٰ دخولها ، ولا تقدر تسجد خارجَها علىٰ حدث ظاهر أو باطن أبداً ؛ كحال اليقظة ، ثم إن سجدت فلا تقدرُ على الحضور مع الله تعالى أبداً ، ومن شكَّ فليجربْ ، وتأمل قولَهُ صلى الله عليه وسلم في خروج النساء لصلاة العيد : « والحُيَّضُ يعتزلنَ المُصلَّىٰ »[1] ، وما يعقلها إلا العالمون .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول (إياك يا أخي أن تنامَ علىٰ حدث ظاهرٍ أو باطن ، أو محبةٍ للدنيا ، فربما أخذ الله تعالىٰ روحَكَ في تلك الليلةِ ، فتلقى الله تعالىٰ وهو عليك غضبانٌ بحسب ذلك الأمر الذي نمت عليه ، أو يخسفُ بك الأرضَ في دار الدنيا ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنَ

(١) رواه البخاري (٣٢٤) ، ومسلم (٨٩٠/ ١٢) عن السيدة أم عطية رضي الله عنها .

﴿ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ . . . ﴾ الآية [النحل : ٤٥] ، وفي الحديث أيضاً : « يُحشرُ المرءُ على دينِ خليلِهِ ، فلينظرْ أحدُكم مَنْ يُخاللُ »)[١]

وسمعته مرةً أخرىٰ يقول (احذروا أن تناموا علىٰ محبة الدنيا ، فربما مات أحدُكم في تلك النومة ، فيحشر يومَ القيامة مع مبغوضٍ لم ينظر الله تعالىٰ إليه منذ خلقَهُ) انتهىٰ[٢] ، وهـٰذا الأمرُ شديد علىٰ من يحبِس عنده شيئاً من الدنيا وهو يجد من يقبله منه

وينبغي للإنسان أن يراعيَ التوبةَ من جميع هـٰذه الأمورِ إذا استيقظ أيضاً ، لا سيما محبةِ الدنيا ؛ فإن غالبَ الناس لا يكادون يعُدُّون ذلك ذنباً أبداً ، وهو رأسُ كل خطيئة كما قاله المسيح عليه السلام[٣]

وقد كان مالك بن دينار يقول لأصحابه (تعالوا بنا نستغفرْ من الذنب الذي لا يهتدي أحدٌ للتوبة منه ، وهو حبُّ الدنيا)[٤] ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٣٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/ ٢٠٠) عن علي بن الحسين مرسلاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لما خلق الدنيا أعرض عنها ، فلم ينظر إليها من هوانها عليه »
ورواه أيضاً (٥٥/ ١١٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ لما خلق الدنيا نظر إليها ثم أعرض عنها ، ثم قال : وعزتي ؛ لا أنزلتك إلا في أشرار خلقي »

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٤٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٩٧٤)

(٤) رواه أبو داود في « الزهد » (٢٤٤) من قول أبي الدرداء رضي الله عنه ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٤) من قول بلال بن سعد رحمه الله تعالىٰ

[عدمُ نومه في الثلث الأخير من الليل أو الليالي الفاضلة إلا غلبةً]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ نومي في الثلث الأخيرِ من الليل ، أو في ليلةِ الجمعة ، أو ليلتي العيدين ، أو ليلةِ النصف من شعبانَ ، أو ليالي القدر ، ونحوِ ذلك من الليالي الفاضلة . . إلا غلبةً ، وهـٰذا من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ ، ومن أين لمثلي أن يوقفَهُ الحقُّ تعالىٰ بين يديه في ذلك الموكبِ الأعظم مع أنبيائه وأوليائه وخاصِّ خواصِّ أهل حضرته وإن لم يلحق بهم ؟! فإن صفوفَ أهل المواكب الإلـٰهيةِ علىٰ صورة مواكبِ ملوك الدنيا ـ ولله المثلُ الأعلىٰ ـ ؛ فيقف الأكابرُ قريباً من حضرة الشهود ، ومَنْ دونهم قريباً منهم ، وهـٰكذا إلىٰ آخر من يحضرُ ، فربما تأخرتُ عن المبادرة ، فتكلمني أرواحُ أهل الحضرة وتقول لي : تأخَّرتَ عن عادتك ، وهناك شخصٌ لم تزل روحي تسمعُ منه : أهلاً بالمتهتِّم على الله[1] ؛ وذلك لكثرة ما يسمع من تملُّقي على الله تعالىٰ كلَّ ليلة بعد كثرة عِوجي وزلَّاتي[2] .

واعلم يا أخي : أن التجلِّيَ الإلـٰهيَّ تارةً يُنصبُ موكبُهُ من نصف الليل الثاني ، وتارةً بُعيدَ النصف ، وتارةً قريباً من الثلث الآخر ، وتارةً من أول الثلث ، لا ينضبط علىٰ حال ، كما يعرف ذلك أربابُ القلوب ، فيا سعادة من كان من أهل الرعيلِ الأول في الوقوف !

---

(١) المتهتم : أي المنكسر ، وفي (هـ ، و ، ز) : (بالمهتم) .

(٢) العبارة في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٣٣٧) : (وهناك شخص لم يزل يمزح معي ويقول إذا رآني : قد جاء المتملق على الله ؛ لكثرة ما يسمعني أدعو لنفسي ولإخواني) ، والتملُّق في الأصل : التودد والتلطف ، وهو هنا : بمعنى الدعاء والتضرع .

ولـٰكن قد روى الإمامُ سنيدُ بن عبد الله الأزدي في « تفسيره » مرفوعاً : « إنَّ الحقَّ تعالىٰ يتجلَّىٰ كلَّ ليلةِ جمعةٍ مِنْ غروبِ الشمسِ إلىٰ خروجِ الإمامِ مِنْ صلاةِ الصبحِ » انتهىٰ ، فينبغي لكل مؤمن ألا يغفلَ عن سؤال ربه ؛ أن يرزقَهُ ، أو يعافيه ، أو يغفر له ، ونحوَ ذلك مما ورد ؛ فإن الملِكَ الحقَّ سبحانه ما كلُّ وقت يتجرأ عبدُهُ عليه ، فإذا قال الله تعالىٰ : هل من سائلٍ ؟ هل من مبتلىً ؟ هل من مستغفرٍ ؟ هل من مسترزقٍ ؟[١] . . فهو إذنٌ لسائر عبيده في سؤاله ، فلا يغفل عن ذلك إلا كلُّ محروم خارجٍ عن جند السلطان .

وتأمل يا أخي : إذا لازم أحدٌ من الجند الوقوفَ في الموكب قبل حضور غالبِ الناسِ ، والملك ينظره . . . كيف يزيد في جامكيته[٢] ، بخلاف ما إذا تكاسل في طلوعه الديوانَ[٣] ، وتمثلِهِ بين يدي السلطان . . كيف يقطع جامكيته ، ويسقط اسمه من جنده ، فيعيش ذليلاً ممقوتاً بين عسكر السلطان ، وكذلك الحكمُ فيمن ينام وقتَ المواكب الإلـٰهية .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : (ما من ليلة إلا وينزل فيها نِثارٌ من السماء ، فيفرقُ على المستيقظين ، ويُحرمُ منه النائمون)

---

(١) روى الحديث البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الجامكية : هي ما يرتب في الأوقات لأصحاب الوظائف ؛ كالعطاء السنوي ، والجامكيةُ شهرية . « التعريفات الفقهية » (١/٦٨) .

(٣) العبارة في النسخ : (تكاسل في عدم طلوعه الديوان) بزيادة كلمة (عدم) ، ولا يستقيم الكلام بها .

قال (ومن هنا كان نومُ الأكابر إنما هو ضرورةٌ من غير استجلاب ، وذلك محمولٌ عنهم، لا ينقص به رأسُ مالهم) ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**.

وقد مكث ابنُ المؤذن بمنية أبي عبد الله بالبحر الصغير أربعين سنةً لا ينام الليل ، فكان أهل عصره يقولون : لعله لم يفته مدد نزل من السماء في ليل أو نهار ، وكان يجعل له خُصّاً على شاطئ البحر في الشتاء ؛ حتى لا يأخذه نوم من البرد ، رضي الله عنه[1] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ حزنه على ما فات من أمور الدنيا]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ حزني على شيء فاتني من الدنيا ، وعدمُ تكدُّري ممن صدَّها عني ؛ وذلك لعلمي بأن كلَّ شيء فاتني ليس هو رزقي ، فكيف أحزنُ على ما لم يقسمْهُ اللهُ تعالى لي ؟! وهـٰذا خلق غريبٌ فاعلُهُ في هـٰذا الزمان

وغالبُ الناس يحزن ويتكدَّرُ ممن سعى في قطع رزقِهِ الذي كان يتوهمه ، وربما عاداه أبداً ما عاش ، وفي الحديث : « ليسَ يتحسَّرُ أهلُ الجنةِ إلا على ساعةٍ مرتْ بهم في دارِ الدنيا لم يذكروا اللهَ فيها »[2] ، فمن حزن على مثلِ ذلك فلا حرجَ عليه ؛ فإنه ولو لم يمكن تداركُهُ فهو محمودٌ ؛ لِمَا فيه من تعظيم الله تعالى ؛ فإن كلَّ محبٍّ يحزن على فوات مجالستِهِ لمن يحبُّهُ

---

(١) ذكر المؤلف هـٰذا الخبر أيضاً في « بهجة النفوس » (٢/ ٢٦١) حيث قال : (وممن أدركناه على هـٰذا المقام . . .)

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٩٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٠٩) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

ضرورةً ، وقد قال تعالىٰ : « أنا جليسُ مَنْ ذكرَني »[1]

فعُلِمَ : أن مَنْ لم يحزن علىٰ مجالسة محبوبِهِ . . فليس له في حقيقة المحبة نصيبٌ .

وسمعت سيدي علياً الخواص يقول : (الحزنُ علىٰ ما فات من الطاعات محمودٌ للعبد ما دام في الحجاب ، فإذا ارتفع حجابُهُ ذهب الحزنُ ؛ لفناء مراده في مراد الله ، فيصير يحب الحجابَ عن ربه إذا حجبَهُ عنه ، ويرىٰ ذلك من جملة رحمة الله به ، لـٰكن محلُّ ذلك إذا كان محفوظاً من المخالفات حالَ الحجابِ) انتهىٰ

وكان الشبلي يقول : إني لا أشتهي رؤية الله ، فقيل له في ذلك ، فقال أُنزِّهُ ذلك الجمالَ البديع عن رؤية مثلي ، ولكلٍّ مقام رجالٌ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[انشراحُ صدره إذا لم يجد عنده شيئاً من الدنيا]

ومما منَّ الله به عليَّ انشراحُ صدري إذا بِتُّ ليس عندي شيء من الدنيا ، وضيقُ صدري إذا بات عندي دينارٌ أو درهم ، عكس ما عليه محبُّ الدنيا ، وكان هـٰذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كان إذا باتَ عنده دينارٌ أو درهم . . لا يأوي إلىٰ بيته تلك الليلة حتىٰ يجدَ من يأخذُهُ منه[2]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٧٠) عن سيدنا كعب الأحبار رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٥) عن سيدنا عبد الله بن الهوزني رحمه الله تعالىٰ .

ولم أزل على هـٰذا الخلقِ إلىٰ دخول سنة سبع وخمسين وتسع مئة ؛ فأطلعني اللهُ تعالىٰ على أمر دعاني أن أضعَ عندي دائماً نحوَ المئة نصفٍ ؛ تسكيناً للجزء الذي يضطربُ في الإنسان ، ويهتمُّ بالرزق ، وينسىٰ ضمانَ الله لرزقه ، ويخاف أن يضيعَهُ ، وهو تعالىٰ يرزقه من حينَ كان في بطن أمِّهِ ، ما نسيه يوماً واحداً ، وعلىٰ هـٰذا المذهب جماعةٌ من السلف ؛ منهم : سليمانُ بن يسار ، وسفيان الثوري ، وأبو سليمان الداراني ، رضي الله عنهم أجمعين ، وسيأتي ذلك بعد سبع مِننٍ ، فيذكر هناك[١]

[رضاه عن الله تعالىٰ إذا قدَّر عليه شيئاً من السهو والغفلة]

ومما أنعمَ اللهُ به عليَّ : رضايَ عن ربي عز وجل إذا قدَّرَ عليَّ سهواً أو غفلةً ، كما أرضىٰ عنه إذا قدَّرَ لي طاعةً علىٰ حدٍّ سواء ، لـٰكن من حيث التقديرُ لا من حيث الكسبُ ؛ لأن للسيد أن يستعملَ عبدَهُ تارةً في صَحْن المسك[٢] ، وتارةً في تقليب الزِّبل ، والله عليم حكيم .

ومن تأمل في مقدورات الله تعالىٰ . . وجدها في غاية الكمالِ ، ووجد أن الحقَّ تعالىٰ لم يُقدِّر علىٰ عبد معصيةً . . إلا لوقوع العبد في عجب ، أو رؤيةِ نفس علىٰ غيره ، وما دام مستقيماً في أحواله فهو محفوظٌ من المعاصي جملةً ، وفي المثل السائر : (من لم يجئ بشراب الليمون جاء بحطبه) ؛ فشرابُ الليمون هنا هو الطاعاتُ ، وحطبُهُ المعاصي ، وقال تعالىٰ :

---

(١) انظر (ص٢٣٥) .

(٢) الصَّحْن : الضغط بقوة على الشيء ؛ كالحَبِّ ونحوه حتىٰ يصير فتاتاً . انظر « معجم اللغة العربية » (ص ح ن) .

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] ، فما دام العبدُ مستقيماً كما أُمِر . . فلا يحتاج إلى ابتلائه بمعصية ، ومن هنا عُصِمت الأنبياءُ ؛ لاستقامتهم كما أُمِروا

فعُلِمَ : أن سخطَ العبد وندمَهُ إذا وقع في معصية . . إنما هو من حيث كسبُهُ ونفسُهُ ، لا من جهة كونِ ذلك من تقدير الحقِّ تعالىٰ عليه ، فافهم .

وفي كلام « الحكم » لابن عطاء الله : (معصيةٌ أورثتْ ذلّاً وانكساراً . . خيرٌ من طاعة أورثت عزّاً واستكباراً)[١] انتهىٰ ، وقال أهل العقائد : (يجب الرضا بالقضاء لا بالمقضي)[٢] ، ويحتاج صاحبُ هٰذا المقامِ إلىٰ ميزان دقيق يُفرِّق به بين الحق والباطل كشفاً وشهوداً

وسمعت أخي أفضلَ الدين يقول : لا يَقِلُّ اعتراضُ العبد علىٰ مقدور ربه . . إلا إن قرُبَ من حضرته ، وهناك يطَّلع علىٰ ما في جميع أفعالِ الله تعالىٰ من الحكمة ، فلا يطلب تغييرَ حكمٍ وقع في الكون ؛ حياءً من الله تعالىٰ ، بخلاف مَنْ كان خلف حجاب الإيمان ؛ فإنه يجب عليه أن يُنكِر علىٰ مقدوراتِ الحق تعالىٰ بالحقِّ للحق من حيث كسبُ العبد ، فقومٌ : غلب عليهم التسليمُ لله ، وقومٌ : غفلوا عن ذلك بالإنكار ، والكامل : مَنْ لا يحجبه أحدُ المقامين عن الآخر ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) الحكم العطائية (ص ٥٩) برقم (٩٥) .

(٢) انظر « شرح العقائد النسفية » (ص٢١٤) .

[عدمُ اعتداده بشيء من طاعاته علىٰ وجه الاعتماد عليه دون الله تعالىٰ]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ اعتدادي بشيء من طاعاتي علىٰ وجه الاعتمادِ عليه دون الله تعالىٰ ؛ فإن كلَّ من اعتمد علىٰ غير الله . . يتخلَّىٰ عنه في الآخرة ، ووالله ؛ إني لأنصرف من صلاتي وأنا في خجل من الله تعالىٰ أكثرَ من خجلي إذا عصيتُهُ ؛ لسوء ما أتعاطاه ، ولا أتجرأ أن أقول : خشعَ لك سمعي وبصري . . . إلىٰ آخره إلا إن عقبته بقولي : خشوعاً أستحقُّ به الخسفَ والمسخ لولا حلمُك وكرمك ؛ لأني أشهد سَداي ولُحمتي ذنوباً بالنظر لِمَا يستحقه جلالُ الله عز وجل ، ومَنْ كان هـٰذا مشهدَهُ استغفر من جميع طاعاته ؛ لِمَا فيها من سوء الأدب ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[سياستُهُ للمقاريض في أعراض الناس ، وكيفيةُ ذلك]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حسنُ سياستي للمقاريض الذين يقرضون في أعراض الناس بغير حقٍّ ؛ وذلك بالبشاشة ، وإطعامِ الطعام لأحدهم ، وإعطائِهِ ردائي أو عمامتي ، وغيرِ ذلك مما يُحبِّبه فيَّ ، فإذا أحبني وسمعتُهُ يذكر أحداً بسوء . . قلت له وأنا متبسِّم : يا أخي ؛ ما هي عادتُك تذكر أحداً بسوء ! فإنه يخجل من ذلك ويستحيي أن يكمل الحكايةَ ، ثم إذا خجل من ذلك واستحيا داويناه بنحو قولنا للحاضرين : إن أخانا هـٰذا يعجبنا حالُهُ ؛ لأنه لا يعرف يداهن في حقٍّ أبداً ، ونغالطه بنفسه ، فإذا غلط فيها قلنا له قد أحببناك يا أخي في الله ، ومقصودنا أن نبايعَك وتبايعنا علىٰ أن أحداً منا لا يقرُّ صاحبَهُ علىٰ معصية ولا غيبة في أحد من خلق الله تعالىٰ ، فلا يسعُهُ إن شاء الله إلا أن يبايع ، فإذا بايع تصرفنا فيه بعد ذلك لأجل الشرط شيئاً فشيئاً

حتىٰ يصير لا يذكر الناسَ إلا بخير إن شاء الله تعالىٰ

وكان أخي أفضلُ الدين رحمه الله إذا علم من أحد أنه يغتاب الناسَ إذا جلس عنده.. يقول للحاضرين مثلُ هٰذا ينبغي أن يتخذَهُ الفقيرُ صاحباً ؛ لأني ما سمعتُهُ قط يذكر الناسَ إلا بخير ، فيلجمه في ذلك المجلسِ عن الغيبة ؛ لأنه يستحيي أن يُخيِّبَ ظنَّ الناس فيه الخيرَ

ورأيته مرةً أخرىٰ أمر بمعروف ـ أعني : أخي المذكورَ ـ فتحزَّب عليه جماعةٌ ، وجاؤوا معهم بشخص من الأعرار[1] ، فأولَ ما رآهم أخي المذكورُ . قال لهم : الحمد لله الذي لم تجيئوا معكم إلا بشخصٍ يستحيي أن يتكلم بين اثنين ، أو يعين أحداً علىٰ باطل ولو كان أباه أو أخاه ، فأُلجم ذلك الشخصُ بذلك الكلامِ حتى انقلب على الذين جاء معهم ، ثم قال لي سرّاً : (تعلَّمْ هٰذه السياسةَ ، واعمل بها بقصد حماية أديانِ الناس ، ثم عظْهم بعد ذلك وخوِّفْهم من حصائد ألسنتهم ، وإياك أن تُعلِمَهم بأنك تكرههم ، أو تعملَ بذلك معهم خوفاً من تنقيصهم لك ؛ فإن ذلك من حظوظ النفسِ) انتهىٰ .

وسمعته مرةً أخرىٰ يقول (إياك أن تُجرئَ السفهاءَ عليك بوقوعك في شتمهم ؛ كأن تقول لهم : أنتم عندي مثل الوطاء[2] ؛ فإنهم ربما يقولون لك : وكذلك أنت الآخر عندنا) ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٤٩٩) : (وجاؤوا معهم بجماعة من الزوالق يريدون سبَّ الشيخ) .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٠٠) : (النعل) بدل (الوطاء) .

[عدم اعتقاده في نفسه أنه من علماء الزمان]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ رؤيتي نفسي أنني معدودٌ من العلماء ، بل لم يزل جهلي مشهوداً لي على الدوام ، وهـٰذا من أكبر نِعمِ الله تعالىٰ عليَّ ؛ ولذلك لا تطلب نفسي قط أن تزاحم العلماءَ علىٰ شيء مما يخصُّهم عادةً ، حتىٰ لو قدر أن السلطان رَسَمَ لكل واحد من العلماء بألف دينار[1] . . لم تُحدِّثني نفسي قط أنهم يعطوني من ذلك شيئاً ، بخلاف مَنْ كان مُتفعِّلاً في هـٰذا المقام ؛ فإنه ربما يفت الخبز على الدخان كما كان أشعبُ الطماع[2]

[مطلبٌ
في تأليف المؤلفين]

وسمعت أخي أفضلَ الدين رحمه الله يقول : من نظر في علوم السلفِ لم يُحدِّث نفسَهُ قط بأنه من أهل العلمِ ؛ فقد نقل أهلُ الطبقات : أن الإمام ابنَ الحداد لما حُرِقت كتب العلم التي في المدرسة النظامية ببغداد ، وندم علىٰ ذلك واقفُها نظامُ الملك . . قالوا له : لا تخف ؛ فإن ابنَ الحداد يُملي جميعَ ما حرق من حفظه ، فأرسلوا وراءه ، فأملىٰ جميعَ ما حُرِق في مدة سنتين ؛ ما بين تفسير ، وحديث ، وأصول ، وفقه ، ونحوٍ ، وغيرِ ذلك) ، قال : (وقد صنَّف ابنُ شاهين المحدثُ ثلاثَ مئة وثلاثين مؤلَّفاً ؛ منها : تفسيرُهُ

(١) رسم : أي : فرض .

(٢) أورد الصفدي قصة أشعب في « الوافي بالوفيات » (٩/ ١٦٠) فقال : (قيل لأشعب : ما بلغ من طمعك ، قال : أرىٰ دخان جاري فأثرد) .

للقرآن في ألف مجلد[1] ، ومنها : « المسند » في ألف وست مئة مجلد ، وحاسب الحبَّار على استجراره منه الحبرَ للكتابة ، فبلغ ألفَي قنطار وثمانِ مئة قنطار)[2]

وحكى السبكي وغيرُهُ : أن بعض العلماءَ بإخميم صنَّفَ في مذهب الإمام الشافعي ألفَ مجلد[3]

وحكى الجلال السيوطي رحمه الله أن للشيخ أبي الحسن الأشعري تفسيراً في خزانة المدرسة النظامية ، ست مئة مجلد .

وحكي أيضاً عن محمد بن جرير الطبري : أنه كان يحفظ وِقْر ثمانين بعيراً

وحكى السبكي أن محمدَ بن الأنباري كان يحفظ في كل جمعة عشرةَ آلاف ورقة ، وأن الإمامَ الواحدي كان يحفظ من العلوم وِقْرَ مئة وعشرين بعيراً .

قال : ومن الغرائب : أن محمدَ بن سينا حفظ القرآن كلَّهُ في ليلة واحدة ، وكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه من أول مرة ، وكذلك كان الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكان يقول : (ما سمعتُ شيئاً قط ونسيتُهُ) .

وروينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول : (لو شئت لأوقرتُ لكم ثمانين بعيراً من معنى الباء) .

---

(١) في « تذكرة الحفاظ » (٣/ ٩٨٧) (جزء) بدل (مجلد) .

(٢) في (هـ ، و ، ز) : (فبلغ ثمانية عشر قنطاراً) .

(٣) إخميم : بلد بالصعيد ؛ وهو بلد قديم على شاطئ النيل بالصعيد . « معجم البلدان » (١/ ١٢٣)

وكان الإمام الأعظم الليثُ بن سعد يقول (لو كتبتُ ما في صدري ما وسعه مركبٌ)

فلينظرْ من يدَّعي العلمَ في هـٰذا الزمان مرتبتَهُ في العلم بالنسبة لهـٰؤلاء العلماء . . يعرفْ تخلُّفَه وجهلَهُ يقيناً

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول : (مَنْ أراد أن يعرف رتبتَهُ في العلم . . فليرُدَّ كلَّ قول علمه إلىٰ قائله ، وينظرْ في نفسه ، فما بقي معه بعد ذلك فهو علمُهُ الذي يبعث عليه يوم القيامة ، وما عدا ذلك فله منه ثوابُ حمله لا غيرُ) .

وسمعته مراتٍ يقول : (لا يبلغ الرجلُ مقامَ الكمال إلا إن صارت مذاهبُ جميع المجتهدين نُصبَ عينه) ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[نَفْرةُ طبعه من المدح في المجالس بنظم أو نثر]

ومما أنعمَ الله به عليَّ نَفْرةُ طبعي ممن يمدحني في المجالس بنظم أو نثر ؛ من حيث خوفي من رؤية النفسِ لمثل ذلك ، ثم إني أشكر اللهَ تعالىٰ علىٰ إطلاقه بعضَ ألسنة عباده بمدحي مع عدم استحقاقي لذلك ، ثم بعد ذلك أيضاً أفتش نفسي ، فربما كان حبُّ المدح كامناً فيها ، فيورثني المدحُ بعضَ زَهْوٍ وعجبٍ ، فأُحجب عن مقام العبوديةِ .

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول إذا رأيت نفسَكَ علىٰ قدم الاستقامةِ ، ثم مدحك إنسان . . فتعرَّفْ من الله تعالىٰ سببَ ذلك ، فربما علم من نفسك حبَّ المدح لها علىٰ عبادتها ، فأعطاك ذلك ، ويكون هو

حظَّكَ منه تعالىٰ ؛ كما يفرح الولد الصغير بالجَلاجِل والشخاشيخ[1] ، ثم يقول لنفسه : لو علم الله تعالىٰ منكِ الإخلاصَ والاكتفاءَ بعلمه تعالىٰ . . لأخفاكِ ولم يبعث لكِ من يمدحُكِ ؛ إذ لا يُساق بالترغيب والترهيب إلى الطاعة إلا من يعبد الله تعالىٰ علىٰ حَرْفٍ ، وما مدح الله تعالى الأنبياءَ إلا ليُعلِمَنا بمقامهم ؛ حتىٰ نقبل منهم ما جاؤوا به من الهدىٰ ، لا لترغيبهم في الطاعة كغيرهم ؛ إذ لا يحتاج إلى الترغيب إلا من كان محجوباً ، فافهم .

وكان سيدي عليٌّ الخواص يزجر من يمدحه أشدَّ الزجر ؛ غيرةً لجناب الله عز وجل أن يشاركه أحدٌ في صورة المدح ، مع أن مشهدَهُ : أن جميعَ الصفات التي مُدِح عليها . . إنما هي لله تعالىٰ بالأصالة ؛ لأنه خالقُها .

وكان يقول : (إذا مدحني شخصٌ أكاد أذوب حياءً من الله عز وجل ؛ فإن مثلي لو نطقتْ كلُّ ذرة في جميع الكائنات بهجوه . . لكان قليلاً) انتهىٰ ، وهٰذا المقام أعلىٰ مما ذكره الشيخ تاجُ الدين بن عطاء الله في « حكمه » بقوله (العارفون إذا مُدِحوا انبسطوا ؛ لشهودهم ذلك من المَلِك الحقِّ ، والعُبَّادُ إذا مُدِحوا انقبضوا ؛ لشهودهم ذلك من الخلق)[2] انتهىٰ ، والكامل من ينظر بالعينين لا بإحداهما ، فينظر ذلك من الحقِّ تعالىٰ فيشكرُهُ ، وينظر ذلك من الخَلْق فيخاف أن يكون استدراجاً فيستغفر . انتهى ، وقد تحقَّقتُ بحمد الله تعالىٰ بنظري بهاتين العينين ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) الجلاجل : جمع جلجل ؛ وهو جرس صغير ، والشخاشيخ : لعبة تُحدث صوتاً عند هزِّها يتلهَّىٰ بها الأطفال . « معجم اللغة العربية » (ج ل ج ل) ، (ش خ ش خ) .

(٢) الحكم العطائية (ص٦٩) برقم (١٥١) ، وفيها : (الزهاد) بدل (العباد)

[عدمُ مؤاخذته لعدوه]

ومما أنعم الله به علي : عدمُ مؤاخذتي لعدوي ؛ لأنه لا يخلو حاله من أمرين إما أنه عاداني بحقٍّ فمؤاخذتي له حمقٌ ، أو عاداني بغير حق فهو مسكينٌ مبتلىً في دينه ، فالواجب عليَّ رحمتُهُ والدعاء له ، لا الغضبُ عليه زيادةً علىٰ ما هو فيه ، والعاقلُ من تكون جميعُ حركاته وسكناته يؤجر عليها ، لا من تكون حركاتُهُ معطلةً من الثواب أو جالبةً للأوزار .

وقد دخل عليَّ الكاشفُ إسكندرُ يوماً يشكو من شخص آذاه ، فمات ذلك الشخصُ بعد يوم ، فجاء وطلب له قراءةَ (الفاتحة) ، فقلت له : ما هٰذا الحالُ وأنت أمسِ تشكو منه ؟! فقال : شخصٌ أراد أن يؤذيني فما شاء الله تعالىٰ له ، فكيف أتكدَّر منه ؟! انتهىٰ .

وقد كان الجنيد رضي الله عنه يقول : (لو جلس عن يميني أحبُّ الناس إليَّ يُسمِعُني أطيبَ الكلام ، ويطعمني ألذَّ الطعام ، ويبخرني بالنَّدِّ والعنبر[١] ، ثم جلس عن يساري أشدُّ الناس لي عداوةً يلقمني الحنظل ، ويسمعني أقبحَ الهجو ، ويَقرِض لحمي بمقاريض من نار . . ما زاد مَنْ علىٰ يميني ، ولا نقص مَنْ علىٰ يساري ؛ لشهودي كلتا الحالتين من الله تعالى) انتهىٰ .

واعلم يا أخي : أن الوجودَ كلَّهُ ما بني إلا على المضادَّة ؛ ليباين من لا ضدَّ له سبحانه وتعالىٰ ، فلم يزل لكل إنسان محبٌّ ومبغضٌ ، ولو بلغ في

---

(١) النَّدُّ : عود يُتبخَّر به .

الفضل مقامَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ فمن الجهل أن يطلب الإنسانُ أن يكون الناس كلُّهم مطبقين علىٰ محبته ؛ فإن ذلك لم يصحَّ للأكابر فضلاً عن الأصاغر

ولما استخفى الإمام مالكٌ رضي الله عنه. . قال لابن القاسم : ما تسمع الناسَ يقولون فيَّ ؟ فقال : يا إمام ؛ من يُحبُّك لا يذكرك إلا بخير ، ومن يبغضك لا يخفىٰ عليك حالُهُ ، فقال الإمامُ : الحمد لله ، ما زال الناسُ كذلك لهم محبٌّ ومبغض ، ولـٰكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلِّها بالذم . انتهىٰ[1] ، وتقدم بسطُ ذلك مراراً ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[موافقتُهُ في المدح لعدوه إذا سمع من يمدحه]

ومما منَّ الله به عليَّ : موافقتي في المدح لمن يكرهني إذا سمعت أحداً يمدحه ؛ فأظهر له البشاشةَ وطلاقةَ الوجه ، حتىٰ لا يكاد يلحق بي أحدٌ ؛ وذلك سدّاً لفتح باب الغِيبة والنميمة فيَّ وفيمن يكرهني ، وخوفاً من إثارة الفتنة .

وقد رأيت شخصاً يكره شخصاً من العلماء ، فجمعَتْهما القدرةُ في وليمة ، فجاء إنسانٌ فمدح أحدَهما ، فقام الآخرُ مغضباً ، فلاثَ الحاضرون به[2] ، ثم إن الآخرَ خجل وقام ليخرج ، فتكدر المجلسُ كلُّهُ ، وحصل لصاحب الوليمة غايةُ النكد ، ولعمري ؛ إن كلَّ من لم يهذِّب العلمُ نفسَهُ فهو

---

(١) روىٰ هـٰذه القصة أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢١) من قول مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ .

(٢) لاث به : حقره وأهانه .

كالبهائم ، فينبغي لمن يدعي العلمَ إذا حضر في مكان ومَدَح أحدٌ عدوَّه ، ولم يوافقه في المدح . . فأقلُّ أحواله أن يسكت .

وقد حضرت مع أخي أفضلِ الدين وليمةً ، وكان هناك شخصٌ من حملة العلم من أشدِّ المنكرين على أخي المذكور ، فقام المادحُ فمدح ذلك العالمَ بقصيدة ، فخلع أخي أفضلُ الدين عليه جبَّتَه ونقَّطه بالفضة[1] ، فزال إنكارُ ذلك العالم على أخي كأنه لم يكن ، وهـٰذا من حسن السياسة .

وسمعته مرةً أخرىٰ يقول : (ينبغي للفقير إذا حضر في مجمع مع من يحطُّ عليه ويكرهه[2] . . أن يذكرَهُ بخير للحاضرين من ورائه ؛ فإن ذلك أقوىٰ في تخفيف العداوةِ من مدحه في وجهه ، وأكملُ أيضاً في رياضة النفس)

وهـٰذا خلقٌ لا يشَمُّ رائحتَهُ إلا من فطم على يد الأشياخ ، أو حصل له جذبةٌ إلـٰهية ؛ فصار يكرم كلَّ مسلم من حيث كونُهُ عبداً لله تعالىٰ ، وقد تحقَّقنا بذلك ولله الحمد ، فربما أتاني النمامُ بكلام قبيح عن بعض من يكرهني ، فأذكرُهُ له بخير ، فيتعجَّب من ذلك .

ومما وقع لي أن شخصاً من الحسدة أكثرَ الناسُ من نقل الكلام لي عنه على وجه الإفساد ، فصرت أقول لكل من نَقَلَ عنه شيئاً من النميمة أنا فارقته على رضاً وصلح ، ولم أجتمع به بعد ذلك ، فلا أُصدِّقُ قط فيه قولاً ، فانقطع الناس عن نقل الكلام إلى الآن ؛ ولهـٰذا المقام حلاوةٌ عظيمة يجدها الإنسانُ في قلبه أشدُّ من حلاوة العسل ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) نقَّطه : أي : قدَّم له مالاً أو هدية .

(٢) حطَّ من قدره : حقَّره وأهانه .

[عدم محبته أن يبيت علىٰ دينار أو درهم على اسمه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : أنني لا أبيت قط علىٰ دينار ولا درهم على اسم نفسي ، وإنما أبيت ذلك على اسم الفقراءِ والمحتاجين من نفسي وغيري ؛ لأُسكِنَ الجزءَ الذي يضطرب فيَّ وفيهم ؛ فإن الله تعالىٰ فَطَرَ النشأةَ الإنسانية علىٰ ذلك

[مطلبٌ
في عدمِ خلوِّ المدخر للدنيا عن حالين]

ثم لا يخلو المُدَّخر للدنيا عن حالين : إما أن يُكشَف له أنه من رزقه ، أو لا يُكشَف له عن ذلك .

فإن كُشِف له أنه من رزقه . . فالأدبُ أن ينفقَهُ على الناس ؛ فيكسبَ الثناءَ الحسن ، ويميل قلوبَهم إليه ، ثم يرجعُ إليه بعد ذلك ، فلا يقدر أحدٌ منهم يتناول منه ذرةً ، وبه يخرج عن ورطة الادِّخار بغير حاجة

وإن كان لم يُكشَف له أنه من رزقه . . فهو مُخيَّرٌ في ادِّخاره أو عدمِهِ ، وينظر بعد ذلك ، فكلٌّ من قُسِم له فهو له .

وبالجملة فلا يقدر على التخلُّق بما ذكرناه إلا من سلك علىٰ يد شيخ وخلَّقَهُ بصفات العبودية ؛ فيرىٰ أنه ليس له مع سيده مُلْكٌ في الدارين ، ويتساوىٰ عنده كونُ جميع أموال الدنيا عنده وكونُها عند غيره علىٰ حدٍّ سواء ، ولهـٰذا الخلق حلاوةٌ يجدها الإنسانُ في نفسه أشدُّ من حلاوة الإمساك ، كما يعرف ذلك أهلُ الله تعالىٰ .

ولما خرج السيد إبراهيمُ بن أدهم عن الدنيا . . لامَهُ بعضُ الناس علىٰ ذلك ، فقال : (لو يعلم الملوكُ ما نحن فيه مع الله تعالىٰ . . لقاتلونا عليه بالسيوف)[١] . انتهىٰ .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول (من شرط العبد أنه لا يملك شيئاً مع سيده في الدارين ، وإنما يأكلُ ويلبس في الدارين من فضل سيِّدِهِ ، ثم إن استخلفه في أمر الدارين تصرَّفَ فيهما تصرُّفَ حكيم عليم ، وإن لم يستخلفه في شيء اشتغل به وحدَهُ ؛ لأنه قد أفنى اختيارَهُ في اختيار سيِّدِهِ) ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ مبادرته إلى الإنكار علىٰ من يأخذ أموال الظلمة بغير طريق شرعي]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ المبادرة إلى الإنكار علىٰ مَنْ رأيته يأخذ شيئاً من الظلمة بغير طريق شرعيٍّ ، سواء كان مالاً أو طعاماً أو غيرَهما ، بل أتربَّصُ في ذلك ، فربما كان ذلك العالمُ الذي أخذ ذلك المالَ من الظالم . . يدفعه إلىٰ مَنْ يستحقه من أصحاب الضروراتِ ، وقد مرَّ بسطُهُ مراراً[٢] ، ثم إن رأيناه أكلَ منه أو لبس مثلاً من غير ضرورة . . أنكرنا عليه من غير رؤية نفوسنا عليه ، بل نفعل ذلك شفقةً علىٰ دينه ولحمه من النار ؛ كما أشار إليه حديثُ : « كلُّ لحمٍ نبتَ منْ حرامٍ فالنارُ أولىٰ بهِ »[٣] ، ثم بعد إنكارنا عليه

---

(١) روى الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٧٠)

(٢) انظر (ص٢٥٨) .

(٣) رواه الترمذي (٦١٤) عن سيدنا كعب بن عجرة رضي الله عنه بلفظ : « إنه لا يربو لحم=

ندعو له بالمغفرة والمسامحةِ ، ونشكر الله تعالى الذي عافانا من مثل ذلك .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول ما من درهم أو طعام فيه شبهةٌ إلا وفي الوجود من يستحقُّ الانتفاعَ به من أصحاب الضروراتِ ؛ كالذي ارتكبته الديونُ وهو مُعِيلٌ ، وطلع عليه الحبُّ الفرنجي في الشتاء ، فهو لا يقدر علىٰ عمل حرفة ، ولا أحدَ يفتقدُهُ ولا عيالَهُ بشيء

ويحتاج من يريد التخلُّقَ بهٰذا المقامِ إلىٰ رياضة نفس حتىٰ يصيرَ كالذي جاع أربعةَ أيام لم يجد شيئاً يأكلُهُ ، ولا ماءً يشربه ، فهو يثقل عليه النطقُ بالذِّكر فضلاً عن غيره ، وأما من يأكل ما يشتهي ، ويلبس ما يشتهي . . فالفضولُ في الكلام سَداه ولُحْمته ، لا يكاد يصبر عن كلمة فضولٍ ولا يتأمل في كلمة قبل نطقِهِ بها ، فرحم الله مَنْ أتى البيوتَ من أبوابها ، والحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ المبادرة بالإنكار علىٰ من يسعىٰ علىٰ وظائف الناس]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ المبادرة إلى الإنكار علىٰ من رأيتُهُ يسعىٰ علىٰ وظيفة أخيه في هٰذا الزمان ؛ بل أتربَّص وأنظر في أمره ، فربما كان أحقَّ بتلك الوظيفة ممن كانت في يده ، وربما كان أحوجَ ممن كانت بيده ؛ من تاجر ومحترف ، وكلُّ من ذاق الضيقَ في الدنيا أقام العذرَ لأهلها ، حتىٰ يتبين له شيء يخالف صريح الشريعة المطهرة ، فهناك له المبادرةُ إلى الإنكار ؛ غيرةً على الشريعة

= نبت من سحت إلا كانت النار أولىٰ به »

وأحسنُ ما يقول الواحدُ منا إذا سمع أحداً ينكر علىٰ عالم فعلاً لم تصرح الشريعةُ بتحريمه إن الشيخ أعلمُ مني ومنك بالشريعة ، فلولا أنه يعلم جوازَ مثل ذلك . . ما فعله .

علىٰ أن غالبَ هـٰؤلاء المنكرين إنما ينكرون ذلك مِنْ وراءِ من يسعىٰ علىٰ وظائف الناس ، ولا أحدَ يبلغه ، إنما هي غيبةٌ فقط ، لا نصيحةَ فيها ، وقد بلغ سيدي علياً الخواصَ عن شخص من طلبة العلم : أنه صار يأخذ وظائفَ الناس ، ثم ينزل عنها بفلوس لقوم آخرين ، فنهاه عن ذلك وزجره ، وأخبره أنه إن دام علىٰ ذلك ختم له بسوء ، فتاب الرجلُ ورجع إلى الله تعالىٰ .

وقد بلغنا عن الشيخ أبي عبد الله القرشي : أنه رأىٰ صبياً يُقرِّط فريكاً من مارس قمح[1] ، فقال للصبي هـٰذا حرامٌ عليك يا ولدي ، فقال الصبي : بل أقول إن قولك يا عمُّ هو الحرامُ ؛ فإنه والله قمحُ أبي ليس له فيه شريكٌ ، وأمرني أن أقرط لنا شيئاً نجعله فطيراً ، فخجل الشيخ أبو عبد الله ، ومن ذلك اليوم ما بادر قط إلى الإنكار علىٰ أحد إلا بعد علم .

ثم اعلم يا أخي : أن أهل العلم هم خيرُ الناس في كل زمان ؛ لأنهم حماةُ الشريعة ، وقد قَلَّ المتفقدون لهم بالهدايا ، ولا يتيسر لهم عملُ حرفة ؛ لإكبابهم على الاشتغال بالعلم ، وكان لهم في قديم الزمان حقٌّ يُعطىٰ لهم من بيت المال ، فإحسانُ الظنِّ بهم أولىٰ ، ولا يقال : إنه يكفي طالبَ العلم رغيفٌ وخَلَقة[2] ؛ لأنه ما كلُّ بَدَنٍ يحتمل ذلك ، وربما كان

---

(١) يُقرِّطُ : أي : يقطع

(٢) الخَلَقُ : الثوب البالي

أحدُهم ذا عيال كثيرةٍ ، على أن غالبَ من ينكر عليهم دونهم في العلم بيقين ، ولا ينبغي الإنكارُ إلا ممن هو أعلمُ ممن يُنكَر عليه ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[عدم بغضه لمن يحضر المواكب الإلـٰهية]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ بغضي لأحد ممن يحضر المواكبَ الإلـٰهية إلا بطريق شرعي دون حظِّ نفس ؛ وذلك كقوَّام الليل ، والذاكرين اللهَ تعالىٰ كثيراً ، والمؤذنين في الأسحار ، فربما حفَّت العنايةُ الربانية كلَّ من حضر في ذلك الموكب ولو مرةً واحدة ، فغفر له ما مضىٰ وما يأتي ، فصار أحدُهم لا يُردُّ له دعاءٌ في حق أمثالنا

وأيضاً : فإن الحضرةَ الإلـٰهية محرَّمٌ دخولُها على المتشاحنين ، فيجب المبادرة إلىٰ صلح كلِّ من علمنا أنه متشوِّشٌ منا ؛ خوفاً أن تمنع الملائكةُ قلوبَنا من دخول حضرة ربها

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول : (لا ينبغي لعاقل أن يعادي أحداً من عُمَّار بيوت الله أبداً ؛ من بواب ، وفراش[1] ، وإمام ، وغيرِهم ؛ لأنهم أهلُ حضرة الله عز وجل) انتهىٰ .

فوالله ؛ إن غالبَ الخلق الآن ؛ من حيث عدمُ إكرام خُدَّام حضرة الله تعالىٰ . . كالبهائم السارحة ؛ وذلك كلُّهُ لعدم دخولهم الحضرة ومعرفةِ

---

(١) الفراشون : هم في المدينة سكانُها الذين يتولون المحافظة علىٰ نظافة المسجد ، ويفرشون البسط ، ويعنون بالإضاءة ، وغير ذلك . « تكملة المعاجم العربية » (٨/ ٤٤) .

أهلها ومَنْ هو المَقدَّمُ عند الله من غيره

وتأمَّلْ يا أخي : إلىٰ كل من يتردد إلىٰ نائب مصرَ مثلاً كيف يكرم كلَّ من رآه بوَّاباً غايةَ الإكرام ، فالله تعالىٰ أحقُّ بذلك ، فالحمد لله الذي لم يجعلني أكره أحداً من خُدَّام المساجد لحظِّ نفسي ، بل لم أزل أسألهم الدعاءَ ، والحمد لله ربِّ العالمين

[أدبه مع قضاة الزمان ، وعدمُ القول ببطلان أحكامهم إلا بطريق شرعي]

ومما منَّ الله به عليَّ الأدبُ مع قضاة زماننا ، ولا أقول كغيري ببطلان أحكامهم في العقود والأنكحة ، بل أرىٰ عقودَهم صحيحةً ؛ لأن أصلَ مشروعية حضور العقد في النكاح مثلاً الإعلانُ به ، والأمنُ من الجحود ، وذلك حاصل بعقود هٰؤلاء القضاةِ

وقال علماؤنا : لو ولَّى الإمامُ قاضياً فاسقاً نفذ قضاؤه للضرورة ، وقالوا أيضاً : من غلبت طاعاتُهُ علىٰ معاصيه فهو عدلٌ ، واعتقادنا في جميع قضاة المحاكم وشهودهم بمصر . . أنهم ممن غلبت طاعاتُهم علىٰ معاصيهم ، ومن أراد من المتنطعين أن يعرف صدق ما قلناه[1] . . فليعاشر من شاء من القضاة ليلاً ونهاراً وينظرْ أحوالَهُ ؛ فإنه يجد طاعاتِهِ أكثرَ من معاصيه بيقين ، وقد نُقِل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول : (كلُّ مسلم عدلٌ)[2] ، فيكفي المتعنِّتَ في عدم الإنكار استنادُهُ إلىٰ قول هٰذا

---

(١) في النسخ عدا (ب ، هـ) : (المنقطعين) بدل (المتنطعين) .

(٢) انظر « فتح القدير » (٧/ ٣٧٧ـ٣٧٨)

الإمام العظيم ، وإن كان المتأخرون من أصحابه قيَّدوه ببعض شروط ، فافهم ، لا سيما والذي يُولِّي قضاةَ العساكر في بلادنا إنما هو نائبُ السلطان في الروم ، فالطعنُ فيه كالطعن في السلطان الأعظم الذي له النظرُ العامُّ علىٰ جميع العلماء والصالحين ، وأتمُّ نظراً منهم

ولم أزل بحمد الله تعالىٰ أجيب عن قضاة زماننا من منذ ولَّى السلطانُ قضاة العساكر في مصرَ ، وأقول للتجار : من طعن في حكمهم فلا يحلُّ له المطالبةُ قط بمال ثبت علىٰ يدهم من طريق شهودهم ، وذلك يُكذِّب ما أشاعه بعضُ الحسدة عني من أني أقول ببطلان أحكامهم من جهة قبضهم فلوسَ القانون ، فالله يغفر له ما جناه ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[كراهته الأكلَ من طعام المتهوِّرين في مكسبهم والأكلَ من التاركين للكسب]

ومما منَّ الله به عليَّ : كراهتي للأكل من طعام المتهوِّرين في مكاسبهم ، وفي عمل أطعمتهم ؛ من التجار والمباشرين الذين لا يتورَّعون عن البيع للظلمة ، ولا عن أخذ أموالهم ، وكذلك لا أحبُّ أن آكلَ من طعام الفقراء التاركين للكسب بالحِرَف والصنائع ؛ فإن هـٰؤلاء يأكلون بدينهم ؛ فإن جميعَ ما بيدهم من الهدايا والصدقات ؛ لولا وجودُ اعتقاد الناس فيهم لأجل دينهم . . ما أعطوهم شيئاً من ذلك ، ومعلوم أن من يأكل بدينه فكسبُهُ أشدُّ قبحاً من كسب من يأكل بدنياه .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول : (لَأن أكتسب الدنيا بالطبل

والمزمار أحبُّ إليَّ من أن أكتسبها بديني)[1]

وهـٰذا الأمر قَلَّ من يتنبه له من إخواننا ؛ فيكتسب العسلَ والأرز والبِسِلَّةَ بدينه ، ثم يعمل له مولداً ويدعو الناسَ ، ويغضبُ علىٰ من لم يحضر عنده ويأكلْ من طعامه .

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص لا يجيب قط فقيراً إلى الأكل من طعامه إلا إن علم أن له كسباً شرعيّاً ؛ من تجارة ، أو زراعة ، أو صنعة .

ودعاني أخي الشيخُ أبو العباس الحُرَيثيُّ إلىٰ وليمة عَمِلَها ، فقال لي الشيخ : (رُحْ إليه ولا تأكل من طعامه ؛ لأنه ليس له حرفةٌ ، وجميع طعامه من صدقات الناس لأجل اعتقادهم فيه الصلاح) انتهىٰ .

ورأيته مرةً أَمَرَ فقيراً أكل من مثل ذلك . . بالقيء

وهـٰذا الخلق لم أَرَ له فاعلاً من أقراني ، إنما يقول أحدُهم إذا أكل من طعام سيدي الشيخ المذكور قد حصل لنا الليلة خيرٌ الذي أكلنا حلالاً ، ولا يهتدي لِمَا ذكرناه .

[مطلبٌ

في ضابطٍ يعرف به المتجرِّد أنه يأكل بدينه أم لا]

ومن أراد من المتجرِّدين أن يعرف كونَهُ يأكل بدينه أم لا . . فليقدِّرْ نفسَهُ متجرِّداً من جميع صفات الصالحين التي ظهرت للناس واعتقدوه وقبَّلوا رجله لأجلها ، وينظرْ بعد ذلك ؛ فكلُّ من أطعمه أو كساه أو عمل لأجله وليمةً . .

---

(١) روى الخبر ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٠٥) .

فليأكل منه بشرط الحِلِّ في المكسب ، ولا يتوقَّفْ ؛ فإن هـٰذا لم يطعمْهُ لدينه ، وأظنُّ أن كلَّ من سلبه الله تعالىٰ من صفات الصالحين . . لا يبقىٰ عند أحد من العقلاء فيه اعتقادٌ ، ولا يُعملُ له قط وليمةٌ ؛ كما لا يعمل ذلك لغيره من الفاسقين

وسمعت أخي أفضلَ الدين رحمه الله يقول (أنا لا أحبُّ أن آكل طعامَ أحد من الناس ، إلا إن علمت أنه لو رآني أزني وأشرب الخمرَ لا يتغيَّرُ اعتقادُهُ فيَّ ، ولا يثقل عليه بِرِّي ولا الإحسانُ إليَّ) انتهىٰ ، ويحتاج صاحب هـٰذا المقام إلىٰ ميزان دقيق خالٍ عن التلبيس

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ لا يجيب قط إلى الأكل من طعامِ تاجر يبيع علىٰ أحد من الظلمة ، ولا إلىٰ طعامِ أحد من القضاة المشهورين بأخذ الرشوة ، ولا إلى الأكل من طعامِ تاجر يلون الأطعمةَ ألواناً ، ويقول : (لو أنه تورَّعَ في مكسبه ما رأىٰ شيئاً ينوع منه الأطعمة من الحلال أبداً)

قال (وقد بلغنا : أن الحسن البصري زار عمرَ بن عبد العزيز أيامَ خلافته ، فأخرج له عمر نصفَ رغيف يابس ونصفَ خيارة وقال : كُلْ يا حسنُ ، ولا تنظر إلىٰ قلته ؛ فإن هـٰذا زمانٌ لا يحتمل الحلالُ فيه السرفَ) انتهىٰ[1] .

وسمعت سيدي الشيخ عبدَ الحليم بن مصلح رحمه الله يقول : (لا تأكل قط طعامَ من يعتقدك ، وكُلْ من طعام من يحبك ، فقلت له ما الفرقُ بينهما ؟ فقال المعتقدُ فيك الصلاحَ لا يطعمك إلا ما دام وَصْفُ الصلاح قائماً بك ، والمحبُّ يطعمك علىٰ أيِّ حال تكون عليها ، ويحملك على

(١) أورد أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٢٣) هـٰذه القصة بين القاسم وسلم الخواص .

المحامل الحسنة ؛ كما تحمل الأمُّ ولدَها إذا سكر وتقول أخزاك الله يا إبليسُ ، هو الذي أوقع ابني في شرب الخمر ، ولا تكاد تجعل له ذنباً ، ولا تمنع عنه بِرَّها أبداً ، فإن وجدتَ يا أخي من يحبك مثلَ محبة أمك . . فكُلْ من طعامه ، وإلا فاتركه) انتهىٰ .

ورأيت مرةً الأميرَ يوسفَ بن أبي إصبعَ يدعو الناس إلىٰ مولد عمله لشيخ اعتقد فيه الصلاحَ ، ثم بعد ذلك مَدَّ الشيخَ وضربه ضرباً مُبرِّحاً ، وحلق شعرَ رأسه ، ومنع الناس أن يجتمعوا عنده ، فقلت له في ذلك ، فقال كان يُظهِرُ لي الصلاحَ ، فاطلعتُ له علىٰ زلَّات ، فما بقيت نفسي تطيب أن أطعمه رغيفاً انتهىٰ

وقد مرَّ في هـٰذا الكتاب(١) : أن الإنسان الذي يعتقده الناسُ لصلاحه مثلاً . . لا يخلو إما أن يكون صالحاً في نفس الأمر ، أو غيرَ صالح ؛ فإن كان صالحاً فقد أكل بصلاحه ، وإن كان غيرَ صالح فقد أكل حراماً بالشرع ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ خيانته لإمامه أو معلمه بالغيب]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ خيانتي لإمامي ، أو مُعلِّمي القرآنَ ، أو شيخي في العلم ، ونحوِهم . . بالغيب ؛ وفاءً بحقه ، لا خوفاً من عقوبته

واعلم : أن إمامي في هـٰذا الخلق الإمامُ الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه ، وسعيدُ بن جبير رضي الله عنه .

---

(١) انظر (ص٢٤٤) .

فأما الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه لمَّا منعه الخليفةُ الفُتيا سألته ابنتُهُ ليلاً عن حكم الدم الخارجِ من لحم الأسنان هل ينقض الوضوءَ ؟ فقال لها يا بنيةُ ؛ سَلِي عن ذلك عمَّكِ حماداً ؛ فإن إمامي منعني الفُتيا ، ولم أكن لأخون إمامي بالغيب[1]

وأما سعيد بن جبير فإن الحجَّاجَ لما حبسه كان السجانُ يقول له اخرج فنم في دارك ؛ لأجل بكاء أولادك عليك ، وتعال بكرةَ النهار ، فيأبىٰ ويقول : لا أحبُّ أن أفعل شيئاً لو أظهرته ربما منعني منه الحجاج . انتهىٰ .

وهـٰذا الخلق قَلَّ من يفعل به أو يوفي به ، فالحمد لله الذي منَّ عليَّ به ؛ فلا أستحضر قط أني واليت لإمامي عدوّاً ، ولا عاديت له صديقاً من ورائه ، وإن واليت له عدوّاً فإنما ذلك لأُسارقه في تعليم الأدب معه وتحبيبِهِ فيه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[محبتُهُ الأكل مع الجماعة ، وضيق صدره من الأكل وحده]

ومما منَّ الله به عليَّ محبةُ الأكل مع الجماعة ، وضيقُ صدري من الأكل وحدي ، كما يضيق صدري من الصلاة منفرداً ؛ من حيث إن الشارعَ صلى الله عليه وسلم أمر بالجماعة في كل من هـٰذين الأمرين ، وأنا أعرف أن سببَ الأمر بذلك إنما هو لأجل ائتلاف القلوب ؛ لأجل التعاضد في نصرة الدين ؛ لأن أصحابَ القلوب إذا تنافروا ربما يَخذُل أحدُهم صاحبَهُ

(١) أورد القصة ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٤/ ١٨٠) ، وفيها : (أخاك) بدل (عمك) .

ولا ينصرُهُ ؛ عناداً لأجل بغضه فيه ، وقد قال الله تعالىٰ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ. . .﴾ الآية [الشورىٰ : ١٣] ، بخلاف ما إذا كان القلب مؤتلفاً ؛ فإنه يبذل وسعه في نصرة الدين

بل رأيت بعضَهم يأتلف قلبُهُ بالأكل مع صاحبه أكثرَ منِ ائتلافه به لأجل صلاة الجماعة ، وهـٰذا الخلقُ قد أعطاه الله تعالىٰ لي من منذ كنتُ صغيراً ، وقد بسطنا الكلامَ علىٰ ذلك في كتاب « فلك الشموس والأقمار » ، والحمد لله ربِّ العالمين

[حمايتُهُ من الأكل من طعام النذور والأعراس الواسعة ، وطعام العزاء ، والجمع]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من الأكل من طعام النذور ، والأعراسِ الواسعة ، وطعامِ العزاء ، والجمعِ ، وتمامِ الشهر ؛ فلا أستحضر أني أكلت شيئاً من ذلك إلا إن سلم من الشبهة .

فأما طعامُ النذور : فإنه يُستخرج من البخيل كما ورد[١] ، وطعام البخيل داء[٢] ، لا سيما إن عملته امرأةٌ من كسبها ؛ فإن الأكل من ذلك ينافي شهامةَ من شَمَّ رائحة الرجولية ، وقد نفذت وصايا الأشياخِ إلىٰ مريديهم في سائر الأقطار : ألا يأكلوا من كسب امرأة

(١) رواه البخاري (٦٦٩٢) بلفظ « إن النذر لا يُقدِّم شيئاً ولا يؤخِّرُ ، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل » ، ومسلم (٣/١٦٣٩) بلفظ : « النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره ، وإنما يستخرج به من البخيل » عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) انظر تخريجه (ص٢٦٣) .

وأما الأعراسُ الواسعة : فإن أصحابها الغالبُ عليهم التكلُّف فيها ، فيطبخون ما ليس من عادتهم مما هو فوق قدرتهم ، حتىٰ إن العروسَ أو العريس ربما باع أحدُهما شيئاً من ثيابه ، أو اقترض غالبَ ما عمل به الطعامَ ولو بالربا ، ويقولان : قد تَجَوَّنّا في هٰذا العرس ، وما بقي إلا سدُّهُ[1] ، فيعملان الطعام متكرهين لصرف المال فيه ، وقد نهانا الشارع عن الأكل من طعام المتكلفين والمتفاخرين به[2]

وأما طعامُ العزاء ، والجمع ، وتمامِ الشهر فلا ينبغي لذي مروءة أن يأكل منه .

أما العزاءُ : فلا يأكل منه إلا من كان قلبه فارغاً من الحزن ، وذلك من نقص الإيمان بنص الشارع ؛ فإنه جعلَ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كالجسد الواحدِ[3] ، وكيف يليق بحامل العلمِ والقرآن أن يجلس ويأكل من الجبن المقلي والقطر مثلاً وأمُّ الميت وأبوه وأخوه وأولادُهُ كأنهم غُمِسوا في النار من شدة الحزنِ من فَرْقهم إلىٰ قدمهم ؟![4]

وأما طعامُ الجمع وتمامِ الشهر : فالغالبُ علىٰ أهل الميت التكلُّف في فعله ، وربما كان في الورثة أطفالٌ لا يُتصور منهم الإذنُ في الأكل منه كما

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٢٠) : (وما بقي إلا عملُهُ) .

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٣) عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : (نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف) .

(٣) رواه البخاري(٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦/ ٦٦) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

(٤) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٢١) : (الفطير) بدل (القطر) ، والمثبت من جميع النسخ

هو مشاهد ، فالعاقلُ من فتش كلَّ لقمة تنزل جوفَهُ قبل أن يضعها في فيه .

وقد كان سيدي عليٌّ الخواصُ لا يشرب من السَّقَّاء الذي يسقي الناس في الجنازة ؛ لأجل ثمن الماء الذي يسلبونه من مال التركة قبل قسمتها ، اللهم إلا أن يكون الوارثُ الذي يعمل ذلك كلَّهُ بالغاً رشيداً ، فلا حرج من الأكل بطريقه الشرعي ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حمايتُهُ من الأكل من طعام الصنائعي الضعيف الحال]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من الأكل من طعام الصنائعي الذي يعمل بالقوت ، لا سيما إن كان قد طعَنَ في السنِّ ، إلا أن نكافئَهُ علىٰ ذلك ، ولو بتوجُّهنا إلى الله تعالىٰ ؛ بأن يُنزِل له البركةَ الخفية في رزقه طولَ سنته

[حمايتُهُ من الأكل من هدية لها قدرٌ عند صاحبها]

وكذلك مما منَّ الله به عليَّ : حمايتي من الأكل من هدية علمت بالقرائن أن لها عند صاحبها قدراً ؛ بحيث يصير يتذكَّرُها كلَّ قليل ولو في نفسه ، وذلك من أكبر علامات أن نفسَهُ تتبعها ، ففيها ضَرْبٌ من التكلف ، وقد نهينا عن الأكل من طعام المتكلفين

[حمايتُهُ من الأكل من طعام شخص عليه دينٌ حالٌّ]

وكذلك مما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من الأكل من طعامِ مَنْ علمتُ أن عليه ديناً حالّاً وهو يماطل صاحبَهُ مع القدرة علىٰ إيفائه ، والعلةُ في ذلك كونُ الواجب عليه أن يصرف ثمنَ ذلك الطعامِ إلىٰ صاحب الدَّين ، ففي أكلنا منه شبهةٌ ؛ لكون الحقِّ فيه لغريمه دوننا

فعُلِم : أن الأكلَ من طعام شخص عليه دينٌ وهو عاجز عن إيفائه أشدُّ وأشدُّ ؛ لِمَا فيه من الإجحاف به ، ولو دعانا بطيب نفس ؛ فإنه جاهلٌ بما قلناه ، فهو كالطفل في حِجْر وليِّه لا يجاب إلىٰ كل ما طَلَبَ ، وهـٰذه الأخلاق الثلاثةُ لم أرَ لها فاعلاً من أقراني ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ ردِّه السائل إلا بغرض شرعي]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ ردي السائلَ إذا سألني أن أعطيَهُ شيئاً أنا في غُنْية عنه حالَ السؤال، ولا أمنعه إلا لغرض شرعي ، لا لبخلٍ ولا لشَحَّةِ نفس ، وهـٰذا الخلق من أكرم أخلاق الرجال ، ومن الغرض الشرعي : أن أكون أنا أحوجَ إلىٰ ذلك الشيء من السائل ، أو علمت بالقرائن أن سؤالَهُ تَعنُّتاً لا لحاجة إليه ؛ فإن الأموالَ ما وُضِعت بالأصالة في يد العارفين إلا لمنافع العباد من أنفسهم وغيرهم ، فإن رأوا نفوسَهُم أحوجَ قدموها ، أو غيرَهم أحوجَ قدموه ، وفي الحديث : « ابدأْ بنفسِكَ ثمَّ بمَنْ تعولُ »[1] ؛ فمن آثر السائلَ علىٰ نفسه وهو محتاجٌ . . فقد ظلم نفسَهُ ، فعليه إثمُ من ظلم رعيته وشَقَّ عليها

وما مدح الله تعالى المؤثرين علىٰ أنفسهم إلا تشجيعاً لهم ؛ ليخرجوا من ورطة البخل والشُّحِّ اللتين فُطِروا عليهما من أصل النشأة ، فلولا مدحُ الله تعالىٰ لهم ما قدروا على الخروج من شُحِّ نفوسهم ؛ فالإيثارُ من صفات المريدين ، ومن صفات الكُمَّل الذين لهم أتباع ، أما من لا أتباعَ له من الأفراد فيبدأ بنفسه ثم بغيره .

---

(١) انظر الكلام عليه (ص٢٦٧)

وقد قال الأشياخُ في حقِّ الشيخ الكامل إن من الواجب عليه أن يعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ؛ إذ هو مأمورٌ بعدم ظلم أحد من رعيته ، بخلاف المريد لا يؤمر بذلك ؛ لأنه لو أُمِرَ به لتوقف عن السير ، إنما شأنُهُ أن يفعل كلَّ أمر يخالف حظَّ نفسه ؛ من باب ظلم دون ظلم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأقربونَ أولىٰ بالمعروفِ »[1] ، ولا أقربَ إلى العارف من نفسه ؛ لأنها مطيتُهُ التي وصل بها إلىٰ ما وصل ، فيا طولَ ما أجاعها وأعطشها ومنعها النومَ ! فحكمُها معه حكمُ الأجير إذا فرغ من العمل ، وقد أمر الشارعُ بأن يعطىٰ أجرتَهُ قبل أن يَجِفَّ عرقُه[2] ؛ فلذلك كان العارف الذي لا أتباعَ له من الخلق يأكل أطيبَ الطعام ، وينام علىٰ أوطأ الفراش ، ولا ينقص بذلك رأسُ ماله ، ولو أن المريد فعل ذلك لتوقَّفَ عن السير

ثم لا يخفىٰ أن المريد إذا آثر علىٰ نفسه ربما يرىٰ نفسَهُ علىٰ مَنْ آثره عليها ، ولا هٰكذا العارف ، فإنه يرىٰ جميعَ ما آثر به غيرَهُ ليس هو له ، وإنما هو لمن أخذه منه ، فكان إمساكُهُ عنه لو أمسكه إنما هو شحُّ النفس ، وما تورَّعَ المتورعون ، وزهد الزاهدون .. إلا فيما لم يُقسَم لهم ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

(١) انظر الكلام عليه (ص٢٦٧) .
(٢) روى ابن ماجه (٢٤٤٣) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يَجِفَّ عرقُهُ » .

[مبادرتُهُ لإقامة العذر فيمن ظلمَهُ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ إذا ظلمني أحدٌ في مال أو عرض : أن أبادر إلىٰ شهود التقدير الإلـٰهي وما فيه من الحكمة ، دون التكدُّرِ من العبد الذي ظلمني صورةً ببعض ذنوبي ، ثم أرىٰ ذلك بعضَ ما أستحقُّ ، وهـٰذا مقامٌ عزيز قَلَّ من يتخلَّق به من الفقراء ذوقاً ؛ فإن غالبَ الناس ربما يتخلَّقُ به علماً فقط ، وليس ذلك بمقام ؛ لأن من عرف الأمورَ علماً ربما يتوارىٰ عنه علمُهُ ويحتجب عنه وقتَ العمل به ، بخلاف من صارت الأمورُ له ذوقاً

[مطلبٌ

في علامة مَنْ يرىٰ أن جميع ما أصابه ببعض ذنوبه ذوقاً]

وكان سيدي علي الخواص يقول : من علامة من يرىٰ أن جميعَ ما أصابه ببعض ذنوبه ذوقاً أن يكون بحيث لو صَبَّ عليه إنسانٌ ناراً أو غُسالةَ قذر وهو ذاهب إلىٰ صلاة العيد مثلاً . . لا يتكدَّر منه شعرةٌ ؛ كما وقع لسليمان ابن مهران ؛ فإنه بادر بقوله الحمد لله ، فقيل له في ذلك ، فقال : من استحقَّ النارَ فصُولح بالرماد . . فاللائق به الحمد(١) ، وفي القرآن العظيم : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورىٰ : ٣٠] .

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يقول : من ظلمه ظالمٌ بغير سبب عنده . . فالواجبُ عليه أن يتعرف السببَ من الله تعالىٰ في تسليطه ذلك

(١) أورد القصة الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢١٩) ، ووردت القصة فيه عن أبي عثمان الحيري .

الظالمَ عليه حتىٰ أَخرَج عنه وظيفتَهُ ، أو أخرجه من سكنه مثلاً ؛ فإن الله تعالىٰ لا يُسلِّط علىٰ عبده ظالماً قط إلا بسبب ؛ إما بذنب سلفَ ، وإما اختباراً له لينظرَ صبرَهُ ، وهو العالمُ بما يكون قبل أن يكون ، فإذا تعرَّف العبدُ السبب فالواجبُ عليه المبادرة للتدارك ، فإن رآه ذنباً ندم واستغفر ، وإن رآه امتحاناً استعان بالله تعالىٰ علىٰ دفع ما يقع منه في المستقبل أو الصبرِ عليه إن كان حقَّ به التقديرُ الإلـٰهي

فعُلِمَ : أن الظالمَ في زعمنا ما دخل لنا إلا من باب استحقاقنا لما فعله معنا ، وأن اشتغالَنا بذمِّ الظالم أو مقابلته نقصٌ منا ؛ لغلظ حجابنا ، وإلا فلو رَقَّ حجابُنا لرأينا حكمَ الظَّلَمة في هـٰذه الدار حكمَ زبانيةِ جهنمَ في الدار الآخرة ؛ فإن أحداً لا يسميهم هناك ظلمةً أبداً ؛ لتحقق الحقائق ، وأنهم ما أخذونا إلا بذنوبنا ، فتأمل

وقد قالوا : من عقل العاقل أن يسدَّ البابَ الذي يدخل له منه الأذىٰ ؛ كما أن من يريد نَزْحَ حوض من الماء المنتن . . فطريقه أولاً أن يسدَّ الميزابَ الذي يَصُبُّ فيه ، ثم ينزحه ، وإلا فكلُّ شيء نزحه نزل له من الميزاب غيرُهُ .

[مطلبٌ

في قاعدة أكثرية في معرفة عظمة الذنب من حيث العقوبة]

ثم إن عظمةَ ذلك الذنبِ الذي دخل منه لنا الظالمُ حتىٰ ظلمَنا بسببه يُعرَفُ من حيث عقوبتُهُ ؛ فإن كانت عظيمةً فالذنب عظيم ، وإن كانت صغيرةً فالذنب صغير ؛ يعني : بالنظر لذلك في رأي عين الإنسان العاصي ، لا بالنظر لما عند الله تعالىٰ ، فافهم ؛ فإنها قاعدةٌ أكثرية لا كليةٌ .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : (ليس للمظلوم دواءٌ أنفعَ من كثرة الاستغفار ؛ وذلك لأن العقوباتِ إنما هي من أثر غضب الحق تعالىٰ على العبد ، ولو لم يشعر بذلك غالبُ العبيد ، **وقد قال العارفون** : الاستغفارُ يطفئ غضب الجبار ، وإذا طَفِئَ الغضبُ الإلـٰهي العارض ذهبت العقوبةُ لوقتها) انتهىٰ

وقد علَّمتُ هـٰذا الأمرَ لأهل الحبوس ، فأُسرِع بالفرج عنهم ، فقد تكون قِصَرُ مدة الحبس معلقةً علىٰ ذلك ؛ كما إذا سبق في علم الله تعالى أن فلاناً إن استغفر اللهَ مكث في الحبس شهراً ، وإن لم يستغفر مكث سنةً ، وأكثرُ أهل الجرائم غُلْفُ القلوب ، فينسون ذنوبهم ويصيرون يقولون : قد حبسونا بلا ذنب وبلا جريمة ؛ فلذلك طال حبسُهم .

[مطلبٌ
في أن مَنْ علت مرتبته عظمت صغيرته]

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي : أن ذنوبَ أهل الله عز وجل أقبحُ من ذنوب غيرهم ، بل ربما كان غيرُ أهل الله عز وجل لا يَعُدُّون ذلك ذنباً أصلاً ؛ وذلك لأن القاعدةَ أن كل من عَلَتْ مرتبتُهُ عظمت صغيرتُهُ ، فربما يتناول أحدٌ من أهل الله تعالىٰ شهوةً مباحة فتقطع يدُهُ ، وربما يسرق غيره نِصَاباً فلا تقطع يدُهُ .

ووقع لي مرةً : أني نمتُ علىٰ جنابة ليلةَ عرفةَ ، فرأيت في منامي أنني تائهٌ في بستان واسع لا أهتدي للخروج منه ، ثم أتيت بوعاء فيه خمرٌ ، فشربت منه ، ثم إني كدت أذوب من شدة الندمِ ، فعلمتُ أن الميزان

الإلـٰهي منصوبٌ عليَّ ؛ فإنه أراني أن حكمَ نومي علىٰ جنابة في تلك الليلة حكمُ من يشرب الخمر علىٰ حدٍّ سواء ، وربما أن غيري ينام علىٰ جنابة وحقدٍ وحسد وغشٍّ ومحبة للدنيا ، ولا يريه الله تعالىٰ شيئاً من ذلك ، فإياك أن تقول هنيئاً لأهل الله عز وجل ، من حيث رؤيتُكَ راحتَهم في الظاهر ؛ فإنهم لا يستريحون إلا بعد خروجهم من الدنيا علىٰ نعت الاستقامة ، وإلا فالغالبُ عليهم العطبُ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تسليمُهُ لكلِّ منِ ادَّعىٰ ممكناً في العادة ؛ كالقطبية فما دونها]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كثرةُ تسليمي لكل من ادَّعىٰ ممكناً في العادة من سائر المقامات ؛ كالقطبية فما دونها ؛ فإن الولايةَ أمر باطنيٌّ لا يطلع عليه إلا اللهُ ثم صاحبُهُ ، وقد يكون الشخصُ من أولياء الله تعالىٰ ولا يعلم نفسَهُ ، فتصديقُنا لكل من لم يدَّع مقاماً ممنوعاً له كالنبوة . . أولىٰ ؛ لأنه إن كان صادقاً فقد صدقناه ، وإن كان كاذباً فعليه كذبُهُ لا علينا

وقد ادَّعىٰ مرةً شخصٌ القطبيةَ الكبرىٰ ، فسلَّمت له ، فقال لي : اكتب لي خطَّك بذلك ، فقلت له لا تليق الكتابة إلا إن علمتُ قطبيتك من الله تعالىٰ من طريق كشفه ، ولـٰكن أصدقك علىٰ دعواك ذلك .

وقد كثرت دعوى القطبية في هـٰذا الزمان ، حتىٰ يرونه مناماتٍ ، وصار في كل إقليم جماعةٌ يدَّعون ذلك ، أو يُدَّعىٰ فيهم ، ومعلوم أن القطب لا يكون إلا واحداً[1] ، لا يصح أن يكون في العالم قطبان أبداً ، فنحن نُسلِّم لكل واحد دعواه ، ونردُّ علمَ حقائق الأمور إلى الله تعالىٰ .

---

(١) في (هـ ، و ، ز) : (القطب الغوث الفرد الجامع لا يكون في كل زمان إلا واحد) .

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : (الإنكار بغير علم من أعلىٰ مقامات النفاق ، بل هو النفاق كلُّهُ ؛ لأنه ضدُّ الإيمان الشرعي) ، **فالحمد لله ربِّ العالمين .**

[اعتقادُ كثير من الإنس والجن والكفار في المؤلف الصلاحَ]

ومما منَّ الله به عليَّ : كثرةُ اعتقاد بعض الخلق فيَّ الصلاحَ ؛ من الإنس والجن والكفار ، مع أني لستُ من الصالحين عند نفسي ، بل أصير أحلف لهم ؛ إني لستُ بصالح ، فيقولون بل أنت صالحٌ ، فأعرف أن ذلك من فضل الله سبحانه وتعالىٰ ، وإلا كان الحالُ بالعكس ، فأقول لهم : أنا صالحٌ ، فيقولون لي : تكذب ، لستَ بصالح .

وقد كان مالكُ بن دينار رحمه الله يقول : (والله ؛ لو اطلعتُم علىٰ زلَّاتي لرجمتموني)

وكثيراً ما كان يقول : (والله ؛ لو كان للذنوب رائحةٌ ما استطاع أحدٌ منكم أن يجلس إليَّ ؛ لنَتْنِ ريحي) انتهىٰ[١]

وكذلك أقول أنا ، وأزيد علىٰ مالك رضي الله عنه : بأني أرىٰ أني قد استحققتُ الخسفَ بي والمسخ لصورتي لولا حلمُ الله تعالىٰ وفضلُهُ .

فمن جملة اعتقاد بعض المسلمين فيَّ : أنني ربما أُعطي أحدَهم القشة الصغيرة وأقول له : بَخِّر بها مريضك ، فيفعل ، فيعافي الله تعالىٰ مريضَهُ

(١) روى الخبر أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٤٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ١٥٨) عن محمد بن واسع رحمه الله تعالىٰ .

بإذن الله تعالىٰ ؛ لأني أعرف أنه لولا شدةُ اعتقاده ما شفى الله تعالىٰ مريضَهُ بدخان تلك القشة ؛ فإن الأمورَ تجري بإذن الله تعالىٰ علىٰ يد من شاء اللهُ تعالىٰ من العبيد بواسطة اعتقاد صاحب الحاجةِ فيه ، حتىٰ إن بعضَ مَنْ لا اعتقاد له ربما يأخذ القشةَ ويبخر بها . . فلا يحصل لها أثرٌ ؛ لقلة اعتقاده ، وأكثرُ من يقع في ذلك طائفةُ الفقهاء من أصحاب الأنفس الأبية ، المجادلين في دين الله بغير علم ، بخلاف من يَهضِم نفسَهُ منهم ؛ فإنه من الصالحين ولا يشعر بنفسه

وإيضاحُ ما قلناه في المجادلين بغير علم أن أحدَهم يظنُّ بنفسه أنه أفضلُ من ذلك الفقير ، مع أنه لا يرىٰ لإشارته هو تأثيراً بمثل ذلك ، فينفي صحةَ ذلك بإشارة غيره من باب أولىٰ .

وقد جاءني مرةً فقيه وشكىٰ لي من أصهاره ، وأن زوجته غضبت عندهم ، وأنه عمل لها في مصالحتها خمسَ مئة نصف فلم يرضوا[1] ، فأعطيته قشةً وقلت له : أعطها لهم ، فإنهم يردونها لك بغير مال ، فقال لي : لا تمزح معي ، فإني مكروبٌ ، فلا زالت الفقراءُ عليه حتىٰ قال : اعتقدتُ صحةَ إشارتك ، فذهب نحو سبعة أذرع ، ثم رجع وقال : قد ذهب اعتقادي أن هـٰذه القشة تنفعني ، فلا زالوا به حتىٰ قال : اعتقدتُ صحةَ ذلك ، فذهب إلىٰ صهره وقال له : قد أرسل لك بعضُ الفقراء هـٰذه القشة لترد إليَّ امرأتي ، فقال له صهرُهُ : قد عزمتُ علىٰ ردها لك من غير فلوس من ساعةَ مضيتَ[2] ، فردها

(١) تقدم التعريف بالنصف (ص٢٤٦)
(٢) في (أ ، ج ، د ، هـ ، و) : (ساعةِ مضت) .

له ، فعرفتُ صحةَ اعتقاده في المرة الأخيرة .

ومما وقع لي أن شخصاً من [حارة] جامع ابن طولونَ حصل لابنته استسقاءٌ ، فعجزت الأطباء عن مداواتها ، فأعطيته قشةً وقلت له : بخِّرها به وقل : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، ففعل ، فحصل الشفاءُ تلك الليلة ، فعلمت صحةَ اعتقادِهِ ، والوقائع في ذلك مع المسلمين كثيرة مشهورة .

وأما النصارىٰ واليهود : فكثيراً ما يطلبون مني كتابةَ ورقة لمريضهم ، أو إعطاءَهم قشةً يبخرونه بها ، فيحصل له الشفاء ، فأتعجبُ من اعتقادهم فيَّ مع اختلاف الدِّين ، وكثيراً ما أقول لهم : لِمَ لا تسألون البترك في ذلك ؟[1] فيقولون : اعتقادُنا فيك فوق البترك ، حتىٰ إن بعضهم يقول لي : إن البترك لا يجيء شعرةً من رجلك .

ومن أغرب ما وقع لي مع نصراني كان يبيع الخمر : أنه جاءني يطلب مني الدعاءَ بأن الله ينفق خمره لكونه كاسداً ، فقلتُ له : يا معلم ؛ إن شربَ الخمر حرام ، فكيف أسأل الله لك الحرامَ وأقول : يا ألله ؛ أرسِلْ له من يشتري منه الخمر ويعصيك ؟! فدارت تلك الكلمةُ فيه وقال : اسألِ الله أن يتوب عليَّ من بيعه ، فدعوتُ له ، فتاب وعمل علَّافاً ، ووقائعي معهم كثيرة .

ومما وقع لي مع الجنِّ من الاعتقاد : أن ولدَ الأخ العزيز سيدي شرف الدين بن أبي الوفا الموقع عند نائب مصر . حصل له ضرورةٌ من طائفة من جنِّ اليهود ، فعجز عنه الذين يضربون المندلَ ، فقال لهم سر ميخائيل

---

(١) البَتْرَك بالرومية : البِطريق : مقدم النصارىٰ ، ورئيس رؤساء الأساقفة .

خطيبُ المَلَكِ الأحمر هـٰذا أمر لا يزول إلا علىٰ يدي فلان ؛ يعني : الفقيرَ[1] ، ثم أملاه قصةً طويلة مضمونها (الحمد لله الظاهرِ حكمُهُ وحكمته ، الباطنِ أمرُهُ وقدرته ، النافذ أمره ومشيئته ، الواسعِ امتنانُهُ ورحمته ، الذي اخترع العالم علىٰ غير مثال سَبَق ، ودبَّره ورتبه علىٰ أكمل نظام وأحسنِ نَسَق ، وشرَّف النوعَ الإنساني علىٰ سائر الأنواع ، وجعله مورداً لما يَرِد عليه من عالم الأمر لكماله في الإبداع ، وأبرزه مِنْ كِنِّ أكنَّةِ أكنانِ خزانةِ خزائن أخزنةِ الأوج الأعلىٰ ، إلىٰ نوع تنوُّعِ رتبة رتب مراتبِ منزل نزل منازل تنزلاتِ حضيض الملك الأدنىٰ ، وجعله جامعَ مجمع جميع ذرات عالم الغيب والشهادة ، وركَّبَ في طِلَسم هيكله هياكلَ كلٍّ لطيف وكثيف ودنيء وشريف من سائر كل طبع وعادة ، ودعاه إليه ليُفرِغَ له الألطافَ والمنن ، مع وجود ما أوجده من التأليف بين الأضداد من قبيح وحسن ، نحمدُهُ له حمدَ معترفٍ بالعجز عن درك إدراك مداركِ نهايات غايات لطائف ظرائفِ دقائق رقائق حقيقة حقِّ حمده ، مغترفٍ من مدارك تيار تلاطم تراكمِ تزاحم تراجم سجاجِ أجاج أمواجِ فيض فائض فيوض فياضٍ مدد أمداد سوابغ نعمِ نعماء جود وجوده ، ونشهد أن لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له المنزَّهُ عن الفصل والوصل والعددِ والحدِّ والكمية والظرفية والأينِ والكيف ، المتعالي في عطائه ومنْعِهِ وخفضه ورفعه وعدله عن الميل والحَيْفِ ، ونشهد أن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، المختصُّ بخصائص نفائس عرائس الأبكار والأسرار والتحف ، اللهم ؛ فصَلِّ وسلِّمْ عليه وعلىٰ آله

---

(١) يعني : نفسه ؛ أدباً وتواضعاً

وأصحابه أولي الأسرار والطرر ، وعلىٰ سائر عباده الصالحين ، وسائر العلماء العاملين ؛ العلويين والسفليين ، والإنسيين والجنيين .

أما بعد : أيها الحضرةُ وشيخَ الإسلام ، وملكَ العلماء الأعلام في الأنام ، المتبحر في علم التصوف والفقه ـ وصرح باسم الفقير ، ثم قال ـ : فإنه قد جرىٰ : أن أناساً من القِبْلِيِّين مروا علىٰ هـٰذا الولد[1] ، فرأوه مع يهودٍ يفعلون به ما يفعلون ، فاشتروه واسترقُّوه ، ووكلوا به أناساً أنتم أعلم بهم ، مسلمين مؤمنين ، محافظين على السنة واليقين ، فملكوا الولد وصار عبداً لهم كما سبق ، ويريد والده خلاصَهُ منهم ، فأرادوا وأراد الله ، فأردنا تخليصَهُ منهم من غير عنف ولا ضرر ، ولم يسبق لنا مثلُ هـٰذه القضية فيما تقدم وتأخر ، والله تعالىٰ أعلم .

فلتنظروا في هـٰذه القضية التي هي براعة استهلال ، وتفتونا في هـٰذا الأمر ، فإن أردتم تتوكَّلوا مكاننا ، وتُشرِّفوا بخطِّكم كلامَنا . . فما جوابكم الذي يخلص هـٰذا الولدَ من هـٰذه الشدة ، ليخلص علىٰ يديكم في هـٰذه الليلة ، فيصير عتيقَكم آخر يوم من رجبٍ وأول يوم من شعبان ؟ فاكتبوا أو شرِّفوا بخطكم ما يختاره سيدُكم في هـٰذه الساعة ، ويزينه في بالكم من ألطافه ، ليخرج المارد عن الولد ، وأنتم وكلاؤنا في ذلك ، وعليكم وكيل الوكلاء وهو الله تعالىٰ .

ختمت هـٰذه القصة بروح الله ، موسىٰ كليم الله ، محمد رسول الله ، يخلص هـٰذا الولد ، يخلص هـٰذا الولد ، يخلص هـٰذا الولد ، علىٰ يدي الله

---

(١) في (ج ، ز) (القبلتين) بدل (القبليين) .

تعالىٰ ، ثم علىٰ يدكم ، قالها فقيرٌ وَجِل ، بلفظ خجل ، يُسمَّىٰ : سر ميخائيل الوجل ، وله أخوان ؛ اسم أحدهما : وَجِل ، والأخر عَجِل ، فيعتق يعتق في هـٰذه الليلة علىٰ يدكم ، ويفرح أهلُهُ ويستبشرون ، والله تعالىٰ أعلم) انتهىٰ ما أملاه سر ميخائيل لوالد الولد الشيخ شرف الدين ، وحلف لي بالله وبالطلاق ؛ إنها إملاء سر ميخائيل المذكور بنطقه علىٰ لسان المارد راكب الولد المركوب ، وقال : إن الولد ليس له عادة بالنطق بمثل هـٰذا الكلامِ الفصيحِ ، فلما أتاني بهـٰذه الورقة استصغرتُ نفسي عن الترجمة التي فيها تتعلق بي ، وقلت : لعلَّ مَنْ أَمْلاكَ ذَكَرَ لك اسمَ غيري ؟ فحلف بالله تعالى ؛ إنه عيَّنَ اسمي ، فقلت له إن كان صادقاً فقل له علىٰ علامة تكون لي كالبرهان ، فرجع إليه واستحضره ، فقال : قل لفلان : من علامة صحة مراسلتنا لك أن الولد يصبح في ثالثَ عشرَ شعبانَ يجد خاتمَهُ مقطوعاً من دائرة المحيط بإصبعه نحوَ الثلث ، ولا يقدر أحدٌ علىٰ إخراجه من إصبعه بصابون ولا غيرِهِ ، فأصبح الولد كما ذكر ، فأتاني به ، فقلت : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، وسحبتُ الخاتمَ ، فخرج بغير مشقة ، فصاح أبو الولد الله أكبر ، وعلمتُ صحةَ المراسلة ، وكتبت له على الصحيفة ما أراد اللهُ تعالىٰ كتابتَهُ من الإقسام على المارد ، وعلَّقتها على الولد ، فذهب ما كان به ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

ومما وقع لي مع علماء الجنِّ أيضاً : أنهم أرسلوا لي مع شخص منهم في صورة كلب أصفرَ نيِّفاً وسبعين سؤالاً في التوحيد ، وقالوا : قد عجز علماءُ الجنِّ عن الجواب عنها ، وهي مكتوبة في ورقة مطويةٍ في فم الشخص

المذكور كالسنبوسكة بخط يشبه خطَّ الإنس[1] ، فطلب مني الجوابَ عليها ، ونزل من طاقِ قاعتي التي على الخليج الحاكمي ، فكتبتُ له الجوابَ ، وسميته : « كشفَ الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان » ، وحجمه نحوُ خمسين ورقة ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[كشفُ الحجاب عن المؤلف حتىٰ سمع تسبيح الجمادات والحيوانات]

ومما أنعم الله به عليَّ : كشفُ حجابي أوائلَ دخولي في طريق القوم حتىٰ سمعت تسبيحَ الجمادات والحيوانات ، وذلك أني كنتُ أصلي المغربَ خلف الشيخ الصالح ؛ الشيخ أمينِ الدين إمام جامع الغمري بالقاهرة ، فانكشف الحجابُ عن قلبي من صلاة المغرب إلىٰ طلوع الفجر ، فصرت أسمع كلامَ أهل مصرَ ، ثم اتسع الأمرُ إلىٰ قرىٰ مصر ، ثم سائر الجوانبِ إلى البحار المحيطة ، وسمعت تسبيحَ سمك البحر المحيط الذي ما بعده بحرٌ وهو يقول : سبحان الملِكِ الخلاق ربِّ الجمادات والحيوانات ، والنبات والأرزاق[2] ، سبحان من لا ينسىٰ أحداً من خلقه ، ولا يقطع بِرَّهُ عمن عصاه . انتهىٰ ، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة .

ثم إن الله تعالىٰ رحمني ، وأسدل عليَّ الحجاب ، ولولا ذلك لذَهَل عقلي[3] ، وعلمت من هـٰذه الواقعةِ حياةَ كل شيء في الوجود على اختلاف

---

(١) السَّنْبوسك : فطيرة صغيرة .
(٢) كذا في النسخ ، وفي « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٣٢) : (الأوراق) بدل (الأرزاق) .
(٣) ذهل : غاب عن رشده .

طبقاته ، لكن منه ما ظهرت حياتُهُ للناس ؛ لِمَا يرونه من تدبيره لجسده ، ومنه ما خفي عنهم تدبيرُهُ ، وجعلوا تسبيحَهُ بلسان الحال ، فلو أن جميع أهل الأرض الآن قالوا لي خلافَ ما شهدت . . لا أرجع إلىٰ قولهم إلا بدليل صريحٍ عن الشارع أو إجماع ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[امتناعُهُ عن القول بالجهة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ وتفضَّلَ : عدمُ قولي بالجهة في جانب الحقِّ جل وعلا من حينَ كنت صغيراً ؛ عنايةً من الله عز وجل بي ، لا بعمل عملته ، ولا بخير قدَّمتُهُ ، ولا بسلوك الطريق علىٰ يد شيخ ، وقد هلك في هٰذا الباب خلائقُ لا يُحصَون .

وصورةُ ما وقع لي : أنني كنتُ مارّاً تجاهَ باب سوق الكتبيين مما يَلي باب الزهومة ، وعمري إذ ذاك نحوُ ثلاثَ عشرةَ سنة ، فتفكرت في الله عز وجل وظننتُ أنه فوق عرشه كما يستوي الواحدُ منا علىٰ سطح داره مثلاً ، فصرفت الخاطر عني وقلت : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورىٰ ١١] ، فبينا أنا واقف باهتٌ[1] . . إذا بصوت في الجوِّ أسمعه ولا أرىٰ قائلَهُ ـ مع أنه من المخلوقات بيقين ؛ فإنه بصوت وحرف ـ يقول لي : اخرجْ من حَيْطةِ العرش إلىٰ خارجه ، وانظرْ بعقلك تجدِ الوجود المحصورَ من العرش وما حواه من العلويات والسفليات . . كذرَّةٍ في الجوِّ بالنسبة لِمَا لا يتناهىٰ ضبطُهُ بالعقل من سائر الجوانب .

---

(١) باهت : أي : مدهوش ، متحيِّر .

فخرجتُ من العرش إلىٰ خارجه[1] ، فرأيته بما حواه كالقنديل المعلَّق بلا عِلاقة ، فإن صَعِدَ أبدَ الآبدين لا يجدْ جسماً آخرَ يتعلق به ، أو نزل أبدَ الآبدين لا يجدْ أرضاً يستقر عليها ، فعلمت سَعةَ عظمة الله تعالىٰ ، ونزَّهتُهُ عن القول بالجهة يقيناً من ذلك اليوم ، وعلمت أنه تعالىٰ مُباينٌ لخلقه في سائر المراتب ، لا يجتمع تعالىٰ مع أحد من خلقه في حدٍّ ولا جنس ولا فعل[2] ، وجمعتُ في ذلك المشهدِ الأقدس بين الضدَّين ، وشهدتُ نفسي في مكانين ؛ فإني كنت داخلَ العرش بيقين ، وكنت أرىٰ نفسي خارجَهُ حالَ كوني داخله ؛ إذ العرش العظيم حاوٍ لكل ما يعقله العقل ، ومتىٰ ما شهد العقلُ خارجَ العرش شيئاً . . فليس هو العرشَ العظيم .

فبينا أنا واقفٌ أشهد نفسي كما ذكر . . إذ جاء طائرٌ أبيضُ طويل العنق ، ففتح فاه والتقط الوجودَ كلَّهُ في جوفه ، فصرت أرىٰ نفسي داخلاً في باطن الطائر وأنا خارجه ، ثم جاءت ناموسة صغيرةٌ فابتلعت الطائرَ بما حواه ، وغابت عن العين ، فقصصت هـٰذه القصةَ علىٰ معلمي القرآنَ ، فقال يا ولدي ؛ هـٰذه أخلاط سوداوية ، فلم أقنع بذلك ، فمضيت إلىٰ بعض العارفين[3] ، فأخبرته بذلك ، فقال : يا ولدي ؛ هـٰذه عنايةٌ عظيمة من الله تعالىٰ بك ؛ فإن هـٰذا مقامٌ لا يصل أحد إليه إلا بالسلوك علىٰ يد شيخ مدةً طويلةً ، وهـٰذا أولُ بدء ظهور عظمة الله عز وجل بقلبك ، فاشكر الله عز وجل علىٰ ذلك . انتهىٰ .

---

(١) أي : خرجت بعقلي ؛ كما في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٣٤) .

(٢) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : (فصل) بدل (فعل) .

(٣) هو سيدي علي المرصفي ، كما في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٣٤) .

وقد وقع لي في هٰذه البقعة مخاطباتٌ كثيرة ، ومقدارُها نحوُ سبعة أذرع من باب سوق الكتبيين وأنت ذاهب إلىٰ سوق الوراقين ، ويليها في الشرف بقعةٌ أخرىٰ ؛ وهي من باب جامع الفاكهانيين إلىٰ سبعة أذرع وأنت ذاهب إلى المدرسة الغورية(١) ، ولو أنني كنت سلطاناً لحولت طريق الشارع عن هاتين البقعتين ؛ لأمور لا تُذكر إلا مشافهةً لأهلها ، ومن ذلك اليوم ما مررت قط بهاتين البقعتين إلا وأنا أرعد من الهيبة ، وصدَّقني علىٰ ذلك سيدي عليٌّ الخواص وقال لي : بقي بقعةٌ ثالثة بمصرَ وهي تجاه باب جامع محمود بالقرافة ، ولٰكن لا يُدرك ذلك إلا أصحابُ الكشف ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

فعُلِمَ : أن كلَّ من توهم أن الله تعالىٰ تأخذه الجهاتُ . . فليس له في مقام المعرفة نصيبٌ ، وإنما هو يُشبِّهه بخلقه ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً

وقد كان سيدي علي بن وفا يقول(٢) [من البسيط]

وقد نفذتُ مِنَ الأقطارِ أجمعِها وقد تجاوزتُ حدَّ الخفضِ والرفعِ

وكان يقول : (ليس الرجلُ من يتقيد بأجرام العلويات والسفلياتِ ، إنما الرجلُ من خرج من الأقطار كلِّها وشاهد خالقَها كما يليق بجلاله) .

وقد أنشد بعضُهم حين أشرف علىٰ أوائل مقام المعرفةِ المرادة عند القوم

---

(١) المدرسة الغورية : هي التي أنشأها السلطان قانصوه الغوري .

(٢) ديوان علي بن وفا (ص١٥٦) ، وقد جاء في الديوان الشطر الأول لصدر بيت ، وجاء عجز البيت لبيت آخر .

فقال[1] : [من البسيط]

إنْ رحتُ أطلبُهُ لا ينقضي سفرِي   أو جئتُ أحضرُهُ أوحشتُ في الحضرِ
فما أَراهُ ولا ينفكُّ عن بصري   وفي فؤادي ولا ألقاهُ في عُمُري

وأنشد الشيخ محيي الدين بنُ العربي لمَّا أشرف على مقام المعرفةِ فقال[2] : [من الطويل]

ومِـنْ عجبـي أنِّـي أَحِـنُّ إليهـمُ   وأسألُ عنهم دائماً وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادِها   وتشتاقُهم روحي وهم بينَ أضلعي

وقال الإمام محمدٌ النِّفَّري في كتاب « المواقف » (أوقفني الحقُّ جل وعلا بين يديه في المنام وقال لي : قل للعارفين : إن رجعتُم تسألوني الزيادةَ عمَّا تعرَّفتُ به إليكم.. فما عرفتموني ، وإن رضيتُم بالوقوف على حدِّ ما علمتم مني.. فما عرفتموني ، وعزتي وجلالي ؛ لا أنا عينُ ما عرفوه ، ولا عينُ ما جهلوه)[3] . انتهى ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[التجاؤه إلى الله تعالى بسؤاله المغفرة منه عند وقوعه في مخالفة شرعية وعدم قوله إنه مقدَّر عليَّ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من الوقوع في إقامة الحُجَّةِ على شيء وقعتُ فيه من المخالفات ؛ بنحو قولي في نفسي : هـٰذا مقدَّرٌ عليَّ قبل أن

(١) الأبيات للشيخ علي بن الهيتي (ت٥٦٤هـ) انظر « بهجة الأسرار » للشطنوفي (ص٢٩٢) .
(٢) الفتوحات المكية (١/ ١٧٨) .
(٣) المواقف (ص٩٧) .

أُخلق ، بل أفرُّ إلى الله تعالىٰ ، وأسأله أن يُقِيلَ عثرتي ، ويغفرَ زلَّتي ؛ لأن هـٰذا هو الذي كُلِّفت به ، وأما كون ذلك الأمرِ بتقديرٍ سبق من الله تعالىٰ . . فهو تحصيلُ الحاصل ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨] .

وإيضاحُ ذلك : أن الخَلْقَ وأفعالَهم معلومُ علم الله ، ومعلومُ علم الله قديمٌ ، فلو قال إنسان لربه : كيف تؤاخذني بأمر قدَّرتَهُ عليَّ ؟! قال له الحقُّ جل وعلا : وهل تعلَّق علمي بك إلا علىٰ ما أنت عليه ؟! وهناك تندحضُ حجةُ العبد ، ويعلم أن لله الحجةَ البالغة .

فعُلِمَ : أن من قال : إن معلومَ العلم حادث فمرادُهُ من حيث بروزُهُ لعالم الشهادة ، لا أنه حادثٌ في علم الله ؛ بأن يتقدَّمَهُ جهلٌ ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، وأكثر من ذلك لا يزيله إلا الكشفُ الصحيحُ ، فما تميز الحقُّ تعالىٰ عند صاحب هـٰذا المشهد إلا بكونه خالقاً ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، وهـٰذا مشهدٌ عزيز لم أَرَ له ذائقاً من أهل عصري ، إنما يُسلِّم أحدُهم لله تعالىٰ علىٰ كره ويقول : أيشٍ يفعل العبد ؟ وربما يقول : العبدُ مجبور في عين اختيارِهِ ، وربما ينشد قولَ بعضهم[1] : [من البسيط]

ألقاهُ في اليمِّ مكتوفاً وقالَ لهُ   إيـاكَ إيـاكَ أنْ تبتـلَّ بـالمـاءِ

وربما قال أيضاً المثلَ السائرَ : (يدٌ لا تَقدِر أن تعَضَّها قَبِّلْها) ، ونحوَ ذلك مما فيه رائحةُ إقامة الحُجَّة على الله تعالىٰ ، وهـٰذا عندنا لا يجوز ،

---

(١) البيت لسيدي عبد الغني النابلسي أنشده في « ديوان الحقائق » (ص٣٠) .

وقد بسطنا الكلامَ علىٰ ذلك في مبحث (خلقِ الأفعال) من كتابنا المسمىٰ بـ« اليواقيتِ والجواهرِ في بيان عقائدِ الأكابر »[1] ، فراجعه ترَ ما لم يخطر لك علىٰ بال ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[امتحانُ المؤلف نفسَهُ في دعواها العجزَ عن الطاعات حال المرض]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ تسليمي لنفسي دعواها العجزَ عن شيء من الطاعات حالَ مرضها ـ كعجزها عن القيام في الصلاة ، ونحوِ ذلك ـ إلا بعد امتحانها بالوقوف ؛ فإن وقعَتْ قهراً عليها المرةَ بعد المرة . . صليت جالساً ، وإن قَدَرَتْ على التماسك في القيام تكلَّفتُ وصليت قائماً ؛ وذلك لأن أصلَ النفس مجبولةٌ علىٰ عدم الطاعة لله تعالىٰ ، فمن شأنها في أصلها الكسلُ والإباية ، وقد روي في الخبر : أن الحقَّ تعالىٰ لما قال لها : مَنْ أنا ؟ قالت له : من أنا ؟ فما قالت : أنت اللهُ . . إلا بعد غمسها في بحر الجوعِ خمسةَ آلاف سنة ، وإذا كان من أصلها الكسلُ وعدمُ النهضة للطاعات . . فهي تسارق صاحبَها شيئاً بعد شيء حتىٰ ترجعَ إلىٰ حالها قبل أن تغمس في بحر الجوع .

ووالله ؛ إني لأخرج في بعض الأوقاتِ للصلاة أجرُّ رجليَّ جرّاً من ثقل الواردات التي تَرِد عليَّ من تحمل هموم الناس ، ولا أصلي في البيت ؛ امتثالاً لأمر الله عز وجل كما كان الصحابةُ يفعلون ؛ كان أحدُهم يُؤتىٰ به يُهادىٰ بين رجلين حتىٰ يوقفَ في الصف[2] ، لا سيما إن خِفْتُ أن يقتدي بي

---

(١) اليواقيت والجواهر (ص١٧١) .

(٢) رواه مسلم (٦٥٤/٢٥٧) ، وروى البخاري (٧١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها في مرض النبي صلى الله عليه وسلم : وخرج النبي صلى الله عليه وسلم يُهادىٰ بين رجلين كأني أنظر إليه يَخُطُّ برجليه الأرض =

وقد رأيت مرةً شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاريَّ رضي الله عنه يصلي النوافلَ قائماً وهو ضعيفٌ ، ويصير يتمايل يميناً وشمالاً من الضعف ، فقلت له : يا سيدي ؛ إن مثلَك لا يُكلِّفه الله بالقيام في المرض ، فقال يا ولدي ؛ النفسُ من شأنها الكسلُ ، وأخاف أن أَختِمَ عمري علىٰ ذلك هٰذا كلامه ، وقد جاوز المئةَ سنة ، رضي الله عنه

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي : (من لم يتَّهم نفسَهُ في سائر أحوالها . . لا يُكتبْ في ديوان الرجال)[١] ، فالحمد لله ربِّ العالمين[٢]

[حمايتُهُ من الأكل من طعام من شفع فيه شفاعةً]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من أكل طعامِ مَنْ شَفَعْتُ فيه شفاعةً وقُبِلت ، ولو كنتُ آكل من طعامه قبل الشفاعة . . فلا آكلُ بعدها أبداً ، وإن وقع أني أكلت منه ناسياً تقيأتُهُ من بطني ، وإن قُدِّر أنه لم يطلع استغفرت الله تعالىٰ ألفَ مرة ؛ لأن الشفاعةَ من جملة القرباتِ الشرعية ، فلا نأخذ عليها أجراً في الدنيا

وقد شَفَعتُ مرةً شفاعةً في إنسان عند نائب مصرَ ، فأهدىٰ إليَّ جاريةً ، فلم أقبلها لنفسي ، فسألني بالله في قَبولها لولدي ، فلم أقبل ، فملَّكَها لابنتي نفيسةَ ، وهي علىٰ قلبي الآن أثقلُ من حجر إلىٰ أن ترجعَ إلىٰ صاحبها ، فالحمد لله ربِّ العالمين

= ومعنىٰ (يهادىٰ بين رجلين) أي : يمشي متكئاً عليهما من ضعفه وتمايله .

(١) أورده أبو الحسن الواسطي في « خلاصة الإكسير » (ص٦٩) .

(٢) في هامش (أ) : (بلغ) .

[صحبتُهُ الولاةَ لتفريج المكروبين ، لا لقبول هداياهم]

ومما منَّ الله به عليَّ كراهتي لقبول شيء من هدايا الولاة لنفسي ولإخواني الصادقين ؛ وذلك لأننا ما نصحبُهم إلا لتفريج كربةٍ عن مكروب ، ونحوِ ذلك ، وسهامُنا المسمومة متوجِّهةٌ إليهم ليلاً ونهاراً ؛ فإن سَداهم ولُحْمتَهم الظلمُ وأذى الناس ، وقبولُ هداياهم يُبطِل عملَ سهامنا فيهم ، ونحن لا نرىٰ إبطالَ عمل سهامنا فيهم بالأكل من طعامهم ، أو اللبسِ من ثيابهم ، مع ما في ذلك من التبعاتِ وردِّ الشفاعات بعد ذلك ، فلا يصير لنا شفاعةٌ تُقبل عند الولاة في حقِّ مكروب

وقد أغفل غالبُ الناس هـٰذا البابَ ، فقبِلوا من الولاة صدقاتِهم وهداياهم ، وصاروا معدودين من جملة عيالهم ، ثم طلبوا منهم قبولَ الشفاعات فلم يسمعوا لهم ، فصاروا يهجونهم في المجالس ، ولو أنهم زهدوا فيما في أيدي الولاةِ ولم يقبلوا لهم صدقةً ولا هدية . . لعظَّموهم وقبلوا شفاعاتِهم ، وما أخبرتك يا أخي إلا بما جرَّبتُهُ قبل دخولي في طريق القومِ .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول : (من أكل من قصعة رجل ذلَّ له ، وربما غلب عليه الحياء منه فترك نصحه)[1] ، وفي المثل السائر (أطعم الفم تستحْيِ العينُ) ، فالحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٥٩) من قول سفيان رحمه الله تعالىٰ .

[عدم مزاحمته على صحبة الولاة وأبناء الدنيا]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ مزاحمتي على صحبة أحد من أبناء الدنيا ؛ من أمير ، أو مباشر ، أو تاجر ، ونحوِهم ممن حوله بِرٌّ وحسنة ، وإن كنتُ صحبتُهُ ثم طرأ عليَّ أحدٌ يزاحمني فيه . . تركته له بانشراح صدر .

وقد تقدَّم أوائلَ هـٰذا الكتاب(١) : أني لا أتشوَّش ممن نقَّصني عند أحد من الولاة الذين صحبتُهم ، حتىٰ صار ينكر عليَّ بعد أن كان يعتقدني ؛ لأنه أراحني من ورطته في عزله وولايتِهِ ، ونَفَّرَ خاطري من الركون إليه ؛ حتىٰ لا تمسَّني النارُ التي وعد الله بها من يَرْكَن إلى الظلمة ، ومن تأمَّل : وجد من يُنفِّر الظلمةَ والأكابر عن صحبته أكثرَ إحساناً إليه ممن يُحسِّنُ اعتقادَهم فيه ؛ لأنهم إذا اعتقدوه وأحبوه ركن إليهم ضرورةً ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[ترك صحبته الولاة إلا أن ترجح مصلحة شرعية]

ومما منَّ الله به عليَّ : أني لا أصحب أحداً من الولاة إلا إن رأيتُ صحبتَهُ أرجحَ من مقاطعته ، ثم لا أزال أسارقه ؛ بتكبير غيري عنده من العلماء والصالحين حتىٰ يصيرَ يُقدِّمهم عليَّ ، فإذا صار كذلك تركت صحبتَهُ بسياسة ؛ بحيث لا يلحق بي أحدٌ أني تشوَّشت من صحبته لغيري ، وهـٰذا خلقٌ ما علمت له فاعلاً في مصرَ إلا قليلاً

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول (من كمال الفقير إذا صحب أميراً أن يُحسِّن اعتقادَهُ في جميع أقرانه جهدَهُ ، فإذا مال لغيره فمن

---

(١) انظر (ص١٨٨) .

الأدب تركُهُ ؛ فإن عاقبة صحبة الولاة وخيمةٌ على غالب الناس) انتهى

وقد صحب كثيرٌ الولاةَ ، وصاروا ينقصون أقرانَهم عندهم ؛ خوفاً من نَفْرتهم عنهم ، فقيَّض الله تعالى لهم من جَرَّحَهم عند الولاة ، وهجاهم ، وكشف سوءاتِهم ؛ جزاءً على هتكهم سوءاتِ إخوانهم ، ولو أنهم كبَّروا بإخوانهم عند ذلك الأميرِ الذي صحبوه . . لخرجوا من صحبته مستورين ، وأنا أوصي جميعَ إخواني بأن يعملوا بهذا الخلق الحسنِ مع أقرانهم عند كل من صحبوه من الولاة ؛ فإن له حلاوةً عظيمة ، وفيه رضا الله ورضا الإخوان ، والضدُّ بالعكس .

ثم إنَّ أصلَ تنقيص الإخوان عند الناس إنما هو محبةُ الدنيا ؛ فيخاف محبُّ الدنيا أن يميل ذلك الأميرُ إلى غيره ، فيقطعَ عنه بِرَّهُ وصدقته ، أو يُشرِكَ معه أحداً من أقرانه في ذلك ، فيُنفِّرُه منه لأجل ذلك

ولما شَفَعتُ عند الباشاه عليٍّ ، وقبل شفاعتي وعظَّمني . . غار بعضُ الحسدة بالجامع الأزهر ، وأرسلوا له قصصاً فيها تجريحي ، ثم جاؤوا بعد ذلك يطلبون مني الشفاعةَ في شخص يلوذ بهم ، فقلتُ لهم لو تركتموني بلا تجريح عنده لكنت شفعتُ لكم ، ولكن صرت أستحيي أن أقابلَهُ ، ولم أجبهم ؛ عقوبةً لهم ، ولو أنهم كانوا زكَّوْني لحصل لي ولهم الخيرُ ، فالحمدُ لله الذي عافانا من مثل ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[كثرةُ اعتقاد الولاة بصلاح المؤلف ، وقبولِهم شفاعته]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كثرةُ اعتقاد الولاة الذين أشفع عندهم . . فيَّ الصلاح ، وقبولِ شفاعتي من غير مطالبتي بكرامة ؛ فلا أعلم أحداً في مصرَ

الآن أكثرَ شفاعةً عند الكشاف ومشايخ العرب والعمال مني ، مع وجود مَنْ هو أعظمُ مني مقاماً في البلد ، فربما فَنِي الدَّستُ الورق وأكثر في مراسلتهم في شهر واحد

وقد بلغنا أن من كان قبلي لم يزل بينه وبين الولاة العداوةُ والتأديب ، ويطالبونه بالكرامة ؛ حتىٰ أنهم يقبلون شفاعتَهُ ؛ كسيدي إبراهيمَ المتبوليِّ ، وسيدي إبراهيم الجعبري، وسيدي محمدٍ الحنفي الشاذلي ، حتىٰ إنهم يحبسون بولَ الحكام حتىٰ يكادَ أحدُهم يموت ، وينفخون الواحدَ حتىٰ تصيرَ بطنُهُ كالطبل ويشرفَ على الموت ، وبعضُهم يخرج له سبعٌ من حائط الخلاء فيكاد يأكلُهُ، ونحوُ ذلك من الأفاعيل؛ حتىٰ أنهم ينقادون لهم ، ويقبلون شفاعاتِهم ، ولم يحوجني الله تعالىٰ إلىٰ مثل ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حسنُ سياسته عند من يشفع عنده من الولاة]

ومما منَّ الله به عليَّ : حسنُ سياستي لمن أشفع عنده ؛ فيلهمني الله تعالىٰ كلاماً لم يمرَّ قط علىٰ بالي ، فينحلُّ غضب ذلك الأمير بعون الله عز وجل

ولمَّا شَفَعتُ عند الباشاه عليٍّ في سيدي محمد العبادي . . قلت له : قد جاء الفقراءُ يشفعون عندكم في محمدٍ العبادي ، فإن كان يستحقُّ أن الفقراء يشفعون فيه فشَفِّعونا فيه صدقةً عن رأسكم ، وإن كان لا يستحقُّ الشفاعةَ فنحن معكم عليه ؛ فإنا لا نوالي لولي أمرنا عدوّاً ، فتبسم وانحلَّ غضبُهُ وقال : ننظر في أمره بخير ، وكان قد ردَّ شفاعةَ من هو أعظمُ مني في العلم والجسم ، وعزم علىٰ نفيه .

ولمَّا وقع بين بني بقر العداوةُ . . كلَّمت كلَّ واحد من وراء الآخر بما يراه

مصلحةً له على خصمه حتى بادر كلٌّ منهم للصلح

ولمَّا وقعت العداوةُ بين الشيخ عبد الله الغمري والشيخ عبد المجيد الطريني ، وانقسمت أهلُ المحلة الكبرى نصفين ، مع كل واحد جماعةٌ . . جمعت بينهما عندي في الزاوية في محل خلوةٍ ، وقلت لهما لا شك ولا خفاء أنكم مشايخُ البلد ، وكلامُ كل واحد منكما مقبولٌ عند جماعته ومريديه ، فينحلُّ الأمر إلى صحة تجريح عِرْضِ كلٍّ واحد منكما ، وتزولُ حرمتُكما جميعاً ، فاستحسنا الكلامَ ، وأقبلا على بعضهما ، وكان لهما نحوُ عشر سنين متعاديين والناسُ بينهما في تعب

ولمَّا وقعت العداوةُ بين شيخي الشيخ أمينِ الدين والشيخ شمس الدين الدَّواخلي بجامع الغمري . . لم يقدر أحدٌ على الصلح بينهما ، فجئت إلى الشيخ أمينِ الدين وقلت له إن الشيخ شمس الدين ندم وقال الواجبُ على مثلي أن يكون تحت طاعة الشيخ أمينِ الدين ؛ لكونه أكبرَ مني سناً ، وقلت للشيخ شمس الدين : إني سمعت الشيخ أمينَ الدين يقول : كان من الواجب عليَّ أنني أحتمل الشيخ شمسَ الدين ؛ لكونه أصغرَ مني سنّاً ، فما فرغت من الكلام إلا وقام كلُّ واحد منهما يمشي للآخر ، وتعانقا ، ولم يزالا مصطلحين حتى ماتا ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

هـٰذا كله في وقفة تكون بين اثنين مثلاً في أمر لا يخالطه حسدٌ ؛ فإن الحسود لا تزول عداوتُهُ إلا بزوال النعمة ، فمثل هـٰذا يَكِلُ العاقل أمرَهُ إلى الله عز وجل ، والإثمُ عليه دون المحسود ، فافهم واعلم ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[حمايته من الأكل من الصدقات والزكوات لنسبته لمحمد بن الحنفية]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من الأكل من صدقات الناس وزكواتِهم ما دمت أجد ما يسدُّ الرمقَ من غيرها ؛ وذلك لما بلغني في النسبة : أنني من ذرية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه من جهة سيدي محمد بن الحنفية رضي الله عنه ، وقد نهاني جدي عن الأكل من ذلك ، فهـٰذا هو سببُ كراهتي للأكل من الصدقات ، إلا أن تكون عامةً ؛ كالأوقاف العامة على المسلمين، كما مرَّ تقريرُهُ[1]، وذلك من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ، وساعدني علىٰ ذلك القناعةُ ، وأنا أعلم أني لو طلبت التوسُّعَ في الدنيا ـ كغيري ـ في الملابس ، والمراكب ، والزوجات ، والسراري . . لَمَا قدَرتُ على المشي علىٰ هـٰذا القدمِ ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغنِ يغنه الله .

وقد كان والدي وجدي علىٰ هـٰذا القدم[2] ، كانا لا يأكلان قط من الصدقة ، ويقولان : نخاف أن نخالف هديَ أسلافنا ونأكلَ أوساخَ الناس ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[كثرةُ حلمه وصفحه عن الإخوان]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كثرةُ الحلم والصبر علىٰ ما يقع فيه إخواني من العوج بعد الاستقامة ، فأنا أرحمُ به إذا انعوج أكثرَ من رحمتي له حالَ

---

(١) انظر (ص٣١٦)

(٢) في (أ ، ج) : (المقام) بدل (القدم)

الاستقامة ، لا سيما إن صار ينقصني وينقص إخوانَهُ في مجالس المستهزئين ؛ فإني أزيد في رحمته أكثرَ ، **وقد قالوا في المثل السائر** : (أحوجُ ما يكون أخوك إليك . . إذا عثرت دابتُهُ ، ودارت عليه الدوائرُ في دينه ودنياه)

ومن أعون شيء على ردِّ مَنِ انعوج عن طريق الاستقامة من الإخوان . . مدحُنا له في المجالس وقولُنا : قد اشتقنا إلى فلان ، ونحوُ ذلك ، ومن أشدِّ شيء في تنفيره عنا بالكلية ذكرُهُ بالسوء في المجالس ، لا سيما إن اجتمع بعد فراقنا بمن يكرهنا ؛ فإن دينه يتمزَّق بالكلية ، ويصيرُ كلما قال له الناس لأي شيء فارقتَ شيخك وأصحابَك ؟ . . يقول ما كلُّ ما يُعلَم يقال ، ولو أنني رأيتُ هناك خيراً ما فارقتهم ؛ وذلك لأنه يصير مكسورَ الخاطر كلما رأى أحداً ينكر عليه فراقَهُ لشيخه ، فيريد يجبر ذلك الكسرَ ببعض كلمات ، وربما صرَّح بالتجريح

ثم إننا إذا داويناه ورأينا أماراتِ الخِذْلان قد أحاطت به من جميع الجهات ، وطلب الرجوعَ إلى صحبتنا . . طردناه بالقلب ؛ خوفاً من أن يتلف الفقراءَ ، ولا نُمكِّنُ أحداً يطرده باللفظ ؛ فإن المطرود أكثرُ سفهاً بيقين[١] ، فيتولد من ذلك شرٌّ كبير ، والقلبُ أقوى فعلاً من اللفظ وأسترُ ، وقد خالف في هٰذا الأمر جماعةٌ ، فوقع بينهم خصامٌ عظيم ، وصاروا يهجون بعضَهم بعضاً كالشعراء ، فازدادوا مقتاً ، ثم إن إثمَ ذلك يرجع على الفقراء القاطنين ؛ لقلة سياستهم

---

(١) العبارة في (أ) : (فإن المطرود بالقلب أكثر سفهاً بيقين) ، والمثبت من سائر النسخ .

فعُلِمَ أنه ما دام عند الفقير الذي غيَّر وبدَّل قابليةٌ للخير . . فلا ينبغي لنا طردُهُ بالقلب ، بل نصبر علىٰ جفاه وكلامِهِ الجافي في حقنا وحقِّ غيرنا ، فلعله يستقيم ويحصل الخيرُ إن شاء الله تعالىٰ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[هوانُ الدنيا على المؤلف ؛ فالألفُ دينار عنده كالقشة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ أنني إذا أعطيت أحداً ألفَ دينار من الذهب . . فحكمُهُ عندي كما إذا أعطيته قشةً من الأرض في عدم التفاتي إليها بعد إعطائها ، وهٰذا خلقٌ غريب لا يوجد إلا في بعض أفرادٍ من الفقراء ، ولم أَرَ له ذائقاً ؛ لأن الفقير الصادقَ علىٰ قدم الملوك في شهامة النفس وكرامتِها ، فهو يُجِلُّ مقامَهُ عن أن تلتفت نفسُهُ إذا تذكر ما أعطاه ؛ ولذلك ورد مرفوعاً في « أبي داود » « إنْ كنتَ ولا بدَّ سائلاً . . فاسألِ الصالحينَ أو ذا سلطانٍ »[1] ؛ أي : لأن الملوك والفقراءَ لا يمنُّون علىٰ أحد بما أعطوه له ؛ لأن السلطانَ يحتقر ما أعطاه ، والصالحَ يرى المُلك لله تعالىٰ في الأشياء دون نفسِهِ ، إنما يرىٰ نفسه كالوكيل المستخلَفِ في مال سيده ؛ ليصرفَ منه علىٰ ذوي الحاجة من عبيده بالمعروف ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[عدمُ تشوُّفه إلىٰ مكافأة ممَّن أُهدِي إليه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ تشوُّف نفسي إلىٰ طلب مكافأتي علىٰ هدية

---

(١) سنن أبي داود (١٦٤٦) عن سيدنا ابن الفِراسي رحمه الله تعالىٰ بدون لفظ : « ذا سلطان » ، ورواه أبو داود (١٦٣٩) عن سمرة رضي الله عنه بلفظ : « المسائل كُدوحٌ يكدح بها الرجل وجهَهُ ؛ فمن شاء أبقىٰ علىٰ وجهه ، ومن شاء ترك ، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان ، أو في أمر لا يجد منه بُدّاً »

أهديتُها لأحد إذا جئت من سفر الحجاز ونحوهِ ، بل أُحرِّر النية لله تعالىٰ قبل أن أهديَها إليه

ثم إن علمتُ من همته الاهتمامَ بالمكافأة. . أرسلت له مع القاصد أني حلفت إني لا أقبل عليها مكافأة ، وأحلف بشيء من الكون ؛ كولدي أو حماري ؛ وذلك حتىٰ أريح قلبَهُ من التعب .

وهٰذا الأمر قَلَّ من يَتنبَّهُ له من المُهدِي والمهدَىٰ إليه ، لا سيما من تعوَّد الأخذَ من الناس دون أن يعطيهم ، فربما صار يُحدِّث نفسَهُ بطلب المكافأة ، وربما يرىٰ في عينه ما أرسله المُهدَىٰ إليه يسيراً ، فيقول : يا ليتني لم أهدِ إليه شيئاً ، وربما ردَّ المهدىٰ إليه كذلك الهديةَ على المهدي إذا رآها قليلةً ، كما يقع فيه التجارُ إذا قدموا من سفر الحجاز أو الشام

ورأيت بعضَ التجار قدم من الحجاز فصار الناسُ يهدون إليه وهو يتبرم من ذلك ويقول : والله ؛ ما كان لي حاجةٌ بما أرسله لي فلانٌ وفلان ، وأنا حائر أن أكافئهم بأيش ، وهو معذورٌ ؛ لأنه واحد وهم كثير ، ولو أنهم عملوا بأدب الفقراء فأهدوا لله وقبلوا مكافأةَ ذلك من الله بقطع النظر عن الخَلْقِ . لَمَا وقعوا في شيء من ذلك ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[انشراحُهُ للإسرار بالصدقة ، وكراهتُهُ أن يطَّلع الناس عليها]

ومما منَّ الله به عليَّ : انشراحُ قلبي للإسرار بالصدقة ، إلا لغرض صحيح شرعي ؛ وذلك لما ورد أنها تُضاعف علىٰ صدقة العلانية بسبعين ضعفاً[1] ،

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/٥) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : (جعل الله صدقة السر في التطوع تفضُل علانيتها بسبعين ضعفاً) ، وأورده الديلمي في=

لـكنَّ الحاثَّ لي على الإسرار ليس هو المضاعفةَ المذكورة ، وإنما هو امتثالُ الأمر الإلـٰهي ؛ فإنه ولو ضوعفت الصدقةُ لي لا يجوز لي دعوى الملك مع الله فيما ضوعف طرفةَ عين .

فعُلِمَ أنه إذا كان هناك أحدٌ يقتدي بي . . فالإعلانُ بالصدقة أولىٰ ، وكذلك إذا كان هناك أحدٌ يسيء الظنَّ بي ، ويعتقد أني بخيل . . فمن الأدب إظهارُها ؛ لأخرجه عن سوء الظن ؛ حتىٰ لا يقعَ في الإثم ، لا لكونه نقصني ، وإنما ندب الشارعُ إلى الإعلان بصدقة الفرض ونحوِهِ مما ذكرناه ـ وإن كان الإعلان ليس فيه تضعيفٌ للأجر ـ ترجيحاً للخير المتعدي للفقراء ومنفعتِهم بكثرة العطاء إذا اقتدى الناس بمن يُعلن ، فقدَّمنا منفعةَ الفقراء العامةَ علىٰ منفعة المتصدِّقِ بتضعيف الأجر الخاصِّ به ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ورد عليه فقراءُ المهاجرين . . يأمر أصحابَهُ بأن يعطوهم جهراً ؛ ليقتدي الناس بهم ، فيأتيَ هـٰذا بدراهمَ ، وهـٰذا بثياب ، وهـٰذا بتمر ، وهـٰذا بسمن ، حتىٰ يصيرَ ذلك كوماً في المسجد ، فما أمرهم بالإعلان إلا ليقتديَ بعضُهم ببعض

وسمعت سيدي علياً الخواص يقول : (من أعظم أخلاق الرجال عدمُ تحديث النفس بما تصدَّقتْ به سرّاً ، والتكدرُ من اطلاع الناس عليها ، وعدمُ ذكرها للناس تعريضاً أو تصريحاً ، ثم لا يثبت في ذلك إلا من يعامل الله خالصاً ، وقليلٌ ما هم) انتهىٰ

= « الفردوس » (٣٢٣٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال « وصدقة في السر أفضل من سبعين صدقة في العلانية »

وكان يقول : (من صدقة السرِّ   أن يشتري الشخصُ سلعةً بزيادة على قيمتها ، ولا يشعرَ بذلك البائعَ ، وليس المراد بالسرِّ ألا يطلع عليه المتصدِّقُ كما قاله بعضهم ، بل المراد ألا يدري به أحدٌ غيرُ المتصدق من الخلق) ، فافهم ، والحمد لله ربِّ العالمين

[شكرُهُ لله تعالىٰ إذا زوىٰ عنه الدنيا أكثرَ منه إذا وسَّعها عليه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : أنني أشكر الله تعالىٰ إذا زوىٰ عني الدنيا أكثرَ من شكري له إذا وسَّعها عليَّ ؛ لأنه إذا زوىٰ عني الدنيا كان لي أسوةٌ بالأنبياء والأصفياء ، والتأسي عندي بهم أسلمُ من توسعة الدنيا ، وأكثرُ أجراً ، وأقلُّ حساباً

ثم إذا أقامنا في حالة منهما . . فليس لنا طلبُ تحويلها ، بل يجب علينا الرضا بقضائه علينا ؛ وذلك لكوننا عبيداً مستعملين فيما يريد ، لا فيما نريد نحن .

ثم إن كان ولا بد لنا من سؤال التحويلِ . . فينبغي أن نقول   اللهمَّ ؛ وسِّعْ علينا الدنيا إن كان لنا في ذلك مصلحةٌ ، أو ضيِّقْها علينا إن كان لنا في ذلك مصلحةٌ ، ثم كلُّ شيء وقع كانت الخيرةُ فيه ؛ لتفويضنا أمرَنا إليه في الحالين ، وفناءِ اختيارنا في اختياره تعالىٰ ، وقَلَّ من يتسع عليه الدنيا إلا وتكثر غفلتُهُ عن الله تعالىٰ ، وغاب عنه أن الله تعالىٰ ما وسَّعَ عليه الدنيا إلا ليكثر شكرُهُ له ، وانقيادُهُ لأوامره ، واجتنابُهُ لمناهيه .

فعُلِمَ مما قررناه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختار التقللَ من

الدنيا إلا رحمةً بأمته ؛ خوفاً أن يتبعوه في توسعة الدنيا فتحجبَهم عن الله تعالىٰ ، ويَقِلَّ شكرُهم لله تعالىٰ ، كما هو المشاهدُ في أكثر الناس ، فاحتاط صلى الله عليه وسلم لأمته[1]

وعلم مما قررناه أيضاً : أن من يكون اتساعُ الدنيا عليه مذكِّراً له بشكر المُنعم . . فهو أولىٰ وأعلىٰ ، ولـٰكنه مقامٌ خَطِرٌ ، لا يقوم به خالصاً إلا الأنبياءُ وكُمَّلُ ورثتهم من الأولياء ؛ ولذلك اختار السلفُ الصالحون كلُّهم التجريدَ عن الدنيا ؛ تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ خوفاً أن يتبعهم الناسُ في ظاهر الفعل ، ولا يتخلَّصون من تبعات ذلك ، فثَمَّ مقامٌ رفيع ، ومقامٌ أرفعُ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حمايتُهُ من مساعدة الظلمة له في حجاته الثلاثةِ]

ومما منَّ الله به عليَّ : حمايتي من مساعدة الظلمة لي في حجَّاتي الثلاثة مع شدة اعتقادهم فيَّ ، وطاعتِهم لي ، وقَلَّ عالمٌ أو صالح يسلم من مساعدتهم له إذا كانوا يعتقدونه ، بل بعضُهم ربما يُعرِّض لهم بالمساعدة

(١) ورد في التقلل من الدنيا أحاديث كثيرة ؛ منها : ما رواه الترمذي (١٧٨٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتِ اللحوق بي فليكفِكِ من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقي ثوباً حتىٰ تُرقعيه » ، ومنها : ما رواه البخاري (٦٤١٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي ، فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ، ومنها : ما رواه البخاري أيضاً (٤٠١٥) : عن سيدنا عمرو بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الفقرَ أخشىٰ عليكم ، ولـٰكني أخشىٰ أن تُبسط عليكم الدنيا كما بسطت علىٰ من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلكَكم كما أهلكتهم » .

بلسانه أو بلسان نقيبه الذي يأخذ من الحافي نعلَهُ ، وبعضُهم أخذ من عيسىٰ شيخِ البحيرة ثلاثةَ أجمال ليردها له إذا رجع سالماً ، فباعها في الرميلة ، وادعىٰ موتَها ، وبعضُهم أخذ زادَهُ كلَّهُ من المكاسين ، وبعضُهم اشترىٰ من معلوم وظائفَهُ الذي لم يسدَّ فيها لا بنفسه ولا بوكيله الزادَ وأوعيتَهُ .

وكان زادي وجِمالي ومؤنةُ الذهاب والإياب من زراعاتي للبِطيخ والنِّيلة ، وغيرِ ذلك[1] ، ليس فيه بحمد الله درهمٌ من أحد ممن في ماله شبهةٌ ، وهـٰذا من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ ، وكان معي من العيال في الطريق نحوُ ثلاثين نفساً ، وقَلَّ من يسافر بمثل هـٰذه الأنفس إلا ويكون في زاده شبهةٌ ؛ لأن الحلال لقلته لا يكاد يجد منه الشخصُ ما يكفي مثلَ هـٰؤلاء ، فينبغي للفقير الذي جعله الله تعالىٰ قدوةً أن يفتش في زاده ومؤنةِ سفره ، ولا ينفق في ذلك إلا ما كان حلالاً ، وإن لم يجد شيئاً من الحلال يكفيه لما ذكر . . فليجهد أن يكونَ زادُهُ حلالاً من حينِ يحرم بالحج إلىٰ أن يَحِلَّ ؛ فإنها هي مدةُ الحج ، وما زاد علىٰ ذلك فمن التوابع والوسائل ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حمايتُه من الأكل من ضحايا الولاة التي يرسلونها إلى الزاوية]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حمايتي من الأكل من الضحايا التي تأتي الزاوية من الكشاف ومشايخ العرب ونحوِهم من المباشرين والتجار الذين يبيعون على الظلمة ، وإن ضحيتُ بها أحسبها عن أصحابها لا عني ؛ لأن أصلَ

(١) النِّيلةُ : العِظْلم ؛ وهو نبات يستخرج منه صبغ أزرق . « المعجم الوسيط » (ع ظ ل) .

مشروعية التضحية إنما هي لإماطة البلاء عن أهل المنزل[1] ، وذلك خاصٌّ بالحلال ، وأما ما فيه شبهةٌ فإنه يزيد العبدَ بلاءً علىٰ بلائه من جهة تبعات الناس التي فيها ، فالمؤمنُ من يتورع عن قبول مثلِ ذلك ، وقد شاهدنا مشايخَ العرب يجمعون ضحاياهم من البلاد بغير طيبة نفس أربابِها ، فلا يقال : الأصل الحِلُّ ، إلا إذا لم يكن هناك سببٌ يحال عليه ، كما هو مقرر في قواعد الفقه

واعلم يا أخي : أن مثلَ من يضحي بما فيه تبعةٌ مثلُ من يدَّخر لحم أضحيته ولا يطعم منه أحداً ؛ فإنها لا تدفع عنه شيئاً من البلاء ، وكأن من يدخر يقول لا أحدَ يتحمل عني بلاءً ، وأنا أحمل بلاءَ نفسي ، وإنما ساغ للواحد منا أن يعطيَ لغيره ما فيه بلاءٌ ؛ لأن صاحبَ الضحية كالمستغيث بإخوانه في دفع تلك البليةِ التي نزلت به ، فيتوزعونها عنه حتىٰ لا يكادَ أحدٌ يحسُّ بالجزء الذي أصابه من البلاء ، فالحمد لله علىٰ ذلك .

وقد أغفل هٰذا الذي قررناه غالبُ الناس ، لا سيما من لا كسبَ له شرعيّاً من العلماء والفقراء ، فيضحون عن أنفسهم وعن عيالهم بما يرسله لهم مَنْ لا يتورع عن الحرام والبلص[2] ، فلا يتنبه أحدُهم لمثل ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) كما أن العقيقة تميط الأذىٰ عن المولود .

(٢) البلاص : مُختلِسٌ ، مُبتزٌّ ، مغتصب للأموال . « تكملة المعاجم العربية » (١/ ٤٢٨)

[عدمُ تكدُّره ممن ذهب هو إليه ولم يفتح له الباب
ودليلُ أهل الله في عدم التكدر]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ تكدُّري ممن ذهبت إلىٰ زيارته ـ من الأمراء وأتباعهم والعلماء والصالحين وأتباعهم ـ ولم يأذنوا لي في الدخول ، أو سمعت أحدَهم يقول عني : بئس مَنْ ذكرتَ ، قولوا له الوقتُ ما هو فارغ لمثلك ، وكذلك لا أتكدر إذا رأيتُهُ أغلق بابه لمَّا رآني ، وهو خلق غريبٌ في غالب أهل هـٰذا الزمان ، لا يسلم منه إلا من راضَ نفسَهُ حتىٰ ذهبت رعونتُها ، ودليلُ أهل الله تعالىٰ في عدم التكدُّر ممن لم يَفتح لهم الباب . . قولُه تعالىٰ ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] ، وشيءٌ شهد الله تعالىٰ أنه أزكىٰ لنا . . كيف ينبغي لعاقل أن يتكدر من حصوله له ؟!

فعُلِمَ : أن كل من لم يَرُضْ نفسَهُ حتىٰ تذهبَ رعونتُها . . فمن لازمه التشويشُ ـ ممن لم يفتح له البابَ ، أو قال له ارجع ـ غالباً ، بل بعضُهم يُخرِج شاعراً يهجو من منعه الدخولَ ، ويصير غالبُ الجهلة يقول له : ما كان ينبغي أن يُرَدَّ مثلُكم ، فيزدادُ حمقاً وغيظاً ، وكلاهما جاهلٌ بالآداب الشرعية ، ولعمري ؛ كان تركُ زيارة مثل هـٰذا أولىٰ ، بل أوجبَ ؛ لأنها لغير الله

وما رأت عيني أحسنَ زيارةً لأخيه في عصرنا هـٰذا من الشيخ شمسِ الدين الخطيب الشربيني ، والشيخ صالحِ المسلمي صاحبِهِ ، والشيخ محمد بن الحنفي الشاذلي ، والشيخ صالح شيخِ تربة قايتباي ، والشيخِ نور الدين

الطندتائي ، والشيخ زينِ العابدين بن الشيخ عبيد البلقيني ، رضي الله عنهم ، فما جاء أحدٌ منهم قط ووجد البابَ مغلقاً ، أو ناداني فلم أجبه ، أو ردَّهُ النقيبُ . فتشوَّش أبداً ، رضي الله عنهم أجمعين ، وأما غيرُهم فربما جاءني يزورني وشرُّهُ علىٰ مقدمه ؛ إن رددته مزَّقني في الآفاق ، وإن فتحت له أشبعني من الهذيانات ، وإن أدخلتُهُ بيتي وأخرجت له شيئاً يسيراً من الأكل . . غضب وقال أنا علىٰ نية ، فما يخرج من عندي حتىٰ يصيرُ بدني من الخضِّ من كلامه كأني شربت رطلاً من السم ، ومثلُ هـٰذا بئس الصاحبُ

وكثيراً ما يقع للفقير واردٌ ثقيل ، فيمنعه عن القدرة علىٰ مقابلة الناس مطلقاً ، ولا يقدر يحكي قصَّتَهُ لكل أحد ، فالعاقلُ من حمل الفقيرَ على المحامل الحسنة ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ قطعه الإحسان عمن كفر بواسطته وتربيته]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ قطع بِرِّي وحسنتي التي جعلها الله تعالىٰ علىٰ يدي . . عمن كفر بواسطتي وصار يَحُطُّ عليَّ في المجالس ؛ لأن المعاملةَ حقيقةً إنما هي مع الله تعالىٰ ، واللهُ تعالىٰ يحب من عباده المأكولَ المذمومَ ، الذي لا يصدُّهُ الذمُّ عن الإحسان ، ومن تأمل من عبيدِ الثوابَ وجد الثوابَ الحاصل ممن يذمه أكثرَ ممن يمدحه ؛ لأن من يأخذ بِرَّهُ ويذمه لا ينقص شيئاً من ثوابه ، بل يزيده ، بخلاف من يمدحه ، وربما بالغ في المدح حتىٰ لم يبقِ لمن أحسن إليه حسنةً

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ يقول : (إن أردت الأجرَ الكامل فأحسن إلىٰ

من يسيء إليك كلما أحسنت إليه)

وسمعتُهُ مرةً يقول : (لا ينبغي لأحد من الخلق أن يعاقبَ من أساء إليه وكفر نعمتَهُ . . بقطع رزقه الذي جعله الله على يديه ؛ لأن التعذيبَ بقطع الرزق من خصائص الحق جل وعلا)

لٰكن لا يخفىٰ : أن الإثم الحاصلَ لمن قطع بِرَّهُ عن الناس . . إنما هو من حيث قصدُهُ فقط ، وإلا فما قسمه الله تعالىٰ للعبد لا يمكن لمخلوق قطعُهُ ، وليتأمل من يعاقب ولدَهُ أو صاحبه بقطع رزقه إذا خالفه وخرج عن طاعته . . كيف هو يخالف الله عز وجل ليلاً ونهاراً ، ورزقُهُ تعالىٰ فائضٌ عليه لا يقطعه عنه يوماً واحداً ؟! فيجب علينا أن نعامل عبيدَ الله تعالىٰ كما يعاملنا الله تعالىٰ من حيث الحلم والمسامحة[1] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[عدمُ شَحَّة نفسه على القطة ، وعدمُ إرعابها إذا خطفت الدجاجة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ شَحَّةِ نفسي على القطيطة بورك الدجاجة ، وعدمُ جريي وراءَها إذا خطفت الدجاجة المحمرة من بين يدي ؛ خوفاً من أن

---

(١) قال تعالىٰ في الإحسان إلىٰ من أحسن إليك : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وروىٰ مسلم (١٧/ ٢٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج أشج عبد القيس : « إن فيك خصلتين يحبُّهما الله : الحلمُ والأناةُ » .

وروىٰ أبو داود (٤٧٧٧) عن سيدنا معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كظم غيظاً وهو قادرٌ علىٰ أن يُنفِذه . . دعاه الله عز وجل علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة حتىٰ يُخيِّره الله من الحور العين ما شاء »

أرعبها ، فتأكلَ الدجاجة وهي خائفةٌ مني ، علىٰ أنها ما خطفت دجاجتَنا إلا بعد أن عرفت شدَّةَ بخلنا وكثرةَ مرمشتنا العظامَ حتىٰ لا يصيرَ عليها جلدة ولا لحمةٌ[1] ، فما خطفت حتىٰ أيست من حسنتنا ، مع أنها ما أقامت عندنا إلا لظنها فينا الكرمَ والخير ، وأننا نرمي لها شيئاً مما نأكله إذا وقفت بين أيدينا

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يوصي عيالَهُ على القطة ، وألا يغفلوا عنها بالأكل والشرب ، لا سيما في أيام رمضان ، ويقول (إن الناس لا يأكلون نهاراً ، فتضيعُ مصالحُ القطة)

ورأيته رضي الله عنه مرةً يجعل علىٰ باب جُحر النمل شيئاً من الدقيق أو فتات الخبز ، ويقول : (يغني النملةَ عن الخروج لأجل القوت ؛ لأنها لا تخرج حتىٰ تُوطِّنَ نفسَها علىٰ دوس الأقدام أو النعال لها ، فإما تموت ، وإما تكسر يدُها أو رجلها)

وبلغنا أن الإمام الغزالي رئي بعد موته ، فقيل له : ما وجدتَ في قبرك ؟ فقال غفر لي بصبري علىٰ ذبابة نزلت علىٰ رأس القلم وأنا أكتب . . حتىٰ شبعت من الحبر ، ثم كتبت بعد ذلك . انتهىٰ

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ يقول : (إذا كان عندكم شيءٌ من العسل أو السكر . . فصبُّوا منه شيئاً على الأرض على اسم النملِ ، ولا تجعلوا له على

(١) المرشُ في الأصل الخدش والحك بأطراف الأصابع ، والامتراش : الانتزاع ، وفي « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٦٦) : (وبعد أن رأت الواحد منا يُجرِّد اللحم عن العظام حتىٰ لا يبقي عليها جلدة ولا عصباً) .

الإناء قطراناً ونحوَهُ ، وتعسِّروا عليه الوصولَ إلىٰ رزقه ، فربما قيَّض الله تعالىٰ لكم بحكم العدل مَنْ يجعل لكم الموانعَ في طريق رزقكم الذي توهمتم أنه لكم)

واعلمْ يا أخي : أن أولى الناس بالعمل بهـٰذا الخلق حملةُ القرآن والعلم ؛ لأن الناسَ يقتدون بهم ، ولا ينبغي لفقيه تركُ الإحسان إلى الخَلْق إلا بعذر شرعي .

وقد حكىٰ لي شخصٌ : أن له جاراً من التجار كلما رأىٰ قطةً طردها عن سِماطه[١] ، فجاءته في المنام وقالت : مثلُك يرد القطةَ وقد خوَّلك الله في النعمة ، وأوسع عليك ؟! فقال : أضغاث أحلام ، وطردها في ثاني يوم[٢]

وحكىٰ لي بعضُ الفقراء أن له جاراً لم يزل يطبخ ألوانَ الطعام ، قال فربما يدخل له أولادي الصغارُ ، فيصير أحدُهم واقفاً وهو يأكل مثلَ قط الفقيه ، فلا يعطي أحدَهم لقمةً ، وكنت لم أسمع بهـٰذا المثلِ قبل ذلك ، فاستنبطت منه أنه لولا تكرُّرُ مثلِ ذلك من الفقيه . . ما صح ضرب المثل به ، فإياك يا أخي من مثل ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) السِّماط : ما يمدُّ ليوضع عليه الطعام

(٢) هـٰكذا جاءت القصة هنا في النسخ ، وجاءت في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٦٧) هـٰكذا : (وقد حكىٰ لي الحاج محمد الحلبي قال : كنت أطرد القطة كلما وقفت عليَّ وأنا آكل ، فجاءتني في المنام وقالت : مثلُك يطرد القطة ويبخل بأكلها وقد خوَّلك الله تعالىٰ في النعمة ووسَّع عليك ؟! فقلت : أضغاث أحلام ، وطردتها ، فجاءتني في المنام وقالت لي مثل الأول ، فقلت : أضغاث أحلام ، وطردتها ثاني مرة ، فجاءتني في الثالثة ، فصرت أطعمها من كل شيء أكلت منه)

[حضورُ قلبه حال أكله وشربه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حضورُ قلبي حال أكلي وشربي ، وشهودي أن الذي قدَّمه إليَّ هو الله عز وجل حقيقةً ؛ لأنه من فضله

ثم إن وقع أنني أكلت أو شربت غافلاً عن هـٰذا المشهدِ . . استغفرت الله عز وجل حتىٰ أظنَّ أن الله تعالىٰ قبل استغفاري ، وإنما استغفرت ؛ لأن الحضور غيرُ ممكن التدارك ، بخلاف التسمية لله عز وجل ، وإيضاحُ ذلك : أن الحق تعالىٰ ما أسبغ علينا النعم إلا لنعكفَ على الحضور معه ، ولا نخرج من حضرته إلا لعذر شرعي

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول (الطعامُ كالصلاة ، فكما أن الصلاةَ ما شرعت إلا ليحضرَ العبد فيها بقلبه مع ربه . . فكذلك الأكل والشرب) انتهىٰ

واعلم يا أخي : أنه ما واظب أحدٌ على الحضور مع الله في حال أكله وشربه . . إلا أورثه الله تعالى القناعةَ وعدمَ شره النفس ، وأورثه الزهدَ في الدنيا بأسرها ؛ لأن من شاهد ذلك الجمالَ البديع بقلبه . . صغُرت عنده الأكوانُ كلُّها

فاعمل يا أخي علىٰ ذلك ولو متفعِّلاً في الحضور مع الله تعالىٰ حالَ أكلك كما تتفعل في حضورك معه حال صلاتك ، حتىٰ يصيرَ إن شاء الله تعالىٰ ذلك من خلقك بغير تكلف ، وما رأيتُ ألذَّ من الأكل حالَ الحضورِ مع الله تعالىٰ ، وشهودِ الأكل أن ذلك من فضله تعالىٰ ، بخلاف من يأكل غافلاً كالبهائم ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تعفُّفُه عن مال الولاة ، ومحبَّتُه في عدم وصولها إليه]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : محبتي لمن سعىٰ في عدم وصولي إلىٰ شيء من مال الولاة وأضرابِهم ، وزيادةُ محبته علىٰ مَنْ سعىٰ في وصولي إلىٰ ذلك ، وهـٰذا من أعظم أخلاق الفقراء ، وربما يدعيه أحدُهم ولم يصل إليه ، فليمتحن الناصح لنفسه حالَهُ بما لو كتبوا اسمَهُ في قائمة ، وجعلوا له مئة دينار مع أكابر العلماء ، فجاء شخصٌ وقال لهم : امسحوا اسمَ فلان ؛ فإن هـٰذا ليس من العلماء فضلاً عن أكابرهم ، وهو منافق مراءٍ ، فامتثلوا أمرَهُ ومسحوا اسمَهُ ، فإن رأىٰ نفسَهُ زادت في محبته فهي صادقة في دعواها هـٰذا الخلقَ ، وإن نقصت محبتُها له فهي كاذبة في الصدق بقدر ما كرهته .

وكان هـٰذا من خلق أخي الشيخ أفضلِ الدين رحمه الله ؛ إذا بلغه أن أحداً أوصىٰ له بمال ، أو عازمٌ علىٰ إرسال هدية إليه . . أنه يتوجه إلى الله تعالىٰ في صرف قلبِ صاحب ذلك المالِ عنه إلىٰ غيره ، فيفعل صاحب المال ذلك من غير أن يُعلِمه به أحدٌ ، وهـٰذا دليل علىٰ صدق توجهه في دفع الدنيا عنه ؛ فإن غالبَ الناس لا يقدر علىٰ قلبه أن يتوجَّه في صرف الدنيا عنه أبداً ، ولهـٰذا الخلق حلاوةٌ يجدها فاعلُهُ أعظمُ من حلاوة من وجد عند قيامه من النوم كيساً موضوعاً عند رأسه فيه ثلاثون ألف دينار كما جربنا ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[شهودُهُ أن جميع ما يُنزله الله عليه من البلايا . . إنما هو محبة له]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : شهودي أن جميع ما يُنزِله الله تعالىٰ عليَّ من البلايا والمحن . . ليس بغضاً فيَّ ، وإنما هو محبةٌ لي ، ما عدا المعاصيَ ؛

فإنه تعالىٰ إما يرفع بها درجاتي ، وإما يُكفِّرُ بها عني من سيئاتي ، وإما أن تكون عقوبةً لي علىٰ ذنب فعلته استوجبتُ به النارَ لولا حلمُهُ تعالىٰ ، ومن شهد هـٰذا المشهد رأىٰ سَداه ولُحمتَهُ نعماً من الله عز وجل ، ويرىٰ جميع ما يؤلمه به تأديباً له ؛ حتىٰ لا يقعَ في ذنب هو أشدُّ مما وقع فيه .

وتأمَّل يا أخي الوالدَ إذا رأىٰ ولده الصغيرَ الذي لا يهتدي لمنع نفسه من الوقوع في بئر أو بحر مغرق . . كيف يضربه ويملخ آذانَهُ[1] ؛ محبةً فيه ، لا بغضاً له ، وكذلك الأمُّ تشكُّ ولدها بالإبرة لتخوفه من فعل يقع فيه يؤذيه أشدَّ من أذى الإبرة ، هـٰذا مع زيادة حنوها وشفقتها عليه !

ومن هنا قال مَنْ ذاق هـٰذا المقامَ جميعُ ما يفعله الله تعالىٰ بعبده المؤمنِ خيرٌ ، وأما من لم يذق ذلك فيقول ذلك بلسانه فقط ؛ ولذلك لا يشكرِ اللهَ تعالىٰ على المصائب بقلبه أبداً ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تنبيهُهُ في المنام واليقظة علىٰ ما أكله من الحرام أو الشبهة ، وفيه ذكر علاماتها]

ومما منَّ الله به عليَّ تنبيهي في المنام واليقظة علىٰ ما أكلتُهُ من الحرام أو الشبهة . . بعلامات جربنا وجودَها عندنا في أكل الحرام دون الحلال ، وهي ثلاثُ علامات :

أولها : أن يكون للشرع علىٰ ذلك الطعام اعتراضٌ .

ثانيها : أني أجد في قلبي عند أكله ظُلمةً وثِقلاً في الطبيعة ، حتىٰ أحسُّ أنني أكلت قطعةً من الجبل .

---

(١) المَلْخ : جذبُ الشيء قبضاً وعضّاً .

ثالثها : أني أقوم من النوم ، فأمكث ساعةً وأنا مخبط العقل ؛ كما يقع لمن يأكل الرِّبا

فإن أخطأتني علامةٌ لم تُخطئني الأخرىٰ ، وكثيراً ما أتقيأ الطعامَ إذا علمت بحاله قبل أن يستحيل ، وهٰذه العلاماتُ قَلَّ من يتنبه لها من الفقراء ، بل رأيت بعضَهم أكل من مال مَكَّاس[1] ، فأنكر عليه إنسانٌ ، فقال : البحرُ لا تكدره الدلاء ، وهٰذا من جملة الاستدراج ، ولو سومح أحدٌ بذلك لسومح به السلف الصالحُ الذين لا يجيء الواحدُ منا تلميذاً لهم

وسمعت بعضَهم يقول أيضاً أنا بحمد الله قد وصلت إلىٰ مقام كالبحر المحيط ، فكما لا يؤثِّر فيه بولُ آدمي . . كذلك لا يؤثر فيَّ الأكلُ من الحرام ، فحكيت ذلك لسيدي عليٍّ الخواص رحمه الله ، فقال : كذب وافترىٰ على الشريعة المطهرة ، وزاد في التهوُّر في الدِّين

وقد سمعت سيدي إبراهيمَ المتبولي رضي الله عنه يقول : (**للقمة الحرام والشبهة أثرٌ عظيم في قلوب الخلق وإن تفاوتت مراتبُهم** :

فأثرُها في العوامِّ : وقوعُهم في أعمال مذمومة لم تكن لهم عادةٌ بفعلها

وأثرُها في طلبة العلم والمريدين من أهل الطريق : قسوةٌ في القلب ، وثِقَلٌ في الطبيعة

---

(١) المَكَّاس : العشَّار ، والمكس : إتاوة تُفرض على البضائع كافة وتجبىٰ عند دخولها إلى السوق من الجمرك من المسؤول عن بيت المال أو من نائبه ، عيناً أو نقداً . « تكملة المعاجم العربية » (١٠/ ٩٤) .

وأثرُها في المتوسطين في الطريق : غفلتُهم عما يعود عليهم نفعُهُ من مصالح الدارين

وأثرُها في الكاملين : كثرةُ الخواطر التي لا منفعةَ لهم فيها

وأثرُها فيما فوق ذلك : منعُ الدخول إلىٰ حضرة الله تعالىٰ في الصلاة .

وأثرُها في القطب والأبدال والأوتاد : أمورٌ لا يعلمها إلا أصحابُها) انتهىٰ .

وقد سمعت قائلاً يقول لي مرةً في جوف الليل يا فلان ؛ إذا قُدِّم لك طعام وشككت في حِلِّهِ فقل بتوجُّهٍ تامٍّ : اللهمَّ ؛ احمني من الأكل من هـٰذا الطعامِ ، فإن لم تحمني منه فلا تدعْهُ يقيم في بطني ، وإن جعلتَهُ يقيم في بطني فاحمني من الوقوع في المعاصي التي تنشأ منه عادةً ، فإن لم تحمني من المعاصي فاقبل استغفاري ، وأَرْضِ عني أصحابَ التبعات[1] ، فإن لم ترضهم عني فصبِّرني على العذاب يا أرحم الراحمين ، فلم أزل أدعو بذلك عند كل طعام شككت في حِلِّهِ إلىٰ وقتي هـٰذا ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[إطعامُهُ للضيف الحلالَ ، ومنعُهُ مما فيه شبهة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ إطعامي الضيف شيئاً فيه شبهةٌ ، ولو طلب هو ذلك منعته منه ، كما يُمنَع الطفل من أكل شيء يضرُّهُ في الدنيا أو الآخرة ؛ تمريناً له علىٰ ذلك قبل البلوغ وحصولِ الرشد ، وهـٰذا خلق غريب قَلَّ من يعمل به في هـٰذا الزمان ، فيطعمون الضيفَ الحرام والشبهاتِ ،

---

(١) التَّبِعات : ما فيه إثم يُتبَع به

وذلك خلاف الشرع ؛ إذ الشارعُ إنما أمر بالضيافة مَنْ كان عنده طعام من حلال ، وأما ما كان فيه شبهة فلم يأمر بالضيافة منه لأحد

وقد كان أخي أفضلُ الدين إذا أكل من طعام أحد . . يقول (اللهمَّ ؛ إن كان حلالاً فوسع علىٰ صاحبه ، وإن كان حراماً أو فيه شبهةٌ فاغفر لي وله ، وأَرْضِ عنا أصحابَ التبعات في الآخرة)

وكان سيدي عليٌّ الخواص يضيف الواردَ عليه باللقمة أو التمرة أو بشربة الماء ، ويقول : (يا أخي ؛ هـٰذا الذي وجدتُهُ لك من الحلال)

وكان رضي الله عنه إذا علم من الضيف أنه كثيرُ الأكل يُقدِّم إليه الشيءَ اليسيرَ ؛ شفقةً عليه ، كما يُفعَل مع الأطفال إذا خاف والدُهم عليهم من كثرة الأكل

وكان أخي أفضلُ الدين لا يخرج للضيف إلا شيئاً يسيراً ، لا سيما إذا كان ذلك في ليالي رمضان ؛ فإن سرَّ الصوم إنما هو الجوعُ زيادةً على الجوع أيام الفطر ، وهـٰذا خلق لا يقدر على العمل به إلا مَنْ خرج عن الحياء النفساني ، ولم يَخَفْ في الله لومةَ لائم ، وكان أشفقَ على الضيف من نفسه .

فعُلِمَ : أن كل من قدَّم لضيفه طعاماً فيه شبهةٌ ، أو كثيراً فوق العادة ، أو قدَّم للصائم قَدْرَ ما كان يأكله في حال الإفطار . . فقد أساء في حقه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، فأشفِقْ يا أخي علىٰ دين ضيفك ، ولا تخف من لومه لك في الدنيا ، فإنه سوف يشكرك في الآخرة ، فلا تتعلَّلْ بالحياء النفساني ، فإنه لا أجرَ فيه ، وما جعل الشارعُ الحياءَ من الإيمان إلا في

الأمور الشرعية ؛ وهو ألا تتركَ مأموراً ، ولا تفعل منهياً ، فهٰذا هو الذي ينبغي للعبد أن يستحيي من فعل ضده ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[عدم تكلفه للضيف]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ تكلُّفي للضيف ؛ ولذلك لم يحصل عندي سآمةٌ منه أبداً ، ولو ورد عليَّ كلَّ يوم ألفُ نَفْسٍ .

ومعلومٌ أن كل من تكلَّف للناس هرب من ضيافته لهم ولو علىٰ طول الزمان ، أو يصيرُ يطعمهم ما يضرُّهم في باطنهم من غير طيبة نفسٍ ، وهٰذا هو الأمر الذي نُهي عن الأكل من طعام البخيل لأجله ، وقد ورد في الحديث : « طعامُ البخيلِ داءٌ »[1]

وقد خالف قومٌ وتكلفوا للضيوف ، وكان آخر أمرهم الإفلاسَ وضيقَ العيش ؛ لكونهم أطعموا الناس رياءً وسمعة ، ولو أنهم أطعموا الناسَ لله تعالىٰ بطريقه الشرعي . . ما أفلسوا ، بل كان الله تعالىٰ يُخلِف عليهم أضعافَ ما بذلوه ، ثم أكثرُ من يقع في مثل ذلك أولادُ الفقراء وأولادُ العلماء ، فيريدون من الخَلْق أن يعكفوا عليهم كما كان والدُهم ، فيُورِدون أنفسَهم موارد الهلاك ؛ لكونهم لم يبلغوا مبلغَ الرجال مثلَ والدهم ؛ فتراهم يطعمون الناسَ كلَّ ما وجدوا ، وما لم يجدوا يأخذونه بالدَّين ، وليس معهم ما يوفيه ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٦٣)

[كتمانُهُ ما يصنعه من الولائم ؛ خوفاً من تكلف أصحابه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ إعلامي الأصحابَ بما نويت أن أصنعَهُ من وليمة عرس أو خِتان ؛ خوفاً من أن يتكلفوا ويساعدوني فيه بغير نية صالحة ، وإن غلبَ علىٰ من حولي ممن لا يتورَّعُ عن مثل ذلك من النقباء الذين يأخذون من الحافي نعلَهُ . . أظهرت لهم الغضبَ إن أعلموا أحداً من الأمراء أو المباشرين أو التجار ، وهٰذا خلق قَلَّ من يتنبه له من الفقراء ، بل غالبُهم يجرد أهل مصر وقراها على اسم ذلك المولد ؛ من حلال أو حرام ، وهو في غاية القبح ، لا سيما إن كان ممن يقتدىٰ به ؛ **فإن من شهامة مقام العارف** : أن يكون يُطعِم الناسَ ولا يطعمونه .

وأعرف جماعةً من أصحابي يهربون دائماً إذا بلغهم أنني عازم علىٰ عمل مولد أو عقيقة ونحوِ ذلك ، فلا يظهرون إلا بعد تفرقة الطعام ، فجزاهم الله عني خيراً ؛ فإنهم أحسنُ حالاً ممن يحضر خوفَ العتب ؛ من النقباء وغيرهم ، ويصير ينقط المدَّاحين بالقشاقيش النحاس ؛ رياءً وسمعة ، وربما لحقني الإثمُ في ذلك معه ؛ لأنه ما وقع في مثلِ ذلك إلا مراعاةً لخاطري علىٰ وهمه .

وسمع سيدي عليٌّ الخواصُ فقيراً لا كسبَ له عمِل مولداً . . يقول : كان الطعام كثيراً ، وقد أكل الناس منه ثلاثة أيام ، فقال الشيخ بئس ما صنعتَ ، فإن الفقيرَ لا ينبغي له أن يطعم الناس إلا من كسبه الحلالِ ، وقال له : كنتُ أظنُّ أنك رجلٌ دَيِّنٌ ، ثم هجره علىٰ ذلك مدةً حتىٰ تاب واستغفر

وكان رضي الله عنه لا يأكل لأحد من تلامذته طعاماً ، ويقول : (إني مرصدٌ لتربيتهم وتسليكهم ، وأكلي من طعامهم يُذهب حرمتي من قلوبهم ، فيَعدَمون النفعَ بي) انتهىٰ .

ووالله ؛ إنه يقع لي أنني أردُّ علىٰ أصحابي الدينارَ والدرهم وأنا في غاية الحاجة إليه ؛ خوفاً علىٰ أحدهم من أن أهونَ في عينه فلا ينتفعَ بي ؛ لأن من أكل من طعام أصحابه صار معدوداً من عائلتهم ، والعائلةُ لا يؤثر كلامُها فيمن يعولها ، اللهم إلا أن يكون المريدُ يرىٰ أن جميعَ ما عنده من فضل شيخه ، فلا حرجَ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حمايته من التداوي بإشارة كافر ؛ لعدم الثقة بقوله شرعاً]

ومما منَّ الله به عليَّ حمايتي من التداوي بإشارة يهودي ؛ لعدم الثقة بقوله شرعاً ، وقَلَّ من يسلم من ذلك في هـٰذا الزمان ، وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : في ضمن التداوي بإشارة كافر نكتةٌ تخفىٰ علىٰ كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ؛ وهي أنه إذا وافق حصولُ الشفاء عقب انتهاء المرض بإشارة يهودي مثلاً . . يصير القلبُ يميل إليه بالودِّ ، وقد أمر الله تعالىٰ بمعاداته وعدمِ الميل إليه ، فيريد الإنسان أن يعاديَهُ كما أمر الله تعالىٰ فلا يخلُص له ذلك ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة : ١] .

قال شيخنا[1] : وإنما قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، ولم يكتف

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/٥٧٩) : (قال الشيخ محيي الدين بن العربي) بدل (قال شيخنا) .

تعالىٰ بذكر عداوته تعالىٰ وحده ؛ لعلمه تعالىٰ بأن في عباده مَنْ لا ينزجر عن مودة الكافر بكونه عدوّاً لله ؛ فلذلك صرح تعالىٰ بقوله : ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ حتىٰ لا يبقيَ لنا عذراً في مودتنا للكفار ، فافهم ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[تحملُهُ المرضَ عن المريض إذا عاده]

ومما منَّ الله به عليَّ سماحة نفسي بالتحمل عن المريض إذا عدته ؛ فأتوجه إلى الله تعالىٰ إن لم يشفه أن ينقل ذلك المرضَ إليَّ إن كان يقبل النقلَ ، وهو مقام عزيزٌ فاعلُهُ

ثم إذا سألتُ الله تعالىٰ أن ينقل ذلك المرضَ إليَّ . . لا أرىٰ لي فضلاً علىٰ من تحمَّلتُ عنه ؛ لأني لم أحمل عنه المرض حقيقةً ، وكأني سألت الله تعالىٰ أن يُنزِلَ بي من المرضِ مثلَ ما أنزل بذلك المريض ، بشرط أن يصبرني علىٰ ذلك ويقدرني علىٰ تحمُّله ، فما حمل أحدٌ في الحقيقة مرضَ أحد ، وإنما المريضُ لما انتقل المرضُ عنه إلىٰ غيره بتوجه ذلك الصاحبِ . . ظن أنه حَمَلَهُ عنه

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ إذا دخل علىٰ مريض ، ورأىٰ أن ذلك المرضَ يرفع درجاتِ ذلك المريض . . دعا له بالرضا أو بالصبر ، ثم انصرف ، وإن رأىٰ أنه يزيد المريضَ سُخطاً على المرض . . دعا له بالتحويل .

وكان أخي أفضل الدين يقول : (لا ينبغي لفقير أن يعود مريضاً إلا إن أعطاه الله تعالى التخفيفَ عن ذلك المريض بحضوره عنده ، وإلا دعا له من غير حضور ، ولكل رجال مشهدٌ)

ويقع لي أنني ربما أعود المريضَ ، فأرجع كالذي له شهر مريضاً ، فتسرقني الرحمةُ عليه ، فلا أقدر علىٰ ردِّ ذلك عني ، فأمرض أياماً ثم أخلص ، فالحمد لله ربِّ العالمين ، وستأتي هـٰذه النعمةُ أيضاً بعد خمسَ عشرةَ نعمةً بأبسط مما هنا[1] ، والله أعلم .

[رضاه عن الله تعالىٰ إذا قسم له اليسير من الطاعات كالرضا باليسير من الرزق]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : رضايَ عنه تعالىٰ إذا قسم لي اليسيرَ من الطاعات كما أرضىٰ عنه إذا قسم لي اليسيرَ من الرزق علىٰ حدٍّ سواء ، وهو مقام لا يثبت فيه إلا من كان معتمداً على الله تعالىٰ ، لا علىٰ أعماله ؛ فإن كلَّ من كان معتمداً علىٰ أعماله يتكدَّر ضرورةً من نقص طاعاتِهِ ، وغاب عنه : أن ذلك الذي فاته لم يُقسَم له أصلاً ، وما لم يقسمه الحقُّ تعالىٰ لا ينبغي لعاقل أن يحزن عليه .

وكثيراً ما ينظر الإنسانُ شخصاً قسم الله تعالىٰ له الطاعاتِ الكثيرةَ ، فيتوهَّم أنه لو ألقىٰ باله وخرج عن الكسل . . لفعل مثلَهُ من الطاعات ، وهـٰذا من غلبة الوهم على العقل ؛ فإن ما سبق به العلمُ الإلـٰهي هو الواقعُ ، فلا يقدر عبدٌ يزيد فيه ولا ينقص ، وقد أعطى الله تعالىٰ كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هدىٰ

فعُلِمَ : أن من كان اعتمادُهُ على الله تعالىٰ . . فلا عليه من الطاعات إن قَلَّت أو كثرت ، ويكفيه من الطاعات تأديةُ الواجبات والسننِ المؤكَّدات ،

---

(١) انظر (ص٤٢٠)

اللهم إلَا أن يطلب الزيادةَ في الطاعات حبّاً في كثرة مجالسته للحق تعالىٰ فيها ، فهٰذا مطلوبٌ شرعاً لمن علم من نفسه القدرةَ علىٰ قيامه بالأدب مع الله تعالىٰ حال الحضور ، فافهم .

ثم لا يخفىٰ : أن الحزن علىٰ فوات الطاعات محمودٌ للمريدين دون العارفين ؛ لأن العارفينَ قد تحققوا بمقام الرضا عن الله تعالىٰ في كلِّ ما أجراه عليهم ، ولهم في كل شيء مشهدٌ يجمعهم عليه تعالىٰ ، بخلاف المريدين ، فلا يجتمعون على الحق إلا في بعض المقدَّرات دون بعض

وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم : أنه نام ليلةً عن وِرْده في بداية أمره ، فأصبح حزيناً ، فقيل له في الليلة بعدها يا إبراهيم ؛ كن عبداً لنا تسترحْ ؛ فإن أنمناك فنمْ ، وإن أقمناك فقمْ ، وليس لك في الوسط شيء ، قال إبراهيم : فصرت عبداً له ، فاسترحت . انتهىٰ

وكان أخي الشيخ أفضلُ الدين يصلي بالقرآن كلِّهِ في ركعة ، ويقول (والله ؛ إن النائمين أحسنُ حالاً مني ؛ لقلة أدبي مع الله تعالىٰ في صلاتي ، والنائمُ ليس عليه شيء) انتهىٰ .

وكثيراً ما يُقدِّر الحقُّ تعالىٰ علىٰ عبده المخصوص . . بترك الطاعات إذا علم منه قلةَ شكره عليها ، فيريه الهجرَ ؛ ليعرفَهُ مقدارَ الوصل إقبالاً وإدباراً ، ووالله ؛ إني لأقوم بعدما يَنفضُّ الموكبُ الإلـٰهي ، فأخرُّ لله ساجداً الذي أراني أهلَ حضرته وهم راجعون ؛ حتىٰ أتبركَ برؤيتهم .

وقد حكىٰ لي شيخنا الشيخ محمد الشِّنَّاوي رحمه الله أن شيخه سيدي محمدَ السَّرْويِّ عاقته القدرةُ عن حضور مولد سيدي أحمدَ البدوي حتى

انفضَّ المولد ، فركب حتىٰ نزل في طريق الراجعين ، وصار يمسح وجهَهُ بثيابهم ؛ لكونهم حضروا ذلك الجمعَ الذي هو كنقطة من البحر المحيطِ بالنظر لأهل الحضرة الإلـٰهية الجامعةِ لأرواح الأنبياء والأولياء والملائكة وصالحي المؤمنين ، من المتقدمين والمتأخرين ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[جعلُهُ ما سمعه من واعظ وخطيب علىٰ أنه خطاب له بالأصالة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ أخذي كلَّ كلام سمعته من واعظ أو خطيب . . في حقِّ نفسي بالأصالة علىٰ لسان الشارع صلى الله عليه وسلم ، ولا أجعل خطابَهُ لغيري كما يفعله غالب الناس من الفقهاء والفقراء ، فيحضرون الواعظَ أو الخطيبَ ، ثم يخرج أحدُهم فيقول قد أفلح الخطيبُ فلانٌ اليوم في الظلمة والمنافقين والمرائين ، فلا يأخذون من الخطيب كلمةً واحدةً في حقِّ نفوسهم ، وكأنهم لم يحضروا !

وكان من خلق أخي أفضلِ الدين أنه يأخذ كلَّ كلام سمعه من زجر وتنفير في حقِّ نفسِهِ ، وسمع مرةً تاجراً يقول لعبده تعصيني وأنا أطعمك وأسقيك ، فخرَّ مغشيّاً عليه

فعُلِمَ : أن الكاملَ لا يتعقَّل أن الواعظَ يخاطب غيرَهُ أبداً في جميع ما يعظ به ، فمثل هـٰذا هو الذي ينتفعُ بحضور الخطيب والواعظِ[1] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٨٥) (أن من كمال العقل أن يأخذ الإنسان كلامَ الخطيب أو الواعظ في حقِّ نفسه دون غيره ، وهـٰذا هو السرُّ في وجوب الإنصات للخطيب أو استحبابِهِ)

[فرحُهُ بكل شيخ برز في حارته وانقلبت إليه جماعتُهُ]

ومما منَّ الله به عليَّ : فرحي بكل شيخ أو واعظ برز في حارتي ، وصار يلتقط أصحابي واحداً واحداً حتىٰ لم يبقَ حولي منهم شخصٌ واحد ، وهـٰذا من أكمل أخلاق الرجال ، ولا يصحُّ ذلك إلا لمن فنيت رعوناتُ نفسه ، وفُطِم علىٰ يد شيخ صادق ، أو لمن حصلت له جَذَباتٌ إلـٰهية أوقفتْهُ في حضرة العبودية المحضةِ ، فشهد أن الحقَّ تعالىٰ هو الذي أبرز هـٰذا الشيخَ الذي أخذ أصحابَهُ كلَّهم وحوَّلَهم عنه حتىٰ صار لا يعتقده أحدٌ منهم .

ولا يخفىٰ : أن من الأدب أن يرضى العبدُ بما أقامه سيِّدُه فيه ؛ فإن قال له : قلِّبْ هـٰذا المسكَ . . قال : سمعاً وطاعة ، أو قلِّبْ هـٰذا الزِّبْل . . قال : سمعاً وطاعة ، أو اسكن . . قال : سمعاً وطاعة .

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول : من احتاط لنفسه لم يطلب أن يكون رأساً في شيء من الأمور الدنيويةِ ؛ لأن كلَّ راع مسؤولٌ عن رعيته[1] ، ولا تزول قدما عبد بين يدي الله عز وجل حتىٰ يسألَ عن حقوق جميعِ رعيته : هل وفَّاهم حقوقَهم بالنصح ، أم غشَّهم وغفل عنهم ؟ ومن فهم ما قلناه فرح بكل مَنْ أخذ أتباعَهُ منه ، وأحبه ، وحمل جميله ، وشكر

---

(١) روى البخاري (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته ؛ الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته »

فضله ؛ لكونه فرغه لعبادة ربه المحضة ، وتحمل عنه سؤال الحق تعالىٰ له في الآخرة في موقف يشيب فيه الوليد

ثم من تمام فرحه به تحسينُ اعتقاد الناس فيه ، وترغيبُهم في حضور مجلسه ، والدعاءُ له بالتسديد ، وإن حضر الشيخ القديم كذلك مع الناس . . حصل بذلك خير كثير

فعُلِمَ أن من كان بالضدِّ مما قلناه . . فهو ممقوتٌ مراءٍ ، ليس له في قدم الصدق نصيبٌ

وقد ذكر الإمام النوويُّ رحمه الله تعالىٰ في مقدمة « شرح المهذب » ما نصه (اعلمْ أن من أهمِّ ما يُؤمر به المُعلِّم : ألا يتأذىٰ من طالبه إذا تركه وقرأ علىٰ غيره ؛ فإن هـٰذه مصيبةٌ يُبتلىٰ بها جهلةُ المعلمين ؛ لغباوتهم وفسادِ نيتهم ، وهو من الدلائل الصريحةِ علىٰ عدم إرادتهم بالتعليم وجهَ الله تعالى الكريمِ) انتهىٰ[1]

وكان أخي أفضلُ الدين لا يتكدر قط من صاحبٍ فارقه وصحب غيرَهُ ويقول : (إن كانت صحبتي خيراً له فهو الذي تركها ، وإن كانت شرّاً له فقد استراح مني ، وإن كانت لا خيراً ولا شرّاً فالأمر سهلٌ) ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[محبتهُ لزيارة أقرانه دون زيارتهم له ؛ خوفاً من تكليفهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : محبتي لزيارة أقراني ، ولا أُكلِّفهم قط لزيارتي ، ولا لعيادتي إذا مرضت ، ولا صلاةَ الجمعة عندي ، ولا أُعلِمُهم بمرضي ، وإن وقع أن أحداً منهم زارني أو عادني . . فإنما ذلك تَفَضُّلٌ منه ابتداءً علىٰ

(١) المجموع (١/ ٦٤)

رغم أنفي ؛ لعجزي عن مكافأتهم على ذلك

ولو أني ذهبت إلىٰ أحدهم ألفَ مرة . . لا أرىٰ أني كافأته علىٰ مجيئه لي مرةً واحدة ، مع أني في بركتهم حيث كنتُ ، وقلبي مُؤتلِفٌ عليهم ولو لم يزوروني ولم يعودوني ، وما طلب الشارعُ منا الزيارةَ والعيادة إلا لائتلاف القلوب علىٰ بعضها ؛ ليتعاضد أصحابُها علىٰ نصرة الدين ، وهـٰذا المعنىٰ حاصلٌ عندي بحمد الله ، فلا ينفرُ خاطري ممن لم يعدني مثلاً

علىٰ أن غالبَ زيارة الأقران في هـٰذا الزمان . . إنما هي لعلل إما ليقابلهم من زاروه أو عادوه كما فعل ، وإما تعظيماً لهم بين الناس

وقد رأيتُ من عاد مريضاً ، فلما مرض هو لم يَعُدْهُ ، فعاداه وحلف ألا يعودَهُ ما دام في الدنيا ، ولو أنه كان عادَهُ لله تعالىٰ . . ما ندم علىٰ عيادته ، فافهم

[مطلبٌ
في أدب الفقير عند زيارته لإخوانه]

فعُلم : أن من أدب الفقير أن يزورَ إخوانَهُ بالنية الصالحة مع عدم طلبه المكافأة علىٰ ذلك ، كما أن من الأدب : ألا يُحوِجَ أحداً منهم لزيارته ولا لعيادته تعريضاً أو تصريحاً

ومن التعريض : قولُ المريض فلان قد أوحشتنا رؤيتُهُ ؛ ليبلغه السامعون ذلك ، فيتكلَّفُ ويأتي ضرورةً من غير نية صالحة ، مع أنه قد كان علم بمرضه ، ولم يجد عنده داعية[1]

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٩٩) : (وربما أن ذلك المتكلف للحضور كان علم بمرض ذلك الرجل ، ولم يجد في نفسه داعية لعيادته)

وكذلك من التعريض إرسالُهُ لفلان أن يقرأ له (الفاتحةَ) ، ونحو ذلك ، وربما كان أخوه مشتغلاً بعلم يعود على الأمة نفعُهُ ، فيقطعه عن الاشتغال به ، ويشتغلُ بالمفضول عن الأفضل

وتأمَّل يا أخي قولَ الإمام الشافعي رضي الله عنه (طلبُ العلم أفضلُ من صلاة النافلة)[1] ؛ فإنه جعل الاشتغال بالعلم أفضلَ من الوقوف بين يدي الله تعالىٰ والركوعِ والسجود بين يديه ، فضلاً عن عيادة عبد مَرِضَ من عبيده ؛ وذلك لأن غايةَ ما في النافلة مشاهدةُ الحقِّ جل وعلا ، ولم يُكلَّف العبدُ بها إلا إذا لم يأمره سيدُهُ بأمر فيه مفارقةُ حضرته ، فإن أمره بأمر ، فقال لا أفارق حضرتك . . فقد عصىٰ ربَّهُ ، واستحقَّ العقوبةَ ؛ لخروجه عن مرسوم سيده ، والعاقلُ يعرف بالقرينة أنه لو كان بين يدي سلطان ورأىٰ شخصاً من عبيد السلطان قد وقع في بئر ، أو كاد يغرقُ في نهر ، أو يقع في نار ، ففارق حضرة السلطان ليخلص ذلك العبد . . فليس عليه لومٌ ولا ذمٌّ ، وحكمُ من يشتغل بالعلم حكمُ من هو مشغول بتخليص العباد من الهلاك ، ولا هٰكذا مَنْ يزور أخاه ، أو يعودُهُ ، فافهم

ثم إذا زرتَ فزُرْ إخوانك تواضعاً لهم ومحبةً فيهم ولو سمعت الناسَ يقولون إن المَزور أفضلُ منك وأعلم ، بخلاف ما عليه أهلُ الرعونات ؛ فقد رأيت بعضَ طلبة العلم يعودون أسافلَ الناس من المكَّاسين والفسقة ويزورونهم ، ولا يفعلون ذلك في حقِّ أقرانهم من العلماء والصلحاء ؛

---

(١) رواه ابن أبي حاتم الرازي في « آداب الشافعي ومناقبه » (ص٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/١١٩)

خوفاً أن يراهم أحدٌ وهم يترددون إليهم

وقد كان شخص من المباشرين أصحابِ الرعونات يزور الشيخ نورَ الدين الشَّوْنيَّ المدفونَ عندي ، فرآه واحدٌ ممن يعتقدنا ، فقال حصل لكم الخيرُ بزيارة الشيخ عبد الوهاب ، فقال والله ؛ ما كنت أزور إلا الشيخ نورَ الدين الشَّوْنيَّ ، فقال له الشخص : ولو أنك زرتَ عبد الوهاب ما نقصت من أعيننا شيئاً ، ثم ضحكوا عليه وقالوا انظروا إلىٰ نفس هـٰذا الذي يزعم أنه عالم صالحٌ ، فالحذرَ الحذرَ يا أخي من أن تزور أخاك لحظِّ نفس ، والحمد لله ربِّ العالمين

[كراهتُهُ حضورَ المحافل التي لم يُشرع فيها الحضورُ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كراهتي للحضور في المحافل التي لم تُشرع إذا علمت بالقرائن أن هناك من يُعظِّمني فوق ما أعلمه في نفسي من الاستحقاق ، أو يحتقرني عادةً ؛ كأن يردَّ السلامَ على المكَّاس ببشاشة ، ويردَّهُ عليَّ بعبوسة ، ونحوِ ذلك

وهـٰذا الأمر قَلَّ أن يسلم منه أهلُ المحافل ، وأين صاحبُ الميزان الذي لا يجازف في تعظيمٍ ولا تحقير ؟! وغالبُ من يحضر المحافلَ أضدادٌ لبعضهم ، وغيرُ الغالب ينتظرون ما يقع من الغالب ، ثم يخرجون فيتحدثون ؛ فيقولون فلانٌ قاموا له ، وفلانٌ ما تحرك أحدٌ له ، وفلان أجلسوه في الصدر ، وفلان أخَّروه ، وفلان كان في الصدر فدخل المُحتسِبُ فأخَّروه ، وفلان كان جالساً فبمجرد ما دخل فلان نهض قائماً ، وحصل لفلان خجلٌ عظيم ، وهـٰكذا

[مطلبٌ

فيما يشترط لوجوب حضور وليمة العرس]

وقد شرط العلماءُ في وجوب حضور وليمة العرس ألا يكونَ هناك من يَتأذَّىٰ به أو لا يليق به مجالستُهُ ، فافهم

وإيضاحُ ما صدَّرنا به هـٰذه النعمةَ : أن من يبالغ في تعظيمنا يُدخل علينا الإعجابَ بنفوسنا ورؤيتَها علىٰ إخواننا ، فيغشنا ، ويُلبِّس علينا حالَنا ، ومن يحتقرنا يغلق علينا بابَ رؤية نِعمِ الله علينا ذلك الوقت ، حتىٰ نرىٰ نفوسَنا متجردين من النعم ؛ فأدخَلَ علينا الأذىٰ في ديننا مع وقوع مَنْ جازف في التعظيم والتحقير في الإثم ، ونحن السبب في ذلك بحضورنا ؛ فإنا مأخوذ علينا العهد : ألا نكون سبباً في نقص دينِ أحد من المسلمين ، هـٰذا في حضور المحافل التي لم تُشرع

أما المحافلُ المشروعةُ ؛ كصلاة الجمعة ، وصلاةِ العيد . . فنحضرها ؛ امتثالاً لأمر الشارع ، ونسأل الله تعالى الحفظَ لنا ولإخواننا ، علىٰ أن مواضع العبادات الغالبُ فيها عدمُ مراعاة الناس في التعظيم والتحقير ؛ لاشتغالهم بعبادة ربهم ، بخلاف ما كان بالضدِّ من ذلك

فعُلِمَ : أنه لا ينبغي لعاقل أن يَدخُلَ ـ لغير ضرورة ـ في مواضع الجمعيات العظيمة ؛ كصلاة العصر في مثل جامعِ الأزهر . . إلا إذا سَلِم ممن يبالغ في تعظيمه أو تحقيرِهِ ، أو لم يجد هناك من يُقبِّل يدَهُ ، ولا يتبعُهُ إذا خرج من الجامع ليشيعه

وقد وقع لي ذلك مرةً ، فمن ذلك اليوم ما دخلتُ الجامعَ في وقتِ مَحْفِل ، مع أني بالأشواق إلىٰ رؤية إخواني المقيمين فيه من العلماء ، والنكتةُ في تعظيمهم لي قلةُ ورودي عليهم ، مع أن في الجامع مَنْ لا أصلح أن أكون له تلميذاً ، ولـٰكنه لما كثُرت رؤيتُهم له هان في أعينهم

وقد وقع أن سيدي الشيخ أبا الحسن الشاذلي رحمه الله أقام بمدينة إسكندريةَ نحو سنة ، فلم يجتمع عليه إلا بعض أناس ، ثم إن الفيلَ والزرافةَ دخلا البلدَ ، فانقلب الناس إليهما ، فقال الشيخ : يا سبحان الله ! الإنسان أكمل من الفيل والزرافة ومع ذلك لم يحتفل أحدٌ به !

فيحتاجُ من يخالط الناس أن يكون له عدَّةُ أعين عينٌ ينظر بها إلىٰ نعم الله عليه بتعظيمه في قلوب عباده ، وعينٌ ينظر بها إلىٰ حقارة نفسه في نفسه ، وعينٌ ينظر بها إلى المواضع التي يحصل للناس بها نقصٌ في دينهم فلا يفعلها ، وعينٌ لا يرىٰ له قط مقاماً بين الخلق ، وعينٌ يرىٰ له المقامَ بينهم لما يترتب عليه من انقياد الخلق له في الخير ، وهـٰكذا ، والحمد لله ربِّ العالمين

[شهودُهُ أن جميع ما يقع علىٰ يديه من الكرامات . . لله تعالىٰ]

ومما منَّ الله به عليَّ شهودي جميعَ الفضائل والكراماتِ التي تقع علىٰ يدي . . أنها لله تعالىٰ بالأصالة ، وليس لي منها سوىٰ ظهورِها علىٰ جوارحي ، فسواءٌ أعطاني الله تعالىٰ جميعَ الكرامات أو سلبها عني . . فهو عندي سواء ، وهـٰذا من أعظم أخلاقِ الرجالِ

وقد سمعتُ سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول (العارفُ بالله تعالىٰ

لا يزداد بالسلب إلا تمكيناً ؛ لأنه مع الله بما أحبَّ ، لا مع نفسه بما تحبُّ) ، ومن كان هـٰذا مشهدَهُ لم يَخَفْ من الاستدراج الذي يقع لأصحاب الكرامات انتهىٰ

فعُلِمَ أن من رجَّح إعطاء الكرامات علىٰ منعها فهو لم يشَمَّ من مقام الرضا عن الله تعالىٰ رائحةً

ويقع لي كثيراً : أنني أقوم للوضوء من الليل ، فلا أجد ماءً يكفيني لغسل الوجه ، فأقول بقلبي اللهم ؛ إنك تعلم أني لم أُرِدِ الوضوءَ في هـٰذا الوقت إلا تعظيماً لجنابك أن أجالسك علىٰ حَدَثٍ ، فيزيد الماءُ ، حتىٰ أتوضأُ منه ويفضل منه بقيَّةٌ ، وفي أوقات أتوجه إلى الله فلا يزيد الإناءُ قطرةً ، فلا ينقص يقيني ذرةً ، وإنما أقول لله تعالىٰ في ذلك حكمةٌ ، ثم لا أرىٰ أني سلبت من البركة التي كانت معي في ذلك الوقت كما يقع لبعضهم ، فإن الفعلَ لله تعالىٰ في حال الزيادة وفي حال النقص ، لا لي

وكذلك يقع لي أنني أجد الماء بارداً لا يكاد البدنُ يقبله ، فأقول اللهم ؛ احمل عني بردَهُ ، فأجده كالمسخَّن بالنار ، وفي أوقات أجده بارداً علىٰ حاله ، فالحمد لله الذي جعلنا ممن يدور مع مراد الحقِّ تعالىٰ ، لا مع حظوظ نفسه ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حفظُهُ الأدبَ مع أصحاب الوقت ؛ من العلماء والصالحين]

ومما أنعمَ الله به عليَّ حفظي للأدب مع أصحاب الوقت من العلماء والصالحين ، سواءٌ كانوا حاضرين مجلسي أو غائبين عنه ؛ فلا أدرس قط علماً ، ولا أعظ الناس في كتاب أو غيره . . إلا بعد قولي بقلبي دستور

يا أصحاب الوقت أن أدرس أو أعظ الناس عنكم بحكم النيابة ، فمن واظب علىٰ ذلك أَمِنَ من إرتاج الكلام عليه[1] ، وقد قالوا ما أُرْتج الكلامُ علىٰ خطيب أو واعظ أو مدرس . . إلا لكون ذلك الوقت فيه مَنْ هو أولىٰ منه بالكلام

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : (من استأذن أصحاب الوقت بقلبه . . أمدَّهُ كلُّ عالم وصالح في ذلك الإقليم ، شعر بذلك أم لم يشعر) ، وفي القرآن العظيم : ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[استئذانُهُ أصحابَ النوبة للخروج من البلد أو الدخول وعند طلوعه القلعة أو دخوله بيتَ حاكم في شفاعة]

ومما منَّ الله به عليَّ : استئذاني لأصحاب النوبة كلما خرجتُ من بلدي أو دخلتُ ؛ وذلك لأكونَ تحت نظرهم حيثما كنت ، وكذلك لا أطلع القلعة ، أو أدخل بيت حاكم في شفاعة مثلاً . . حتىٰ أقولَ بتوجُّهِ قلب في أول عتبة الدار التي أدخلها[2] : دُستورٌ يا أصحابَ النوبة ؛ لحيتي اليوم تحت نعالكم ، فلاحظوني اليوم مع هـٰذا الأميرِ ، أو هـٰذا القاضي ، أو هـٰذا الظالم ، فلا أخرج من عنده إلا منصوراً ، إلا أن أكونَ مبطلاً والعياذ بالله تعالىٰ

وقَلَّ من يتنبه لهـٰذا الأدبِ من فقراء هـٰذا الزمان ، بل ربما ينكر بعضُهم أصحابَ النوبة ، ويظنُّ أن أصحابَ النوبة هو وأمثالُهُ ، وهو جهل وغلط ؛

---

(١) أرتج عليه : أي : استغلق عليه فلم يستطع الكلام .

(٢) في (د ، هـ ، و) : (تام) بدل (قلب) .

إذ لا يلزم من كون أحدهم مُسلِّكاً أن يكون من أصحاب النوبةِ ، كما يعرف ذلك من له أدنىٰ خُلْطةٍ بالأولياء

وقد رأيت سيدي عليّاً المَرْصَفيَّ مراتٍ يرسل الحوائج إلى الشيخ بركاتٍ الخياطِ ؛ لكونه كان من أصحاب النوبة في عصره ، وكذلك رأيتُ أنا سيدي عليّاً الخواصَ يرسل الحوائج إلى الشيخ مُحَيسنٍ البُرُلُّسي

وجاءه مرةً شخصٌ من تجار بحر الهند ، فقال يا سيدي ؛ خاطرك علىٰ مراكبي ؛ فإني عازمٌ علىٰ إرسالهم للهند ، فقال له : اذهب إلى الشيخ مُحَيسنٍ وخذ خاطرَهُ ؛ فإنه صاحب درك بحر الهند ، وكان الشيخ إذ ذاك جالساً في رُمَيْلَةِ مصرَ ، فذهب التاجر إليه ، فقال للتاجر هاتِ نصفاً ، وكان ذلك علامةَ كونه يحفظ دركَ ذلك الشيء ، فسافرتِ المراكبُ ورجعت سالمةً

وكان سيدي عليٌّ الخواص إذا شاوره أحدٌ على السفر من مصر إلى الريف . . يقول له (إذا أردت الخروجَ من سور البلد فقل بقلبك : دستور يا أصحابَ النوبة أكون تحت نظركم حتىٰ أرجع)

وكان يقول للجماعة إذا سافروا واستأذنوا أصحاب النوبة : (إذا رجعتم إلى السور فاستأذنوهم في الدخول ؛ فإنهم يحبون من يراعي معهم الأدبَ)

وكان يقول : (لا يخرج أحدُكم إلىٰ حاجة في السوق إلا وهو علىٰ طهارة ؛ فإن أصحاب النوبة يحبون من يراعي الطهارةَ في أدراكهم) انتهىٰ

ومما وقع لي تصديقاً لكلام الشيخ أنني أخرجتُ ريحاً بنواحي سوق

السلطان بمصر العتيق وأنا مارٌّ ؛ فإذا بشخص أسودَ يَحبِك في دكان يقول لي باسمي : ما كان لنا بك حاجةٌ إلا أن تخرج الريحَ في دركنا وأنت مارٌّ علينا ، فعلمت أنه من أرباب الأدراك

وكذلك مما وقع لي أنني كنت أمشي تجاه سوق الصاغة بمصرَ وأنا غافلٌ عن الله تعالىٰ ، وإذا أنا بشيء أحسست به من ورائي ؛ كأنه تمساحٌ يريد أن يبتلعني ، فقامت كلُّ شعرة في بدني ، فالتفتُّ فإذا بشخص أشعلِ الشعر[1] ، فمه خلف كتفي ، يقول لي : اصحَ ، ولا يَعُدْ لك بالعادة تمشي في خطي وأنت غافلٌ ، فقلت : سمعاً وطاعةً ، فما أظنُّ أنني مررتُ قط غافلاً عن الله تعالىٰ في دركه إلىٰ وقتي هـٰذا ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حمايته من الحسد لإخوانه إذا أظهر الله سبحانه أحداً منهم وأطفأ اسمه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ حمايتي من إظهار الحسد لأحد من إخواني إذا أقبلتِ الدنيا وأهلُها عليه لكثرة ما فيه من الأوصاف الحميدةِ ، بل أزداد فيه محبةً وتعظيماً ؛ أدباً مع الله تعالى الذي قدَّمه عليَّ في كثرة العلم والعملِ والجاهِ ، ولعمري ؛ كان الحسدُ للفقير الذي يجالس الله تعالىٰ صباحاً ومساءً في أوراده . . أولىٰ بالحسد ؛ فإن مجالسةَ الحق تعالىٰ ما ثَمَّ مقامٌ فوقها

ثم إن وقع من فقير حَسَدٌ علىٰ أحد من أقرانه بسبب إقبال الأمراء مثلاً عليه . . فذلك دليلٌ علىٰ أن هـٰذا الحاسدَ لم يشَمَّ من طريق الفقراء رائحةً ،

---

(١) اشعالَّ الرأسُ : انتفش وثار

وهو من أجهل الناس بالله عز وجل ؛ لكونه يحسد أخاه علىٰ مخاطبة جندي ، ولا يحسدُهُ علىٰ مخاطبة ربِّهِ ونفسِهِ الخمسينَ سنة وأكثر ! فافهم[(١)]

وهٰذا الداءُ قَلَّ من يسلم منه من الناس ؛ لغفلتهم عن الله وعن أحوال الدارِ الآخرة ؛ فترىٰ أحدَهم يكاد يتميز من الغيظ إذا رأى الأمراءَ والأكابر عكفوا علىٰ أحد من أقرانه وفضلوه عليه ، فيزداد تأخيراً إلىٰ وراءٍ ، ولو أنه أنصفَ لنَظر في الصفات التي قدموا ذلك الرجلَ بها ، ففعلها مثلَهُ ، فربما حصل له الإقبالُ من الناس كذلك ، علىٰ أن إقبال الناس واعتقادَهم مما ينقص به رأسُ مال العالم والصالحِ ، وذلك أقلُّ من أن يطلب بالفضائل ، ولٰكنا تنزَّلنا لعقل الحاسد علىٰ زعمه

واعلمْ يا أخي أن من علامة من يدَّعي أنه من أهل حضرةِ الله تعالىٰ . . أن يُعظِّم كلَّ من خلع عليه الملكُ خِلْعةَ القبول ، ومن لم يعظمه فهو عدوٌّ لله تعالىٰ ، وبالجملة فكلُّ ما تمناه الحاسد للمحسود رجع عليه مثلُهُ ؛ من خير أو شرٍّ

وكان بشر الحافي يقول : (أقدر بحمد الله أن أرضي جميعَ أخصامي في الدنيا ، إلا من يحسدني ؛ فإني أعرف أنه لا يرضيه إلا زوالُ النعمة عني ، وليس ذلك في يدي)[(٢)]

---

(١) في (أ ، هـ ، و ، ز) : (وبقية) بدل (ونفسه)

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة » (٦٥٦) من قول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما

[مطلبٌ

في علامة الكاره حسداً]

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول (من علامة من يكرهك من حسد أنه لا يقدر يصور عليك دعوىٰ في الدنيا ولا في الآخرة ، لا عند الله ولا عند الخلق ، بل يصير يذمُّك وينقصك في المجالس ، ويقول الناس له : أيشٍ بينك وبين فلان ؟! فلا يقدر يحرر عليك دعوىٰ تسمع) انتهىٰ[1] ، وهي ميزان صحيحة ؛ فكل من رأيتَهُ كذلك فأرح يا أخي نفسَكَ منه ؛ فإنك لا تقدر علىٰ زوال ما عنده

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي : أن في الإنسان جزءاً يحسد أخاه دائماً ، لا يمكنه أن يزولَ منه ، وإنما الله تعالىٰ إذا اعتنىٰ بعبده . . عطَّل منه ذلك الجزءَ عن الاستعمال ، فيخمد ، كما أشرنا إلىٰ ذلك بقولنا في أول المبحث : (حمايتي من إظهار الحسد)[2]

وبالجملة : فلا يخلُص من ذلك الجزء إلا أنبياءُ الله تعالىٰ عليهم الصلاة والسلام ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كراهةُ الجلوس علىٰ حدث أصغرَ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كراهتي لجلوسي لحظةً في المسجد علىٰ حدث أصغرَ ؛ وذلك لأن الملائكةَ تصلي على العبد ما دام جالساً في المسجد علىٰ

---

(١) حرَّر الأمر : قوَّمه

(٢) انظر (ص٤١١) .

طهارة كما ورد[1] ، وصلاةُ الملائكة مقبولةٌ ، وهـٰذا لا يقدر على المواظبة عليه إلا من حماه الله تعالىٰ من ثِقَلِ الغفلة عنه ، ودامت مراقبتُهُ لله تعالىٰ ؛ فإن المسجد حضرةُ الله الخاصَّةُ ، فإذا كان هـٰذا في الحدث فكيف لمن يعصي الله في المسجد ؟!

وكلُّ عاقل يستحيي من رؤية الله تعالىٰ إليه وهو مخالفٌ لأوامره في حضرته ، وربما مقَتَ ذلك المخالفَ فلا يفلح بعدها أبداً ، كما وقع لإبليس لعنه الله ؛ فإن حكمَ من عصى الله تعالىٰ في المسجد . . حكمُ من دخل عليه ملكٌ وهو يفعل الفاحشةَ في عياله ؛ فإنه يقتله ، ثم إن حَلُمَ عليه فلا يكاد يرضىٰ عنه ، ولا ينظر له في وجه ، فوالله ؛ لقد خلقنا لأمر عظيم ، ولولا حِلْمُ الله تعالىٰ علينا من كون رحمته سبقت غضبه . . لأهلكنا في أول معصية وقعنا فيها في بيته[2] ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[كراهتُهُ لإخراج الريح في المسجد ؛ تعظيماً لجناب الله عز وجل]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كراهتي لإخراج الريح في المسجد مني أو من غيري ؛ تعظيماً لجناب الله عز وجل ، كما أن من نعمته عليَّ سهولةَ الخروج من المسجد لإخراج الريح من غير مشقة ؛ لأن الريحَ من جملة

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥) ، ومسلم (٦٤٩/ ٢٧٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة تصلي علىٰ أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلىٰ فيه ما لم يحدث ؛ تقول اللهم ؛ اغفر له ، اللهم ؛ ارحمه » .

(٢) روى البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١/ ١٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لما قضى الخَلْق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي »

الرجس ، لا يناسبه إلا الأخليةُ والحشوشُ[1] ، وقليلٌ من الناس من يراعي ذلك ، لا سيما من كان مجاوراً في المسجد

وتأمل يا أخي في كل شيء كان العبد يستحيي من فعله بحضرة أحد من الخلق. . فالله تعالىٰ أولىٰ بأن يُستحيا منه في ذلك ، ولا ينبغي لعارف أن يتساهل بمثل ذلك ؛ اعتماداً علىٰ ما يظهر له من عفو الله تعالىٰ عن مثلِ ذلك ، بقرينة أنه لم يرد لنا النهيُ عن إخراج الريح ؛ لأن حِلْمَهُ تعالىٰ علينا وعفوَهُ لا يبيح لنا سوءَ الأدب ، بل هو باق علىٰ كونه سوءاً في حقنا ، ولو أن الحقَّ تعالىٰ عفا عنا. . لم يخرجه العفوُ عن السوء ، مع أن العفوَ لا يقع إلا عن ذنب ، فافهم ، ومن هـٰذا الباب ـ وإن كان لله تعالى المثلُ الأعلىٰ ـ قولُ إمامنا الشافعي رضي الله عنه (لا تُقصِّر في حقِّ أخيك اعتماداً علىٰ مروءته)[2]

فعُلِمَ أنه ينبغي مراعاة هـٰذا الأدب لكلِّ من كان أقرب إلىٰ حضرة الحق تعالىٰ ؛ كالجالسين في المسجد. . أشدَّ من مراعاة من كان خارجه ؛ لكونهم أهلَ الحضرة .

ولا يقال إن من قواعد الشريعة أن المشقَّة تجلب التيسير ؛ لأنا نقول كلامُنا فيمن لا يحصل له بذلك مشقةٌ ظاهرة ؛ كأن يكون الغالبُ عليه خروجَ الريح ، مع أن أشياخ الطريق من المحققين قالوا إذا حصلت

(1) الأخلية : جمع الخلاء ؛ وهو موضع قضاء الحاجة ، والحُشوش جمع الحَش ؛ وهي مواضع قضاء الحاجة أيضاً

(2) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٩٧) ، وفيه (مودته) بدل (مروءته)

المحبة تأكدت شروطُ الأدب ، لا كما قال غيرُهم سقطت ؛ فإن مؤاخذة الأكابر تردُّ مثلَ هـٰذا ، فربما عوقب أحدُهم علىٰ شهوة مباحةٍ أَكَلَها . . بضربِ سبعين خشبةً ، أو قطعِ يده ، وكلامُ الصوفية طافحٌ بذلك ، وهو جارٍ علىٰ قاعدةِ (حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين)[1] ، فافهم ، والله تعالىٰ أعلم

[كثرةُ تبجيله لإخوانه في الغَيْبة والحضور ، والنصحِ لهم سرّاً]

ومما منَّ الله به عليَّ ذكرُ جميع أقراني بالخير في غَيْبتهم ، وإن رأيتُ عند أحد من الخلق قلةَ اعتقاد فيهم . . ذكرت له مناقبَهم ومفاخرَهم ، وحسَّنت له الاعتقادَ فيهم حَسَبَ الطاقة ، وفي ذلك رضا الله تعالىٰ ورضا صاحبي ، وربما عاملني الآخرُ بنظير ذلك ، فيمدحني بين الناس ، فأعظم في أعينهم ، عكسُ ما إذا نقصته ونقصني ، وربما أَدْخلَ عليَّ الغمَّ من ينقل ذلك إليَّ عند قيام بشريتي وثورانِ نفسي ، ولا ينبغي لعاقل أن يُدخل علىٰ أخيه ما يَغُمُّه في الدنيا ولا في الآخرةِ أبداً

ثم لا يخفىٰ أن الشيخَ لا يدخل في هـٰذا الميزان ، فله أن يذكر تلميذَهُ الذي عاهده علىٰ قبول نصحه وتنبيهِهِ علىٰ نقائصه . . بجميع ما يراه فيه من النقائص سرّاً وجهراً ؛ يعني يذكر ذلك من ورائه لمن ينبهه ، أو مواجهةً له ؛ ليأخذ في التنصُّل من تلك النقائص[2]

---

(١) رواها ابن عساكر في « تاريخه » (٥/ ١٣٧) من قول أبي سعيد الخراز رحمه الله تعالىٰ

(٢) تنصَّل من الجناية والذنب : إذا خرج منه وتبرّأ

فعُلِم أن الشيخ إذا علم من المريد عدمَ الصدق في طلبه الطريقَ . فليس له أن يذكرَهُ من ورائه بنقص ، ولا يذكرَهُ مواجهةً له إلا بسياسة تامة ؛ خوفاً أن يفجُر على الشيخ ويمزقه في الآفاق ، كما هو الغالب علىٰ أكثر فقراء هـٰذا الزمان ؛ فيجعلون نفوسَهم تحت تربية الشيخ عند الأكابر والأمراء ؛ ليصلوا منهم إلىٰ قضاء حوائجهم التي لا يقدرون علىٰ قضائها إلا بواسطة كونِهم من جماعة الشيخ ، ثم يجعلون نفوسَهم خارجين عن طاعة الشيخ في محلٍّ لا يكون لهم حاجةٌ تقضىٰ فيه بواسطة الشيخ ، فليكن الشيخُ علىٰ حذر من مثل هـٰؤلاء في هـٰذا الزمانِ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[حمايتُهُ من النوم علىٰ غير وتر ؛ تعظيماً لامتثال أمر الشارع]

ومما أنعمَ الله به عليَّ الحمايةُ من نومي علىٰ غير وترٍ ؛ تعظيماً لأمر الله ، ومحبةً فيما أحبَّ اللهُ ، لا لعلة أخرىٰ ؛ وذلك أنه ورد « إنَّ اللهَ وِتْرٌ يحبُّ الوِترَ »[1] ، وورد : « الوِترُ حقٌّ »[2] ؛ أي واجب « فأوتِرُوا يا أهلَ القرآنِ »[3] ، فعظَّم الله تعالىٰ أمرَهُ ، وجعله مرتبةً فوق السنة وتحت الفرض ، كما قال به الإمام أبو حنيفةَ رضي الله عنه ، فمن نام علىٰ وتر فقد فعلَ ما أُمِرَ به ، وختم أعمالَهُ بعمل يحبه الله تعالىٰ ، فإذا أخذ الله تعالىٰ بروحه في تلك الليلة . . مات علىٰ دينِ مَنْ يُحبُّهم اللهُ ، فلا يلقىٰ بعد موته سوءاً أبداً ؛ لأن من أحبَّهُ الله لا يعذبه ، ويُرضِي عنه جميعَ خصمائه ؛ لقوله

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٠) ، ومسلم (٢٦٧٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) رواه أبو داود (١٤١٩) عن سيدنا بُريدة رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داود (١٤١٦) ، والترمذي (٤٥٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

تعالىٰ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم . . . ﴾ الآية [المائدة ١٨] ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ إجابة الله تعالىٰ دعاءَهُ حال الغضب]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ إجابته تعالىٰ دعائي في حال غضبي علىٰ أحد من المسلمين ولو آذاني كلَّ الأذىٰ بغير حقٍّ ، وقد أعطاني الله تعالىٰ هٰذا المقامَ في سنةِ خمسَ عشرة وتسع مئة لمَّا حججت ؛ وذلك أني سألت الله تعالىٰ بين الركن والباب بألا يستجيبَ لي دعاءً في حق أحد من المسلمين حالَ غضبي عليه ، فمن ذلك اليوم ما دعوتُ علىٰ أحد وحصل له سوءٌ بواسطة دعائي ، وإن حصلتْ لمن آذاني عقوبةٌ فإنما ذلك غيرةٌ من الله تعالىٰ ، وقد كنت قبل ذلك إذا دعوت علىٰ أحد استُجيب دعائي لوقته

وكان من جملة ما سألتُ الله تعالىٰ فيه في الملتزم : أن الله تعالىٰ يُفرِغ عليَّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمَّل به الأذىٰ من جميع الأنام[١] ، فلو أن أهل مصرَ كاملاً اجتمعوا علىٰ إيذائي . . احتملتهم ، ولم أدعُ عليهم ، ولم أقابل أحداً منهم بسوء ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[قلةُ مجادلته للمجادل بغير حقٍّ حتىٰ تَخمُد نارُ نفسه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : قلةُ جدال من جادلني بغير حق ؛ لعلمي بأنه ما جادلني إلا بما زُيِّن له في نفسه أنه الحقُّ ؛ فلذلك كنت أُعرض عنه ، ثم أترقَّب له وقتاً آخرَ ، فلعل نفسَهُ تروق وترجع إلى الحق ؛ فإن النفسَ

---

(١) أفرغ : أنزل ؛ يقال : أفرغ الله عليه الصبرَ : أنزله عليه .

ما دامت متحركةً ، ورعونَتها قائمةً . . فإبليس راكبُها ، وكان المجيب لنا إنما هو إبليسُ ، ولا شك أنه أقلُّ حياءً منا ؛ لعدم مراعاته الشرعَ ، فهو يُغضبنا ولا يغضبُ هو .

وكان من سياسة أخي أفضلِ الدين رحمه الله تعالىٰ أنه يُوجِّهُ فهمَ من جادله ؛ ليُسكِنَ غضبَ الخصم ، ثم إذا سكن غضبُهُ قال له يا أخي ؛ وهنا أمرٌ أعرضه عليك ، فإن كان صواباً فأعلمني به ، فيُوهِمُه أنه يتعلم منه ، ويقول : من الأدب أن الإنسانَ يعذر من جادله من حال نفسه ، فكما لا يرجع هو إلىٰ ما فهمه خصمُهُ . . كذلك لا يرجع خصمُهُ عن فهمه هو ، وما لمن ثارت نفسُهُ دواءٌ أعظمُ من موافقته ، ثم إذا راقت نفسُهُ وقبلتِ الحقَّ فليُعلمه الصواب

وكان من خلق الشيخ عبدِ الحليم بن مصلح رحمه الله أنه إذا رأىٰ نفسَ إنسان قائمةً عليه في مسألة من المسائل . . يتلطف به ويقول له : يا أخي ؛ أنت بحمد الله من أهل الإنصاف ، وقد ظهر لي هنا جوابٌ ، ومقصودي أن الأخ يسمعه ، فمهما قال لي اعتمدته

وتارةً يترقَّب لمن قامت نفسُهُ وقتاً يكون فيه جماعةٌ حاضرون من العلماء ، ويسأله السؤالَ الواهي كسؤال الجاهل ، ثم يعطف الجواب على السؤال فيفيده العلمَ ، ويصير شيخاً له وهو لا يشعر ، وكذلك الحاضرون لا يشعرون بمثل ذلك ، ويقول : سترنا أنفسَنا ، وأفدنا أخانا ما لم يكن عنده من العلم .

فعُلِمَ : أن من الجهل طلبَ الإنسان من خصمه أن يرجع إلىٰ فهمه هو مع

خفاء مُدرَكه عليه ، بل ربما أدىٰ ذلك إلىٰ شدةِ خصام ، وسبٍّ ، وغِيبة ، وتنقيص في المجالس ، وارتكابِ آثام ، فالعاقلُ من أتى البيوتَ من أبوابها ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[تحمُّلُه البلاءَ عن إخوانه علىٰ طريق القوم ، وكيفيتُهُ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : تَحمُّلي البلاءَ عن إخواني علىٰ طريقة القوم ، وصورةُ ذلك : أني أتوجه إلى الله تعالىٰ في رفع ذلك البلاءِ الذي نزل علىٰ إخواننا أو تخفيفِهِ ، فيجيبنا الحقُّ تعالىٰ إلىٰ ذلك ، مع أننا لم نحمل عنهم في الحقيقة شيئاً كما مرَّ ؛ فإن ما قدَّره الله تعالىٰ علىٰ عبد لا يمكن نقلُهُ عنه ، ولـٰكن قد تعبَّدَنا الله تعالىٰ بتحمُّل همومِ الإخوان حَسَبَ الاستطاعة ، كما تعبَّدَنا بقصد الخير إلى المسلمين وبالنية الصالحة لهم ؛ إذ لا يمكن القولُ برفع الأسباب .

ثم إننا إذا تلقَّينا بلاءً عن أحد فذلك البلاءُ بالأصالة إنما كان نازلاً علينا لا علىٰ ذلك الأحد

وتأمَّلْ نفسَكَ : إذا ألقىٰ عليك عدوٌّ حجراً من شاهق ليقتلك به ، فسبق إنسانٌ وردَّ الحجر عنك ، كيف تحبه وتشكره علىٰ ذلك ، عكس الحال فيمن ألقاه عليك ، فلولا شهودُك نسبةَ الفعل إلىٰ من تلقىٰ عنك الحجرَ . . ما أحببته ، ولا شكرته ، ولا كرهت من ألقاه عليك .

وكان مذهبُ سيدي إبراهيمَ المتبولي أواخرَ عمره عدمَ تحمل بلاء الإخوان ، وإنما يدعو لهم باللطف بهم فيه ويقول : (قد ترادف البلاءُ ، وصار كلُّ بلاء كالدهليز لبلاء آخرَ أشدَّ منه ، فمن تحمل بلاءَ الإخوان أساء

في حقهم باطناً من حيث لا يشعرُ ولا يشعرون ، فيأتيهم البلاءُ الثاني على غفلة من غير تقدُّمِ إدمان ، فيَهُدُّ أركانهم ، وربما وقعوا في السُّخط على مقدورات الحقِّ ؛ لعجزهم عن تحمله ، بخلاف ما لو كان وقع لهم قبل ذلك إدمانٌ ؛ بعدم تحمُّلِ أحد حملتَهم) انتهىٰ .

وهو خاصٌّ بمن أطلعه اللهُ تعالىٰ علىٰ ما يَنزِلُ من البلاء على الناس في مستقبل الزمانِ ، أما من لم يطلعه الله تعالىٰ علىٰ ذلك . . فالأولىٰ له التحمُّلُ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[مشاورتُهُ الأصحابَ في كلِّ أمر لم يأمرْ به الحقُّ تعالىٰ أو يَنْهَ عنه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كثرةُ مشاورتي لأصحابي في الأمور المهمةِ التي لم يأمرني الشارع بها أو لم ينهني عن فعلها ولو كنت أعلم أنني أَعْقَلُ منهم ؛ امتثالاً لأمر الله تعالىٰ ؛ فقد قال تعالىٰ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ؛ أي : الذي لم أوحِ به إليك ، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ؛ أي لا على مشورتهم وتدبيرِهم ؛ فإني غيورٌ علىٰ أحبابي أن يعتمدوا علىٰ غيري

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول : استشارةُ الإنسان لإخوانه بمثابة تنبيههم له من النوم ، فربما يكون جازماً بفعل شيء أو تركِهِ وعنده أنه صوابٌ ، فيشاور بعضَ إخوانه ، فيقول له : إن فعلتَ كذا حصل من الضرر كذا ، فيرجع عن فعل ذلك الأمرِ لوقته ، ولو قيل له بعد ذلك : افعله . . لا يفعلُهُ ، فكان في استشارته تنبيهُهُ لأمر كان عنه غافلاً

فعُلِمَ : أن العبدَ لا يحتاج إلىٰ مشورة أحد في المأمورات الشرعية ؛ فإن الاستشارةَ في مثل ذلك تُؤذن بنقص الإيمان ، فليُجدِّدِ المستشيرُ المذكور

إيمانَهُ ، وليقل : آمنتُ بما جاء من عند الله علىٰ لسان رسولِ اللهِ

وإيضاحُ ذلك أن المأموراتِ الشرعيةَ لا تُتخذ حِبالةً للمكر والاستدراج بصاحبها ، إنما يدخل المكرُ والاستدراج فيما لم يؤمر به العبدُ ، اللهم إلا أن تكون الاستشارةُ من حيث تقديمُ عمل علىٰ عمل شرعي. . فذلك مأمورٌ به ؛ كاستخارة المريد لشيخه أأذكر اللهَ تعالىٰ في هـٰذه الليلة ؟ أو أصلي ؟ أو أراقب ؟ فمثل ذلك يندب فيه المشاورةُ من حيث المبادرةُ إلىٰ طلب اختصار طريق الترقي إلى الحضرات الإلـٰهية ؛ إذ الشيخ أمينٌ على المريد ، وربما كان قيامُ تلك الليلة مثلاً لا يُرقِّي ذلك المريدَ ؛ لما يعلمه الشيخ من دخول الآفات في صلاته

وقد سمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول لشخص : اتركِ الاشتغالَ بهـٰذا العلم الذي تقرؤه ، وأكثِرْ من ذكر الله عز وجل ؛ فإنه أفضلُ ، فقلت له : يا سيدي ؛ الاشتغالُ بذكر الله تعالىٰ سنَّةٌ ، والعلمُ ربما كان فرضَ عين ، فقال الشيخ يا ولدي ؛ هـٰذا صاحب نَفْسٍ ، وكلما ازداد علماً ازداد تكبُّراً على الناس ، فأمرتُهُ بالذِّكْر ، فلعل حجابَهُ يَرِقُّ ويذهب عنه الرياءُ والعجب بالعلم ، ثم يشتغل بالعلم بعد ذلك علىٰ وجه الإخلاصِ لله ، وإحياءِ شريعة نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ هجره لأحد من المسلمين إلا لغرض شرعيٍّ]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ هجر أحد من المسلمين لحظِّ نفس فوق ثلاث ليال مثلاً ، كما يقع فيه كثيرٌ من طلبة العلم والمريدين ، ويزعمون أن تلك الهِجْرةَ لله تعالىٰ ، والحالُ أن الأمر بخلاف ذلك

[مطلبٌ

في ميزان يُفرَّقُ به بين الهجرة لله تعالىٰ والهجرة لغير الله تعالىٰ]

وأنا أعطيك ميزاناً تميز به الهجرة لله تعالىٰ عن غيرها ؛ وذلك أنك إذا رأيتَ نفسَكَ تحب من أحسنَ إليك من العصاة ، وتكرهُهُ إذا أساء عليك . . فاعلم أن هجرك له لغير الله تعالىٰ

وقد رأينا من يثني على العصاة في المجالس ما داموا موافقين له في أهوائه ، ثم إذا خالفوه فيما يهواه يهجرهم ، ويظهرُ عنهم كلَّ عيب ، فمثل هـٰذا قد أحبَّهم لغير الله ، وأبغضهم لغير الله

وقد كان سيدي الشيخ عبدُ العزيز الديريني رحمه الله يقول (لا يليق بأحد من أمثالنا أن يهجر أخاه المسلمَ مطلقاً ، إلا بطريق شرعي ؛ لأن أحدَنا ربما يهجر أخاه لحظٍّ نفس ، ويزعمُ أن ذلك الهجرَ لله تعالىٰ ، وإنما يليق الهجرُ بالعلماء العاملين الغوَّاصين علىٰ دقائق النفوس ومكايِدها) انتهىٰ .

وكان الشيخ محيي الدين بنُ العربي رحمه الله يقول (إذا كان لك صاحبٌ من أهل الخير وعاشرَ أحداً من أهل الشرِّ . فإياك أن تهجره ببادئ الرأي ، بل تربَّصْ وتأمل ، فربما كان صاحبُكَ الصالحُ عندك . . إنما صَحِبَهُ ليُسارقه بالنصح والموعظة الحسنة شيئاً فشيئاً ، أو تجعلُ إشاعةَ السوء عن ذلك الرجلِ الذي صحبه صاحبُكَ الصالح . . من باب سوء الظنِّ من أقرانه ، وتقول لولا أنه من الصالحين ما صحبه صاحبي الذي هو صالحٌ عندي ، ونحوُ ذلك من الأجوبة الحسنة التي لا يعجز عنها إلا قليلُ التوفيق) انتهىٰ

وسمعت سيدي علياً الخواصَ يقول (إياك ثم إياك أن تصغيَ في هـٰذا الزمان لحظٍّ أهل حرفة في بعضهم بعضاً إلا بطريق شرعي ؛ فإنهم قد أقبلوا بقلوبهم على الدنيا ، وأحبَّ كلُّ واحد الانفرادَ في بلده بالعلم والصلاح ، وحُجِب عن رؤية كون غيره أعلمَ منه وأفضلَ ، فهو يريد ألا يكون لغيره شهرةٌ بخير ، وكلُّ ذلك خروج عن مراسم الشريعة) انتهىٰ ، فالعاقل من استبرأ لدينه ، والحمد لله ربِّ العالمين

[حضورُهُ مع الله تعالىٰ حالَ اجتماعه بزوجته كحضوره معه في الصلاة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ حضوري مع الحقِّ تعالىٰ حالَ اجتماعي بزوجتي كما أحضر معه حالَ صلاتي ؛ بجامعِ أن كلّاً منهما عبادةٌ مأمور بها ، وما شرع الله تعالىٰ جميعَ العبادات إلا ليحضرَ معه العبدُ فيها ، كما مرَّ بسطُهُ في مبحث الحضور مع الله تعالىٰ في الأكل(١) ، وإنما لم يصرح الشارعُ لنا بالأمر بالحضور مع الله في الجماع ؛ اكتفاءً بما أمرنا به من التسمية عنده(٢) ، فإن ذكر اسمه تعالىٰ وسيلةٌ للحضور معه

وقد كان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يقول : (لا يتحقق لعارف قط وجهُ العبودية في شيء من الأعمال . . كما يتحقق له حالَ الجماع ؛ فإنه

---

(١) انظر (ص٣٨٨) .

(٢) روى البخاري (١٤١) ، ومسلم (١٤٣٤) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنَّ أحدَكم إذا أتىٰ أهلَهُ قال : باسم الله ، اللهمَّ ؛ جنِّبْنا الشيطانَ ، وجنِّبِ الشيطان ما رزقتنا ، فقُضي بينهما ولدٌ لم يضرَّهُ » ، ولفظ مسلم : « إذا أراد أن يأتي أهله . . . فإنه إن يُقدَّرْ بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرَّهُ شيطان أبداً » .

يكون مقهوراً تحت حكم شهوةِ طبيعته ، حتىٰ لا يكادُ يتذكر شيئاً غيرَ ما هو فيه) انتهىٰ

وذكر الشيخ محيي الدين في « الفتوحات » (أن من شأن القطب الغوث الإكثارَ من الجماع لمجرد اللذة ؛ كنكاح أهل الجنة ، أو لإحضار التناسل لأمر مشروع) انتهىٰ[1]

وهٰذا الخلق الذي ذكرناه عزيز ، بل بعضهم ربما لا يصح له الحضور مع الله في الجماع أصلاً ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[شفقتُهُ علىٰ ذريَّته بعدم الجماع حال الغفلة أو الغضب]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كثرةُ شفقتي علىٰ ذريتي قبل ظهور وجودهم ؛ وذلك أنني لا أجامع أمَّهم قط وأنا غافل كما مرَّ آنفاً ، ولا وأنا غضبانُ ، ولا وأنا شديدُ المحبة للدنيا ، ولا وأنا مخاصمٌ أحداً عليها ، أو حاسدٌ له ، أو متكبِّرٌ علىٰ أحد من المسلمين ؛ وذلك عملاً بقول بعض العارفين إن الولد يُكَوِّنُهُ الله تعالىٰ بقدرته ، ويخرج متصفاً بالصفات التي كان والده عليها حالَ الجماع ، وهٰذا وإن لم نر فيه دليلاً عن الشارع . . فالتحرُّزُ منه عملاً بكلام هٰذا العارف أولىٰ ، واللهُ غالب علىٰ أمره ؛ إذ لا تأثير للطبيعة في تخليق الولد ، فافهم

فعلىٰ ما قاله هٰذا العارفُ ينبغي لمن كان متلطِّخاً بشيء من الصفات

---

(١) الفتوحات المكية (٢/ ٥٧٤) ، وعبارته (ولا يرغب في النكاح للنسل ، بل لمجرد الشهوة ، وإحضارِ التناسل في نفسه لأمر مشروع) .

المذمومة شرعاً ، وأراد أن يجامع أيامَ توقع الحمل . . أن يتوب من كل ذنب توبةً خالصة ثم يجامع

وكان سيدي الشيخُ أحمد بنُ عاشر[١] ـ شيخ تربة السلطان قايتباي رحمه الله ـ من حينِ تحمل زوجته لا يجامعها حتىٰ تضعَ ولدَها وتفطمَهُ ؛ خوفاً على الولد مما ورد ثم نسخ ؛ وهو أن الجماع يضرُّ الحاملَ وولدَها[٢]

ثم إن الشيخ أحمدَ لما سمع بعض الناس يمدحه علىٰ ذلك . . قال : (هـٰذا الذي أفعله إنما هو من أخلاق البهائم ، ليس هو بكبيرِ أمرٍ ؛ فإن البهيمة بمجرد ما تحمل لا تُمكِّن الفحلَ يَطرُقها) انتهىٰ

فليتأمل الشخصُ في صفات أولاده السيئة ، [ويلمْ] نفسَهُ ؛ فإن جميع ما يقعون فيه كان كامناً في نطفته حين نزلت في رحم أمِّهم ، وما خرج عن ذلك إلا آدمُ عليه الصلاة والسلام ، فافهم

وقد حكىٰ لي شيخي الشيخُ أمين الدين ، الإمامُ بجامع الغمري[٣] ؛ قال : كنا نقرأ علىٰ شيخ الإسلام الحافظِ ابن حجر في قاعته ، فقَطَرَ علينا ماءٌ من السقف في غير أيام الشتاء[٤] ، فقال انظروا ، فربما يكون هـٰذا

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٦١٠) : (أحمد بن عاشر المغربي) .

(٢) وهو حديث الغيلة الذي رواه مسلم (١٤٤٢) عن جُدامةَ بنت وهب الأسدية رضي الله عنها : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقد هممتُ أن أنهىٰ عن الغِيلة ، حتىٰ ذكرتُ أن الروم وفارسَ يصنعون ذلك فلا يضرُّ أولادهم » ، والغِيلةُ : هي أن يجامع الرجلُ زوجتَهُ وهي حامل .

(٣) جاءت الحكاية في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٦١١) عن الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالىٰ

(٤) في غير (أ) : (عليه) بدل (علينا) ، والمثبت من (أ) و« المنن الكبرىٰ » (١/ ٦١١) .

بولَ حيوان ، فطلع بعضُ الطلبة إلى السطح ، فوجدوا ولدَ الشيخ قد حفر في السقف مواضعَ ، وغرز فيها ريشَ إوزٍّ وقال : أنا أزرع لي إوزّاً ، فأعلموا الشيخ من دور القاعة ، فقال قولوا له : انزل ؛ فإن معملَ الإوزِّ في ظهر أبيك ، ما هو في السطح انتهىٰ ، وهي من ظريف الحكايات ، تومئ إلىٰ ما أشرنا إليه[1] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[عدم بخله علىٰ عياله بأجرة الحمام للغسل]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ بخلي علىٰ عيالي بفلوس الحمام كلما قَرُبتُ منها إذا كانت جنابتُها بسببي أو بسببها ، ولا أكلِّفها الغسلَ بالماء البارد ، ومن المروءة : أن الرجل يساعد زوجتَهُ في كل ما احتاجت إليه من مصالح دينها ، وإن لم يوجبه الشارعُ عليه ، وكما ساعدته بجماعها علىٰ غضِّ بصره وحفظ فرجه ودينِهِ . فكذلك ينبغي له أن يساعدها علىٰ ذلك .

وهٰذا الأمر يُخِلُّ به كثيرٌ من الناس ؛ فيكثر أحدُهم الجماع ، وتشُحُّ نفسُهُ بفلوس الحمام ، لا سيما عيالِ الأكابر ، فربما ترك عيالُهم الصلاة من شدة الحياء الطبيعي ، فتستحيي الواحدةُ من أنها تدخل كلَّ يوم الحمام ؛ خوفاً أن يلوث الناس بها ويلحقون بجماعها كل ليلة[2] ، أو من الخادمة التي تسخن الماء تلحق بذلك

فليختر المكثرُ من الجماع ؛ إما أن يُقلل جماعَهُ ، وإما أن يعطي عيالَهُ

---

(١) أي من قول بعض العارفين : (إن الولد يكوِّنه الله تعالىٰ بقدرته ، ويخرج متصفاً بالصفات التي كان والده عليها حال الجماع)

(٢) لاث به : حقَّره وأهانه .

فلوس الحمام ، أو ثمن الوقود ويساعدَها في تسخين الماء في البيت ، واللهُ في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تواضعُهُ وتعظيمه للعلماء والفقراء لتعليمهم التواضع ، وزيادةِ اعتقاد مريديهم فيهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كثرةُ تواضعي لكل عالم أو فقير زرته بحضرة تلامذته ؛ وذلك لأُعلِّمه التواضع إن كان فيه رائحةُ الكبر ، ولأُقوِّيَ يقين أصحابه فيه ؛ ليعكفوا عليه ، ويعتمدوا علىٰ نصحه وتربيته ؛ فإني أعلم أن ليَ اسماً في المشايخ عندهم ، فيقولون إذا كان الشيخ فلان يقبِّل رِجلَ شيخنا مثلاً . فشيخنا أعظم منه ، فيزيد انتفاعُهم به

وكثيراً ما أُقبِّل عتبةَ باب ذلك الشيخِ بحضرة تلامذته إذا دخلتُ وإذا خرجت وهم ينظرون ، وإن كان ذلك الشيخُ دوني في مقام العرفان .

ولو أني علمتُ منهم الاعتقادَ فيَّ ، وأنني أَعْرَفُ من شيخهم بالطريق. . ما فعلت معه ذلك ؛ إذ لا فائدة فيه ؛ كما أني إذا رأيته عامِّيّاً أصلاً ؛ كمشايخ الخِرَق ، وبعض المُتَشيِّخين بالجدود ، والذين جلسوا للمشيخة من غير إذن من الأشياخ. . فلي أن أُنفِّر جماعةَ مثلِ هٰؤلاء عنه حسب الطاقة ؛ حبّاً لجلب المصلحة لهم ، لا حبّاً للتمشيخ عليهم ؛ فإني بحمد الله تعالىٰ دائرٌ مع المصالح ، لا مع حظِّ نفسي ، وهٰذا الخلق عزيز في فقراء هٰذا الزمانِ ، بل لم أرَ له فاعلاً غيري .

ثم لا يخفىٰ : أن تعظيمي للعالم أو الشيخ بحضرة تلامذته : محلُّهُ ما إذا

قامت القرائنُ علىٰ أن تقبيلي رجلَهُ أو عتبة زاويته مثلاً . . لا يورثه عجباً بنفسه ، ولا تكبُّراً علىٰ أحد من المسلمين ، وإلا فمن الأدب تركُ ذلك ، بل هو واجب .

وقد وقع لي : أنني قبلت رِجلَ شيخ بحضرة بعض الأمراء الذين يعتقدونه؛ طلباً لزيادة اعتقاده فيه ؛ ليصير يَقبَلُ شفاعتَهُ بعزم ، وكان ذلك الأمير يُعظِّمني قبل ذلك، ويقبل شفاعتي ، فلما رآني قبَّلتُ رِجلَ شيخه ازدراني وأنا لا أشعر .

ثم إني أرسلت أشفع عنده في مظلوم صَلَبَه على الخراج علىٰ عادتي معه . . فلم يقبل شفاعتي ، وأغلظ علىٰ قاصدي القولَ ، وقال له : وهل شيخك إلا مريد لشيخي من جملة مريديه ؟! فأرسلت أشكوه لشيخه ، فلم أجد لشيخه حرمةً عنده ؛ لكونه يبرُّهُ ويحسن إليه بالكسوة والقمح والعسل ، ويعمل له كلَّ قليل مولداً ، فأرسلت لذلك الأمير ورقةً فيها إن لم تطلق هـٰذا المظلوم وإلا وقع التفتيش على البعيد ، وخَرِبَتْ داره وهُدِّمت ، فأخذ الورقة وأعطاها لشيخه ، فقرأها ، فقال له جماعتُهُ : هـٰذا ما هو قدر شيء من هـٰذا ، وما دام سيدي الشيخ معك ما يقدر أحدٌ يفعل معك أثراً ، ففي تلك الليلة وجد في صحن من عَشائه حيةً ميتة مقطعةً في الطعام ، وانكسر سهم ساقيته ، ووقع الثوران في البئر ، فأرسل لي ذلك المظلومَ من صلاة الصبح ، وعفا عنه ، ثم وقع التفتيش عليه بعد خمسة أيام ، وخربت داره ، وهُدِّمت بجوار معمل البارود بمصر العتيق ، ورمي بالزَّغَل وهتك الحريم ، وحصل له ما لا خيرَ فيه .

وقد كان سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي يقول : (لا ينبغي لفقير أن

يتوعَّد أحداً بسوء ولو مزحاً ، فربما مشَّى اللهُ ذلك للفقير ؛ إما إكراماً له ، وإما استدراجاً) انتهىٰ

ومن هـٰذه الواقعة تبتُ إلى الله تعالىٰ من أني أبالغ في التواضع لأحد حتىٰ أنظرَ في ذلك : هل يترتب عليه محظورٌ أم لا

وكذلك تبتُ إلى الله تعالىٰ من أني أتوعَّد أحداً من المسلمين بسوء إذا هو آذاني

وكذلك تبتُ إلى الله تعالىٰ من الزيارة لأحد من الإخوان إلا بعد تحرير النية الصالحةِ في زيارته ، ولو مكثت سنةً وأكثرَ لا أزوره ، إلا أن يترتب علىٰ ذلك مصلحةٌ شرعية لي وله ولأصحابه .

وسمعت سيدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول : (إياك أن تزور أحداً وتمكث عنده طويلاً ، إلا إن علمت أنه يحفظ لسانه في الناس ، ولا يجرُّ قافيةَ أحد بسوء ، وإلا فهي إلى الإثم أقرب)

وكان أخي الشيخ أفضل الدين يقول : (إذا زرتَ أخاك فإياك أن تذكر له أحسنَ ما عندك من العلم والأدب والزهد والورع ونحوِ ذلك ، إلا لغرض شرعي ؛ فإن السلف الصالحَ ما منعوا كثرةَ زيارة إخوانهم إلا خوفاً من مثل ذلك)

وكان بشر الحافي يقول : (لولا أني أخاف أن أتزيَّنَ لفلان ويتزيَّنَ لي في الكلام . . لأكثرت من زيارته) انتهىٰ(١)

---

(١) أورد الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١١/٢١٦) قصة عن الإمام أحمد ، وهي (قال المرُّوذي : وذُكر لأحمد أن رجلاً يريد لقاءه ، فقال : أليس قد كره بعضهم اللقاء=

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله أن السلف الصالح كانوا يرسلون بالسلام لإخوانهم ولا يجتمعون ؛ خوفاً من أن يُزكِّيَ كلٌّ واحد منهما نفسَهُ ، فيخلوَ قلبُ كل واحد من النور ، ويقعَ في ذنب إبليس الذي هو الفخرُ علىٰ غيره . انتهىٰ ، ثم أنشد في وقت آخر[١] [من الوافر]

لقاءُ الناسِ ليسَ يفيدُ شيئاً سوى الهذيانِ مِنْ قيلٍ وقالِ
فأقلِلْ مِنْ لقاءِ الناسِ إلا لأخذِ العلمِ أو إصلاحِ حالِ

فالحمد لله ربِّ العالمين

[مساعدةُ كلِّ عالم لا يعمل بعلمه بعمله هو به]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عملي بما تيسر لي من علم كلِّ مَنْ رأيته لا يعمل بعلمه ؛ فأساعده علىٰ تحصيل ثواب علمه بعملي به ، وبتعليمه لمن يعمل به بقصد نفع ذلك العالمِ ، وأجعل نفعي بعلمه ونفعَ الناس به بحكم التبع ، لا بالقصد الأول ، كلُّ ذلك لوفور شفقتي على الإخوان ، وقد تقدم في هٰذه المنن أنني بحمد الله تعالىٰ أتشوَّش من نقص دين إخواني أكثرَ مما يتشوشون علىٰ نقص دينهم[٢] ، وصاحب هٰذا المشهدِ أولىٰ بالإنسان من نفسه وراثةً محمدية

= يتزين لي وأتزين له ، وقال : لقد استرحت ، ما جاءني الفرج إلا منذ حلفت أن لا أحدِّث ، وليتنا نُترك ، الطريق ما كان عليه بشر بن الحارث) .

(١) أورد البيتين ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٤/ ٢٨٣) ، ونسبهما لأبي عبد الله الحميدي صاحب كتاب « الجمع بين الصحيحين »

(٢) انظر (ص١٨٠) .

ورأيت في كلام الشيخ محيي الدين بن العربي في كتاب « الوصايا » بشارةً عظيمة للعلماء ؛ وهي قوله (اعلم أن الله تعالىٰ لم يعط العبدَ العلمَ إلا لينفع به نفسَهُ أوَّلاً ، ثم غيرَهُ ثانياً ، ولـٰكن الذي نقول به : إنه لا يمكن العالـمَ تركُ العمل بعلمه من كل وجه أبداً ؛ فإنه إذا لم يعمل به من طريق المأمورات الشرعيةِ عمل به من طريق ارتكابه المنهياتِ ، فيستغفر الله تعالىٰ منها ويتوب ، فلولا علمه بتحريم ذلك الفعلِ . . ما استغفر منه ، ولا اهتدىٰ للتوبة ، فعلمُهُ بتحريمه هو الذي جعله يندمُ ويستغفر ، فقد عمل هـٰذا بعلمه من هـٰذا الوجهِ ، لـٰكن بعد وقوعه في المعاصي ، وهو عمل خفيٌّ غريب قَلَّ من يتفطن له ، وغالبُ الناس لا يسمي العالـمَ عاملاً بعلمه إلا إن اجتنب المنهياتِ جملةً ولم يقع في شيء منها ، أما من وقع فيها ثم تاب فلا يسمونه من العاملين بعلمهم أبداً

فعُلـمَ : أن عدمَ العمل بالعلم جملةً . . إنما يكون للمصرِّين على المعاصي من غير توبة لا غيرُ ، أما من يقع فيها ويتوب فهو عامل بعلمه ، فافهم) انتهىٰ ، وهو كلام نفيسٌ ما أظنه طرقَ سمعَكَ علىٰ هـٰذا التقرير أبداً ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[محافظتُهُ على الصلوات أيام مرضه المخوف ووقت تحمله المصائب]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ ذهول عقلي عن الصلاة في أوقاتها أيامَ مرضي المَخوف ، أو أوقاتَ تحملي مصائبَ الزمان عن الإخوان ، وهـٰذا من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ ؛ فإني أكون في شدة الوجع والألم ، فإذا جاء

وقتُ الصلاة يخِفُّ الألم عني وأُصحِي ، وهـٰذا دأبي على الدوام ، ومن كثرة ذلك لم يصِرْ لي مفصلٌ يسلم من وجع[١] ؛ كما أنشد بعضُ العرب العرباء

الأوجـاعُ مـا خَلَّيـنَ فـيَّ بقيـة   ولا مفصـل إلا وفيـه جـراحُ

وكان هـٰذا من وظيفة سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه[٢] ، فما زال يحمل همَّ الناس حتىٰ صار عظماً لا لحم فيه ، وصار كالعود الخِلالِ ؛ لأن صاحب هـٰذا المقامِ مرضُهُ دائم ليلاً ونهاراً ؛ إذ لا يسلم وقتٌ من مريض أو معاقبٍ في بيوت الولاة في سائر أقطار الأرض ، فيشارك هـٰؤلاء كلَّهم فيما هم فيه

ومن علامة صحة هـٰذا الحالِ أن الطبيب المعتادَ لا يعرف يُشخِّص لصاحب هـٰذا مرضاً أبداً[٣] ، فالحمد لله علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[إرسالُ رسولِ الله ﷺ للمؤلف مَنْ يُبشِّره بالخلاص من مرضه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ أنني ما مرضت قط ، أو كنت في حملة . . إلا وأرسل لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من جهته مَنْ يعودني[٤] ؛ إما

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٨١) : (فلا أرىٰ مفصلاً واحداً إلا ويطرقه المرض ؛ من كثرة تحمل هموم الناس ، وكثرة توجُّههم إليَّ في شدائدهم) .

(٢) في (هـ ، و ، ز) : (وظيفة سيدي إبراهيم المتبولي وسيدي أحمد . .) .

(٣) شخَّصَ الداء : عيَّنه وميَّزه مما سواه .

(٤) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٨٢) (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل لي من جهته من يعودني ؛ تارة علىٰ صورة شيخي سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، وتارة علىٰ صورة غيره من الأولياء) .

اثنين ، وإما واحداً ، فأعرف أنني أُشفىٰ من ذلك المرضِ ، فأشكر اللهَ تعالىٰ ، وأكثرُ ما يرسل لي واحداً من أهل بيته

وقد كنت في حملة عظيمةٍ في سابع عشرين ربيع الأول سنةَ ستين وتسع مئة ، فأشرفتُ فيها على الموت ، فأتاني شخصان طويلان شابان أسمران ، لابسين ثياباً بيضاءَ وخضراءَ ، فوقفا عند رأسي ولم يكلماني ، غير أن شخصاً ثالثاً كأنه خادمُهما بسط بين يديَّ سجادةً خضراءَ ، فلا يعلم أحدٌ قدرَ ما حصل لي من الأُنس ، والذي غلب علىٰ ظني أنَّ أحدَهما الحسنُ بن علي ، والآخرُ لم أعرفه ، فشفيت لوقتي ، فالحمد لله ربِّ العالمين علىٰ كل حال

[كثرةُ ستره لعورات المسلمين ما لم يتجاهروا بالمعاصي]

ومما أنعمَ الله به عليَّ ستري لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصي ، وأرىٰ ذلك من جملة الواجبات عليَّ ؛ فلا أُظهر شيئاً من أعمال المتسترين في معاصيهم إلا بطريق شرعي يرجح به مصلحةَ الإفشاء علىٰ مصلحة الكتمان ، وهـٰذا الخلقُ قد صار من أغرب الغرائب في هـٰذا الزمان ، فلا يكاد يُرىٰ أحدٌ يستر عورةَ مسلم إذا اطلع عليها ، بل يذكرها وينشرها

حتىٰ إن بعضَ من يُنسب إلى القوم يقع في ذلك ، فلا تزال نفسُهُ تُنازعه علىٰ ذكر ما اطلع عليه من عورات أقرانه ؛ إما تصريحاً ، وإما تعريضاً ، لا سيما عورةِ عدوه ، بخلاف حالي ؛ فإني بحمد الله تعالىٰ أستر عورةَ عدوي أكثرَ من صديقي ؛ لأني أرجو من صديقي العفوَ عن ذلك ،

ولا هٰكذا العدو ؛ فإنه لا يكاد يُبرئ ذمتي أبداً

وقد اطلعت بحمد الله تعالىٰ علىٰ عورات كثير من أعدائي ، ثم إني رأيت بعضَ الناس يذكر ذلك عنهم ، فرددت عنهم أشدَّ الردِّ ، وكذَّبت ذلك الشخصَ ، مع أني أعلم أنه صادقٌ باطلاعي علىٰ ما ذكره ؛ فإنه ما كلُّ ما يعلم يقال .

وربما أتأثر علىٰ ظهور عورة عدوي أكثرَ مما يتأثر هو ؛ صيانةً للخرقة ، وسدّاً لباب لَوْثِ الناس بمن تظاهر بالعلم والصلاح

وقد كان السَّريُّ السَّقَطيُّ يقول أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد ، فقيل له لماذا ؟ فقال : إني أخاف ألا يقبلني قبري فأفتَضِحَ ويسيء الناس ظنَّهم بأمثالي . انتهىٰ[١]

وكان سيدي أحمد الزاهد رحمه الله يقول : (إذا رأيتَ من يتجاهر بالمعصية بحضرتك . . فأمره بالستر ؛ فإن لم يسمع لك فلا تُشع ذلك الأمرَ عنه لمن لا يعرفه ؛ فإن نفسَ المجاهرة بالمعصية معصيةٌ أخرى ، اللهم إلا أن يتجاهر بالمعصية عند الخاص والعام ، فهٰذا قد مَرَقَ من الحياء[٢] ، فيُعرَض أمرُهُ علىٰ حاكم شرعي ليقيم عليه الحدَّ أو التعزيرَ ؛ محبةً فيه ، وتطهيراً لذنوبه ، لا [تشفياً] للنفس ؛ وذلك ليعاملنا الله تعالىٰ بمثل ذلك ، فكم وقعنا في معصية وسَتَرَنا فيها عن العباد ، ولو أنهم اطلعوا عليها لهجرونا أبداً ما عشنا ، أو ازدرونا كذلك .

---

(١) روى الخبر ابن عساكر في « تاريخه » (٢٠/ ١٨٢) عن ابن أخت السري وهو الجنيد رحمهما الله تعالىٰ

(٢) مرق من الحياء : خرج منه ، ومثله : مرق من الدين

واعلمْ يا أخي أنَّ من جملة سترنا للمجاهر أن نُغلق عليه بابَ داره إذا طلب الخروج وهو سكرانُ مثلاً ؛ وذلك حتىٰ لا يعلمَ الناس بسكره ، وكم يترتب علىٰ كشف العورات مفسدةٌ

فإياك يا أخي أن تفشيَ سرَّك لأعزِّ أصدقائك وتقول له رأيت فلاناً وهو يفعل فاحشةً في بيته ؛ فإنه إن كان ساذجاً يصير يحكي ذلك للخاصِّ والعام ، وإن كان حاذقاً يصير يخبر الناسَ بذلك ويقول لهم : اكتموا ذلك عني ، وكلُّ واحد منهم يقول لصاحبه كذلك حتىٰ تمتلئَ البلدُ ، وأحدُهم يظنُّ أنه قد ستر عورةَ ذلك العاصي والحالُ أنه هتكَهُ بين الناس ، فليتنبه العاقلُ لمثل ذلك ؛ فإنه واقعٌ كثيراً فيمن يُنسب إلى الدِّين

وإن أراد شيخُ الفقراء مثلاً أن يؤدب الناقلَ ويأمرَهُ بتعيين مَنْ أخبره . . كان من أوجب الواجبات ؛ لأن إبليس ربما زيَّن للسامع أن عدمَ تعيين القائل فيه مصلحةٌ ، ويقول قد سمعنا ذلك ممن لا ينبغي ذِكْرُه ، فيركب إبليسُ بخيله ورَجِلِهِ علىٰ فقراء الزاوية ، فتخرب ، ثم إنه لا يكتم ذلك عن شيخ الزاوية إلا كلُّ شيطان ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ تكدُّره ممن ناداه باسمه المجرَّدِ من غير لفظ سيادة ونحوِها]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ تكدُّري ممن ناداني باسمي المجرَّدِ من غير لفظ سيادة[١] ، أو شياخة ، أو كنية ، أو لقب حَسَنٍ ؛ وذلك لعلمي بأن الاسم مجرَّداً عن ذلك . . هو الصدقُ المحض ، بخلاف الألقاب والكنىٰ ؛ فإنها ربما دخلها الكذبُ ، إلا بتأويل بعيد قَلَّ من يقبلُهُ من الناس .

---

(١) في هامش (أ) : (بلغ) .

وقد درج السلف الصالحُ من الصحابة والتابعين وتابعِ التابعين. . علىٰ ندائهم بعضَهم بعضاً باسمه المجرد ، فيقول لبيك ، وماذا يغني آحادَ الناس إذا قيل له : يا شمسَ الدين ، أو تاجَ الدين ، أو نورَ الدين مثلاً . . إذا كان سبق في علم الله أنه فحمةٌ من فحم جهنم ؟!

وقد أخبرني الشيخ أمينُ الدين إمام جامع الغمري : أنه كان يسمع الحافظ عثمانَ الدِّيَميَّ والشيخَ عثمانَ الحطاب ينادي كلٌّ منهما صاحبَهُ بـ (يا عثمانُ) ، فيقول : نعم ، وكلٌّ منهما غافلٌ عن الألقاب والكنىٰ ، فرضي الله عنهما

وإنما لم نقل بتحريم الألقاب والكنىٰ ؛ لأن الكذب فيها غيرُ محقَّق ، فقد يريد الإنسان بقوله : (شمسُ الدين) ؛ أي شمسَ دين نفسه فقط ، وقد يريد بقوله : (قطبُ الدين) ؛ أي : قطبَ دين نفسه فقط ، وهٰكذا ، فلأجل هٰذا الاحتمالِ قلنا بعدم التحريم ، علىٰ أنَّ التحقيقَ : أن كل مسلم له نصيبٌ في إظهار الدين بفعله شيئاً من شعائره ؛ كما أنه لو سُمِّي إنسان بـ (ناصر الدين) . . فهو صحيح ؛ لأنه نصره بحسب طاقته ، كما أنه يسمىٰ زاهداً ، وورعاً ، وخائفاً من الله تعالىٰ ، ونحوَ ذلك ، لٰكن علىٰ قدر حظه ونصيبه ، فلا يمكن تعريتُهُ من المقام بالكلية ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حبُّهُ للأشراف والأنصار ، وعدم بغضهم ولو آذوه]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ بغضي لأحد من الأشراف أو الأنصار وذريَّتِهم إذا آذاني أشدَّ الأذىٰ ؛ وذلك لأن بغضي لهم لحظِّ نفسي معاداةٌ لإيماني ، ومن عادىٰ إيمانَهُ لا يخفىٰ حكمُهُ ، وقد ورد في حديث البخاري وغيره « حبُّ الأنصارِ مِنَ الإيمانِ » ، وقال : « آيةُ الإيمانِ حبُّ

الأنصارِ »(١) ، وفي القرآن العظيم : ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ [الشورى ٢٣] ، والمودةُ : هي ثبات المحبة ، وقال صلى الله عليه وسلم في الحسن والحسين : « مَنْ أحبَّهما فقد أحبَّني ، ومَنْ أبغضَهما فقد أبغضَني »(٢) ، وما ثبت حكمُهُ للأصل ثبت حكمه للفرع ؛ وهو ذريتُهما ، إلا ما أخرجه النصُّ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حفظُهُ لحرمة الأشياخ أحياءً وأمواتاً ، وعدمُ مزاحمتهم على المشيخة]

ومما منَّ الله به عليَّ : حفظي لحرمة أشياخي أحياءً وأمواتاً ، ولو قُدِّر أنني جاوزت مقاماتِهم لا أرىٰ نفسي أَصلُحُ خادماً لهم ، وأزجرُ بالقلب واللسان كلَّ من رأيته يرفع مقامي علىٰ أحد من أشياخي ، أو يقولُ عني إنني خليفةٌ له ؛ لأن من شرط الخليفة الحقيقيِّ أن يكون علىٰ صورة مَنِ استخلفَهُ في الأخلاق ، والعلوم ، والمعارفِ والأسرار ، والكراماتِ والخوارق

وقد كثر الاغترارُ في هـٰذا الزمان بمثل ذلك من تلامذة الأشياخ الذين ماتوا وتخلَّفوا بعدهم ، وربما يكون أحدُهم لم يأذن له شيخُهُ في الجلوس بعده لإرشاد الناس ، وكان الواجبَ عليهم أن [يغاروا] علىٰ مقام أشياخهم أن يُهتضَم بجعلهم خلفاءَ لهم ؛ فإنهم قالوا في المثل : (إذا لم تجتمعوا

---

(١) رواه البخاري (١٧) ، ومسلم (٧٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه (١٤٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وروى الترمذي (٣٧٣٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه بلفظ « من أحبَّني وأحبَّ هـٰذين وأباهما وأمَّهما . . كان معي في درجتي يوم القيامة » .

بشيخ فانظروا إلىٰ تلامذته ؛ فإنَّهم يدلون عليه) ، وإن لم يكن ذلك قاعدةً كلية ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[صبرُ إخوان المؤلف علىٰ توبيخه لهم بحضرة الناس]

ومما أنعمَ الله به عليَّ صبرُ إخواني علىٰ ضربي بهم المثلَ في الكسل بين الناس ، وعدمُ تكدُّرهم من ذلك ، فأتكلم علىٰ لسان حال الواحدِ منهم ما أراه من النقائص في شخص آخرَ من إخوانه وهو راضٍ ؛ من حيث إن طينة البشر واحدةٌ ، فإن لم يقع من ذلك الشخصِ فعلُ ذلك الأمر . . فهو معرَّضٌ له ؛ لأنه في طينته بالقوة ، كامنٌ فيها ككمون النخلة في النواة ، وإنما نفعل ذلك لأن من وقعَ في رذيلة يصير في غاية الخجلِ بين الناس ، فلا يحتمل ذكر تلك الرذيلةِ ، لا تصريحاً ولا تعريضاً ، مع أننا لا نفعلُ ذلك بأصحابنا بحضرة مَنْ ليس منهم ، وإنما نفعله في مجلسنا الخاصِّ الذي لا يخفىٰ حالُ أهله علىٰ بعضهم بعضاً ، فافهم

وقد كان سيدي الشيخُ أبو السعود الجارحيُّ يدَّعي علىٰ بعض تلامذته أنه أفسد جاريتَهُ ؛ يعني : الدنيا

فعُلِمَ : أن مَنْ ذكر مثلَ ذلك بحضرة من ليس من أهل الطريق . . فقد أساء ؛ لعدم معرفتهم باللغز الذي يتداوله الفقراء بينهم ، ولا بد لكلِّ داعٍ إلىٰ خير من مدح المستقيم وذمِّ المُعْوَجِّ ، ترغيباً وتحذيراً ، وليس ذلك من باب الغِيبة في شيء ، ومن ظن بشيخه ذلك فقد مُقِت ، وخرج من صحبته ، وارتد عن طريقه

وقد قال العلماء ليس من الغِيبة المحرَّمةِ تحذيرُنا فلاناً أن يخالط فلاناً

العاصيَ ؛ لأن الغيبة إنما حُرِّمت لِمَا فيها من الأذىٰ علىٰ وجه التشفي ، والمحذِّرُ ناصح لأخيه ، خائفٌ علىٰ دينه ، وقاصدٌ بذلك دفعَ أذىً آخرَ هو أشدُّ ، وهـٰذا الأمر لا يستغني عنه شيخ أبداً ؛ لأنه لا بد لكلِّ داعٍ إلىٰ خير . . أن يكون في أصحابه الأعوجُ والمستقيم ، فهو يحذِّر الفقراء من اتباع الأعوج ؛ شفقةً عليه وعليهم

أما الشفقةُ عليهم : فظاهر ، وأما الشفقة عليه : فلئلا يصير معدوداً من الأئمة المضلِّين فيزدادَ في الآخرة عذاباً فوق عذابه علىٰ معاصيه الخاصة به ، وعليه ينزل قوله تعالىٰ ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل : ٨٨] ، كما ينزل عليه قوله تعالىٰ ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت ١٣] ، وفي القرآن العظيم : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨] ، فنهاه أن يتَّبعَ يونسَ عليه السلام في عدم الصبر عن الدعاء علىٰ قومه ، وإن كان ذلك مباحاً ليونس عليه السلام ، لـٰكنه ثَمَّ مقام رفيعٌ ، ومقام أرفعُ ، فافهم .

وفي القرآن العظيم أيضاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ ﴾ [الأحزاب : ٦٩] ، ونحوُ ذلك من الآيات ، وفي الحديث أيضاً : « يا عبدَ اللهِ بنَ عمرَ ؛ لا تكنْ مثلَ فلانٍ ، كان يقومُ الليلَ فتركَهُ »[١] ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم عيَّنَ له فلاناً ، ولـٰكنَّ الراويَ لم يُعينه كما أخبرني به بعضُ المحدثين ؛ سترةً له بين الناس خوف الازدراء له . انتهىٰ

---

(١) رواه البخاري (١١٥٢) ، ومسلم (١١٥٩/ ١٨٥) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم لم يُعينه ؛ لأنه ضَرْبُ مثل ، والغرضَ حاصل بدون تعيين ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢١] .

وكان سيدي إبراهيمُ المتبولي رحمه الله يقول : (لا يبلغ الفقراءُ مقامَ الكمال حتىٰ يصيرَ كلُّ واحد منهم يحبُّ أن يضاف إليه سائرُ النقائص التي في إخوانه ؛ إيثاراً لهم علىٰ نفسه) انتهىٰ

ويُستروح له بكون الصحابة كانوا يَفْدون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم(١) ، وكان أحدُهم إذا رأىٰ سهماً صوَّبه الكفارُ نحوَ النبي صلى الله عليه وسلم . . يتلقاه عن النبي صلى الله عليه وسلم بصدره(٢) ، ولو كان فيه زهوقُ روحه ، فسماع الفقير الكلامَ الذي يؤذيه تحمُّلاً عن أخيه . . دون أذى السهم بيقين ، فافهم ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) روى الواقدي في « المغازي » (١/ ٢٤٣) في غزوة أحد (أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوسه ، فما زال يرمي القوم وأبو طلحة أمامهم يستره مترِّساً عنه ، حتىٰ نظرت إلىٰ قوسه قد تحطمت ، فأخذها قتادة بن النعمان ، وكان أبو طلحة يوم أحد قد نثر كنانته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان رامياً وكان صيِّتاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صوت أبي طلحة في الجيش خير من أربعين رجلاً » ، وكان في كنانته خمسون سهماً ، فنثرها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جعل يصيح يا رسول الله ؛ نفسي دون نفسك ، فلم يزل يرمي بها سهماً سهماً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع رأسه خلف أبي طلحة ـ بين رأسه ومنكبه ـ ينظر إلىٰ مواقع النبل حتىٰ فنيت نبله ، وهو يقول نحري دون نحرك ، جعلني الله فداك) ، والنحر : موضع القلادة من الصدر .

(٢) روى ابن إسحاق في « السير والمغازي » (ص٣٢٨) في غزوة أحد : (وترَّس أبو دجانة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ ، حتىٰ كثر فيه النبل) .

[عدمُ مزاحمته لأحد في افتتاح مجلس ذكر ، أو تلقينه الذكر وطرق معاملته مع من كان أعرف منه ، أو أقل معرفة منه]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ   عدمُ مزاحمتي لأحد ممن تمشيخ من أهل عصري علىٰ تلقينه الذكر ، أو أخذه العهدَ على المريدين ، لا سيما إن كان أقدمَ مني هجرةً في الطريق ، أو أكبرَ سناً فيها

ثم إن رأيته أعرفَ مني بالطريق وجب عليَّ أن أتلمذ له ، ولو كنتُ مأذوناً لي قبل ذلك من شيخي .

وإن رأيته قليلَ البضاعة صرتُ أتردَّد إليه كلَّ قليل ، وأسارقه بذكر الأمور التي تكمله بحيث لا يشعر ، وأقول له   ينبغي أنكم تُعلِّمون تلامذتكم بذلك ليفعلوا به ، وأكون أنا السائلَ له بحضرة جماعته ؛ إيهاماً لهم بأن شيخَهم يعرف الطريق وإنما يَشُحُّ عليهم ؛ لعدم من يراه منهم يستحقُّ مثلَ ذلك الكلام .

وقد منَّ الله تعالىٰ عليَّ بهـٰذا الأمرِ مع كثير من أشياخ عصري

وربما كنت أفيد الواحدَ منهم الفائدةَ ثم أغيب عنه أياماً ، وأجيء إليه ، فيصير يعلمني ما علَّمتُه أمسِ ، وينسىٰ أنني أنا المعلِّمُ له ، فأسكت .

وبعضهم : كان يقع لي أنني أعلمه المسألةَ في دينه ، ثم يطول المجلس ، فيقول لي : جاءني شخصٌ وقال لي : كيت وكيت ، وبعضهم يقول لي   رأيت عندي في كتابٍ   كذا وكذا ، وينسىٰ أنني أنا الذي قلتُهُ له ، فأقول له : مقصودي أرىٰ هـٰذا الكتابَ ؛ لأنه لم يزل عندي شكٌّ في هـٰذه المسألة ، فأعجزه ؛ لأني أعلم أنَّ الذي قلتُهُ له لم أجده في كتاب

فعلم   أن المزاحمة لا تقع بين عارفَين أبداً ، وإنما تقع بين قاصرَين ،

أو بين قاصر وعارف ، فيزاحم القاصرُ العارفَ ، وقد تقدم بسطُ ذلك مراراً[1] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدم افتتاحه مجلس ذكر مع وجود من هو أكبر منه سنّاً أو مع وجود شريف]

ومما منَّ الله به عليَّ أنني لا أفتتح قط مجلسَ ذكر وهناك مَنْ هو أكبرُ مني سناً ، أو أحدٌ من الأشراف ولو صبيّاً ، بل أعزم عليه مراتٍ حتىٰ يفتتح المجلسَ ؛ عملاً بحديث « كَبِّرْ ، كَبِّرْ »[2] ؛ ولكون الشريف بَضْعةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللجزء من الحرمة والتعظيمِ ما للكلِّ ، وهـٰذا الخلق قَلَّ من يتنبه له من فقراء الزوايا الآن ، وهو خلق شريفٌ لا ينبغي لأحدهم تركُهُ

وقد وَرَدَ عليَّ شخصٌ من عوامِّ الفقراء ، فرأيت عنده التفاتاً لكونه يفتتح بالفقراء ، ولسانُ حاله يقول : إن لم تجعلوني أفتتحُ لا أذكرْ معكم ، فجعلتُهُ شيخاً ، فواظب بعد ذلك ولم ينقطع

وربما اجتمع عندي ثلاثةٌ يحب كلٌّ واحد منهم أن يبتدئ ، فآمرهم أن يفتتح واحدٌ بعد واحد ، كلُّ ذلك محبةً في كثرة الذاكرين الله عز وجل ، لا لعلة أخرىٰ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**[3]

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر (ص٢٥٦ ، ٢٦٩)

(٢) رواه البخاري (٣١٧٣) ، ومسلم (٦/١٦٦٩) عن سيدنا سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه .

(٣) في هامش (أ) : (بلغ) .

الباب الثالث

في جملة أخرى من الأخلاق

الباب الثالث
في جملة أخرىٰ من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق :

[عدمُ أخذه العهدَ علىٰ مريد نكث عهدَ شيخه]

مما منَّ الله به عليَّ أنني لا آخذُ علىٰ مريد العهدَ إلا إن كان خالياً من شيخٍ ينتمي إليه من مشايخ العصر ، ثم يسوق عليَّ السياقاتِ في ذلك ، فإن كان له شيخٌ ولو بالاسم فقط ، أو لم يظهر لي منه رغبةٌ تامَّةٌ في طلب الطريقِ . . لا آخذُ عليه عهداً ؛ شفقةً عليه أن يُمقت لتلاعبه بالطريق مع عِزَّةِ مراقيها

وكان سيدي إبراهيمُ الدسوقيُّ رحمه الله يقول (ما أعزَّ الطريقَ ! وما أعزَّ من يطلبها ! وما أعزَّ من يصدُقُ في طلبها ! وما أعزَّ من يجد من يدلُّهُ عليها ! وما أعزَّ من يصبر علىٰ فعل ما يأمرُهُ به شيخُهُ فيها !) انتهىٰ .

وكان من خُلُق سيدي محمد الشِّنَّاويِّ رحمه الله أنه لا يُلقِّن مريداً حتىٰ يقول له : هل تقدَّمَ لك مع أحد صحبةٌ وأنت عليها إلى الآن ، أم أنت بِكْرٌ في الطريق ؟ فإن قال له تقدَّمَ لي صحبةٌ ، ولـٰكن ما رأيت علىٰ يد ذلك الشيخِ خيراً . . يطردُهُ ؛ قياماً بواجب حقٍّ من تزيَّا بزي أهل الطريق

وكان إذا أراد أن يُلقِّنَ أحداً لا بد أن يقولَ بقلبه ولسانه : (دستور يا أهل الوقت ؛ أُلقِّنُ هـٰذا الفقيرَ نيابةً عنكم) ، وينقلُ ذلك عن شيخه أبي الحمائل أيضاً[١] ، وهو خُلقي بحمد الله الآن ، لـٰكن بعد استخارتي لله تعالىٰ مراراً ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حمايتُهُ من الوقوع في شيء يغيِّر قلبَ شيخه عليه]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : عدمُ وقوعي في شيء يُغيِّرُ خاطرَ قلب شيخي عليَّ يوماً من الدهر ، وذلك من أكبر نِعَمِ الله عز وجل على المريد ؛ فإن بذلك يدوم الترقِّي ، بخلاف مَنْ يسيء الأدبَ مع شيخه ؛ فإنه إذا أساء الأدبَ معه انقطع تَرقِّيه ، وربما نزل إلىٰ حالة أنقصَ من الحالة التي كان عليها قبل صحبتِهِ ؛ لأن حُكمَ المُقبِل علىٰ شيخه كحكم المُقبِل علىٰ ربه ؛ لأن شيخَهُ ما أقبلَ عليه إلا لإقباله علىٰ طاعة ربِّهِ ، ولله المَثَلُ الأعلىٰ

وقد قال الإمامُ أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه (لو أقبل عارفٌ على الله ألفَ عام ، ثم أدبرَ عنه لحظةً . كان ما فاته في تلك اللحظةِ أكثرَ مما ناله قبلها) انتهىٰ[٢] ؛ وذلك لأن كل لحظة يُقبِلُ فيها العبدُ علىٰ ربه مُتضمِّنةٌ لمجموع الأمداد السابقةِ ، وتزيد عليها بمدد الوقت ؛ فإن جودَ الحقِّ تعالىٰ لم يزلْ فيَّاضاً علىٰ قلوب المُقبِلين علىٰ حضرته

واعلمْ يا أخي أن أقلَّ مراتب الشيخِ أن يكون كالقبجي علىٰ باب

---

(١) وهو الشيخ محمد السروي ، المشهور بأبي الحمائل

(٢) أورده السلمي في « طبقات الصوفية » (ص١٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٣/٢٧٨) ، وفيهما : (صادق ، ألف ألف) بدل (عارف ألف) .

السلطان[١] ، فمَنْ كان القبجي يكرهه فبعيدٌ أن تُقضىٰ له حاجةٌ عند السلطان ؛ لأنه لا يستطيع الوصولَ إلى السلطان إلا بواسطة الحاجب الذي لا يغفُلُ ساعةً .

ثم بتقدير أنه يدخل إلىٰ حضرة السلطانِ من غير علم البواب . . فلا بد أن يعلم به ، فيعاكسَهُ في قضاء حاجتِهِ بين يدي المَلِك[٢] ، ويَقبَلَ الملكُ ذلك منه ؛ لعلمه بأمانته وصدقه ، وخيانةِ المريد وكذبِهِ

ومن قال من المريدين : إنه لا يحتاج في خطاب المَلِك إلىٰ واسطة ، وإنه يقدر علىٰ قضاء حاجتِهِ منه مع تَغيُّرِ خاطر الواسطة عليه . . قلنا له هٰذا أمرٌ لا يصحُّ لأحد ، ولو أنه صح لأحد لتعدَّى الأمرُ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو الواسطةُ العظمىٰ ، ولكان الإنسانُ يَقدِرُ علىٰ دخول حضرة المَلِك ، ويقدر علىٰ قضاء حاجتِهِ منه مع تَغيُّرِ خاطر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، ومع مخالفته شريعتَهُ ، ولا قائلَ بذلك ، بل هو كفرٌ صريحٌ .

فعُلِمَ : أن مِنْ شقاء المريد في الدنيا ، وعنوانِ شقاوته في الأخرىٰ . . تهاونَهُ بغضب أستاذِهِ عليه ، وعدمَ رؤيته وجوبَ المبادرة إلىٰ مصالحته والدخول في طاعته

وقد سلك هٰذا المسلكَ جماعةٌ ، فلم يفلحوا بعدها أبداً ، لا علىٰ يد شيخهم ، ولا علىٰ يد غيره

---

(١) القبجي بواب السرايا ؛ وهو قصر الملك ، وفي « المنن الكبرىٰ » (١/ ٦٣٤) : (أقل مراتب الشيخ أن يكون كالبواب للملك)

(٢) عاكس أمره : عارضه وتصدَّىٰ له .

[مطلبٌ
في أقلِّ ما يحصل من الهلاك لمن يخالف شيخه]

ثم من أقلِّ ما يحصل لمن خالف أستاذَهُ من أسباب الهلاك في دينه . . أنه يشتغل بحبِّ الدنيا وجمعِها من أيِّ وجهٍ كان ، ويعادي أكبر أصحابه إذا عارضَهُ في طريق تحصيلها ، بل يعادي شيخَهُ علىٰ ذلك ؛ لأخذ حبِّ الدنيا بمجامع قلبِهِ ، حتىٰ لا يكادُ يجد لمحبة الأعمال الأخروية موضعاً في قلبه

ومن مفاسد المخالفة أيضاً أنه يَقِلُّ ذِكرُهُ لله ، وتلاوتُهُ للقرآن ، واشتغالُهُ بالعلم الشرعي ، ويثقلُ عليه التقيُّدُ بمجالس الذِّكر ، وسهرُ الليالي ، والمواظبةُ علىٰ صلاة الجماعة ، وغيرُ ذلك ، فيَتلَفُ في دينه بالكلية وهو لا يشعر ، وربما كان مداوماً على الأوراد التي كان عليها قبل غضب شيخِهِ عليه ، ولـٰكن لا يتحصَّلُ منها كلِّها في الآخرة ذرةٌ ، فهي في عينه كالجبال وفي عين المكاشفين بأحوال الآخرة كالهباء

وقد أجمع الأشياخُ علىٰ أن مَنْ لم يقدِر علىٰ ملاحظة شيخه في الأعمال . . لا يقدر علىٰ مراقبة الحقِّ جل وعلا في شيء من عباداته .

وقد ورد في بعض الكتب الإلـٰهيةِ : أن الله تعالىٰ يقول لملائكته : اكتبوا عملَ عبدي فلان ، واكتبوا أين كان قلبُهُ حالَ العمل ، فقالوا يا ربنا ؛ وما ذاك ؟ فقال تعالىٰ ليأخذَ ثوابَهُ ممن كان قلبُهُ معه حالَ عمله يوم القيامة . انتهىٰ[1]

---

(١) روى ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) عن ضمرة بن حبيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله يستكثرونه =

فينبغي لكل عامل ألا يعتدَّ قط بعمل أو كلمةِ تسبيح مثلاً قالها وقلبُهُ سارحٌ في أمر آخرَ غيرها ؛ فإنها غيرُ محسوبة له عند الله تعالىٰ .

وقد بلغنا أن بعضَ السلف قرأ سورةَ (طه) في ليلة فجهر بآية ليسمعَ جارَهُ ، فرأىٰ تلك الليلةَ أن القيامة قد قامت ، وفتحَ صحيفتَهُ فلم يجد فيها تلك الآيةَ التي جهر بها . انتهىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ تغيُّر خاطره إذا زار مريدُهُ شيخاً غيرَهُ إلا بشرطه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ تغيُّر خاطري علىٰ مريدي إذا زار غيري من الأقران . . لحظٍّ نفسي ، وإنما أتغيَّرُ عليه لأمر شرعيٍّ خالفَهُ ؛ كأن علمت أن زيارتَهُ لذلك الشخصِ تُفسد حالَهُ وتوقفُهُ عن السير في الطريق ، فأوهمه التكدُّرَ لأجل فوات مصلحتِهِ هو ، لا خوفاً أن يتلمذ له دوني

وعلىٰ ذلك يُحمَل حالُ جميع الأشياخ الذين نهوا تلامذتَهُم أن يجتمعوا بغيرهم ، ولا يجوز حملُهم علىٰ أنهم قصدوا بذلك حظَّ نفسهم ؛ فإن الفقراءَ الصادقين منزَّهون عن مثل ذلك ؛ إذ هو من رعونات النفوس .

وكان الشيخ محيي الدين بنُ العربي رضي الله عنه يقول : (إنما نهى الأشياخُ المريدَ أن يجتمع بغير شيخه شفقةً عليه ، وخوفاً من وقوع التردُّدِ عنده في أيِّ الشيخين أعرف بالطريق ، فلا ينتفع بأحد منهما ؛ لأن شرطَ

= ويزكونه ، حتىٰ يبلغوا به إلىٰ حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحي الله إليهم : أنكم حفظة علىٰ عمل عبدي ، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه ، إن عبدي هـٰذا لم يخلص لي ، ولم يخلص عمله ، فاجعلوه في سجِّين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحقرونه ، حتىٰ ينتهوا به إلىٰ حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة علىٰ عمل عبدي ، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه ، إن عبدي هـٰذا أخلص عمله ، فاكتبوه في عليين »

الانتفاع بشخص الجزمُ بالتقيد في دائرته ، وصاحبُ الدائرتين لا يفلح ؛ لطول الطريق عليه) انتهىٰ

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول (كلُّ مريد لم يعتقد ترجيحَ قولِ شيخه علىٰ قول كل عالمٍ ، بحيث لا يصير له التفاتٌ إلىٰ قول غيره . . فلا يجيء منه شيء في الطريق) انتهىٰ

وكان سيدي يوسف العجميُّ يقول : (كما لم يكن للعالم إلـٰهان ، ولا للمرأة زوجان ، ولا للرجل قلبان . . كذلك لا يكون للمريد شيخان) انتهىٰ

واعلمْ يا أخي : أن مثالَ الحضرة الإلـٰهيةِ التي ينتهي سلوكُ المريد إليها . . مثالُ الكفِّ ، ومثالَ الطريق التي يدخل منها إليها مثالُ الأصابع ؛ ومثالَ السنين التي يجاهد المريد فيها نفسَهُ مثالُ عقد الأصابع ؛ فإن وصل إلى الحضرة في ثلاث سنين . . كانت كلُّ عقدة بمثابة سنة ، وإن وصل إلى الحضرة في ثلاثين سنة . . كانت كلُّ عقدة بعشر سنين ، وهـٰكذا حكمُ الزيادة أو النقص ، فإذا سلك المريدُ علىٰ شخص حتىٰ قطع عقدةً ، ثم تركه وأخذ عن شيخ آخرَ حتىٰ قطع عقدةً ، ثم تركه وأخذ عن شيخ آخرَ حتىٰ قطع عقدةً . . أفنىٰ عمرَهُ ولم يتجاوز العقدة الأولىٰ ، ولو أنه صَبَرَ علىٰ سلوكه تحت حكم شيخه الأول . . لكان قَطَعَ الثلاثَ عقدٍ ودخل الحضرة الإلـٰهيةَ

وإيضاحُ ذلك : أنه لا يصح لشيخ أن يبنيَ علىٰ أساس شيخ آخرَ ، فلا بدَّ أن ينقضَ ما بناه الأول إن أراد أن يبنيَ ، فافهم ، وهـٰذا مثالٌ ما أظنه طرق سمعَكَ قط .

وسمعت سيدي علياً المَرْصَفيَّ رحمه الله يقول (لا يجوز حملُ الأشياخ علىٰ أنهم إنما منعوا مريديهم من زيارة غيرهم حبّاً في الرئاسة ، حاشا أولياء الله من ذلك) انتهىٰ .

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي (ملتفتٌ لا يصل ، ومتسللٌ لا يفلح)[١] ؛ أي : ملتفتٌ إلىٰ غير ما يرشده به شيخُهُ نيابةً عن الشارع صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من كان ملتفتاً إلىٰ ورائه فسيرُهُ ضعيفٌ ، فربما مات في الطريق ولم يصل إلى الحضرة الإلـٰهيةِ التي ينتهي إليها سيرُ العارفين

وسمعت سيدي علياً الخواصَ يقول : (لا ينبغي لشيخ أن يمنع مريدَهُ من زيارة غيره ، إلا إن أعطاه اللهُ تعالى الكشفَ الصحيح بأنه لا يُفتَحُ علىٰ ذلك المريد إلا علىٰ يده هو ، فيمنعه ليُقرِّبَ عليه الطريقَ ، فإن لم يعطه الله تعالى الكشفَ عن ذلك. . فربما يكون منعُهُ حظَّ نفس ، فليتنبه الشيخ لذلك)

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ رضي الله عنه يقول لأصحابه : (نحن لا نمنع أحداً منكم من الاجتماع بغيرنا ، ولـٰكن إن رأيتُم منهلاً أعذبَ من منهلنا. . فعليكم بالاجتماع بصاحبه) انتهىٰ .

قال الشيخ أبو العباس المرسيُّ : (فكنا ننظر في مناهل الأشياخ ، فلم نَرَ أعذبَ من منهله ؛ فلذلك تقيَّدنا عليه ، رضي الله عنه)[٢]

---

(١) البرهان المؤيد (ص٣٣) ، وأصل الكلام لسيدي عبد الملك الخرنوتي فيما أوصاه به لسيدي أحمد بن الرفاعي ، وفيه : (ومتشكك) بدل (ومتسلل)

(٢) لطائف المنن (ص١٢٠) .

هٰذا كله في المريدين الصادقين في طلب الطريقِ ، أما غالبُ مريدي هٰذا الزمانِ . . فهُمْ كالمعتقدين الذين لا يتقيدون علىٰ حكم شيخ ؛ فيزورون هٰذا ، ويزورون هٰذا ، ولا حرجَ عليهم ؛ لأنهم لم يقصدوا مقاصدَ الرجال

ومَنْ شكَّ في حال مريد في دعواه الصدقَ معه . . فليأمرْهُ بطلاق زوجته مثلاً ، أو إسقاطِ حقه من خلوته أو وظيفته ، أو تفرقةِ ثيابه علىٰ إخوانه مثلاً ؛ فإن أجاب بانشراح صدر فهو صادقٌ في دعواه التقيُّدَ علىٰ شيخه ، وإن أبىٰ أو أجاب مع انقباض الخاطر . . فليعلمْ أنه كاذبٌ ، وهٰذا مِحَكٌّ يُظهِر زَغَلَ المريد

وبالجملة فالصادقُ من المريدين أعزُّ من الكبريت الأحمر في هٰذا الزمان ، كما بسطنا القولَ علىٰ ذلك في كتاب « قواعد الصوفية »[1] ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ تكدُّره من شيخ عُقِد له مجلس ذكر في زاويته ، وانشراحه لذلك]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ تكدُّري من شيخ عُقِد له مجلسُ ذكر في زاويتي تجاه مجلسي ، بل أذهب إليه أنا وجماعتي ، ونجعلُهُ شيخاً لنا بانشراح صدرٍ ، فنكبِّرُ مجلسَهُ ، ويكبُرُ مجلسُنا

وهٰذا خلق غريبٌ لا يكون إلا في أفرادٍ من الناس ، وغالبُهم يطلب كلُّ واحد منهما أن يكون هو الشيخَ ، وربما وقع بينهم خصامٌ وضربٌ وترافعٌ إلى

---

(١) والمسمى : « الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية » .

الحكام ، وربما طلع أحدُ الشيخين للباشاه وكتب له بذلك مرسوماً ، ويُنهي أن ذلك الشيخَ الذي طرأ عليه هو الظالمُ[1] ، ويُصدِّقه العوامُّ علىٰ ذلك ، وكيف يكون ظالماً مَنْ يذكر الله في بيته عز وجل ؟! وليس شيخٌ أحقَّ بالمسجد من شيخ ولو كان هو المنشئَ له ؛ لأن المساجدَ لله تعالىٰ .

فعُلِمَ أنه لا يتكدَّر ممن يذكر الله َتعالىٰ بجماعة أخرىٰ . . إلا مَنْ يطلب بذكره الرئاسةَ والرياءَ وحبَّ الشهرة ، وفاعلُ ذلك إلى الإثم أقربُ .

وقد تقدم : أن مما منَّ الله به علينا الفرحَ بكل شيخ برز في حارتنا ، وانقلب إليه جميعُ تلامذتنا ، بحيث لم يبقَ حولنا مريد واحدٌ ، ومتىٰ تكدَّرنا منه فنحن خارجون عن طريق الشريعةِ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[ذهابُ فهمه عند سماع آية أو حديث أو كلام السلف . . إلى الاتعاظ دون الأحكام]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : ذهابُ فهمي إلى الاتعاظ والاعتبار إذا سمعت آيةً أو حديثاً ، أو شيئاً من كلام السلف الصالح ، ولا أذهب إلى الأحكام واللغة والإعراب إن طلبته إلا بعد ذلك

وهـٰذا الأمرُ قد أعطاه الله تعالىٰ لي من حينَ كنت صغيراً ، وهو خلق غريبٌ لا يوجد إلا في أفرادٍ من العلماء فضلاً عن غيرهم ؛ فأولُ ما يذهب فهمُهم إلى الأحكام أو إلىٰ إعراب الكلام ونحوِ ذلك ، ولا يكاد أحدُهم يترقَّىٰ عن ذلك إلى الاعتبار والقوارع والزواجر التي انطوىٰ عليها ذلك الكلامُ ، وربما أفنىٰ عمرَهُ كلَّهُ في ذلك ولم يصلْ إلى الاعتبار ، ولا إلىٰ

---

(١) طرأ عليه : إذا طلع .

مشاهدة صاحبِ ذلك الكلامِ حين سماع تلاوة كلامه

وكثيراً ما يكون القارئ يقرأ في تفسير القرآن عندنا أو الحديثِ أو كلامِ السلف الصالح وأهلُ المجلس في غاية الخشية والبكاء والخوفِ من الله عز وجل ، فيدخل علينا نَحْويٌّ فيقول : هٰذا الكلامُ معطوف علىٰ ماذا ؟ أو : الأفصحُ أن يقال : كذا ، ونحوَ ذلك ، فترتفع الخشيةُ عن أهل المجلس ، ويزولُ البكاء والاعتبارُ لوقته .

وما هٰكذا كان السلف الصالحُ رضي الله عنهم ، إنما كانوا يُلقون بالَهم لِمَا في تلك الآيةِ أو الحديثِ مثلاً من الزواجر والقوارع ، دون الإعراب والجناسِ والفصاحة ونحوِ ذلك ؛ فإن كونَ القرآن أو الحديث فصيحاً معرباً . تحصيل الحاصل ، والاشتغالُ بما هو حاصل تضييعٌ للوقت ، ويكفي الإنسانَ أن يشتغل بالنحو والمعاني والبيان مدةً يسيرةً ، فيطلع فيها علىٰ فصاحة القرآن والحديث ، ثم يترقّىٰ إلىٰ إشغال فِكْره بالاستنباط للأحكام ، ثم منها إلىٰ مشاهدة صاحب الكلام ، كما كان عليه الأئمةُ المجتهدون رضي الله عنهم أجمعين

وسمعت سيدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول : (قَلَّ مَنْ يشتغل بمراعاة مخارج الحروف والترقيق والتفخيم والإقلاب والإدغام ونحوِ ذلك ، ويحضر مع الله تعالىٰ في قراءته ، الذي هو روحُ التلاوة ، والعلةُ في ذلك : ضعفُ النفس عن مراعاة شيئين معاً في آنٍ واحد) ، وأطال في ذلك .

ثم قال (ومن هنا قال الإمام مالك رحمه الله : إذا عسُر على المصلي مراعاةُ الحضور مع الله تعالىٰ ، ومراعاةُ وضع اليدين تحت الصدر . .

فالأدبُ إرخاء اليدين من غير وضعهما تحت الصدر ؛ تقديماً لِمَا هو الأهمُّ)[1]

فعُلِمَ : أن الناسَ علىٰ مراتبَ عند سماع القرآن مثلاً :

فمن الناس من يتبادر ذهنُهُ إلى الإعراب

ومنهم من يتبادر ذهنُهُ إلى اللغات .

ومنهم من يتبادر ذهنُهُ إلى الجناسات .

ومنهم من يتبادر ذهنُهُ إلى الأحكام

ومنهم من يتبادر ذهنُهُ إلى الاعتبار

ومنهم من يتبادر ذهنُهُ إلى الحضور مع صاحب الكلام .

فهُمْ علىٰ مراتبَ بحسَب ما هو الغالب علىٰ كلِّ واحدٍ منهم ، وأعلاهم مرتبةً : من يسبق ذهنُهُ إلىٰ مشاهدة صاحب الكلام ومناجاته بقلبه ؛ فيفوز بالنعيم الذي ليس فوقه نعيمٌ في الدارين .

وسمعت سيدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول (لا ينبغي للمصلي أن يشتغل باستنباط الأحكام من القرآن حالَ الصلاة ، وإنما ينبغي له ذلك خارجَها) انتهىٰ

وعُلِمَ أيضاً : أنه لا يقدِر على القراءة بالأنغام في القرآن ، ومراعاةِ التفخيم والترقيق ونحوِ ذلك ، مع الحضور مع الله تعالىٰ . . إلا الأكابرُ من الأنبياء والأولياء ، وأما غيرهم فإنه يُحجَب عن الله تعالىٰ بمراعاة ما ذكر ، ومَنْ شك في قولي فليمتحن نفسَهُ .

---

(١) انظر « حاشية الدسوقي على الشرح الكبير » (١/ ٢٥٠)

فإذاً ؛ القراءةُ الساذجة أولىٰ لكل ضعيف الحال ، والسلام ، والحمد لله ربِّ العالمين

[كثرةُ توجيهه لأقوال الأئمة المجتهدين والصوفية]

ومما منَّ الله به عليَّ كثرةُ توجيهي لأقوال الأئمة من الفقهاء والصوفية ؛ لاطلاعي علىٰ منازعهم ، وربما دخل الداخلُ وأنا أُوجِّهُ مذهبَ الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه فيعتقد أني حنفي ، والحالُ أني من أتباع الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وهو إمامي في ذلك ؛ فإنه لمَّا صلَّى الصبحَ عند قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه تركَ القنوتَ وقال : (كيف أخالفه وأنا عنده ؟!)، وقال : (الناسُ كلُّهم عيالٌ عليه في الفقه)[١] ، مع أن الإمامَ الشافعي رضي الله عنه قائلٌ بمطلوبية القنوت في الصبح تبعاً لِمَا صحَّ عنده ، فافهم .

وقد حُبِّب إليَّ أن أوجِّهَ لك أقوالَ الأئمة في الصلاة والوضوء ؛ لكثرة تداولهما بين أصحاب المذاهب ، فأقول وبالله التوفيق

[مطلبٌ
في توجيهِ أقوال الأئمة في الوضوء]

وجهُ من قال : لا يصحُّ الوضوء بالماء المستعمل . . كونُ الخطايا خرَّتْ فيه بنصِّ الحديث[٢] ، وما تَخِرُّ فيه الخطايا لا ينبغي لمؤمن أن يتطهر به ؛

---

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء » (ص١٣٦) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١٣/٣٤٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٠/١١٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢) عن سيدنا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

لأن موضوعَ الطهارة أن تزيد العبدَ طهارةً وتقديساً ، والوضوءُ من غُسَالة الخطايا مستقذَرٌ شرعاً وحسّاً عند أصحاب الكشف

ثم إن القذرَ يزيد وينقص بحسب المعاصي التي خَرَّتْ ، فليس غُسالةُ الزنىٰ واللواط مثلاً كغُسالة شيء من الصغائر ، وليس غُسالةُ شيء من المكروهات كغُسالة شيء من الصغائر ، وليس غُسالة خلاف الأولىٰ كغُسالة المكروه ، **فرحم الله الإمامَ أبا حنيفة حيث عمَّ بأقواله الثلاثةِ في الماء أنواعَ القذر**[1] ؛ **منْ نجس مُغلَّظ ، ومتوسط ، وطاهر في نفسه غير مُطهِّر لغيره**

فالنجسُ المغلَّظُ : كغُسالة الزنىٰ ، والقتلِ بشرطه ؛ من التوبة النصوح

والمتوسط : كالصغائر

والطاهرُ في نفسه غيرُ مطهر لغيره : كغُسالة المكروه ، وخلافِ الأولىٰ ، من حيث جوازُ المكروه في الجملة

وفي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة ـ لما قالت له : حسْبُكَ صفيةُ ؛ تعني قصيرةً ـ : « لقد قلْتِ يا عائشةُ كلمةً لو مُزِجتْ بماءِ البحرِ لمزجتْهُ »[2] ؛ أي : لغيرته ، فإذا كانت هـٰذه الكلمةُ تُغيِّر ماء البحر الأعظم لو وُضِعتْ فيه . . فما ظنُّكَ يا أخي بغُسالة الذنوب العظام في فسقية صغيرة ؟![3]

فرحم الله الإمامَ أبا حنيفة أيضاً ؛ حيث منع الطهارةَ بالماء المستعمل في

---

(١) ومراده بـ (الماء) : الماء المستعمل

(٢) رواه أبو داود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٣) الفَسْقيةُ : المتوضَّأ ؛ وهو حوض من الرخام ونحوه ، مستدير غالباً ، تتوسطه نافورة ماء

فساقي المساجد ؛ فإنها بالنسبة للبحر كقطرة من البحر المحيط ، فافهم ، فهي أولىٰ بالتقذير والتغيير

وأما وجهُ من جوَّز الوضوءَ بالمستعمل . . فهو أن تقذير الماء بالخطايا أمرٌ غيرُ مشهود للمؤمنين ، ولا يُنهَى الإنسانُ عن الوضوء إلا مما يشهده قذراً ، على اختلاف المقامات في ذلك ، ويؤيده تسميةُ الماء طهوراً ؛ أي : يتكرر به التطهيرُ عند من جَوَّزه

وأما وجهُ من منع صحة الوضوء إذا لم يُسَمَّ اللهُ عليه . . فلأن كلَّ ما لم يُذكَرِ اسمُ الله عليه غيرُ مبارك ، بل غيرُ حلال ، كما قال تعالىٰ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام : ١٢١] ؛ فإن ظاهرَهُ يشهد لِمَا قلناه ، وإن كان للآية تأويلٌ آخرُ ، وفي الحديث « لا وضوءَ لمَنْ لم يذكرِ اسمَ اللهِ عليهِ »[١] ، وإن كان فيه ضعفٌ عند غير مَنِ استدل به للاستحباب .

وأما وجهُ من أوجب الترتيبَ في الوضوء وأبطل غيرَ المرتَّب [٢] . . فلأنه لم يُنقَلْ لنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ غيرَ مُرتِّبٍ أبداً ، فالترتيبُ مأمور به أولاً ، ثم نهض به إلى الوجوب اجتهادُ المجتهد

وأما وجهُ من أوجب الموالاةَ . . فلأن الطهارةَ إنما شُرِعتْ لإنعاش البدن

---

(١) رواه أبو داود (١٠١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى البخاري (١٥٩) أن حمران مولىٰ عثمان رأىٰ عثمان بن عفان دعا بإناء ، فأفرغ علىٰ كفَّيه ثلاث مرارٍ ، فغسلهما ، ثم أدخل يمينه في الإناء ، فمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهَهُ ثلاثاً ، ويديه إلى المرفقين ثلاث مرارٍ ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ توضأ نحوَ وضوئي هٰذا ، ثم صلىٰ ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسَهُ . . غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه » .

مما تولَّد من وقوع صاحبه في المعاصي أو الغفلاتِ ، حتىٰ كاد البدنُ أن يموت أو يضعف أو يفتر ، فلو لم يُوجِب الموالاةَ لأدىٰ إلىٰ زيادة البطء في الزمن[1] ؛ كأن يغسلَ وجهَهُ قبل طلوعِ الشمس مثلاً ، ثم يغسلَ بقيةَ أعضائه قبيل العصر مثلاً ، مع وقوعه في الغيبة والنميمة وغير ذلك ، وبذلك تذهب حكمةُ الوضوء الذي هو إنعاشُ الأعضاء بالماء ، حتىٰ كأنه لم يتوضأ ، فيقوم إلىٰ صلاة الظهر بذلك الوضوءِ الذي ذكرناه ببدن ميت أو ضعيفٍ ، كأنه لم يتوضأ ، فافهم ، فالموالاةُ من أصلها مأمورٌ بها ، ونهض بها الاجتهادُ إلى الوجوب .

وأما وجهُ من قال إن النيةَ لا تجب في الوضوء ، وتجبُ في التيمم . . فهو لأن الماءَ يُحيي بطبعه الأرض الميتةَ ولو أصابها بنفسه من غير نية فاعلٍ ؛ بدليل إنباته الحَبَّ بواسطة الأرض[2]

وأما وجهُ من قال بوجوبها في التيمم . . فلأن التراب ضعيفُ الروحانيةِ ، فاشتُرِط معه النيةُ المقارنة للقصد ؛ تقويةً لروحانيته .

وأما وجهُ من قال : إنه يصلي بتيمم واحدٍ ما شاء من الفرائض ، ولو خمسَ صلوات وأكثرَ . . فلأنه طهارةٌ في الجملة ، وقد سكت الشارعُ عن النهي عن الجمع المذكور ، فلو أن الجمعَ لا يجوز بالتيمم . . لنبَّهَ أمَّتَهُ عليه ، فافهم

---

(١) أي : زمن الطهارة .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (١/٣٧٦) : (كالأرض التي سال عليها الماء من غير فعل إنسان ؛ فإنها تحيا وتصلح للزرع ، وتنبت الحب الذي بذر فيها) .

[مطلبٌ

في توجيه أقوال الأئمة في الصلاة]

وأما توجيهُ أقوال الأئمة في الصلاة :

فوجهُ من قال بالاستعاذة في الركعة الأولىٰ فقط . . لكون إبليسَ يُطرَد عنه بالاستعاذة مرةً واحدة ، وهو خاصٌّ بالأكابر ؛ لشدَّةِ عزمهم ، وأما الأصاغرُ : فربما أتاهم الشيطانُ المرةَ بعد المرة ، فأمرهم العلماءُ بالاستعاذة منه في كلِّ ركعة

وأما توجيهُ قول مَنْ قال بوجوب البسملة أولَ (الفاتحة) . . فلِمَا ذكرناه في الوضوء[1] ، واتباعاً للشارع صلى الله عليه وسلم في قراءته لـ (الفاتحة)

ووجه من قال بعدم وجوبها . . عدمُ ثبوت الحديث عنده فيها ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يُسِرُّ بها تارةً ، ويجهر بها أخرىٰ ، فنقل كلٌّ من الصحابة عنه صلى الله عليه وسلم . . ما رأىٰ

ويُوجَّهُ ذلك أيضاً : بأن التسميةَ إنما وُضِعت للتبرك ما دام صاحبُ الاسم غيرَ مشهود للقارئ ، فإذا كان مشهوداً له فلا يحتاج إلىٰ ذكر اسمِهِ ، وقد وقع في بعض الهواتف الربانيةِ : (إذا لم ترني فالزمِ اسمي)[2] ، فما أمره

---

(١) انظر (ص٤٦٠)

(٢) هو في مواقف الشيخ محمد النفري حيث قال (أوقفني الحقُّ تبارك وتعالىٰ بين يديه في المنام وقال لي : (إذا لم ترني فالزم اسمي) .

بلزوم اسمه إلا إذا لم يرَهُ ، وأما مَنْ وقف بين يديه وشاهده بقلبه. . فقد استغنىٰ عن ذلك بمشاهدة صاحبِ الكلام .

ومن هنا ألغز من قال من العارفين[1] : [من الوافر]

بــذكــرِ اللهِ تــزدادُ الــذنــوبُ

أي : إنه لا ينبغي لمن شهد الحقَّ تعالىٰ أن يذكرَ اسمَهُ كما يفعله المحجوب ، وتقدَّمَ في المبحث قبله الكلامُ علىٰ وضع اليدين تحت الصدر ، فراجعه[2]

وأما وجهُ من قال : لا تصحُّ الصلاةُ إلا بـ (فاتحة الكتاب) . . فيشهد له ظواهرُ الأحاديث[3] ، وأظهرُ حديث في وجوبها حديثُ : « قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدِي نصفينِ »[4] ؛ فإنه جعل فيه (الفاتحةَ) جزءاً من الصلاة .

وقال بعضهم : تعيُّنُ (الفاتحة) خاصٌّ بأكابر الأولياء الذين يشهدون في (الفاتحة) جميعَ أحكام القرآن بالقوةِ كامنةً فيها ككمون النخلة في النواة

---

(١) أورده الآلوسي في « تفسيره » (٣/ ١٧٤) ، وتتمة البيت :

وتنكشــفُ الــرذائــلُ والعيــوبُ

وأورد بيتاً آخر بعده ، وهو :

وتـركُ الـذِّكـرِ أفضـلُ كـلِّ شـيءٍ   وشمـسُ الـذاتِ ليسَ لهـا مغيـبُ

(٢) انظر (ص٤٥٦) .

(٣) منها : ما رواه مسلم (٣٩٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) منها : ما رواه البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بـ (فاتحة الكتاب) »

بجريدها وخُوصها وخشبها[1] ، ولمَّا كان ذلك لا يتيسَّر لكلِّ أحد من المصلين . . قال الإمام الأعظمُ أبو حنيفة بعدم تعينها في الصلاة ، وأنه يكفي قراءةُ ما تيسر من أيِّ سورة كانت من القرآن

وأيضاً فإن الكلامَ من حيث هو صفةٌ لله تعالىٰ . . راجع إلىٰ ذات واحدة ، فلا يقبل التفاضلَ إلا من حيث أمرٌ آخرُ عارض كما يعرف ذلك أهلُ الكشف .

فعُلِمَ : أن لكلٍّ واحد من الأئمة دليلاً من السنة ؛ إما نصٌّ ، وإما ظاهرٌ ، فلا ينبغي لمقلد أن يُضعِفَ مذهبَ غيره ؛ لأنه محمول علىٰ خلاف ما حمله إمامُهُ

وقد أوجبَ بعضُهم (الفاتحة) علىٰ كلِّ مصلٍّ ؛ أما الأكابرُ فظاهر ؛ لأنهم يشهدون احتواءَها علىٰ جميع معاني القرآن ، وأما الأصاغرُ فيكفيهم الأخذُ بالظاهر ؛ وهو قراءتُها ، سواء تعقلوا جميعَ أحكام القرآن فيها أم لا

وأما وجهُ من أوجب مراعاةَ مخارج الحروف علىٰ مصطلح القُرَّاء . . فظاهرٌ أنه مخصوصٌ بالأكابر والأصاغر

وأما وجهُ من منع صحةَ الصلاة بعدم الاعتدال . . فهو أن الضعيفَ من المصلين لا يقدر علىٰ توالي شهودِ عظمة الله تعالىٰ عليه في حالَ ركوعه وسجوده ، ولو أنه أراد أن ينزلَ إلى السجود علىٰ إثر الركوع من غير اعتدال . . لزَهِقَتْ روحُهُ وخرجتْ من حضرة الله تعالىٰ قهراً عليها ؛ فلذلك شرع له الشارعُ الاعتدالَ ليستريح فيه من ثِقل تلك العظمةِ التي كادت تَفصِلُ

---

(١) **الخُوص** : ورقُ النخل .

أعضاءَهُ ، وقال : « لا صلاةَ لمَنْ لم يُقِمْ صلْبَهُ في الصلاةِ »[١]

فعُلِمَ : أن كمالَ الطمأنينة في الاعتدال خاصٌّ بالأصاغر ، وأما الأكابرُ الذين أقدرهم اللهُ تعالىٰ علىٰ توالي عظمته في قلوبهم . . فلم تجبِ الطمأنينةُ في الاعتدال عليهم ؛ لأن العبدَ إذا وصل إلىٰ محلِّ القرب . . فلا يؤمر بالرجوع إلىٰ ورائه إلا لحكمة أخرىٰ ، وكلما ضعُفَ العبدُ خُوطب بالرفع أكثرَ ؛ فأصلُ رفع الرأس لا بد منه لكل مصلٍّ من الأكابر والأصاغر ؛ لعجزهم كلِّهم عن حمل توالي العظمتين علىٰ قلوبهم من غير تخلُّلِ فاصلٍ يتنفسون به

وكذلك القولُ في الاعتدال بين السجدتين وجِلْسةِ الاستراحة ؛ فلو أن المصلي المستحضرَ عظمةَ الله في سجوده قَدَرَ علىٰ تطويل السجود من غير تفصيل أعضائه . . لَمَا أُمِرَ بالجلوس بين السجدتين ، فلا بد من رفع الرأس فيه للأكابر والأصاغر علىٰ وِزان الاعتدال بعد الركوع ، بل هو أوجبُ ؛ لأن عظمةَ الله المتجليةَ لقلب المصلي في السجود ليس فوقها مرتبةٌ في العظمة ؛ لحديث « أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّهِ وهو ساجدٌ »[٢] ؛ فإنها كحضرة قابِ قوسين أو أدنىٰ ، ولذلك شُرِعت جِلْسةُ الاستراحة ؛ رفقاً بالمصلي ، وشفقةً عليه ، ولو أن الشارعَ لم يشرعْها لَمَا قَدَرَ المصلي الكاملُ أن ينهض إلى القيام بغير جلوس

ومن شكَّ في قولي هـٰذا فليلزمْ نفسَهُ في حال سجوده ، ويجمعْ عوالمَهُ

---

(١) رواه بنحوه أبو داود (٨٥٥) ، والترمذي (٢٦٥) عن سيدنا أبي مسعود البدري رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٤٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

كلَّها حتىٰ لا يصيرَ يخطرُ شيءٌ من الأكوان علىٰ خاطره ، ولا يشهدَ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنه يحسُّ بمفاصله تقطعت ، ولا يقدر ينهض إلى القيام من السجود أبداً ، فكان من رحمة الله تعالىٰ بالضعفاء خطورُ الأكوان علىٰ قلوبهم ؛ ليغيبوا بها عن شهود تلك العظمةِ ، ولولاها لماتوا ؛ كما خَرَّ موسىٰ صعقاً مع كونه من أولي العزم ، فافهم

فقولُ الإمام أبي حنيفة بعدم وجوبِ الطمأنينة في الاعتدالين خاصٌّ بالأكابر من الأولياء ، وكلامُ غيره خاصٌّ بعامة المسلمين ، فرضي الله عنه ما كان أدقَّ نظرَهُ في الحِكَمِ الباطنةِ في الشريعة !

وأما وجهُ من لم يُوجب الصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم . . فهو أن حضرةَ الصلاة خاصَّةٌ بالله عز وجل ، فربما غلبتِ الهيبةُ على المصلي ، فلم يكن له بالٌ لمخلوق في تلك الحضرةِ ولو كان من أعظم العبيد ، فجُعِل الأمرُ موسَّعاً في عدم ذكر غيرِ الله تعالىٰ ، فمَنْ قويَ سأل الله تعالىٰ أن يصليَ على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه صدْرَ تلك الحضرة ، وأجلَّ وأعظمَ مَنْ هو فيها ، وواسطةً لكل داخل إليها ، ومن ضعف سُومِح

وقد حكى القشيريُّ : أن الشبلي أذَّن مرةً ، فوقف عند قوله : (محمدٌ رسول الله) ، ثم قال (وعزتك وجلالك ؛ لولا أمرتني بذكر غيرك ما ذكرتُهُ) انتهىٰ[١] ، ولعل ذلك كان منه قبل الكمالِ كما سيأتي

فعُلِمَ : أن وجوبَ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم خاصٌّ بالأكابر ، والاستحبابَ خاصٌّ بالأصاغر ، لا بمعنى الاستهانةِ بجنابه

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٥٥٢)

صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو لعجزهم عن الالتفات لغير الله تعالىٰ ، وفي كلام الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه : (من شهد الحقَّ لم يَرَ الخَلْقَ ، ومن شهد الخَلْقَ لم يَرَ الحقَّ) انتهىٰ ، وهـٰذا محمولٌ علىٰ حال من لم يبلغ مقامَ الكمال ؛ فإن الكاملَ مِنْ مقامه أن يعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، لا يشغلُهُ أحدُ الحقَّين عن الآخر .

وأما وجهُ من قال : تجب نيةُ الخروج من الصلاة . . فهو أن المصليَ كان في حضرة الله تعالى الخاصَّةِ ، ومعلومٌ أن من الأدب مشاورةَ الأكابر عند الانصراف من مجلسهم

وتأمَّلْ يا أخي لمَّا يقوم عنك جليسُك من غير استئذان . . تجدْ في نفسك وحشةً ، عكس ما تجده من الأُنس إذا استأذنك ، وما كان أدباً مع الخَلْق فالحقُّ تعالىٰ أولىٰ به ، وهـٰذه غُرةٌ من توجيه أقوالِ الأئمة ، ذكرتُها لك ؛ لتقيسَ عليها ما لم أذكرْهُ ، فالكاملُ من تتبع منازعَ أقوال الأئمة ، وعرف من أين انتزعوها ، وما الحكمةُ فيها ، لا من أخذ بقولٍ وترك آخرَ ، مع القدرة على السلوك والوصولِ إلى الاطلاع علىٰ مآخذ الأقوالِ ، والحمد لله ربِّ العالمين(١)

[كراهةُ التميز عن الإخوة في مجلس الذكر أو العلم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ محبتي للتميز عن إخواني في مجلس ذكرٍ أو عِلْمٍ ؛ فلا أجلس علىٰ سَجَّادة ولا مُضرَّبة إلا لعذر شرعي(٢) ، ثم أُطلعهم

---

(١) سيأتي توجيه كلام الصوفية (ص٥٨٩) .

(٢) المُضرَّبةُ : غطاء كاللحاف ذو طاقين مخيطين خياطة كثيرة ، بينهما قطن ونحوُهُ ، =

علىٰ ذلك العذر ؛ خوفاً من وقوع أحد منهم في سوء الظنِّ فيهلكَ في دينه

ومن العذر أن أكون هزيلاً ، أو طلع بي بواسيرُ ؛ فإن جلوسَ مَنْ به ذلك على الأشياء الصلبةِ . . يضرُّهُ

ومن العذر الشرعيِّ أن يجلس الإنسانُ علىٰ فراش يتميَّزُ به ؛ لأجل سؤال العوامِّ والفلاحين عن أمر دينهم ، فلا يحتاجون أن يسألوا عن الشيخ من أحدٍ من الحاضرين .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يجلسُ بين أصحابه لا يُعرَفُ من بينهم ، فكان الأعرابيُّ يأتي يسأل عن دينه ، فلا يعرفُ النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ يسألَ الصحابة عنه ، فتكلَّمَ الصحابةُ فيما بينهم أن يجعلوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً خاصّاً يُعرَفُ به من بين أصحابه ، فأجمع رأيُهم علىٰ أنهم يبنون له دكاناً من طين يجلس عليه[1] ، ففعلوا ذلك ، ووضعوا له عليه حصيراً من خُوص النخلِ ، فكان صلى الله عليه وسلم يجلس عليها

وكان صلى الله عليه وسلم من أحسن الخَلْقِ خُلُقاً ، وكان يراعي خواطرَ أصحابه ، ويسعىٰ في تمييل خاطرِهم له ما أمكنَ ؛ لينقادوا إلىٰ نصحه

= وفراش من ريش ، ومخدة

(١) روىٰ أبو داود (٤٦٩٨) عن سيدنا أبي ذرٍّ وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظَهْرَي أصحابه ، فيجيء الغريبُ فلا يدري أيُّهم هو حتىٰ يسأل ، فطلبنا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، قال فبنينا له دكاناً من طين ، فجلس عليه ، وكنا نجلس بجَنبتَيه . . . ، فأقبل رجلٌ فذَكَرَ هيئتَهُ ، حتىٰ سلَّم من طرف السِّماط فقال السلام عليك يا محمد ، قال : فردَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم

وإرشادِهِ ؛ فإن المريدَ إذا لم يظنَّ بشيخه الصلاحَ والتواضع . . لا يصحُّ له به انتفاعٌ ، أو لا يكمل

وسمعت سيدي عليّاً الخواصَ يقول (من كمال الفقير أن يخفضَ جناحَهُ لإخوانه ، ويرىٰ نفسَهُ دونهم ، وهناك يبالغون في تعظيمه ، وينتفعون به ، بخلاف مَنْ كان بالضدِّ من ذلك ؛ فإن الأمرَ يكون بالضدِّ) ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[كراهتُهُ الأكلَ من طعام المريد إلا إن تمكَّنت محبتُهُ منه]

ومما أنعم الله به عليَّ : كراهتي لأكل طعامِ مَنْ لم تتمكَّنْ منه محبتي ؛ كالمريد أوائلَ صحبته لي ، فمَنْ أكل طعامَ مثل هـٰذا . . فقد خرج عن طريق القومِ ، لـٰكن إذا تمكَّنتْ منه محبَّتُنا ، وصار يرىٰ جميعَ ما يملكه ملكاً لنا . . فحينئذ لنا الأكلُ من طعامه

[مطلبٌ

في الحكمةِ من امتناع الأشياخ من الأكل من طعام المريد]

والحكمةُ في امتناع الأشياخ من الأكل من طعام المريد : كونُهُ يورث المريدَ الإدلالَ على الشيخ ، ورؤيتَهُ الفضلَ علىٰ شيخه ، وهـٰذا داء قد عمَّ غالبَ الناس اليوم ، فترى الشيخَ منهم يأكل ويشرب عند مريده أوائلَ صحبته ، ويقبل منه الهدايا ، ويكسو أولادَهُ وعيالَهُ ، ولا يلتفت لِمَا في ذلك من نقص المرتبة ؛ فإن من شرط الشيخ أن يكون له اليدُ علىٰ مريده في أمور الدنيا والآخرة ، وقد جاءني شخصٌ وقال لي إن الشيخ الفلانيَّ قال

لي إن لم تعطني كلَّ ما طلبته وإلا عطبتك . انتهىٰ

وكثيراً ما سمعت سيدي محمدَ الشِّنَّاويِّ الأحمدي رحمه الله يقول (مالُ المريدين حرامٌ على الأشياخ) انتهىٰ ، وهو محمولٌ على التفصيل الذي ذكرناه أوَّلاً

وأقبحُ ما يقع فيه مثلُ هـٰؤلاء أن يعادوا الشيخَ الذي يتردَّد إليه صاحبُهم ؛ خوفاً أن يزاحمَهم في هديته أو بِرِّه وإحسانه ، كما شاهدنا ذلك في صحبتهم للكشاف ومشايخِ العرب

وقد قدَّمنا في هـٰذه المنن : أن من فضل الله تعالىٰ عليَّ حمايتي من الأكل من طعام الأمراءِ والكشاف ومشايخِ العرب وغيرِهم من جميع من نشفع عندهم[١] ؛ خوفاً أن نميل إليهم ، وتقصرَ يدُنا ولسانُنا عنهم وعن كمال نصحهم ، فيفوتَنا قبولُ الشفاعة في المظلومين ؛ ولذلك كنت أفرح بالأمير إذا ترك الاعتقادَ فيَّ واعتقدَ غيري ، وأنا أعرف أني لو صحبتُهُ لعلَّة دنيوية لتكدَّرت منه ومن ذلك الشيخِ الذي صَحِبَهُ بعدي ضرورةً .

وقد وقع أن بعضَ مشايخ العرب زارني فقامت عليه القيامةُ ، مع أنه زارني من غير طلب مني ، وكان في صحبة شيخ من الصعيد يحبُّ الدنيا ، فكاد أن يخرج عقلُهُ ، ثم صار يقطع في عرضي[٢] ، فلا يُحصي عددَ ما اغتابني به إلا اللهُ تعالىٰ ، وكان لذلك الشيخ عليه كلما يسافر [إلى] الحجاز . . ثلاثون ديناراً كما قيل ، ثم مات على الشحناء ، وقد أبرأتُ ذمَّتَهُ

---

(١) انظر (ص٢٤٣)

(٢) قطع فلاناً : إذا سبَّهُ وأهانَهُ

في جملة من أبرأت ذمَّتَهُ من المسلمين دنيا وأخرىٰ ، مع أني لم أَقْبلْ لشيخ العرب المذكورِ هديةً ، ولا أكلتُ له طعاماً إلىٰ وقتي هـٰذا

ثم إن هـٰذا الشيخَ زوَّرَ كتاباً لشيخ العرب المذكور علىٰ لسان خَلْقٍ مجهولين من أهل مصر ؛ فيه : (إن الناسَ لاثوا بعرضك الذي زُرتَ فلاناً وتركتَ سيدي الشيخَ ، وكيف تترك البحر الزاخر ، وتصحب مَنْ هو كخرَّارة الحَمَّام ؟!) ، فلما قرأ شيخُ العرب المذكورُ الكتاب . . أرسله إليَّ وقال لي (هـٰذا وصل إليَّ من فلان ، ولـٰكن ما ازددتُ فيك إلا محبةً واعتقاداً) ، ثم لم يزل صاحبي ويقبل شفاعاتي إلىٰ وقتنا هـٰذا ، فأيُّ شيء كان يضرُّ هـٰذا الشيخَ لو حبَّبَهُ فيَّ كما أفعل أنا معه

فالحمد لله علىٰ ذلك ، والحمد لله الذي لم يستقرَّ قطُّ في باطني طعامُ مريد لبَّس عليَّ وادَّعىٰ أن جميع ما بيده من جملة صدقتي عليه ، ثم إن استقرَّ فلا بد من وجودي فيه الوجعَ والثِّقل ، فأبادر إلىٰ قيئه أو هضمِهِ بشيء من المُسهلات، وهـٰذا من جملة نعم الله تعالىٰ عليَّ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[إغاثته للملهوف والمكروب ، وقضاء حاجته في الأمور المحمودة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ احتجابي عن حاجة ملهوف أو مكروب في أمر محمود يريدُهُ مني ؛ كمن طَلَبَه ظالـمٌ ليأخذ مالَهُ ، أو من فَقَدَ ولده أو مالَهُ ، أو من يريد الاسترشادَ في طريق القوم ، أو من أخرجوا عنه وظيفتَهُ التي منها معاشُهُ عادةً ، ونحوِ ذلك .

فمن فَضْل الله عليَّ : أني أترك كلَّ أمر كنت فيه وأخرجُ إليه ، وأُبادر إلىٰ

قضائها بقلبي وقالبي ؛ فإن كانت تلك الحاجةُ مما يمكن تدارُكها . . سعيتُ معه في تحصيلها ، وإلا شرعتُ في تسليته عنها ؛ بذكر أحوالِ الصالحين وما صبروا عليه من البلايا والمِحن ، وعدم تأثرهم بفقد مالٍ أو ولد أو زوجة أو علاقةٍ دنيوية ؛ فإن التأسِّيَ بالسلف في ذلك يُخفِّفُ الهمَّ ضرورةً ؛ قال تعالىٰ ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام ٣٤]، وقال تعالىٰ : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨]، ولمَّا تقلقَ صلى الله عليه وسلم من شدة ما لقي من قومه . . قال الله تعالىٰ له ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف ٣٥]

فعُلِمَ : أنه لا يجوز حملُ أحد من الأشياخ علىٰ أنه احتجب عن المكروب تكبُّراً أو استهانةً بحقه ، معاذ الله أن يحتجبوا لمثل ذلك ، وإنما الغالبُ عليهم اشتغالُهم بالله عز وجل ، فربما حصلتْ لهم جمعيةٌ بقلوبهم على الله تعالىٰ ، فمنعتهم الحركةَ والالتفاتَ لغيره تعالىٰ ، كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول « لي وقتٌ لا يسعُني فيهِ غيرُ ربِّي » انتهىٰ[١] ، وفي القرآن العظيم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات ٥] ، فلم يُعيِّن ذلك بمدة ، فشمل اليومَ ، والجمعةَ ، والشهرَ ، فافهم

وقد كان سيدي الشيخ مدينُ والشيخ عليٌّ المَرْصَفيُّ لا يخرجان من بيتهما إلا لصلاة العصرِ فقط ، ولو أن أحداً جاءَهما في غير ذلك الوقتِ . . لم يخرجا له ، ومثلُ هـٰذين الشيخين لولا أن لهما عذراً شرعيّاً . . لخرجا كلَّ

(١) انظر « المقاصد الحسنة » (٩٢٦)

وقت دُعِيا فيه إلى الخروج ، فالتسليمُ لهما ولمن تبعهما أسلمُ ، وحملُهما علىٰ مَحمَل حسن أغنمُ

هـٰذا كلُّهُ في حقِّ أصحاب الضروراتِ العادية ، أما من لا ضرورةَ له ـ كغالب من يزور الفقراءَ اليوم ـ فلا ينبغي لفقير أن يَخرُجَ لأحدهم ، إلا إن عَلِمَ منه حفظَ اللسان في مجالسته إلىٰ أن يقومَ ويخرجَ ، وهـٰذا صار كالكبريت الأحمر في هـٰذا الزمان ، وإن شككتَ في قولي فاضبطْ مجالسَ الزائرين لك في حقِّ أقرانهم ، وفي حقِّ ولاة الزمان ، وأخبارُ الناس لا تكاد تَسلَمُ من ذكر غيبة فيهم ، فلا تخرجْ يا أخي إلا بوجه شرعيٍّ ، ولا تحتجبْ إلا بوجه شرعيٍّ ، وقد نصحتُكَ ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[عدم نفرة المؤلف من مخالطة أصحاب الكتب والرذائل]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ نَفْرة نفسي من مخالطة أصحابِ الرذائل ، بل ربما أرىٰ رذائلي أكثرَ من رذائلهم ، وقد سبقني إلىٰ ذلك عطاءٌ السلمي التابعيُّ الجليل، فكان يخدمه المخنثون داخل البيت، فقيل له : ألا تخرجُ هـٰؤلاء الأنتان من بيتك ؟! فقال : (والله ؛ لَهُم عندي أطهرُ من نفسي وأقلُّ رذائلَ) انتهىٰ

وهـٰذا الخلق لا يقيم فيه إلا من كَنَسَ بروحه المزابلَ ، وعَمِيَ عن مساوي الناس ، ولم يطلب مقاماً عندهم .

وكان أخي أفضلُ الدين علىٰ هـٰذه القدم ، كان كلُّ من رآه من المخنثين يسأله الدعاءَ ، فقلت له (إنهم عصاةٌ !) فقال : (أنا ما رأيتُهم عصوا ، ولا ثبت عندي ببينة أنهم عصوا ، وبتقدير ثبوت ذلك ببينة فيحتمل أنهم يتوبون عند كلِّ زلة) انتهىٰ

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول (لا يرى الإنسانُ من أخيه إلا صورةَ حاله في نفسه من خير وشر ؛ لأن المؤمنَ مرآةُ المؤمن ، هٰذا في الأمور القلبية ، وأما الأفعالُ والأقوال الظاهرةُ فلا تدخل في هٰذا الميزانِ) انتهىٰ

وقد تقدَّمَ في مبحث أصحابِ الكتب : أن العصاةَ ضالةُ كل داعٍ إلى الله تعالىٰ ، فهو دائرٌ عليهم ؛ ليقيم عِوَجَهم ، ويتخوَّلَهم بالموعظة[1] ، بخلاف من ينفر منهم ويزدريهم ؛ فإنه لا فائدةَ في ذلك لا له ولا لهم ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تأدُّبُهُ مع أصحاب الحضرة الإلـٰهية
وعدم وقوفه بين يدي الله إلا بعد وقوفهم]

ومما منَّ الله به عليَّ : تأدُّبي مع أصحاب الحضرات الإلـٰهيةِ ، وعدمُ انفرادي في الوقوف بين يدي الله عز وجل قبل أن يقف أحدٌ منهم ؛ وذلك لضعفي عن القدرة على الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ إلا تبعاً لهم ، وقد قمتُ ليلةً قبل أن يدخل النصفُ الثاني من الليل وتَشرعَ أهلُ الحضرة في سائر أقطار الأرض في الاصطفاف ، فكدتُ أن أذوبَ ، وحمدتُ الله عز وجل الذي لم يطردني خُدَّامُ الحضرة الإلـٰهية من الملائكة حين تقدَّمتُ في الوقوف علىٰ خواصِّ أهل الحضرة[2] ؛ وذلك أن حكمي حُكمُ زبَّال دخل في غفلة

---

(١) انظر (ص٢٨٤)

(٢) في (هـ ، و) : (لم يطردني عن خدام) بدل (لم يطردني خدام)

علىٰ خُدَّام حضرةِ بعض ملوك الدنيا قبل أن يأذن المَلكُ لأحد في الدخول ، ولله المثلُ الأعلىٰ ، فافهم

وقد تقدَّمَ في هـٰذه المنن أن سيدي علياً الخواصَ رحمه الله كان لا يتجرَّأ قط أن يدخلَ المسجدَ للصلاة إلا بعد سماع قول المؤذن (حيَّ على الصلاةِ) ، وبعد أن يجدَ أحداً يدخل ، وأنه كان يقف علىٰ باب المسجد خلف خدِّ الباب حتىٰ يجد أحداً يدخل فيه[1] ، فيدخل تبعاً له ويقول : (مثلُنا لا ينبغي له أن يدخل حضرةَ الصلاة بين يدي الله إلا تبعاً) انتهىٰ

وهـٰذا الأدب الذي ذكرته في قيام الليل . . لم أجد أحداً من المريدين يراعيه ؛ لعدم معرفتِهِ به ، أو لغير ذلك ، بل ربما رأىٰ شفوفَ نفسه علىٰ خواصِّ أهل الحضرةِ حين يقف قبلهم[2] ؛ لغيبته عن الأدب معهم ، وعن مشاهدة العارفين ، فالحمد لله ربِّ العالمين

ثم لا يخفىٰ : أن كلَّ ما عدَّهُ خُدَّامُ حضرة ملوك الدنيا سوءَ أدب . . فتركُهُ في معاملة الحق جل وعلا آكدُ ؛ فإن الله عز وجل أحقُّ أن يُستحيا منه ، وقد تبع الشرعُ العرفَ في كثير من الأحكام ، وتأمَّلْ كيف أمر المصليَ بستر العورة في الخلوة ، وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يحجبه شيءٌ بإجماع أهل الملل كلِّها

---

(١) خَدُّ الباب : إطارُهُ .

(٢) شفوف نفسه : تميُّزه وتفوقه ، وفي (ب ، هـ) : (تفوق) بدل (شفوف) ، وفي (ج) : (ربما يشوق)

وهـٰذه الأمورُ ونظائرُها إنما يدركها أربابُ القلوب ، دون أرباب الأجسامِ والكثائف ، فلا يقال : ما ذكرتُموه من أن الوقوف قبل أهل الحضرة بين يدي الله تعالىٰ . . لم يأتِ لنا به شرعٌ صريح ؛ لأنا نقول : قد جاءت الشريعة كلُّها آمرةً بالأدب على اختلاف طبقاتِ الخلقِ .

وربما كان بعضُ الناس يرى التقرُّبَ إلى الله تعالىٰ بما يستغفر من شهوده قومٌ آخرون ؛ من باب (حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ)[1] ، وفي القرآن العظيم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٢٠] ، فليس لأحد من الأمة أدباً أن يقف بين يدي الله قبل سيِّدِ الحضرة الإلـٰهيةِ على الإطلاق صلى الله عليه وسلم ، وتأمَّلْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل ٢٠] ؛ أي بحكم الاقتداء بك والتبعيَّةِ لك ، والحمد لله ربِّ العالمين[2]

[محبتُهُ الطاعاتِ لمجالسة الحق فيها وبغض المعاصي لِمَا فيها من الحجاب عن الله تعالىٰ]

ومما منَّ الله به عليَّ : محبتي لجميع الطاعات الواجبةِ والمندوبةِ من حيث كونُ الحقِّ تعالىٰ أَذِنَ لي في الجلوس بين يديه لأجلها ؛ لأنها كالإذن الصريحِ من المَلِكِ لعبيده في المجالسة ، وأما ما فيها من الثواب إذا حفَّها الإخلاصُ . . فذلك بحكم التبعِ ، لا بالقصد الأولِ .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ١٣٧) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٥/ ٣٢) من كلام أبي سعيد الخراز رحمه الله تعالىٰ

(٢) في هامش (أ) : (بلغ مقابلة) .

ومن هنا : كان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يقول : (إياك أن تبتدع لك وِرْداً ؛ فإن الحقَّ تعالىٰ ربما لم يجالسْكَ فيه ، بل يحجبُك عنه بسبعين ألفَ حجابٍ ، بخلاف مجالسته لك بما شَرَعَهُ سبحانه وتعالىٰ علىٰ ألسنة رسلِهِ ؛ فإنه أَخبرَ أنه يُجالسك فيه ، وقال : « أنا جليسُ مَنْ ذكرَني » انتهىٰ[(١)]

ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي : أن محبةَ العارفين للطاعات تتفاوتُ بحسب تأكيدِ الحقِّ تعالىٰ لهم في فعلها وعدمِ تأكيده ، فأحبُّ الطاعات إليهم الواجباتُ ؛ لقوله تعالىٰ : « وما تقرَّبَ المتقرِّبونَ إليَّ بمثْلِ أداءِ ما افترضتُ عليهم »[(٢)] ، وإنما أخبرنا بكثرة محبتِهِ للفَرْض ؛ لتعودَ مصلحةُ ذلك علينا ؛ لأنه غنيٌّ عن العالمين ، وما توعَّدَنا بالعقوبة علىٰ ترك الواجباتِ إلا محبةً فينا ؛ ليُسبغَ علينا نعمَهُ التي رتَّبها علىٰ ذلك ، من باب ترتُّبِ [المسبب على السبب][(٣)]

فعُلِمَ : أن إيجابَهُ تعالىٰ علينا أشياءَ ، وتحريمَهُ علينا أشياءَ ، وتصريحَهُ لنا بالتوعد بالعقوبة عليها . . إنما هو إيجابُ رحمة ، وتحريمُ شفقة ؛ لنخافَ من تركنا أوامرَهُ واجتنابَ مناهيه ، فنحضرَ بين يديه ولو خوفاً ، كما هو شأنُ عبيد السوء .

ثم إن العقوبةَ إن وقعت في الآخرة . . فليس هي من حيث التركُ لها ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٧٠) عن سيدنا كعب الأحبار رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) ما بين المعقوفين في النسخ : (السبب على المسبب)

وإنما هي من حيث الاستهانةُ بأوامر الله تعالىٰ بعد تأكيدِهِ تعالىٰ علينا في الفعل أو التركِ ؛ بدليل أن من وقعتْ منه مخالفةٌ بلا قصد شرعيٍّ . . فهو غيرُ مؤاخذ بها من حيث عدمُ الإثم ، وإن أُوخذ بها من حيث الضمانُ مثلاً لِمَا أتلفَهُ من أموال الآدميين

وعُلِمَ أيضاً : أنه تعالىٰ ما شرعَ لنا تلاوةَ كلامه في الصلوات . . إلا لتصحَّ مناجاتُنا له بكلامه دون كلام غيره ، فيكون كخطاب الصفةِ لموصوفها ، فافهم وهنا أسرارٌ يذوقها أهلُ الله لا تُسْطَر في كتاب ، والحمد لله ربِّ العالمين

[أخذه الثأرَ لأصحابه من بعضهم ، وأخذُه الثأر ممن آذاهم]

ومما منَّ الله به عليَّ : انتقامي لأصحابي ممن آذاهم في عرضهم أو غيرِهِ ؛ مصلحةً للفريقين ومحبةً فيهما ، فأنصرُ الظالمَ والمظلومَ ، ولا أسامح واحداً منهما بحقِّ الآخرِ

[مطلبٌ

في صورة انتصاره للظالم والمظلوم ، وصورة انتقامه لأصحابه]

وصورةُ انتصاري للظالم : أن أكفَّهُ عن ظلمه ، وأما المظلوم فواضح

وأما صورةُ انتقامي لأصحابي : فهو أنني أسأل اللهَ تعالىٰ أن يؤدِّبَ الظالمَ ؛ إما بمرض ، وإما بزوالِ ما بيده من الدنيا ، وإما بزوال جاهِهِ وحرمتِهِ بين الناس .

وربما قوي عليَّ الحالُ في طلبي الانتقامَ ، فيُنفِذُ الحقُّ تعالىٰ هِمَّتي من

غير دعاء ، وذلك أشدُّ ما يكون في الانتقام ؛ لأن الظالمَ ربما دخل فيه سهمٌ ، فلا يعودُ بعد ذلك يشدُّ منها حزاماً حتىٰ يموتَ .

وكان شيخُ شيخنا الشيخُ محمد بنُ أبي الحمائل يقول : الفقيرُ إذا قوي عليه الحالُ وتفلت من يده صار كالأسد إذا أُطلِق[1] ، فربما كسر أعزَّ أصحابه ، بخلاف سؤالِ الله تعالىٰ أن يؤدِّبَ عبدَهُ ؛ فإن انتقامَ الحق تعالىٰ مَشُوبٌ برحمة ، فكان أثرُهُ أهونَ على العبد من انتقام خصمه ؛ فإن خصمَهُ لضيقه يلحقه الحَنَقُ والتشفي[2] ، حتىٰ ربما تعدَّىٰ حقَّهُ ، ولا هـٰكذا انتقامُ الحق تعالى الذي هو أرحمُ بعبده من الوالدة .

وقد سمع أبو يزيد البسطاميُّ رحمه الله مرةً قارئاً يقرأ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] ، فصاح صيحةً طار الدمُ من أنفه وقال (بطشي أشدُّ من بطش الله) انتهىٰ[3] ، فاستنكر ذلك بعضُ أصحاب الجنيد ، فقال (كلامُ أبي يزيدَ صحيح ؛ لأن بطشَهُ غيرُ مخلوط برحمة لضيقه ، بخلاف بطش الحق تعالىٰ ، كلُّهُ مخلوط برحمة ؛ لوسعه وكثرةِ حِلْمه ، ولولا ذلك لمَحَقَ العالمَ بأسره في لَمْحة) انتهىٰ

وكان سيدي إبراهيمُ المتبولي رضي الله عنه يقول : (من مقام العارف أن يحتملَ الأذىٰ من جميع الأنام ، ولا يقابلَ أحداً بشيء ، بخلافه إذا آذىٰ أحدٌ أصحابَهُ ؛ فإنه من أدبه أن يأخذَ لهم حقوقَهم ، ولا يسامحَهم ؛ قياماً بواجب حقهم في استنادهم إليه) انتهىٰ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) في (أ ، ج ، هـ ، و ، ز) : (تغلب مريده) بدل (تفلت من يده)

(٢) الحَنَق : الغيظ

(٣) رواه ابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص٣٠٥) .

[كثرةُ محبته وتعظيمه لأولاد مشايخه
وأصحاب مشايخه ، وإجلالُهم وإكرامُهم]

ومما منَّ الله به عليَّ : كثرةُ محبتي لأولاد مشايخي وأصحاب مشايخي ، وإجلالُهم وإكرامُهم ؛ قياماً بواجب حقِّ أشياخي ، وكيف يَدَّعي أحدٌ محبةَ شيخه ثم يبغضُ أولادَهُ وأصحابه ؟! هـٰذه محبة معلولةٌ

وسمعت سيدي الشيخ محمدَ الشِّنَّاويَّ رحمه الله تعالىٰ يقول (لمَّا أرىٰ أحداً من أصحاب شيخي . كأنني رأيتُ شيخي ، ولو أنني خدمتُ أحدَهم مدى الدهر . . لا أرىٰ أنني قمت له بجزاء)

وهـٰذا الخُلقُ لا يقوم به إلا من فُطِم علىٰ يد الأشياخ عن جميع الرعونات البشريةِ ، أما من لم يُفطم كما ذكر . . فمن لازمه غالباً عدمُ القيام به ، وربما كره أولادَ شيخه وأصحابَهُ

وإيضاحُ ذلك أنه يريد أن يكونَ شيخاً ويتلمذَ له أولادُ شيخه ، وأولادُ شيخه يريدون منه أن يكونَ مريداً لهم كما كان مريداً لوالدهم ، ولا يكادون يرونه إلا مريداً ، ولو أرادوا أن يرفعوا رتبتَهُ إلىٰ مقام والدِهم في المشيخة . . لا يقدرون علىٰ قلوبهم ؛ فلذلك كان الغالبُ عليهم البغضاءَ والشحناءَ ، فافهم

ولمَّا أذن لي شيخنا الشيخُ محمد الشِّنَّاويُّ بأني أُربِّي المريدين . . انقسم أصحابُهُ قسمين قسمٌ معي وهو الأضعفُ ، وقسمٌ مع ولده الشيخ عبدِ القدوس وهو الأقوىٰ ، فما زلت أُسارقه شيئاً فشيئاً حتىٰ مال إليَّ ، وهجر

مَنْ كان أمره بالبعد عني وقال[1] : هـٰذا من جملة تلامذةِ والدك علىٰ كل حال ، فكيف تجعله شيخاً لك ؟! وصار يقول عني إنني مقامَ والده ، فرضي الله عنه

حتىٰ إنه سافر إلى الحج ، فلما أناخ بالبركة قال له إنسان عني : إنني لم أنشرحْ لسفره هـٰذه السنة[2] ، فترك جمالَهُ في البركة وجاءني إلىٰ مصرَ وقال لي (والله ؛ لو جاءني الخبرُ وأنا في الأَزْلَم لرجعت امتثالاً لأمرك[3] ، ورأيت رجوعي أفضلَ من حجي)

ولم يزلْ على الانقياد لي حتىٰ مات ، وكان إذا أراد الدخولَ لي يُقبِّلُ عتبةَ الزاوية بحضرة أصحابه ثم يدخل ، وهـٰذا أدبٌ ما سمعتُ به عن أحد من أولاد الأشياخ ، فرضي الله عنه وأرضاه ، آمين

ثم إن ولدَهُ من بعده جاءني يطلب التربيةَ ، فمنعه أصحابُ والده ، فوقف عن ذلك وقال : إن جدي في تابوت ، فلا أحتاج إلىٰ من يُربِّيني ، وقال له بعضُ الشياطين : قلْ له إنني لا أعلم أحداً شيخاً لي إلا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وسيدي أحمدَ البدويَّ رضي الله عنه ؛ فإن عبد الوهاب يرضىٰ بذلك منك ، فقلت له إن بين العبد وبين مقامِ الأخذِ عن النبي

---

(١) قوله : (وقال) معطوف علىٰ جملة (أمره) ؛ أي : (أمره وقال)

(٢) قوله : (إنني لم أنشرح لسفره هـٰذه السنة) ؛ أي : ناقلاً كلام الإمام الشعراني .

(٣) الأزلم : قلعة من قلاع محافظة ضباء التابعة لمنطقة تبوك شمال السعودية ، وتقع علىٰ بعد (٤٥كم) منها ، وهي من محطات طريق الحج المصري خلال العصر المملوكي والعهد العثماني

صلى الله عليه وسلم مئتي ألف مقام ، وسبعةً وأربعين ألف مقام ، وتسعةً وتسعين مقاماً ، فاللهُ تعالىٰ يُلهِمُهُ رشَدَهُ ، آمين

قلت : وقد أدركنا نحوَ مئة شيخ ، فلم نَرَ من أصحابهم من وفَّىٰ بحق صحبة شيخه في أولاده وأصحابِهِ ومحبيه إلا القليلَ ، وكلٌّ ذلك دليلٌ واضح علىٰ عدم الفطام وأن دعوىٰ كلٍّ منهم المشيخةَ زورٌ وبهتان ؛ لعدم تواضع العالي واعتراف الواطي ، وقد أُمِر العالي أن يتواضع ، والأسفلُ أن ينقاد للأعلىٰ ، فلم يمتثلا ذلك ، وما هٰكذا درج السلفُ الصالحُ رضي الله عنهم أجمعين ، بل كان كلٌّ واحد منهم يقوِّي نورَ أخيه ويخفي نورَ نفسه ويقول : اللهم ؛ اجعلْ خيارَنا منا ؛ ولذلك أشهرَهم الله تعالىٰ في الوجود ، وأدام بهم النفعَ ، عكس هٰؤلاء النصابين

ولمَّا مات شيخي الشيخُ نور الدين الشَّوْنيُّ ، شيخُ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . انقسم أصحابه قسمين :

قسمٌ : يُرجِّحني على الشيخ شهاب الدين البلقينيِّ ، وقسمٌ : يُرجِّح الشيخ شهاب الدين عليَّ

فزجرتُ من رجَّحني عليه ، وصرت أتردد إليه ، وأُقبِّل يدَهُ ، وآمر أصحابي بذلك ، وأقول : إنه خليفةُ شيخنا في جامع الأزهر ، فلم يعرف أحدٌ يأخذ مني كلمةً واحدةً في حقه . . حتى استقرَّ كلٌّ واحد منا مع من اختاره لصحبته ، فاللهُ تعالىٰ ينفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين آمين آمين ، والحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ امتحانه لأحدٍ من العلماء والصالحين عند زيارتهم]

ومما منَّ الله به عليَّ : أني لا أتذكرُ قط أنني دخلتُ علىٰ عالم أو فقيرٍ وأنا أرىٰ نفسي مثلَهُ أو فوقَهُ أبداً ، بل لا أدخل عليه إلا وجميعُ نقائصي وعيوبي مشهودةٌ لي ، وأريد منه أن يُكلِّمَني بلَحْظه وكلامِهِ ، فلا أخرج بحمد الله تعالىٰ من عنده إلا وأنا ممتدٌّ بمدده .

وكان علىٰ هـٰذه القدم من العلماء : الشيخ جلالُ الدين بنُ قاسم المالكيُّ ، والشيخُ ناصرُ الدين اللَّقَانيُّ ، والشيخ نورُ الدين الطرابلسيُّ الحنفي ، والشيخ شهابُ الدين بنُ الشلبيِّ ، والشيخ شهابُ الدين الرمليُّ ، والشيخ أمينُ الدين الإمامُ بجامع الغمري ، والشيخ نورُ الدين بن ناصر .

وأخبرني شيخنا شيخُ الإسلام زكريا الأنصاريُّ شارح « الروض » رحمه الله قال[1] : (دخلتُ أنا واثنان من علماء الزمان علىٰ سيدي عمر النَّبتيتي بالخانَقاه السِّرْياقوسية زائرين له[2] ، وكنا قد أضمرنا قولاً لم يعلمْ به إلا اللهُ ، وذلك أنني قلتُ في نفسي : لا أنكر علىٰ هـٰذا الرجل ولا أعتقد ، وقال أحدُ الشخصين : أنا منكرٌ عليه حتىٰ يُظهرَ لي كرامةً ، وقال الثالثُ : أنا معتقدٌ فيه ولو لم يظهر لي كرامةً ، فلما دخلنا عليه نظر إلى المعتقد

---

(١) واسم كتابه : « أسنى المطالب شرح روض الطالب » .

(٢) الخانقاه السرياقوسية : تقع خارج القاهرة من شمالها ؛ أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون سنة (٧٢٥هـ) ، جعل فيها مئة خلوة لمئة صوفي ، وبنىٰ بجانبها مسجداً تقام به الجمعة ، وبنىٰ بها حمَّاماً ومطبخاً ، وقرَّر السلطان في مشيختها الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد الأقصرائي ، ولقَّبه بشيخ الشيوخ . انظر « المواعظ والاعتبار » (٤/ ٢٩٣) .

وقال جزاك اللهُ عن أدبك مع الفقراء خيراً ، وقرَّبه منه ، ثم نظر إلىٰ من طلب منه كرامةً نظرَ الغضب ، ثم نظر إليَّ وقال : يا زكريا ؛ مثلُك يقول أنا لا أنكر ولا أعتقد ، وعن قريب تسير الركبانُ بكتبك إلىٰ سائر أقطار الأرض ؟! قال : فقبَّلتُ رجلَهُ واعتقدته[(١)] ، وحصل لي به خيرٌ كثير ، وأما من طلب منه كرامةً فشَرِقَ بالخمر فمات[(٢)] ، نسأل الله العافية) انتهىٰ

وقد خالف قومٌ من أهل هـٰذا الزمانِ ، فجعلوا سَداهم ولُحمتهم الإنكارَ علىٰ مشايخ عصرهم ؛ فمُقِتوا ووقفوا عن الترقي ، وبعضُهم ذهب رونقُ الصلاح من وجهه ومات علىٰ أسوأ حال ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تصديقُهُ الصالحين في كل ما أخبروا به مما تُحيله العقول عادةً]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : تصديقي للصالحين في كل ما يخبروني به من الأمور التي تُحيلها العقولُ عادةً ، فأُصدِّقُهم ولو لم أتعقَّلْهُ ، وأجعلُهُ من العلم الذي ما قرأتُهُ ، وهـٰذا الخلقُ جعله الله تعالىٰ لي من حينَ كنت دون البلوغ ، فلا أكذب إلا فيما خالفته النصوصُ الصريحة ، أو خَرَقَ إجماعَ المسلمين .

وقد تقدم في خطبة هـٰذا الكتابِ قولُ الإمام أبي القاسم الجنيد رحمه الله : (لم يزلْ عندي توقُّفٌ في قول بعض الصوفية : « يبلغ الذاكرُ لله

---

(١) في (أ) : (ركبتيه) بدل (رجله) ، ونسخة في هامشها : (رجليه) ، وفي (هـ ، و ، ز) (ركبته)

(٢) شَرِقَ : غَصَّ .

تعالىٰ إلىٰ حدٍّ لو ضُرِبَ وجهُهُ بالسيف لم يحسَّ » . . إلىٰ أن وجدنا الأمرَ كما قالوا) انتهىٰ[1]

وقد قال العارفون (كلُّ من أنكر شيئاً أخبر به أهلُ الطريق . . حُرِم وصولَهُ إليه ، ولو بلغ الغايةَ في السلوك لا يُعطىٰ ذلك الأمر ؛ عقوبةً له علىٰ تكذيبه أولياءَ الله تعالى الذين هم آياتُهُ وعلاماتُهُ في الأرض ، بهم يُرزق الناسُ ، وبهم يُمطرون ، وبهم يدفع اللهُ البلاءَ عن عباده)

وقد أخبرني سيدي عليٌّ المرصفيُّ أنه قرأ في يوم وليلة أيامَ سلوكه القرآنَ العظيم كلَّه ثلاثَ مئة ألفِ مرة وستين ألفَ مرة ، كلُّ درجة ألفُ ختم ، فقلت له إن الله علىٰ كل شيء قدير ؛ كما يحاسب الأولينَ والآخرين يومَ القيامة في مقدار لَمْحةٍ . انتهى

وأفطر عندي أخي الشيخ أبو العباس الحُرَيْثيُّ في رمضانَ مرةً ، فقرأ بعد صلاة المغرب وأكْلِهِ الطعامَ . . القرآنَ العظيم خمسَ مرات قبل أذان العشاء ، وذلك بملاحظتي له في قراءته للسورة من أولها إلىٰ آخرها

وأحرمتُ أنا مرةً بالصبح خلف الشيخ عمرَ الإمامِ بزاويتي ، فقرأ سورة (المزمل) ، فافتتحتُ خلفه من أول (البقرة) ، فلحقتُهُ في سورة (المزمل) قبل أن يركع الركعة الأولىٰ ، ثم سمعت قراءتَهُ إلىٰ أن ركع ، هـٰذا أمرٌ شهدتُهُ في نفسي ، وآمنت به وصدَّقتُ ؛ فإن الإيمانَ بما يقع علىٰ يد العبد من الكرامات . . واجبٌ ، كما يجب عليه الإيمانُ به إذا وقع علىٰ يد غيره علىٰ حدٍّ سواء ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) انظر (ص٩٦) .

[حفظُهُ الأدبَ مع أقرانه حال غيبتهم ، وتبجيلُهم وتعظيمُهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : حفظي لحرمة أقراني من أهل العصر ؛ من الفقهاء والصوفيةِ في حال غيبتهم ، فلا أذكرهم إلا بخير ، كما يعلم ذلك مني مَنْ طالع كتابَ « الطبقات » الذي وضعته في مناقب أهل العصرِ من العلماء والصوفيةِ[١] ، وإذا رأيت الناس يَصِفُون ذلك الرجلَ بقلة الأعمال الصالحةِ . . أقولُ لهم عنه إنه يحبُّ إخفاءَ العمل ، وله أعمالٌ خفية في الليل لا يطلع عليها إلا أخصُّ أصحابه ، وأقصد بذلك سترتَهُ

وقد قال لي بعضُ العقلاء مرادي أن ترفع مناقبَ هـٰؤلاء من الكتاب ؛ فإنهم علىٰ غير قدم صالحٍ ، فلم أُطعْهُ

وكثيراً ما أقول إذا وقع أحدٌ منهم في نقيصة واشتَهر بها هـٰذا بلاءٌ كان نازلاً على الناس ، فحمله سيدي الشيخُ عنهم ، وإن كان التحقيقُ أنه لا يصح لأحد أن يحملَ عن أحد ما قدَّره اللهُ تعالىٰ عليه ، كما مرَّ في هـٰذه المنن[٢]

وكثيراً ما أُقطِّب وجهي في وجه مريدِ أحدِهم إذا زارني ؛ خوفاً عليه أن يميلَ إليَّ بالمحبة فيجرحَ مقامَ شيخه بشركتي معه في المحبة ، اللهم إلا أن يكونَ ثابتَ القدم مع شيخه لا يتزلزل عنه ، فمثلُ هـٰذا أَبَشُّ في وجهه ، وأُكلِّمه الكلامَ الحلو الذي يقال للضيوف ؛ لزوال العلة المذكورةِ ، وهـٰذا

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٦٤٤) : (كما يدل لذلك ذكر مناقبهم في كتاب « الطبقات » التي وضعتها في حق أهل القرن العاشر)

(٢) انظر (ص٢٠١ ، ٤٢٠) .

الخلق لم أَرَ له فاعلاً غيري من أقراني ، بل بعضُهم قال لمريده ـ لمَّا قال له : إن عبدَ الوهاب قطَّب في وجهي لمَّا زرته ـ : ألم تعلمْ يا ولدي أنه يكرهنا ويكرهُ أصحابَنا ؟! فكنت في الشرق وهو في الغرب ؛ فإني والله ؛ ما قطَّبت في وجه مريدِهِ إلا حفظاً لمقامه عند مريده لا غيرُ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[نَفْرتُهُ بطبعه ممَّن يُقبِّل يدَهُ أو يمشي معه إلى الباب ومحبتُهُ لمن لم يقم له أو يسلم عليه]

ومما منَّ الله به عليَّ : نَفْرتي بالطبع ممن يُقبِّل يدي ، لا سيما في المحافل التي يجتمع فيها وجوهُ الناس ، ووالله ؛ إنه ليكون لي الحاجةُ في مثل جامع الأزهر فلا أقدِرُ علىٰ دخوله ؛ خوفاً من مشي أحد معي إذا خرجتُ ، فيتبعَهُ بعضُ الناس على التقليد ، فيصير في الحال جمعاً عظيماً ؛ كصلاة الجنازة ، كما وقع لي ذلك مراراً

وأحبُّ بحمد الله كلَّ من لم يقم لي ، ولم يسلم عليَّ ، ولم يعتقدني . . أكثرَ ممن كان بالضد من ذلك ، وربما أترك حضورَ بعض الجنائز لمثل ذلك ؛ فإن فرضَ الكفاية قد قام به غيري

وقد قدَّموني مرةً للصلاة على الجنازة في جامع الأزهر ، وكان هناك شخصٌ يريد التقدُّمَ للصلاة فلم يُقدِّموه ، فلا تسألْ يا أخي عن تكديره وتكديري ؛ فأما تكديرُهُ : فلتقديمي عليه في ذلك المحفل ، وأما تكديري : فلكوني كنتُ سبباً للتكدير عليه

وكثيراً : ما أعتذر لمن يُقدِّمني للجنازة بقولي (أنا حنبليٌّ) ،

فيندهش مني ويرجعُ عن تقديمي ، ولا يبحثُ عن حقيقة ذلك ، ومرادي بقولي (أنا حنبلي) أنا محبٌّ للإمام أحمدَ بن حنبل رضي الله عنه ، ولهـٰذا الخلق حلاوةٌ يجدها العبدُ في قلبه أعظمُ من حلاوة التقديم ، ومن شكَّ فليجرِّبْ ، وممن أدركتْهُ علىٰ هـٰذا الخلق سيدي عليٌّ الخواصُ ، والشيخ محمدُ بن عنان ، رضي الله عنهما ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[إكرامُهُ لأهل الحِرَف النافعة ، وعدمُ ازدراء أحد إلا بطريق شرعي]

ومما منَّ الله به عليَّ[1] كثرةُ إكرامي لأهل الحِرَفِ النافعة ، وعدمُ ازدراء أحدٍ منهم إلا بطريق شرعي ، ثم إني لا أزدري إلا أفعالَهم وأقوالَهم ؛ أي : من حيث كونُها كسبَهُم ، لا من حيث كونُها خَلْقاً لله تعالىٰ ، فافهم .

وذلك كالمَعْداويِّ[2] ، والطباخ ، وزبَّال الحَمَّام ، والقَنَواتي[3] ، ومقدمِ أمير الحاجِّ ، والطحان ، والفرَّانِ ، والجزَّارِ ، والزياتِ ، والنجار ، والحداد ، والإدمي[4] ، والطبيب المسلمِ ، والفلاح ، والتراسِ ، ونحوِهم ؛ فإن هـٰؤلاء ولو نقصوا من جهة . . فَضَلونا من جهات أخرَ .

وما رأيتُ أحداً قام بهـٰذا الخلق مثلَ ما قام به سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله ؛ كان يقوم لأهل الحِرَفِ النافعة كما يقوم للعلماء ويقول : (إنهم أهلُ فَضْل ، والقيامُ لأهل الفضل مطلوبٌ)

---

(١) هـٰذه المنَّةُ لم يفهرس لها المؤلف عندما فهرس للكتاب . انظر (ص٨٤)
(٢) المعداوي : رُبَّان زورق
(٣) القنواتي : هو الذي يُسمَّىٰ في عرف ديار مصر الكَسَّاح
(٤) جاء في « تكملة المعاجم » (١/٩٦) : (إدام صباغ . . . ، وإدامي : بائع الإدام ؛ وهو كل ما يؤتدم به مع الخبز)

وسمعته مرةً يقول : (لولا زبّالُ الحمام ، وموقدُ النار تحت القدور فيه.. لفوّت غالبُ الناس صلاةَ الصبح في أيام الشتاء ؛ فإنه ما كلُّ أحد يتيسر له تسخينُ الماء في البيت ، ولا يتجرّأُ على الاغتسال بالماء البارد ، وتحريرُ عجزه شرعاً عن تحصيل الماء الحارِّ.. عَسِرٌ ، فربما احتج بالعجز وهو قادرٌ علىٰ تحصيله بدرهم من ماء الحمام يُحمَل إليه ، كما أنه يعسر تحريرُ عجزه المبيحِ للتيمم) انتهىٰ .

ودخل عليه شخصٌ من المتعبِّدين وأنا جالس عنده.. فلم يقم له ، فقلت له : إن هـٰذا مشهورٌ بالصلاح ، فقال : (إنه عَيْلَةٌ على الناس ، وليس له حِرْفةٌ يأكل منها ، فهو عندنا كالمرأة ، ولا يليق بشهامة الرجل أن يقومَ لها) ، ثم قال لي : (والله ؛ إن الزبالَ أحسنُ حالاً من هـٰذا ، من حيث أكلُهُ من كسبه ؛ فإنه وإن كان الأكلُ منه مكروهاً.. فهو أقلُّ إثماً من الذي يأكل بدينه) انتهىٰ

وسمعتُهُ مرةً أخرىٰ يقول : (لا يكمل الرجلُ عندنا في الطريق إلا إن كان له حِرفةٌ يأكل منها ، أو يطعمُهُ اللهُ من حيث لا يحتسب مما لا مِنَّةَ لأحد من الخَلْق عليه فيه ؛ كالأكل من بيت مالِ المسلمين ، أو من طعامِ عباد الله الصالحين المحبِّين)

قال : وتأمَّلْ في قوله تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٣٧] ، فوَصَفَهم بالرجولية ؛ لإقامتهم في الأسباب التي تُغنيهم عن سؤال الناس ، ومَدَحَهم بكون ذلك لا يلهيهم عن ذكر اللهِ ، مع أن التجارة وعملَ الصنائع مما يورث الغفلةَ عن ذكر الله غالباً ، فافهم ، فلم يمدحِ

الذاكرين التاركين للتجارة ، الآكلين من كسب غيرِهم ، ولم تزلِ الأشياخُ في كل عصر يكرهون للفقير التعبُّدَ مع حاجته إلى الناس

وذكرتُ مرةً لسيدي عليٍّ الخواصِ شخصاً انقطع في الجبل المقطم يتعبَّدُ ويأكل من صدقاتِ الناس وأوساخِهم ؛ وإذا بشيخ أعمىٰ تقوده ابنتُهُ وهو يبيع الفجلَ والليمونَ ، فقال هـٰذا الرجلُ أحسنُ حالاً ممن ذكرتَ عند الله تعالىٰ وعند خَلْقه ؛ لأكله من كَسْبه مع كِبَر سِنِّهِ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[كثرةُ ضجيجه وتضرُّعه إلى الله تعالىٰ . . ممَّا يخفِّف البلاء والمرض]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كثرةُ ضجيجي إذا نزل بي بلاءٌ ، ولا أسلك مسلك غيري في التجلُّدِ والتصبُّرِ ؛ لِمَا في ذلك من مقاومة القهر الإلـٰهيِّ ، وذلك أكملُ في حقِّ المتوسطين في الطريق ، وأحسنُ من تجلُّدهم ؛ إذِ التجلُّدُ إنما يكون أوائلَ الطريق ما دامتِ النفس تدَّعي القوةَ بجهلها ، فإذا ظهر لها ضعفُها بالذات . . هربتْ من البلاء ؛ لعلمها بأنها ولو طال صبرُها لا بد لها من الضجر وسؤالِ الإقالة ؛ فلذلك بادرتْ لسؤال الإقالةِ أوَّلاً ، ولم تتجلَّدْ ولم تتصبر

[مطلبٌ

في النكتة من تجلُّدِ المريض أولَ مرضه ونسيانِهِ سؤال الإقالة]

ولـٰكن في تصبُّرِها أولَ أمرها نكتةٌ حسنةٌ ؛ وهي : أن اللهَ تعالىٰ جعل في مقابلة التصبر الأجرَ والثوابَ ، كما أنه تعالىٰ جعل في نظير الاعترافِ بالعجز الأجرَ والثوابَ ، فمن اعتناء الحق تعالىٰ بالعبد : أن يحبسه في كل مقامٍ حتىٰ يُحكمَهُ ويرسخَ فيه ، ثم ينقلَهُ إلىٰ ما هو أعلىٰ منه

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : (من علامة الكامل في مقام العبودية : إظهارُ الضَّعف ، حتىٰ إنه يصيح من قَرْصة بُرْغُوث ويستغيث ؛ وذلك لظهور ضعفه عند نفسِهِ حين تلطفت كثائفُهُ بالرياضة والمجاهدة ، كما أن من علامة نقصِهِ في مقام العبودية : كثرةُ التجلُّد والتصبُّرِ ، مع غفلته عن كون المُعين له على الصبر ربَّهُ عز وجل)

فعُلِمَ : أن العبدَ ما دام فيه بقايا الدعوىٰ . . فهو يحمل أثقالَ الجبال من البلايا والمحن ، حتىٰ ربما يقول الناسُ : ما رأينا أقوىٰ نفساً من فلان ؛ ابتلاه اللهُ تعالىٰ بكذا كذا بليةً فلم يستغثْ ولم يسألِ الله تعالى الإقالة ، وفي القرآن العظيم : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون ٧٦] .

ومَنْ فهم ما قررناه . . علم أن الصبرَ مقامٌ ، وعدمَ الصبر مقامٌ ، فلا يقال : التجلُّد مطلقاً أفضلُ ، ولا عدمُ التجلُّد دائماً أفضلُ ؛ لأنهما مقامان جعلهما اللهُ تعالىٰ لخواصِّ عباده حتىٰ لا يفوتَهم أجرُ الصبر ولا أجرُ الرضا ، كما وقع في قصة أيوبَ عليه الصلاة والسلام : لم يقلْ : (ربِّ ؛ إني مسني الضرُّ) . . إلا في آخر أمره ، وأما في الأول فتجلَّدَ وصبر حتىٰ قال الله تعالىٰ مادحاً له ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صَ : ٤٤] ؛ أي : رجَّاع إلينا في الشدائد ؛ لنمده بالصبر فيها ، فافهم ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[محبتُهُ لتحمُّل بلاء جاره ؛ وفاءً بحقِّهِ]

ومما منَّ الله به عليَّ : محبتي لتحمُّل بلاء جاري عنه ، فأودُّ إذا كان تحت بيته خَرَّارةٌ أن يجعلها جماعةُ الوالي متعلقةً بي ؛ لأنزحَها عنه ولا أروعَهُ ، لا سيما إن كان عنده ضيوف أو مريض أو عرسٌ ونحوُ ذلك ؛

فإنه يشتدُّ عليه الأذىٰ من جماعة الوالي ؛ حياءً من ضيوفه ، أو تنغيصاً لعيشه

وقد فعلتُ بهـٰذا الخلق مع جاري مرةً على الخليج الحاكمي ، وقلت لجماعة الوالي هـٰذه خَرَّارةُ داري ، ونزحتها ، وعتقتُ جاري من البَلْص الذي كانوا يأخذونه منه(١) ، وينبغي التخلُّقُ بذلك للعلماء والصلحاءِ ؛ وفاءً بحقِّ جارهم ، وليقتديَ بهم أصحابُهم في ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[محبَّتُهُ طلبةَ العلم لكونهم حملةَ الشريعة]

ومما منَّ الله به عليَّ كثرةُ محبتي لطلبة العلم ، لا لذاتهم ، بل محبةً في صاحب الشرعِ الشريف من حيث إنهم حملةُ عرش الشريعةِ ، ولا أتوقَّف في محبتهم علىٰ عملهم بعلمهم ، بل أُحبُّهم ولو لم أَرَهُم يعملون بعلمهم

وإذا دخل أحدٌ منهم وأنا أُقرِّر في مشكلات طريق القوم . . لا أقول له قط قرِّروا أنتم للجماعة ـ إلا إن علمتُ منه أنه يقرر الكلامَ علىٰ مصطلح القومِ ـ خوفاً أن أفضحَهُ بين الناس حين يتبيَّنُ جهلُهُ إذا حَلَّ الكلامَ بغير مراد القومِ ، وإذا أردت أن أُفيدَهُ ما ليس عنده ـ بعد أن أوهم الجماعةَ أنه يعرف معنى الكلامِ . . أقولُ له بعد أن أفرُغَ من تقرير المسألة : هل هـٰذا الكلامُ الذي فهمتُهُ صحيحٌ ، أو فيه شيءٌ ؟ كالمستشير له ؛ حفظاً لمقامه

ثم إن قال لنا فيما قررتُموه إشكالٌ . . سمعنا منه ، ورجعنا إليه فيما يقول ، ثم إذا فارقَنا من ذلك المجلس بَيَّنا لأصحابنا معنى القولِ علىٰ مصطلح أهل الطريقِ ؛ فإنه أرقىٰ مما فهمه هو بعقله من غير سلوكِ طريقٍ ؛

---

(١) البَلْصُ : ضريبة ، وجزية تؤخذ ظلماً .

وذلك حتىٰ لا يفوتَ أصحابَنا الفائدةُ ، ثم إن صحَّتْ له معنا صحبةٌ بعد ذلك بيَّنا له خطأه في تقريره الأولِ وبيَّنا له مصطلحَ أهل الطريق

وقد حكى ابنُ عطاء الله أن العلماءَ اجتمعوا في خيمة في وقعة المنصورةِ ، قريباً من ثغر دِمْياطَ ، وكان فيهم الشيخُ عزُّ الدين بنُ عبد السلام ، والشيخ تقيُّ الدين بنُ دقيق العيد ، والشيخ مكينُ الدين الأسمرُ ، وغيرُهم ، و« رسالةُ القشيري » تُقرأ عليهم ، وكلٌّ واحد يُبْدي ما عنده ، فدخل عليهم الشيخُ أبو الحسن الشاذليُّ ، فعزموا عليه أن يُقرِّر لهم شيئاً من معاني ذلك ، فقال أنتم بحمد الله مشايخُ الإسلام وكبراءُ الوقت ، وقد تكلمتم ، وما بقي لكلامِ مثلي موضعٌ ، فقالوا له لا بد ، فحمد اللهَ وأثنىٰ عليه ، ثم شرع في الكلام ، فنهض الشيخُ عزُّ الدين بنُ عبد السلام ، وخرج من الخيمة وهو ينادي بأعلىٰ صوته : هلمُّوا إلىٰ هـٰذا الكلامِ القريبِ العهد من الله فاسمعوه . انتهىٰ[١]

فعُلِمَ أننا إذا رأينا كلامَ العالِم يكفي الحاضرين . . فمن الأدب أن نعزمَ عليه في تقريره الكلامَ ؛ لعدم خوفنا عليه الفضيحةَ ، وهـٰذا الأدبُ قليلٌ من الفقراء من يفعله مع طلبة العلم ، بل يريد الفقيرُ أن يغلب الفقيهَ ، وعكسُهُ ، وربما قاما من المجلس مُفتضِحَين كلاهما

وكان الإمامُ الشافعي رضي الله عنه يقول : (ما جلستُ مجلساً أريد أن أعلوَ القومَ فيه . . إلا قمت مُفتضِحاً ، ولا جلستُ مجلساً أريد أن أستفيدَ منهم . . إلا قمت وكلُّهم معترفون بفضلي) انتهىٰ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) أورد الخبر اليافعي في « مرآة الجنان » (٤/ ١٠٩) .

[كراهتُهُ التقدُّمَ للإمامة في صلاة الجنازة في المحافل العظيمة]

ومما منَّ الله به عليَّ : كراهتي للتقدُّم لصلاة الجنازة في المحافل العظيمةِ التي يحضر فيها العلماءُ والأمراءُ والتجار ، لا سيما في مثل جامعِ الأزهر ؛ فإن في ذلك من إثارة الفتن ما لا يحصىٰ ، كما مرت الإشارةُ إليه في هـٰذه المنن قريباً[١] ، اللهم إلا أن يُجمِعَ كلُّ من حضر علىٰ تقديمنا بانشراح صدر ، فلا بأس ، بشرط أن نأمنَ علىٰ أنفسنا من الإعجاب ، وعدمِ رؤية شفوفها علىٰ أحد من المسلمين الذين حضروا الجنازةَ[٢] .

وسمعتُ سيدي علياً الخواصَ يقول الصلاةُ على الجنازة إماماً شفاعةٌ ، والشفاعةُ لا تنبغي إلا لمن ليس عليه ذنبٌ ، فإن كنتَ تعلم أنه ليس عليك ذنب . . فتقدَّمْ واشفع في ذلك الميتِ ، وإلا فتأخَّرْ وقدِّمْ غيرَك ، ثم إن أدى الأمرُ إلىٰ عدم تقدُّم كلٍّ من يحضر هناك . . أُمِرَ كلُّ واحد حينئذ أن يتقدم ؛ قياماً بفرض الكفاية ، ثم يستغفر الله تعالىٰ لنفسه ولذلك الميت . انتهىٰ

فقلت له : فإذا وقع الإنسانُ منا في ذنب وتاب منه . . هل له المزاحمة على التقدم ؟ فقال لا ؛ لأن قبول توبته مظنونٌ ، فلا يدري هل غفر اللهُ تعالىٰ ذنبَهُ أم لا ، فقلت له إن السلفَ الصالح لم يقيِّدوا الشفاعةَ بما ذكرتموه من ترك الذنوب ، فقال : صحيح ، ولـٰكن ما قلناه احتياطٌ لأنفسنا ، ومنِ احتاط لنفسه فلا عليه حرجٌ ، وقد كان معروف الكرخي

---

(١) انظر (ص٤٨٧) .

(٢) الشفوف : تميزه وتفوقه

رضي الله عنه يقول (لي منذ ثلاثين سنةً وأنا أظنُّ أن اللهَ تعالىٰ ناظرٌ إليَّ نظرَ السخط والغضب) انتهىٰ[1]

وهٰذا هو مشهدي في نفسي الآن بحمد الله تعالىٰ ؛ فلذلك كرهتُ التقدُّمَ في الجنازة ، مع أن الدعاءَ للميت حاصلٌ مني ولو كنت مأموماً

وهٰذا الخلقُ غريب فاعلُهُ في هٰذا الزمان ، بل بعضُهم عادىٰ مَنْ قدَّموه عليه حتىٰ مات ، **فالحمدُ لله الذي عافانا من ذلك** ، **والحمدُ لله علىٰ كلِّ حالٍ** .

[مبادرتُهُ للشكر إذا قدَّر الله له الخير ، أو قدَّر عليه الشرَّ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : شكرُ ربي في كل ما قدَّرَهُ لي من الخير ، أو قدَّرَهُ عليَّ من الشر ؛ لعلمي بأنه حكيمٌ عليم ، ولا أتذكَّرُ وجهَ نسبة التكليف في وقوعي في المعصية لأستغفرَ منها . . إلا بعد ذلك الشكرِ ؛ **فإنَّ من القواعد المقرَّرة** : أنه يجب الرضا بالقضاء لا بالمَقْضيِّ[2] ، ومن تأمل النعمَ وجد في باطنها النِّقمَ ، ومن تأمل النِّقمَ وجد في باطنها النعمَ

فوجهُ النقم التي في النعم : مطالبةُ الحقِّ تعالىٰ له بالقيام بشكرها في الدنيا ، وحسابُهُ علىٰ ما فَرَّطَ فيه من إنفاقها في وجوه الخير في العقبىٰ

ووجهُ النعم التي في النقم : كونُها تكفيراً للسيئات ، أو رفعاً للدرجات .

فعُلِمَ : أن الواجبَ على العبد : الشكرُ والاستغفار في كل نعمة وفي كل نقمة من وجهين مختلفين

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٣٥٦) من قول أبي حفص الحداد ، وفيه : (أربعين) بدل (ثلاثين) .

(٢) انظر « شرح العقائد النسفية » (ص٢١٤)

وسمعتُ أخي أفضلَ الدين رحمه الله يقول (إذا نمتَ عن وِردك من الليل مثلاً . . فاشكرِ اللهَ الذي أراحك من تعب القيام ، ومن المناقشة التي في تلك الطاعةِ التي لولا النومُ لفعلتها ؛ فإنك مُعرَّضٌ فيها للوقوع في الرياء أو الإعجابِ بها ، ورؤيةِ نفسك علىٰ من نام تلك الليلةَ ، وكما تشكر اللهَ علىٰ ذلك فكذلك يجب عليك الاستغفارُ من تفريطك وغَيبتك عن حضرة تلك المواكبِ الإلـٰهيةِ وما يُفرَّقُ فيها من الغنائم التي ليس في الدنيا مثلها) انتهىٰ

وسمعتُ سيدي علياً الخواصَ يقول : (يا ولدي ؛ لا تنمْ قط حتىٰ تنويَ قيامَ الليل ؛ وذلك ليكتبَ لك أجرُ من قام إذا أخذ الله تعالىٰ بروحك إلى الصباح ، كما ورد)[١] انتهىٰ

وبالجملة : فسَدى العبد ولُحمته ذنوبٌ ، كما أن سَداه ولُحمته من جهة أخرىٰ نِعمٌ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[رؤيتُهُ منَّةَ إخوانه إذا زاروه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : رؤيةُ مِنَّةِ إخواني الزائرين لي ، وتحمُّلُ هَمِّهم إذا خرجوا لزيارتي فلم يجدوني في بيتي ؛ فلذلك كنت لا أخرج قط إلىٰ موضع بعيد . . حتىٰ أقول بتوجُّه تامٍّ إلى الله تعالى : اللهمَّ ؛ إن كان في علمك أن أحداً قد خرج لزيارتي وهو في الطريق . . فعوِّقْني له حتىٰ يحضرَ[٢] ، وإن

---

(١) روى البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ » ، وفي مسلم : « بالنية » بدل « بالنيات » .

(٢) **التعويق** : الحبسُ والصَّرْف ، وفي « تكملة المعاجم » (٧/ ٣٥٢) : (عوق : أخر) ، وجاءت بمعنى : التوقيف والتعطيل .

كان لم يخرج فعوِّقْهُ عن المجيء إليَّ حتىٰ أرجعَ ، ثم أستأذن ربي وأخرج ، وهٰذا الخلقُ يشبه صلاةَ الاستخارة ، فكلُّ شيء وقع بعد ذلك ؛ من خروج أو عدمِ خروج ، منك أو من زائرك . . كان فيه الخِيرةُ ، ولهٰذا الخلق حلاوة عظيمة يجدها الإنسان في قلبه

ثم إن هٰذا الدعاءَ لا ينبغي أن يقولَهُ الإنسانُ إلا في حقِّ الزائرين من إخوانه الصادقين الذين يحصل للإنسان بهم خيرٌ ، أو يحصلُ لهم به خيرٌ ، أما من يزور لغير الله تعالىٰ فينبغي أن يقال اللهمَّ ؛ باعدْ بيننا وبين من يزورنا لغيرك ، وعوِّقْ كلَّ واحد منا عن الآخر

وهٰذا الخلقُ لم أجد له فاعلاً بعد موت شيخنا شيخِ الإسلام زكريا رحمه الله ، وغالبُ الناس يحبون من ينقل إليهم أخبارَ الناس من الولاة والفقهاء والتجار وغيرِهم ، حتىٰ إنهم يستجلبون ذلك ويقولون للزائر : أيشٍ أخبارُ الناس اليوم ؟ فينفتح الزائرُ ويحكي له ما جمعه في تلك الغَيبة كلِّها ؛ من غيبة ، ونميمة ، وقذفِ عِرْضٍ ، وذكرِ نقائص الناس من الفقهاء والقضاة والولاة ومشايخ الزوايا ، وغيرِ ذلك ، ثم يقول المزور : ما أنت إلا حكيتَ لي ، ثم لا ينكر عليه قط شيئاً مما قاله من القذف وغيرِهِ ، وكيف ينكر عليه وهو الذي استجلب منه ذلك ؟!

وقد كان الشيخ زكريا لا يُمكِّنُ أحداً من الكلام عنده إلا في أمر مهمٍّ من علم أو نصيحة ، وإذا شرع في اللغو يقول له : (قمْ ، ضيَّعتَ علينا العمرَ) ، رضي الله عنه ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[مكافأتُهُ لمن أهدىٰ له هديةً]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ التهاون بمكافأة مَنْ أهدىٰ إليَّ هديةً ، بل إن علمتُ منه عدمَ قبول هديتي . . أنا الآخر رددتُ عليه هديتَهُ ، اللهم إلا أن يكونَ ممن لا يُظَنُّ به أنه لا يخطر قط علىٰ باله طلبُ مكافأة ، وإنما أعطىٰ لله تعالىٰ ، فمثل هٰذا ليس لنا ردُّ هديته من هٰذا الوجه ، وإنما نردُّها لعلة أخرىٰ ؛ كأن أهدىٰ إلينا لاعتقاده فينا الصلاحَ ونحوَ ذلك ؛ فإن من قَبِلَ هديةً من معتقِدٍ فقد أكل بدينه

وهٰذا الخلقُ قد صار غريباً في غالب الفقراء اليومَ ؛ لتعوُّدهم الأخذَ من الناس دون العطاء ، ويدٌ تعوَّدتِ الأخذَ ما تعطي ، وذلك نقصٌ عظيم في مقام الفقير

بل رأيت بعضَهم يرىٰ له الفضلَ الذي قبل هديةَ ذلك المريد مثلاً ، وربما يقول النُّقباء للمعطي لولا أن سيدي الشيخَ يحبك . . ما أخذ منك شيئاً ؛ إشارةً إلىٰ أن الشيخ متنزِّهٌ عن قبول هدايا الناس ، والحالُ أنه كالتمساح

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ يقول : إذا علمتَ من أخيك أنه لا يقبل منك مكافأةً علىٰ هديته . . فردَّها إليه ، وقل له يا أخي ؛ أهدِها إلىٰ من هو أحوجُ إليها مني ؛ فإنه أكثرُ أجراً لك مما تعطيه لي أنا ، وأنا لا أحب لك نقصَ الأجر ، هٰذا إذا كانت الهديةُ من وجه حلال ؛ كربح التجار المتورعين ، أما هدايا الكشاف ، ومشايخِ العرب ، والقضاةِ الذين يأخذون الرشوة ، وغيرِهم من أعوان الظلمة . . فلا ينبغي لأحد قَبولها مطلقاً ، فاعلم ذلك ، **والحمد لله ربِّ العالمين** .

[كثرة اجتماعه في المنام بالأموات ، وكثرةُ سؤالهم عن أحوالهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كثرةُ اجتماعي بالأموات الذين دُفِنوا في القبور من إخواني ، وكثرةُ سؤالهم عن أحوالهم في قبورهم ، حتىٰ إن من كثرة تكرر ذلك لي . . كاد أن يكون كاليقظة ، فإن غاب عني معرفةُ حالهم في أعمالهم في حال حياتهم . . فلم يَغِبْ عني حالُهم بعد مماتهم ، وهـٰذا من أكبر نِعمَ الله عز وجل عليَّ ؛ وذلك حتىٰ أتهيَّأ لدخول البرزخ بالأعمال التي أمرني الحقُّ تعالىٰ بها وندم عليها الموتىٰ ، وإن كنت لا أعتمدُ إلا علىٰ عفو الله تعالىٰ ، لـٰكن ليس لقاءُ العبد المطيعِ لسيده كلقاء العبد الآبقِ المخالفِ

وقد عمل الصحابةُ والتابعون بما يرونه في المنام من الاعتبارات ، كما هو مشهورٌ في كتب الصحاح وغيرِها في تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ما يرونه في منامهم(١)

ومما وقع لي مرةً : أنني نزلتُ إلى الأموات الذين في الروضة خارجَ باب النصر من مصرَ ، فرأيتهم حِلَقاً حِلَقاً يتحدثون علىٰ رمل أبيضَ ، فسلمت عليهم ، فلم يردُّوا عليَّ السلامَ ، فقلت لِمَ لا تردُّون السلام ؟ فقال لي واحد منهم : لسنا في دار تكليف .

---

(١) روى البخاري (١٣٨٦) عن سَمُرة بن جُندب رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : « من رأىٰ منكم الليلة رؤيا ؟ » قال : فإن رأىٰ أحدٌ قصَّها . . . الحديث ، وروىٰ مسلم (١٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يقول لأصحابه « من رأىٰ منكم رؤيا فليقصَّها أَعْبُرْها له » .

ثم فارقتُهم إلىٰ طائفة من الفقراء الذين يسألون الناسَ ، فرأيتُهم في غاية القبح ، فقلت لهم : ما بالُكم في هـٰذا الحالِ ؟ فقال لي واحدٌ منهم : نحن من القوم الذين كانوا يسألون الناسَ من غير ضرورة تعريضاً أو تصريحاً ، ثم يأكلون ذلك ، ويتعبدون في الزوايا والبيوت ، ويُسمِّيهم الناس المنقطعينَ إلىٰ عبادة الله عز وجل ، فتأمَّلتُ ، فإذا هم متجرِّدون عن جميع أجور أعمالهم الصالحةِ ، وهي بعيدةٌ عنهم كأمثال الجبال ، والناس ينتهبون منها[١] ، فقلتُ لشخص منهم ما بالُ أجور أعمالكم يأخذها هـٰؤلاء الناسُ ؟ فقال هـٰؤلاء الذين كانوا يطعموننا ويكسوننا ويعولوننا في دار الدنيا ، مكَّنهم اللهُ تعالىٰ من أعمالنا يأخذون منها ما شاؤوا ، فهم يأخذون أجورَ كل عمل نشأ من التقوي بطعامهم

ثم فارقتُهم إلىٰ أقوام واقفين صفوفاً وصدُورهم مقلوعةٌ ، وباطنُها كقعر الدست الأسود[٢] ، فقلت لشخص منهم : ما بالُكم بهـٰذا الحال ؟ فقال : لأننا كنَّا نأكلُ من صدقات الأوقافِ بغير استحقاق ، فأكلنا منها حتى اسودَّت قلوبُنا

ورأيت فيهم شخصاً أشدَّ سواداً لباطنه من غيره ، فقلت له ما بالُك بهـٰذا الحالِ ؟ فقال : كنت آخذُ الوظائفَ وآخذ معلومَها ، ولا أسدُّ فيها بنفسي ولا بنائبي ، وأشتكي النظارَ للحكام

ثم فارقتُهم فمررت علىٰ قوم قبورُهم مفتوحةٌ ، وهم يُعذَّبون فيها ،

---

(١) ينتهبون : يأخذون

(٢) الدست هنا : بمعنى الصحن .

وأصواتُهم منكرة ، فصرت أنظر من يعذبهم في قبورهم ، فوجدته أعمالَهم المتطورة ، فبعضُهم عنده خنزيرٌ يُعذَّبُ به ، وبعضُهم تمساح ، وبعضُهم كلب عقورٌ ، وبعضُهم حية ، وبعضُهم هرة ، وبعضُهم عقرب ، وبعضُهم رأيت قبرَهُ كلَّهُ [فيه] فئرانٌ تنهَشُ منه

حتىٰ رأيت أخفَّهم عذاباً من تطورت أعمالُهُ بعوضاً ، وبقّاً ، وبراغيثَ ، وقملاً ، ورضَّتْ علىٰ بدنه من فَرْقه إلىٰ أصابع رجليه ، فقلت لعريف رأيته هناك : ما كانت أعمالُ هٰؤلاء الذين يعذبون بهٰذه الدوابِّ في قبورهم ؟

فقال أما الذي يُعذَّب بالخنزير فكان يأكل من الرُّشا ، وأما الذي يُعذَّب بالتمساح فكان يأكل من طعام الظَّلَمةِ وأعوانِهم ، وأما الذي يُعذَّب بالكلب العقورِ فكان يؤذي الناسَ بلسانه ويخاف الناسُ شرَّهُ ، وأما الذي يُعذَّب بالحية فكان ينقل النميمةَ بين الإخوان ، وأما الذي يُعذَّب بالهرة فكان يضربها كلما وقفتْ عليه وهو يأكل ، وأما الذي يُعذَّب بالعقرب فكان يُشيعُ الكلمةَ التي تؤذي الناسَ ويحلف أنه ما أشاعها ، وأما الذي يُعذَّب بالفئران فكان كلامُهُ مرّاً لإخوانه من الطلبة حالَ مجادلته ، وأما الذي يُعذَّب بالبقِّ فكان يقرأ القرآنَ وهو شاكٌّ في الطهارة ، وأما الذي يُعذَّب بالبراغيث فكان ينامُ وعنده شحناءُ علىٰ أخيه ، وأما الذي يُعذَّب بالبعوض فكان يطلق بصرَهُ بغير حاجة . انتهىٰ

ثم فارقتُ هٰؤلاء فمررت علىٰ قوم يتحدَّثون في أحوال الدنيا وما وقع لأهلهم وأصحابِهم وجيرانِهم بعدهم ، فسألوني عن أشياءَ فأعلمتُهم بها ، فقال لي واحدٌ منهم اسمع مني هٰذا الدعاءَ واحفظه لتدعوَ به في دار الدنيا

إذا رجعت ، فقلت له : وما هو ؟ فقال إذا نزل بك كربٌ فقل : اللهمَّ ؛ إني أنزلتُ بك ما يُهِمُّني من أمور الدنيا والآخرةِ ؛ فإن الله يزيل كربَكَ بسرعة ، ولا يرفع الكروبَ إلا من أنزلها انتهىٰ ، ثم استيقظت معتبراً بما رأيت ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

ومما رأيتُ في المنام اعتباراً لي : أني رأيت جماعةً من المؤمنين في أرض فلاةٍ من الأرض وبين يديهم مدوَّراتٌ ، كلُّ مدورة قَدْرُ البطيخة ، وهم يَحذِفونها نحو السماء[١] ، فتصعد نحوَ باع ثم تُردُّ عليهم[٢] ، فقلت لملك رأيته هناك لونُهُ كلون الزعفران : ما بالُ هـٰؤلاء ؟! فقال هـٰؤلاء الذين لا يؤدون زكاةَ فطرهم مع القدرة ، وهـٰذه المدوَّراتُ هي صومُهم رمضانَ قد تطور ، لا يصعَد إلا إن أخرجوا زكاةَ فطرهم ، وأنت منهم ، فنظرتُ فإذا بين يديَّ مدورةٌ مكتوبٌ عليها هـٰذا صومُ عبد الوهاب ، فرميتها نحوَ السماء كما يفعل غيري ، فرجعتْ عليَّ

فقلتُ للملك : ما هـٰذا الحالُ وأنا لا أتذكر قط أني ملكتُ قوتَ يوم وليلة ، وإنما أنا خازن لقوت الفقراء ؟! فقال لي مثلُك لا يعمل بالرخص ، أَمَا عندك فضلُ ثوب ؟! أما عندك قَبْقابٌ زائد في الصندوق ؟![٣] فتذكرت قَبقاباً له عندي سنةٌ ، أهداه لي بعضُ التجار ، فلما أصبحتُ بعته وأخذت بثمنه قمحاً وتصدَّقتُ به ، وذلك في سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة ، ومن تلك الواقعة وأنا أُخرج زكاتي ، وعلمتُ بهـٰذه

---

(١) حذف : إذا رمىٰ

(٢) الباع : هو مسافة ما بين الكفين إذا بسطتَهما يميناً وشمالاً

(٣) القبقاب : حذاء أو نعل تتخذ من الخشب ، وشراكُها من جلد أو نحوه

الواقعةِ صدقَ الحديث الوارد في أن « صَوْمُ رمضانَ معلَّقٌ بينَ السماءِ والأرضِ حتَّىٰ يخرجَ الإنسانُ صدقةَ الفِطْرِ »[1] ، وإن قال بعضُهم : إن في سنده مقالاً ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

وقد كان بعضُ العارفين يقول (إن هـٰذه الوقائعَ التي تقع للإنسان في المنام تُقوِّي إيمانَهُ بالغيب ، وإن كان ذلك نقصاً بالنظر للكُمَّل الذين لو كشف الغطاءُ لم يزدادوا يقيناً)

وسمعت سيدي علياً الخواصَ يقول : (لا يتساهلُ بما يراه في المنام إلا جهولٌ ؛ فإن جميعَ ما يراه المؤمنُ في منامه من قِسْمِ الوحي ؛ لعجزه عن تحمل أعباءِ الوحي في اليقظة ، فأتاه اللهُ بذلك في عالم الخيال لضعفه[2] ، إذِ النومُ يكون الحكمُ الغالب فيه للروحانية لا للجسم ، والأرواحُ ملكية ، والمَلَكُ له قوةُ سماع كلام الله تعالىٰ بلا واسطة ؛ قال تعالىٰ ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ . . . ﴾ الآيةَ [الشورىٰ : ٥١] ، فلو أن حجابَ البشرية رُفِع لَكلَّمَهُ اللهُ تعالىٰ من حيث كلَّمَ الأرواحَ ، وما سُمي بشراً إلا لمباشرته الأمورَ التي تُعوِّقه عن اللحوق بدرجة الروح) انتهىٰ

فعُلِمَ : أن الكاملَ في حال يقظته أقوىٰ منه في حال منامه

وقد رأىٰ بعضُ الوعاظ : أنه كان يمشي ومعه قنديلٌ يضيء عليه ، فانطفأ

---

(١) أورده الديلمي كما في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٩٠١) ، وأورده السيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٥٧) ، والمتقي الهندي في « كنز العمال » (٢٣٦٨٧) وعزياه إلى ابن شاهين في « ترغيبه » عن سيدنا جرير رضي الله عنه .

(٢) والعبارة في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٨) : (وذلك أنه لما عجز عن تحمل أعباء الوحي في اليقظة ، ولم يطق سماعه من الملك ، فأتاه به في النوم الذي هو الحسُّ المشترك) .

منه ، فقصَّهُ علىٰ أخي أفضلِ الدينِ وقال قد خفت أن ينطفئَ نورُ إيماني ، فقال له أخي المذكورُ : والله ؛ إن إيمانَكَ على الفتح ، كيف يؤثِّر عالمُ خيالك في عالم حسِّكَ ؟! انتهىٰ ، ولكل مقام رجالٌ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[إصلاحُ زوجاتِهِ الأربعِ في أمر دينهنَّ]

ومما منَّ الله به عليَّ إصلاحُ زوجاتي الأربعِ ؛ وهنَّ زينبُ ، وحليمةُ ، وفاطمةُ ، وأمُّ الحسن بنةُ سيدي أبي السعود بن سيدي مدينَ رضي الله عنه[١] ، والثلاثةُ الأُوَل من محلة القصب من بلاد الغربية ، وهـٰذه من أكبر نعم الله عليَّ ، ولولا أنَّها نعمةٌ عظيمة ما امتَنَّ اللهُ تعالىٰ بها علىٰ نبيه زكريا عليه الصلاة والسلام بقوله تعالىٰ ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ﴾ [الأنبياء ٩٠]

ومن جملة إصلاح كلٍّ من الأربع : أنهنَّ لا يجلسن ساعةً بلا غسل ، ولا يُخرِجنَ صلاةً عن وقتها إلا لعذر شرعي ، ولا يتركنَ قيامَ الليل أبداً

ثم أعظمهنَّ عبادةً : فاطمةُ وأمُّ الحسن ؛ فأما فاطمةُ : فربما أحرمتْ خلفي في الليل ، فأقرأ بها في الركعة الواحدةِ خمسةَ عشرَ حزباً ، فلا تفارقني إلا لبكاء طفلها ، وأما أمُّ الحسن : فكان قيامُها في ليالي الشتاء علىٰ سبعين درجةً أو ثمانين[٢]

---

(١) كذا في النسخ ، والذي في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٥١) (وأم الحسن بنت سيدي مدين نفعنا الله ببركاته) .

(٢) الدرجة : أربع دقائق .

ومن جملة إصلاحهنَّ الأربعَ أنهن لم يُكلِّفْنني يوماً من الأيام إلىٰ شراء شيء يتعلَّقُ بهنَّ من أكل أو لبس ، بل هُنَّ معي علىٰ ما يفتح اللهُ تعالىٰ به

ومن إصلاح أمِّ عبد الرحمـٰن فاطمةَ : أنني لم أطلعْ قط علىٰ دخولها الخلاءَ ؛ وذلك من حينَ دخلتُ بها في سنة إحدىٰ وأربعين إلىٰ سنة ستين وتسع مئة ، وسافرتْ معي [إلى] الحجاز مرتين وأنا معادلُها ، فلم أطلع لها علىٰ قضاء حاجة ذهاباً وإياباً

ومن إصلاحها أن الجمَّالَ لم يَرَ لها شخصاً من حينَ ركبتْ في حِمْلها من بيتها إلىٰ أن وصلت إلىٰ مكةَ والمدينةِ ورجعت ، ونزلتْ نساءُ الأكابر كلُّهن في مثل العقبة فلم تنزل ، وركبتْ علىٰ قبة الجمل داخلَ الحِمْل ، وكانت خفيفةَ اللحم .

ومن إصلاحها أنها لا تقدر تركب علىٰ مكارٍ ولا حمار وحدها ، ولا تقدر علىٰ أن يرىٰ لها أحدٌ شخصاً وهي في الإزار ، إلا أن يكونَ لا يعرفها ، ولا تحضر عرساً لأحد ولا جمعيةً

ومن إصلاحها : أنها لا تقدر علىٰ نظر أحد إليها حالَ الفصد والتداوي ، وعجَزَ فيها الكحالُ أن تفتحَ عينَها له لينظر داخلَها فلم يقدر ، وشُفيت العينُ ، فكانت أضيقَ من أختها ، وهي ضيقةٌ إلى الآن ، راضيةٌ بذلك ، وقالت : (رضيتُ بضيق عيني ، ولا يراني أحدٌ) ، وهـٰذه أمورٌ ما رأيتُها وقعت لأحد من أكابر العصرِ فضلاً عن غيرهم ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[تأهله لخدمة الفقراء القاطنين عنده للاشتغال بالعلم]

ومما منَّ الله به عليَّ تأهيلي لخدمة الفقراء القاطنين عندي للعلم والقرآنِ والأدبِ من منذ ثلاثين سنةً ، فلا أتقلق قط من التعب في تحصيل ما يأكلون وما يلبسون ولو صاروا ألفاً

وقد بلغوا عندي الآن نحوَ مئتي نَفْس ؛ نساءً ورجالاً وأطفالاً ، وأَحْزنُ إذا نقَصوا ، وأفرح كلما زادوا ؛ لأني أعلم أن المعونةَ تأتي من الله علىٰ قَدْر المَؤُونة[1] ، ولعلمي أنه لا يُقيِّدُ الحقُّ تعالىٰ أحداً عندي إلا ويسوق إليه رزقَهُ ، فلو كان أهلُ مصرَ كلُّهم بحمد الله عيالي . . ما حملت لهم همّاً

وقد عددنا الذين حفظوا عندنا القرآنَ ، فبلغوا ألفَيْ نفس في مدة عشرين سنة ، وهـٰذا الأمرُ قَلَّ أن يوجد اليومَ في زاوية من زوايا فقراء مصرَ وقراها ، وإن كان لهم وقفٌ ومسموح وجوالي وغيرُ ذلك[2] ، وقد قال لي شخصٌ من السواحين سِحتُ بلادَ الشام واليمنِ والعجم والرومِ . . فلم أَرَ مدينة مثلَ مصرَ ، ولم أجد فيها زاويةً أكثرَ اشتغالاً وخيراً من زاويتكم . انتهىٰ .

(١) روى البيهقي في « شعب الإيمان » (٩٤٨١) ، والبزار في « مسنده » (٨٨٧٨) والقضاعي في « مسنده » (٩٩٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزل الله عز وجل المعونة علىٰ قدر المؤونة ، وأنزل الصبر عند البلاء » ، والمؤونة الثقل

(٢) المسموح : الهبة والعطاء ، والحلوان « تكملة المعاجم العربية » (٦/ ١٤٠) ، والجوالي : هي في الأصل : ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقدرة علىٰ رقابهم في كل سنة « صبح الأعشىٰ » (٣/ ٥٣٠)

[مطلبٌ
في محبةِ الفقراء الإقامةَ في زاوية المؤلف ، وسببِ ذلك]

وسببُ كثرة الخير والبركة ، وكثرةِ عكوف الفقراء عليَّ أنني لا أتخصَّصُ عنهم بشيء إلا لضرورة شرعية ، وكلُّ شيء دخل في يدي من الدنيا . . أعطيه لهم ، حتىٰ ما وُقِف عليَّ وعلىٰ ذريتي فأصرفه إليهم ، وآكلُ منه بجملةِ واحد منهم

وربما دخل في يدي الألفُ نصفٍ مثلاً فأفرقها عليهم[1] ، ولا أُمسك لعيالي ولا لنفسي منها نصفاً واحداً ؛ تعفُّفاً عن مزاحمتهم .

وربما أعطاني الإنسانُ شيئاً من الذهب لنفسي بحيث لا يعلم به أحدٌ من الفقراء ، فأفرقه على الفقراء وأقول لعله ما أعطاني ذلك إلا لِمَا شاع بين الناس عليَّ أنني لا أتخصص عن الفقراء بشيء ، فلا أُخيِّبُ ظنَّهُ فيَّ وأنافق ، وهـٰذا الأمرُ عزيز فاعلُهُ ، والله أعلم

وبلغت الصدقاتُ علىٰ يدي في كل سنة نحوَ عشرين ألفَ نصف ؛ بعضُها من وقف ، وبعضُها من الهدايا ، ثم إني إذا علمت أن في تلك الدراهم شبهةً . . لا أفرقها حتىٰ أُعلِمَ الفقراءَ بذلك قبل تفرقتها ؛ لأَخرج من عهدتها في الآخرة ، فأقول لهم هـٰذه أموالٌ فيها الشبهةُ ، فمن كان منكم صاحبَ ضرورة فليأخذ

وبلغ العُميانُ عندي تسعةً وعشرين نفساً ، وبلغ الذين يعجنون العجينَ

---

(١) النصف : عملة مصرية صغيرة مسبوكة من خليط الفضة والنحاس ، وكانت تساوي قديماً نصف درهم « تكملة المعاجم العربية » (١٠/٢٣٦)

بالنوبة عشرين نفساً ، وبلغ العجينُ عندي كلَّ يوم إردبّاً وثلثاً[1] ، وبلغ الواردون عليَّ في الزاوية من الضيوف ـ خلافَ المجاورين ـ السبعينَ نفساً وأكثرَ

وأجرى اللهُ تعالىٰ لي جميعَ ما يحتاج إليه المجاورون وعيالُهم وأولادُهم في البيت ، فلا نحتاج إلىٰ شراء شيء من السوق إلا في النادر ، وكلما كثُر أولادُ المجاورين أفرح بهم ، حتىٰ كأنهم أولادي من غير فرق

وزوجت منهم نحوَ أربعين نفساً ، ووزنْتُ عنهم من فضل الله تعالىٰ غالبَ مهرهم ، وربما أَمهَرُ الفقيرَ كاملاً ، وأعمل لهم كلِّهم طعامَ العرس من البيت ، ولا أُكلِّف أحداً منهم بشيء ، وكثيراً ما أشتري لهم اللُّبَانةَ وأفرقها علىٰ نسائهم ليتنظفن بها ، وهـٰذا أمرٌ أظنك يا أخي ما سمعتَهُ قط عن أحد من الفقراء إلىٰ وقتنا هـٰذا ، وهـٰذه زوايا مصرَ كلُّها بين يديك ، فانظر فيها وقلْ لي : صدقت ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[تيسيرُ عمل الفُرْن الذي يخبز به الفقراء في البيت ، وتيسير وقوده]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ تيسيرُ الفُرْن الذي نخبز فيه خبزَ الفقراء في البيت ، وتيسيرُ وقوده من تبن الفول الطاهرِ دون الزِّبْلِ ، فيأتينا كلَّ سنة وَسْقان في البحر إلىٰ باب الزاوية[2] ، فنخزُنه تحت عقد في الزاوية ، فتخبز نساءُ المجاورين به طولَ عامهم كلَّ يوم الإردبَّ وأكثرَ ، ولم يتيسر مثلُ ذلك

---

(١) الإردبُّ : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً « المعجم الوسيط » (١/ ١٣)

(٢) الوَسق : ستون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وسلم ، والصاع : خمسة أرطال وثلث

لأحد من فقراء العصر ، بل ولا لسيدي أحمدَ الزاهدِ ، ولا لسيدي مدينَ ، ولا لسيدي محمد الغمري ، ولا لسيدي إبراهيمَ المتبولي ، ولا لسيدي عثمانَ الحطابِ ، مع تمكُّنهم في عصرهم ، ولا أعلم زاويةً فيها طعامٌ ومجاورون مثلَ زاويتنا خارج مصرَ ، سوىٰ مقامِ سيدي أحمدَ البدويِّ ، وزاويةِ شيخي الشيخ محمدٍ الشِّنَّاوي ، رضي الله عنهما ، آمين

وقد بلغني من الشيخ يوسف الكردي ، أحدِ أصحابِ سيدي إبراهيمَ المتبوليِّ . . أن أكثرَ ما وصل المجاورون عند سيدي إبراهيمَ في بركة الحاجِّ إلىٰ سبعين نَفْساً ، وأكثرَ ما بلغ عجينُهم أيام الرخاء نصفَ إِرْدبٍّ ، وفي غالب الأوقات كان ثلثَ إردبٍّ فقط ، كما يدل لذلك قولُ الشيخ يوسفَ المذكورِ : (إن سيدي إبراهيمَ غطَّىٰ مرةً وَيْبتين من القمح بحصير[1] ، وقال للنقيب : أخرجْ منها كلَّ يوم ويبتين للفقراء ، فمكث يأخذ كذلك مدةَ ستة أشهر ، فجاء فقيرٌ غريب ، فكشف الحصيرَ ، فلم يَرَوا تحتها شيئاً ، فقال الشيخُ : لو أنهم لم يكشفوها لأكلوا منها ما بقيت الدنيا) انتهىٰ .

وكذلك أخبرني سيدي الشيخ نورُ الدين الشَّوْنيُّ رحمه الله قال (أكثرُ ما وصل عددُ الفقراء عند سيدي عثمان الحطاب . . خمسين نفساً) ، قال (وربما احتاج الشيخُ للقمح أو للبِسِلَّةِ أو الأرز أو العدس[2] ، فيطلُع للسلطان قايتباي ، أو يدخل لبعض الأمراءِ ، فيطلب لهم ما يحتاجون إليه

---

(١) الوَيْبة : اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مدّاً ، والمُدُّ رطل وثلث عند أهل الحجاز ، ورطلان عند أهل العراق .

(٢) البِسِلَّةُ : صنف من الجُلُبَّان ، وهو نوع من الحبوب « تكملة المعاجم العربية » (١/ ٣٤٤) .

ويقول : إنهم عيالُ الله) انتهىٰ ، ولم يُحوجني اللهُ تعالىٰ قط إلىٰ سؤال أحد للفقراء ، لا تصريحاً ولا تعريضاً

وكذلك أخبرني الشيخ أحمدُ بنُ النحال ، أحدُ أصحاب سيدي محمد الغمري : أن أكثرَ ما وصل المجاورون عند سيدي محمدِ الغمري إلىٰ ثمانين نفساً ، ثم صار يَرُدُّ كلَّ من أراد أن يجاورَ ويقول : يكفي هٰذا العددُ ، وأنا بحمد الله لا أردُّ أحداً جاء زائداً على المئتين ، إلا إن تفرست فيه أنه ليس له عندنا رزقٌ ، أو همتَهُ ناقصةٌ في الاشتغال بالعلم والقرآنِ .

وكذلك أخبرني الشيخ عبدُ الرحمٰن المغربيُّ ، أحدُ أصحاب سيدي مدينَ أن أكثرَ ما وصل عددُ المجاورين عنده إلىٰ أربعين نفساً ، وكلَّ من زاد عليهم يردُّونه .

وإنما ذكرت ذلك إظهاراً لنعمة الله عليَّ كما مرَّ في مقدمة الكتابِ[1] ، لا فخراً علىٰ هٰؤلاء الأشياخ رضي الله عنهم ؛ فإني وإن قُدِّر أني فَضَلتُهم في كثرة الفقراء . . فهم أفضلُ مني من وجوهٍ أخرَ ، كما يظهر ذلك في الدار الآخرة ، فالحمدُ لله الذي جعل الفُرْنَ والوَقيد عندنا طاهراً في الدار[2] ، لا نحتاج إلى الخروج بالعجين إلىٰ فرن السوق الذي يُخبَز بالزِّبْل والنجاسات ، لا سيما حصولِ المشقة في الخروج لذلك أيامَ الشتاء في المطر والزلق والبرد ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) انظر (ص١٠٤) .

(٢) الوَقيد : ما تُشعل به النار ؛ كالحطب .

[امتلاءُ صِهْرِيج الماء الكبير في وسط الدار من الخليج الحاكمي]

ومما منَّ الله به عليَّ : جعلُ الصِّهْرِيج الكبير في وسط دارنا . . يمتلئ من الخليج الحاكمي بلا مشقة ، فنفتح له من الخليج طاقةً أيامَ النيل فيمتلئ في يوم وليلة ، وجعلنا فيه كذا كذا بيارةً ؛ واحدةً للسبيل الذي في الزاوية ، وواحدةً لسبيل السوق ، وواحدةً للعجين والطبيخِ والغَسيلِ ، وواحدةً مفرَّقة على البيوت ، كلُّ بيت له بيارةٌ يملأ منها أهلُهُ طولَ سنتهم ، لا يحتاج أحدٌ منهم إلىٰ شراء ماء طولَ السنة

وقد عجز سيدي أحمدُ الزاهد ، وسيدي مدينُ ، وسيدي أبو العباس الغمري . . أن يجعل أحدُهم الصهريجَ داخل بيته حتىٰ يستغنيَ العيالُ عن الخروج للماء ، فلم يتيسر ذلك لهم ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[تيسيرُ الرزق الداخل للزاوية طولَ السنة]

ومما أنعمَ الله به عليَّ تيسيرُ الرزق الذي يدخل الزاوية طولَ السنة للفقراء . . من غير ذلٍّ في طريق تحصيله أو سؤالِ أحدٍ فيه ، وهـٰذا أمرٌ قَلَّ أن يقعَ لفقير في هـٰذا الزمان المباركِ ، بل لا بدَّ لأحدهم غالباً من سؤال الوسائط من الخَلْق ؛ بلسان الحال أو بالمقال ، أو سفرٍ إلىٰ بلاد الروم للسلطان ، ويكتب قصَّتَهُ[1] ، ويُنهي فيها : أن المملوك فقيرُ الحال ، ومن

---

(1) قال دوزي في « تكملة المعاجم العربية » (٨/ ٢٨٢) : (قصة : عريضة ، طلب ، التماس ، استرحام ، ومنها سمي : « القصة دار » ؛ وهو موظف يتولى استلام العرائض والطلبات والالتماسات والاسترحام أيام الأسبوع ؛ ليحملها يوم الجمعة إلىٰ مجلس السلطان إذا أراد السلطان أن يجلس في هـٰذا اليوم لمقابلة العامة) .

أهل العلم ، ولا له شيءٌ يقوم به في مصرَ يكفيه لعياله ، ولا للواردين عليه ، فيشكي ربَّهُ أولاً ، ويزكي نفسَهُ ثانياً ، ويُذِلُّ نفسَهُ للخَلْق ثالثاً ، وما هٰكذا أدركنا المريدين للأشياخ السابقين فضلاً عن المشايخ .

وقد رأيتُ من أرسل من مصرَ ، فسأل السلطانَ في أن يرتِّب له ديناراً كل يوم في الديوان ، أو من الجوالي ، وأنهىٰ في القصة : أن ذلك يَعملُ به طعاماً للفقراء المنقطعين عنده والواردين عليه ، وأنه ليس في مصرَ شيخٌ فوقه ، فلما أعطاه السلطانُ ذلك أنفق منه نحوَ الثلث مدةً ، ثم عرض له أبو مُرَّةَ فمنع النصف[1] ، ثم منع الثلثين ، ثم حوَّل الاسمَ إلىٰ نفسه وذريتِهِ .

وأخبرني بعضُ جماعته أنه يحبني مثلَ أولاده ، فأرسلت له أمتحنُهُ في المحبة ؛ أن يعملَ لي منها كلَّ يوم نصفاً ، فأبىٰ ، فقلت له أين حقُّ الأخوة والمحبة ؟! فما درىٰ ما يقول ، فخففت التردُّدَ إليه من ذلك اليوم ، هٰذا مع أنه يعلم أنه ليس لي في مصرَ نصفٌ واحد خاصّاً بي ، ثم إني أعلمتُهُ أنني ما أرسلت أطلب منه ذلك إلا امتحاناً له في المحبة ، وأنه لو أعطاني ذلك ما قبلته منه .

وقد سألني الأميرُ جانم الحمزاوي رحمه الله أن يرسل لي عَرْضاً للسلطان بأربعين نصفاً كل يوم[2] ، فلم أرضَ ، وقلت : هٰذه جامكيةُ أمير يسافر بالتجاريد[3] ، وأيضاً فإن أموالَ بيت المال إنما هي مرصدةٌ لأهل

---

(١) أبو مرة : كنية إبليس .

(٢) العَرْض الطلب

(٣) الجامكية : رواتب أصحاب الوظائف من الأوقاف .

المصالح التي يتعدَّىٰ نفعُها للمسلمين ؛ كالعلماء والصالحين ، وأنا لست بأمير ، ولا عالم ولا صالح ، ولا أنا محتاجٌ إلىٰ طعام ولا لباسٍ فوق ما أنا فيه ، وعندي من فضل الله تعالىٰ كلَّ ليلة من الطعام . . أكثرُ من طعام الموالد التي يعملها الأشياخُ في زواياهم من الشهر إلى الشهر أو من السنة إلى السنة .

والأصلُ في ذلك كله : البركةُ من الله تعالىٰ في رزق الفقير ، وجميعُ ما أنا فيه إنما جاءني بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وعده لي بذلك لمَّا أنشأتُ مجلسَ الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في جامع الغمري بمصرَ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[إرسالُ الحق تعالىٰ للشيخ كل سنة من العسل وغيره كفايتَهُ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ في كلِّ سنة من عسل النحلِ نحوَ عشرة قناطيرَ ، ومن عسل القصب نحوَ خمسةَ عشرَ قنطاراً إلىٰ عشرين قنطاراً ، ومن القمح أكثرَ من ثلاث مئة إردب ، وبلغ الاستجرارُ للفول الحارِّ أيامَ الشتاء كلَّ سنة ستين إردبّاً ، ومن الكشك خمسةَ أرادبَ زائداً علىٰ ما يأتي من الهدايا ، ومن الأرز سبعةَ أرادبَ خلاف الهدايا ، ومن الحِمَّص والعدس والبِسِلَّةِ نحوَ خمسة وعشرين إردبّاً ، وبلغ عجينُ الكعك في عيد الفطر كلَّ سنة خمسةَ أرادبَ ، ومن هدايا الريف نحوَ أربعة أرادبَ ، ومن التمر والخَرْنوب والزبيب والتين اليابس[١] . . نحوَ خمسة قناطيرَ ، وهٰذه الأمورُ ليست الآن في زاوية من زوايا مصرَ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

---

(١) الخَرْنوب : شجر له ثمر حلو يشبه القرن في شكله ، يؤكل ويستعمل علفاً للماشية .

[تخزينُهُ كلَّ سنة للضيوف والمرضىٰ نحوَ ألفي بِطِّيخة]

ومما منَّ الله به عليَّ : من البِطِّيخ الهندي الذي نخزُنه كلَّ سنة على اسم الضيوف والمرضىٰ . . نحوَ ألفي بطيخة تأتينا من الجزيرة الموقوفة عليَّ وعلىٰ ذريتي ، ونصفُها ملكٌ لي ، فيصير الفقراءُ يأكلون من ذلك طول سنتهم ، ونرسل منه للمرضىٰ ، ويأخذُ منه عيسىٰ الذي بالبحيرة كلَّ سنة نحو ثلاثين بطيخة[1] ، وعامرُ بن بغداد عشرةً ؛ تبركاً بالأكل منه .

وكذلك نقطع منها كلَّ سنة كذا كذا وَسقاً من الحطب للطعام ، وغالبُ الزوايا أو كلُّها يشتري أهلُها الحطب والبطيخَ كلما يحتاجون إليه طولَ سنتهم ، وهٰذا أمرٌ لا يوجد الآن في زاوية من زوايا مصرَ ، بل ولا عند أحد من المباشرين والتجار والعلماء ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ اعتماده علىٰ شيء من المعلوم]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ اعتمادي علىٰ شيء من المعلوم الذي يأتيني ؛ من قمح ، ونقدٍ ، وثياب ، وفواكهَ ، وغيرِ ذلك ؛ ولذلك لم يزل رزقُنا في ازدياد في البركة ، وغالبُ من يكون له مرتبٌ ، أو مَسْموحٌ ، أو جوالي ، أو رزقة ، أو عقار موقوفٌ عليه . . يكون حالُهُ مكشوفاً ، ولم يزل يشكي ويبكي ؛ وذلك لاعتماده على الرزق في جهة معينةٍ دون الله تعالىٰ ، وإن شككتَ في قولي هٰذا فاسأل جميعَ من لهمُ الجوالي والمسموح . . تجدْ أحدَهم في ضيق من الرزق وعليه الديونُ

---

(١) في (ج) : (بالجيزة) بدل (بالبحيرة)

وقد أخبرني الشيخ عبدُ الحليم بنُ مصلح رحمه الله قال : (لم يزل رزق زاويتنا في زيادة حتى اشترينا لنا عقاراتٍ وأرضاً خراجيةً ، فامتنعتِ البركةُ من رزقنا)

وكذلك لم أزلْ أرىٰ أصحابَ الجوالي عليهمُ الدَّينُ في مصرَ والحجازِ وغيرِهما ، وفي الحديث « أبى اللهُ تعالىٰ إلا أن يجعلَ رزقَ عبدِهِ المؤمنِ منْ حيثُ لا يحتسبُ »[١] ، أو كما قال ؛ وذلك لئلا يركنَ إلىٰ غير الله تعالىٰ ، وليكونَ الحقُّ تعالىٰ له علىٰ بال ؛ لحاجته إليه في الغداء والعشاء وغيرِهما ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[حمايتُهُ من أخذ أجرة رزقة كانت وقفاً ، ثم استُبدلت بغير حق]

ومما منَّ الله به عليَّ : حمايتُهُ لي من الأكل من خراج رزقة[٢] ، أو عقار بلغني أنه كان موقوفاً علىٰ جهة أخرىٰ واستُبدل بغير حقٍّ ، أو سُرِق من ديوان السلطان

وقد وقع لي : أنني اطلعتُ علىٰ ثلاث جهاتٍ في وقف الزاوية التي أنا مقيمٌ فيها ، أوقفها إنسانٌ بعد أن أخذَها ممن له عنده دينٌ ، من باب مسألة الظَّفَر ، فجمعت الفقراء وقلت لهم : اسألوا اللهَ تعالىٰ أن يعطلَ عنا كلَّ جهة

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١١٥٢) ، والقضاعي في « مسنده » (٥٨٥) ، وأورده الديلمي كما في « الفردوس بمأثور الخطاب » (١٧١٤) عن سيدنا علي رضي الله عنه

(٢) الرزقة : الرزق وما يعطاه الجند في المرة الواحدة ، وأيضاً هي الأرض أو غيرها مما يُغَلُّ ، يصرف ريعها على المسجد وخَدَمه « المعجم الوسيط » (١/ ٣٤٢) .

فيها لَوْثٌ وتَبِعةٌ يوم القيامة[1] ، فتعطلتْ هـٰذه الجهاتُ الثلاثُ ، فلم يقدر أحدٌ يأخذ منها شيئاً إلىٰ وقتنا هـٰذا ، وأفرج السلطان عنها ، وبعد ذلك فكلما أراد أحدٌ من الجُباة أن يأخذ منها شيئاً . . قامت دونه الموانعُ ، وذلك بحمد الله تعالىٰ دليلٌ علىٰ صدق الفقراء السائلين في ذلك .

ولمَّا وقع التفتيشُ على الرزق في ديوان السلطان . . جمعت المكاتيبَ كلَّها[2] ، وأرسلتها للباشاه عليٍّ في سنة تسعٍ وخمسينَ وتسع مئة ، وكتبت له ورقةً معها ، مضمونها أنه قد بلغني أَن في هـٰذه الرزق شيئاً لجهة السلطان ، والمسؤولُ بروز أمر مولانا الباشاه لمباشري الديوان . . بالتفتيش لهـٰذه الرزق التفتيشَ التامَّ المبرئ للذمة ، ولو وجدتموها كلَّها لجهة السلطان فخذوها بطيبة أنفسنا ، ولكم الأجرُ العظيمُ في ذلك

ثم إني جمعتُ الفقراءَ وقلت لهم اسألوا اللهَ تعالىٰ أن يُوقِفَ عنكم خَراجَ كل جهة يعلم الله تعالىٰ أننا نُسأل عنها يومَ القيامة ، فدعوا الله تعالىٰ كذلك ، فأفرج عنها الباشاه عليٌّ وقال : كلوا منها وقلبُكم طيِّبٌ ؛ فإنا سمحنا لكم بها صدقةً عن السلطان ، وكلُّ ذلك إنما هو من كثرة شفقتي علىٰ إخواني الذين يطلبون الطريقَ إلى الله تعالىٰ ؛ فإن كلَّ من لا يتورع في اللقمة لا يفلح في الطريق أبداً .

وهـٰذا أمرٌ ما بلغنا أن أحداً من أصحاب الزوايا فَعَلَهُ ، بل بعضهم خرج عليَّ في ذلك وقال : ليس للفقير أن يتعنت هـٰذا التعنتَ ؛ لئلا يأخذوا

---

(١) التَّبِعَةُ : ما فيه إثم يتبع به .

(٢) المكاتيب : الرسائل .

ما بيده ، فقلت لهم لا يَخرجُ عن الإنسان شيءٌ إلا وليس هو رزقَهُ ، فالمتورعُ يتورَّعُ ويردُّ ، فما كان من رزقه أتاه بعزة نفس من غير ذلٍّ ، وما كان من غير رزقه خرج عنه كذلك بعزة نفسٍ من غير ذلٍّ لأحد ، ولذلك لم أغرم قط للوسائط من أهل الديوان والكشاف ومشايخ العرب والأمناء[1] . . شيئاً قط بَلْصاً ؛ لأن التبليصَ إنما يكون ممن يقول لهم إذا رأيتم رزقتي فيها لَوْثٌ . . فاسكتوا عنها ، وأما من يسألهم في تفتيشها ويشكر فضلَهم إذا أخرجوها عنه . . فلا يحتاج إلىٰ تبليص أحد أبداً

ولما طال مكثُ مكاتيب الوقف في الديوان حتىٰ يفتشوهم ، وأنكر عليَّ بعضُ العلماء والفقراء في إرسالهم من غير طلب . . سعىٰ بعض الإخوان من غير علمي عند المغربي المفتش بفُتيح : أرسلْهُ ويفرجُ عنهم ، أرسلت أقول له : السلامُ عليك أيها المغربيُّ ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فقد بلغني علىٰ لسان شخص من جماعتك أنك تطلب مني شيئاً من الذهب ؛ لتفرج عن جهات الزاوية ، ولا يخلو حالك من أمرين :

إما أن يطلعوا لنا دون السلطان ، فلا تستحقُّ شيئاً علىٰ ذلك

وإما أن يخرجوا للسلطان فأخرجهم ، ثم لا تستحقُّ أيضاً علينا شيئاً . انتهىٰ .

وغالبُ الناس لا يقدر على النطق بهـٰذا الكلام الذي في الكتاب ، بل يبرطل علىٰ جهاته إذا ظهرت مستحقةً للسلطان[2] ، ويقول لهم اسكتوا عني ، ويتشوش إذا أخرجوها ، ولا يشكر فضلَهم علىٰ ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) لم أغرم : إذا لم أعطِ غرامة .

(٢) البِرطيل : الرشوة .

[موافقة المجاورين للشيخ علىٰ ردِّ ما يأتيه من الولاة]

ومما منَّ الله به عليَّ موافقةُ إخواني المجاورين عندي علىٰ ردِّ ما يأتينا إلى الزاوية من أموال الولاة ؛ فإذا قلت لهم : ردُّوه فعلوا ذلك بانشراح صدرٍ منهم ، سواء كان نقداً ، أو قمحاً ، أو عسلاً ، أو دجاجاً ، وعدمُ تحرُّك أحد منهم إلى القاصد إذا أتىٰ بشيء من ذلك حتىٰ يشاورني

ولقد أرسل إلينا مرةً الباشاه حصرف مالاً جزيلاً ، فلم يقم أحدٌ من الفقراء لقاصده حين طلب أن يُفرِّقَ عليهم ، فتعجب غايةَ العجب وقال : قد ازدحموا عليَّ في الزاوية الفلانية حتىٰ رموني الأرض

ودخل قاصدُ الولاة بحضرتي مراراً بمال ، فأخذته منه وبذرته في صحن الزاوية[1] ، فالتقطه أطفالُ المكتب ، ولم يتحرك أحدٌ من البالغين لذلك ، فتعجب القاصدُ ، وحكىٰ ذلك للباشاه الذي أرسله ، وإنما لم أردُّهُ ؛ خوفاً من التميز عن مشايخ الزوايا الذين أخذوا قبلي ، ولئلا يفوتَ القاصدَ العلمُ باستهانة الفقراء بالدنيا حين رآني بذرتها للأطفال ولم آخذ منها شيئاً .

وما من أحد من نواب مصرَ إلا وقد أرسل إلينا المالَ ؛ فتارةً نردُّهُ ونقول : فرِّقوه علىٰ من هو أحوجُ إليه منا ، وتارةً نبذره

وجاءني مرةً الدفتردار أحمدُ بمئة دينار ، فقال لي خذْ هٰذه الدراهمَ فتوسع فيها ، فرددتها وقلت له : عندي بحمد الله صندوقٌ ملآنُ ، فخرج وأرسلَها مع مملوك له وقال له : أعطها له سرّاً بحيث لا يراك أحدٌ ؛ لظنه

(١) بذر الشيء : ألقاه .

أني إنما رددتُها رياءً بحضرة الناس ، فلما دخل إليَّ المملوكُ بها قلت له يا ولدي ، إذا لم آخذْها من سيدك . . آخذُها منك ؟! فرجع بها إليه وقال هـٰذا رجلٌ غريبٌ في فقراء مصرَ ، ثم صار يمدحني في المجالس ، فبلغ ذلك بعضَ الحسدة ، فقال أمرٌ سهلٌ ، والفقراء يردون أكثرَ من ذلك ، فبلغ الدفتردار أحمدَ مقالتُهُ ، فأرسل له صرةً وقال لقاصده : ادفعها إليه وقلْ له سيدي يسلم عليك ويسألُكَ الدعاءَ ، فلما دخل عليه في درسه بجامع الأزهر . . قطَّبَ في وجه القاصدِ وردَّها إليه وقال له قل لسيدك أرسلها لغيري ؛ فإني لا آكل شيئاً من مال الولاة ، فبحث الدفتردار عنه ، فرآه يأكل من مال الظلمة والمكَّاسين(١) ، ويفطر عندهم في رمضان ، فقال هـٰذا مراءٍ

ثم إنه صرَّ له صرةً من تراب ورمل كبيرةً وقال لقاصده : رُحْ بها إليه في بيته وأعطها له سرّاً وقلْ له الأميرُ يُسلِّم عليك ويقول لك توسَّعْ بهـٰذه علىٰ عيالك ، فقال : والله ؛ إني داعٍ للأمير في سجودي وفي ليلة الجمعة ؛ لِمَا أعلم من صلاحه وخيرِه ، فلما أخذها الشيخُ قال له افتحها ؛ فإذا هي رملٌ وترابٌ ، فقال له القاصد يا بطال ؛ ترائي بحضرة الناس وتردُّ الذهبَ ، ثم تأخذ التراب فيما بينك وبين الله تعالىٰ ؟! ولم يزلِ الدفتردار يسخَر به في المجالس

فإياك يا أخي أن تفعل مثلَ هـٰذا الشيخ فتقع في الفضيحة والإثمِ ، بل إن

---

(١) المكس إتاوة تفرض على البضائع كافة ، وتجبىٰ عند دخولها إلى السوق من الجمرك من المسؤول عن بيت المال أو من نائبه عيناً أو نقداً .

كنت صاحبَ حاجة وضرورة . . فخذ ، وإلا فدعْ سرّاً وجهراً ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[حمايةُ الشيخ وأصحابِهِ من الأكل من خبز ابن عمر وابن بغداد المرتَّبِ للزواية]

ومما أنعمَ الله به عليَّ حمايتي وحمايةُ أصحابي من الأكل من خبز داودَ بن عمرَ ومحمدِ بن بغدادَ لمَّا رتباه في الزاوية ؛ لضرورة اقتضتْ ذلك ، وربما جاع الفقيرُ إذا فرغ الخبز المتعلِّقُ بنا ، فيصبر بالجوع ولا يأكلُ من ذلك لقمةً ، وكذلك نساءُ المجاورين ، فكان النقيب يطعمه لمحاويج الحارة وللعميان وللفلاحين الواردين ، مع أنه جاءنا بغير سؤال بعد أن رددتُهُ مراراً ، فلم يرضَ أحدٌ منهما يردُّهُ ، ولم يزلِ النقيبُ يفرقه كذلك إلىٰ أن مات ابنُ عمرَ وابنُ بغدادَ مشنوقين في باب زَوِيلَةَ .

وهـٰذا الأمرُ نادر فعلُهُ من فقراء زوايا مصرَ ، بل بعضُهم كتب له قصةً وسألَهما فيها ، وصار يأكله ويبيع ما فَضَل .

ورأيت بعضَ العلماء تبع محمدَ بن بغدادَ يشيعه إلىٰ ناحية شَبْرا ويسأله في أن يرتِّبَ له شيئاً من الخبز

ورأيت بعيني بعضَ مشايخ الزوايا يقول له : يا أمير ؛ لم يفضل لي من خبزك شيءٌ ، وأخذه الفقراءُ كلَّهُ ولم يعطوني شيئاً ، فقلت له : استحِ ، أنت شيخُ الزاوية وتقول هـٰذا الكلامَ الساقطَ ؟! فلم يلتفت إلىٰ ذلك ، وصار يقول لي : أَعْلِمِ الأميرَ بمقام الفقراء ، فقلت له : لا أقدر أرفعُ قدرَك عنده إلا إن زهدت في ماله ، فالحمدُ لله الذي عافانا من مثل ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[سماعُ الفقراء لنصح المؤلف في عدم قراءتهم القرآنَ بالفلوس]

ومما منَّ الله به عليَّ مطاوعةُ إخواني المقيمين عندي لي في منعهم من قراءة القرآن بفلوسٍ لياليَ الجمع وغيرها.. في البيوت والتُّرَب ، وعدمُ أكلهم من طعام العزاء ، وفطيرِ الجمع ، وطعامِ تمام الشهر ، ولو عُرِض علىٰ أحدهم الدراهمُ الكثيرةُ ليلة الجمعة.. لا يتركُ مجلسنا ويذهبُ إلىٰ غيره .

وهـٰذا الأمر لا يكاد يوجد في زاوية من زوايا مصرَ ، بل غالبُهم يذهب إلى القراءة على القبور وغيرِها ليلةَ الجمعة ، حتىٰ لا يصيرَ في الزاوية أحدٌ يقول : (لا إلـٰه إلا الله)

وقد أراد سيدي أحمدُ بن سيدي مدينَ أن يفعل في زاويته مجلساً كمجلسنا ، ومنع جماعةَ الزاوية من القراءة بالفلوس ، فخرجوا كلُّهم من الزاوية ولم يوافقوه ، وبطل المجلسُ ، وجماعتي بحمد الله لا يفارقوني في مجلس الليل والصبح ، ولا مجلسٍ بعد صلاة الجمعة إلى العصر

وقد خرج بعضُ جماعة منهم عن طاعتي وناموا في بيوتهم ، فذهبت النضارةُ والنورُ الذي كان علىٰ وجوههم ، ولاح عليهم المقتُ ؛ لإيثارهم الكسلَ علىٰ مجالسة الله تعالىٰ في ذكره ، وقد كان الفضيلُ بن عياض يقول : (إذا أبغض الله ُعبداً شغلَهُ بالدنيا ، ولم يجعل له مَيْلاً إلىٰ أعمال الآخرة)[1]

ثم إن هـٰؤلاء الذين خرجوا عن الطاعة.. خرجوا بعد ذلك عن المجاورة

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (١١/ ٤١) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٣٢٦) .

بالكلية ، ولم يجدوا بعدنا خيراً ، فلا هم يقدرون على الرجوع عن طلب الدنيا ، ولا هي تقف لهم ، وسيندم أحدُهم يوم القيامة حين لا ينفعه الندمُ ؛ فإن في الحديث : « ليسَ يتحسَّرُ أهلُ الجنةِ إلا علىٰ ساعةٍ مرَّتْ بهم لم يذكرُوا اللهَ فيها »[١] ، ومجلسُنا بحمد الله تعالىٰ ليلةَ الجمعة . . قراءةُ قرآن ، وصلاةٌ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرٌ لله تعالىٰ إلى الفجر ، فمن يجالسُ اللهَ تعالىٰ هـٰذه المجالسةَ . . كيف يحوجه إلىٰ ذُلِّ المكاسب ؟!

وكلامُنا إنما هو مع من يجد في زاويتنا ما يكفيه ويكفي عيالَهُ من اللقمة والخَلَقة ، وأما ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ إذا ذهبتِ اللقمةُ والخَلَقة من الزاوية[٢] . . فلا حرجَ علىٰ أهل اليقين الضعيفِ في تلاوة القرآن بالفلوس ؛ لعدم وجود ما يكفيه في الزاوية الكفايةَ الشرعيةَ ، وقد سألتُ الله تعالىٰ : أن كل من جلس عندي من أرباب الجوامك ؛ يجمع ويبخل ، ولا يأكل ولا يقري ضيفاً . . أن يسلطَ علىٰ ماله النصابين ، فيأخذوا ما يجمعه في سنين في ساعة واحدة ، فلا هو أكلَهُ ولبسَ منه ، ولا هو تصدَّقَ به ، بل يؤخذ منه قهراً ، ثم يندم حيث لا ينفعه الندمُ ، ولو أنه أطاعني وأنفق منه علىٰ نفسه وعيالِهِ وإخوانِهِ في الزاوية ، وتصدَّق به بطيبة نفْس ؛ لم يعاقبْ بشيء مما ذكرناه ، فالله تعالىٰ يجعل جميعَ أصحابي ينفقون كلَّ ما دخل يدَهم ، ويأكلون منه ، ويتصدَّقون سرّاً وجهراً ، آمين آمين آمين ، **والحمد لله ربِّ العالمين** .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٩٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٠٩) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) **الخَلَقةُ** : الثوب البالي

[عدمُ تردُّده ومواڌّته لفقير يحبُّ الدنيا]

ومما أنعم الله به عليَّ : عدمُ موادَّتي لفقير يحبُّ الدنيا للأغراض النفسانية من المجاورين ؛ فإن من أحبَّ منهم الدنيا لم يصرْ عندي شعرةٌ واحدة تحبُّهُ ، وربما يخرج من الزاوية عن قرب ولو لم نخرجْهُ نحن ؛ لكوننا نمنعه من محبوبة قلبه التي هي الدنيا ، ولو أنه شمَّ رائحةَ الهداية لم يأكل من طعام الزاويةِ ولا خبزِها لقمةً واحدة ؛ تعفُّفاً وورعاً

وليقلِ الكسلانُ المالحُ الرقبة لنفسه صدقاتُ الزاوية إنما جعلها أصحابُها للفقراء المنقطعين إلى الله تعالى ، الراغبين في الدار الآخرة ، وأنتِ تحبين الدنيا ، فلا حقَّ لكِ في ذلك ، بل لو علم بكِ أصحابُ الصدقات حالَ حياتهم . . لم يطعموكِ من صدقاتهم شيئاً

فعُلِمَ : أن كلَّ من لم يشتغل بالأعمال الصالحةِ من العلم والعملِ من موالح الرقبةِ الشريرين ، وجلس يأكل من صدقات الزاويةِ . . فهو قليلُ الدين ، وما يأكله حرامٌ في بطنه ولو سمح له الناظرُ بذلك ؛ خوفاً من شره ، ولو قُدِّر أن الفقراءَ الذين في الزاوية صاروا كلُّهم كذلك في حياة الواقف . . لم يُوقِفْ عليهم مَفْحَصَ قَطاة ولو ساقوا عليه السياقاتِ[1]

وقد بلغنا أن من شرط الرهبانِ المقيمين في الكنائس ألا يمسكوا ديناراً ولا درهماً ، وإذا اطَّلع القسيسون على أحد من الرهبان أنه صَرَّ على نصفٍ من الفضة . . اتفقوا كلُّهم على إخراجه من الكنيسة ، وقالوا له :

---

(١) القَطاةُ : نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ، ويتخذ أُفحُوصه في الأرض ، والمَفحَص محلٌّ تبحثه برجلها ، وتصلحه لتبيض به بالأرض

صدقاتُ الكنيسة إنما هي لمن ترك الدنيا وأهلَها ، وانقطع إلى الله تعالىٰ في زعمهم ومصطلحِ دينهم ، فإذا كان هـٰذا من شرط رهبان الكنائسِ . . فالفقراءُ المسلمون أحقُّ بهـٰذا الوصفِ من الرهبان

ونقل الشيخُ محيي الدين بنُ العربي في (الباب الثامن والستين) من « الفتوحات » . . إجماعَ سائر الملل علىٰ أن محبةَ الدنيا مذمومةٌ ، وأن خروجَ ما بيد العبد منها زائداً عن حاجته . . أولىٰ له ، وفي قواعد الشريعةِ ما يشهد لذلك ؛ لأن ما وُقِف علىٰ جماعة معينين لا يجوز صرفُهُ إلىٰ غيرهم مع وجودهم[1]

وأفتى البغوي والغزالي وغيرُهما : بأنه لو أعطىٰ إنسان إنساناً دراهمَ وقال له : اشترِ لك بها عمامة . . لا يجوز له صرفُها إلىٰ غير العمامة[2] ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[طاعةُ المجاورين له في عدم اختصاص أحدهم بشيء يتميَّز به عن إخوانه]

ومما منَّ الله به عليَّ طاعةُ إخواني المجاورين في منع أحدهم من تخصيصه بشيء دخل الزاويةَ ؛ من فاكهة ، وعسلٍ ، ونقد ، وغيرِ ذلك ، وطيبةُ نفوسهم إذا منعتُهم من ذلك ، لا سيما إن كان ذلك من وجه فيه شبهةٌ ، وهـٰذا الأمرُ قَلَّ من يطيع شيخَهُ فيه من فقراء الزوايا ، بل ربما زاحمهم الشيخُ في ذلك ، وقالوا : شيخُنا طمَّاعٌ

(١) انظر « رد المحتار على الدر المختار » (٤/ ١٨٣) ، و« مغني المحتاج » (٣/ ٥٤٠) .
(٢) انظر « روضة الطالبين » (٥/ ٣٦٨)

وقد رتبتُ النقيبَ في أن يفرق كلَّ شيء دخل عليهم على حكم تفرقة أهل المدينة ؛ يعطي الطفلَ كالرجل والمرأة ، ثم إن من طلب التخصيصَ منهم عن إخوانه . . يصير ممقوتاً بينهم حتى يخرجَ عنهم ، ثم لا يفلحُ بعدها أبداً ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[كثرةُ ذكره للهِ تعالى ولرسولِه ﷺ]

ومما منَّ الله به عليَّ مجالستي لله تعالى في ذكره ، ومجالستي لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم في مجلس الصلاةِ عليه صباحاً ومساءً ، من حينَ رتَّبَهُ الله تعالى على يدي ؛ وذلك من سنة ثمانِ عشرةَ وتسعِ مئة ، ونحن الآن في سنة ستين وتسع مئة ، ومن حينَ رُتِّب ما تعطل ليلةً واحدةً ، ولا يوماً واحداً

وكان ترتيبُ مجلس ليلة الجمعة ويومِها . . بإشارة الشيخ نورِ الدين الشَّوْنيِّ رحمه الله

وكان ترتيبُ مجلس بعد الصبح على لسان سيدنا ومولانا أبي العباسِ الخضرِ عليه الصلاة والسلام بمصر المحروسة ، فقال (لا بأس أنك تُجلِسُ الجماعةَ بعد صلاة الصبح يصلون على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ثم يذكرون اللهَ تعالى مجلساً حتى ترتفعَ الشمسُ كرمح) انتهى ، وكان هـٰذا سببَ ترتيبي الدعاءَ له في الزاوية ؛ في قراءة (الكرسي) ، والأسباعِ ، والختومِ ، وغيرِها ؛ لكوني معدوداً من تلامذته ، وهو أعظمُ أشياخي كلِّهم ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[كثرةُ سماعه للقرآن والذِّكْر ليلاً ونهاراً وهو جالسٌ في بيته]

ومما منَّ الله به عليَّ : كثرةُ سماعي للقرآن وأنا جالسٌ في بيتي ليلاً ونهاراً . ممن يقرأُ في الزاوية ، أو يذكرُ الله عز وجل ، وهـٰذا من أكبر نِعَمِ الله تعالىٰ عليَّ ، وأظنُّ ذلك لم يتيسَّرْ لأحد من الملوك فضلاً عن غيرِهـم ، فما يفرغ قارئٌ إلا ويبتدئ قارئٌ آخرُ احتساباً لوجه الله تعالىٰ

وقد دخل عليَّ مرةً في الليل ثلاثةُ أملاك وأنا بين النائمِ واليقظان ؛ طولُ الثالث منهم نحوُ سبعة أذرع ، والآخرين طولُ أمثالنا ، ورأيت ألوانَ أجسامهم كلون الزعفران ، فسلَّموا عليَّ ، فقال الطويل لصاحبيهِ : قد طفتُمُ الليلة مشرقَ الأرض ومَغرِبَها ، فهل رأيتم بقعةً أكثرَ ذكراً وقرآناً من هـٰذه البقعة ؟ فقالا : لا ، فقال أحدُ الأملاك للطويل : فما حدُّ ما تصل بركةُ هـٰذا المجلس الذي هنا ومددُهُ ؟ فقال الطويلُ : ينتهي إلىٰ حدِّ باب جامع الحاكمِ من جهة باب النصر ، فقال له وما حدُّهُ من جهة الشرق ؟ فقال : إلىٰ حدِّ باب الشعرية الذي علىٰ يسار الخارج منه . انتهىٰ .

فأسأل اللهَ تعالىٰ من فضله أن يديمَ هـٰذا الخيرَ في هـٰذه البقعة بعدي ؛ لتدومَ الرحمةُ علىٰ مدة من الزمان بعد موتي ، بحسب ما أعطاني اللهُ تعالىٰ من العزم ؛ فإنهم قالوا : (يدوم الخيرُ في مكان الفقير بعدَهُ علىٰ قدر العزمِ الذي كان في علم الله تعالىٰ له ، ثم ينصرم) .

وما رأيت في زوايا مصرَ وقراها بعد موت أصحابها . أحيا من مقام

سيدي أحمدَ البدوي ، وسيدي محمدِ الشِّنَّاوي بمحلة روح[1] ، وجامع الغمري بالقاهرة ، وما عدا ذلك من المشايخ الذين أدركناهم والذين لم ندركْهم . . فإنما يتردَّدُ الناسُ لها في بعض الأوقات ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[خوفُهُ علىٰ نقص دين أحد من إخوانه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : كثرةُ شفقتي علىٰ دين إخواني أن ينقصَ بارتكابهم أو فعلِهم منهيّاً عنه ، ولو مكروهاً ، وخلافَ الأولىٰ ، وكان الباعثُ لي علىٰ مثل ذلك انخراقَ الحجبُ الدنيوية لقلبي ، حتىٰ صرتُ أشاهد أحوالَ الآخرة ، وأرىٰ بقلبي الأعمالَ التي يُحاسب عليها أهلُها ، والتي يوبَّخون عليها، والتي يدخلون النارَ لأجلها ، والتي يعاتبون عليها فقط من غير عذاب .

وأعرفُ ـ بحمد الله تعالىٰ ـ الأعمالَ التي تُقبَل هناك والتي تردُّ بموافقتِها لميزان الشريعةِ هنا أو مخالفتِها ؛ ولذلك كنت أتشوَّشُ إذا ارتكب صاحبي شيئاً يُوقِفُهُ عن الترقِّي ، أو يردُّهُ إلىٰ وراءٍ . . أكثرَ مما يتشوَّش هو علىٰ نفسه ؛ لأنه محجوبٌ عن مشاهدة أحوال يوم القيامةِ ، لم تنخرق له الحجبُ مثلي ، فيا سعادةَ مَنْ قَبِلَ نصحي من إخواني ، ويا شقاوةَ من خالف

[تأدُّبُ إخوانه المجاورين إذا عاتبهم]

ومن جملة نِعَمِ الله تعالىٰ عليَّ أيضاً : أني إذا عاتبتُ أحداً من أصحابي علىٰ زلَّةٍ وقع فيها ، أو علىٰ تخلُّفِهِ عن مجلس علم أو ذكر . . يَنكُسُ رأسَهُ

---

(١) محلة روح : إحدىٰ قرىٰ مركز طنطا التابع لمحافظة الغربية .

نادماً مستغفِراً ، ولا يجيب عن نفسه بشيء ، وقد زَلِقَ منهم واحدٌ يوماً فأجاب عن نفسه وقال حصل لي ضرورةٌ استغرقتِ الوقتَ ، فلم أدرك المجلسَ ، فصارت هٰذه الكلمةُ عبرةً عند إخوانه يوبِّخونه بها إلىٰ يومنا هٰذا ، فاللهُ يصلح حالَهُ ، آمين

[إعطاءُ الله المؤلفَ من العلوم الشرعية
ما يكفي المجاورين القاطنين عنده]

ومما أنعمَ الله به عليَّ أنه أعطاني من علوم الشريعة ما أكفي به أصحابي المقيمين في الزاوية ، ولا أُحْوِجُهم إلى الخروج منها ليقرؤوا علىٰ غيري ؛ فإن قرأ عليَّ شافعيٌّ في أعظم كتب المذهب ؛ من حديث ، وفقه ، وتفسير ، وأصول ، ونحو ، ومعانٍ ، وبيان ، وتصوف . . أقرأتُهُ ، وإن قرأ عليَّ مالكيٌّ في أعظم كتب مذهبه . . أقرأته كذلك ، أو حنفيٌّ فكذلك ، أو حنبليٌّ فكذلك ، أو صوفيٌّ فكذلك .

وهٰذا أمرٌ قليل وجودُهُ في مشايخ زوايا مصرَ الآن ، وربما كان أحدُ الفقراء المقيمين عند أحدهم أعلمَ من شيخ الزاوية وأحفظَ للقرآن منه ، وإذا كان شيخُ الزاوية أنقصَ علماً من الفقراء المقيمين فيها . . فهو غيرُ كامل في طريق المشيخة .

وقد كان سيدي الشيخ عبدُ القادر الجِيليُّ يقول : (لا ينبغي لشيخ زاوية أن يجلسَ فيها للفقراء وتربيةِ المريدين إلا بعد تضلُّعِهِ من علوم الشريعة ، وقراءتِهِ العلومَ علىٰ أهلها ؛ وذلك ليكون غنيّاً عن تعليم غيره ، ويقبُحُ علىٰ شيخ الزاوية أن يحتاجَ إلى القراءة علىٰ أحد من العلماء حالَ مشيخته ، أو

يحتاجَ إلى استفتائهم في مسألة من المسائل)

قال سيدي عبدُ القادر : (ولم أجلس للمشيخة ـ بحمد الله ـ حتىٰ أجازني العلماءُ بالتدريس في علم الفقهِ ، والحديث ، والأصولِ ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، وعلم الكلام ، وعلوم التفسير والجَدَلِ) انتهىٰ

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله مراراً يقول (كلُّ شيخ لا يكفي تلامذتَهُ في كل علم يطلبونه من علوم المذاهبِ الأربعةِ . . فمشيختُهُ ناقصةٌ) انتهىٰ

وإنما قال الأشياخُ ذلك لأن مريدَهم ربما لا يكون مذهبُهُ مذهبَ شيخه ، فيحتاج المريدُ أن يسألَ في أمر دينه غيرَ شيخه ، وربما لو أمر الشيخُ المريدَ أن يترك مذهبَ نفسه ويتبعَ مذهبَ شيخه . . لا يجيبه ، وقد قالوا من شرط الكامل أن يُسلِّك الناسَ وهم علىٰ حِرَفِهم ومذاهبِهم ، ولا يقولَ لأحدهم : اترك حرفتَك ، ولا مذهبَك ؛ لأنه ما من أمر محمود في الوجود إلا ويمكنُ العارفَ أن يوصل صاحبَهُ إلىٰ حضرة الله تعالىٰ منه ، فأنا ـ بحمد الله ـ أكفي جميعَ من يجاور عندي من أهل المذاهبِ الأربعةِ . . في دينه ؛ لاطلاعي علىٰ أدلة جميعِ المذاهب وكتبِ فروعها ، حتىٰ لا يخفىٰ عليَّ منها إلا النادرُ الذي يُستغنىٰ عنه بغيره .

ومن شكَّ في قولي هـٰذا فليطالع كتابي المسمىٰ بـ « المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين » ، فهناك يعرفُ صدقي يقيناً ؛ فإني جمعتُ فيه جميعَ أدلة مذاهب المجتهدين المستعملةِ الآن والمندرسةِ من أزمان ، وأعرفُ بحمد الله تعالىٰ كلَّ مسألة استَنَدَتْ إلىٰ نصٍّ ، أو قياس ، أو إجماع ، وأميزُ

مسائلَ كل نوع عن غيره ، وأعرفُ مسائلَ إجماع الأربعة كلِّها ، وعقدت لذلك باباً آخر في كتاب « المنهج المبين » ؛ لأن الإجماعَ ملحقٌ بالنصِّ في وجوب العمل به .

وتقدم في نعمة توجيهي لأقوال الأئمة أنني متقيِّدٌ بمذهب الإمامِ الشافعيِّ رحمه الله تعالىٰ ، وإنما أجيب عن الأئمة وأُوجِّهُ أقوالَهم من حيث اطلاعي علىٰ ما استندوا إليه ، لا بالصدر[1] ، وهـٰذا أمرٌ ما رأيت لي مشاركاً فيه من أقراني بمصرَ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حمايةُ الله عز وجل لجميع وَقْفِ زاويته من غير مرسوم سلطاني]

ومما منَّ الله به عليَّ : حمايةُ جميع الجهات الموقوفةِ تحت يدي من المكَّاسين وغيرِهم . . من تبليص الظلمة ؛ بأخذ عوائدهم في أمثالها ، مع أنه ليس معي مرسومٌ من السلطان ولا غيرِهِ ، بل محضُ عناية من الله تعالىٰ بي وبجماعتي ، وكثيراً ما يأتيني أصحابُ المربعات السلطانيةِ[2] ، فأشفعُ لهم عند المكَّاسين وغيرِهم

والنكتةُ في حماية الله تعالىٰ لنا : كوني لا أتخصص عن الفقراء بشيء إلا لضرورة شرعيَّةٍ ، وأنظر عليها لله تعالىٰ من غير أخذِ معلومٍ دنيويٍّ علىٰ ذلك[3] ، ثم إذا جمعتُها فرقتها علىٰ أربابها ولم أختلس منها درهماً واحداً ،

---

(١) انظر (ص١٣٩ ، ٤٥٨) .
(٢) المربَّعةُ : قال دوزي في « تكملة المعاجم العربية » (٥/٧٩) : (المربعة : براءة ، مرسوم ، شهادة ، وسميت مربعة بسبب شكلها المربع)
(٣) الناظر : الحافظ .

بل ربما أخلِط عليها من مالي وأقول لهم : كلُّ هٰذا من وقفكم

ومن سلك هٰذا المسلكَ فلا يقف له أحدٌ في طريق ، بل الوجود كلُّهُ يمدُّهُ ، بخلاف من تخصَّصَ عن الفقراء ، أو وقف في تلك الوظيفة رياءً ليقال ، وجمعَ الدنيا على اسمهم ، وزاحمَهم عليها ؛ فإنه دنياويٌّ دقَّ المطرقة ، والدنياويُّ لا يقدِرُ علىٰ حماية نفسه من كلاب الدنيا ، ولو ساق عليهم السياقاتِ ، كما هو مشاهد

فهٰذه هي النكتةُ في سبب حماية الله تعالىٰ لِمَا تحت يدي من الجهات ، وأنا أعلمُ وأتحقَّقُ أنني لو اختلست من معلوم الفقراء شيئاً ، أو نَصَبتُ علىٰ شيء على اسمهم[1] ، ثم زاحمتهم عليه . . لم أقدِرْ علىٰ حماية شيء مما ذكرناه ، ولو نصبتُ على الولاة كلَّ النصب ، ولبست الجُبَّةَ ، وعملت لي عَذَبَةً ، وربيت لي شعرة ؛ لأن ذلك لا يمشي عند الله تعالىٰ ، فلا يُمشيه علىٰ يَدَيْ عبده

وإنما ذكرت الحمايةَ من الظلمة من جملة النعم ؛ فتحاً لباب الزهد في الدنيا ، وبياناً لمقام الفقيرِ ، وإلا فالفقراءُ لا يَشُحُّون على الظلمة بشيء طلبوه منهم ولو بغير حقٍّ ؛ لعلوِّ مقامهم .

فازهدْ يا أخي في الدنيا كلِّها ، وأنا أضمن لك الحمايةَ ، وإياك أن تنصِبَ على اسم الفقراء ، ثم تأخذَ ما نصبت لأجله وتتوسعَ به في مأكل ، أو ملبس ، أو مركب ، أو منكح ؛ فإنك تخسر الدنيا والآخرةَ ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

---

(١) النصب : الحيلة والخداع ، وشكلت العبارة في (ج) : (عليّ شيءٌ) .

[عدمُ ركونه إلىٰ شيء من المعلوم والموقوف]

ومما أنعم الله به عليَّ عدمُ ركوني وعدمُ اعتمادي علىٰ رزقة أو معلوم ، كما مرَّ في هـٰذا الكتاب[1] ، حتىٰ زرعي للأقوات من قمحٍ وفول وغيرِهما ، وحتىٰ زاويتي وبيتي الذي أنا الآن ساكنٌ فيه ، ولو أن شخصاً نازعني في شيء من ذلك . . لتركته له من غير وقوف علىٰ حاكم .

والنكتةُ في ذلك : كوني بحمد الله قد تساوت عندي الأماكنُ كلُّها من حيث كونُها كلُّها ملكاً لله تعالىٰ ، وأنا عبدُهُ لا ملك لي معه لشيء في الدارين ، إنما آكل من مال سيدي ، وأسكن دارَهُ بالمعروف من غير استحقاق لشيء من ذلك ، وهـٰذا الخلقُ عزيزٌ في أقراني اليوم ، بل ربما تداعىٰ أحدُهم مع خصمه إلى الحكام إذا نازعه أحدٌ في رزقته أو زاويتِهِ أو شيءٍ مما يدَّعي الاختصاص به .

وواللهِ ، ثم واللهِ ، ثم واللهِ ؛ لو كانت أموالُ الدنيا جميعها بيدي ثم طلبها أحدٌ من الخلق . . لأعطيتها له بطيبة نفس ، ولم أتبعها نفسي ، وكأنني أعطيتُهُ بعرةً ، ويُصدِّقني في ذلك قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانَتِ الدنيا تَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ . . ما سقىٰ كافراً منها شربةَ ماءٍ »[2] ، فجعل الدنيا كلَّها دون جناح الناموسة ، فما قَدْرُ ما يَخُصُّ الفقيرَ منها إذا فُرِّقَتْ علىٰ جميع أهل الأرض على اختلاف طبقاتهم حتىٰ إنه يَشُحُّ بها ؟!

---

(١) انظر (ص٥١٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٠) ، وابن ماجه (٤١١٠) عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنهما

وقد بلغنا : أن سيدي أحمدَ بن الرفاعي رضي الله عنه لمَّا عمر زاويتَهُ بأم عبيدةَ وجعل له فيها مسكنَ . امتحنه شخصٌ يوم نُقْلتِهِ إليها وقال هـٰذه الأرض ملكُ آبائي وأجدادي ، فشرع الشيخُ يرمي أمتعتَهُ التي نقلها بمجرد قول ذلك الشخصِ ، فلما رأىٰ شدَّةَ عزم الشيخ على النُّقْلة وعدمَ ركونه إلىٰ زاوية أو بيت في الدنيا . قال له : يا سيدي ؛ ليس لي حقٌّ في هـٰذه الأرض التي بنيتَها ، وإنما قصدتُ اختبارَكَ في ميلك إلى الدنيا علىٰ عادة الذين يعمرون الدورَ فيها من أهلها

ثم قَبَّلَ رجلَ سيدي أحمدَ وقال له يا سيدي ؛ تُخرِجُ متاعَكَ من دارك وترميه بمجرد قولي لك إن هـٰذه الأرضَ لي ، من غير وقوف معي إلىٰ حاكم ؟! فقال له : (يا أخي ؛ الدنيا أقلُّ عند الفقراء من أن يقفوا عند حاكم من أجلها) انتهىٰ

وأنا ـ بحمد الله تعالىٰ ـ علىٰ هـٰذه القدمِ الآن ، ومن شكَّ في قولي هـٰذا فلينازعني في داري ، وأنا أخرجُ له منها من غير وقوف معه إلىٰ حاكم بانشراح صدر ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ إصغائه إلىٰ كلام الحسدة في حقِّ بعضهم]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ الإصغاء إلىٰ كلام الحسدةِ في بعضهم بعضاً ، بل تمُجُّ نفسي كلامَ العدوِّ ببادئ الرأي من غير تفكُّر في حال ذلك الرجلِ ، وهـٰذا الأمرُ يقع في مخالفته غالبُ الناس ، فيصغون لكلام العدو في عدوه ، ويبادرون إلىٰ تصديق كلام العدوِّ كأنه ثبتَ عند حاكم ، ثم يصيرون يقولون ما دريتُم ما وقع لفلان ؟ أخبرنا عنه فلان أنه فعل كذا

وكذا ، فإذا كان هـٰذا حالَ العلماء والمشهورين بالصلاح . . فكيف حالُ غيرهم ؟! بل بعضُهم يبالغ في الوقيعة ، ثم بعد ذلك يجعل نفسَهُ منزَّهةً عن مثل ذلك

وقد جرَّبتُ أنا هـٰذا البابَ في حقِّ نفسي مع الأعداء ، فرأيت العدوَّ لا يهتدي لكلمة حسنةٍ في حقِّ عدوِّهِ أبداً ، فأولَ ما يتكلم بالنقص أعرفُ أنه عدوٌّ ، عكس المحبِّ ، فآخذ حذري منه

وبعضُهم يستحيي أن يُصرِّحَ بالنقائص الظاهرة إذا علم أن الناسَ يكذِّبونه فيها ، فيرمي عدوَّهُ بالنقائص الباطنةِ ؛ كالرياء ، وسوءِ العقيدة ؛ من موافقة الجبرية ، أو المعتزلة ، أو المجسمة ؛ افتراءً علىٰ عدوه كما وقع لي ذلك مع بعض الأعداء القراريين[1] ؛ فإني ـ بحمد الله تعالىٰ ـ محفوظُ الظاهر ، فلا يعرف أحدٌ مني تركَ الصلاة ، ولا شربَ الخمر ، ولا الوقوعَ في الزنىٰ ، فلما رأى الأبوابَ الظاهرة مسدودةً رماني بالأمور الباطنة عند قوم من المُدَّعين للعلم ، فخاضوا في عرضي ما شاء الله تعالىٰ ، فبلغني ذلك صباحَ تلك الليلة التي خاضوا فيها ، فأرسلتُ لهم رسالةً تاريخُها نحوُ عشرين سنة في إقامة الأدلة الشرعيةِ والعقلية علىٰ أن الحقَّ تعالىٰ لا تحويه الجهاتُ .

فقال ذلك العدوُّ : إنه كتبها في هـٰذه الليلةِ ، فقال له الحاضرون : هـٰذا تعصُّبٌ بباطل ؛ فإن هـٰذه الرسالةَ عشرةُ كراريس ، فكيف يكتبها في ليلة ؟!

---

(١) في (ج) : (القوادين) ، وفي (أ ، د) تحتمل (القرارين) و(الفزارين) ، والقراري : الخياط ، القصاب ، أو كل صانع ، والمراد : أهل الصنائع الذين هم ليسوا من أهل العلم ، والله أعلم

فالحمدُ لله الذي عافانا من سماع قول أهلِ الحرف والصنائع وسائر الحرف في بعضهم بعضاً ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[تعظيمُهُ لأسماء الله تعالىٰ كلِّها على السواء من غير تفضيل بينها]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : تعظيمي لأسماء الله تعالىٰ كلِّها من غير تفاضل بينها ؛ لأنها كلَّها ترجع إلىٰ ذات واحدةٍ ، وكلُّها عندي اسمٌ أعظمُ ، ولي علىٰ هـٰذا الحال من منذ وعيت علىٰ نفسي ، لا أتذكر قط أني تتبعت الأسماءَ لأعثرَ على الاسم الأعظمِ ، بل كلُّ اسم دعوتُ به أراه أعظمَ ؛ من باب « الله أكبر » علىٰ حدٍّ سواء ، فكما أن الحقَّ تعالىٰ أكبرُ من كل شيء يخطر على البال . . فكذلك هو أعظمُ من كل عظمة تخطر على البال ، فافهم

وبذلك قال جماعة ؛ منهم أبو جعفرٍ الطبريُّ ، وأبو الحسن الأشعريُّ ، وأبو حاتم بنُ حبانَ ، والقاضي أبو بكر الباقلانيُّ ، وقالوا الاسمُ الأعظم دون غيره لا وجود له ؛ بمعنىٰ أن أسماءَ الله تعالىٰ كلَّها عظيمة ، لا يجوز تفضيلُ بعضها علىٰ بعض ، وبه قال مالكٌ وغيرُهُ ، وقالوا كما لا يجوز تفضيلُ بعض القرآن علىٰ بعض بالعقل . كذلك أسماءُ الله تعالىٰ[1]

وقد قال شخصٌ لذي النون المصريِّ علِّمْني اسمَ الله الأعظمَ ، فقال له : أرني الأصغرَ ، فأفحمه

وحمل هـٰؤلاء ما ذُكر من الأعظم على (العظيم)

---

(١) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٤) .

وعبارة الطبري (وقد اختلفتِ الآثارُ في تعيين الاسمِ الأعظم ، والذي عندي أن الأقوال كلَّها صحيحةٌ ؛ إذ لم يرد في خبر منها تعيينُ الاسم الأعظم الذي لا شيءَ أعظمُ منه) انتهىٰ ، فكأنه يقول كلُّ اسم من أسمائه تعالىٰ يجوز وصفُهُ بكونه أعظمَ ، فيرجع إلىٰ معنىٰ (عظيم)

وقال ابنُ حبانَ (الأعظميةُ الواردة في الأخبار المرادُ بها : مزيدُ ثواب الداعي بذلك ، كما قالوا فيما ورد من تفاضل القرآن : إن المرادَ به تفاضلُ ثواب القارئ)[١]

وقال بعضُهم (إنه مما استأثرَ اللهُ تعالىٰ بعلمه ، ولم يُطلِعْ عليه أحداً من خَلْقه ، كما قيل بذلك في ليلة القدر وساعة الإجابة)[٢]

ونقل الإمام فخر الدين : أنه (هو)[٣]

وقال بعضُهم (إنه اسم « الله » ؛ لأنه اسمٌ لم يطلق علىٰ غيره ؛ ولأنه الأصلُ في الأسماء الحسنىٰ)[٤]

وقال الشعبيُّ (الاسمُ الأعظمُ هو قولك : « يا ألله »)[٥]

وقال بعضهم إنه : (بسم الله الرحمـٰن الرحيم) ، ورد فيه حديثٌ رواه الحاكم في « المستدرك » وصححه ، ولفظه : سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن (بسم الله الرحمـٰن الرحيم) ، فقال « هوَ اسمٌ مِنْ

---

(١) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٤)
(٢) انظر « مفاتيح الغيب » (١/ ١٣٦)
(٣) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٤) .
(٤) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٤) .
(٥) انظر « الحاوي للفتاوي » (١/ ٤٧٣) ، وعزاه لابن أبي الدنيا في « الدعاء »

أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، وما بينَهُ وبينَ اسمِ اللهِ الأكبرِ إلا كما بينَ سوادِ العينِ وبياضِها مِنَ القُرْبِ »[1]

وفي حديث الترمذي أنه « الرحمـٰن الرحيم » ، و« الحي القيوم »[2] .

وقال بعضهم (هو « الحي القيوم » فقط)[3]

وفي حديث أحمدَ والحاكمِ وابنِ حبانَ وغيرِهم أنه : (الحنانُ المنانُ ، بديعُ السماواتِ والأرضِ ، ذو الجلالِ والإكرامِ)[4]

وروى الحاكمُ وغيرُهُ أنه (ربِّ ربِّ)[5]

وقال بعضهم : هو : (لا إلـٰه إلا الله)

وقال الإمام زينُ العابدين (هو الله الله الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ ربُّ العرشِ العظيمِ)[6]

---

(١) المستدرك (١/ ٥٥٢) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

(٢) سنن الترمذي (٣٤٧٨)

(٣) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٤) ، وفيه حديث رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٠٥) عن أبي أمامة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن ؛ في سورة (البقرة) و(آل عمران) و(طه) »

(٤) مسند أحمد (٣/ ١٢٠) ، المستدرك (١/ ٥٠٤) ، صحيح ابن حبان (٨٩٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه

(٥) المستدرك (١/ ٥٠٥) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٩٧٨) ، والطبراني في « الدعاء » (١١٩) بلفظ : (اسم الله الأكبر : ربِّ ربِّ) من قول سيدنا أبي الدرداء وابن عباس رضي الله عنهم .

(٦) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٥)

وقال بعضُهم : (هو مخفيٌّ في الأسماء الحسنىٰ)[1]

وقال بعضُهم (هو كلُّ اسم دعا به العبدُ وهو مستحضرٌ عظمةَ الله تعالىٰ ، بحيث لا يكونُ في فكره إلا اللهُ)

وقال النضرُ بن شميل (هو : اللهم) ، حكاه الزركشيُّ في « شرح جمع الجوامع »[2]

وقال بعضُهم : (هو : الٓمٓ)[3] انتهى

وإنما ذكرتُ لك يا أخي هـٰذه الأقوالَ كلَّها ؛ لأُعلِمَك أن الناسَ لم يزالوا يتطلبون معرفتَهُ على التعيين ، فلم يجدوا ما يدلُّهم عليه نصّاً ، فإذا كان الأمرُ علىٰ ذلك . . فاسألِ الله تعالىٰ يا أخي بجميع أسمائه ، ولا تستبطئِ الإجابةَ في الدنيا ؛ فإنه تعالىٰ إن لم يعطك ذلك في الدنيا . . فلعله يدَّخر لك ذلك في الآخرة ، والحمد لله ربِّ العالمين

[شهودُهُ بعين قلبه أعمالَهُ وهي تتطور صوراً]

ومما منَّ الله به عليَّ شهودي بعين قلبي تطورَ أعمالي ، ثم تصعدَ إلىٰ أماكنها من السماوات والأفلاكِ ، ومعرفةُ الملائكة الذين شاركتُهم في العمل لي ؛ من حملة العرش ، وملائكةِ الستور ، والملائكةِ الذين نصفُهم نارٌ ونصفُهم الثاني ثلجٌ ؛ وذلك لأن أعمالي الموافقةَ لأعمالهم تصعد مع أعمالهم إلىٰ حضرة الله تعالىٰ ، ومعلوم أن أهلَ كل حرفة يعرفون جنسَهم .

---

(١) انظر « فتح الباري » (١١/ ٢٢٥)

(٢) انظر « تشنيف المسامع » (١/ ١٠٣)

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١/ ٢٠٦) من قول ابن عباس رضي الله عنهما

ولا أعلم أحداً من أقراني الآن شاركني في هٰذه الأعمالِ التي شاركتُ فيها الملائكةَ صباحاً ومساء ؛ فإن تسبيحَ حملة العرش : (سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدك علىٰ عفوك بعد قدرتك ، سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدك علىٰ حِلْمك بعد علمك)(١)

ومن تسبيح ملائكة الستور (سبحانَ مَنْ أظهرَ الجميل وأخفى القبيحَ)(٢)

ومن تسبيح الملائكة الذين نصفُهم ثلجٌ ونصفُهم نارٌ (سبحانَ العليِّ الديانِ ، سبحانَ الشديدِ الأركانِ ، سبحانَ من يُذهِبُ الليلَ ويأتي بالنهارِ ، سبحانَ مَنْ لا يشغلُهُ شانٌ عن شانٍ ، سبحانَ الحنَّانِ المنَّانِ ، سبحانَ اللهِ في كلِّ مكانٍ)(٣) ، وغير ذلك مما ورد .

وقد جعلت هٰذه التسبيحاتِ وغيرَها في وردي صباحاً ومساء ، حتىٰ إني أوافق الحقَّ جل وعلا في تسبيحه نفسَهُ ، كما في حديث الطبراني مرفوعاً : « صلاةُ الحقِّ تعالىٰ سبقتْ رحمتي غضبي »(٤) ، فأقولُ أنا : سبحان مَنْ سبقتْ رحمتُهُ غضبَهُ (ألف مرة) صباحاً ومساء

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٥٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٥٥) من قول هارون بن رياب .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٤٥) ، والبيهقي في « الدعوات » (٢٣٨) دون ذكر (ملائكة الستور) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٣) أورده الغزالي في « الإحياء » (٢/ ٥٢٥) من قول إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال

(٤) المعجم الأوسط (١١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه عنده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل « هل يصلي ربك ؟ قال : نعم ، قلت : وما صلاته ؟ قال : سبوح قدوس ، سبقت رحمتي غضبي »

وكذلك تسبيحاتُ الملائكة السابقةُ ؛ أقول كلَّ واحد ألفاً كذلك

هـٰذا في تطوُّر العمل كلِّهِ صورةً ، وأما تطوُّرُ حروف الأذكارِ صوراً . . فيتطور كلُّ حرف ملكاً يعمل بعمل صاحب ذلك الكلامِ من البشر ، ويتطور كذلك من كل حرف ملكٌ أرقُّ وأصفىٰ من الملك المتطورِ من حروف كلام البشر ، وهـٰكذا القولُ في تطور حروف الدور الثالثِ من الملائكة وما بعده ؛ كلُّ ملك يعمل بعمل مَنْ قبلَهُ ، ويتطور من حروف أذكارِهِ ملائكةٌ بعددها ، فلو كُشِفَ للعبد لرأى الجوَّ كلَّهُ مملوءاً من الملائكة المتطورة من وِرْدِهِ

ثم إن هـٰذا المشهدَ لا يكون إلا لمن انجلتْ مرآةُ قلبه من محبة الدنيا وشهواتِها ، حتىٰ صار باطنُهُ لا يميل إلىٰ شهوة كالملائكة ؛ فإن صاحبَ الميل إلى الشهوات قلبُهُ محجوبٌ عن شهود مثلِ ذلك ، وهـٰذا حالُ أكثر المريدين الآن .

وقد حضر عندنا مرةً الشيخ أحمدُ بن سيدي محمدِ السِّرْويِّ ونحن في مجلس الصلاةِ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأىٰ عند كتف كلِّ مصلٍّ مَلَكاً معه قلمٌ ودَواة من نور يكتب كلَّ صلاة خرجتْ من فم العبد[1] ، ثم يذهبُ ذلك المَلَكُ بتلك الصلاة حتىٰ يقفَ بها تجاهَ وجهِ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعرضها عليه ، ثم يصعد بها نحوَ السماء

فيجب عليك يا أخي إن طلبت أن تكون من أهل هـٰذا المشهدِ . أن تنظفَ باطنَكَ من كل دَنَسٍ ، وتجلسَ علىٰ طهارة وحضورٍ مع الله تعالىٰ ،

---

(١) الدَّواةُ : المحبرة

وتعيدَ كلَّ كلمة قلتها وأنت غافلٌ ، أو دخلها رياءٌ وسمعةٌ ؛ فإن إبليسَ لهٰذه المجالس بالمرصاد

وقد وقع أن شخصاً من السلف قرأ في الليل سورةَ (طه) وجهر بآية منها ؛ ليُسمِعَ جارَهُ من غير نية صالحة ، ثم نام ، فرأىٰ أن القيامةَ قد قامت ، وأعطوه صحيفةَ تلك الليلة ليقرأَها ، فرأىٰ موضع تلك الآيةِ التي جهر بها خالياً من الكتابة ، فسأل عن ذلك ، فقالوا له إنك جهرتَ بها لتُسمِعَ بها جارَكَ رياءً وسمعة . انتهىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ توجُّهِهِ إلى الله تعالىٰ في شيءٍ يؤذي شريفاً]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ الدعاء علىٰ شريف ، وعدمُ التوجُّه إلى الله تعالىٰ فيه إذا ظلمني وآذاني ببعض ذنوبي ؛ وذلك لأنه بَضْعةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سألني مرةً أولادُ ابن عمِّ الشريف أبي نُمَيٍّ سلطان مكة . . أني أتوجَّهُ فيه إلى الله تعالىٰ ليعزل أو يموت ، وزعموا أنه ظلمَهم ، فقلت لهم : لا يصحُّ التوجُّهُ إلى الله تعالىٰ في شريف أبداً ، ولا لمواليهم فضلاً عنهم ؛ لحديث : « مولى القومِ منهم »(١)

ثم بتقدير أن الفقيرَ يتوجَّه إلى الله تعالىٰ فيما سئل . . فلا بدَّ له من جَعْلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم واسطةً في ذلك ؛ يقيناً أو ظنّاً ، ومنِ ادَّعىٰ

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦١) ، وفيه : (من أنفسهم) بدل (منهم) ، ومسلم (١٣٣/١٠٥٩) بلفظ « ابن أخت القوم منهم » عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

من الفقراء أنه يقضي حوائجَ الناس بغير واسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فهو جاهلٌ بالأمر الذي ذكرناه ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم تَرجُمانُ الحضرة ، وكيف يقول الإنسانُ : يا رسولَ الله ؛ اقتل ولدَك الفلانيَّ لأجل ولدك الفلاني ، أو اعزلْهُ ؟! هـٰذا مَنزع ضيقٌ .

فقالوا لي قد وعَدَنا شخصٌ من الفقراء بقتل أبي نُمَيٍّ هـٰذه السنة ، فقلت لهم هـٰذا كذَّابٌ ، ثم إن السنةَ مضتْ وأبو نُمَيٍّ حيٌّ يرزق إلى الآن .

فأحسنُ أحوال الفقير إذا سأله شريفٌ أن يتوجَّهَ في شريف.. أن يقول : يا رسولَ الله ؛ أسألك أن تصلحَ بين أولادك ؛ فإنهم ساداتُنا ، ولا يهونُ علينا أن يؤذيَ بعضُهم بعضاً ، ووَلِّ واحداً منهم مثلاً في البلاد ، وعَطِّفْهُ علىٰ رَحِمِهِ وقرابته ، هـٰذا أحسنُ ما يقال لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[رؤيا الولاة للمؤلف في المنام مما يزيدهم اعتقاداً فيه]

ومما منَّ الله به عليَّ : رؤيا جماعة من الحُكَّام وغيرِهم في المنام.. أموراً تزيدهم اعتقاداً فيَّ ؛ سُتْرةً لي بين العباد ؛ لأنه لا سرَّ لي ولا برهانَ

فمنهم : الأميرُ محمد الدفتردار الذي قُطِعت رأسُهُ في القلعة بأمر السلطان أيام علي باشاه ؛ وذلك أنه كان ينكر أنَّ في مصرَ أحداً يصح أن يُعتقَد فيه ، فقال له بعض الحاضرين إن عبدَ الوهاب رجلٌ صالح ، فركب وجاء إلىٰ شيخنا الشيخ شهابِ الدين الرمليِّ ، فسأله عني ، فشهد فيَّ بالصلاح

ثم حكىٰ ذلك لبعض الحسدة ، فقال الشيخ شهابُ الدين ، والشيخ ناصرُ الدين الطَّبَلاوي ، والشيخ نورُ الدين الطَّرَابُلُسي ، والشيخ ناصرُ الدين اللَّقَاني ، ونحوُ هـٰؤلاء .. كلُّهم لا يُؤخَذ منهم تزكيةٌ ؛ لأنهم يعتقدون من غير دليل ، فرجع إليهم وقوي إنكارُهُ ، فرأىٰ تلك الليلةَ عسكراً عظيماً دخل إلىٰ مصرَ ، ووقف هو وأميرُهُ علىٰ باب النصر وقالوا لا يدخلْ أحدٌ مصرَ حتىٰ يستأذنَ صاحبَ البلد ، فقال بعضهم ومن صاحبُ البلد ؟ فقالوا الشيخ عبدُ الوهاب ، فاطلبوا المفتاح منه ، فذكر لي قبل موته بسبعة أيام أنهم أرسلوا إليَّ يطلبون المفتاحَ لباب النصر ، فأرسلتُ لهم المفتاحَ مع ولدي عبد الرحمـٰن ، ففتحوا البابَ ودخلوا ، فأصبح الأمير ، وجاء إليَّ هو وسيدي أحمدُ الراشديُّ وقال أستغفر الله في حقك ، وذكر لي القصة ، فقلت له المفتاحُ الآن إنما هو لفلان ، فصار يقول : ما هو إلا معك ، ثم أشار علىٰ ولدي بقراءة كتاب « المنهاج » للنووي ، ولم يزلْ يعتقدني إلىٰ أن مات ، رحمه الله ، وهـٰذا من جملة سُتْرة الله تعالىٰ لي

ومما يؤيد ذلك أن التتارَ لمَّا دخلوا صحراء بغداد ، وكان اسم ملكهم ، هلاكو .. قال للعسكر لا أحدَ يدخل بغدادَ إلا بعد استئذان صاحب التصريف فيها ؛ فإني أَشَمُّ فيها رائحةَ وليٍّ محمدي ، فكان هو الشيخ نجم الدين الكُبْرىٰ ، فأرسل يستأذنه ، فقال ادخلوا ، جفَّ القلمُ بما هو كائن ، لا بد من قطعهم رأسي ، ثم يقتلون ثُلثَي البلد ، فكان الأمرُ كما قال ، ورموا كتبَ المجتهدين في الدجلة ، حتىٰ صارتِ الخيل والناسُ يَعْدُون عليها كالجسر إلىٰ ذلك البَرِّ . انتهىٰ

ومنهم : سيدي محمدُ ابن الأمير شيخُ سوق أمير الجيوش ، وأخوه سيدي شرفُ الدين

فأما محمدٌ : فمرض في مكةَ حتىٰ أشرفَ على الموت ، وأوصىٰ ، وظنَّ أنه يموت غريباً ، وبكىٰ ، فذكر أنني خرجتُ له من الحائط ، وأمسكته من يده ، وقلت له : قمْ ، أنت طيِّبٌ ، فاستقلَّ من مرضه وقال[1] إنه رأىٰ ذلك يقظةً

وأما شرفُ الدين فمرض وأنا مسافرٌ [إلى] الحجاز ، فرأىٰ نفسَهُ في الخليج الحاكمي تحت قنطرة عائماً وهو يريد أن يقاويَ التيار ليخرج من تحت القنطرة[2] ، فذكر أنني جئتُهُ ، فأخذت بيده حتىٰ خرج من تحت القنطرة ، وشُفِي من مرضه

ومنهم سيدي يحيى الوراقُ ، كان يراني طائفاً معه في مكةَ غالبَ الأوقات ، ويكلمني وأكلمه ، حتىٰ إنه أرسل لي كتاباً إلىٰ مصرَ يسأل فيه ما سببُ انقطاعك عنا ؟ وذكر أن بغلتَهُ وقعت وماتت ، وقالوا له : خذ بَرْدَعَتَها وانتفع بها[3] ، فبينما هو كذلك إذ رآني قد جئتُ ، فأخذت بلجامها فقامت وسافر بها إلىٰ مكةَ .

ولما حكىٰ لي هـٰؤلاء قصَّتَهم قلت لهم هـٰذا كلُّهُ خيالاتٌ فاسدة ، وحلفت لهم ؛ إني لم أجئْ إليهم في هـٰذه الأماكن ، وما علمت هـٰذه

---

(١) استقلَّ من مرضه : نهض من مرضه واستعاد صحته .

(٢) قاواه : إذا قاومه وصارعه .

(٣) البَرْدَعَة : ما يوضع على الحمار أو البغل ليركبَ عليه كالسرج للفرس .

الوقائعَ إلا منهم ، فلم يرجعوا لي ، كلُّ ذلك سُتْرةٌ من الحقِّ لي بين عباده .

وقد وقع أن شخصاً جاء إلىٰ سيدي الشيخ نورِ الدين الشَّوْنيِّ ، فقال له يا سيدي ؛ شكر الله فضلك ، فقال لأيِّ شيء ؟ فقال : كنتَ سببَ نجاتنا من الغرق في البحر بنواحي بيروتَ ، فقال : في أيِّ وقت ؟ فقال أما تذكر يومَ كذا لما جئتَ ماشياً علىٰ ظهر الماء وأخذت بحبل مِرْساة المركب[1] ، وقلت للريح اسكنْ فسكن ؟ فقال الشيخ ما علىٰ بالي شيءٌ من ذلك ، وما علمت هـٰذا إلا منك ، فقال الطلاقُ يلزمني ، هو أنت ، فصار الشيخُ يتعجب من حلفه بالطلاق

ثم قال : ما هـٰذا الحالُ ؟! فقلت له الحالُ صحيحٌ ، والنكتةُ فيه : قوةُ الاعتقاد ، فلما توجَّهَ إليك تطوَّرَ من اعتقاده شخصٌ علىٰ صورتك ، فقضىٰ حاجتَهُ ، فقال : الآن فرجت عني ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حصولُ الفرح والسرور إذا جفاه الإخوانُ ومَنْ لا نفع فيه]

ومما منَّ الله به عليَّ : حصولُ الفرح والسرور إذا جفاني الإخوانُ وتركوا زيارتي ونسُوني ؛ فإن العمرَ قد ضاق عن مسامحة النَّفْس بمجالس اللغوِ والهَذَيانات ، وعن كلِّ عبادة ليس فيها إخلاصٌ من علم أو عمل ، فأسرُّ الأيام عندي يومٌ لا يَدُقُّ عليَّ أحد الباب ؛ وذلك لأخلوَ بربي وحده ، وكلما قلَّ مجيء الإخوان لي كلما قَلَّتْ حقوقهم عليَّ .

وقد قال العارفون : إن كثرةَ إقبال الخَلْق على الإنسان سمٌّ قاتل ،

---

(١) المِرْساة : ثقل يلقىٰ في الماء ، فيمسك السفينة أن تجري .

موجِبٌ لزيادة كثافة الحجاب بينه وبين ربه عز وجل ؛ فإن لكل مقبل منهم عليه حقّاً ، ومن المحال على أمثالنا إقبالُنا على الخَلْق مع كوننا مع الحق تعالىٰ على الكشف والشهود

ومعلوم أن همَّةَ الأكابر إنما هي في الإقبال علىٰ ربِّ الخَلْق دون الخَلْق ، ومن صرف همَّتَهُ للعبيد دون سيدهم ومالِكِ أمرهم.. فقد أخطأ الطريقَ ، إلا أن يجعلَهم واسطةً له عند سيدهم لقربهم من حضرته تعالىٰ ، فلا حرجَ عليه حينئذ في إقباله عليهم ، ولا في تكدُّرِهِ لانقطاعهم عن زيارته ؛ لأن رضاهم عنوانٌ علىٰ رضا الحقِّ جل وعلا

وقد جعلتُ في وردي كلَّ ليلة أني أسأل الله َتعالىٰ ألفَ مرة أن يُحبِّبَ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم فيَّ ؛ لِمَا يترتب علىٰ ذلك من المصالح ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم هو الواسطةُ العظمىٰ لجميع الخَلْق دنيا وأخرىٰ ، ومن أحبَّهُ واعتنىٰ به لا يلحقه سوءٌ أبداً

فمن رأىٰ كاملاً يتكدَّرُ من إدبار الصالحين عنه.. فليحملْهُ علىٰ كونهم عنواناً علىٰ إدبار الحقِّ عنه ، لا لعلة أخرىٰ ، وإدبارُ الحق تعالىٰ والعياذ بالله عن عبده لا يُطاقُ حملُهُ ، كما أشار إلىٰ ذلك سيدي عليُّ بنُ وفا بقوله(١) [من الكامل]

أنتَ الحياةُ فليسَ عنكَ تصبُّرٌ وجَفَاكَ موتٌ ما عليهِ تجلُّدُ

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول : (لا ينبغي لفقير أن يتكدَّرَ لانقطاع أحد عنه ، إلا إن كان لا يشغلُهُ عن الله عز وجل)

---

(١) ديوان علي بن وفا (ص٨٤)

قال (ومن تأمَّلَ بعين البصيرة وجد أكثرَ الأصحاب اليومَ يشغلونه عن الله تعالىٰ ، فلا ينبغي التكدُّرُ علىٰ فراقهم وتباعدهم عنه ، بخلاف من يُذكِّرنا بالله عز وجل ؛ فإنه يجب طلبُهُ والتقرُّبُ منه ، فليمتحن من يدعي الإخلاصَ نفسَهُ بهـٰذه الميزان ؛ فإن رآها تتكدَّرُ لانقطاع من يشغلُهُ عن الله عز وجل فليعلم أنه كاذبٌ في دعواه الإخلاصَ ، وإن رآها تفرحُ فليعلم أنه صادقٌ)

وسمعتُهُ أيضاً رضي الله عنه يقول : (غالبُ الفقراء الذين يتردَّدون للفقهاء اليومَ وعكسُهُ . . إنما هو لحظِّ نفس ؛ وذلك لأن كلّاً من الفريقين يخرج على الآخر في طريقه بين أصحابه ، فيقول الفقيهُ لأصحابه لو أن هـٰؤلاء الفقراءَ اشتغلوا بالعلم الشرعي والفقهِ والنحوِ كما اشتغلنا . . لكان أفضلَ لهم ، ويقول الفقيرُ أيضاً لأصحابه لو أن هـٰؤلاء الفقهاءَ اشتغلوا بذكر الله تعالىٰ ورياضةِ النفوس كما اشتغلنا . . لكان أفضلَ لهم ؛ فترىٰ كلَّ واحد منهما يرىٰ طريقَهُ أفضلَ ، وطريقَ الآخر مفضولةً ، فما بالُ الأفضل يزور المفضولَ وليس عنده فائدةٌ للآخر ؟!)

قال ولعل النكتةَ : أن كلّاً من الفقير والفقيه لمَّا رأىٰ أهلَ حرفته لا يقيمون له وزناً[1] ، ولا يصفونه بصلاحٍ . . مالَ إلىٰ من يذكرُه بالصلاح ولو رياءً ونفاقاً ، ولو أن كلّاً منهما رأىٰ نفسَهُ مفضولاً ، واجتمع بمن يراه أفضلَ . . لانتفع كلٌّ منهما بالآخر ، وكانت زيارتُهما لله تعالىٰ

---

(١) في (أ) وحدها : (خرقته) بدل (حرفته) ، وهي وإن ناسبت الفقير لـٰكنها لا تناسب الفقيه

ثم أكثرُ من يقع في ذلك مَنْ يطلب له مقاماً عند الخَلْق ، ويحبُّ الظهورَ والتميز على الأقران ؛ فإنه لا يحبُّ أحداً يعلوه في علم ولا عمل

فليمتحنْ من يدَّعي أنه لا يحبُّ المُقامَ في قلوب الناس نفسَهُ بما لو فَرَّتْ طلبتُهُ كلُّهم إلىٰ درس شخص من أقرانه ولم يبق حوله أحدٌ ، وبما لو صنَّفَ كتاباً وحرَّرَهُ وتعب عليه ، فشرع الناسُ في كتابته وقراءتِهِ عليه ، فجاء شخصٌ وصنف نظيرَ هـٰذا الكتاب ، فترك الناس كتابةَ الكتاب الأول وقراءتَهُ علىٰ مؤلفه ، وكتبوا الثانيَ ، وقرؤوه علىٰ مؤلفه ، ومدحوه ، وقدَّموه على الكتاب الأولِ وعلىٰ صاحبه

فإن حصل عنده انقباضُ خاطرٍ بذلك فهو مراءٍ دقَّ المطرقة ، ليس له في الإخلاص نصيبٌ ، وعملُهُ حابطٌ .

وإنِ انشرح لذلك فهو مخلصٌ دقَّ المطرقة ، وليس عنده من الرياء شيءٌ يظهرُ لنا

وقَلَّ من يتخلَّصُ من هـٰذا الداء من الفقراء والفقهاء كما مرَّ بسْطُهُ مراراً في هـٰذه « المنن »[1]

فكنْ يا أخي مع رضا الله تعالىٰ ، لا مع رضا نفسِكَ ، وتعرَّفْ من الحق تعالىٰ وجهَ الحكمة في إقبال الخَلْق عليك بالاعتقاد وإدبارِهم عنك بالإنكار ، وكنْ من الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحسنَهُ ؛ فإن أقبلوا فاشكر اللهَ ، وإن أدبروا فاشكرِ اللهَ بطريقه الشرعيِّ لا مطلقاً ، والحمد لله ربِّ العالمين .

---

(١) انظر (ص١١٤ ، ١٦٧)

[كثرةُ المعتقدين في المؤلف]

ومما منَّ الله به عليَّ[1] كثرةُ اعتقاد أولاد الغربية والمَنُوفية فيَّ[2] ، حتىٰ إن أحدَهم ليحلف بي ويقول : (وسرِّ سيدي عبدِ الوهاب) ، أو (وألا تخونَني بركتُهُ) مثلما يحلفون بالأولياء الأكابر ؛ وذلك لكثرة ما يسمعون من تعظيم أهلهم ومحبتِهم لي ، وهـٰذا من جملة ما سترني الحقُّ تعالىٰ به ؛ فإنه أظهر لهم صورةَ العمل الجميلِ ، وأخفىٰ عنهم حقيقةَ عملي القبيحِ ، وإلا فلو أن الحقَّ تعالىٰ كشف عني السِّترَ لَمَا كنت أتميَّزُ عن الفساق في شيء ، فللّٰه الحمد علىٰ ذلك وعلىٰ غيره حمداً دائماً لا يُحصَىٰ ولا ينقضي ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ اهتمامه بشيءٍ من أمور الدنيا إلا بنية صالحة]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ اهتمامي بشيء من أمور الدنيا إلا بنية صالحةٍ ، وإذا لم أجد نيّةً صالحةً تباعدت عن ذلك الفعل كلَّ البعد ؛ ولذلك لم يقعْ لي قط أنني حضرتُ مطبخَ طعام عُمِلَ عندي في عرس أو خِتان ، ولا أسأل الواقفين عليه : ماذا صنعتُم ؟ ولا : كم غرفتُم ؟ وربما لم أحضر ذلك الجمعَ .

وهـٰذا خلقٌ غريب ؛ فإن غالبَ من يعمل ذلك يكون في حملة عظيمةٍ بسبب ذلك ، حتىٰ يصيرُ يلهَثُ ، ويدخل المطبخَ ، ويخرج خلقَهُ ، ويصيح

---

(١) في هامش (أ) : (بلغ) .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٥) : (كثرة المعتقدين فيَّ ؛ من الفلاحين وأولادهم ، مع أنني من بلادهم)

على الطباخين وعلى الواقفين ، وإن رأىٰ أحداً يتصرف في الطعام لغير مراده هو . . غضب وتشوَّش

وبعضُهم يُخرِجُ الصلاةَ عن وقتها بسبب ذلك ، ويغفُل عن أوراده ، وإن أطعموا أطايبَ الطعام لأحد من الفقراء تكدَّرَ وخَبَطَ كفّاً على كفٍّ ، وكلُّ ذلك من كثرة الاهتمام بأمر الدنيا

وهـٰذا الخلقُ كان لأخي الشيخ عبدِ القادر ولوالده وجدِّهِ ، فلم يُعهَدْ لأحد منهم أنه عرف الأرضَ التي يزرعها الشريكُ ، ولا في أيِّ موضع وُضِعَ القمحُ في الجُرْن[1] ، ولا في أيِّ وقت درسوه ، ولا يحضر له كَيْلاً ، ويقول (ما كان لنا فلا يقدر أحدٌ يأخذ لنفسه منه شيئاً ، وما لم يكن لنا لا نقدر علىٰ منع أحد منه) انتهىٰ

ومن عدم اهتمامي بذلك الطعام أني أوصي الواقفين عليه ألا يردُّوا أحداً جاء يطلب الطعامَ من حينِ يستوي ، ولا أحسب حسابَ سِماط معيَّنٍ كما يفعله غيري[2] ، بل كلُّ من سبق إلىٰ ذلك الطعام فهو أحقُّ به ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[إعلامُ الحقِّ تعالىٰ للشيخ في المنام على الحوادث المستقبلةِ]

ومما منَّ الله به عليَّ إعلامُ الحقِّ تبارك وتعالىٰ لي في المنام علىٰ حوادث الزمان المستقبلةِ ؛ فأطلعني الله تعالىٰ علىٰ وقتٍ تُرفع فيه الأمانةُ جملةً واحدة

---

(١) **الجُرْن** : موضع التمر الذي يُجفَّف فيه

(٢) **السِّماط** : ما يمدُّ عليه الطعام .

وعلىٰ وقتٍ تُرفع فيه علومُ القوم

وعلىٰ وقتٍ يُقدِّم الناسُ فيه دنياهم علىٰ آخرتهم .

وعلىٰ وقتٍ تُرفع الرحمةُ من القلوب .

وعلىٰ وقتٍ تُرفع فيه الرحمةُ من قلوب الحُكَّام

وعلىٰ وقتٍ تُرَدُّ فيه شفاعاتُ العلماء والصالحين ولا تُقبَل .

وعلىٰ وقتٍ تَخرَبُ فيه مصرُ .

وعلىٰ وقتٍ تُمنع فيه الزكاةُ جملةً واحدة .

وعلىٰ وقتٍ ينقطع فيه الحجُّ

وعلىٰ وقتٍ يرتفع فيه الحكمُ بالشريعة المطهرةِ

وعلىٰ وقتٍ يَعُقُّ فيه الولدُ أُمَّهُ ويطيع زوجتَهُ

وعلىٰ وقتٍ يتسافد فيه الرجالُ والنساءُ في الشوارع كالحمير

وعلىٰ وقتٍ يتمنَّى الرجلُ أنه يكون مكانَ صاحب ذلك القبر

وعلىٰ وقتٍ تبطل فيه صلاةُ الجماعة والجمعة والعيدين .

وعلىٰ وقتٍ يقع المسخُ في هٰذه الأمة قردةً وخنازيرَ

وعلىٰ وقتٍ رفع القرآن من القلوب

وعلىٰ وقتٍ يكون فيه واعظُ القوم أرذلَهم وأقلَّهم ديناً

وعلىٰ وقت يجلس فيه الشياطينُ على الكراسي ويعظون الناس ، وغيرِ ذلك مما لا يسعني ذكرُهُ الآن

وفي حديث حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذَكَرَ في خطبته يوماً ما كان وما يكون إلىٰ قيام الساعة ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيَهُ مَنْ نسيَهُ[1] . انتهىٰ

وصاحبُ هـٰذا الاطلاع لا أحد أكثرُ غمّاً ولا همّاً منه[2] ؛ لأنهم قالوا أشجعُ الناس إذا أُمسِكَ وهُدِّد انخلع قلبُهُ من بطنه ، وليس له من الإقدام علىٰ عدوه إلا ما دَهِمَه علىٰ غفلة

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم أكثرَ الناس حزناً وغمّاً وهمّاً ؛ لأجل ما أطلعه الله تعالىٰ عليه من الأهوال التي تُصيب أمَّتَهُ ، وكان يقول « واللهِ ؛ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً ، وما تلذَّذْتُم بالنساءِ على الفرشِ ، ولخرجتُم إلى الصُّعُداتِ تجأرونَ إلى اللهِ تعالىٰ »[3] ، ولما أطلعه الله تعالىٰ علىٰ مقتل ولده الحسين . . لم يُرَ ضاحكاً حتىٰ مات

واعلمْ يا أخي أنني لم أحزنْ قط علىٰ وقوع شيء في مستقبل الزمان كحزني علىٰ وقت يرتفعُ فيه علمُ القوم ، وقد رُفع في ثاني يوم من ربيع الأول سنةَ تسع وخمسين وتسعِ مئة ، ومن يتكلَّمُ فيه الآن إنما هو حكايةٌ لكلام غيره من غير تخلُّقٍ

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٢) بهـٰذا اللفظ عن سيدنا عمر رضي الله عنه ، ورواه عن سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما بلفظ (علمه من علمه ، وجهله من جهله) ، ورواه مسلم (٢٨٩١/ ٢٣) بلفظ المؤلف عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٢) في (أ) وحدها : (أجد) بدل (أحد) .

(٣) رواه إلىٰ قوله : « ولبكيتم كثيراً » البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، ورواه كاملاً الترمذي (٢٣١٢) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

وإنما كان حزني على رفع هـٰذا العلم أشدَّ من غيره ؛ لأنه قوتُ الروح ، وسببٌ لدخول صاحبه حضرةَ الله عز وجل ؛ فإن من كان محجوباً عن ربه فلا فرقَ بينه وبين الميت ، وفي القرآن العظيم : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام ١٢٢] ؛ يعني ـ والله أعلم ـ : كان ميتاً بالجهل فأحييناه بنور العلم

وقد كان المريدُ إذا سمع بشيء من آداب القوم يُحِسُّ بسريان الحياة في جسده حتىٰ يَعُمَّهُ كلَّهُ ، فصار الفقير الآن إذا تكلم في شيء من آداب القوم . . كأنه يسَفُّ الحاضرين الرمادَ ، لا يستطعمون به ، حتىٰ يخجلُ المتكلمُ ويسكت ، وصار من ليس من مريدي القوم إذا سمع بشيء من أحوال الأولياء . . لا يُلقِي له بالاً ، ويقول : هـٰذا مَنزعٌ صوفيٌّ ، فيستهين بالعمل به حتىٰ كأنه بدعةٌ !

ومن حينَ رأيت رَفْعَ هـٰذا العلمِ ما تكلَّمتُ في التصوف قط إلىٰ وقتي هـٰذا ، وإنما أحكي أحوالَ القوم من غير بيان مرادهم ؛ لعلمي بنَفْرة النفوسِ الآن من سماع أحوالِ أهلِ دائرة الولاية الكبرىٰ ؛ ولذلك رمزتُ أحوالَ القوم في بعض الكتب بقلم اخترعتُهُ لا يعلمه غيري إلا بتوقيف مني ، أو بكشف صحيحٍ ، ولو أني وجدت له محملاً من القلوب ما وضعت كلمةً من أحوال القوم في كتاب ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ وجود أحد من الزوالق حوله ممن يُطريه ويُعظِّمُهُ]

ومما **أنعم الله** به عليَّ عدمُ وجود جماعة حولي من الزوالق الذين يطروني ويعظِّموني فوق ما أستحقُّ ، ويرفعون قَدْري علىٰ أحد من فقراء البلد

وهٰذا أمر قَلَّ أن يقع لفقير الآن ، حتىٰ إن الناسَ صاروا يَبعُدون عن الفقراء ويقولون لولا جماعتُهم لٰكنا نتردَّدُ إليهم ، ولٰكنهم يُكلِّمونا بالكلام الجافي ، ويسلُخون كعبَنا إذا فارقناهم ، ويحجُرون علينا أن نجتمع بأحد غيرِ شيخهم ، ولسنا مريدين حقيقةً ، وإنما نحن معتقدون في جميع الفقراء الخيرَ . انتهىٰ

وقد قام الحَسَدَةُ عليَّ في مصرَ مراراً كثيرةً ، وطلب الإخوان مني أنهم يقابلونهم فمنعتهم وقلت ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء ٤٥] ، فتمزَّق الحسَّادُ عن آخرهم .

فينبغي للفقير ألا يغفلَ عن تربية مَنْ حوله من المتعصبين ، ويحذِّرَهم من أن أحداً منهم يرفعُهُ فوق أحد من فقراء العصرِ تعريضاً أو تصريحاً

وقد خَلَّقني الله تعالىٰ بذلك الخلق ، ولم أَرَ له فاعلاً في مصرَ إلا القليلَ[١] ، وغالبُ الفقراء يفرحون بمن يرفعُهم علىٰ أقرانهم سرّاً أو جهراً ، أو هما معاً ، ثم إذا بلغ أولٰئك الفقراءَ ذلك تحرَّكتْ عندهم الحالقةُ التي تحلِقُ الدين ؛ من الحسد ، والخبط ، والتعريض بالتنقيص لذلك الشيخ عند مَنْ يعتقده ، وانحلَّ الأمر إلىٰ بهدلة الفريقين عند الناس[٢]

وقد ذكرتُ بحمد الله أشياخَ عصري من الأقران في كتاب « طبقات الصوفية » ومدحتُهم ، ولم يفعل ذلك أحدٌ من فقراء مصرَ الآن غيري ، فالحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) في (ب ، ج) : (عصري) بدل (مصر)

(٢) البهدلة : العار والفضيحة .

[شهودُهُ إيذاءَ الناس فيه مصلحة له
ووجودُ جماعة يكرهونه على الدوام وفائدةُ ذلك]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : شهودي أن جميع ما يؤذيني به الناسُ مصلحةٌ لي ، فكان من نِعَمِ الله تعالىٰ عليَّ وجودُ جماعة يكرهوني على الدوام

ومن فوائد ذلك أنهم كلَّما نقصوني نبَّهوني علىٰ نقائصي ، فيزول عني العجبُ بحالي ، ولو أنهم كانوا محبِّين لَربما مدحوني ، فزادوني هلاكاً ومقتاً ونفاقاً ورياءً ، وفي كلام سيدي الشيخِ أبي الحسن الشاذليِّ رضي الله عنه (عدوٌّ تصلُ به إلى الله خيرٌ لك من صديق يقطعُكَ عن الله ؛ وذلك لأن العدوَّ يصيبُك في ظاهرك ، والصديقَ يصيبك في قلبك) انتهىٰ[1]

وسمعت أخي أفضلَ الدين رحمه الله يقول (إياكَ والميلَ إلىٰ مَنْ لقولك يسمعُ ، ولفضلك ينشرُ ؛ فإنه عدوٌّ في صورة صديق) انتهىٰ

وقد مرتْ هـٰذه النعمة أوائلَ الكتاب بأبسطَ مما هنا[2] ، فراجعه إن شئت ، والحمد لله ربِّ العالمين

[كسوة المؤلف لخلائقَ لا يحصون . الثيابَ وغيرَها]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : كسوةُ خَلْق كثير علىٰ يدي ، لا أحصي عددَهم ، ولـٰكن رأيت بخطِّ أخي إبراهيمَ السَّنْدَبَسْطيِّ النقيب في ورقة . . ذكرَ أسماء جماعة كسوتُهم ؛ تارةً بطلبهم ذلك مني تبرُّكاً ، وتارةً بغير طلب ؛ من

---

(١) لطائف المنن (ص١١٧)

(٢) انظر (ص١٦٧) .

الأمراء ، والتجار ، والعلماء ، والمشايخ ، وغيرِهم ؛ بعضَهم مراراً ، وبعضَهم مرةً واحدة

فممن كسوتُهُ من فضل الله عليَّ

الشيخُ نورُ الدين الشَّوْنيُّ ، كسوته جُوخةً بمئتي نصف[1]

وكسوتُ الشيخَ أبا العباس الحُريثيَّ جبةً سوداءَ

وكسوتُ الشيخ محمدَ بن الغمري ـ لما عرَّاه اللصوص ـ جُوخةً[2]

وكسوتُ الشيخ شرفَ الدين المقيم بجامع الحاكم ثوبَ بعلبكيٍّ

وكسوتُ الصامتيَّ ثوبين[3]

وكسوتُ الشيخ عبدَ الكريم ؛ خليفة المقام الأحمدي[4] . . صوفاً جديداً بمئتي نصف

وكسوتُ الشيخَ أبا البقاء ولدَ عمِّهِ صوفاً أخضرَ بمئة نصف

وكسوتُ الشيخ عبدَ الحليم بن مصلح كثيراً . . الأرديةَ ، والقمصانَ ، والعمائمَ

وكسوتُ أبا الصفا بنَ عنانٍ جبةً بيضاء مضربة

---

(١) النصف عملة مصرية صغيرة مسبوكة من خليط من الفضة والنحاس ، كانت تساوي قديماً نصف درهم « تكملة المعاجم العربية » (١٠/ ٣٣٦) .

(٢) في (ب ، ج ، هـ ، ز) : (محمد الغمري) ، وفي « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٤) : (محمد بن سيدي الشيخ أبي الحسن الغمري)

(٣) في (أ) وحدها : (المصامتي) بدل (الصامتي) ، والذي وقع في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٥) في هـٰذا الموضع (المصامتي)

(٤) أي : خليفة سيدي أحمد البدوي ، كما في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٥) .

وكسوتُ الشيخ شهابَ الدين بنَ داود الثيابَ والأرديةَ كثيراً

وكسوتُ الشيخ سالمَ الأحمديَّ جبةً بيضاءَ بنحو مئة نصف

وكسوتُ الشيخ حسناً خادمَ قبة سيدي أحمد البدوي مضربة[١] ، بإشارة سيدي أحمدَ في المنام

وكذلك كسوتُ الشيخ حسناً الذي على ميضأة سيدي أحمدَ البدويِّ . . جبةً بيضاءَ

وكذلك كسوتُ الشيخ شمسَ الدين الأحمديَّ ، وولدَهُ سيدي أبا بكر ؛ كلَّ واحد منهما ثوباً لما جاء من الحجاز

وكسوتُ الشيخ خطابَ البرهانيِّ جبةً بنحو ثمانين نصفاً

وكسوتُ سيدي الشيخَ أبا الفضل شيخَ بيت بني الوفا . . جبةً بيضاءَ مختنة بنحو مئتي نصف .

وكسوتُ أخي الشيخ أفضلَ الدين الأحمدي مراراً . . الجببَ السودَ والحمرَ المضربةَ

وكسوتُ الشيخ يوسفَ البَشْلاويَّ مراراً

وكسوتُ الشيخ زينَ العابدين صوفاً أخضرَ تفضُّلاً منه

وكسوتُ الشيخ عبدَ الدائم بنَ عنان مراراً ، والشيخ إبراهيمَ بن داود . . قميصاً ورداء

وكسوتُ سيدي الشيخ محمدَ الحنفيِّ جبةً حمراءَ ، وصهرَهُ سيدي أبا الفضل جبةً بيضاءَ ، والشيخ عبدَ القادر الشاذليَّ قميصاً مقصوراً أوصىٰ أن

---

(١) في (هـ ، و) في الموضعين : (سالم) بدل (حسناً)

يدفنَ فيه ففعلوا ذلك ، وكذلك القاضي عبدُ القادر الرزمكي فدُفِن فيه ؛ عملاً بوصيته

وكسوتُ الشيخ عبدَ الله العجميَّ خادمَ الإمام زين العابدين . . جبةً حمراءَ وعمامةً سوداءَ ، وهو رجلٌ سُنِّيٌّ[(١)]

وكسوتُ الشيخ محمدَ الجزيريَّ المقتولَ . . جبةً حمراء

وكسوتُ الشيخ أبا هدوانَ الشِّنَّاوي قميصاً بعلبكيّاً

وكسوتُ سيدي محمدَ الحمويَّ التاجر بمرجوشَ جبةً .

وكسوتُ الشيخ تقيَّ الدين الأشمونيَّ المدرسَ بجامع يونس . . جبةً حمراءَ ، وقميصاً أزرقَ ، وقَلَنْسوةً[(٢)]

وكسوتُ سيدي محمدَ الكُويس جبةً بيضاءَ بنحو خمسين نصفاً[(٣)] ، في ختم « بخاري » الشيخ بركات

وكسوتُ أبا شعرةَ المادحَ جبةً بيضاءَ ورداءً في طهور الولد عبدِ الرحمـٰن

وكسوتُ جميعَ نساء المجاورين ؛ كلَّ واحدة قميصاً في تلك الليلة

وكسوتُ الشيخَ محييَ الدين المادحَ بالنَّحْرارية صوفاً أخضرَ ، وعمامةً ، وقَلَنْسُوةً ، وقميصاً

---

(١) أي يحب أبا بكر وعمر ، كما في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٦) .

(٢) القَلَنْسُوة : غطاء للرأس مختلف الأنواع والأشكال .

(٣) في (أ) وحدها (أحمد) بدل (محمد) ، والمثبت موافق لـ « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٦)

وكسوتُ الشيخ بركاتِ الأحمديَّ جبةً بيضاءَ

وكسوتُ الشيخ محمدَ الصوفيِّ المقيمَ بنواحي الفَيُّوم . . جبةً سوداءَ ، وأخرىٰ خضراءَ ، وعمامةً سوداءَ ، وله الفضلُ في ذلك

وكسوتُ الشيخ يوسفَ الطهوائي جندة صوف بيضاء[1]

وكسوتُ الشيخ الصالح شهابَ الدين السبكيَّ جبةَ عودي

وكسوتُ ابنَ الشيخ عبد الرزاق المادحَ في سيدي عمرَ بنِ الفارض قميصاً مقصوراً

وكسوتُ عميرَ الضريف مضرَّبةَ كندكي[2]

وكسوتُ الشيخ محمدَ الجوخيِّ الذي يحجُّ كلَّ عام . . جبةً سوداءَ بسؤاله ، وله الفضلُ في ذلك .

وكسوتُ سيدي أبا الفضل القباني جبةً سوداءَ ملطي وجوخة[3] ؛ من بعض فضله عليَّ ومحبةً لي .

وكسوتُ سيدي محمدَ الغمري ، وولدَ عمه سيدي عليّاً ، وابنَ عمتهم سيدي يحيىٰ مراراً

وكسوتُ أبا بكر بن بريه وخالَهُ الشيخ إبراهيمَ . . الجُببَ الحمراءَ مراراً

وكسوتُ الشيخ يوسفَ الهنديَّ الذي ذكر أن عمرَهُ ثلاثُ مئة سنة

---

(١) الجندة : نوع من الثياب تستر بها الجدران .

(٢) في (ج) وحدها : (عمر الضرير) .

(٣) جاء في « تاج العروس » (م ل ط) : (الملُّوطة : كسَفُّودَة ، قباء واسع) .

وشيءٌ . صوفاً أخضرَ ، ومُلاءةً مقصورةً ، وعَرَقيةَ جوخ[1]

وكسوتُ الشيخ إبراهيمَ الرحبيَّ بباب جامع الأزهر جبةً حمراءَ ، وله الفضلُ في ذلك

وكسوتُ صهري الشيخَ أبا الفتح القصبيَّ صوفاً وجوخةً من ملبوس السلطان الغوري ؛ ثمنُ سِجاف الصوف سبعةَ عشرَ ديناراً بشهادة الأمير يوسفَ بن أبي إصبعَ[2]

وكذلك كسوتُ أخي الشيخ عبدَ القادر من الجوخ والأصواف والقمصان . ما لا أحصي عددَهُ ، وكسوتُهُ صوفاً صينيّاً ، وشاشاً عرضُهُ سبعةُ أذرع ؛ كلاهما من ملبوس السلطان الغوري ، ولا أقوم له بجزاء

وكسوتُ محمدَ بن بغدادَ ثوباً بعلبكيّاً بطلبه ذلك مني

وكسوتُ الأميرَ محييَ الدين جبةً بيضاءَ مُضرَّبةً من ثياب الشيخ نور الدين الشَّوْنيِّ ، فهو يلبسها في ورده بالليل إلى الآن

وكسوتُ الشيخ إسماعيلَ النَّقِيطي بالغمري الجُببَ مراراً

وكذلك الشيخُ شمس الدين الطَّنِّيخي وولدُهُ محمد كسوتُهما القمصانَ والجببَ مراراً

وكذلك كسوتُ محمدَ الطَّلْخاويِّ الوقاد مراراً

---

(١) في (أ) وحدها (طاقية) بدل (عرقية) ، والعرقية : محركة : ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة .

(٢) السِّجاف في الأصل السَّيَر ، ثم استعمل لما يُركَّبُ على حواشي الثوب « تاج العروس » (س ج ف)

وكسوتُ الشيخ شمسَ الدين المتبوليَّ مؤدبَ الأطفال بزاوية الدِّشْطَوْطيِّ . . جبةً سوداء ، وكذلك صاحبُهُ بدرُ الدين .

وكذلك كسوتُ الشيخ شعيبَ الخطيبِ بجامع الأزهر . . صوفاً أخضرَ

وكذلك كسوتُ الفقيه عمرَ المَلِيجيَّ ، والفقيه أحمدَ العباسيَّ ، وشرفَ الدين النِّفْيائي(١) ، ويوسف النبتيتي مراراً عديدة

وكذلك كسوتُ الشيخ عبدَ القدوس ولدَ شيخنا الشيخ محمدٍ الشِّنَّاويِّ . . القمصانَ البعلبكيةَ والمُلاءاتِ المقصورة مراراً لمَّا يأتي من الحجاز ، وله الفضلُ في ذلك

وكسوتُ يحيىٰ صاحبَهُ مرتين القمصانَ

وكسوتُ ولدَهُ عبدَ القدوس بُرنساً أسودَ ، وملاءةً .

وكسوتُ الشيخ عبدَ الرحمـٰن ولدَ عمه قميصاً بعلبكيّاً ، وعمامةً ، وملاءةً مقصورة

وكسوتُ شمسَ الدين الإِبْشِيطيَّ مباشرَ ابن بغدادَ جبةً بيضاءَ

وكسوتُ شرف الدين العصاميَّ جبةً حمراءَ

وكسوتُ الشيخ مروانَ المجذوبَ جبةً سوداءَ وبُِشتاً بسؤاله في ذلك(٢) ، وله الفضلُ

---

(١) في (هـ) : (النفياوي) .

(٢) البشت بكسر الباء وضمها : نسيج من صوف أسمر ـ أي بلون الصوف الطبيعي ـ يتخذ منه لباس الفلاحين والنساء . « تكملة المعاجم العربية » (ب ش ت) ، وفي « المعجم الوسيط » (١/ ٥٧) : (كساء من صوف غليظ النسج لا كمين له ، يرتديه أهل الريف في الشتاء) .

وكسوتُ سيدي زينَ العابدين ابنَ بنت سيدي المَرْصَفيِّ مُلاءةً بيضاءَ ، وله الفضلُ في قبولها

وكسوتُ الشيخ محمدَ العوضيِّ مراراً الجببَ والقمصانَ

وكسوتُ الشيخ صالحَ المسلميِّ جبةً سوداءَ

وكسوتُ الشيخ شمسَ الدين الشِّرْبينيَّ الخطيب جبةً

وكسوتُ المقدَّمَ الزَّرْدكاش مراراً الفراءَ والثيابَ

وكسوتُ صاحبَهُ جهة المغاني صوفاً أخضرَ ـ واسمُهُ العيار ـ لمَّا جاءني في جنزير

وكذلك أعطيتُ الغزاويَّ الحائكَ صوفي العودي لما جاءني في جنزير[1]

وكسوتُ الحاجَّ عليَّ فليفلٍ جبةً حمراءَ

وكسوتُ سيدي شرفَ الدين بن الأمير جبةً بيضاءَ ، وقميصاً بعلبكيّاً ، ولا أقوم له بجزاء

وكسوتُ الحاجَّ بدرَ الدين القَلْعيَّ الجببَ الحمرَ والقمصانَ مراراً ، وكذلك ولدَ أخيه المعلم أبا الفتح

وكسوتُ سيدي محمدَ بن الموفق مراراً ، وكذلك ولدُ عمه أحمدُ ، وابنُ خاله شرف الدين

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٩) : (كسوت الغزاوي الحائك بالميدان صوفاً عودياً) .

وكسوتُ شيخي الشيخ حسناً الشامي الضريرَ وأولادَهُ مراراً . . الأصوافَ والثياب ، ولا أقوم له بجزاء

وكسوتُ الشيخ أبا الخير الصَّفْطيَّ قميصاً

وكذلك كسوتُ ابنَ السلطان الملكَ الكامل قميصاً ، لقيني في باب القنطرة ، فقال لي : انظر قميصي المقطَّعَ ، فدخلت دكَّاناً وخلعته له .

وكسوتُ ابنَ الشيخ أبي الفتح بن الجمال قميصاً[(١)]

وكذلك كسوتُ الشيخ عمرَ النَّبْتيتيَّ المكشوفَ الرأس . . جبةً بيضاءَ مبطنة ، بعلبكيّاً ، وله الفضلُ في قبولها

وكسوتُ جمالَ الدين ولدَ ابنة عمي جبةً حمراءَ وعليها فَروةٌ

وكذلك كسوتُ مثلَها يحيى ابنَ بنت الغمري

وكسوتُ الشيخ نعيمَ الصنباويِّ جبةً سوداء

وكذلك كسوتُ أخاه نورَ الدين فقيهَ ابن الرملي جندة صوف بيضاءَ

وكذلك كسوتُ أخي الشيخ عبدَ الرحمـٰن الأُجْهُوريَّ جبةً

وكسوتُ الشيخَ أبا الخير الغمري مراراً

وكسوتُ الشيخ يحيى الريحاويَّ الحلبي وولدَهُ[(٢)] ؛ كلَّ واحد منهما قميصاً لمَّا وردا إلىٰ مصرَ

وكسوتُ الشيخ علمَ الدين العبادي قميصاً

---

(١) في (ج) ، و« المنن الكبرىٰ » : (الشيخ أبا الفتح) بدل (ابن الشيخ أبي الفتح) .

(٢) في (ب ، ز) : (الريحاني) بدل (الريحاوي) .

وكسوت الشيخ صلاحَ الدين بن خروب الواعظَ جبةً سوداءَ

وكسوتُ سيدي [محمداً] شيخَ سوق أمير الجيوش قميصاً بعلبكياً لمَّا سافر إلىٰ حلبَ

وكسوتُ الشيخ شهابَ الدين القصبيَّ وأولادَ أخيه . . الجوخَ ، والجببَ ، والقمصان مراراً

وكذلك إخوتي ، وأولاد عمي ، وأولاد أخوالي وخالاتي . . كسوتُهم الجوخَ ، والفراء ، والجببَ ، والقمصانَ ، والكسا[1] ، وغيرَ ذلك

وكسوتُ الحنفيَّ شيخَ سوق أمير الجيوش قميصاً بسؤاله لي في ذلك لمَّا عُزِل من مشيخة السوق

وأما مشايخُ البلاد والمترددون بالهدايا . . فلا أُحصي لهم عدداً ، وكذلك المجاورون بالمدرسة من الأحياء والأموات . . لا أحصي لهم عدداً

فممن كسوتهم من مشايخ البلاد :

الحاجُّ إبراهيم الأَكْيَاديُّ ، ونافعٌ شيخ الساقية ، والحاجُّ عليُّ بن هلال شيخ شَطَّنَوف[2] ، وأحمدُ وابنُ عمه أولادُ ابن أبي الحسن مشايخُ ناحية قَها

فهـٰذا ما رأيته بخط إبراهيمَ السَّنْدَبَسْطيِّ في ورقة مما كسوتُهُ للناس علىٰ

(١) الكسا اللباس ، جمعٌ ، مفرده الكسوة بكسر الكاف وضمها « لسان العرب » (ك س ا)

(٢) كذا ضبطها ياقوت الحموي في « معجم البلدان » (٣/ ٣٤٤) ، وقال الزبيدي في « تاج العروس » (ش ط ن ف) : (شَطَنُوف : كحَلَزُون)

يديه ، وأما ما أخلعه للناس من الثياب والعمائم في غيبته[1] . . فلا أحصيه

ولمَّا سافرت [إلى] الحجاز كسوتُ أولادَ ابن أبي كثير ؛ كلَّ واحد قميصاً خماسياً[2]

وكسوتُ الشيخ شرفَ الدين الدِّيَصْطيَّ جبةً بيضاءَ ، خلعتها عليه عند الحجر الأسود ، فأعطوه فيها بحضرتي ثلاثين ديناراً فلم يرضَ

وكسوتُ الشيخ أبا سلمةَ المَنُوفيَّ وجماعتَهُ من فقراء اليمن والشام ، كانوا بمكة المشرفة

وكذلك كسوتُ أبا سلمةَ ابنَ عم شيخ الإسلام الطرابُلسي في كل حجة قميصاً

وأما العمائمُ : فلا أحصي لها عدداً للواردين والمجاورين ، وكذلك الأردية .

وفرَّقْتُ علىٰ نساء الأعراب من البراقع ما لا أُحصي له عدداً ذهاباً وإياباً ، في المناهل وغيرها

ولمَّا أقبلتُ على المدينة المشرفةِ تلقَّاني شخصٌ وقال : أريد أن أُزَوِّرَكَ سيدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له ما اسمُكَ ؟ فقال تقيُّ الدين بنُ المقبول ، فأخذت من ذلك الفألَ الحسنَ ، فدخلت معه إلىٰ أنْ أوقفَني تجاهَ وجه سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار يسأله صلى الله عليه وسلم من الأسئلة والحوائج في الدنيا والآخرة . . ما كنت أستحيي أن أتلفظَ به بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فخلعتُ عليه

(١) خَلَعَ عليه : إذا نزع ثوبه وطرحه عليه .

(٢) يعني : طوله خمسة أشبار

صوفيَ الأخضرَ المضرَّبَ تجاهَ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطوه فيه خمسين ديناراً فأبىٰ وقال : لا أبيعه بمال الدنيا كلِّهِ ؛ لكونه خُلِع عليه بحضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما القمصانُ التي فرَّقتُها هناك فكثيرةٌ ، حتىٰ إني خلعت ثيابَ عبد الرحمـٰن ولدِي ، وثيابَ والدته ، وفرَّقتُهم علىٰ أهل المدينة ؛ فرحاً بقدومنا عليه صلى الله عليه وسلم

وفرَّقتُ في الحرم المكي علىٰ فقراء الزيالع وخُدَّام البيت نحوَ قنطار ونصف من السكر ؛ كنت أكسر القِمْعَ وأرميه للناس حول المطاف ، فتلتقطه الناسُ ، وتارةً ألقمه في فم الفقير ، وقال لي خُدَّام البيت إنهم ما رأوا أحداً فرَّقَ عليهم السكرَ كذلك في طول عمرهم .

وقد وجدت ورقةً بخط الشيخ إبراهيمَ النقيبِ ، فيها عددُ من كساه اللهُ علىٰ يدي في مدة عشر سنين ، فبلغ سبعَ مئةٍ زِيقاً . انتهىٰ

وإنما ذكرتُ لك يا أخي عدَّةَ بعض مَنْ مَنَّ اللهُ عليَّ بكسوتهم ؛ إعلاماً لك وللإخوان ليقتدوا بي في مثل ذلك ، ويتكرَّموا على الإخوان وغيرِهم ممن عَرَفوا وممن لم يعرفوا ، ولا يخافوا من الفقر إذا أعطوا الناسَ مثلَ ذلك ؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

ولم أزلْ بحمد الله أُعطي الناسَ الثيابَ والنقودَ إلىٰ وقتي هـٰذا ، وما رأيتُ من الله إلا كلَّ خير ، ووالله ؛ لو علمت أحداً يعطي الناسَ هـٰذه العطايا . . لدللت الإخوانَ عليه ليقتدوا به ، وسترت نفسي ، ولـٰكنَّ الأعمالَ بالنيات ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[كراهتُهُ لسماع الآلاتِ المطربة من صغره]

ومما أنعمَ الله به عليَّ كراهتي لسماع الآلاتِ المطربة من حينَ كنت صبيّاً ؛ عملاً بنهي الشارع عنها ، واتهاماً لنفسي أن تسمعَ مثلَ ذلك ولا يؤثِّرَ فيها غفلةٌ عن الله تعالىٰ وذِكْرِهِ وعن الصلاة ، مع أن التحريمَ إذا صحَّ عن الشارع لا يتوقَّفُ علىٰ معرفة عِلَّته ، ولٰكن ذكرتُ التعليلَ النافي ؛ إعلاماً لمن جعل علَّةَ التحريم : أن يورثَ سماعُ ذلك غفلةً . . بأني عاجزٌ عن سماع ذلك من غير أنْ يؤثِّرَ فيَّ غفلةً وصَدّاً عن ذكر الله وعن الصلاة

وقد نُقِل عن جماعة أنهم جعلوا علَّةَ التحريم إنما هو حصولُ الغفلة ، فإذا لم تحصل غفلةٌ فلا إثمَ ؛ منهم معاويةُ ، وعمرُو بن العاص ، ومسلمُ بن خالد الزنجي شيخُ الإمام الشافعي ، والبخاريُّ ، والشيخ عزُّ الدين بنُ عبد السلام ، وبعضُ الصوفية ، وقالوا لو كان حراماً مُفسِّقاً ما أخذ الإمامُ الشافعيُّ والبخاريُّ عمن يبيحه ويسمعه

وللشيخ أبي المواهب مؤلَّفٌ في سماع الآلات ذَكَرَ فيه أدلةَ من أباح وأدلةَ من حَرَّم[١] ، ثم قال (وبالجملة فقدِ استقرت أقوالُ مذاهب الأئمة الأربعِ على التحريم ، وكفىٰ بذلك زجراً وتنفيراً عن سماع الآلات ، والله أعلم) ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[كراهتُهُ التقدمَ للإمامة]

ومما منَّ الله به عليَّ : كراهتي للتقدم للإمامة بقوم يظنون فيَّ الخيرَ الذي لم يكن فيَّ ؛ كالزهد في الدنيا ، والخوفِ من الله تعالىٰ ، ومراقبتِهِ

---

(١) واسم الكتاب : « فرح الأسماء برخص السماع » .

بالغيب ، وربما أنهم لم يُصلُّوا خلفي لو اطلعوا علىٰ زلَّاتي التي عملتها طولَ عمري ، وفي الحديث « اجعلُوا أئمتكم خيارَكم ؛ فإنهم وفدُكم فيما بينكم وبينَ ربِّكم »(١)

وأما حديث : « صلُّوا خلفَ كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ »(٢) . . فهو محمول علىٰ إمام يخشى الناسُ الفتنةَ من ترك الصلاة خلفه ، فكانت صلاتُنا خلفَهُ مع فسقه أخفَّ فتنةً من امتناعنا من الصلاة خلفَهُ ، وربما عاقبَنا ونفانا من بلادنا ، كما وقع للصحابة والتابعين أيامَ الحجاج بن يوسف الثقفيِّ

فليَعرِضْ مَنْ يريد التقدُّمَ على الناس في صلاةِ فريضة أو جنازة . جميعَ زلَّاتِهِ ـ ما أَسَرَّ بها وما أعلنَ ـ على المأمومين بحكم الفَرْض والتقدير ، وينظرْ فإن غلبَ علىٰ ظنه أنهم يصلُّون خلفَهُ بلا كراهة ولا حزازة في نفوسهم . . فلْيصلِّ بهم إماماً ، وإلا فالورعُ التركُ ، ويصلي مأموماً

وأظنُّ أن الإنسانَ لو عرض ذلك علىٰ أهل هـٰذا الزمانِ . . لفرُّوا من صحبته ، ولم يقتدِ به إلا القليلُ ، وكانت كراهتُهم له بحقٍّ وصدق ؛ لأنه وقع في تلك الذنوبِ بيقين ، وأما كونُهُ تاب منها وقُبِلتْ توبتُهُ فما هو منها علىٰ يقين

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٢٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٣٢٨) عن سيدنا أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٩٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ١٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه أبو داود عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ « والصلاة واجبة عليكم خلف كل مسلم ؛ برّاً كان أو فاجراً »

ثم إن لم نجد للإمامة إلا من تلطَّخ بمثل هـٰذه الذنوبِ . فمن الواجب علىٰ سبيل الوجوب أو السنة أن يتقدَّمَ أحدُ الحاضرين ويصليَ مُستغفِراً لنفسه وللمسلمين ، وكذلك الميت مثلاً ، كما يقع لي ذلك كثيراً إذا قدَّمني الناسُ لصلاة الجنازة ؛ اكتفاءً بالإذن العام لنا في ذلك ، وما أَمَرَنا اللهُ بالصلاة على الميت إلا وهو يريد إجابةَ دعائنا في حقِّهِ ، فافهم

وحضرتُ أنا وأخي الشيخ أفضلُ الدين في جنازة في جامع الأزهر ، فقدَّموه للجنازة ، فغُشِي عليه ولم يتمَّ الصلاةَ ، فقدَّموا واحداً فصلىٰ بالناس ثانياً ، فلما أفاق قلتُ له في ذلك ، فقال سمعت في سرِّي قائلاً يقول مثلُك لا ينبغي له التقدُّمُ للشفاعة في غيره ؛ إذ لا يشفعُ في غيره إلا من ارتضاه اللهُ تعالىٰ ، فهل تعلم أن اللهَ ارتضاك ورضي عنك ؟! فهـٰذا سببُ الغشيان عليَّ ، ثم إنه آلىٰ علىٰ نفسه ألا يتقدَّمَ بعد ذلك لجنازة ولا غيرِها إلىٰ أن مات . انتهىٰ .

وكان الشيخ محمدٌ المغربيُّ الشاذلي شيخُ الشيخ جلالِ الدين السيوطيِّ في الطريق رضي الله عنهما . . لا يذهب قط لجنازة إلا إن علمَ من طريق كشفِهِ أن اللهَ تعالىٰ يشفعه في ذلك الميت ، فإن لم يعلم يقول للناس اذهبوا

وقدَّموه مرةً لجنازة في جامع الأزهر ، فمكث يدعو لها نحوَ خمسَ عشرةَ درجةً والناسُ خلفه[1] ، ثم سَلَّمَ بهم ، فقالوا له في ذلك ، فقال رأيت

(١) الدرجة : أربع دقائق .

عليه تَبِعاتٍ كثيرةً[1] ، فأوقفته بين يدي الله تعالىٰ ، وصرت أشفعُ فيه حتىٰ أرضى الله عنه خصماءه كلَّها . انتهىٰ

وكذلك وقع لي في شخص من مقدَّمي الوالي ، فلما تسامع المقدَّمون بذلك دعوني إلىٰ جنازة المقدَّم عياد ، فرأيت عليه تَبِعاتٍ كثيرةً ، وليس لي فيها يدٌ ، فلم أُصلِّ عليه ، لـٰكن دعوتُ له بأن اللهَ يُلهم أحداً من أوليائه وغيرِهم يدعو له ويستجيب له في حقه

فعُلِمَ مما قررناه أن هـٰؤلاء الذين يتزاحمون علىٰ أن يكون كلٌّ واحد منهم إماماً في الجنازة. . غافلون عما قررناه ، بل ربما عادىٰ بعضُهم بعضاً إذا قدَّموا أحداً عليهم ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[أدبُهُ مع الأولياء في قبورهم]

ومما منَّ الله به عليَّ حسنُ أدبي مع الأولياء وهم في قبورهم ، فأُعاملهم معاملةَ الأحياء في الأدب علىٰ حدٍّ سواء ؛ لأنهم أحياءُ الدارين

حتىٰ إن بعضَهم يحصل بيني وبينه مداعبةٌ ومباسطةٌ ، وبعضَهم رأيتُهُ ناقصاً في بعض المقامات فكمَّلته في البرزخ ، وشكر صنيعي علىٰ ذلك ؛ منهم : سيدي عمرُ بنُ الفارض رضي الله عنه[2]

ومما وقعَ لي أنني زرتُ رأسَ الإمام الحسينِ أنا والشيخ شهابُ

---

(١) التبعات ما فيه إثمٌ يتبع صاحبه .

(٢) توجد زيادة في (هـ ، ز) (وقد ذكرنا في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٩) أن مما منَّ الله به عليَّ أنني كملت مقام سبعين وليّاً في البرزخ ؛ منهم سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه ، ومنهم سيدي أبو السعود الجارحي رضي الله عنهم أجمعين) .

الدين بن الشلبي ، وحصل لنا بكاءٌ وحزنٌ عظيم عليه حتىٰ خَنَقَتنا العبرةُ ، فأرسل شخصاً من عنده ، فأخبر بذلك جدَّهُ صلى الله عليه وسلم ، فقال جزاهما اللهُ عنا خيراً ، ونحن نسمع . انتهىٰ .

ومما وقع لي مع الإمام الشافعي رضي الله عنه : أنني تعوَّقت عن زيارته ، فجاءني في المنام وقال أنا عاتبٌ عليك في قلة الزيارة ؛ فإني صرت رهين رَمسي[١] ، وكذلك أنا عاتبٌ على الشيخ نور الدين الشَّوْنيِّ ، والشيخ نور الدين الطَّرابُلُسي

فقلت له إن شاء الله تعالىٰ بُكرةَ نزوركم ، فقال لا أُطلِقك حتىٰ أمضيَ بك إلىٰ مكاني ، فأخذ بيدي ، ومشيت معه حتىٰ طلع بي من ظهر القبة ، ولم أزلْ معه حتىٰ أجلسَني عند الهلال تحت المَرْكَبِ النحاسِ ، وفرش لي حصيراً جديدةً ، ووضع لي سفرةً فيها خبزٌ ليِّنٌ ، وجُبْنٌ أزرار ، وشقَّ لي بطيخةً من العبد اللاوي وقال[٢] كُلْ يا فلانُ في هـٰذا المكان الذي ماتت ملوكُ الدنيا بشهوة أكلة فيه

فلما أخبرتُ بذلك سيدي الشيخ نورَ الدين الشَّوْني ، وسيدي الشيخ نور الدين الآخر[٣] .. ركبا على الأَثَر وذهبا لزيارته ، وكان عند الشيخ نورِ الدين الشَّوْنيِّ الشريفُ عُرار وزيرُ الشريف بركاتِ سلطانِ مكةَ ، فشكَّ في رؤيتي ، فرأىٰ تلك الليلةَ الإمامَ الشافعيَّ رضي الله عنه وهو يقول له نعم أنا عاتبٌ علىٰ هـٰؤلاء الثلاثةِ . انتهىٰ .

---

(١) الرَّمْسُ : القبر .

(٢) البطيخ العبد اللاوي : منسوب إلىٰ عبد الله بن طاهر ؛ لأنه هو الذي زرعه

(٣) أي : الشيخ نور الدين الشوني والشيخ نور الدين الطرابلسي كما مرَّ قريباً .

ومما وقعَ لي معه أيضاً : أنه دعاني لزيارته أنا وعيالي وأولادي ، فحمل ابنتي رُقيةَ علىٰ عاتقه ، وذهب بنا إلىٰ قبَّتِهِ ، وصار يباسطنا ويفرح بنا ، وإذا بشيء نزل من السماء أبيضَ كالقطن ، فصار يتراكمُ حتىٰ صار كوماً عظيماً في القبة ، فقلت له ما هـٰذا ؟ فقال هـٰذا مقامُ الحياء من الله تعالىٰ ، فكلُّ من نظر إليه صار يستحيي من الله تعالىٰ حقَّ الحياء انتهىٰ ، فصرت أنظر والناس ينظرون[١]

ومما وقعَ لي مع السيدة نفيسةَ رضي الله عنها أنني ذهبت أنا والفقراءُ لزيارتها ، فوقفتُ عند الباب السفليِّ الذي عليه تاريخُ وفاتها ونسبُها ولم أدخل ؛ حرمةً لها ، فجاءتني تلك الليلةَ وقالت إذا جئتَ فادخل واجلسْ قبالة وجهي ، فمن ذلك اليوم وأنا أفعل ذلك .

وأصل دفنها في المَرَاغة ، ولـٰكن ظهرتْ من هـٰذا المكان لتعلُّق قلبها به ؛ فإنه كان مسجدَها الذي كانت تتعبَّد فيه ، وكان الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه يؤم بها فيه في صلاة التراويحِ ؛ فإن حكمَ باب البرزخ حكمُ الماء الجاري الذي يُدلَّىٰ فيه الإنسانُ[٢] ، فربما طف من مكان آخرَ ، فافهم .

ومما وقعَ لي مع سيدي عمرَ بنِ الفارض رضي الله عنه : أنني خرجت لزيارته في وسط النهار أيامَ الصيف ، فلم أجدِ البوَّابَ ، واستحييت أن أدقَّ البابَ على الشيخ ، فقرأتُ (الفاتحةَ) ورجعت إلىٰ مدرسة أم خوند ، فجاءني على الأثَر بمقدار عشر درج وقال لي : اعذرْني يا أخي ؛ فإني كنت

---

(١) في غير (هـ) : (فصرت أنظر وآمر الناس ينظرون)

(٢) في (ب) : (ينزل) بدل (يدلىٰ) ، وفي (ج) (نزل)

غائباً ، وواحدةٌ بواحدة جزاءً ، فعرفت شدَّةَ عَزْمِهِ رضي الله عنه ، وعدمَ محبته لمنة أحد عليه

ومما وقعَ لي مع سيدي أحمدَ البدويِّ رضي الله عنه أنه جاءني ودعاني إلىٰ مولده وقال إن جئتَ إلىٰ مكاني طبخت لك مُلوخيةً ، وحكَّمتك في بلادي ، فلا يدخل عليَّ أحد إلا بعد استئذانِكَ في ذلك ، فسافرت ، فطبخ لي سائرُ الأصحاب ببلده تلك الليلةَ مُلوخيةً من غير تواطؤٍ علىٰ ذلك ؛ تصديقاً لوعد الشيخ ، وصار كلُّ من دخل القبةَ يبدأ بزيارتي قبلَهُ ، حتى استحييتُ منه ، وصرت أقول لهم ابدؤوا بزيارة الشيخ ثم تعالوا ، فيأبون[1] . انتهىٰ

وقد أخبرني الشيخ شهابُ الدين الطَّنْدَتائيُّ خادمُ سيدي الشيخ محمدٍ السِّرْويِّ أنه قال سبب زيارتي كلَّ سنة لسيدي أحمدَ أنه جاءني في المنام وقال : إن زرتَني يا محمد أقطعتُك الغربيةَ كلَّها ، قال فسافرتُ إليه من فارس كورة ، فأقبل عليَّ أهلُ الغربية جميعُهم ، ولـٰكن كان هناك الشيخُ أبو الخير بنُ نصرٍ[2] ، فصار جماعتُهُ يعارضوني ، فقلت له يا سيدي أحمدُ ؛ تُقطِعُني الغربية وتجعل معي فيها [نغيصاً] ؟! فقال لا تخفْ يا محمدُ ، نريحك منه بعد أيام ، فمات بعد ثلاثة أيام . انتهىٰ

ومما وقعَ لي مع سيدي إبراهيمَ الدسوقيِّ رضي الله تعالىٰ عنه : أنه جاءني وقال لي : زُرْنا لله ، فإن زرتَنا نزلتُ لك عما بيدي من قراءة الحديثِ في

---

(١) في (ب ، ج) : (ففعلوا) بدل (فيأبون)

(٢) أبو الخير بن نصر : شيخ البلاد الغربية من أعمال مصر ، ومحيي السنة . انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٢١) .

الحُجْرة النبويَّةِ علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وتدريسِ العلم بالحَرَمِ ، ثم نزع عمامتَهُ وألبسني إياها ، ثم نزعها وألبسني عمامتي ، فحصل لي أُنسٌ عظيم لا أقدر أصفُهُ(١) ، رضي الله عنه انتهىٰ

ومعلومٌ : أن الأولياءَ لا يُخلِفون وعدَهم ، لا سيما وهم في البرزخ

وكذلك وقعَ لي في ليلة من الليالي أنني صرتُ كلما أمدُّ رجلي أجد تجاهها أحداً من الأولياء في سائر أقطار الأرض ، فمددتُها نحوَ باب البحر ، فرأيتها تُجاهَ سيدي محمدِ بن عنانٍ ، فنمت وأنا جالسٌ ، فجاءني الشيخ وقال(٢) : مُدَّ رجلَك ناحيتي ، وسَحَبَ رجلي ، فاستيقظت ونعومةُ يده في رجلي ، فانظر يا أخي ما يثمره الأدبُ مع الأولياء ، ولو أني كنت قليلَ الأدب معهم ما وقع لي معهم هـٰذه المُباسطةُ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حسنُ الظَّنِّ في الطوائف المنتسبة لطريق الفقراء وعدمُ إخراجهم من الشرع إلا بدليل]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ : حسنُ الظنِّ في الطوائف المنتسبين إلىٰ طريق الفقراء ؛ كالأحمدية ، والبرهانية ، والرفاعية ، والمطاوعة ، ولا أحكم علىٰ أحد منهم بخروجه عن الشرع إلا إن شاهدتُهُ بعيني ، أو قامتْ بذلك عندي بيِّنةٌ عادلةٌ ؛ فإن في كل طائفة الجيدَ والرديءَ ، والحكمُ علىٰ جميع الطائفة بحكمٍ واحد جَوْرٌ وتهوُّرٌ ، وقد كثر الاستفتاءُ علىٰ طائفة المطاوعة في كل عصر

---

(١) في (ب ، ج) : (أضبطه) .

(٢) في (ب ، ج) : (فجاءني الشيخ وأنا جالس وقال) .

فينبغي للمفتي أن يُخلِصَ عبارتَهُ لتخلُص ذمَّتُهُ ؛ ويقولَ كلُّ من اعتقد ما ذُكِرَ فهو كافر ، أو فاسق ، أو مبتدع ، ونحوَ ذلك ؛ فإن فيهمُ الأولياءَ والصالحين .

ولمَّا تاب الشيخ محمدُ بنُ عنانٍ على يَدَيْ سيدي الشيخِ أبي العباس الغمريِّ عن طريقة أهله من المطاوعة في ساحل بحر مُنيةِ غمْر . قال سيدي أبو العباس للحاضرين إن الشيخ محمداً خلقَهَ اللهُ وليّاً ولم يتدنَّسْ بما عليه أهلُهُ من البدع ، ثم قال له : انزع هٰذا الزُّنْطَ الأبيضَ[1] ، وتحلَّسْ بحُلَّاسنا ، فقال له يا سيدي ؛ أخاف من وجع الرأس ـ وكان مُعمَّماً بعِمامة صوف ـ فقال له سيدي أبو العباس التَّزيِّي بزِيٍّ من تجتمع عليهم أولىٰ ، فنزع سيدي أبو العباس عمامتَهُ وعمَّم الشيخَ محمداً بها ، هٰكذا أخبرني الحاجُّ عزُّ الدين من أهل سَنْدَبَسْطَ .

ثم إن الشيخ يوسفَ الحُريثيَّ تاب علىٰ يدي سيدي أبي العباس كذلك ، وانقاد لهما أكثرُ فقراء بلاد الشرقية ، وأقبل الناسُ ومشايخُ العرب والكشافُ على الشيخ محمدِ بنِ عنانٍ ، واعتقدوه اعتقاداً عظيماً ، وصار يعمل له مولداً ، فيحضره غالبُ أولياء العصر كلَّ شهر ، وكان سيدي عليٌّ الخواصُ يحمل إليه من مصرَ في كل مولد الفُلْفُلَ والشَّيْرجَ[2] ، وغيرَ ذلك من حوائج الطعام

وذكرنا في « الطبقاتِ » أن سيدي محمدَ بن عنانٍ كان يغزو كلَّ ليلة مع

---

(١) الزُّنْط : الطربوش عند أهل مصر .

(٢) الشَّيْرج دُهن السِّمْسِم

الفقراء في بلاد الفَرَنْج وهو أمردُ[1] ، وقال لي بعضُ الأولياء[2] : إنني ما تعرفت بالشيخ محمدٍ إلا في ساحل قُبرصَ ، فإياك يا أخي أن تحكُمَ بالبدعة مثلاً علىٰ جميع أفراد الجنس من كل طائفة ؛ فإن ذلك تهوُّرٌ في الدين ، واحمِ سمعَكَ وبصرَكَ ، وامشِ علىٰ نورٍ ، والحمد لله ربِّ العالمين

[تقديمُهُ في عمله الأورادَ التي أخبر الشارع أنه يحبُّه على الذي يحبه على العموم]

ومما منَّ الله به عليَّ : تقديمي في وردي العملَ الذي أخبرَ الشارعُ أن الله تعالىٰ يحبُّهُ على العمل الذي يحبُّهُ تعالىٰ بحكم العموم ؛ فكان الباعثُ لي علىٰ تقديمها محبةَ الشارع لذلك ، لا لعلة أخرىٰ من ثواب أو غيرِهِ ، ومن شرط العارف ألا يحبَّ شيئاً في الوجود إلا بتحبيب الله تعالىٰ ذلك له ، لا بحكم الطبع ، فافهم

[مطلبٌ في كيفيةِ ترتيب أوراده]

فأولُ ما أبدأ بقولي أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ، وأشهد أنَّ محمداً رسولُ اللهِ (ألف مرة)

ثم أقولُ سبحانَ من سبقتْ رحمتُهُ غضبَهُ (ألف مرة) ؛ لما رواه

---

(١) الطبقات الوسطىٰ (٢/ ٨٤٩)

(٢) في (ب ، ج) : (الفقراء)

الطبراني أن هـٰذا صلاةُ الحقِّ تعالىٰ ، ولفظ الحديث « سبقتْ رحمتي غضبي »(١)

ثم أقول سبحانَ الله ، والحمدُ لله ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ؛ لما ورد فيهنَّ : أنهنَّ أحبُّ الكلام إلى الله عز وجل(٢)

ثم أقول سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ (ألف مرة) ؛ لما ورد في « البخاري » مرفوعاً « كلمتانِ حبيبتانِ إلى الرحمـٰنِ ، خفيفتانِ على اللسانِ ، ثقيلتانِ في الميزانِ سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »(٣)

ثم أقول (ألف مرة) سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ علىٰ عفوِكَ بعد قدرتِكَ ، سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ علىٰ حِلْمك بعد علمِكَ ؛ لما ورد أنهنَّ تسبيح حملة العرش الأربعة(٤)

ثم أقول : سبحانَ من أظهرَ الجميلَ ، وسترَ القبيحَ (ألف مرة) ؛ لما

---

(١) المعجم الأوسط (١١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه عنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلت : يا جبريل ؛ أيصلي ربُّك جلَّ ذكره وتعالىٰ جده ؟ قال : نعم ، قلت : ما صلاته ؟ قال : سبوح قُدُّوس ، سبقت رحمتي غضبي ، سبقت رحمتي غضبي » ، وهو عند البخاري (٧٥٥٣) بلفظ « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده غلبتْ ـ أو قال سبقت ـ : رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش » ورواه مسلم (٢٧٥١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢١٣٧) عن سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٣) صحيح البخاري (٦٤٠٦) ، ورواه مسلم (٢٦٩٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٥) من قول هارون بن رياب .

ورد : أن ذلك تسبيحُ ملائكة الستور[1]

ثم أقول : اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهِكَ ولعظيمِ سلطانِكَ ؛ لما ورد أنها عضلتْ على الملكين ، فلم يَدْرِيا مقدارَ ثوابها ، فقال الحقُّ تعالىٰ للملائكة « اكتبُوها كما قالَها عبدي وعليَّ جزاؤُهُ »[2]

ثم أقول (ألف مرة) الحمدُ للهِ بجميعِ محامدِهِ كلِّها ما علمتُ منها وما لم أعلمْ ، علىٰ جميعِ نِعَمِهِ كلِّها ما علمتُ منها وما لم أعلمْ ، عددَ خَلْقِهِ كلِّهم ما علمتُ منهم وما لم أعلمْ ؛ لما قيل : إن شخصاً من الأولياء قالها يومَ عرفةَ ، فلما كان العامُ الثاني أراد أن يقولَها ، فقال له الهاتفُ : كفَّ عن هـٰذا ؛ فإننا إلى الآنَ لم نفرُغْ من كتابة ثوابِ العامِ الماضي .

ثم أقرأ : (قل هو الله أحد) ألف مرة ؛ لما ورد : أن الله تعالىٰ يحبها

ثم أقول (ألف مرة) : جزى اللهُ سيدَنا ونبيَّنا محمداً صلى الله عليه وسلم عنا خيراً بما هو أهله ؛ لما ورد : أن مَنْ قالَها مرةً أتعبَ سبعين كاتباً ألفَ صباحٍ[3]

ثم أُصلِّي علىٰ سيدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم (ألفَ مرة) ، وهـٰكذا

ثم أقولُ بعد ذلك ما ورد الأمرُ به عموماً ؛ فإنهُ يفيدُ المحبةَ ؛ أي

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٤٥) ، والبيهقي في « الدعوات الكبير » (٢٣٨) دون ذكر (ملائكة الستور) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠١) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وفيه : « فاكتباها كما قال عبدي حتىٰ يلقاني فأجزيَهُ بها » ، وقوله : (عضلت بالملكين) أي : أَعْيتهما

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/ ٢٠٦) وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٠٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

أن اللهَ تعالىٰ يحبُّ لنا ذلك لتعودَ ثمرتُهُ علينا لا عليه تعالىٰ ؛ فإنه غنيٌّ عن العالمين .

وما أخبرنا اللهُ تعالىٰ بفواضلِ الأعمال إلا لنبدأَ بذلك عند ضيق العُمرِ ، أو ضيقِ الوقت في الليل والنهارِ ؛ ولذلك كنتُ أبدأ في صلاة الليل بقراءة آيةِ (الكرسيِّ) و(الإخلاصِ) في الركعة الأولىٰ ، وأواخرِ سورة (الحشر) و(قل هو الله أحد) في الركعة الثانية ؛ لما ورد : أنَّ قراءةَ (الإخلاصِ) تعدل ثلثَ القرآنِ[1] ، وآيةِ (الكرسي) وأواخرِ سورة (الحشر) تعدلُ كلٌّ منهما ألفَ آية ، لا سيما إن نمتُ عن وِرْدي إلىٰ قريب طلوعِ المؤذِّنِ للتسبيح

وكذلك : أُقدِّم العملَ الذي ورد : أن الله تعالىٰ يحبُّ فاعلَهُ من غير جنس الصلاةِ والأورادِ ؛ كالزهد في الدنيا ، والإحسانِ إلى الناس ، والصبرِ على الشدائد ، والمبادرةِ بالتوبة ، والطهارةِ ، وأدلةُ ذلك مشهورةٌ .

ثم لا يخفىٰ : أن الحقَّ تعالىٰ إذا اطلع علىٰ قلب عبدِهِ ، فوجده يعاملُهُ هـٰذه المعاملةَ . . قضىٰ حوائجَهُ في الدنيا والآخرة من غير سؤال ، كما هو شأنُ أمراء المجالسِ بالنسبة لملوكِ الدنيا ؛ يعطيهم اللهُ تعالىٰ أكثرَ مما يُعطي الطالبينَ منه ؛ عوضاً منه علىٰ خدمتهم

ومَنْ شكَّ في قولي هـٰذا فلْيجرِّبْ ويقمْ في الأسحار ويخدمِ اللهَ تعالىٰ ؛ محبةً فيه ، وفي الوقوف بين يديه ، دون علة أخرىٰ ، وينظرْ ، فإنه يجد جميعَ حوائجِهِ

---

(١) رواه البخاري (٥٠١٣) ، ومسلم (٨١٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

تصبحُ مقضيّةً ، بخلاف من نام إلى الصباح ، لا سيما إن كان جنباً

ثم إن العبدَ ولو أُعطِي سُؤْلَهُ فمن لازمه غالباً أنه يشتغلُ به عن الله تعالىٰ ، بخلاف مَنْ أعطاه اللهُ تعالىٰ شيئاً بغير سؤال ؛ فإنه محفوظٌ من ذلك ، فافهم ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[محبتُهُ لأن يغتابه الناسُ دون غيره ؛ لمسامحته لهم]

ومما منَّ الله به عليَّ : أنني بلغت من الشفقة علىٰ دين إخواني أنني أودُّ أن يجعلوا جميعَ الغِيبة التي يغتابون بها الناسَ . . فيَّ وحدي ؛ وذلك لسهولة مسامحتي لهم ، وصعوبةِ مسامحة غيري لهم .

بل ربما يقولُ أحدُهم : اشهدوا عليَّ أنني لا أُحالِلُ فلاناً من وقوعه في عِرْضي لا دنيا ولا أخرىٰ .

وهـٰذا الخلقُ ما رأيتُ له فاعلاً في أقراني ، ولا يقدر على التخلُّق به إلا من رضيَ بعلم اللهِ تعالىٰ فيه ولم يطلبْ مقاماً عند أحد من أهل الدنيا ، أما مَنْ طلبَ مقاماً عند الخَلْق فالتخلُّقُ بذلك من أصعبِ ما يكونُ ؛ فإنه كلما يريدُ يبني له مقاماً وجَاهاً في قلوب الخَلْقِ . . كلما يهدُّ ذلك مَنِ استغابَهُ ونقَّصَهُ في المجالس .

ثم من أقلِّ ما يحصل عند مَنْ سمع عدوَّهُ وهو يذكره بالعيوب تَشَخُّصُ تلك العيوبِ في ذهنه ، فكلما يريد تعظيمَهُ يتذكر ما قاله ذلك العدوُّ ، فيقِلُّ التعظيمُ .

فيتعيَّنُ علىٰ من ليس له حالٌ يحميه ، أو من كان كثيرَ الاحتمال ويشفع عند الأمراء . . أن يأذنَ لأحد من إخوانه الصادقين أن يقابلَ ذلك العدوَّ حتىٰ

يردَّهُ ؛ تخفيفاً للإثم ، وخوفاً من تكدير ذلك الضعيفِ ، بخلاف من له حالٌ يحميه

ومن خالف في ذلك قَلَّ قَبولُ شفاعاتِهِ عند الحُكَّام إذا قبلوا تجريحَ ذلك العدو فيه كما جربنا ذلك .

فدُرْ يا أخي مع الشريعة حيث دارتْ ، وتحمَّلْ أذىٰ أصحابِكَ لك ، وقل : الحمدُ لله الذي لم يؤذوا غيري ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[صبرُهُ علىٰ مخالطة مَنْ يدَّعي محبَّتَهُ كاذباً]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : تطويلُ روحي علىٰ عدوي إذا خالطني وادَّعىٰ محبتي كاذباً ، فلا أفضحُهُ قط بقولي له تُكذِّب في محبتي ، بل أُوافقُهُ علىٰ دعواه ، وأصيرُ أقول للناس فلانٌ يحبُّنا ، مع أخذ حذري منه غايةَ الحذَرِ ؛ لأني أعلم أنه إنما خالطني ليُحصيَ عليَّ زلَّاتي ؛ حتىٰ يهجوَني بها حالَ غيظه وغضبه عليَّ

وقد صار هـٰذا النوعُ في الخَلْق الآن كثيراً ، فيُظهِرُ أحدُهم الكلامَ الحلو والمحبةَ حتىٰ كأنه من أعز المحبين ، ثم في أسرع مدة يصيرُ كلامُهُ أمرَّ من الزَّقُّوم ، وفي كلام الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (من خدعنا في الله انخدعنا له) ، انتهىٰ[1] ، وفي كلام الحكماء الأُوَل : (العاقلُ من يُقدِّم التجريبَ قبل التقريبِ)

وقد جرَّبتُ أنا بحمد الله تعالىٰ من أهل هـٰذا الزمانِ شدائدَ ، فأقبلتُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١ / ٢٩٤) من قول سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

عليهم من غير تجريب ، ثم توحشوا وصاروا أعداءً ، حتىٰ إن بعضَهم إذا عجز عن شيء يؤذيني به . . يرميني بالبهتان والزورِ ، وفي كلام أبي الفتح البستي رحمه الله تعالىٰ[(١)] [من البسيط]

مَنْ عاشرَ الناسَ لاقىٰ منهُمُ نَصَباً فجُلُّ إخوانِ هـٰذا العصرِ خَوَّانُ
مَنِ استنامَ إلى الأشرارِ نامَ وفي قميصِـهِ منهُـمُ صِـلٌّ وثعبـانُ

ومن « لامية العجم »[(٢)] [من البسيط]

ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني حتَّىٰ أرىٰ دولةَ الأوغادِ والسفلِ
هـٰذا جزاءُ امرئٍ أقرانُهُ درجُوا مـنْ قبلِـهِ فتمنَّىٰ فُسحـةَ الأجـلِ
فاصبِرْ لها غيرَ مُحتالٍ ولا ضجرٍ في حادثِ الدَّهرِ ما يُغني عنِ الحِيلِ
أعدَىٰ عدوِّكَ أدنىٰ مَنْ وثقتَ بهِ فحاذرِ الناسَ واصحبْهُمْ علىٰ دَخَلِ
فـإنَّمـا رجـلُ الـدُّنيـا وواحـدُهـا مَنْ لا يُعوِّلُ في الدُّنيا علىٰ رَجُلِ
وحُسْـنُ ظنِّـكَ بـالأيـامِ مَعْجَـزةٌ فظُنَّ شرّاً وكنْ منها علىٰ وَجَلِ
غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغَدرُ وانفرجتْ مسافةُ الخُلفِ بينَ القولِ والعملِ
ويا خبيراً على الأسرارِ مُطلِعاً اصمُتْ ففي الصَّمتِ مَنْجاةٌ مِنَ الزَّللِ

إلىٰ آخر ما قال ، فتأملْ ذلك واعملْ به ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

---

(١) ديوان أبي الفتح البستي القسم الخامس (ص١٠٢) ، وفيه

من عاشر الناس لاقىٰ منهمُ نَصَباً لأن سـوسَهُـمُ بغـيٌ وعـدوانُ
ومـن يُفتـشْ عـنِ الإخـوان يقلهـم فجُلُّ إخوان هـٰذا العصر خَوَّانُ

والصِّلُّ : بالكسر : هي الحية التي لا تنفع منها الرُّقية

(٢) ديوان الطغرائي (ص٥٥) .

[عدمُ عتبه علىٰ إخوانه في انقطاعهم عنه ؛ خوفاً من تكليفهم زيارتَهُ]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : عدمُ معاتبتي لأحد من الإخوان إذا غاب عني سنةً وأكثرَ ؛ فلا أقول له قط ما قطعَكَ عنّا ؟ ولا أقولُ : إنك أوحشتَنا كثيراً[١] ، ولـٰكن نقولُ : أستغفر الله علىٰ ترك زيارتِكم ، علىٰ أني إنما أفعلُ ذلك تحمُّلاً عنِ الإخوان ؛ خوفاً من أن يفهموا من قولي أنني أحثُّهم على التردُّد إليَّ ، وفي ضمن ذلك عزُّ نفسي وذلَّةُ إخواني ؛ لكوني أحثُّهم علىٰ أن يترددوا إليَّ دون أن أتردَّدَ أنا لهم ، فعذري عذرُهم ، اللهم إلا أن أقصدَ بنحو قولي (أوحشتمونا كثيراً) مداواتَهم ؛ لأجل إشاعة بعضِ الحسدةِ مثلاً أننا متشاحنون يبغض كلٌّ منا صاحبَهُ ، فلا حرج في ذلك

ثم لأي شيء يُطالِبُ الفقيرُ الناسَ بكثرة تردُّدِهم إليه ، ولا يطالب هو نفسَهُ بذلك ، مع أنَّ من شرطه : أن يرىٰ نفسَهُ دون جميع أصحابِهِ ؟!

وسمعت سيدي علياً الخواصَ رحمه الله تعالىٰ يقول : (لا تعتبْ علىٰ أحد في انقطاعه عنك استهانةً لك فضلاً عن انقطاعه لعذر ، إلا أن تعرفَ من نفسك المكافأةَ له بالتردُّدِ إليه بقدر ما تردَّدَ إليك) انتهىٰ .

وقد وقع لي أن بعضَ الإخوان المعتقدين لامَ بعضَ مباشري الديوان على انقطاعه عني بعد أن كان يكثرُ التردُّدَ[٢] ، فاستحيا مني غايةَ الحياء ،

---

(١) في النسخ : (وإنما) بدل (ولا) ، والمثبت يقتضيه السياق .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٢) : (عاتب شخصاً من أكابر الدولة) بدل (لام بعض مباشري الديوان)

فما جاءني حتىٰ دبَّرَ بعقله حيلةً ظَنَّ أنها تدخل عليَّ ، وحلف بالطلاق الثلاثِ أنه أكثرُ اعتقاداً من جميع مَنْ هو حولي ليلاً ونهاراً ، فوقع في عدة محرماتٍ بسبب ذلك العِتابِ ، وصار إثمُ ذلك في عنق مَنْ كان سبباً لذلك لو لم يكن إلا حلفه بالله باطلاً ، فلا تعاتِبْ يا أخي أحداً على انقطاعه عنك إلا لمصلحة شرعيَّةٍ ، والحمد لله ربِّ العالمين

[شهودُهُ أنه لم يوفِ بعهود الله إلا بالاسم فقط]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ شهودي في نفسي أنني لم أوفِ قط بشيء من عهود الله تعالىٰ إلا بالاسم فقط ، دون إتياني به علىٰ وجه الكمالِ ، وذلك من أعلىٰ مقاماتِ الرجالِ من المريدين الصادقين ، وبه يترقَّون إلىٰ مقاماتِ الرجالِ من كمل العارفين ، وكان سيدي أحمد بن الرفاعي يقول : (كمِ انقطعَ مريدٌ عن الخير مِنْ ظنه بنفسه الخيرَ ، لا سيما إن كان له أصحابٌ يصدِّقونه علىٰ دعاويه الكاذبةِ ؛ فإنه يهلك بالكلية)

وكان سيدي عبدُ القادر الجِيليُّ يقول : (كَمْ طيَّرتْ طقطقةُ النعال حول الرجال من عقل ، وكم أذهبتْ من دين !) انتهىٰ[1]

وقد كثرتِ الخيانةُ في هـٰذا الخلق من غالب المتصوفة ، فكلٌّ واحد يظن بنفسه أنه أكملُ مَنْ في بلده ؛ فلذلك قَلَّ انتفاعُهم ببعضهم بعضاً ، وانقطعوا عن الترقِّي ، فالحمد لله الذي لم يجعلْنا كذلك ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر « حالة أهل الحقيقة مع الله » (ص٩٤) ، فالقول للشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله تعالىٰ .

[حفظُهُ لصحبة من أكل معه خبزاً أو ملحاً]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : اعترافي بالعجز عن القيام بواجب حقِّ مَنْ أحسنَ إليَّ ولو بلقمة واحدة ، وعدمُ خيانته في شيء من أموره ، وإنما ذكرنا ذلك من جملة المننِ ؛ لعزة الوفاءِ به في هـٰذا الزمانِ ؛ فترى الواحدَ يأكلُ مع صاحبه كذا كذا ألفَ رغيف[1] ؛ فلا يحفظ له حقّاً ، ولا يرىٰ له عليه فضلاً ، لا سيما إذا وقع بينه وبينه عداوةٌ ؛ فإنه لا يخلي ولا يبقي شيئاً رآه فيه من النقائص إلا ويُفشيه ويذكرُهُ بين أعدائه ، بل ربما سعىٰ به إلىٰ حاكم يسفكُ دمَهُ .

وقد أخبرني سيدي عليٌّ الخواصُ أن هـٰذا الخُلُقَ كان في ولاة الظلمة واللصوص في الزمن الماضي[2]

ثم حكىٰ : أن الحجاجَ أراد قتلَ إنسان ، وبسط النَّطع ، وجاء السيافُ ، فقال ذلك الإنسانُ للحجاج أريد منك شيئاً تفعله معي هيِّناً عليك ثم اقتلني بعد ذلك ، فقال وما هو ؟ قال تماشيني سبعَ خطواتٍ ، ففعل ، فقال له : قد صرتُ معدوداً من أصحابك في هـٰذه الخطواتِ ، وأنت أكرمُ مَنْ وفَّىٰ بحق صاحبِهِ ، فتركه الحجاجُ انتهى .

وحكىٰ لي أيضاً : عن الشاطر حمورٍ كبيرِ اللصوص في زمن السلطان قايتباي ـ وقد تطلَّبَهُ السلطانُ سنينَ حتىٰ أمسكه وجرَّسَهُ هو وأصحابُهُ في مصرَ

---

(١) في (أ) وحدها : (نصف) بدل (رغيف) .

(٢) في « المنن الكبرىٰ » (وقد كان هـٰذا الخلق في اللصوص إلىٰ أيام السلطان قايتباي رحمه الله تعالىٰ) .

علىٰ جمال وقتلَهُ ـ : أنه دخل هو وعشرةٌ من أصحابه علىٰ تاجر ليلاً بالقرب من جامع الغمري ؛ اسمه المرجوشي ، ففتح التاجرُ عينَهُ وهو نائمٌ مع زوجته علىٰ سرير ، فوجد الشاطرَ حموراً علىٰ رأسِهِ ، فظنَّ أنه يقتله ، فقال : لا تخفْ يا خواجا ، إنما الصبيانُ يطلبون منك الغداءَ فقط ، فقال لكم الغداءُ وكلُّ خير ، فقال : كم أنتم ؟ فقال : أحدَ عشرَ نفساً ، فدخل هو وحمورٌ الخزانةَ ، فأخرج لكل واحد ألفَ دينار ، فقالوا له : انظرْ كم مالُك وأعطنا عُشرَهُ ، فقال هو عشرةُ آلاف ، فقالوا يكفي ألفٌ ، فأعطاهم ألفاً ، فقالوا له : عدَّاك العيبُ يا خواجا ، ما كان أملُنا فيك ذلك كلَّهُ .

فوضع كلُّ إنسان نصيبَهُ في عبِّهِ وخرجوا ، فتخلَّفَ منهم شخصٌ ، فرأىٰ حُقّاً من فضة يضيء على الرَّفِّ[1] ، فأخذه ووضعه في حجزته[2] ، ثم غلبتْهُ نفسُهُ أن يفتحَهُ وينظرَ ما فيه ، فوجد فيه شيئاً أبيضَ ناعماً ، فذاقه فإذا هو مِلْحٌ ، فقال هـٰذا ملحٌ ، فسمع بذلك حمورٌ ، فقال : ردُّوا ما معكم ، فوالله ؛ ما نخون شخصاً ذاق صاحبُنا عنده المِلْحَ ، فردُّوا الألفَ دينار ، فسألهمُ الخواجا في مئة دينار يتقاسمونها فأبوا . انتهىٰ ، هـٰذه حكايةُ سيدي عليٍّ الخواص رحمه الله عن المرجوشي صاحب الواقعةِ .

فانظرْ يا أخي الآن في أصحابك ، لا تكاد تجدُ أحداً منهم يُوفِّي بما وفَّىٰ به هـٰذا اللصُّ مع أنه معدودٌ من الفساق ! فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم .

---

(١) الحُقُّ : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما

(٢) الحُجْزة : مَعقِد الإزار من الإنسان .

[كراهتُهُ لمن ينقل إليه النقائصَ في حقه أو حقِّ غيره]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ كراهتي مَنْ ينقل إليَّ النقائصَ في حقي ، وكثرةُ الزجر له عن ذلك ، وتكذيبُهُ ولو علمت أنه غيرُ كاذب ؛ سدّاً لباب نقل الكلام إليَّ ، وربَّما بلَّغَهُ لي حالَ قيام نفسي وتخلُّفِ العناية الربانيةِ عن حفظي ؛ فيُدخِلُ عليَّ التكدُّرَ ، وما هـٰكذا فِعْلُ المحبين

ثم إنهُ يقال للناقل : إن كنت تعتقد صدقَ ما نقلتَهُ عن غيرك . . فانقله عن نفسك أولىٰ ، وإن كنت تعتقدُ أنه كَذِبٌ فلِمَ تنقل لنا الكذبَ ؟!

[مطلبٌ
في مفاسدِ تصديق النمام]

ثم في تصديقي له عدَّةُ مفاسدَ

أحدُها : تخلُّفُ العناية الربانية عن نصرتي إذا كنت ممن يطالبُ بحقه في الدنيا

وثانيها فتحُ باب الحقد عليَّ إذا صبرت علىٰ ذلك العدوِّ ولم أقابله بنظير فِعْلِهِ ؛ فأصيرُ أتذكر ذلك كلَّ قليل ، ولا يخفىٰ ما في الحقد من مقت الله تعالىٰ

وكثيراً ما أشرط علىٰ من يريد صحبتي ألا يُبلغني قط عن أحد من المسلمين إلا خيراً ؛ فأقول له لا ينبغي لمن يدَّعي المحبةَ أن يُدخِلَ علىٰ محبوبه غمّاً ولا همّاً ، بل إذا سمع في حقه ما يَغُمُّ قلبَهُ أبدلَهُ بضده مما يشرح قلبَهُ وحكاه له ؛ طلباً لمرضاة الله تعالىٰ

وفي وصية النبيِّ صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه « وقرِّبْ بينهم » ؛ يعني : بين المسلمين « إذا تباعدُوا »[1] ، وفي الحديث مرفوعاً : « ألا أدلُّكم علىٰ شرِّ عبادِ اللهِ ؟ قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قال شرُّ عبادِ اللهِ المَشَّاؤونَ بالنميمةِ ، المفرِّقونَ بينَ الأحبةِ ، الطالبونَ للبُرآءِ العيوبَ »[2] ، وفي الحديث أيضاً « لا تُبلِّغُوني عن أصحابِي إلا خيراً ؛ فإنِّي أُحبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدرِ »[3]

وقد جرَّبنا أن كلَّ من أصغىٰ إلىٰ ما ينقلُهُ النمامُ. كثُرتْ عداوتُهُ للناس ، بخلاف مَنْ كان بالضدِّ من ذلك ؛ إذ لا يَسْلَمُ أحدٌ من سبِّهِ في غيبته ، حتى السلطانُ ، ولو أنه كَذَّبَ النمامَ لقلَّتْ عداوتُهُ للناس .

وقد وقع أن الناسَ نقلوا النميمةَ بين سيدي الشيخِ أبي الفتح الغمري وبين أولادِ الطُّريني في المحلة الكبرىٰ وأكثروا ، فألهمَ اللهُ تعالىٰ سيدي أبا الفتح أن كلَّ مَنْ نقل إليه نميمةً يأمره بالجلوس ، ثم يرسلُ إلىٰ مَنْ نقل النمامُ عنه ، فإذا حضر قال له في وجهه : هـٰذا نَقَلَ عنك كذا وكذا ، هل هو صحيح ؟ فيكلح النمامُ[4] ، ثم لا يعود إلىٰ مثلها ، فلما علم النمَّامون ذلك انقطع الكلامُ ، وهـٰذا من بابِ ظُلْمٍ دون ظلم ، والحمد لله ربِّ العالمين .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢٥٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، والبراز في « مسنده » (٦٦٣٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٧) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٦٩٧) ، وفيهما : (العنت) بدل (العيوب) .

(٣) رواه أبو داود (٤٨٦٠) ، والترمذي (٣٨٩٦) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) كَلَحَ : تكشر في عبوس

[إجلالُهُ لكلام الله تعالىٰ وكلام النبيِّ ﷺ وكلامِ الأئمة المجتهدين]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ إجلالي لكلام الله تعالىٰ ، وكلامِ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، وكلامِ الأئمة المجتهدين ؛ فلا أكتب كلامَ الأدنىٰ بقلم أكتبُ به كلامَ الأعلىٰ إلا سهواً ، فللقرآن عندي قَلَمٌ ، وللحديث عندي قلمٌ ، ولكلام الأئمة عندي قلمٌ أعرفه وأَمِيزُه عن غيره ، وكذلك لكلام الوليِّ عندي قلمٌ ، ولمراسلات الكشاف ومشايخِ العرب عندي قلمٌ ، وللمكَّاسينَ عندي قلمٌ

وهـٰذا خلقٌ ما رأيتُهُ في أحد من أقراني ، ولا بلغني فِعْلُهُ إلا عن قاضي العسكر محمدِ بن عبد الكريم الروميِّ فسح الله تعالىٰ في أجله للمسلمين ، فبلغني أنْ للتفسير عنده قلم[1] ، وللنحو والمنطق عنده قلم ، وفي الحديث « إنَّ اللهَ تعالىٰ يُنزِلُ العبدَ عندَهُ حيثُ أنزلَهُ من نفسِهِ »[2] ؛ يعني : من التعظيم والمراقبةِ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كثرةُ توجيهه لما صحَّ نقله عن الصوفية]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : كثرةُ توجيهي لما صحَّ نقلُهُ عن الصوفية ، وردُّ كلِّ ما لا يليق بمقامهم إذا نُقِلَ عنهم ؛ لكونهم مَرْجعَ الناس في طريق القوم ، كما أن العلماءَ مرجعُ الناس في علوم الشريعةِ الظاهرةِ لكل أحد ،

---

(١) أن هنا : شأنية ، والجملة بعدها خبر

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٤) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٥٠١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

فإذا شككْنا في نَقْلٍ أُضيف إليهم عرضناه علىٰ مقامهم في الخوفِ والأدبِ ، فإن قَبِلَهُ مقامُهم أوَّلناه ، وإلا رددناه .

فمما صحَّ نَقْلُهُ عن القوم : قولُ الشيخ أبي يزيدَ : (ملكي أعظمُ من ملكك)[1] ؛ أي : طاعتُك لي يا ربِّ باستجابة دعائي أعظمُ من طاعتي لك في امتثال أمرِكَ ؛ لأنك عظيمٌ وأنا حقيرٌ ، وأنت سيِّدٌ وأنا عبدٌ

ومما صحَّ نَقْلُهُ عن أبي يزيدَ أيضاً : قوله (بطشي أشدُّ من بطشِ اللهِ)[2] ، حين سمع قارئاً يقرأ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج ١٢] ؛ أي لأن بطشَ العبد بأخيه مثلاً غيرُ مخلوط بشيء من الرحمة لضيقه ، وما هـٰكذا بطشُ الحقِّ تعالىٰ ؛ لأنه مخلوطٌ بالرحمة ، فكان بطشُهُ تعالىٰ أخفَّ وألطفَ من بطش عبيده ؛ لأنه أرحمُ بالعبد من أمِّهِ وأبيه ، واللهُ أعلمُ

ومما صحَّ عنه أيضاً : قولُهُ لبعض مريديه : (لَأَنْ تراني مرةً خيرٌ لك من أن ترىٰ ربَّكَ ألفَ مرة) ؛ أي لأن المريدَ لو تُصوِّرَ أنه رأى اللهَ لم يعرفْهُ ، وإذا لم يعرفْهُ فكأنه لم يَرَهُ ، بخلاف رؤيةِ أبي يزيدَ ؛ فإنه يعرفُهُ ، فينتفعُ بأدبه وبالأخذ عنه ، واللهُ أعلمُ

ومن ذلك قول الغزالي رحمه الله (ليس في الإمكانِ أبدعُ مما

---

(١) قال ابن عربي في « الفتوحات المكية » (٢/ ٤١٠) : (لقيت سليمان الدنبلي فأخبرني في مباسطة كانت بيني وبينه في العلم الإلـٰهي ، فقلت له أريد أن أسمع منك بعض ما كان بينك وبين الحق من المباسطة ، فقال : نعم ، باسطني يوماً في سري في « الملك » فقال لي : إن ملكي عظيم ، فقلت له : ملكي أعظم من ملكك ، فقال لي كيف تقول ؟! فقلت له : مثلك في ملكي وليس مثلك في ملكك ، فمن أعظم ملكاً ؟! فقال : صدقت) .

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٧٩)

كانَ)[١] ؛ أي لأن القدرةَ لا تتعلق إلا بالممكنات ، فلا يقالُ هل يقدِر الحقُّ تعالىٰ أن يخلُقَ إلـٰهاً قديماً ؛ لأنه سؤال مهملٌ ، فلو خلق تعالىٰ ما خلق فلا يخرج عن رتبة الحدوثِ ، فهو كلامٌ في غاية التحقيق

ومن ذلك أيضاً : قول الشبلي رضي الله عنه (ذُلِّي عطَّلَ ذُلَّ اليهودِ)[٢] ، ومعناه : أني أَعْرَفُ بالله تعالىٰ من جميع اليهود ؛ وذلك لأن ذُلَّ الذليل يكون علىٰ قَدْرِ معرفتِهِ بعظمة من ذَلَّ له ، ولا شك أن الشبليَّ رضي الله عنه يعرفُ من عظمةِ الله تعالىٰ ما لا يعرفه اليهودُ ، فذُلُّهُ لله تعالىٰ أعظمُ من ذُلِّهم له تعالىٰ ، فافهم[٣]

ومن ذلك قولُهُ أيضاً (ما في الجُبَّةِ ـ بالموحدة ـ أو ما في الجنة ـ بالمثلثة ـ إلا الله)[٤] ، روايتان عنه ، ومعنىٰ ذلك ما في ذاتي فاعلٌ حقيقةً إلا اللهُ تعالىٰ ، وفعلي ولو كان منسوباً إليَّ شرعاً . . فهو خَلْقُهُ تعالىٰ ، وهو معنىٰ ما هو جارٍ علىٰ ألسنة الخلائق كثيراً : (ما في الكونينِ إلا اللهُ) ، أو (ما في الوجودِ إلا اللهُ) ، وليس مرادُهم نفيَ غيرِهِ تعالىٰ من الوجود ، فافهم

---

(١) إحياء علوم الدين (٨/ ٢٤٤)

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٣٨٥) .

(٣) في « إتحاف السادة المتقين » (٨/ ٣٥٧) : (ذلي في نفسي بمعرفتي بقدرها وبقلة ما يحصل لي من الخير منها وبعجزها عن قيامها بما عليها لربها وبسرعة نقضها لعهدها . . عطل ذلَّ اليهود المذكور في قوله تعالىٰ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران : ١١٢] ، فهم أذل الخلق ، والمعنىٰ ذلي في نفسي أعظم من ذلِّ اليهود في أنفسهم ؛ لأن ذلهم قهريٌّ ، وذلي عن علمٍ بما عليه نفسي من النقص . . .) .

(٤) أورده الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص٥٧) ، وابن عربي في « الفتوحات المكية » (٣/ ٨٠) ، وهو منسوب للحسين بن منصور الحلاج .

ومن ذلك : قولُ أبي يزيدَ : (سافرتُ في اللهِ) ، ومعناه : سافرتُ في حبِّ الله ؛ أي : من باب قوله تعالىٰ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ [الحج : ٧٨] ، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ونحوَ ذلك .

ونظيرُ ذلك : قولُ بعضهم (سافرت من الله إلى الله) ليس المرادُ بذلك مسافةً ؛ لاستحالة التحيُّزِ على الله تعالىٰ ، وإنما المرادُ : ابتداءُ سفري إلى انتهائه بعون الله وقدرتِهِ ، لا بحولي وقدرتِي ، فافهم .

ومن ذلك : قولُ الجنيد رضي الله تعالىٰ عنه : (العارفون لا يموتون ، وإنما يُنقَلون من دار إلىٰ دار)[١] ، ومعناه أنهم لمَّا جاهدوا في نفوسهم حتىٰ ماتت شهواتُها . . حَيِيتْ قلوبُهم ، فلما جاءهمُ الموتُ المعروفُ فكأنهم لم يموتوا ؛ لسهولة طلوعِ روحِهم ؛ إذ ليس لهم عَلاقةٌ في الدنيا يلتفتون إليها حتىٰ يصعبَ عليهمُ الانتقالُ عنها ، وما صعب طلوعُ الروح علىٰ أهل الدنيا إلا لتعلُّقِ نفوسهم بشهواتها وحجابِهم عن نعيم الآخرة ، وأما الأكابرُ فإن وقع لهم صعوبةٌ في طلوع الروح . . فإنما ذلك لحبهم طاعةَ الله تعالىٰ في الدنيا والقيامَ بشعائر دينه ؛ حباً في الله ، أو اهتماماً بقومهم الذين كانوا يرشدونهم حين ماتوا ولم يقعْ لهم كشفُ حجاب ، ونحوَ ذلك من الأغراض الصحيحةِ ، فافهم .

ومن ذلك قولُ بعضهم : (حدَّثني قلبي عن ربي)[٢] ، ومعناه : حدَّثني

(١) أورده اليافعي في « مرآة الجنان » (٢/ ١٥٩) من قول شابٍّ لأبي سعيد الخراز رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده ابن عربي في « الفتوحات المكية » (١/ ٢٨٠) من قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالىٰ .

قلبي من طريق مَلَكِ الإلهام عن ربي ، فليس مرادُ هـٰذا القائل : أن الله تعالىٰ كلَّمه كما كلَّمَ موسىٰ عليه الصلاة والسلام

[مطلبٌ

في الفرق بين وحي الأنبياء ووحي الإلهام للأولياء]

ومن الفرق بين وحي الأنبياء وبين وحي الإلهام للأولياء أن الوليَّ يُلهَم بواسطة رقائقِ مَلَكِ الإلهام من غير أن يراه ، ثم لو قُدِّرَ أنه يراه لا يراه حالَ كلامه له ؛ إذ لا يَجمعُ بين رؤيةِ المَلَكِ وسماعِ كلامه إلا نبيٌّ ، وأما الوليُّ فإن رأى المَلَكَ لا يراه مُكلِّماً له ، وإن سمع كلامَهُ لا يرىٰ شخصَهُ ؛ وذلك لأن النبيَّ متبوعٌ والوليَّ تابعٌ ؛ لأنه يدعو بشرع نبيه الذي تقرَّرَ ، والنبيَّ يريد ينشئ شرعاً وينسخَ آخرَ أو يقرِّرَهُ ، فاحتاج إلىٰ مزيد تأييد وتحقيق[1]

ومن ذلك : قولُهم : (دخلنا حضرةَ الله ، خرجنا من حضرةِ الله) ليس مرادُهم حضرةَ الله التي دخلَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء مثلاً ، وإنما مرادُهم بحضرة الله حيث أُطلِقتْ في كلامهم . . شهودُهم وعلمُهم بأن اللهَ تعالىٰ يراهم وهم بين يديه كما يليق بجلاله ، فما دام أحدُهم يشهد هـٰذا المشهدَ فهو في حضرة الله ، فإن حُجِبَ عنه فقد خرج من تلك الحضرةِ كما مرَّ تقريرُهُ في هـٰذا الكتاب مراراً[2]

ومما لم يصحَّ عن القوم : ما أشاعه بعضُهم عن الإمام الغزالي أنه قال : (إن للهِ عباداً لو سألوه ألا يقيمَ القيامةَ لأجابهم ولم يقمْها) انتهىٰ ، وهـٰذا

---

(١) في (ب ، ج) : (وتحقق) .

(٢) انظر (ص٢٧١) .

الكلامُ يجب علىٰ كل عاقل عدمُ نسبته إلى الإمام وتنزيهُهُ عنه ؛ لأنه يردُّ النصوصَ القاطعةَ في الكتاب والسنَّةِ.

وكذلك مما لم يصحَّ عن القوم : ما أشاعه بعضُهم عن الشيخ الوليِّ أبي يزيدَ البسطامي أنه قال (إن آدمَ عليه السلام باع حضرةَ ربِّه بأكلة) ؛ فإن أبا يزيدَ معدودٌ من الكُمَّل ، ويَعرِف وجوبَ الأدب مع الأولياء فضلاً عن الأنبياء ، فكيف ينطق بهـٰذا الكلام الجافي ؟!

وكذلك مما لم يصحَّ عنه ما نَقَلَهُ عنه بعضُهم من قوله : (لو شفَّعني اللهُ تعالىٰ في الخَلْق أجمعين . . لم يكن ذلك عندي بكبيرِ أَمْرٍ ، فإن غايةَ الأمر أنه شفَّعني في لقمة من طينٍ) انتهىٰ[١] ، وهـٰذا كلامٌ لا يصدر من أحد شَمَّ رائحةَ الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف ينطق به الشيخُ أبو يزيدَ رضي الله عنه ؟! والحمد لله ربِّ العالمين

[وجودُ جماعة يكرهونه بغير حقٍّ مع صبره عليهم]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ : وجودُ جماعة يكرهوني ، كما وقعَ لغيري من الصالحين وكُمَّلِ العارفين فضلاً عن مثلي ؛ وذلك ليحصلَ لي كمالُ الأجر بالصبر علىٰ كراهتهم لي ، لـٰكن بحمد الله لا أعرفُ أحداً يكرهني من الفقراء الصادقين والعلماءِ العاملين أبداً ، إنما يكرهُني مَنْ في قلبه زيغٌ وحسدٌ ، ومثلُ ذلك لا يقدحُ في كمال مقامِ العبد ، لا عند الله ولا عند العقلاء ، كما تقدم بسطُهُ أوائلَ هـٰذا الكتابِ وغيرِهِ[٢]

---

(١) أورده ابن عربي في « الفتوحات المكية » (٤/ ٥٧) .

(٢) انظر (ص٢١٥)

وقد قال الإمام الغزاليُّ : (لو كان الإنسانُ في مقام الإمام عليٍّ بن أبي طالب أو مقامِ الإمام الشافعيِّ . . لا بد أن الناسَ فيه فريقان فريقٌ يمدح ، وفريقٌ يذمُّ)[(١)]

وقد كان شخصٌ يكره الإمامَ علياً رضي الله عنه وينقصه في المجالس ، فجمعهما مجلسٌ ، فصار يمدحُ الإمامَ علياً وهو ساكتٌ ، فلما فرغ قال له الإمامُ رضي الله عنه : (أنا فوق ما في نفسك ، ودون ما تقول) انتهى[(٢)] ، فليس المذمومُ في العبد إلا تتابعَ الألسنة كلِّها فيه بالذمِّ كما قاله الإمام مالكٌ رضي الله تعالىٰ عنه . انتهى[(٣)]

واعلمْ يا أخي أنَّ من الخواصِّ من تُورَثُ بُغضتُهُ خَلَفاً عن سلف ، فيصير الناس يكرهونه وينقصونه ويسبونه ، مع أن أحداً منهم لم يجتمعْ به قط ، ولا ثَبَتَ عندهم ما ينقصونه به من طريق صحيحة ، ومثلُ ذلك يكون من جملة التهوُّر في الدين

ثم إن كان ولا بد من الإنكار فلينكرِ الإنسانُ ذلك الكلامَ بقطع النظر عن نسبته إلىٰ قائل معيَّنٍ حتىٰ يثبت ذلك عنه من طريق صحيحةٍ ، فينكرُ عليه ذلك محبةً فيه ، وشفقةً عليه من أن يكون من الأئمة المضلينَ كما مرَّ تقريره مراراً[(٤)] ، لا بغضاً فيه علىٰ وجه التشفِّي كما يقع فيه بعض الجهلة .

وكلامُنا إنما هو مع من يخشى اللهَ تعالىٰ ، وإلا فأيُّ مستند لمن يُبغِض أبا

---

(١) رواه الإمام الغزالي في « الإحياء » (٦/ ٣٨١) بالمعنىٰ
(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٢٧٦) عن حماد بن سلمة رحمة الله تعالىٰ
(٣) روى الخبر أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣٢١) عن مطرف رحمه الله تعالىٰ .
(٤) انظر (ص١٨٦ ، ٤٤٠)

بكر الصديق رضي الله عنه أو عمرَ ، أو أحداً من الأئمة المجتهدين ، أو أحداً من كُمَّل العارفين ؛ كالشيخ محيي الدين بن العربي ، وسيدي عمرَ بنِ الفارض ، رضي الله عنهما ؟! فليس لأحد في بُغْضِهِ لهٰؤلاء دليلٌ يستند إليه صحيحٌ ، وإنما هي نزغاتٌ شيطانية[1] ، فأما الرافضةُ : فاستندوا في ذلك إلىٰ نزغاتٍ شيطانية قطعاً

وأما مَنْ يُنكر على الأئمة والعارفين فلجهله بمنازعهم ؛ فإنه دونهم بيقين في العلم ، فكان الواجبُ عليه التسليمَ ، ولٰكن قد أراد اللهُ تعالىٰ أن يُجريَ لهٰؤلاء الأئمةِ الأجرَ بعد موتهم فيأخذوا عملَ من كَرِهَهم ونقصَهم ، ولا يَدَعُوا له عملاً صالحاً يستحقُّ القَبولَ إلا ويأخذونه منه

فكان هٰؤلاء نُوَّاباً للأولياء في العمل الصالح بعد موتهم ما دام الإنكارُ واقعاً من الناس عليهم ، وفي الحديث « إنَّ العبدَ لَيجدُ في صحيفتِهِ يومَ القيامةِ أعمالاً صالحةً لم يعملْها ، فيقولُ : يا ربِّ ، إنِّي لم أعملْ ذلكَ ! فيقولُ اللهُ تعالىٰ لهُ : هٰذهِ أعمالُ مَنِ اغتابَكَ ، أمرتُ ملائكتي أنْ تنقلَها إلىٰ صحيفتِكَ »[2] ، أو ما هٰذا معناه .

وهٰذا من أعظم نِعَمِ الله تعالى علىٰ خواصِّ عبادِهِ ، فيا سعادةَ من احتمل الأذىٰ من الخَلْق إكراماً لمن هم عبيدُهُ ، والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) نزغ الشيطان : وساوسُهُ ونَخْسُهُ

(٢) روىٰ أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١) عن عبد الرحمٰن بن مهدي يقول : (لولا أني أكره أن يُعصى الله لتمنيت ألا يبقىٰ في هٰذا المصر أحدٌ إلا وقع فيَّ واغتابني ، وأيُّ شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته يوم القيامة يعملُها ولم يعلم بها) .

[هروبُهُ من تحمُّل مننِ الإخوان الذين تركوا مطالعةَ درسهم لزيارته]

ومما منَّ الله به عليَّ هروبي من تحمُّل مِنَنِ الإخوان وإن لم يمنُّوا عليَّ .

ويقعُ لي في بعض الأوقات أنني أجعلُ ثوابَ عملي في ذلك اليومِ في صحائفِ مَنْ ترك درسَهُ من العلماء وأتىٰ لزيارتي ، حتىٰ لا يفوتَهُ شيءٌ من الخير بسببي ، وإن كان درسُهُ أكثرَ أجراً من جميع أعمالي ذلك اليوم ، ولٰكن قد فعلتُ معه قدرتي ، قال الله تعالىٰ ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة ٢٦٥]

ثم لا يخفىٰ أنه ليس أحدٌ علىٰ يقين من قَبولِ عمله حتىٰ يجعلَهُ في صحائف غيرِهِ ، وإنما ذلك من باب حسنِ الظنِّ بالله عز وجل أن يتقبَّلَ من عبده عملَهُ صدقةً منه وفضلاً

علىٰ أني لا أفعلُ ذلك إلا إذا لم أجدْ معي شيئاً من الدنيا أكافئُ به مَنْ زارني مثلاً ، فإن رأيتُ عندي شيئاً من الدنيا أعطيتُهُ له ، وكثيراً ما أُعطي طالبَ العلم ردائي ، أو أملأُ له كمَّهُ تمراً أو كعكاً أو شيئاً من الفواكه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ تزوجه لامرأة عالم ، أو صالح ، أو أمير ؛ أدباً معهم]

ومما منَّ الله به عليَّ : احترامي لأصحاب المراتبِ العاليةِ ؛ من علماءَ ، وصالحين ، وأمراءَ ؛ فلا أتزوجُ لهم قط امرأةً طلَّقوها أو ماتوا عنها ، ولو رضيتْ هي بذلك لا أرضىٰ أنا بذلك ؛ أدباً مع مَنْ فارقها ممَّنْ ذُكِرَ

وقد يكون ذلك الوليُّ من أهل التصريفِ النافذِ ، فيَطعُنني بحربة في المنام فيقتلني ، كما وقع لسيدي محمدٍ الشويميِّ مع مَنْ أخذ زوجتَهُ بعد موته ؛ فإنه جاء إلى الزوج وطعَنَهُ بحربة ، فمات لوقته ، وكذلك القاضي الذي عَقَدَ له عليها

وكما وقع لسيدي بهاء الدين المجذوبِ بباب الشعرية لَمَّا جُذِبَ ، وطالتِ المدةُ علىٰ زوجته نحوَ سبع سنين وهي تنتظر إفاقتَهُ ، فلم يُفِقْ من الجذب ، وأبى القضاةُ أن يفسخوا عليه ؛ خوفاً من العطب ، فتقدَّمَ قاضٍ لذلك ولم يَخَفْ عاقبةَ ذلك وقال : تزويجُ مثل هـٰذه جائزٌ ، ثم عقد لشخص عليها ، فأصبحا ميتين كليهما ، وأصبح القاضي أعمىٰ أخرسَ بالفالج ، فمات من يومه ، وهـٰذا الأدبُ قليلٌ من الفقراء مَنْ يفعلُهُ .

ولما تزوَّجَ بعضُ الفقراء زوجةَ السلطان طومان باي بعد موته . . عاب عليه سيدي عليٌّ الخواصُ ذلك وقال (من المروءة أن يفعلَ الإنسانُ من الأدب مع من مات مثلَ ما كان يفعلُهُ معه حالَ الحياة ، وإن كان الشارعُ أباح مخالفةَ ذلك الأدبِ) فافهم .

وقد بلغنا : أن سلمانَ الفارسيَّ رضي الله عنه طلبوه أن يؤمَّ بأكابر الصحابة ، فقال (كيفَ نؤمُّ بقوم قد هدانا الله علىٰ أيديهم ؟!) انتهىٰ[1] فالحمد لله ربِّ العالمين .

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ١٨٩) عن أبي ليلى الكندي رحمه الله تعالىٰ .

[حفظُهُ لمقام العالم أو الصالح إذا خاصمه أحدٌ بغير حقٍّ]

ومما منَّ الله به عليَّ حفظي لمقام العلماءِ العاملين والفقراءِ الصادقين ؛ فلا أجرحُ مقامَهم بشيء ، حتىٰ إنه إذا قام علىٰ أحد منهم فاسقٌ يؤذيه . . لا أقول : ما سببُ الخصام الذي وقع بين فلان وفلان ؟ بل أقول ما بالُ الفاسق الفلانيِّ بسيدي الشيخ حتىٰ يؤذيَهُ هـٰذا الأذىٰ كلَّهُ ؛ فإنه لا يُسمَّىٰ مخاصمةً إلا ما تقابل به الناسُ وآذوا بعضَهم بعضاً ، وأما إذا كان الفقيرُ مثلاً ساكتاً فلا يُسمَّىٰ مخاصِماً ؛ اسم فاعل

ثم من الجهل العظيمِ بمقام الشيخ أن يقال له امشِ معنا إلىٰ فلان الفاسقِ . . نُصْلِحْ بينك وبينه ، ويجرُّونه إليه بغرور ، ويقولون أنت يا سيدي الشيخ طويلُ الروح ، وأنت تَسَعُ ألفاً من مثلِ هـٰذا الفاسقِ ، وربما أطاعهم الشيخُ في ذلك ، فيقول الناسُ لولا أن الشيخَ ظالمٌ ما ذهب إلىٰ فلان ! ويُثبِتون في حقه جميعَ ما كان ذلك الفاسقُ افتراه عليه ، مع أن الشيخَ لم يُسمَعْ منه قط كلمةٌ في حقِّ ذلك الفاسقِ ، إنما الفاسقُ هو الذي تسلَّطَ عليه بلا حقٍّ شرعيٍّ ، وكان الواجبَ علينا أن نقومَ بواجب حقِّ الشيخ ونسحبَ ذلك الفاسقَ له ونُطيِّبَ خاطرَهُ عليه

وقد وقعَ لي مثلُ ذلك مع شخص معروفٍ بباب البحر ؛ تسلَّطَ عليَّ بلا موجِبٍ ، فما ترك عيباً إلا رماني به بين الناس ، ولم أُقابلْهُ بكلمة واحدةٍ ، فأردتُ أني أذهبُ إليه وأصالحه ، فجاءني جماعةٌ من أصدقائه في العلانية وأعدائِهِ في السرِّ وقالوا لي : إن جماعةً عنده من البراشة عملوا هـٰذه المكيدةَ له وقالوا نحسن له الإتيانَ إليك ، فإذا جاء أشعنا بين الأكابر أن فلاناً جاء

إليك واعتذر ، وكشف رأسَهُ ، فيثبت عند الناس أنك أعلىٰ مقاماً منه ، ويقومُ لك الجاهُ ، ويثبت في حقه الوقوعُ في أعراض الناس انتهىٰ ، فشاورتُ الإخوانَ في ذلك ، فأَبَوا عن تمكيني من الذهاب إليه ، فأوصيتُهم بضبط لسانهم في حقه والدعاءِ له بالمغفرة ، ولم أذهبْ إليه ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ وعده لأحد بهدية ؛ خوفاً من عدم تيسُّر إرسالها له]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ وعدي لأحد بهدية أرسلها له ؛ خوفاً أن تَعُوقَني القدرةُ عن إرسالها له عاجلاً ، فيتشوَّشَ بالانتظار

ثم إن وقع مني تعويقٌ لا أرىٰ لي فضلاً عليه ، بل أرىٰ له الفضلَ عليَّ بصبره على الانتظار مع اشتغال الخاطرِ ، وذلك أرجحُ عندي من الهدية ولو كانت ألفَ دينار .

وكذلك كان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله تعالىٰ لا يُعلِم أحداً قط بهدية قبل إرسالها ، ويقول : (إرسالُها له علىٰ غفلة أحلىٰ وأهنأُ)

ووالله ؛ إني لأتعوَّق عن صلاتي على النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي جعلتُ ذلك فيه ، أو عنِ الدعاء لإخواني الذين ماتوا ، ثم إني أصلي عليه وأدعو فلا أرىٰ فِعْلَ ذلك يجبُر خَللَ انتظارِهم لذلك علىٰ عادتهم .

فأسأل اللهَ أن يذكِّرَنا حقوقَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحقوقَ إخواننا ؛ لنأتيَ بها في الوقت الذي تعودوا خدمتنا لهم فيه ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

[صحبتُهُ لجماعة من غير اجتماع بهم]

ومما منَّ الله به عليَّ صحبتي لجماعة من العلماء العاملين والفقراءِ الصادقين من غير اجتماع ، فيَودُّوني وأودُّهم ، ويُراعوني في الغيب وأُراعيهم ، بحكم الإرث للإمام أويسٍ القرنيِّ رضي الله تعالىٰ عنه في صحبته البرزخية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتثالِ أمره ، والإيمانِ به من غير اجتماع

وعلىٰ ذلك القدمِ جماعةٌ من السلف الصالح ؛ كانوا يتراسلون بالسلام ولا يجتمع بعضُهم ببعض ؛ خوفاً من الوقوع في التزيين والرياء ، ومن ذكرِ كلٍّ واحد منهم لصاحبه أحسنَ ما عنده من الكلام

وممن صحبتُهُ هـٰذه الصحبةَ إلى الآن : الأخُ الصالح الإمامُ العالـم الزاهد الشيخُ شمسُ الدين البرهمتوشيُّ الحنفي ، والشيخُ الإمام الصالحُ العابد الزاهد الشيخُ أحمدُ السُّوهاجي رضي الله عنهما ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[حفظُهُ الأدب مع الشيخ والمعلم]

ومما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ : حفظي للأدب مع شيخي في الطريق أو معلمي للحِرْفة[1] ؛ فإنه أعطاني المادَّةَ التي عرفت منها سائرَ ما عرفت من تلك الصنعةِ ، فمَن نسيَ فَضْلَ معلمه عليه فهو لئيمٌ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وهـٰذا الخُلقُ قَلَّ من يتخلق به في هـٰذا الزمانِ ؛ فغالبُ الناس يتعلمون

---

(١) في (ب ، ج) : (للخرقة) .

العلمَ والحِرَفَ من مُعلِّمهم ، ثم بعد قليل يسعَون على وظيفة معلِّمهم ، أو يخرجون عن طاعته وينسونَ فَضْلَهُ عليهم

وقد كان الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه يقول (مِنْ شرِّ الناس اللئيمُ ؛ إذا ارتفع جفا أقاربَهُ ، وأنكر معارفَهُ ، وأنكر فَضْلَ مُعلِّمِهِ)[1] ، وفي المثل السائر : (كلُّ شيء إذا زرعتَهُ نفعك ، إلا ابنَ آدم ؛ إذا زرعتَهُ قلعَكَ)

وقد اختار المحققون دوامَ دخول المريد تحت طاعة شيخِهِ ولو ساواه في المقام في ظنه ؛ لأنه لو حقَّقَ النظرَ لوجد مُعلِّمَهُ أرفعَ منه في المقام ، وأصفى منه وأرقَّ ، **وغايةُ أمر المريد** : أنه ساوى مُعلِّمَهُ في جسم الأعمال لا في أرواحها ؛ إذ الكاملُ بعد كماله يكون الغالبُ عليه الأعمالَ القلبية ، والمشاهدَ الربانية ، وربما يكون حضورُهُ مع الله في الأمور العادية أعلى وأرقى من حضور المريد مع ربِّهِ في الأمور الشرعيَّةِ

فعُلِمَ : أن الكاملَ لا يُظهِرُ من أعماله الصالحةِ إلا بقدر ما يقتدي به الناسُ فيها ، والباقي يُخفِيه عنهم ؛ لئلا يُقِيم عليهم الحُجَّةَ بذلك بين يدي الله تعالى .

وقد كثُرت الخيانةُ من الناس لهذا الخُلق ، والعاقلُ مَنْ لزم الأدبَ مع معلِّمه حيّاً وميتاً ، غَيبةً وحضوراً ؛ فإن من قطع معلِّمَهُ قطع اللهُ عنه إمدادَهُ ، **والحمد لله ربِّ العالمين**

(١) روى الخبر ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الأئمة الفقهاء » (ص٩٩) .

[عدمُ تكدُّره من صاحبه إذا خالط من يكرهه وحملُهُ علىٰ محمل حَسَنٍ]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ تكديري من صاحبي إذا خالط مَنْ يكرهُني ولازَمَهَ ملازمةَ الأصدقاء لبعضهم بعضاً ؛ لأنه ربما كان قصدُ صاحبي بذلك مسارقةَ من يَكرهُني حتىٰ يزيلَ ما عنده من العداوة والكراهة ، ولا تجوزُ المبادرةُ إلىٰ حَمْلِ الصاحب علىٰ أنه إنما خالط ذلك العدوَّ لمحبته فيه لغرض نفساني ، كما مرَّ تقريرُهُ أوائلَ هـٰذه المنن[1]

وأما قول بعضهم[2] : [من الوافر]

إذا صافَىٰ صديقُكَ مَنْ تُعادي ... فقـد عـاداكَ وانفصـلَ الكـلامُ

فلا ينافي ما قلناه ؛ لأنه ليس لي عدوٌّ من المسلمين أكرهُهُ ، وإنما الناسُ همُ الذين يعادوني ؛ حسداً كما مرَّ إيضاحُهُ مراراً[3] ، فليس عندي عداوةٌ لأحد من جانبي حتىٰ يصافيَهُ صديقي

وأيضاً : فإن المصافاةَ أمرٌ قلبي لا اطلاعَ لنا عليه في هـٰذه الدار

وإيضاحُ قولي (إنه ليس لي أحدٌ أكرهُهُ من المسلمين) أن الناسَ قسمان : محبٌّ شاكر ، وكارِهٌ ذامٌّ ، وكلاهما مُحسِنٌ إليَّ ؛ الأولُ بإحسانه إليَّ بالمحبة والشكر ، والثاني بكراهته لي وذمِّهِ بغير حقٍّ ، فهـٰذا أحسن إليَّ

---

(١) انظر (ص١٩٣ ، ٤٢٣) .

(٢) أورده الوطواط في « غرر الخصائص الواضحة » (ص٥٤٣)

(٣) انظر (ص١٧٨) .

في الآخرة بإعطائي حسناتِهِ ، وتحكيمي فيها كما مرَّ إيضاحُهُ مراراً[1] ، فما ثَمَّ إلا مَنْ هو محسنٌ إليَّ ، فكيف أكرهه وأعاقبُهُ ؟![2]

ثم إن خفتُ علىٰ صاحبي أن يؤذيَهُ ذلك العدوُّ بلسانه إذا زارني أو زرتُهُ . . تركت زيارتَهُ ومنعتُهُ من زيارتي ؛ شفقةً عليه من أن يؤذيَهُ ذلك العدوُّ لإظهاره محبتي بزيارته لي ، مع أنني مشتاق إليه

وهـٰذا خلقٌ غريب فاعلُهُ في أقراني ، بل بعضُهم يبادر إلىٰ عداوة من زار أحداً من أعدائه ، ويصيرُ يقطع في عِرْضه في المجالس ، وبعضُهم يصير يُقسِمُ على الناس بالله أنْ لا تزوروا قط فلاناً ؛ لأني أكرهه ! ولعمري ؛ إن الصلاحَ بعيدٌ علىٰ مثل هـٰؤلاء ، بل رأينا الفسقةَ إذا كره أحدُهم أخاه . . يخفي ذلك ويُبجِّل أخاه في المجالس ، ولا يعرفُ أحدٌ يأخذ منه كلمةً تؤذي أخاه .

واعلم : أن العداوة مشتقَّةٌ مِنْ : عَدَا فلانٌ عن محبة فلان وطريقِهِ حتىٰ أبعد عنه ، وكان أصل ذلك من يومَ أخذ اللهُ تعالىٰ علينا الميثاقَ ونحن في عالم الذَّرِّ[3] ، فما كان وجهاً لوجه فلا يصحُّ بينهما عداوةٌ أبداً ، وما كان ظهراً لظهر فلا يصحُّ بينهما محبةٌ أبداً ، وما كان وجهاً لظهر فصاحبُ الوجه محبٌّ ، وصاحبُ الظهر سالٍ عن المحبة[4] ، وما كان جنباً لجنب أو

---

(١) انظر (ص١٧٨ ، ٢١٦)
(٢) في (ب ، ج) : (وأعاديه) بدل (وأعاقبه) .
(٣) أخرج الحديث أبو داود مختصراً (٤٧١٦) عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالىٰ ، والترمذي (٣٠٧٥) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٤) في « المنن الكبرىٰ » (٢/٦٠٧) : (وصاحب الظهر مبغضٌ سالٍ) .

بازورار كان بحَسَبِ ما يقابل ذلك الجزءَ منهما صداقةً وعداوةً

ثم لا يخفىٰ : أن من شرط العارف بالله تعالىٰ أنه لا يرىٰ شيئاً في الوجود إلا ويرى اللهَ قبله أو معه ، ومن كان هـٰذا مشهدَهُ فلا يجد أحداً يكرهه حتىٰ يرسلَ عداوتَهُ عليه ؛ لأنه يجد الحقَّ تعالىٰ حاجباً له عن شهود غيره من غير مقارنة معينة ، فافهم ؛ فإن هـٰذه ميزانٌ تطيش على الذر ؛ لأنها تُفلس غالبَ مَنْ يدعي العرفانَ في هـٰذا الزمان ، **فالحمدِ لله ربِّ العالمين** .

[صلاتُهُ الاستخارة كلَّ يوم وليلة]

ومما منَّ الله به عليَّ : صلاتي للاستخارة في كل يوم وليلة[١] ، بقصد أن تكون حركاتي وسكناتي كلُّها ذلك اليوم أو تلك الليلة صالحةً ، وكان علىٰ ذلك سيدي عليٌّ الخواصُ ، وقبله الشيخ أبو العباس المرسيُّ

[مطلبٌ
في صفة صلاة الاستخارة]

وصورةُ ذلك : أن يصليَ العبدُ ركعتين عند ارتفاع الشمس قدر رمح وبعد صلاة المغرب ؛ يقرأ في الركعة الأولىٰ : (فاتحةَ الكتاب) ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ . . . ﴾ الآية [القصص : ٦٨] ، و﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ . . . ﴾ إلىٰ آخر السورة ، وفي الركعة الثانية : (فاتحةَ الكتاب) ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ

---

(١) هـٰذه الصيغة ذكرها ابن عربي في « الفتوحات المكية » (١/ ٥٣٧) كما في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٣) ، وسيأتي (ص٦٠٧) من هـٰذا الكتاب شرحُ دعاء الاستخارة نقلاً عن الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالىٰ .

إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . . . ﴾ الآية [الأحزاب : ٣٦] ، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . . ﴾ إلىٰ آخرها .

فإذا سلم دعا بدعاء الاستخارة الواردِ ، ويقول بدلَ الموضع الذي أُمِرَ العبدُ أن يُعيِّنَ فيه حاجتَهُ : (اللهمَّ ؛ إن كنتَ تعلم أن جميعَ ما أتحرَّكُ أو أسكن فيه في حقي ، وحقِّ أهلي ، وولدي ، وإخواني ، وجميعِ مَنْ شاء اللهُ في ساعتي هـٰذه إلىٰ مثلها من اليوم الآخَر أو الليلةِ الأخرىٰ . . خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، وعاجله وآجله ؛ فاقدرْهُ لي ، ويسِّرْهُ لي .

وإن كنتَ تعلم أن جميعَ ما أتحرَّكُ فيه أو أسكن في حقي وحقِّ غيري من أهلي ، وولدي ، وسائر مَنْ شاء الله من ساعتي هـٰذه إلىٰ مثلها من اليوم الآخَر أو الليلة الأخرىٰ . . شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، وعاجله وآجله ؛ فاصرفْهُ عني ، واصرفْني عنه ، واقدر ليَ الخيرَ حيث كان ، ثم رضني به) انتهىٰ .

قال أشياخُ الطريق : فمَنْ فعل ذلك كلَّ يوم وليلة لا يتحرك قط في حركة ولا يسكنُ ، ولا يتحرَّك أحدٌ في حقه كذلك . . إلا كان ذلك خيراً له بلا شكٍّ .

قالوا : وقد جرَّبنا ذلك ورأينا عليه كلَّ خير ؛ لما فيه من الأدب مع الله تعالىٰ والتفويضِ إليه .

قالوا : وإذا فرغ من دعاء الاستخارة فليشرعْ فيما استخار في فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ مع انشراح الصدر ؛ فإنه إن كان له فيه خيرٌ فلا بد أن اللهَ تعالىٰ يسهل عليه أسبابَهُ إلىٰ أن يحصل وتكونَ عاقبتُهُ محمودةً ، وإن كان عليه فيه شرٌّ

فلا بد أن يضيقَ منه صدرُهُ ويتعذَّرَ عليه أسبابُ تحصيله ، وحينئذ يعلم أن اللهَ تعالىٰ قد اختار له تركَهُ ، فلا يتألم لفقده ، بل يحمد ربَّهُ علىٰ ذلك ؛ لأنه أعلمُ بمصالحه من نفسه

قال الشيخُ محيي الدين بنُ العربي في « الفتوحات المكية » : (ومعنىٰ « وأستقدرك » أي إن كان لي في فعله خيرٌ فأقدِرْني علىٰ تحصيله « بقدرتك » التي تخلُقها في عبادك ، « فإنَّك تقدِرُ » أن تخلقَ ليَ القدرةَ علىٰ تحصيله ، « ولا أقدِرُ » ؛ أي : ليس لي قدرةٌ أحصِّله بها

ومعنىٰ « وأنت علاَّم الغيوب » : أي : ما غاب عني مما تعلمُهُ أنت دوني

ومعنىٰ « فاقدرْهُ لي » أي : فاخلقْهُ من أجلي ، وأظهِرْ عينَهُ علىٰ يدي .

ومعنىٰ « فاصرفْهُ عني » أي لكوني استحضرته في خاطري حتىٰ إنه اتصف بضَرْبٍ من الوجود ، وهو تصوُّرُهُ في خاطري ؛ أي فلا تجعله يا ربِّ حاكماً عليَّ بظهور عينه علىٰ يدي مع أنه ليس لي خيرٌ في فعله .

ومعنىٰ « واصرفْني عنه » أي حُلْ بيني وبين وجوده في خاطري ، واجعل بيني وبينه الحجابَ الذي بين الوجود والعدم ، حتىٰ لا أستحضرَهُ ولا يحضرَني

ومعنىٰ « واقدرْ ليَ الخيرَ حيث كانَ » : أي لأنك عالمٌ بالأماكن التي ليَ الخيرُ فيها من غيرها

ومعنىٰ « ثم رضِّني بهِ » أي اجعلْ عندي السرورَ والفرحَ بحصوله أو بتَرْكِهِ) انتهىٰ[1]

فاعلمْ ذلك واعملْ به ولو في كل أسبوع ، أو شهرٍ ، أو سنة ، أو سنتين ، أو أكثرَ ، وتقول في الدعاء اللهمَّ ؛ إن كنت تعلمُ أن جميعَ ما أتحرَّكُ فيه أو أسكن من يومي هـٰذا إلىٰ مثله من الأسبوع الآخر ، أو من الشهر الآخَرِ ، أو من السنةِ الأخرىٰ ، وهـٰكذا ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ إسكاتِ من يقرأ القرآن ، أو يذكر أو يقرأ العلم . . إلا بعد قوله بقلبه : دستورٌ يا ألله]

ومما منَّ الله به عليَّ أني لا أُسكِت الجماعةَ إذا كانوا في قرآن ، أو ذكر ، أو قراءة علم . . إلا بعد قولي بقلبي دستورٌ يا ألله أن أُسكِتَ عبادَك وأنقلَهم إلى الخير الآخَر مثلاً ، أو : دستور يا ألله أُسكتهم ؛ لكونهم ملُّوا وضجِروا ، ونحوَ ذلك .

وهـٰذا الخلقُ قَلَّ من يراعيه من الفقراء والعلماءِ ؛ فيسكتون الذاكرَ أو طالبَ العلم عن قراءة الحديث أو الفقهِ من غير استئذان للحق تعالىٰ ، غافلين عن هـٰذا المشهد

فاعمل يا أخي على التخلق بهـٰذا الأمرِ بكثرة المراقبة ، وشاوِرِ الحقَّ جل وعلا في كل أمورِكَ كما يشاور الولد الموفَّقُ والدَهُ أو معلِّمَهُ في كل أموره ، حتىٰ في دخوله الخلاءَ .

---

(١) الفتوحات المكية (١/٥٣٨) .

وهٰذا الأمرُ وإن لم تصرِّحِ الشريعةُ بالأمْر به فهو أدبٌ تقبله الشريعةُ ولا تردُّهُ ، وكلُّ ما كان أدباً مع الخَلْق فالحقُّ تعالىٰ بذلك أولىٰ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[إذنُ الشيخ محمد الشِّنَّاوي للمؤلف بأخذ العهد على المريدين]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ : وقوعُ الإذن من شيخي وقدوتي إلىٰ حضرة الله عز وجل ؛ الشيخِ محمدٍ الشِّنَّاوي رحمه الله . . لي أن أجلس لتلقين الذِّكرِ وتربيةِ المريدين ، وذلك بحضرة جمعٍ عظيمٍ في مولد شيخه ابن أبي الحمائل السَّرْويِّ

وكان من جملة الحاضرين الشيخ شهابُ الدين بنُ حجر الهيتمي المقيمُ بمكة الآن ، والشيخ أحمدُ السواحُ ، وأخوه الشيخ عليٌّ ؛ أولادُ الشيخ عبد الرزاق بكوم النجار بالغربية ، فقال بصريح لفظه : اشهدوا عليَّ كلُّكم أني أذنت لولدي هٰذا أن يُلقِّنَ الذِّكر ، ويربِّيَ المريدين ، ويُلبسهم الخرقةَ علىٰ سبيل التشبُّهِ بالقوم ، ثم أنشد هٰذا البيت : [من الطويل]

أهيمُ بليلىٰ ما حييتُ وإنْ أمتْ أُوَكْلُ بليلىٰ مَنْ يهيمُ بها بعدي

ثم سافر صباحَ تلك الليلة وهو مريضٌ ، فقلنا : خاطرُك علينا ، فلعل ذلك آخرُ العهد ، فقال لا بدَّ من الاجتماع قبل الموت ، فتحرَّكتِ النفسُ إلى السفر إليه ، ونسيت قوله (لا بد من الاجتماع) ، فدخلتُ عليه وهو محتضِرٌ في محلة روح ، ففتح عينيه لي وقال : أسأل اللهَ تعالى أن يسترَكَ بين يديه ، فمات تلك الليلةَ ، رضي الله عنه .

ثم تسامع الناسُ بأن الشيخ أَذِنَ لي ، فجاؤوا إلىٰ مصرَ فوجاً فوجاً

يطلبون مني التلقينَ ، فشاورت سيدي علياً الخواصَ ، فقال لي لا تفعلْ ؛ لأن هـٰذا زمانٌ قد قَلَّ فيه الصدقُ لطلب الطريق

ثم إنه غلب عليَّ جماعةٌ وسألوني بالله ، فلقنتهم ، فلم يفلحْ منهم غيرُ واحد ، وكانوا ثلاثين نفساً ؛ تصديقاً لكلام سيدي عليٍّ الخواصِ

وقد كان الشيخ محمدٌ السِّرْويُّ يقول : (لقَّنتُ نحوَ عشرة آلاف نفس ، فلم يفلح أحدٌ منهم غيرُ محمد الشِّنَّاويِّ) انتهىٰ ، مع أني قلت لسيدي محمدٍ لمَّا أذن لي يا سيدي ؛ لستُ بأهل لمثل ذلك ، فقال : (لا يا ولدي ، بل أنت أهلٌ له ، وقد أَذِنَّا لك ، فإنِ انشرح صدرُك للجلوس للطريق فقد صار معك الإذنُ ، وإن لم ينشرح صدرُكَ لذلك لفقد الشروط . . فأنت أعلم إذ ذاك بالحال)

قال : (وإنما فعلتُ معك ذلك ؛ خوفاً عليك من أن تجلسَ بلا إذن ، فتكونَ لقيطاً في الطريق ولو بالاسم فقط) انتهىٰ

ثم قال لي (وقد يزرع الشيخُ في قلب مريدِهِ زرعاً فلا يثمر إلا بعد موتِ الشيخ ، وقد يُرضِعُ الشيخُ طفلاً ويكونُ فِطامُهُ علىٰ يد غيره ، فلا تَرْمِ يا ولدي من كلام الفقراء بشيء) انتهىٰ

وهـٰذه النعمة من أكبر سُترةٍ لي بين العباد ؛ فإن الجالسَ للطريق بغير إذن لقيطٌ في الطريق لا أبَ له

وقد كثر هـٰذا النوعُ في أهل هـٰذا الزمان ، فقَلَّ منهم من أَذِنَ له شيخُهُ ، فضلُّوا وأضلُّوا ؛ لأنهم لم يَصِلوا إلىٰ مقام المريدين فضلاً عن العارفين ، كما أوضحنا ذلك في كتاب « قواعد الصوفية »

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يقول (مثالُ من يفتح باب المشيخة اليومَ مثالُ مَنْ فتح المكتب يُقرئ الأطفالَ بعد عصر يوم الخميس ، أو مثالُ من يريد تقطيرَ جمال الحاج إذا رجعوا من الحج وأشرفوا على نخيل البركة[١] ؛ فلا يُجيبه أحدٌ إلىٰ ذلك ولا يتيسر له ، بخلافهم في ابتداء السفر ؛ فإنهم يسألون جماعةَ أمير الحاجِّ بفلوس أن يقطرَ لهم جمالَهم ويشكروا فَضْلَهُ علىٰ ذلك) انتهىٰ . **فالحمد لله ربِّ العالمين .**

[محبتُهُ الجلوسَ في طرف الحلقة]

ومما منَّ الله به عليَّ : محبةُ نفسي للجلوس في طرف الحَلْقةِ دون صدرها ، لا سيما في المحافل ، ولو أني جلست في صَدْر الحَلْقة فجاء شخصٌ وحرَّكني برجله وقال لي : قمْ يا فاسق ، ليس هـٰذا مكانَكَ . . لانشرحت لذلك

وهـٰذا الذي قلناه أعلىٰ في المقام ممن يقول صَدْرُ الحَلْقةِ عندي وطَرَفُها سواء ؛ لأنه قد يدَّعي هـٰذا المقامَ علىٰ سبيل الفَرْض والتقدير ، بخلاف من جلس في الصَّدْرِ ثم أقيم منه ، فافهم .

ومرادُنا بالانشراح : عدمُ إظهار التكدُّرِ ؛ لأن التكدُّرَ زال بالكلية ؛ لأن العارفَ ولو شهد أنه بين يدي الله تعالىٰ ، وذهبَ عنه محبَّةُ القيام له ، ولم يطلبْ عند الخَلْق مقاماً . . ففيه جزءٌ يحبُّ المَقام عند الخَلْق ما دام في هـٰذه الدار ؛ إذ لا بد فيها من حجاب ، كما أشار إليه قولُ الإمام عليٍّ رضي الله

---

(١) قطر البعير إلىٰ غيره : ضمَّهُ إليه وساقهما مساقاً واحداً .

تعالىٰ عنه (لو كشف الغطاء . . ما ازددت يقيناً)[1] ، فصرَّحَ بأن هناك غطاءً ينكشف لصاحبه في حال صحته أو حالِ احتضاره للموت .

ثم لا يخفىٰ : أن أهلَ الله تعالىٰ إنما يجلسون في طرف الحَلْقة ؛ لشهودهم نفوسَهم أنهم أحقرُ الناس ، لا يكادون يخرجون من هـٰذا المشهدِ ، ولو أقام المعتقدون لهم الأدلةَ علىٰ تفضيلهم . . ما التفتوا لهم ، بخلاف غيرهم ، فقد يجلس في طرف الحَلْقة ليقالَ (إنه متواضع) ، ويَتلذَّذُ بذلك القول ألذَّ مما يتلذَّذُ بقولهم : (فلانٌ من أهل العلم والدِّين) ، ولو علم أن الناس يحملونه على الرياء والسمعة . . لتكدَّرَ لذلك .

فاعمل يا أخي علىٰ تحصيل هـٰذا الخُلقِ الحَسَنِ حتىٰ لا ترىٰ لك مقاماً بين الناس . . لتخرج عن الرعونات وتتسارع إليك الرحمةُ ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[شفقتُهُ علىٰ دين إخوانه أكثرُ من شفقتهم علىٰ دين أنفسهم]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ : الشفقةُ علىٰ دين إخواني أكثرَ من شفقتهم علىٰ دين أنفسهم ، فإذا عرفتُ بالقرائن محبَّةَ أحدهم للقيام له . . لم أقم له ؛ خوفاً علىٰ دينه وعلىٰ ديني في مساعدتي له على الحرام ودخولِ النار كما ورد[2] ، اللهم إلا أن يترتبَ علىٰ عدم القيام له مفسدةٌ أعظمُ من مفسدة

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢٠٢/١٣) من قول سهل بن عبد الله رحمه الله ، وأورده ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٧/ ٣٤٤) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) روىٰ أبو داود (٥٢٢٩) عن سيدنا أبي مجلز رضي الله عنه قال : خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر ، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحبَّ أم يمثُلَ له الرجال قياماً=

القيام له ، فلنا القيام له ، ثم نسأل اللهَ تعالىٰ بتوجُّهٍ تامٍّ أنه لا يؤاخذه بذلك الذنبِ ، ويتوبُ عليه من الكِبْرِ ، ويُحبِّبُهُ في التواضع ، فيداوي نفسَهُ بالقيام له ، ونشفعُ له عند الله تعالىٰ

وهـٰذا هو اللائقُ فِعْلُهُ مع غالب أهل هـٰذا الزمانِ ، وأما عدمُ القيام فهو لائقٌ بمن لا يُخافُ من ترك القيام له مفسدةٌ يتعدَّىٰ ضررُها إلىٰ غيرها ، إنما يتأسف في نفسه فقط

ومن كلام الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : (سياسةُ الناس أشدُّ من سياسة الدوابِّ)[1] ، وقال أيضاً (لا تُقصِّرْ في حقِّ أخيك اعتماداً علىٰ مروءتِهِ) انتهىٰ[2] ؛ أي بل قُمْ بواجب حقِّهِ من قيامٍ وغيرِهِ ولو كره هو ذلك ؛ فعليه الكراهةُ ، وعلينا القيامُ بواجب حقِّه عادةً أو شرعاً ، فافهم ذلك ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[قلَّةُ زيارتِهِ للظَّلَمة إذا مرضوا إلا لعذر شرعيٍّ]

ومما أنعمَ الله تعالىٰ به عليَّ : قلةُ عيادتي للظلمة والولاةِ إذا مرضوا ، إلا لمصلحة ترجح علىٰ ترك عيادتهم .

[عيادتُهُ الفقيرَ الذي لا يؤبه له ، وتفقُّده بالإحسان]

كما أن من نِعَمِ الله تعالىٰ عليَّ : كثرةَ عيادتي للفقير الذي لا يؤبه له إذا مرض وحصل له ضرورةٌ ؛ بعدم من يخدُمه ويفتقدُهُ بالإحسان ، اللهم إلا أن

= فليتبوأ مقعدَهُ من النار » ، ورواه الترمذي (٢٧٥٥) ، وفيه (سرَّهُ ، يتمثل) بدل (أحب ، يمثُل) .

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٨٧)

(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٩٧)

يكونَ في مقام المريد الذي هو تحت التربيةِ ، فلنا تركُ عيادته وتركُ الإحسان إليه ؛ حتىٰ يتحوَّلَ باطنُهُ إلى الله تعالىٰ ، ويتخلَّصَ من استناده إلى الخَلْق ، ويحتاجُ ذلك إلىٰ ميزان دقيقٍ وكشفٍ صحيحٍ

فلا اعتراضَ على الأشياخ إذا تركوا عيادةَ مريدهم ؛ لأنهم لوفور شفقتهم على الخَلْق لا يتركون حقّاً إلا لحقٍّ أعظمَ من ذلك المتروكِ

فإياك أن تفتقدَ مريدَ الشيخ بشيء من حسنات الدنيا حالَ مرضه أو حاجتِهِ إلا بإذن شيخه ، وإياك أن تحسنَ إليه ثم تصيرَ تقطعُ في عِرْض شيخه بين الناس وتقولُ إن فلاناً الذي هو مريدُ الشيخ الفلانيِّ قد ضعُف وضاقت يدُهُ ولم يفتقدْهُ الشيخُ ولا أحدٌ من جماعته ! ولولا أني افتقدته لمات هو وعيالُهُ جوعاً ؛ فإنك غائبٌ عن مشهد شيخه ، ولو أنك أمعنت النظر لوجدت ما فعلَهُ شيخُهُ أنفعَ لذلك المريد مما فعلتَهُ أنت معه ، فالحمد لله ربِّ العالمين

فعُلِمَ : أنه لا اعتراضَ على العالِمِ والفقيرِ إذا لم يَعُدْ ظالماً إذا مرض ؛ لأن العيادةَ إنما شُرِعَتْ في حقِّ الأخ المسلمِ ، وفي « صحيح البخاري » وغيرِهِ مرفوعاً : « المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ »[١] ، فمن لم

(١) صحيح البخاري (١٠) ، صحيح مسلم (٤٠/٦٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وجاء في هامش (أ) (وفي « البخاري » [١٣٥٦] : « أنه صلى الله عليه وسلم عاد غلاماً يهودياً مريضاً وعرض عليه الإسلامَ ، فنظر الغلام إلىٰ أبيه مستشيراً له ، فقال له أبوه : أَطِعْ أبا القاسم ، فأسلمَ » ، فلعل الشيخَ نفعنا الله بمدده في الدارين يرىٰ تقييدَ العيادة للكافر بما إذا رجا إسلامَهُ ، أو بما إذا كان جاراً له كما هو الواقع في قصة الغلام) .

يسلَمِ المسلمون من لسانه ويده.. فلا علينا لومٌ في هجره، وإن كنا نحن أسوأَ حالاً منه، وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه (إذا لم يكن في أخيك نفعٌ لك.. فلا عليك من مقاطعته) انتهىٰ

فمن يؤذي الناسَ أولىٰ بالمقاطعة، مع أن مذهبَ الفقير الاعتمادُ على الله تعالىٰ في الدارين دون خَلْقه، فهو ولو جاءه نفعٌ علىٰ يد أحد من الولاة.. لا يقف معه، بل يرى الفضلَ لله تعالىٰ في تسخيره له حتىٰ نفعَهُ، فالحمد لله ربِّ العالمين.

[نصحُهُ لإخوانه ألا يسلكوا مسالكَ الرِّيب]

ومما منَّ الله به عليَّ عدمُ غفلتي عن إخواني إذا سلكوا مسالكَ الرِّيب، وأُعلِمُهم أن كلَّ من سلك مسالكَ التُّهم.. فلا يلومَنَّ من أساء به الظنَّ؛ فإن الشمسَ كما تحكُم بحرارتها على الأرض لا يمكن الأرضَ أن تردَّ حرارتَها عنها.. فكذلك مسالكُ التُّهم تحكُم علىٰ صاحبها بوقوع الناسِ في سوء الظنِّ به لا يمكنهم أن يحسنوا به الظنَّ إلا بتأويل بعيد.

وقد تقدَّم في هٰذه المنن أن أهلَ الله تعالىٰ لا يسيئون بأحد الظنَّ، وإنما هم يَحْذَرون من الناس كما يَحْذَرُ مَنْ يسيء بهمُ الظنَّ، فيعاملونهم كمعاملة مَنْ يسيء الظنَّ، لا أنهم يسيئون بهم الظنَّ[1]

فإذا رأوا مثلاً شخصاً اختلىٰ بامرأة.. يزجرونه أشدَّ الزَّجر؛ لمسارعة الإنكار عليه من غالب الناس، وربما قالوا عنه: إنه زنىٰ بها في تلك الخلوةِ، ويؤيد ذلك قولُ بعض العلماء: (إن كل خلوة بإصابة)

---

(١) انظر (ص٢٥٨).

وقِسْ علىٰ ذلك خلوةَ الأمرد مع من عُرِفَ بالفجور ، فلا يَحِلُّ تقريرُهما على الخلوة أبداً ؛ فإن الوقوعَ في الفجور بالأمرد ربما كان في حقٍّ بعضهم أقربَ من الوقوع في الفجور بالمرأة ؛ لكثرة تهوُّرِ الناس في ذلك دون الخلوة بالأجنبية ؛ فيقول إبليسُ للرجلين : بعيدٌ أن أحداً ينسُبكما إلى الفاحشة ، فيأمنون من وقوع الناس فيهما ، فيقعون ، ولا هـٰكذا المرأة .

وقد وقع أن فقيرين اجتمعا في خلوة عند سيدي محمدٍ الحنفيِّ ، فاشتبك ذَكَرُ الفاعل في المفعول كما يقع للكلب ، فكُشِفَ للشيخ عنهما ، فصبر عليهما من بكرة النهار إلىٰ قريب العصر ، فخاف عليهما أن يفوتَهما الظهرُ ، فتوجَّهَ إلى الله تعالىٰ وشفَعَ فيهما ، فتخلَّصا ، ثم تابا إلى الله تعالىٰ من ذلك اليوم ، وكانا يقولان قبل ذلك وهل تطيبُ نفسُ فقير علىٰ وجه الأرض أن يقعَ في عمل قوم لوط ؟! فما زال إبليسُ بهما حتىٰ وقعا في ذلك ، ولولا فتوَّةُ الشيخ عليهما لافتَضَحا وهلكا ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[الصبرُ علىٰ عِوَج الزوجة والخادم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ صبري علىٰ عِوَج حليلتي ؛ لعلمي بأنها خُلِقت من ضِلَعي في الأصل كما ورد[١] ، فهي كظلِّ الشَّاخص علىٰ حدٍّ سواء ؛ فإن كان الشاخصُ مستقيماً فالظلُّ قويم ، أو أعوجَ فالظلُّ أعوجُ ، ومن خفَّة العقل أن يشتغلَ الإنسانُ بتقويم الظِّلِّ وينسى الشاخصَ مع أنه الأصلُ

ثم إن الشاخصَ إذا كان عوجُهُ ظاهراً تبعه الظِّلُّ ، أو خفيّاً فكذلك ،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) ، ومسلم (١٤٦٨/ ٥٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فالمرأةُ تغمِز علىٰ شدة عوجِ زوجِها وخفةِ عوجِهِ

وقد كان الفضيلُ بن عياض رحمه الله يقول : (إني لأعصي أمرَ الله تعالىٰ ، فأعرفُ أثرَ ذلك في خُلُقِ حماري وخادمي وزوجتي كثرةً وقلةً ؛ فإن كان الذنبُ عظيماً . . عظمتْ مخالفتُهما لي ، وشَرَدَ مني الحمارُ ، وأَبَقَ مني الخادمُ ، ونشَزتِ الزوجةُ ، وإن كان الذنب صغيراً شرعاً كان الأمرُ في ذلك أخفَّ)[1]

واعلمْ يا أخي : أن الرجلَ مبتلىً بالزوجة علىٰ كلِّ حال ، سواءٌ لاقت بخاطره أو لم تَلِقْ بخاطره ؛ فإنها إن لاقتْ بخاطره ضربتْهُ بسهم مسموم في قلبه ، فأشغلته عن الله عز وجل ، وهو تعالىٰ غيورٌ ، لا يحبُّ أن يرىٰ في قلب عبده المؤمنِ أحداً ساكناً إلا إذا لم يشغلْهُ عنه ، وإن كانت المرأةُ غيرَ لائقة بالخاطر أصابتْهُ في ظاهر جسده ، وكدَّرت عليه معيشتَهُ ، ولم تُعِفَّهُ[2] ؛ فيبقىٰ يتعبُ وينفق وهو كارِهٌ .

فالعاقلُ من عمل علىٰ جِلاء مِرآةِ قلبِهِ حتىٰ أدرك عوجَ نفسه ، فقوَّمَهُ حتىٰ تستقيمَ له المرأةُ ، وأتى البيوتَ من أبوابها ، والحمد لله ربِّ العالمين .

[شكرُهُ لله تعالىٰ واستغفارُهُ إذا كثر الحسادُ والأعداءُ]

ومما منَّ الله به عليَّ : كثرةُ شكري واستغفاري إذا كثُر حسادي وأعدائي ؛ فأشكر اللهَ تعالىٰ من حيث وجودُ النعمة التي حسدوني عليها ، وأستغفرُ اللهَ من حيث وقوعُهم في الإثم بسببي وإن لم أقصدْ أنا ذلك ،

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ١٠٩) مختصراً .
(٢) في (ج) وحدها : (ولا تنفعه) .

وكذلك أستغفرُ اللهَ تعالىٰ لهم ؛ لوقوعهم في ذنب إبليسَ الذي خرج به من الجنة

ويحتاج صاحبُ هٰذا الخُلُق إلىٰ عيون ينظر بها ؛ ليعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولم أَرَ لهٰذا الخُلُقِ فاعلاً من أقراني ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[عدمُ قبوله هديةَ مَنْ تحمَّل عنه]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ قَبولي هديةً علىٰ أني أدعو لمريض أو لمن أصابَتْهُ مصيبةٌ ؛ لأني لستُ علىٰ يقين من قَبول دعائي حتىٰ آخذَ عليه أجراً ، وصاحبُ تلك الهديةِ لولا اعتقادُهُ في دعائي الإجابةَ . . ما أهدىٰ إليَّ شيئاً

ثم بتقدير أن الحقَّ تعالىٰ يُجيبُ دعائي . . فلا آخذُ علىٰ ذلك أجراً في الدنيا

وقد أرسل لي بعضُ ولاة مصرَ مالاً جزيلاً علىٰ يد إمامه لأدعوَ لولده ، فرددتُهُ ، فقال : خذه هديةً ، فقلت له العلَّةُ باقيةٌ ؛ لأنه لولا علةُ اعتقاد استجابة دعائي ما أهدى القاضي إليَّ شيئاً ، فقال لي : فرِّقْهُ علىٰ غيرك ، فقلت له : من جمع المالَ فهو أحقُّ بتفرقته ليخرج من عهدته يوم القيامة

فحكى الإمامُ ذلك للقاضي ، فحصل له اعتبارٌ عظيم ، ثم أرسل ذلك المالَ لغيري ، فبادر إلىٰ قَبوله وقال له : قد دعونا بحمد الله لشخص من أولاد الأكابرِ وكان قد أشرفَ على الموت فعافاه الله تعالىٰ ، فرجع الإمامُ ، فوجد الولدَ قد مات ، وافتَضَحَ ذلك الفقيرُ بدعواه استجابةَ دعائه ، وما كان ينبغي له ذلك ، **فالحمد لله الذي عافانا من ذلك** .

[حفظُهُ من تصرُّفِ أرباب الأحوال فيه]

ومما منَّ الله به عليَّ : حفظي من تصريف أرباب الأحوال فيَّ بمرض أو عزل أو سَلْبٍ ، مع كثرةِ مزاحمتهم في الشفاعات عند الحكام ، وكثرةِ معارضتهم فيمن أشفعُ فيه ؛ لكونهم أتمَّ نظراً مني ، ومع ذلك فيسامحوني ، وقَلَّ من يسَلَمُ منهم من الفقراء والعلماء .

وقد سبق لي معهم وقائعُ كثيرةٌ في أوائل دخولي طريقَ القوم ، ولـٰكن بحمد الله كلُّهم يحبوني اليوم ، لا أعرف أحداً منهم يكرهني ؛ ولذلك رتَّبتُ لهمُ الدعاءَ في الزاوية عقب قراءة السبع وعلى الكرسي

فمن وقائعهم معي : أن ثلاثةً منهم عارضوني ، فمكثتُ تسعةَ أيام بلياليها لا أنام ولا آكل ولا أشرب حتىٰ صار بدني كلُّهُ كأنه دُمَّلٌ عائنٌ ، وتهيَّأ للفتح ، ثم حصل الفرجُ علىٰ يد شخص اسمُهُ الشيخ محمدٌ المجذوبُ بباب زَوِيلَةَ ، وكان عُرْياناً ، فلقي ابنَ عمي الشيخ عبدَ السلام في طريق بركة الحاجِّ وقال : قد عرضنا حملةَ ابن عمك علىٰ ثلاثين وليّاً فأبوا ، ولـٰكن أنا أحملُها لله تعالىٰ ، ثم قال له : بخِّرِ ابنَ عمِّك الليلةَ ببخور حصى البان جاوي ، وإن شاء اللهُ تعالىٰ ينام هـٰذه الليلةَ ، فأخبرني ابنُ عمي بذلك ، فتبخَّرت كما قال ، فنمتُ تلك الليلةَ

ومن جملة مَنْ لم يحملْ عني : سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله ، وقال لأخي الشيخ أفضلِ الدين : (إياك أن تتحمَّلَ عن عبد الوهاب شيئاً مما هو فيه ، ودعْهُ يُدمِنْ علىٰ تحمل ما يأتيه من الشدائد) .

وكذلك طلع لي في تلك الواقعة الشيخ شعبانُ المجذوبُ المدفون بدرب البَزَادرة وقال لي (يقول الله عز وجل في التوراة : « يا عبدي ؛ تحمَّلْ ما يَرِدُ عليك مني ») ، ثم نَقَشَها لي في حائط البيت ، وكان هـٰؤلاء الثلاثةُ الذين عارضوني من الأعاجم ، وكانوا تحت المدرسة البَرْقوقية بخط بين القصرين

ومما وقعَ لي أيضاً : أن شخصاً من العجم أتىٰ إلىٰ مصرَ ، فمنعه أصحابُ النوبة أن يدخل مصرَ ، فجلس تجاهَ قبة الدوادار خارج الحسينية ، وصار يقول : أيشٍ ذنبي يمنعوني أن أدخلَ وعبدُ الوهاب يدخل وسطَ البلد ؟! فمكث يقول ذلك للمارِّين عليه نحوَ أربعين يوماً ، فاطلع علىٰ ذلك الشيخ محمدٌ الصوفيُّ بنواحي الفيوم ، فضربه وهو بالفيوم ، فمات ، فلما قدم مصرَ أخبرني بالواقعة وعاب عليَّ صبري علىٰ من يؤذيني ، وقال : (أنا مذهبي مقاتلةُ مَنْ قاتلني) ، رضي الله عنه .

ومما وقعَ لي أيضاً : أن شخصاً منهمُ التفَّ في عباءة واضطجع في مجاز الزاوية ثلاثةَ أيام بلياليها حتىٰ يجدَ فرصةً فيؤذيَني[1] ، وأنا لا أعلم به ، فدخل الشيخُ حسنٌ الريحاني ، فعلم ما جاء لأجله ، فضربَهُ بعصاةٍ وأخرجه من الزاوية ، فكان أقوىٰ حالاً منه ، ثم قال لي أما تتنبه لنفسك ؟! كيف يجيء إليك شخصٌ يعارضُك في مكانك ثلاثةَ أيام وأنت لا تشعر ؟! ومن ذلك اليوم ما عارضني بحمد الله أحدٌ منهم .

(١) مجاز الزاوية : ممرُّ ومعبر الزاوية .

وقد أخبرني سيدي عليٌّ الخواصُ : أن شخصاً تتبَّعَ شخصاً من الشام إلىٰ مصرَ ؛ ليجد فرصةً فيه فيقتله .

وقد طعنوا سيدي عليَّ الخواصِ في مشعره ، فلم يختم حتىٰ مات بها ؛ لكونه عارضَهم في الشفاعة عند ملكِ الأمراءِ

وأخبرني أخي الشيخ أبو العباس الحُرَيثي رضي الله عنه بأنه دخل جامع إصطنها بالغربية ، فبينما هو جالس وأهلُ البلد حوله نحوَ ثلاثِ مئة نفس . . إذ حصل له ثِقَلٌ في باطنه ، فكادت روحُهُ تزهَقُ[1] ، فقال : ايتوني بشيء أتقيأُ فيه ، فأتوه بجفنة ، فقاء قيحاً ودماً نحوَ ثلثها ، ولم يعرف من أين جاءه ذلك ، وإذا بشخص ملفوفٍ في مُلاءة معصفرة ، وهو نائمٌ في ناحية في المسجد ، فقال : والله ؛ لولا أنك صِرْتَ من الضيوف ما تركتُكَ تخرج إلا ميتاً ، كيف تشُقُّ بلادَ الناس وأنت غافلٌ عن استئذان أهلها كالبهائم ؟!

قال سيدي أبو العباس فمن ذلك اليومِ ما دخلت بلداً حتىٰ أستأذنَ أصحابَها . انتهىٰ .

واعلمْ يا أخي : أن أكثرَ من يُسلَبُ . . العلماءُ حالَ غفلتهم وعجبِهم بعلمهم وعملِهم وازدرائِهم لغيرهم ؛ فتنقطع الوصلةُ بينهم وبين حماية الله لهم حالَ غفلتهم ، ويصيرُ أقلُّ الناس يَسلُب الواحدَ منهم .

وأخبرني شيخنا الشيخ محمدٌ الشِّنَّاويُّ رضي الله عنه : أن أعظمَ الفقراء يُؤخذ حالَ قيام نفسه ورؤيتِهِ أنه خيرٌ من غيره .

---

(١) زهقت روحه : إذا خرجت .

قال : وقد وقع لسيدي محمدِ بن هارونَ الذي أخبر بسيدي إبراهيمَ الدسوقي وهو في صُلْب أبيه : أنه كان إذا انصرفَ من صلاة الجمعة يخرجُ معه أهلُ سَنْهور [إلى] المدينة كلُّهم يشيعونه إلىٰ داره ، فبينما هو راجعٌ من الجامع إذْ مرَّ عليه شخصٌ رَثُّ الهيئة مادٌّ رجليه وهو يفلي ثوبَهُ ، فقال الشيخُ في نفسه : إن هـٰذا لقليلُ الأدب ، نمرُّ عليه ولا يضمُّ رجليه ، فما استتم الخاطرَ إلا وقد سُلِب من جميع ما معه من العلم حتى (الفاتحةِ)

ثم تفرَّقَ الناسُ من حوله ، ولم يُشيِّعْهُ إلىٰ بيته أحدٌ ، فلحق بنفسه آخرَ النهار ، ففتش علىٰ ذلك الصبي ليصالحَهُ فلم يجده ، فقالوا له : إن هـٰذا صبيُّ القرَّاد ، فلعله ذهب إلىٰ إسكندريةَ ، فذهب الشيخُ إليه فلم يجده ، فقالوا له : لعله ذهب إلى المحلة الكبرىٰ ، فذهب إليه فلم يجدْهُ ، فقالوا له : لعله ذهب إلىٰ مصرَ ، فسافر فوجده مع مُعلِّمه يلعب بالقِرْد والدُّب في الرُّمَيلة ، فلما قرُب من الحلقة قال المعلمُ لصبيه : يا قُرَيْمزانُ ؛ ارفعْ رأسَكَ ، هـٰذا صاحبُك قد جاء من سَنْهور المدينة

ثم إن المعلِّمَ لما فرغ قال لسيدي محمد في أذنه : أما تعلم يا أخي أن الفقيرَ يُؤخذ عند رؤيته نفسَهُ علىٰ أحد من المسلمين ؟! ثم قال له : مثلُك في هـٰذه الشهرة العظيمةِ بالعلم والصلاحِ يخطر في باله أنه خيرٌ من أحد من العصاة فضلاً عن الطائعين ؟!

ثم قال لصبيه : يا قُرَيْمزانُ ، رُدَّ عليه حالَهُ وعلمَهُ ، فقال : قد وضعنا علمَهُ في قلب السُّحلية التي كنتُ جالساً عند جُحْرها أفلي ثوبي في بلده ، فليذهبْ إلىٰ جُحْرها وينادِ : يا أمَّ عطيةَ ؛ فإنها تخرج ، فيقول لها : يقولُ

لك قُرَيمزانُ رُدِّي عليَّ الوديعةَ التي عندك ، فرجع الشيخ محمدٌ إلىٰ بلده وفَعَلَ ما قال له ؛ فخرجت السُّحلية من جُحْرِها وفتحتْ فمَها ونفختْ ، فردَّ الله عليه علمَهُ وصلاحَهُ وحاله .

وبلغنا : أن المعلمَ لمَّا وبَّخَ الشيخَ قال له : بالله عليك ؛ كيف ترىٰ نفسَك علىٰ غيرك بشيء حملتْهُ سُحليةٌ في قلبها ؟! انتهىٰ

وأخبرني شيخُنا الشيخ الإمام المحدِّثُ المقرئ الفقيه ؛ الشيخُ أمينُ الدين ، الإمام بجامع الغمري بالقاهرة قال : (مرَّ شيخُنا شيخ الإسلام صالحٌ البُلْقينيُّ علىٰ شخص يصحن الحشيشَ في باب اللُّوق والخَلْقُ مزدحمون عليه، ويصفونه بالصلاح[1]، فقال الشيخُ : لو أن الدجالَ خرج لتبعه أهلُ مصرَ ، فما وصل مدرستَهُ في حارة بهاء الدين حتىٰ سُلِب جميعَ ما معه حتى (الفاتحةَ) ، فحضرتِ الصلاةُ ، فأجلس عنده شخصاً يلقنه (الفاتحةَ) ، فمكث كذلك ثلاثةَ أيام وهو يردُّ السؤالاتِ ولا يجد شيئاً يفتي به .

فكلَّم في ذلك بعضَ أصحابه ، فقالوا له : قد يكون هـٰذا الحالُ من الحشاش ، فقال الشيخُ هـٰؤلاء حرافيشُ ليس لهم حالٌ يقدرون به علىٰ سَلْبِ أحد من العلماء[2] ، فقالوا له نحن نكشف لك الخبرَ ، فمضوا إلى الحشاش ، فأولَ ما رآهم قال : صدق الشيخُ

نحنُ الحرافيشُ لا نسكنُ علالي الدُّورْ ولا نرائي ولا نشهدُ شهادةَ زورْ
نقنعُ بلقمةٍ وخِرْقةٍ في مسجد مهجورْ مَنْ كانَ ذا الحالُ حالَهُ ذنبُهُ مغفورْ

---

(١) صحن الحشيش : ضغط عليه بقوة حتىٰ صيَّره فتاتاً .
(٢) الحَرَافيش : جمع حرفوش ، سفلة الناس وأراذلهم .

ثم قال لهم : نعم ، ما سلبه إلا الحشاشُ ، فإن أراد أنَّ علمَهُ يرجع إليه فلْيصنعْ لنا أربعةَ خرفانٍ شواءً ، ويأتِ معها بأربع مئة رغيف ويجلسْ عندي ، فكلُّ منِ اشترىٰ مني شيئاً يزنُ له رطلاً من اللحم ويعطيه رغيفاً ، فأبى الشيخُ أن يفعل ذلك وعظم عليه ، ثم لم يزالوا به حتىٰ أخذها ومضىٰ بها إلىٰ مخزن الحشاشِ ، فتسامع بذلك الحشاشون ، فأتَوه من كل فجٍّ عميق .

فلما فرغ اللحمُ والخبز قال له الحشاشُ : جزاك الله خيراً ، ثم قال وعزة ربي ؛ ما أخذها أحدٌ من يدي وعاد إلىٰ بلعها أبداً ، بل بمجرد ما يأخذُها مني يتوبُ إلى الله تعالىٰ ويرميها في الطريق ولا يبلعُها ، فأنا أُحلِّيهم في الباطن ، وأنت تُحَلِّيهم في الظاهر ، فهل فعلي هـٰذا جائز ؟ فقال شيخُ الإسلام : نعم ، هو جائزٌ ، بل هو واجب ، فقال له : أحسنتَ يا فقيهُ ؛ إذْ كلُّ شيء أورثَ التوبةَ من المعاصي فهو واجبٌ .

ثم قال له أتدري أين وضعنا علمك ؟ فقال : لا ، فقال : قد وضعناه في قلب الديك الذي فوق سطح بيتك ، فاذبحْهُ وكُلْ قلبَهُ يُرَدَّ إليك علمُكَ ، ففعل ، فردَّ اللهُ عليه علمَهُ ، وتاب عن الإنكار من ذلك اليوم إلا عن شيء يتحقَّقُهُ) انتهىٰ .

وحكىٰ لي شيخ الإسلام الشيخُ نور الدين الطَّرَابُلُسيُّ الحنفي : أن شيخ الإسلام ابنَ حجر كان في القلعة ، فرأى الفرغل بن أحمد وقد أخذ البولُ من أوراكه طرفاً ، فقال في نفسه : حاشا أن يكون أهلُ حضرة الله تعالىٰ بهـٰذا الحال ، فسُلِب من علمه ، وعزله السلطان في ذلك اليومِ ، فقال الناسُ له :

هـٰذا من إنكارك على الفرغل ، ففتَّشَ عليه في مصرَ حتىٰ دخل عليه وقال : تبت إلى الله عز وجل ، فقال يا قاضي ؛ أما تعلم أن من حاربنا فقد حاربَ اللهَ ؟! هـٰذا القَذَرُ الذي رأيتَهُ هو صورةُ اعتقادك في أولياء الله تعالىٰ ، ثم قال : وعزة ربي ؛ ما فاتتني قط صلاةٌ عن وقتها . انتهىٰ

وقد كان الشيخ حسنٌ الغزاويُّ له كشفٌ صحيح ، فحدثَتْهُ نفسُهُ أنه يثاقل الشيخَ مُحَيسنَ المجذوبِ[1] ، فلما وقف عليه عرف الشيخُ ما في نفسه ، فقال : أهلاً بسيدي الشيخِ حسن ، خاطرُك عليَّ ، ادع لي ، وقام له وأكرمه ، فلما أراد الشيخ حسنٌ أن يقومَ أدار له الشيخُ مُحَيسن نعلَهُ ، فعرَّاه من الخير وسلبه جميعَ ما كان معه ، فصاح ، فقال له الشيخ مُحَيسنٌ : أنت الذي جئت لي ، ما أنا رحتُ إليك ، ثم إن مصرَ ضاقتْ على الشيخ حسنٍ لمَّا سُلِب وخرج إلىٰ بلاده . انتهى .

فإياك يا أخي أن تبادرَ إلى الإنكار علىٰ أحد من المجاذيب ، إلا إن علمت ثبوتَ عقلهم وباطنَ حالهم ؛ فإن قوسَهم موتورٌ علىٰ كل منكر[2] ، **فالحمد لله ربِّ العالمين**

[تحمُّلُهُ لهمِّ عدوِّهِ مثلُ تحمُّله همَّ صديقه]

ومما منَّ الله به عليَّ : أني أحمل همَّ عدوي مثلما أحملُ همَّ صديقي ، لا سيما إن أحوجَهُ الدهرُ إليَّ وجاءني وذَلَّ بين يديَّ وسألني في ردِّ ظالم

(١) تثاقَلَ الرجل : إذا ألقىٰ ثِقله ، وفي (أ ، هـ ، و ، ز) : (يناقد) بدل (يثاقل) ، وفي (ج) : (يزور) .
(٢) وتر القوس : علَّق عليها وترها

عنه ؛ فإني أكاد أذوبُ في نفسي حزناً عليه ، وأحسُّ بأن رأسي تُضرب بطبر ليلاً ونهاراً حتىٰ تُقضىٰ حاجتُهُ ويزولَ عنه الهمُّ[1]

وهٰذا الخلقُ ما وجدت له فاعلاً من أحد من أقراني ، إنما يشمَتُ أحدُهم بذلك ، ويحصل له سرورٌ بمصيبة عدوِّهِ .

وقد كان شيخنا الشيخ محمدٌ الشِّنَّاويُّ يقول : (إن يوماً يحتاج عدوي فيه إليَّ لَيومُ عيد عندي ، وأشكر اللهَ تعالى الذي أحوجه إلىٰ مثلي ولم يُحوجْني أنا إليه) ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حفظُ عدوِّه في غيبته أكثرُ من صديقه]

ومما منَّ الله به عليَّ حفظُ عدوي في غيبته أكثرَ من صديقي ؛ وذلك لأن العدوَّ لا تُرجىٰ مسامحتُهُ ولا صفحُهُ عني ، بخلاف صديقي

فعُلِمَ : أن مَنِ اغتاب عدوَّهُ ، أو أصغىٰ إلىٰ تنقيص أحد فيه ، وادعىٰ بعد ذلك العقلَ والصلاحَ . . فهو كاذبٌ ؛ لأن مِنْ عَقْلِ الرجل ألا يُوردَ نفسَهُ مواردَ الهلاك ، ومن شأن الصالح أن يحملَ الأذىٰ ويترك الأذىٰ ، وهٰذا الخلقُ لا تكاد تجد له فاعلاً

وإنْ شككتَ في قولي هٰذا فاذكرْ أحدَ الفقيرين للآخر بخير ، وفضِّلِ [الغائب على الحاضر ، فإنِ انشرح الحاضر] برفع درجة أخيه عليه[2] . . فهو صالحٌ ، وإلا فهو فاسقٌ خارجٌ عن طريق الفقر

---

(١) الطَّبَرُ : نوع قديم من السلاح يشبه الفأس

(٢) ما بين المعقوفين في النسخ : (الحاضر على الغائب فإن انشرح الغائب)

وسمعت سيدي علياً الخواصَ يقول : (كلُّ من رأيتَهُ يذكر أحداً بنقص ، ثم إذا حضر ذلك الأحدُ ضحك في وجهه ومدحَهُ . . فهو منافقٌ عدوٌ لأبناء جنسه ؛ إذِ المحبُّ لا يذكر من يحبُّهُ إلا بخير في غيبته وحضوره ، عكس العدوِّ والحسودِ) انتهىٰ ، فالحمدُ لله الذي عافانا من مثل ذلك ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .

[كثرةُ شفقته علىٰ عدوه ، وكراهتُهُ كلَّ شيء يؤذيه ويكدِّرُه]

ومما أنعم الله به عليَّ : كثرةُ شفقتي علىٰ عدوي ، وكراهتي لكل شيء يؤذيه ويتكدَّرُ لأجله ؛ فلا أُمكِّنُ أحداً يَذْكُرني عنده بخير ، ولا ألبس الثيابَ الفاخرةَ المبخرة إذا مررتُ عليه ، ولا أُصاحب له عدوّاً ولا صديقاً إلا بطريق شرعيٍّ ؛ فإن مصاحبتي لعدوه زيادةُ إثم لي وله ، ومصاحبتي لصديقه تُحرِّكُ عليه الكراهةَ لصديقه من جهة مصادقتي له .

فعُلِمَ : أن بُعدي عن أصدقائه وأعدائه أولىٰ له ، وأولىٰ لعدوه وصديقه ، وأولىٰ لي ؛ لأنه إذا حَصَلَ لعدوه وصديقه الأذىٰ بسببي فيرجع نظيرُ ذلك عليَّ ، وهـٰذا الخلق لم أَرَ له فاعلاً من أقراني ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[كثرةُ صبره علىٰ زوجته ، وخدمتها إذا مرضتْ]

ومما أنعم الله به عليَّ : كثرةُ صبري علىٰ زوجتي إذا مرضتْ وطال مرضُها ولو سنةً وأكثرَ ، وإن خفتُ ضرراً من قلة الجماع تعاطيتُ الأسبابَ المسكنةَ للشهوة ، وإن مشتْ بطنُها خدمتُها وغسلتُ ثيابَها ، وكَسَحتُ ما تحتها من

القذر ، وذلك كلُّهُ قياماً بحق الصحبة ولو ليلة ، أو ليجازيَني اللهُ تعالىٰ بذلك إذا مرضتُ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

ثم إذا مشتْ بطنُها وزاد القذرُ لا أحكي ذلك قط لصاحب ولا صديقٍ ولا لأحد ؛ فإن من يعاملُ اللهَ تعالىٰ وحده لا يُحبُّ اطلاعَ أحد علىٰ عمله فيشركَ في معاملته ، وربما بالغ الأصحابُ في مدحه بذلك فيذهب أجرُهُ .

وإن كان معها طفلٌ صغير لاهيْتُهُ[١] وسهرتُ معه كما كانت تفعل أمُّهُ وهي صحيحة ، لا سيما إن كان ربيباً[٢] ، فإن أجرَ ذلك أكثرُ ، وهـٰذا الخلق قليلٌ فاعلُهُ مع زوجتِهِ وأولادِها من غيره ، بل قالوا في المثل : (اللهمَّ ؛ الصَّبيبُ ولا الربيب)[٣]

وغالبُ الناس تتحرَّكُ نفسُهُ للتزوُّج على امرأته المريضةِ أو التسرِّي عليها ، ولا يتعاطىٰ أسبابَ تسكين الشهوة من الجوع وغيرِهِ ، ولا يُراعي خاطرَها بشيء من ذلك ، وربما عاقبَهُ اللهُ تعالىٰ بمن يتزوجُها على امرأته المريضةِ ، فتأخذ منه الحقَّ وثلاثةَ أرباع الباطل كما وقع ذلك لبعض أصحابنا ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[كراهتُهُ الخلوة بالأجنبية]

ومما منَّ الله به عليَّ : كراهتي للخلوة بالأجنبية ، ونَفْرةُ كلِّ شعرة فيَّ منها ؛ خوفاً علىٰ نفسي ، وعملاً بحديث : « ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا كانَ

---

(١) لاهاه : إذا علَّله وأقام عليه ولم يفارقه .

(٢) الربيبُ : ابنُ امرأة الرجل من غيره .

(٣) الصَّبيبُ : طرف السيف ، والدم .

الشيطانُ ثالثَهما »[1] ، وأكثرُ من يقع في ذلك من يدَّعي الصلاحَ ، ويظنُّ بنفسه أن مثلَهُ آمِنٌ من الوقوع في الميل إلى الأجانب

وبعضهم يَكثرُ اعتقادُ أصحابه فيه ، ويقولون له : كلنا مريدوك ، وربما نام سيدي الشيخُ عند امرأة أحدِهم في القيلولة ، ويخرجُ ويتركه عند زوجته ، وهـٰذا كلُّهُ من خفة العقل ورِقَّةِ الدين ، وقد قالوا : (أولُ التعريص حسنُ الظنِّ بالناس) ، اللهم إلا أن يكون ذلك الشيخُ مثلَ سفيانَ الثوريِّ ورابعةَ العدوية ، فربما يُسامَحُ بمثل ذلك ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ معاتبته لمن تخلَّف عن الصلاة علىٰ ميت له]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ : عدمُ عتابي لمن تخلَّفَ عن جنازة ميتي ولم يصلِّ عليها ، وعدمُ دعائي الناسَ للصلاة من بكرة النهار ، مع عِلْمي بأنَّ الميتَ لا يتجهَّز إلا بعد الظهر مثلاً ، لا سيما دعاءِ مشايخ الأسواق والتجار في يوم سوقهم ، فربما طال عليهمُ الزمانُ فزهقتْ نفوسُهم ونفرتْ من الصلاة ، وما بقي لهم قَلْبٌ يدعون للميت به

وربما أَخَّرَ صاحبُ الجنازة تجهيزَ الميت لأجل حضور أحد من إخوانه الغائبين عن بلد الميتِ أو حارتِهِ ، فيدعو الناسُ علىٰ ذلك الميت وعلىٰ من دعاهم ، وربما خرجوا من دار الميتِ بغير صلاة ، وكلُّ ذلك لعدم النية الصالحة في ذلك .

وقد صار الناسُ يتفاخرون بعِظَم الجنازة وزفَّةِ الخِتان ونحوِهما ، ويقع

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢٠٥) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

بين المتعصِّبين نزاعٌ وجدالٌ بسبب ذلك ، وقد مضى السلفُ الصالح كلُّهم علىٰ مراعاة ضرورات الناس ، فمن حضر شكروه ، ومن تخلَّف أقاموا له العذرَ ، وكانوا لا يدعون أحداً للصلاة علىٰ ميتهم حتىٰ يفرغوا من تجهيزه ؛ خوفاً من تقلُّقِ الناس ، لا سيما من ليس عند عياله ذلك النهارَ شيءٌ من الطعام

وقد حضرتُ مرَّةً جنازةَ شخص من أكابر مصرَ دعا الأكابرَ إليها من العلماء والمباشرين والتجار من بُكرة النهار ، وصلبهم إلىٰ صلاة العصر ، فذهب حزنُهم علىٰ ذلك الميت ، ولم يبقَ عندهم داعيةٌ لصدق التوجُّهِ إلى الله في الدعاء له ، وبعضُهم صار يسبُّ الميتَ ويُقِلُّ الرحمةَ عنه ، فقلت له يا فلانُ ؛ انصرافُك أولىٰ وأخفُّ إثماً ، فانصرف ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حمايتُهُ من المجاورة لمكة المشرفة ، وفيها ذكر آداب المجاورة]

ومما منَّ الله به عليَّ حمايتُهُ تعالىٰ لي من المجاورة بمكةَ المشرفةِ في حجاتي الثلاثةِ[1] ؛ لعجزي عن القيام بآداب الإقامة فيها

وهـٰذا الأمرُ قَلَّ من يتنبَّهُ له من العلماء والفقراء ؛ فيرون المجاورةَ بمكةَ من أكبر النعم ، ولا يفتشون علىٰ ما عليهم فيها من الأدب ؛ فإن من أدب الإقامة بمكةَ ألا يخطرَ في باله قط معصيةٌ ؛ لأنه في حضرةِ الله الخاصَّةِ ، فإن

(١) في النسخ ما عدا (ز) : (من عدم المجاورة) بدل (من المجاورة) ، وجاء في هامش (أ) : (قوله : « من . . . » إلىٰ آخره : من بيانية لقوله : « حمايته ») ، ولعل الأنسب بالسياق ما أثبت .

لم يكن علىٰ صفات الملائكة وإلا فليس له دخولُها ، وبتقدير دخوله فلا يُمكنه الإقامةُ فيها ، بل يحترق لوقته كما يقع لإبليس ، وفي القرآن العظيم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج ٢٥] ، فتوعَّدَ بالعذاب مَنْ أراد فيه ظلماً لنفسه أو للخَلْق بمجرد الإرادة ولو لم يعمل ذلك .

وهـٰذا هو السببُ الذي دعا عبدَ الله بنَ عباس إلىٰ سكنى الطائف دون مكةَ ، فاحتاط لنفسه ، ولو كان وقوعُ الظلْم من مثله رضي الله عنه بعيداً[١] .

وقد كره الإمامُ مالكٌ رضي الله عنه المجاورةَ بمكة كذلك ، وقال : (ما لي وللإقامة ببلد تُضاعفُ فيها السيئاتُ ، ويُؤاخَذُ الإنسانُ فيها بالإرادة للظلم من غير عمل) انتهىٰ[٢]

ومن آداب المجاورة أيضاً ألا يبيتَ علىٰ دينار ولا درهم ولا طعام وهو يعلمُ أن في مكةَ أحداً محتاج إلىٰ ذلك

ومنها : ألا يَحِنَّ قط إلىٰ وطنه وأولادِهِ ، فيصيرَ ملتفتاً عن حضرة الله ، وظهرُهُ إليها ووجهُهُ إلى الدنيا ، ومعلومٌ أن العطايا والمنحَ إنما تكون للمُقبلين على الله تعالىٰ ؛ فإن المدبرَ في حضرة إبليسَ

ومنها ألا يميلَ بقلبه قط إلىٰ شهوة مُحرَّمةٍ ، بل ولا تخطُرَ علىٰ باله كما مرَّ ، وهـٰذا الأمرُ عَسِرٌ علىٰ من يُجاورُ من غير زوجة ولا أَمَةٍ ، ولذلك حجَّ الأكابرُ من العلماء بالله بزوجاتهم وتكلَّفوا غايةَ المشقَّة في حَجِّهنَّ ؛

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٢/ ١٢٦٠) .

(٢) انظر « حاشية الصاوي على الشرح الصغير » (٢/ ٢٦٦) ، و« منح الجليل » (٣/ ١٣٤)

خوفاً من أن تميلَ نفوسُهم إلى الجماع وليس معهم حلائلُ

ومنها : أن يُقلِّلَ الأكلَ جُهدَهُ ، ولا يأكلَ وعينٌ تنظرُ إليه من الفقراء إلا إن أشركها معه في ذلك الطعامِ[1]

ومنها ألا يعانيَ فيها الملابسَ الفاخرةَ والروائحَ الطيبة إلا إن علم أنه ليس في مكةَ جيعان ولا عارٍ ، وإلا فالواجبُ صَرْفُ ما زاد على الضرورة إلىٰ ذلك المحتاجِ ، وإن لبس الخَليقاتِ والهِدْمَ كان أولىٰ[2] ، ويجمع ذلك كلَّهُ أن من الأدب ألا يتميزَ عن عبيدِ سيِّدِهِ في تلك الحضرةِ الشريفة بمأكل ولا ملبسٍ حسَبَ الطاقةِ .

ومنها ألا يسألَهُ أحدٌ قط في شيء ويقولَ : لا ، إلا إن كان مضطرّاً إليه الاضطرارَ الشرعيَّ ، لا سيما إن سأله بالله ، أو قال له : بربِّ هـٰذا البيت تعطيني الشيءَ الفلانيَّ ، فإن من لم يُجِلَّ اللهَ تعالىٰ في تلك الحضرةِ فهو والبهائمُ سواءٌ

ومنها ألا يرىٰ نفسَهُ خيراً من أحد ممن هناك أو في سائر أقطار الأرض ؛ فإن هـٰذا ذنبُ إبليسَ الذي أُخرِجَ لأجله من الجنة ولُعِنَ وطُرِدَ ، ومعلومٌ أن أهلَ الحضرة كلَّهم مُقرَّبون لا ملعونون ، فافهم .

ومنها أن يأكلَ الحلالَ الصِّرْفَ مدَّةَ إقامته[3] ، وذلك إما بعمل حِرْفةٍ شرعيَّةٍ ، وإما بتوجُّهٍ إلى الله تعالىٰ ، فيَصِلُ إليه أكلُهُ من حيث لا يحتسب ؛

---

(١) في (أ) وحدها : (وعينُ مضطر تنظر إليه) بدل (وعينٌ تنظر إليه) .

(٢) الثوب الخَلَق والهِدْم : كلاهما بمعنىً ؛ وهو الثوب البالي .

(٣) الصِّرْف : الخالص الذي لم يشب بغيره .

كطعام أنبيائه وأوليائه ، فمن أكل في مكةَ غيرَ الحلال حُجِب قلبُهُ عن حضرة الله ، وإذا حُجِبَ قلبُهُ عن دخول حضرة الله فما فائدةُ المجاورة وهو بعيدٌ عن الله في عين القُرْب ؟! وهـٰذا من أعظمِ الشقاءِ .

ومنها : ألا ينظرَ لِمَا في أيدي التجارِ وغيرِهم من أبناء الدنيا ، ولا يُعلِّقَ أملَهُ بأن أحداً منهم يُعطيه شيئاً ؛ فإنه متىٰ علَّقَ خاطرَهُ بذلك ولم يعطوه شيئاً يصير يمقتُهم بالقلب بغير حقٍّ يُوجبُهُ له عليهم ، وربما ذكرهم بسوء في المجالس ولو تعريضاً ، وذلك ظلمٌ ، وقد قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج ٢٥] ، ومَنْ أذاقه اللهُ العذابَ هناك نفرتْ نفسُهُ من حضرة الله ، ويُحجَب عنه بسبعين ألفَ حجابٍ .

وقد كان الفضيل سقَّاءً بمكةَ يتقوَّت من السقاية ولا يُعلِّق أملَهُ بأحد ، فمن لم يتيسرْ له شيءٌ يتقوَّت منه فلْيأكلْ أكلَ المضطرِّ ، ويُوطنْ نفسَهُ علىٰ ذلك .

ومنها : وألا يمشيَ في الحرم الشريف بتاموسة إلا لشدَّةِ حرٍّ أو برد أو جرح ونحو ذلك[1] ؛ فإنها حضرةُ الله الخاصَّةُ ، ومحلُّ حياة الملائكة والأنبياء والأولياء ، ولو كُشِف للمؤمن لم يجدْ في الحرم محلّاً يمشي فيه بلا أحد ساجدٍ لا ليلاً ولا نهاراً

وقد وقع ذلك لأخي الشيخ أفضلِ الدين ، فكاد أن يذوبَ من الحياء من الخَلْق الساجدين ، فسأل اللهَ في إرخاء الحِجابِ حتىٰ طاف وصلَّىٰ ما كُتِب له .

(١) التاسومة : نوع من أنواع الأحذية .

علىٰ أنه وقع مثلُ ذلك في غير الحرم من المساجد لبعض مريدي سيدي أحمدَ الزاهدِ[1] ، فكان إذا مرَّ في المسجد يتعوَّجُ وينحرف ويقول : دستور ، فقيل له في ذلك ، فقال ما أجدُ موضعاً أَحطُّ قدمي فيه من كثرة الساجدين من الجن والملائكة

ومنها ألا يرىٰ له عبادةً هناك وقَعَتْ له علىٰ وصف الكمالِ ، بل يراها إلى الإثم أقربَ ، ويستغفرَ الله تعالىٰ من النقص الذي وقع فيها ، ومتى استحلىٰ بقلبه قولَ أحد هنيئاً لفلان الذي أقام بمكة . . فهو دليلٌ علىٰ محبته للرياء والسمعة ، وعملُهُ حابطٌ من أصله ، فكيف يفرح به ؟!

وقد فتحتُ لك يا أخي بابَ الأدب ، فإن علمتَ من نفسك عدمَ الإخلال بالأدب فجاوِرْ ، وإلا فارجعْ إلىٰ بلادك بعد الحجِّ ؛ فإنه أفضلُ لك ، والحمد لله ربِّ العالمين

[إرشادُهُ لمن عُزل من ولايته إلىٰ كثرة الاستغفار]

ومما منَّ الله به عليَّ إرشادي لمن عُزِل من ولايته وخَرِبتْ ديارُهُ إلىٰ ما يَرُدُّ عليه ولايتَهُ ويرضي ربَّهُ عنه ، وذلك بكثرة الاستغفار ليلاً ونهاراً ؛ فإن الاستغفارَ يَحُلُّ الغضبَ الإلـٰهيَّ .

وقد أغفل ما قلناه غالبُ الفقراء ، فتجدُ أحدَهم يدخل في حَمْلة من زالتْ نعمتُهُ ، ويصيرُ يتوجَّهُ في قضائها فلا يجد له أثراً

وغالبُ من تزول عنه النعمةُ له ذنوبٌ لا تُحصىٰ ، وربما نسيها أو استهان

---

(١) في « المنن الكبرىٰ » (١/ ٥٥٢) (لبعض مريدي سيدي أحمد الزاهد في جامعه بالمقسم) .

بها ؛ من شرب خمر وزنىً ولواط وترك صلاة وغيرِ ذلك ، فإذا أصابتْهُ المصيبةُ تركها عجزاً عن وجود ما يُحصِّلها به من الدنيا ، وفي نفسه أنه إذا رجعتْ له الدنيا يعود لِمَا كان يفعله

فلْيفتشِ الفقيرُ مَنْ يريد أن يحملَ عنه قبل أن يُتعِبَ نفسَهُ في التوجُّه إلى الله في قضاء حاجته ، فإذا رآه تاب توبةً نصوحاً وظهرتْ عليه أماراتُ القبول ؛ من بكاء وحزن على ما فات من عمره في المعاصي ونحو ذلك . . فهناك يدخل الفقيرُ في التوجُّه إلى الله تعالىٰ في قضاء حاجتِهِ

وإيضاحُ ذلك أن العبدَ المُصِرَّ على المعاصي عدوٌّ الله تعالىٰ ، ولا تُقبَل فيه شفاعةٌ في الدنيا ؛ لأنها دارُ التكليف ، فليعملِ العبدُ على رضا ربه عنه ، حتىٰ إذا تهيأ للقبول ، ولم يبقَ إلا سؤالُ الشافعِ . . فهناك يناسب توجُّهُ الفقير في قضاء حاجته ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[ردُّه تعالىٰ كيدَ أعدائه في نحورهم]

ومما أنعمَ الله به عليَّ : ردُّهُ تعالىٰ كيدَ أعدائي في نحورهم ولو كانوا مئةَ ألفٍ ، ولم يزلِ الأعداءُ يعملون لي المكايدَ والحيلَ من غير علمي ، ثم يرُدُّ نظيرَ ذلك عليهم من غير توجُّه مني إلى الله تعالىٰ ، وتشمَتُ الناسُ بهم ، حتىٰ يكادُ أحدُهم يذوب من الخجل حين يكشف اللهُ تعالىٰ سِترَهُ عنه

وهـٰذا من أكبر نعم الله تعالىٰ عليَّ ؛ فإن حكمَ الإنسان في هـٰذا الزمانِ مع الأقران والحُسَّادِ . . حكمُ البهلوان إذا مشىٰ على الحبل وفي رجله قَبْقابٌ وجميعُ الأقران والحساد ينظرون إليه ينتظرون أنه يزلَقُ ؛ ليشمتوا كلُّهم فيه .

والداهيةُ العظمىٰ إن كان الإنسانُ محجوباً عن الله ويطلب مقاماً عند

الخَلْق ؛ فإن البلاءَ يعظم ويشتدُّ عليه ؛ إذ المُراعي للحقِّ تعالىٰ لا يلتفتُ لشماتة الخَلْق ولا لعداوتهم ؛ لحجابه بمراعاة الحقِّ عن عبيده ، فإنْ خاف أحدٌ من الأكابر من شماتةِ الخَلْق به فإنما ذلك حالَ حجابه اللازمِ له عدمُ شهود الحق تعالىٰ ، فالتكدُّرُ حقيقةً من وقوعه في الحجاب اللازمِ له التأثيرُ من الشماتة ، لا من الشماتة ، فافهم .

وأعرف في مصرَ جماعةً لا يزالون يتجسَّسون عن أحوالي مدى الدهر ، وأَسَرُّ الأوقاتِ عندهم حين يسمعون أن مَنْ كان يعتقدني رجعَ عن اعتقاده ، فكلما يبلغني ذلك عنهم أَشْكرُ اللهَ الذي أعطاني ما لم يُعطهم من العلوم والمعارفِ والأصحابِ ؛ فإنهم لو شهدوا مقامي دون مقامهم عند الخَلْق ما اشتغلوا بي قط

فالحمدُ لله الذي جعلني لا أشمَتُ بأحد منهم، ولا أتجسَّسُ له علىٰ حال يسوءُهُ كشْفُهُ ، بل أُبجِّلهم غايةَ التبجيل ، وأَذْكُرهم بكل جميل ، لا سيما طائفةِ المتصوفةِ والعلماء؛ فإني ذكرتُهم في « الطبقاتِ » وبالغتُ في حُسْنِ الثناء عليهم، وصارت مناقبُهم تُقرأ عندنا في الزاوية ؛ فيترضَّى الناسُ عنهم كما يترضَّون عن الأولياء الذين في « حلية أبي نعيم »، وما أعلمُ أحداً منهم ذكرني قط في الطبقات، ولا جلبوا لي رحمةً كما فعلتُ معهم ، **فالحمد لله ربِّ العالمين** .

[حُسْنُ تدبير الله تعالىٰ له في الحملات الثقيلة]

ومما منَّ الله به عليَّ : حُسْنُ تدبيره لي في الحملات الثقيلةِ من البلايا الكبيرةِ النازلةِ علىٰ جميع أهل مصرَ ؛ من فقراءَ وعلماءَ وأمراءَ وتجارٍ ومباشرين وفلاحين وسائرِ أصناف الخَلْق .

وأعرف ثِقَلَ الحملة بالوجع الشديدِ في جميع أعضائي ؛ حتىٰ أُحسُّ بأن تحت كل شعرة مسماراً يُدَقُّ في جسدي ، وربما فاض من جسدي علىٰ أصحابي وجيراني ، فأتوجَّهُ في ردِّ ذلك عليَّ مع سؤالي اللهَ عز وجل ألا يَنقُصَ لهم بذلك شيءٌ من ثواب المرض ، وربما فاض البلاءُ من جسدي علىٰ بِرْكةِ الماء التي تحت بيتي من خَرَّارات المساجد والحمامات ؛ فيصير ماءُ البركة كالدم الأحمرِ المختلطِ بقَيْحٍ ، فأَشْكرُ اللهَ تعالى الذي حمله عني ؛ فإن ذلك لو أقام بجسدي لحصل لي من البلاء ما لا يُقدَرُ قدرُهُ

وهـٰذا أمرٌ ما رأيتُهُ وقع لأحد من فقراء مصرَ ، فما دام الماءُ أحمرَ فأنا في أوجاع يغيب معها عقلي في أكثر الأوقات ، فإذا أخذ الماءُ في تخفيف الحُمْرة خَفَّ الوجعُ عني ، وقد سألتُ أهلَ الحارة التي أنا ساكن بها : هل كان ماءُ هـٰذه الخَرَّاراتِ يحمرُّ في وقت من الأوقات قبل أن نسكن في حارتكم ؟ فقالوا : لا

وأولُ ظهور هـٰذه الأمارةِ لشدة البلاء النازل عليَّ . . كانت في سنة خمس وأربعين وتسعِ مئةٍ ، وذلك أن الشيخَ العارف بالله تعالى الشيخ شعبانَ المجذوبَ أرسل لي السلامَ وقال لقاصده : مسكينٌ عبد الوهاب ؛ فإنه ساكنٌ علىٰ بركة الدم من شدَّةِ بلائه ، فاحمرَّ الماءُ في تلك السنة كلما يشتد البلاء النازل عليَّ ، فإذا زال البلاءُ زالتِ الحُمرةُ ، فإذا كان ما فاض من جسدي أَثَّرَ في الماء هـٰذا التأثيرَ . . فكيف لو بقي ذلك في جسدي ؟!

وصورةُ مرضي أيامَ احمرارِ الماء أني تارةً أُحسُّ بطبر حديد تضرب به

رأسي ، وتارةً أُحسُّ بأن رأسي مرضوخة بين حجري معصرة[1] ، وتارةً تُحبَس فضلاتي فلا يخرج مني شيءٌ منها مدةَ السبعة أيام ، وإن شربت مسهلاً يشربه البدنُ ولم يخرج شيءٌ ، فأطلبُ الموتَ فلا أجاب

وأكثرُ فقراء مصرَ ممن يدَّعي أنني لا أصلح أن أكونَ مريداً له . . لا يُحسُّ بشيء من ذلك ، بل يأكلُ ويشرب ويلبس الثيابَ المبخَّرةَ ويدخل الحمامَ ويضحك ويتبسط ، وما عند أهل الجنة خبر من أهل النار ، ثم بعد ذلك إذا بلغه أن أحداً يمدحني بتحملي هـٰذه الحَمَلاتِ يقول ما بقي في مصرَ يحمل حملةَ الناس غيرُ هـٰذا الرجلِ ؟! يقول ما هو أهلُهُ من التجريح ؛ خوفاً علىٰ مقامه أن يُهتضَم ، وبعضهم يقول وأيشٍ بُلِي فلانٌ بما لا يقدر عليه ؟! وكلُّ أحد يطعُنُ بحسب قدرته ، مع أن غالب هـٰذه البلايا كانت من تحت رأسهم

وقد قال سيدنا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسولَ الله ؛ كسرىٰ وقيصرُ في الأنهار والأشجار والنعيم وأنت في هـٰذا البؤسِ العظيمِ ، وأنت نبيُّ الله وصفوتُهُ من خَلْقه ؟! فقال « يا عمرُ ، أمَا ترضَىٰ أن تكون لهمُ الدنيا ولنا الآخرةُ ؟! » انتهىٰ[2]

وما كان مذموماً في حق الكفار فالمسلمون أولىٰ باجتنابه ، ولو أن هـٰؤلاء الأشياخَ كانوا إذا بلغهم ما أنا فيه من تحمُّل البلايا دَعَوْا لي بحُسْن التدبير . لكان أفضلَ في حقهم ، ولـٰكن الظاهرَ من حالهم عدمُ ذوق الحال

---

(١) في (د) وحدها (مرضوضة) بدل (مرضوخة) .

(٢) رواه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (٣١/١٤٧٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

الذي ينزل عليَّ ؛ فإنه لا يعرف ذلك إلا من كَشَفَ اللهُ عنه الحجابَ

وقد دخل لي مرةً فقيرٌ من الصادقين ، فصار يتقلَّقُ من الجلوس ، فما مكث عندي نحوَ ثلاث دَرَجٍ حتىٰ كاد أن يذوبَ ، فقلت له : ما لك ؟ فقال : ما رأيت في مصرَ بقعةً ينزل عليها بلاءٌ أكثرُ من مكانك هٰذا ! وأنا أتعجَّب في إقامتك فيه

ولولا كثرةُ الخير والقرآن والذِّكْرِ لكان البلاءُ أشدَّ من ذلك ؛ فإنهم قالوا : من علامة كثرة البلاء في حارةٍ كثرةُ الخير فيها حتىٰ يوازنَها ، وإلا كان أهلُها هلكوا ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[حنينُهُ إلى الوحدة ، وكراهةُ تردُّد الناس عليه]

ومما منَّ الله به عليَّ حنيني إلى الوحدة ، وكراهتي لتردُّدِ الأكابر والأصاغر لي زيارةً أو عيادةً ، أما الأكابرُ : فإني أُجلُّهم عن المشي إلىٰ مثلي ، وخوفاً من أن أَفتضِحَ يومَ القيامة ، وأما الأصاغرُ عادةً : فتردُّدُهم لا يخلو من عِلَلٍ ، والعلل لا تخرجُ عن كونها دنيويَّةً أو أخرويَّةً ، وليس حولي منهما شيءٌ ، فيخيبُ سعيُهم ، وربما زاروني أو عادوني في مرض بقصد مقابلتي لهم بنظير ذلك ، فيدخلوني في الدَّين ويفوتهم الأجرُ الأخرويُّ

وقد كان أخي أفضلُ الدين لا يُعلِمُ أحداً من العلماء والصالحين بمرضه ، ويقول (إن العالمَ أو الصالحَ ربما تحمَّلَ عني شيئاً من الألم ، وأنا لا أحبُّ أنَّ أحداً يؤذي نفسَهُ لأجلي) انتهىٰ .

فعُلِمَ : أن غالبَ زيارةِ الناس اليوم وعيادتِهم لأغراض ، وإن شككتَ في قولي هٰذا فأَعلِمْ أحداً من أصحابك بمرضك واسألْهُ في التردُّد إليك ، ثم إذا مرض فلا تَعُدْهُ ولا تسألْ عنه ، ولو أعلمك بمرضه فلا تذهبْ إليه . . يتضحْ لك ما ذكرْتُهُ ، بل بعضُهم عادىٰ من لم يَعُدْهُ إلى الممات .

فإن وجدتَ يا أخي أحداً يعودُك لله خالصاً وتعودُهُ خالصاً . . فذلك من نوادر الزمان ، فأْمُرْهُ ليزورَكَ ويعودَكَ ، وعُدْهُ وزُرْهُ كذلك ، وإلا سُدَّ البابَ عنك وعنه ؛ فإن جميعَ ما أَمَرَ به الشارعُ لا يؤمر به العبدُ إلا إن وجد عنده إخلاصاً فيه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

[عدمُ تعريضه لأحد من إخوانه بأن يتقيد بصحبته]

ومما منَّ الله به عليَّ : عدمُ تعريضي لأحد من الإخوان أن يتقيَّدَ علىٰ صحبتي ، أو يجلُبَ أحداً لها ، أو يصدَّ أحداً عن صحبة أحد من أقراني ، لا سيما أبناءِ الدنيا

وقد خرج في هٰذا الزمانِ قومٌ بالضدِّ من ذلك ، وصاروا يصطادون أبناءَ الدنيا بالحِيَلِ والنَّصْب وتحقيرِ بعضهم بعضاً

وبعضُهم يُرسل جماعتَهُ إلىٰ مثل مشايخِ العربِ وتجارِ الأسواق فيقولون لذلك الرجلِ هل زُرْتَ الشيخَ الفلانيَّ ؟ فإذا قال : لم أعرفْهُ . . يقولون له : مثلُك يجهلُ مثلَ هٰذا الرجل ؟! هٰذا رجلٌ عظيمٌ ، لو أنه بقي في الدنيا إنصافٌ لكان كلُّ شيخ في مصرَ واقفاً علىٰ بابه مُتَّلْمذاً له ، فيجرُّون ذلك الشيخَ العربِ أو الأمير أو التاجر إلىٰ صحبته ، فيأخذ عليه العهدَ ، ويقولون

له : إياكَ أن تجتمعَ بالشيخ فلان تُخرِبُ ديارَ البعيد

ولعمري ؛ هـٰذا نَصْبٌ مكشوف ؛ فإنه لا يُؤمَرُ بالتقيُّد علىٰ شيخه إلا من صَدَقَ في طلب الطريق ، وما رأينا قط شيخَ عربٍ ولا أميراً ولا تاجراً في هـٰذا الزمانِ جالساً يسلِّك الناسَ أبداً ، فلأيِّ شيء يَحجُرون عليه أنه لا يجتمع بشيخ آخر ؟! علىٰ أنهم ولو حجروا عليه لا يدخل تحت حكمهم ؛ لأنه بمجرَّد ما يرمي علىٰ شيخهم حملةً فلا يجد منه نجاحاً . . يتحول عنه بقلبه ضرورةً

وقد نقضَ كثيرٌ من مشايخ العرب عهدَ غيري وجاؤوني لمَّا رأوني أقوم بحملتهم ، وصرتُ أُنفِّرهم عني إلىٰ أولـٰئك المشايخ فلا يَنفِرون ، ولا أعلم لذلك فاعلاً في مصرَ غيري ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[رؤيتُهُ أموراً في المنام بمشهد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام]

ومما منَّ الله به عليَّ : أمور أُريتُها في المنام بمشهد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يُكلِّمْني منهم غيرُ موسىٰ وعيسىٰ وسليمانَ عليهمُ الصلاة والسلام ، غالبُها لا تظهر إلا في الآخرة ؛ إذ الدنيا لا تَسَعُ كلَّ ما يتفضَّلُ اللهُ تعالىٰ به علىٰ عبده المؤمنِ كما أشار إليه خبرُ الترمذي وغيرِه مرفوعاً : « أدنىٰ أهلِ الجنةِ منزلةً مَنْ يُعطىٰ قَدْرَ الدنيا عشرَ مراتٍ »[1] ، ومما أُذِنَ لنا في إفشائه في هـٰذه الدار ما تضمَّنتْهُ هـٰذه الأبياتُ التي خطرتْ

(١) سنن الترمذي (٢٥٩٥) بلفظ « عشرة أضعاف » ، وبنحوه عند مسلم (١٨٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

لي في هـٰذا الوقت [من البسيط]

أُحبُّكمْ لا لشيءٍ في الوجودِ ولا ... أرجو سواكُم ولا أبغي بكُم بدلا
يا سادةً غمرونا مِنْ فضائِلِهم ... وألبسُوا ذاتَنا التِّيجانَ والحُلَلا
وصيَّـرونـا ملـوكـاً تحـتَ رِقِّهـمُ ... حالَ القناعةِ وأغنَونا بِلا وبِلا
وأخدمُونا مُلوكاً تحتَ طاعتِنا ... لمَّا خدمْنا وقُمْنا في الدُّجا ذُلُلا
وخلَّقونا بأخلاقِ الأكابرِ مِنْ ... عفوٍ وصَفْحٍ وحِلْمٍ في الوجودِ ملا
وأقطعُـونـا بـلاداً عَـزَّ مَطْلبُهـا ... خلفَ البحارِ وفيها حُكْمُنا حَصَلا
وشفَّعونا بيومِ الحشرِ في ملأٍ ... مِنَ الأعادي وأغنَوهم عنِ الخَلَلا
وأقطعُونا مِنَ الجنَّاتِ ما عجزَتْ ... عنهُ الملوكُ وأَرْخَوا دونَنا الكِلَلا
والكلُّ مِنْ فضلِهم قِدْماً لعبدِهمُ ... فعـمَّ فضلُهـمُ الكـونيـنِ واتَّصـلا

ومرادي بالبلاد التي اقتطعتها : بلادُ الرجراج ؛ كانت إقطاعاً لجدي الخامسِ الوليِّ الكبير المُكنَّىٰ في بلاد البَهْنَسا بالشيخ أبي العمران[1] ، وهي علىٰ سنةٍ من بلاد السودانِ للراكب المُجِدِّ ، مشتملة علىٰ قرىً ومدائنَ لا يسلكُ إليها من الفقراء إلا القليلُ

وقولُنا : (وشفَّعونا بيومِ الحشرِ . . .) إلىٰ آخره أي أعطاني اللهُ تعالىٰ أن أبدأ في الشفاعة فيمن آذاني في دار الدنيا قبل الشفاعةِ فيمن أحبَّني وأحسنَ إليَّ ؛ وذلك لأن من آذاني ما آذاني إلا لجهله بمقامي عند الله تعالىٰ ، فإذا رأىٰ مقامي في الآخرة خجِلَ مني ، فأقصدُ بالبَداءة في الشفاعة

(١) البَهْنسا : مدينة بمصرَ من الصعيد الأدنىٰ غربي النيل .

فيه إزالةَ ما عنده من الخجل ؛ لِمَا جبلني اللهُ تعالىٰ عليه من الرحمة بعباده دنيا وأخرىٰ(١)

ولا بِدْعَ في حكاية العبد ما تفضَّلَ عليه به مولاه في الدنيا والآخرةِ ؛ لقوة رجائِهِ في سيده ؛ فإن الملوكَ لا ترجع فيما وَهَبتْ لعبيدها ؛ لغناها عن مثل ذلك ، لا سيما البارئِ جل وعلا ؛ فإنه ما خَلَقَ جميعَ ما في السماوات وما في الأرض دنيا وأخرىٰ إلا لعبيده ؛ لغناه عن الكونين ، علىٰ أن العبدَ الخالصَ لا يرىٰ له مع سيِّدِهِ ملكاً ولو حَكَّمَه في جميع الوجود ، بل يرىٰ نفسَهُ حالَ حُكْمِهِ في الخَلْق جميعاً كالعبد الذي استخدمَهُ سيِّدُهُ في سياسة الدوابِّ علىٰ حدٍّ سواء ؛ فإن كلّاً منهما تحت طاعة سيده فيما استعمله فيه ، وإن رأى العبدُ التفاوتَ فإنما هو من حيث تفاوتُ المراتب في الشهود ، فافهم ، وهو مشهدٌ عزيزٌ ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[تفتيشُهُ لجميع جوارحه فيما ارتكبته من المعاصي وفيما صُرِف عنها من الأمراض صباحاً ومساءً]

ومما منَّ الله به عليَّ تفتيشي لكل جارحة من جوارحي الظاهرةِ والباطنةِ صباحاً ومساءً ؛ لأنظرَ ما فعلتْه كلُّ جارحة من المخالفات ، وما صَرَفَ الله تعالىٰ عنها من البلايا ؛ لأستغفرَ اللهَ تعالىٰ من تلك المخالفاتِ ، وأشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ صَرْفِهِ عني تلك البلايا مع استحقاقي لنزول البلاء عليَّ ليلاً ونهاراً

(١) في « المنن الكبرىٰ » (٢/ ٦٤٠) (وإنما كنا نشفع يوم القيامة في أعدائنا قبل غيرهم مسارعةً إلىٰ زوال خجلهم منَّا ؛ لأنهم إذا رأوا عِظمَ مقامِ مَنْ كانوا يؤذونه ومرتبته عند الله تعالىٰ خجلوا ، فلذلك كنا نبدأ بهم ؛ لنزيل خجلهم ؛ لِمَا جبلنا الله تعالىٰ عليه من الشفقة والرحمة لجميع الأمة)

وهٰذا كان من خلق سيدي إبراهيمَ المتبوليِّ ثم سيدي عليِّ الخواصِ ، وهو من أحسن وظائف العبد ، وما دام العبدُ معترفاً لله تعالىٰ بالفضل وكثرةِ الحِلْم مستغفراً شاكراً . . فهو تعالىٰ لا يبتليه بشيء من البلايا ؛ قال تعالىٰ ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف : ١٦٨] ، وقال تعالىٰ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال ٣٣] .

ومن أراد أن ينظرَ إلىٰ ما صَرَفَ اللهُ تعالىٰ عنه من المعاصي والجرائم والأمراض . . فلْيواظبْ دخولَ بيت الوالي والبيمارستان ؛ فجميعُ ما يراه في بيت الوالي من الجرائم والبيمارستان من الأمراض . . فالعبد مُعرَّضٌ للوقوع فيه ، أو مُعرَّضٌ للابتلاء به ، فكم تنظرُ العينُ إلىٰ ما حَرَّمَهُ اللهُ عليها ! وكم تسمع الأُذُنُ كذلك ! وكم ينطق اللسانُ بما حَرَّمَ عليه كذلك ! وقد تبطش اليدُ وتمشي الرِّجْلُ إلىٰ فِعْلِ ما نُهيتْ عنه ، وكم وكم وكم من أعضاء الرأسِ إلىٰ أصابع الرِّجْلين !

وكان سيدي إبراهيمُ المتبوليُّ يقول : (تفقَّدوا أعضاءكم كلَّ يوم :

فكم صَرَفَ اللهُ تعالىٰ عن الرأس من الضارب ، والشقيقةِ ، والصُّداعِ الحارِّ والبارد !

وكم صَرَفَ اللهُ عنه القرع الذي يُدوِّدُ منه الرأسُ !

وكم صرف عنه من الرمد ، وحرقانِ الجفون ، ونَتْفِ الأهداب ، وعورِها ، وخروجِها بضربة حتىٰ تصيرَ مدلَّاةً على الخدِّ !

وكم صَرَفَ عنها من الدودِ الذي يُخلَق في أجفانها حتىٰ تصيرَ أجفانُهُ

تغلي عليه من أكل الدود ليلاً ونهاراً، ولا يستطيعُ أن يوصلَ إليه شيئاً من الدواء !

وكم صَرَفَ عن الفم والأنف من الحبّ ، والأَكَلَةِ التي تأكل العضوَ حتىٰ يصيرَ طاقةً والقيحُ والصديد يتقاطر منه ، ونفرتْ منه زوجتُهُ التي يُحبُّها من تشويه خِلْقتِهِ !

وكم دوَّدَتْ أذنٌ ولم يستطعْ أحدٌ يخرج الدودَ منها !

وكمِ انفتحتْ في الرقبة عُقَدٌ بلغميَّةٌ ، وإن خُتِمتْ من موضع انفتحتْ من موضعٍ آخرَ ، وصار يحسُّ بالفتيلة كأنها مسمارٌ يدخل في عنقه !

وكم طلع في الباط والصدرِ والبِزِّ من خراجاتٍ حتىٰ دوَّدت وصارت طاقةً !

وكمِ ابتُلي إنسان بالفِتاق والفِتاقين والقُولَنج حتىٰ يتمنى الموتَ فلا يُجاب[1] !

وكمِ ابتُلي العبدُ بالحَصَاة ، والبواسير ، وحَرَقان الدُّبُرِ ، وطلوع الخَرَّاجات فيه حتىٰ تصيرَ طاقةً يشدُّ فيها المشاقَّ والشراميطَ[2] ؛ خوفاً من خروج العذرة !

وكم طلعتْ في دُبر إنسانٍ بواسيرُ من داخل السفرة حتىٰ تمنَّى الموتَ !) .

وقد بسطنا الكلامَ علىٰ ذلك في كتاب « العهود المحمدية » في باب الشكر ، فراجعه[3] ، **والحمد لله ربِّ العالمين** .

---

(١) القُولَنج : مرض معوي يصعب معه خروج البراز والريح ، وسببه : التهاب القولون . « المعجم الوسيط » (ق ول) .

(٢) المشاقُّ : الثياب الخَلقة ، والشراميط : خِرق الثياب .

(٣) لواقح الأنوار القدسية (٢/ ١١٥) .

[جمعُ الله تعالىٰ للمؤلف سائرَ الأخلاق المذكورة في هـٰذا الكتاب]

ومما أنعم الله به عليَّ كونُهُ تعالىٰ جمع فيَّ سائرَ الأخلاق المذكورةِ في هـٰذا الكتابِ ، وقَلَّ أن تجتمعَ الآن في مريد من أهل هـٰذا الزمانِ ، وإن شككتَ في قولي هـٰذا ؛ فاعرضْ سائرَ الأخلاق التي ذكرتُها لك علىٰ حال أعظمِ مريد يكون في مشهدك . . تجدْهُ يُخِلُّ بكثير منها ، مع أن كلَّ خُلُق من هـٰذه الأخلاقِ له أخواتٌ لا تُحصىٰ ؛ قال الله تعالىٰ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

واعلمْ يا أخي أنني لم أذكرْ لك من أخلاق العارفين في هـٰذا الكتابِ إلا ما سبق به القلمُ من غير قصدٍ مني ، وكلَّ ما فيه إنما هو من أخلاق المريدين كما مرَّتِ الإشارةُ إليه في خطبة هـٰذا الكتاب[1] ، لـٰكن إذا كان في الأجل فُسْحةٌ وتخلَّقَ الإخوانُ بهـٰذه الأخلاق كلِّها ، وطلبوا التخلُّقَ بأخلاق العارفين . . ذكرتُ لهم منها نبذةً صالحةً إن شاء الله تعالىٰ

ولو أنني ذكرتُ للإخوان بعضَ أخلاقٍ من أخلاق العارفين لانبهرَتْ عقولُهم ، وإذا كان بعضُ العلماء يقول عن أخلاق المريدين : (هـٰذه أخلاقٌ لا تكونُ إلا للأنبياء) كما مرَّتِ الإشارةُ إليه في خطبة الكتابِ . . فكيف حالُهُ إذا ذكرنا له أخلاقَ العارفين ؟!

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يقول (أخلاقُ الكُمَّل علىٰ عدد الأخلاق التي أَمَرَ اللهُ تعالىٰ بها الأنبياءَ عليهمُ الصلاة والسلام ، فلا بدَّ لكل

---

(١) انظر (ص٩٤)

كامل من التخلُّقِ بها جميعِها بحكم الإِرْثِ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وسمعتُهُ مرَّاتٍ يقول : (من أراد أن يعرفَ أخلاقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على التفصيل . . فلينظرْ إلى القرآنِ) .

ويؤيدُهُ قولُ عائشةَ رضي الله عنها لمَّا سُئِلتْ عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإنها قالت : « كانَ خُلُقُهُ القرآنَ »[1] ، وكذلك الكُمَّلُ من ورثته يكون لهمُ التخلُّقُ بجميع أخلاقِ القرآنِ إلا ما استُثني شرعاً مما هو خاصٌّ برسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ .

[مطلبٌ
في جمع الله تعالىٰ له قراءةَ الحديث في جميع أيام السنة]

ومما جمعَهُ اللهُ تعالىٰ في زاويتي : قراءةُ الحديث النبويِّ في جميع أيامِ السنةِ ، لا ينتهي كتابٌ إلا ونبتدئُ في كتاب ؛ إمَّا في الترغيب والترهيب ، وإمَّا في أدلة الأئمةِ المجتهدين ، وهـٰذا لا يوجد في زاوية من زوايا مصرَ

[مطلبٌ
في عدم تخلف فقير عن قراءة الوِرْد في الزاوية]

ومما جمعَهُ اللهُ تعالىٰ لي أيضاً : عدمُ تخلُّفِ فقير عن قراءة الوِرْدِ ؛ من صغير أو كبير ، وتعاقُبُهم في الذِّكْر طولَ الليل إلى الفجر

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٦/ ٩١)

[مطلبٌ

في إرسال شخص يُسمعُ الشيخَ القرآن أول الثلث الأخير من الليل]

ومما منَّ اللهُ به علينا في الزاوية : إرسالُ شخص اسمُهُ الشيخ محمدٌ التِّرْساويُّ يُسمعُني القرآنَ أولَ الثلث الآخر من الليل ، وكذلك الشيخُ منصورٌ يوقظ الفقراءَ من حينِ يُنصَبُ الموكبُ الإلهيُّ في الليل ، لا يكاد ينسىٰ ذلك ليلةً واحدةً ، وهٰذا من أعظم نِعَمِ الله على الفقراء ؛ ليفوزوا بالوقوف بين يديِ الله في الظلام ، لتُنشرَ لهم يومَ القيامة الأعلامُ

[مطلبٌ

في جمع الله تعالىٰ للشيخ تأليفَ كتب الشريعة وإقراءَها ، وغير ذلك]

ومما جمعَهُ اللهُ فيَّ تأليفُ كتب الشريعة وإقراؤها ، وقضاءُ حوائج الناس ، وكتابةُ العلم ، ومراسلات الأمراء ومشايخ العرب ، وخدمةُ الفقراء ، وغيرُ ذلك ، وأعطاني اللهُ تعالىٰ سبعينَ وظيفةً في طريق الولاية لم يأذن لي بذِكْرها ، فالحمد لله ربِّ العالمين

[تفويضُهُ جميعَ أموره الظاهرة والباطنة إلى الله تعالىٰ

وعدمُ اعتماده علىٰ أعماله]

ومما أنعمَ الله به عليَّ عدمُ اعتمادي علىٰ شيء من أعمالي دون فَضْلِ الله تعالىٰ ، سواءٌ كان بناءَ مسجد أو حفرَ بئر أو تأليفَ كتاب ونحوَ ذلك ؛ فلو جاء شخصٌ من أعدائي وهدمَ ذلك المسجدَ ، أو رَدَمَ تلك البئرَ ، أو غسل ذلك المؤلَّفَ . لم أتأثَّرْ علىٰ ذلك ، ولو بلغتُ في بناء

المسجد أو تحريرِ ذلك الكتابِ الغايةَ ؛ فإن العبدَ من حينِ يُهدي إلىٰ حضرة الله تعالىٰ ما أجراه علىٰ يديه . . فقد ردَّ الأمانةَ إلىٰ أهلها ، وصاحبُها يفعل فيها بعد ذلك ما شاء

وأيضاً فإن الشارعَ صلى الله عليه وسلم قد جعلَ مدارَ نفع الأعمال كلِّها على النية الصالحةِ ، فإذا حصلتْ فقد حصلَ النفعُ به ، سواءٌ أَعَمِلَ الناسُ بذلك الكتابِ وانتفعوا به وبذلك المسجدِ أو البئر أو لم ينتفعوا

ونظيرُ ذلك : ما إذا كذَّبَ نبيّاً قومُهُ كلُّهم أو بعضُهم ولم يعملوا بشريعته . . يكتبُ الله تعالىٰ له ثواباً مثلَ ثواب مَنْ آمنَ به قومُهُ ؛ وذلك لأنه كان يودُّ أن قومَهُ كلَّهم أطاعوه ؛ فأعطاه اللهُ تعالىٰ ما كان في نيَّته ، وأيضاً : فإن مَنْ لم يُؤلِّفْ كتاباً علىٰ وجه الاحتسابِ . . فلا ثوابَ له عند الله تعالىٰ .

وسمعت سيدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول (من شرط العاملِ لله احتساباً ألا يطلبَ منه ثواباً ؛ لأن طالبَ الثواب إنما هو أجيرٌ يعمل بالأجرة الأخرويَّةِ ، فهو كمن يعملُ بالأجرة الدنيويَّةِ علىٰ حدٍّ سواء) انتهىٰ

وكان رضي الله عنه يقول : من أدب المؤلِّف ألا يتعبَ في تحرير كتابِهِ ، ولا في الاعتناءِ بالفصاحة فيه ؛ هروباً من مضاهاة كلامِ الشارعِ صلى الله عليه وسلم .

ثم بتقدير اعتنائِهِ بتحريره والفصاحةِ فيه . . فلا بدَّ فيه من وقوع غفلةٍ وسهوٍ وتركِ شرط في المسألة ونحوِ ذلك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

فعُلِمَ : أنه ما سَلِمَ من التناقض كتابٌ ، وأنَّ عدمَ التناقض خاصٌّ بما جاء من عند الله تعالىٰ ؛ كالكتاب والسنةِ لا غيرُ ، والحمد لله ربِّ العالمين

[عدمُ معاجلة الله له بالعقوبة ، وكثرةُ حِلْمِ الله تعالىٰ عليه]

ومما منَّ اللهُ به عليَّ وتفضَّلَ كثرةُ حِلْمِهِ عليَّ ، وعدمُ معاجلتي بالعقوبة علىٰ شيء من ذنوبي التي لا تُحصىٰ عدداً ، مع أني قد استحقَّيتُ عند نفسي خسفَ الأرض بي والمسخَ لصورتي لولا حِلْمُهُ تعالىٰ وإمهالُهُ ، وهـٰذه النعمةُ المباركةُ من أعظم ما منَّ الله تعالىٰ به عليَّ بعد نعمة الإسلام والعافية ؛ كما ورد مرفوعاً « سلُوا اللهَ العفْوَ والعافيةَ ؛ فإنَّهُ ما أُعطِيَ عبدٌ في الدنيا بعدَ الإسلامِ مثلَهما »[1]

وبهـٰذه النِّعمةِ يكون ختامُ الكتاب ؛ إذ هي أكبرُ نعمةٍ يجبُ على العبد الاعترافُ بها ؛ لأنها مَحَطُّ رِحال الأولين والآخرين ، وفي الحديث : « لا يدخلُ أحدٌ الجنَّةَ بعملِهِ » ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أنْ يتغمَّدَني اللهُ برحمتِهِ »

وكان سيِّدُ الطائفة أبو القاسم الجنيدُ رحمه الله يقول : (ينبغي للعبد أن يختمَ أعمالَهُ كلَّ وقتٍ بالاستغفارِ ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣]) انتهىٰ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٥١) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه بلفظ : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة ، فإنه ما أوتي عبدٌ بعد يقين خيراً من معافاة » ، وهو عند الترمذي والمنذري وأحمد بألفاظ متقاربة ، منها : « سلوا الله العفو والعافية ، فإنَّ أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية » .

وتقدَّمَ قولُهُ أيضاً في مقدمة الكتاب : (لا يبلغُ العبدُ كمالَ الشكر لله تعالىٰ حتىٰ يرىٰ نفسَهُ أنها ليستْ بأهلٍ أن تنالَها رحمةُ الله عز وجل)[1] ؛ يعني : وإنما رحمةُ الله لها من باب المنَّةِ والفضلِ ، وفي القرآن العظيمِ : أن يوسفَ عليه السلام قال ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١]

فذكر ما أنعمَ اللهُ به عليه ؛ قياماً بواجب الشكر له تعالىٰ ، ثم خافَ أن يكونَ ذلك استدراجاً من حضرة الإطلاقِ التي يفعلُ اللهُ منها ما شاء ، فسألَ ربَّهُ أن يتوفَّاه مسلماً ويُلحقَهُ بالصالحين ، هٰذا مع كونه معصوماً ، ولٰكن من شأن الخواصِّ أن يهضموا نفوسَهم بين يدي الله عز وجل ، لا سيما عند الانتقالِ من هٰذه الدارِ ؛ فإن ذلك متعيِّنٌ ، ولكلِّ وقت حالٌ يناسبُهُ ، كما أن اللائقَ بمن وقعَ في معصية أن يقول : (سبحانَ الحليمِ) ، أو (لا إلٰهَ إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين) ، أو (أستغفرُ اللهَ العظيمَ) ، ونحوَ ذلك ، ولا يناسبه قراءةُ نحوٍ ولا أصول ولا فروعِ فقهٍ عاطلة ، فافهم .

ولا تظنَّ يا أخي : أن قولي عن نفسي : (إني قد استحقَّيت الخسفَ بي لولا حِلْمُ الله تعالىٰ) . . تواضعٌ مني ، وهَضْمٌ لنفسي ، وإنما ذلك قولٌ بحقٍّ وصدق ؛ فإن اللهَ تعالىٰ قد خَسَفَ بقوم كانوا أقلَّ منَّا ذنوباً ؛ فروى الإمام أحمدُ والبزارُ مرفوعاً « بينَما رجلٌ ممَّنْ كانَ قبلَكم خرجَ في بُرْدَينِ

(١) انظر (ص١١١) .

أخضرَينِ يختالُ فيهما . . إذْ أمرَ اللهُ تعالى الأرضَ فأخذَتْهُ ، فهوَ يتجلْجلُ فيها إلىٰ يوم القيامةِ »(١)

وروى البزارُ ورواتُهُ رواةُ الصحيح مرفوعاً « أنَّ رجلاً كانَ في حُلَّةٍ حمراءَ يتبختَرُ أو يختالُ فيها ؛ فخَسَفَ اللهُ بهِ الأرضَ ، فهوَ يتجلْجلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »(٢)

وروى الشيخانِ مرفوعاً : « بينَما رجلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعجبُهُ نفْسُهُ . . إذْ خسفَ اللهُ تعالىٰ بهِ الأرضَ ، فهوَ يتجلجلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »(٣)

وفي « البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن ذلك كان في زُقاق أبي لهبٍ بمكةَ ، وممن رآه حين خُسِفَ به العباسُ بنُ عبد المطلب رضي الله عنه)

وروى الترمذيُّ وغيرُهُ مرفوعاً : « يبيتُ قومٌ علىٰ لهوٍ ولعبٍ ؛ فيصبحُون وقد مُسِخوا قِردةً وخنازيرَ »(٤) ، وفي رواية للترمذيِّ : « يبيتُ قومٌ علىٰ لهوٍ ولعبٍ ؛ إذْ خَسَفَ اللهُ بأوَّلِهم وآخرِهم »(٥)

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٤٠) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، مسند البزار (٩٠١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البزار كما في « كشف الأستار » (٢٩٥٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) صحيح البخاري (٥٧٨٩) ، صحيح مسلم (٢٠٨٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أصله في « صحيح البخاري » (٥٥٩٠) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « مسنده » (٥/ ٢٥٩) وأبو داود الطيالسي (١٢٣٣) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٥) سنن الترمذي (٢١٨٤) بدون ذكر « يبيت قوم على لهو ولعب » عن السيدة صفية رضي الله عنها .

فانظرْ يا أخي إلىٰ هـٰذه الأمورِ التي وقعَ الخسفُ بأهلها . . تجدْها دون ذنوبنا بيقين ، فلا يستبعدُ وقوعَ الخسف به في هـٰذا الزمانِ المباركِ الحال . . إلا كلُّ غافل عن الله وعن العملِ بأحكامِهِ والأدبِ معه

ووالله ، ثم والله ، ثم والله ؛ لو ذاقَ أحدُنا شيئاً من الأدب والحياءِ مع الله تعالىٰ لوجدَ ذنوبَهُ من كثرتها لو أنها قُسِمتْ علىٰ جميع أهل الأرض لاستحقُّوا بها الخسفَ والهلاكَ ، ولـٰكن سبحانَ من سبقتْ رحمتُهُ غضبَهُ

ويؤيدُ ما قلناه : قولُهُ صلى الله عليه وسلم في ماعزٍ : « لقد تابَ توبةً لو قُسِمتْ علىٰ أهلِ الأرضِ لوسعَتْهم »(١) ، فكما كانت التوبةُ من بعض الناس إذا قُسِمتْ علىٰ أهل الأرض تَسَعُهم . . فكذلك القولُ في الذنب الواحدِ من بعض الناس لو قُسِم علىٰ جميع أهلِ عصرِهِ لكفاهم سوءاً ومقتاً

وإيضاحُ ذلك : أن من أطاعَ اللهَ تعالىٰ فقد أحسنَ إلىٰ جميع الخَلْق ، ومن عصى اللهَ تعالىٰ فقد أساء علىٰ جميع الخَلْقِ ، كما يعرف ذلك الكُمَّلُ من العارفين ، فلا يتعقَّلون قط أنه نزل علىٰ أحد من أهل إقليمِهم بلاءٌ إلا بواسطة ذنوبهم دون ذنوب ذلك الأحدِ ، حتىٰ يكادُ يذوب من الخجل والحياءِ من الله تعالىٰ ومن خَلْقِهِ ؛ لحجابه عن شهود ذنوبِ الناس ؛ فيرىٰ أنهم أُخذوا به فقط ، وذنوبُ غيره كلُّها مغفورةٌ

وقد ذقتُ هـٰذا المقامَ ولله الحمدُ وِراثةً عن سيدي عليٍّ الخواصِ رحمه الله تعالىٰ وعن سيدي عليٍّ الضرير النَّبْتيتيِّ ، وصاحبُ هـٰذا المشهدِ

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥/ ٢٢) عن سيدنا بريدة رضي الله عنه .

لا يصير له رأسٌ تُرفع بين الناس ، بل يستحيي أن يجالس أحداً من المسلمين ، لا سيما في المحافل

وقد قدَّمْنا في هـٰذا الكتابِ أن مالكَ بنَ دينار كان يستحيي أن يرفع رأسَهُ عن الأرض ، وأنه كانت السحابةُ تمرُّ عليه وهو يُملي الحديثَ فيقطعُهُ ويقول : اصبروا حتىٰ تمرَّ هـٰذه السحابةُ ؛ فإني أخاف أن يكونَ فيها حجارةٌ ترجُمنا بها[1] ، وأنهم طلبوه مرَّةً ليخرجَ معهم للاستسقاء فقال لهم أخاف أن تُمطروا حجارةً بسببي ، ولم يخرجْ معهم رضي الله عنه .

وكذلك كان السريُّ السَّقَطيُّ رضي الله عنه في الخوف ، وكان إذا استيقظ من نومه يمسح وجهَهُ بيده ، فقيل له في ذلك ، فقال أخاف أن يكونَ اللهُ تعالىٰ قد مسخَ صورتي صورةَ خنزير وأنا نائم عن حضرته

وكان يقول أشتهي أن أموتَ في بلد غيرِ بغدادَ ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخاف ألا يقبلَني قبري فأفتَضِحَ ويسيءَ الناس ظنَّهم بأمثالي[2]

وكانت المرآةُ لا تُفارقه ، فينظر فيها وجهَهُ ويقول : أخاف أن يكونَ وجهي قد اسودَّ من سوء ما أتعاطاه[3] ، وكثيراً ما كان ينظر في طاقة أنفه إذا فَقَدَ المرآةَ رضي الله عنه

وتقدم في هـٰذا الكتاب أيضاً عن سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه أن جماعةً سألوه كرامةً تُقوِّي اعتقادَهم فيه ليأخذوا عنه الطريقَ ،

---

(١) الذي ورد عنه (ص٣٥٥) قوله : (والله ؛ لو اطلعتم على زلاتي لرجمتموني) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص١١٤) ، ورواه من طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/ ١٨٢) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة القشيرية » (ص١١٣) .

فقال : يا أولادي ؛ وهل ثَمَّ كرامةٌ لعبد العزيز في هٰذا الزمانِ أعظمُ من أن الله تعالىٰ يُمسِك به الأرضَ إذا مشىٰ عليها ولا يخسفُها به وقد استحقَّ الخسفَ من سنينَ ؟! انتهىٰ .

وهٰذا الذي ذكرتُهُ عن السري السقطيِّ ، وعن سيدي عبدِ العزيز الدِّيرينيِّ رضي الله عنهما . . هو صورةُ حالي أيضاً بحمد الله تعالىٰ ، وما أرىٰ جميعَ ما اطلعت عليه من العلوم والأسرار ، أو عملتُهُ من الطاعات والخيراتِ . . إلا في كفَّةِ السيئات يومَ القيامة ، وإنما نشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلك من حيث الاسمُ فقط ، ولو قُدِّرَ أنني رأيت أني ناجٍ في بعض الأوقات فإنما ذلك غرورٌ بنفسي أو استدراجٌ

وقد سبقني إلىٰ نحوِ ذلك الحسنُ البصريُّ رضي الله عنه ؛ فكان يقول (والله ؛ لو حلف حالفٌ أن أعمالَ الحسن البصريِّ أعمالُ مَنْ لا يؤمن بيوم الحساب . . لقلتُ له : صدقتَ يا أخي ، فلا تُكفِّر عن يمينك) انتهىٰ .

ومن المشهور عن سيدي الشيخِ عبدِ القادر الجِيليِّ رضي الله عنه أنه قال : (قدمي هٰذه علىٰ رقبة كلِّ وليٍّ لله تعالىٰ)[1] ، من باب التحدث بالنعمة ، ثم لما حضرتْهُ الوفاةُ بكىٰ وقال ليت أمي لم تلدْني ، وكانت رأسُهُ علىٰ مِخَدَّةٍ فقال أنزلوا رأسي من على المِخَدَّةِ وضعوها على الأرض ، فذلك هو الحقُّ الذي ينتهي أمرُ العبيد إليه ، فلعلَّ الله تعالىٰ يرحمُ ذُلِّي بين يديه . انتهىٰ

---

(١) انظر « نشر المحاسن الغالية » (ص٢٨٣)

فكان في ختامي لهـٰذا الكتاب بهـٰذه النعمة تأسٍّ بسيدي عبد القادر رضي الله عنه

وكذلك وقـع لإمامنا الشافعيِّ رضي الله عنه أنه كان ينشد حالَ صحته[١] [من الوافر]

ولـولا الشِّعـرُ بـالعلمـاءِ يُـزْري ... لَكُنـتُ اليـومَ أَشْعـرَ مِـنْ لَبيـدِ
وأَشْجعَ في الوغَىٰ مِنْ كلِّ لَيْثٍ ... وآلِ مُهَلَّـبٍ وأبـي يَـزيـدِ
ولـولا خشيـةُ الـرَّحمـٰنِ ربِّـي ... حسبـتُ النـاسَ كلَّهـمُ عَبيـدي

ثم لمَّا دنتْ وفاتُهُ سئل كيف حالُك يا أبا عبد الله ؟ فقال : كيف حالُ مَنْ أصبح من الدنيا راحلاً ، ولأهلها مُفارقاً ، ولسوء عملِهِ مُلاقياً ، ثم أنشد[٢] [من الطويل]

ولمَّا قسَا قلبي وضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ رجائي نحوَ عفوِكَ سُلَّمَا
تَعـاظَمَنـي ذنبـي فلمَّـا قَـرَنْتُـهُ ... بعفوِكَ ربِّي كانَ عفوُكَ أعظَمَا
فذنبي عظيمٌ مِنْ قديمٍ وحادثٍ ... وعفوُكَ يا ذا الجودِ أعلىٰ وأجسمَا

فعُلِمَ مما قررناه أنه ينبغي للمؤمن أن يكونَ له عينانِ ؛ لينظرَ بهما إلى الله تعالىٰ بعين الرجاءِ والخوفِ ، وأنه لولا أمرُ الله تعالىٰ عبدَهُ بشكره علىٰ ما أعطاه . . لَمَا تجرَّأ علىٰ ذكر شيء من المفاخر والمآثرِ ؛ لعدم الأمانِ من السَّلْب وسوءِ الخاتمة

---

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص٧٣) ، وفيه : (بني) بدل (أبي)
(٢) ديوان الإمام الشافعي (ص١٠٧)

وليكنْ ذلك آخرَ ما أراد اللهُ تعالىٰ لنا إظهارَهُ من نِعَمِهِ علىٰ وجه الشُّكْرِ له تعالىٰ ، وبقي نِعَمٌ كثيرةٌ لم يُؤذنْ لنا في ذِكْرِها في هـٰذه الدارِ ، وسوف تظهرُ في الآخرة إذا مِتْنا على الإسلام إن شاء الله تعالىٰ ، آمين .

وقد جَلَوت عليك يا أخي جملةً صالحةً من أخلاق المُريدين الصادقين ؛ ففتشْ نفسَكَ ، فما وجدتَ نفسَك قد تخلَّقَتْ به فاشْكرِ اللهَ تعالىٰ عليه ، وما وجدتَها لم تتخلَّقْ به فاسْتغفرِ الله تعالىٰ وجُدَّ في الطلب ؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت ٦٩] .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

قال المؤلف وكان الفراغُ من كتابة هـٰذا الكتابِ علىٰ يد منشئِهِ[1] عبدِ الوهاب بن أحمدَ الشعرانيِّ الشافعيِّ . . في مستهلِّ ربيع الأول ، سنة تسعٍ

(١) جاء في النسخة (ب) : (وكان الفراغ من كتابة هـٰذا الكتاب علىٰ يد منشئه سيدنا ومولانا وقدوتنا إلى الله تعالى ، القطب الرباني والعارف الصمداني عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي ، في مستهل ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسع مئة بمصر المحروسة)

وفي (د ، و ، ز) : (وكان الفراغ من كتابة هـٰذا الكتاب علىٰ يد منشئه القطب الرباني والعارف المحقق الصمداني ، صاحب المواهب اللدنية والمعارف الصمدانية ، شيخ مشايخ الإسلام ، وسيد سادات العارفين الكرام ، صاحب الكرامات الظاهرة ، والأفعال الفاخرة ، صاحب الفتح المشرق ، والكشف المخرق ، صاحب التصدر في مواطن القدس ، والترقي في مراقي الحقائق والأنس .

صاحب الباع الطويل في التصريف النافذ ، صاحب اليد البيضاء في أحكام الولاية ، صاحب القدم الراسخ في درجات النهاية ، صاحب الطور السامي في الثبات والتمكين .

وهو أحد من ملك أسراره ، وقهر أحواله ، وغلب علىٰ أمره .

وهو عامود هـٰذه الطريق ، وصدر أوتادها ، وأكبر أئمتها ، وعين أعيان علمائها علماً وعملاً وقالاً وحالاً ، وزهداً وتحقيقاً ، وحِلْماً وصفحاً وجوداً .

من أظهره الله تعالىٰ إلى الوجود ، وصرَّفه في الكون ، ومكَّنه من التصريح بالمغيبات ، وأطلعه الله تعالىٰ علىٰ ما مضىٰ وما هو آت ، وخرق له العوائد ، وقلب له الأعيان ، وأظهر علىٰ يديه العجائب ، وأجرىٰ علىٰ لسانه الفوائد ، ونصبه قدوة للطالبين حتىٰ تلمذ له جماعة من أهل الطريق ، وانتمىٰ إليه خلق من الصلحاء والأولياء ، واعترفوا بفضله وأقروا بمكانته ، وقصد بالزيارة من سائر الأقطار ، وحل مشكلات أحوال القوم ، =

وخمسين وتسعِ مئة بمصرَ المحروسةِ(١)

وصلى اللهُ علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّمَ ، وحسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيمِ ، أستغفرُ اللهَ من كلِّ ذنب يعلمُهُ الله(٢)

* * *

= سلطان المحققين ، وشمس دائرة المعارف والمقربين)

وتفردت النسخ (د ، هـ ، و) بزيادة : (صاحب الإشارات الملكوتية ، والنفحات القدسية ، والأنفاس الروحانية ، صاحب البصائر الخارقة ، والسرائر الصادقة ، والمعارف الباهرة ، والحقائق الزاهرة ، له المحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس ، والمورد العذب من مناهل الوصل ، والطود الأعلىٰ في معارج الدنو ؛ شيخنا في الباطن والظاهر ، وسرنا في الأول والآخر ، ومُربِّينا في الأصلاب والمناظر ، وقدوتنا إلىٰ أشرف الحضائر ، ومحبوبنا في سائر الأطوار والمفاخر ، وأستاذنا في سائر الأقوال والأفعال والمآثر ، ومطلوبنا في سائر الأحوال والمظاهر ؛ سيدنا ومولانا ، العارف بالله تعالى القطب الرباني سيدي)

ثم اجتمعت النسخ (هـ ، و ، ز) : (عبد الوهاب الشعراني بن أحمد الشافعي في مستهل ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسع مئة بمصر المحروسة) .

(١) في (و) زيادة (نفع الله بذلك كاتبَه وقارئه وجميع من يطالع فيه ، إنه علىٰ ما يشاء قدير ، وبعباده لطيف خبير ، ونسأل الله من فضله أن يتولىٰ أمورنا في الدنيا والآخرة ، آمين اللهم آمين)

(٢) في هامش (أ) : (بلغ مقابلة على النسخة المنقول عنها حسب الطاقة) .

خواتيم النسخ الخطية

خاتمة النسخة (أ)

بأصله ما صورته : ووجد بخط مصنفه علىٰ أصله في آخر الكتاب ما صورته

الحمد لله رب العالمين ، بلغ الأخ الصالح العالم العلامة الفقيه الصوفي النحوي الأصولي الشيخ نور الدين النجاري الأزهري نفع الله بعلومه قراءةً لهـٰذا الكتاب من أوله إلىٰ آخره ، وأَذِنْتُ له أن يقرئه ويفيده لـمن يراه أهلاً لذلك ، وهـٰذه مُسَوَّدَةٌ ، وقد بَيَّضتُها وزدت فيها أماكنَ كثيرة بحمد الله تعالىٰ ، فالحمد لله رب العالمين ، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء المبارك ، خامس جمادى الأولىٰ ، سنة ستين وتسع مئة ، بمنزلي بالمدرسة القادرية بخط بين السورين ، وحضور جماعة ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبأصله أيضاً ما صورته : ووجد بخطه أيضاً علىٰ أصله في آخره ما صورته :

لكاتبه المؤلف ارتجالاً في المنام ، فاستيقظ وهو ينشده تحدُّثاً بنعمة الله عز وجل : [من البسيط]

أحبُّكم لا لشيء في الوجود ولا ... أرجو سواكم ولا أبغي بكم بدلا
يا سادةً غمرونا من فضائلهم ... وألبسوا ذاتنا التيجان والحُلَلا
وصيَّرونا ملوكاً تحت رِقِّهمُ ... حال القناعة واغنونا بلا وبلا
وأخدمونا ملوكاً تحت طاعتنا ... لمَّا خدمنا وقمنا في الدجا ذُلُلا
وخلَّقونا بأخلاق الأكابر من ... عفو وصفح وحِلْم في الوجود ملا

وأقطعونا بلاداً عزَّ مطلبها | خلف البحار وفيها ملكنا حصلا
وشفَّعونا ليوم الحشر في فئة | من الأعادي وأغنوهم عن الخَلَلا
وأقطعونا من الجنات ما عجزت | عنه الملوك وأرخوا دوننا الكِلَلا
والكلُّ من فضلهم قِدْماً لعبدهمُ | فعمَّ فضلهمُ الكونين واتصلا

هٰذا آخر ما وجد بخطه رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه

وكان الفراغ من نسخه في اليوم المبارك بين الظهر والعصر من يوم الخميس الثاني عشر من شهر ربيع الأول الميمون المبارك من شهور سنة إحدىٰ وعشرين وألف من الهجرة النبوية ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، علىٰ يد مُعلِّقه لنفسه ولمن شاء الله تعالىٰ من بعده ؛ الحقير الفقير المعترف بالعجز والتقصير ، [المقر] بالذنوب الصغير والكبير تراب أقدام الفقراء وأقل (   ) الفقير إلىٰ مولاه القوي ، الفقير أحمد بن الفقير معصوم بن الفقير أحمد (   ) المالكي (   ) غفر الله تعالىٰ لوالديه ولمشايخه ولإخوانه ولأقاربه ولجميع المسلمين والمسلمات ، إنه قريب مجيب الدعوات

خاتمة النسخة (ب)

وكان الفراغ أيضاً من تحرير حروف هٰذه النسخة المباركة في اليوم المبارك التاسع عشر من صفر الخير سنة اثنين وعشرين بعد الألف ، علىٰ يد العبد الفقير إلى الله تعالىٰ ، أضعف عباد البارئ ، عبد الجواد درويش بن

يحيى الأنصاري ، الشافعي مذهباً ، الشعراني مريداً وتربيةً ، غفر الله له ولوالديه ومشايخه ، ولـمن دعا لهم بالمغفرة ، ولجميع المسلمين ، آمين آمين آمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً دائماً كثيراً أبد الآبدين ودهر الداهرين ، آمين آمين آمين

خاتمة النسخة (ج)

وكان الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة المباركة يوم الاثنين من شهر جمادى الأولىٰ سنة سبعة عشر وألف ، علىٰ يد أفقر الورىٰ ، خادم نعال الفقراء ، وأحوج عباده إلى العفو والمغفرة ، درويش محمد بن أحمد الوفائي ثم العرياني ، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولمؤلف هـٰذا التحفة ولقارئه ، ولكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، آمين آمين آمين

تمت الكتاب ، تكاملت أيدي السرور لصاحبه ، وعفا الإلـٰه بفضله عن قارئه وكاتبه ، آمين

خاتمة النسخة (د)

ووجد بخط مؤلفه من نسخته ما صورته

لكاتبه المؤلف ارتجالاً في المنام ، فاستيقظ وهو ينشده ؛ تحدثاً بنعمة الله عز وجل :

أحبكم لا لشيء في الوجود ولا أرجو سواكم ولا أبغي بكم بدلا
يا سادة غمرونا من فضائلهم وألبسوا ذاتنا التيجان والحللا

وصيَّرونا ملوكاً تحت رِقِّهمُ حال القناعة واغنونا بلا ولا
وأخدمونا ملوكاً تحت طاعتنا لما خدمنا وقمنا في الدجا ذُللا
وخلَّقونا بأخلاق الأكابر من عفو وصفح وحِلم في الوجود ملا
وأقطعونا بلاداً عزَّ مطلبها خلف البحار وفيها حكمنا حصلا
وشفَّعونا بيوم الحشر في ملأ من الأعادي وأغنوهم عن الخللا
وأقطعونا من الجنات ما عجزت عنه الملوك وأرخوا دوننا الكِلَلا
والكلُّ من فضلهم قدماً لعبدهمُ فعمَّ فضلهم الكونين واتصلا

وكان الفراغ من تحبير هذه النسخة المباركة : في يوم الأربعاء سلخ شهر الحجة من شهور سنة سبع وثلاثين وألف من الهجرة النبوية ، والحمد لله وحده .

خاتمة النسخة (ز)

انتهىٰ نصُّ كلامه بحروفه .

وجد بخط مؤلفه من نسخته ما صورته

الحمد لله رب العالمين ، بلغ الأخ الصالح العلامة الفقيه الصوفي النحوي الأصولي الشيخ نور الدين النجاري الأزهري ، نفع الله بعلومه قراءة لهـٰذا الكتاب من أوله إلىٰ آخره ، وأذنت له أن يقرئه ويفيده لمن يراه أهلاً لذلك ، وهـٰذه مُسَوَّده وقد بَيَّضتها وزدت فيها أماكن كثيرة بحمد الله تعالىٰ ، فالحمد لله رب العالمين ، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء المبارك خامس جمادى الأولىٰ ، سنة ستين وتسع مئة ، بمنزلي بالمدرسة القادرية بخط بين السورين

وحضور جماعة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

ووجد بخط المؤلف في آخر نسخته ما صورته

لكاتبه المؤلف ارتجالاً في المنام ، فاستيقظ وهو ينشده ؛ تحدثاً بنعمة الله عز وجل [من البسيط]

أحبُّكم لا لشيء في الوجود ولا ... أرجو سواكم ولا أبغي بكم بدلا

يا سادةً غمرونا من فضائلهم ... وألبسوا ذاتنا التيجان والحُلَلا

وصيَّرونا ملوكاً تحت رِقِّهمُ ... حال القناعة واغنونا بلا وبلا

وأخدمونا ملوكاً تحت طاعتنا ... لمَّا خدمنا وقمنا في الدجا ذُلُلا

وخلَّقونا بأخلاق الأكابر من ... عفو وصفْح وحِلْم في الوجود ملا

وأقطعونا بلاداً عزَّ مطلبها ... خلف البحار وفيها حكمنا حصلا

وشفَّعونا بيوم الحشر في ملأٍ ... من الأعادي وأغنوهم عن الخَلَلا

وأقطعونا من الجنات ما عجزت ... عنه الملوك وأرخوا دوننا الكِلَلا

والكلُّ من فضلهم قِدْماً لعبدهمُ ... فعمَّ فضلهمُ الكونين واتصلا

* * *

فهرس أهم مصادر ومراجع التحقيق

ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضىٰ الزبيدي الحسيني (ت١٢٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ إحياء علوم الدين ، للإمام المجدد حجة الإسلام الفقيه الأصولي المتكلم أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط١ ، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية

ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي (ت بعد ٢٧٢ هـ) ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، ط٢ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، دار خضر ، بيروت ، لبنان

ـ آداب الشافعي ومناقبه ، للإمام المحدث المفسر أبي محمد عبد الرحمـٰن بن محمد ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق عبد الغني عبد الخالق ، ط١ ، (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

ـ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة ، للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م) ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، سورية ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

ـ البخلاء ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق بسام الجابي ، ط١ ، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م) ، دار الجفان والجابي ، ليماصول ، قبرص . دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

ـ البرهان المؤيد ، لإمام الطريقة الرفاعية العارف بالله أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي

الحسيني (ت٥٨٧هـ) ، تحقيق عبد الغني نكه مي ، ط١ ، (١٤٠٨هـ) ، دار الكتاب النفيس ، بيروت ، لبنان

- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب عبد القادر الكيلاني ، للإمام الفقيه المقرئ أبي الحسن علي بن يوسف اللخمي الشطنوفي (ت٧١٣هـ) ، تحقيق جمال الدين الكيلاني ، ط٢ ، من منشورات النمظمة المغربية للتربية والثقافة والعلوم ، فاس ، المغرب

- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها ، للإمام المحدث الورع أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي (ت٦٩٩هـ) ، ط١ ، (١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م) ، مطبعة الصدق الخيرية ، القاهرة ، مصر

- تاج العروس من جواهر القاموس ، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضىٰ الزبيدي الحسيني (ت١٢٠٥هـ) ، تحقيق عبد الستار فراج وآخرين ، ط١ ، (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

- تاريخ بغداد ، للإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عطا ، ط١ ، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، لإمام الدنيا الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ) ، تحقيق عمرو العمروي ، ط١ ، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان

- التحدث بنعمة الله ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق ماري سارتين ، طبع سنة (١٩٧٢م) ، المطبعة العربية الحديثة ، القاهرة ، مصر .

- تحفة المحتاج ، للإمام الفقيه المفتي المحقق المتفنن شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي المكي (ت٩٧٤هـ) ، بعناية لجنة من العلماء ، طبع سنة (١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م) ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر .

- تذكرة الحفاظ ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي

(ت٧٤٨هـ) ، ط١ ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **تذكرة السامع والمتكلم في آدب العالم والمتعلم** ، للإمام قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة (ت٧٣٣هـ) ، تحقيق محمد العجمي ، ط٣ ، (١٤٣٣هـ) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان

ـ **تشنيف المسامع بجمع الجوامع** ، للإمام الفقيه الأصولي المحقق المتفنن بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) ، تحقيق سيد عبد العزيز وعبد الله ربيع ، ط١ ، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م) ، مكتبة قرطبة ، القاهرة ، مصر

ـ **التعرف لمذهب أهل التصوف** ، للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي (ت٣٨٠هـ) ، تحقيق أحمد شمس الدين ، ط١ ، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

ـ **التعريفات الفقهية** ، لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي (ت١٩٧٥م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، للإمام الشريف المفسر الأصولي المتفنن شهاب الدين أبي الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي الحسيني (ت١٢٧٠هـ) ، تحقيق علي عطية ، ط١ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **تفسير الرازي** ، المسمى « التفسير الكبير » أو « مفاتيح الغيب » ، للإمام المجدد المتكلم المفسر الأصولي فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ) ، ط١ ، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان

ـ تفسير الطبري ، المسمى : « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، للإمام المجتهد المفسر المؤرخ المتفنن أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت٣١٠هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ **تكملة المعاجم العربية** ، للأستاذ رينهارت بيتر آن دوزي (ت١٣٠٠هـ) ، عربه محمد سليم النعيمي وجمال الخياط ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، العراق

- تلبيس إبليس ، للإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، ط١ ، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان
- تهذيب الأسرار ، للإمام العارف الصوفي أبي سعد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخركوشي (ت٤٠٧هـ) ، تحقيق بسام بارود ، طبع سنة (١٩٩٩م) ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات .
- جمع الوسائل في شرح الشمائل ، للإمام الفقيه المحدث المتفنن نور الدين أبي الحسن علي بن سلطان محمد الشهير بملا علي القاري (ت١٠١٤هـ) ، المطبعة المشرفية ، القاهرة ، مصر .
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، للعلامة النحوي البلاغي المتكلم المحقق المتفنن محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت١٢٣٠هـ) ، دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، مصر .
- حاشية الشرواني علىٰ تحفة المحتاج ، للإمام الفقيه المحرر عبد الحميد المكي الشرواني (ت١٣٠١هـ) ، المطبوعة هامشاً لـ « تحفة المحتاج » ، بعناية لجنة من العلماء ، طبعت سنة (١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م) ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر
- حاشية الصاوي على الشرح الصغير ، المسماة : « بلغة السالك لأقرب المسالك » ، للعلامة الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي الشهير بالصاوي المالكي (ت١٢٤١هـ) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
- الحاوي للفتاوي ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، طبع سنة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الحكم العطائية ، للإمام الفقيه الحكيم العارف أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ) ، تحقيق نزار حمادي ، دار الإمام ابن عرفة ، تونس
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) ، ط٥ ، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي الصادرة سنة (١٣٥٧هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ، القاهرة ، مصر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام الحافظ النحوي البلاغي المتفنن جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) ، ط١ ، (١٤٣٣هـ - ٢٠١١م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان

- الدعاء ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق محمد سعيد البخاري ، ط١ ، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

- الدعوات الكبير ، للإمام الفقيه الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق بدر البدر ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، دار غراس ، الكويت

- ديوان البستي ، للشاعر العباسي الأديب أبي الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي (ت٤٠٠هـ) ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط١ ، (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م) ، من منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

- ديوان الشافعي ، للإمام المجتهد أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي المطلبي (ت٢٠٤هـ) ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، ط٢ ، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر

- ديوان علي وفا ، للإمام العارف الرباني علي محمد وفا (ت٨٠٧هـ) ، تحقيق عاصم الكيالي ، طبع سنة (٢٠١٥م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- ذم الدنيا ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت٢٨١هـ) ، تحقيق عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- ذيل مرآة الزمان ، للإمام المؤرخ قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت٧٢٦هـ) ، ط٢ ، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر .

- حاشية ابن عابدين ، المسماة : « رد المحتار على الدر المختار » ، للعلامة المحقق السيد محمد أمين بن عمر ابن عابدين أفندي (ت١٢٥٢هـ) ، طبع سنة (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- **الرسالة القشيرية** ، للإمام الصوفي الأصولي المتكلم الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .
- **روضة الطالبين وعمدة المفتين** ، لشيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) ، تحقيق زهير الشاويش ، ط٣ ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان عمان ، الأردن .
- **الزهد والرقائق** ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك الحنظلي المروزي (ت١٨١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، طبع سنة (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، طبعة مصورة عن طبعة المجلس العلمي في الهند ، لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- **الزهد** ، للإمام الحافظ المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) ، تحقيق محمد شاهين ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان
- **سنن الترمذي** ، للإمام الحافظ أبي عيسىٰ محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عوض ، ط٢ ، (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان
- **سنن أبي داود** ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .
- **السنن الكبرىٰ** ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ) ، تحقيق حسن شلبي ، ط١ ، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- **السنن الكبرىٰ وفي ذيله الجوهر النقي** ، للإمام الفقيه الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، ط١ ، (١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م) ، دائرة المعارف العثمانية النظامية ، حيدر آباد الدكن ، الهند .
- **سنن ابن ماجه** ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني

(ت٢٧٣هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر

ـ **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها** ، للإمام الحافظ المفسر أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ) ، تحقيق رضاء الله المباركفوري ، ط١ ، (١٤١٦هـ) ، دار العاصمة ، الرياض ، السعودية .

ـ **سير أعلام النبلاء** ، للإمام للحافظ المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) ، بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط٣ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ **سيرة ابن إسحاق** ، للإمام النسابة المؤرخ محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت١٥١هـ) ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٤م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **شرح العقائد النسفية** ، للإمام المتكلم الأصولي المتفنن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت٧٩٢هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ **الجامع لشعب الإيمان** ، للإمام الفقيه الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق عبد العلي حامد ، ط١ ، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية الدار السلفية ، بومباي ، الهند

ـ **صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا** ، للإمام الأديب المؤرخ أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت٨٢١هـ) ، تحقيق محمد شمس الدين ، طبع سنة (١٩٨٩م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ **صحيح البخاري** ، المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه » ، لإمام الحفاظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) ، عني به محمد زهير الناصر ، ط٣ ، (١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م) ، مصورة عن الطبعة السلطانية اليونينية ، دار طوق النجاة ، بيروت ، لبنان . دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت٣٥٤هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط١ ، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- صحيح مسلم ، المسمى « المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، المطبعة العامرة ، القاهرة ، مصر ، وتم اعتماد ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي في تحقيقه لطبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- طبقات الأولياء ، للإمام الفقيه الحافظ المتبحر المتفنن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي ابن الملقن المصري (ت٨٠٤هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط١ ، (١٣٧٢هـ)، نشرة جماعة الأزهر للنشر والتوزيع ، مطابع دار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر

- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، للإمام الأصولي قاضي القضاة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ) ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط٢ ، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- طبقات الصوفية ، للإمام الصوفي الحافظ أبي عبد الرحمـٰن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري (ت٤١٢هـ) ، تحقيق نور الدين شريبة ، ط٣ ، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- الطبقات الوسطىٰ ، المسمىٰ « لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية » للإمام الفقيه المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت٩٧٣هـ) ، تحقيق محمد نصار ، ط١ ، (٢٠١٧م) ، دار الإحسان ، القاهرة ، مصر

- عيون الأخبار ، للإمام اللغوي الأديب المؤرخ أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) ، ط٢ ، (١٩٩٦م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

- غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة ، للإمام الأديب برهان الدين أبي إسحاق محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط (ت٧١٨هـ) ، تحقيق إبراهيم شمس الدين ، ط١ ، (١٤٢٩ - ٢٠٠٨م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- غريب الحديث ، للإمام اللغوي المحدث الفقيه أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت٢٢٤هـ) ، تحقيق محمد خان ، ط١ ، (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م) ، دائرة المعارف العثمانية النظامية ، حيدر آباد الدكن ، الهند

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، بعناية محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة السلفية لدىٰ مكتبة الغزالي ، دمشق ، سورية

- فتح القدير ، للإمام القاضي الفقيه محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) ، ط١ ، (١٤١٤هـ) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية . در الكلم الطيب ، بيروت ، لبنان

- الفتوحات المكية ، للشيخ الأكبر سلطان العارفين محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب العربية الكبرىٰ بالقاهرة لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان

- الفردوس بمأثور الخطاب ، للإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو الديلمي (ت٥٠٩هـ) ، تحقيق السعيد زغلول ، ط١ ، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

- فصوص الحكم ، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي ابن عربي الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ) ، تحقيق أبو العلا عفيفي ، طبع سنة (١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م) دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للإمام الفقيه الحافظ زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين القاهري المناوي (ت١٠٣١هـ) ، ط١ ، (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٨م) ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلىٰ مقام التوحيد ، للإمام الزاهد العارف شيخ الصوفية أبي طالب محمد بن علي بن عطية المكي (ت٣٨٦هـ) ، تحقيق محمود الرضواني ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر

ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت٣٦٥هـ) ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ، ط١ ، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ كشف الأستار عن زوائد البزار ، للإمام الحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت٨٠٧هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ط١ ، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، للإمام المحدث علاء الدين علي بن حسام الدين بن قاضي خان المتقي الهندي المدني (ت٩٧٥هـ) ، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا ، ط٥ ، (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، للإمام المؤرخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ) ، تحقيق خليل المنصور ، ط١ ، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ لطائف الإشارات ، للأستاذ الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ) ، تحقيق إبراهيم البسيوني ، ط٣ ، (٢٠٠٠م) ، من منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر

ـ لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن ، للإمام العارف تاج الدين أبي العباس أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندري (ت٧٠٩هـ) ، تحقيق عبد الحليم محمود ، ط٣ ، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر

ـ لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، المشهور بـ« المنن الكبرىٰ » للإمام الفقيه المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت٩٧٣هـ) ، تحقيق معاذ عبد الرحمٰن الهواش ، ط١ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

ـ لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، للإمام الفقيه المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت٩٧٣هـ) ، تحقيق صهيب ملا محمد نوري علي ، ط١ ، (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م) ، دار التقوىٰ ، دمشق ، سورية .

- **المجالسة وجواهر العلم**، للإمام أبي بكر أحمد بن مروان **الدينوري** المالكي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق مشهور آل سلمان، ط١، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان

- **المجموع شرح المهذب**، لشيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ)، تحقيق وتكميل محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية.

- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، للإمام الحافظ عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن أسعد **اليافعي** اليمني (ت٧٦٨هـ)، تحقيق خليل منصور، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

- **المستدرك على الصحيحين**، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله **الحاكم** النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، ط١، (١٣٤٠هـ - ١٩٢١م)، دائرة المعارف العثمانية النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند.

- **مسند الإمام أحمد**، للإمام الحافظ المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن **حنبل** الشيباني (ت٢٤١هـ)، طبع سنة (١٣١٣هـ)، المطبعة الميمنية، القاهرة، مصر

- **مسند البزار**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق **البزار** (ت٢٩٢هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين، ط١، بدأت سنة (١٩٨٨م) وانتهت سنة (٢٠٠٩م)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية

- **مسند الشهاب**، المسمىٰ: « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية » للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر **القضاعي** (ت٤٥٤هـ)، تحقيق حمدي السلفي، ط٢، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

- **مسند الطيالسي**، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن داود **الطيالسي** (ت٢٠٤هـ)، تحقيق محمد التركي، ط١، (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، دار هجر، القاهرة، مصر

- **مسند أبي يعلىٰ**، للإمام الحافظ أبي يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنى **الموصلي** (ت٣٠٧هـ)، تحقيق حسين أسد، ط١، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، دار المأمون للتراث، دمشق، سورية.

ـ **مشكاة الأنوار** ، للإمام المتكلم حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد **الغزالي** الطوسي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق أبو العلا عفيفي ، طبع سنة (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م) ، الدار القومية ، القاهرة ، مصر

ـ **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور** ، أو : « المقصد الأسمىٰ في مطابقة اسم كل سورة للمسمىٰ » للإمام المفسر الأصولي برهان الدين إبراهيم بن عمر **البقاعي** (ت٨٨٥هـ) ، ط١ ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية .

ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** ، للإمام اللغوي أبي العباس أحمد بن محمد بن علي الحموي **الفيومي** (ت نحو ٧٧٠هـ) ، بعناية وتحقيق أيمن الشوا ، ط١ ، (١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م) ، دار الفيحاء ودار المنهل ناشرون ، دمشق ، سورية

ـ **المصنف** ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد **ابن أبي شيبة** العبسي الكوفي (ت٢٣٥هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط١ ، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م) ، دار القبلة ، جدة ، السعودية . مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، سورية .

ـ **المعجم الأوسط** ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق طارق بن محمد وعبد المحسن الحسيني ، ط١ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ، دار الحرمين ، القاهرة ، مصر

ـ **معجم البلدان** ، للإمام الأديب المؤرخ الرحالة الجغرافي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي **الحموي** (ت٦٢٦هـ) ، بعناية المستشرق وستنفيلد ، ط٢ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ **المعجم الكبير** ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي السلفي ، ط٢ ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر .

ـ **معجم اللغة العربية المعاصرة** ، للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت١٤٢٤هـ) ، ط١ ، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) ، دار عالم الكتب ، بيروت ، لبنان

ـ **المعجم الوسيط** ، إعداد إبراهيم مصطفىٰ وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، (مجمع اللغة العربية) ، القاهرة ، مصر . دار الدعوة ، الإسكندرية ، مصر

- **معجم متن اللغة** ، للشاعر الأديب أبي العلاء بهاء الدين أحمد رضا بن إبراهيم العاملي (ت١٣٧٢هـ) ، طبع ما بين سنة (١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م) وسنة (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م) ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان

- **المغازي** ، للإمام القاضي المؤرخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي **الواقدي** (ت٢٠٧هـ) ، تحقيق مارسدن جونس ، ط٣ ، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، دار الأعلمي ، بيروت ، لبنان

- **مغني المحتاج إلىٰ معرفة معاني ألفاظ المنهاج** ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد **الخطيب الشربيني** (ت٩٧٧هـ) ، ط١ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة** ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت٩٠٢هـ) ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، ط١ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

- **مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها** ، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن جعفر **الخرائطي** السامري (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق أيمن البحيري ، ط١ ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، مصر

- **مناقب الشافعي** ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط١ ، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

- **منح الجليل شرح مختصر خليل** ، للعلامة الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد **عليش** المالكي (ت١٢٩٩هـ) ، طبع سنة (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- **منهاج الطالبين وعمدة المفتين** ، لشيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ) ، تحقيق عوض قاسم عوض ، ط١ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ، للإمام المؤرخ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر **المقريزي** (ت٨٤٥هـ) ، ط١ ، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

- **المواقف والمخاطبات** ، للإمام العارف محمد بن عبد الجبار **النفري** (ت٣٥٤هـ) ، تحقيق أرثر يوحنا أربرى ، طبع سنة (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

- **نشر المحاسن الغالية في فضائل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العلية** ، للإمام الفقيه المؤرخ عفيف الدين أبي السعادات أبي محمد عبد الله بن أسعد **اليافعي** المكي (ت٧٦٨هـ) ، تحقيق خليل المنصور ، طبع سنة (٢٠٠٠م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- **الوافي بالوفيات** ، لإمام الأدب النحوي المؤرخ المتفنن أبي الصفاء صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله **الصفدي** الدمشقي (ت٧٦٤هـ) ، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفىٰ ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م) ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، للإمام القاضي المؤرخ الأديب أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم **ابن خلكان** الإربلي (ت٦٨١هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- **اليواقيت والجواهر** ، للإمام الفقيه المربي أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد **الشعراني** (ت٩٧٣هـ) ، طبع سنة (١٣١٧هـ) ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ، مصر .

❋ ❋ ❋

محتوى الكتاب

❁ ❁ ❁